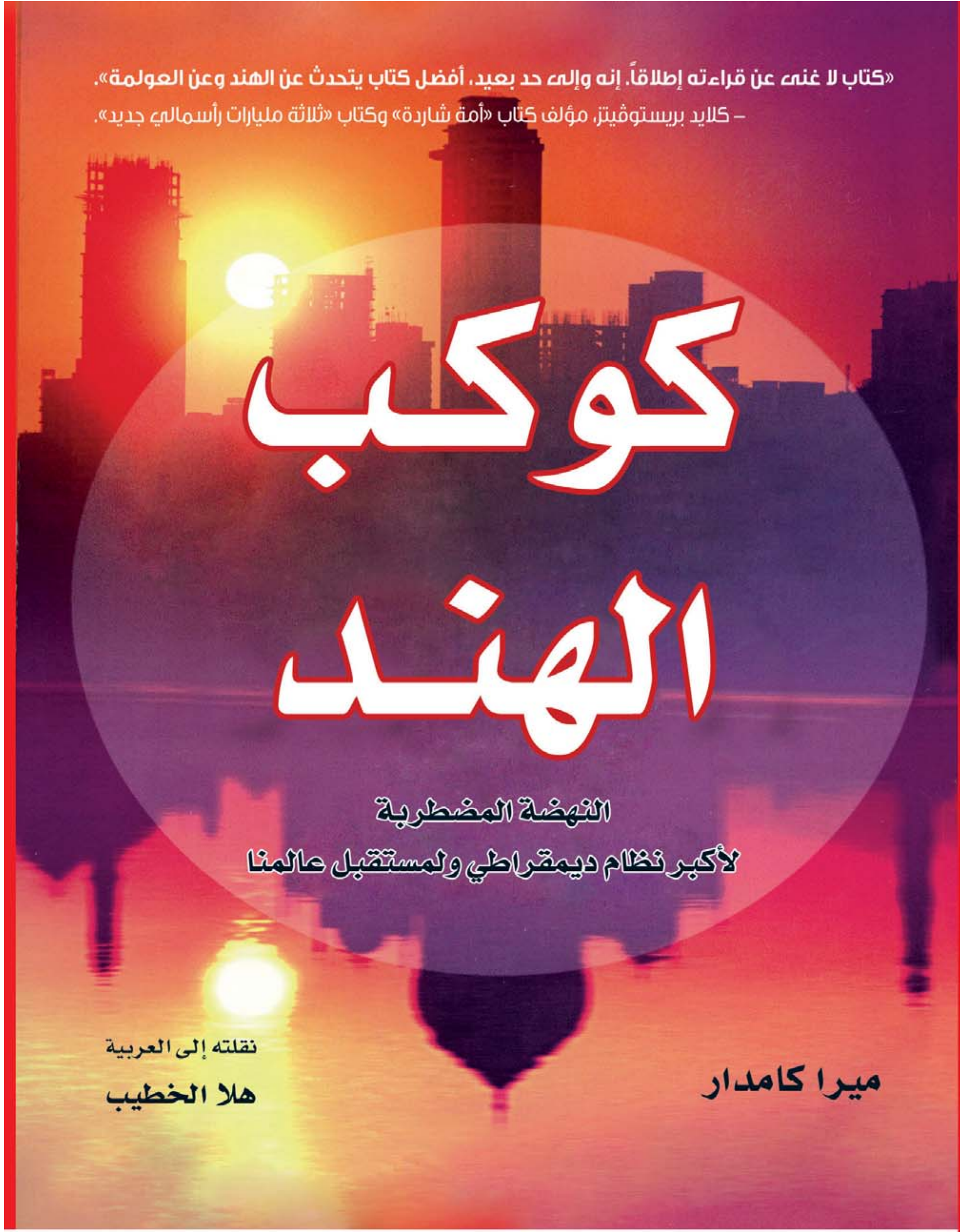

«كتاب لا غنى عن قراءته إطلاقاً. إنه وإلى حد بعيد، أفضل كتاب يتحدث عن الهند وعن العولمة».

– كلايد بريستوفيتز، مؤلف كتاب «أمة شاردة» وكتاب «ثلاثة مليارات رأسمالي جديد».

كوكب الهند

النهضة المضطربة لأكبر نظام ديمقراطي ولمستقبل عالمنا

ميرا كامدار

نقلته إلى العربية

هلا الخطيب

العبيكان Obeikan

كوكب الهند

«كتاب لا غنى عن قراءته إطلاقاً. إنه وإلى حد بعيد، أفضل كتاب يتحدث عن الهند وعن العولمة».

- كلايد بريستوڤيتز، مؤلف كتاب «أمة شاردة» وكتاب «ثلاثة مليارات رأسمالي جديد».

كوكب الهند

ميرا كامدار

النهضة المضطربة لأكبر نظام ديمقراطي ولمستقبل عالمنا

نقلته إلى العربية

هلا الخطيب

العبيكان
Obeikan

Original Title

PLANET INDIA

THE TURBULENT RISE OF THE LARGEST DEMOCRACY AND THE FUTURE OF OUR WORLD

MIRA KAMDAR

Copyright © 2007 Mira Kamdar

ISBN-10: 0-7432-9686-9

ISBN-13: 978-0-7432-9686-[illegible]

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

.Published by arrangement with SCRIBNER, a division of Simon & Schuster, Inc

1230 Avenue of the Americas, New York, NY 10020 (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع سايمون آند سيستر سكرايبنر، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية.

© العبيكان Obeikan 2008 ــ 1429

ISBN: 978 - 9960 - 54 - 896 - 8

الطبعة العربية الأولى 1431 ــ 2010م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية – شارع العليا العام – جنوب برج المملكة – عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1430 .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كامدار، ميرا

كوكب الهند./ ميرا كامدار؛ هلا الخطيب.– الرياض 1430 .

439ص؛ 16.5× 24سم

ردمك: 978 - 9960 - 54 - 896 - 8

1 – الهند – الأحوال الاجتماعية　　2 – الهند – وصف رحلات

أ. الخطيب، هلا (مترجم)　　ب. العنوان

رقم الإيداع: 7222 / 1430　　ديوي: 745،1

ردمك: 978 - 9960 - 54 - 896 - 8　　رقم الإيداع: 7222 / 1430

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية – العليا – تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 – فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر

كلمات في مديح كتاب

«كوكب الهند»

«هذا الكتاب لا غنى عن قراءته إطلاقاً. إنه وإلى حد بعيد أفضل كتاب يتحدث عن الهند وعن العولمة حتى تاريخه، وهو يُعدإضافة إلى ذلك مطالعة ممتعة».

- كلايد بريستوفيتز، مؤلف كتاب «أمة شاردة»،
وكتاب «ثلاثة مليارات رأسمالي جديد».

«جولة سريعة وحافلة بالأحاديث والحوارات عبر المكاتب العامة للشركات التجارية، وستديوهات الأفلام السينمائية، والمزارع والأحياء الفقيرة في الهند. إن كامدار كاتبة ذات أسلوب شيق وجذاب».

- راما تشندرا غوها، صحيفة «فايننشال تايمز».

«يُظهر هذا السرد المكتوب بأسلوب رشيق واضح وبليغ كيف جعلت الأفلام السينمائية، والتكنولوجيا، ومؤسسات صناعة الخدمات في بلد شبه القارة ذاك، من الهند حضوراً متزايداً بشكل مستمر على الساحة الأمريكية».

- مجلة «ذي إتلانتيك» الشهرية.

«يعد كتاب «كوكب الهند»، إضافة ثمينة إلى سلسلة الكتب الجدية، التي يتسارع إصدارها، التي تدور حول الهند في القرن الحادي والعشرين».

- شاشي تارور، صحيفة «تايمز أوف إنديا».

«يشكل كتاب ميرا كامدار الجديد مادة أساسية مفيدة لأي شخص يتطلع إلى تكوين رأي عن هذا البلد المفعم بالحيوية والنشاط، يكون أكثر حداثة مما هو متاح عبر إعادة قراءة مقالات الكاتب في.اس. نايبول النقدية عن الأدب غير الروائي التي تتسم بالسخرية

والازدراء، أو الأعمال الأدبية لرديارد كيبلينغ أو بول سكوت، التي ظهرت في أثناء الحقبة الاستعمارية. وتقوم كامدار بعمل حاذق ومثير للإعجاب بالإمساك بالخيوط المختلفة للتجربة الهندية العصرية، وتسوق حججاً دامغة تدفع للاقتناع بأن الهند تعيش وسط عملية تحول اجتماعي واقتصادي جدي».

- مايكل دايبرت، صحيفة «ميامي هيرالد».

«تأخذ ميرا كامدار التيارات الثقافية والتاريخية المتعارضة للهند، التي لا نهاية لها على ما يبدو، وتجمعها معاً في سرد لأحداث، لها تأثيرها على العالم بأسره. فمواطنو الهند سواء داخل بلادهم أم خارجها، يقومون بتغيير مصائر الناس في كل مكان. إن كوكب الهند هو كوكبنا».

- تيد فيشمان، مؤلف كتاب «الشركة المتحدة للصين».

«قد يصبح كتاب «كوكب الهند» أحد الكتب التي حظيت بمعظم النقاشات لهذا العام. إن كتاب كامدار مختلف عن الكتب الأخرى التي تعالج موضوعاً مماثلاً – إنه يطرح تحدياً أمام الحكومة، وأمام رؤساء الشركات والمؤسسات التجارية، والمنظمات الطوعية والمواطنين العاديين والهنود غير المقيمين في بلادهم من أجل جعل قصة نجاح الهند قصة ذات مغزى، حتى بالنسبة لأفقر مواطنيها».

- صحيفة «إنديا أبرود».

«كتاب آسر مثير، ممتع للغاية، لا غنى عن قراءته. تعمل كامدار بعين ثاقبة متيقّظة ومتمحّصة جيداً على إلقاء الضوء على وعود ومخاطر التحول المذهل وغير المتكافئ لدولة الهند».

- صحيفة «إنديا بوست»

«كتاب جديد رائع..... وهو تارة مثير للقلق، وتارة مثير للبهجة. تعد قراءة كتاب كوكب الهند أمراً ضرورياً بالنسبة للأمريكيين الذين ينحدرون من أصول هندية».

- صحيفة «إنديا ويست»

«عملت ميرا كامدار على تأليف كتاب مثير للاهتمام، يتناول القضايا الراهنة، مما يجب على معظم الأمريكيين أن يقرؤوه... إنه يشكل إحدى الإضافات الأكثر أهمية لما كتب من أعمال عن الهند».

– صحيفة «آسية تايمز»

«أحدث عملية اكتشاف لثقافة الهند الجديدة واقتصادها».

– صحيفة «ذي أيج» (أستراليا)

من مؤلفات ميرا كامدار أيضاً

كتاب

«وشوم موتيبا»

إحياءً للذكرى الحبيبة لأجدادي

پرابهوداس بهاجواني كامدار وآينر بيتركريستيانسن

عاش كل منهما حياته حتى النهاية وفقاً للمبادئ التي آمن بها.

وتبع كلاهما تعاليم غاندي؛ أحدهما عن معرفة، والآخر بالبديهة.

وإلى ولديَّ، ألكسندر وآنجالي اللذين يجب عليهما أن يصنعا حياتهما على هذه الأرض الطيبة ذاتها.

وإلى المبدأ الأخلاقي العظيم لأتباع اليانية*: مبدأ اللاعنف «آهيمسا».

قبل كل شيء، إياكم والأذى.

* ديانة هندية نشأت في القرن السادس قبل الميلاد، قوامها تحرير الروح بالمعرفة والإيمان والسلوك الحسن. (المترجمة).

المحتويات

ملاحظة للمؤلفة 15

مقدمة:

الحياة على كوكب الهند 19

الفصل الأول:

هنود وأمريكيون 49

الفصل الثاني:

المستقبل كما تتخيله الهند 79

الفصل الثالث:

نظام البيع بالتجزئة في الهند 143

الفصل الرابع:

600.000 قرية 205

الفصل الخامس:

المدن 265

الفصل السادس:

الهند الأخرى 313

الفصل السابع:

النفوذ 353

الخلاصة:

مصير العالم من مصير الهند 377

الخاتمة:

معضلة الهند 385

كلمة شكر 401

ملاحظات 405

- المدينة تحترق،

وحارسها ينام قرير العين،

هو يقول:

- بيتي آمن،

قد تحترق البلدة،

لكن أشيائي لم تتضرر.

- كابير

إننا بإيجادنا الحل لمشكلتنا، سوف نكون قد ساعدنا على حل مشكلة العالم على السواء... وإذا ما كان باستطاعة الهند أن تقدم حلها إلى العالم، فإن هذا سوف يشكل إسهاماً لصالح البشرية.

- رابندرانات طاغور، الفائز بجائزة نوبل

«في القومية»، 1917

ملاحظة للمؤلفة

جرت على مدى السنوات العشر الماضية أو نحوها إعادة منح العديد من مدن الهند التي كانت تحمل أسماء باللغة الانكليزية، أسماءها الهندية ثانية. فعلى سبيل المثال تُسمى بومباي الآن رسمياً مومباي؛ وتسمى كالكوتا: كولكاتا؛ ومدراس: تشينّاي، وبينارس: ڤاراناسي.. وأصبحت مدينة بنغالور تُعرف رسمياً باسم بنغالورو، وهو أقرب إلى الاسم الذي يُطلق على المدينة بلغة الكانادا المحلية، بندا كاآل أورو. ويعني الاسم الجديد لمدينة المعلومات والتكنولوجيا في الهند «مدينة الفاصولياء المسلوقة». ولا تخلو عملية تغيير الأسماء من إثارة للجدل بين المواطنين الهنود. ففي حالات متعددة يمثل تغيير الاسم صراعاً ما بين طبقة النخبة التي تضم مختلف القوميات، وطبقة عامة الناس المحلية التي تتكلم اللغة الإقليمية، حول تعريف المدينة بأشكال تمتد إلى ما هو أبعد كثيراً من تغيير بسيط للاسم.

ولقد اخترت بالنسبة لهذا الكتاب الذي يتوجه إلى قراء اللغة الإنكليزية ممن لن يكونوا جميعهم على معرفة جيدة بالهند، أن أُسمي بعض المدن بأسمائها القديمة، والبعض بأسمائها الجديدة بناءً على ما هو متعارف عليه حالياً وما هو أكثر شيوعاً بين الهنود الذين يتكلمون الإنكليزية. إنني أستخدم اسميّ مدينتي بومباي وكالكوتا، وإنما أيضاً اسم تشيناي بوصفه الاسم القديم لهذه المدينة، أما اسم مدراس فقد بطل استخدامه تماماً تقريباً. وقد يبدو لهذا علاقة بطريقة خاصة في التفكير، ولكن يخيل لي أنه الأسلوب الطبيعي الأقرب للتعامل مع مسألة أسماء مدن الهند في هذا الكتاب.

الهند
هنالك أجزاء متنازع عليها من حدود الهند مع الصين وباكستان؛
تظهر هذه الخريطة الأراضي التي تطالب بها الهند.
طاجيكستان
أفغانستان
جامو
خط المراقبة
وكشمير
سريناغار
هيماتشال
براديش
باكستان
الصين
البنجاب
اوتار
أنتشال
هاريانا
دلهي
نيبال
سيكيم
بوتان
اوتار براديش
نهر يامونا
نهر الغانغ
راجستان
دارجيلينغ
آسام
ناغالاند
ميغهالايا
بهار
مانيبور
بنغلاديش
تريبورا
ميروزام
أحمداباد
بوبال
مادهيا براديش
جهارقند
غربي
البنغال
كولكاتا (كالكوتا)
غوجارات
نهر نارمادا
تشاهايتسغار
ميانمار
نهر ماهانادي
نهر هوغلي
آكولا
نايبور
آمارڤاتي
مهاراشترا
مومباي
نهرغودا ڤاري
اوريسا
خليج البنغال
پيون
بحر العرب
حيدر أباد
غوا
كارناتاكا
اندرا براديش
بنغالور
شيناي (مدراس)
بونديتشيري
جزر اندامان
نهر كارڤيري
جزر لاكشادويب
كيرالا
تاميل نادو
بحر اندامان
ميل 0
500
كيلومتر 0
500
تريڤاندروم
سريلانكا
جزر نيكوبار
المحيط الهندي
30°
15°
15°
75°
90°

مُقَدِّمَة

الحياة على كوكب الهند

أذكر آخر مرة كان العالم يتحدث فيها عن الهند. كانت تلك لحظة عابرة راجت فيها أزياء وصيحات عقب رحلة قام بها فريق البيتلز الغنائي إلى مدينة ريشيكش. وأصبحت ياقات وسبحات الزعيم نهرو من الأزياء الدارجة إلى جانب رسوم متكررة لبتلات مستدقة مطبوعة على أقمشة بألوان تثير اضطراباً في الذهن. وبات التأمل المتسامي المجرد آخر بدعة للتخلص من الإجهاد والتوتر العصبي؛ وحلت البرامج الفكاهية التلفازية مثل المسلسل الأمريكي «دع الأمر لبيفر» محل البرامج التي تقدم دروساً من الحياة، وتتناول قضايا جادة بوصفها البرامج التي تلقى إقبالاً وإعجاباً كبيرين، وبدت الهند فجأة رابطة الجأش واثقة، واحتضنت النماذج المتعارضة مع التراث، بلاد الهند بوصفها نقيضاً للغرب الضائع في المذهب المادي الأجوف لمشهد «البلاستيك»* الشهير في الفيلم السينمائي «الخريج».

لم تكن الهند متخلِّفة، كانت حكيمة وروحانية. إلا أن الغرب تقدم بعد ذلك. وسادت مفاهيم المشهد السينمائي، وتلاشت صورة الهند تدريجياً بعيداً عن الأضواء.

عاشت أسرة والدي الهندية في مدينة بومباي. وكنا نقوم كل بضع سنوات بالتحضير للقيام بالرحلة المدهشة إلى الجانب الآخر من العالم. كنا نقوم بتجميع إمدادات نفيسة لأقاربنا في الهند: سراويلات الجينز والأحذية الرياضية الخفيفة لنقدمها لأبناء عمومتنا الذين يمرون بمرحلة النمو، أوعية ضخمة من مسحوق العصير المسمى (تانج) Tang

---

* وفيه حوار عن المستقبل ومعنى الحياة وقيمتها عند الجيل الجديد، والنظرة المادية للجيل القديم والمفاهيم التي يأتي بها الغرب التي لا تتناسب مع تلك التي نشأ عليها الشباب، فيكون مصيرهم الضياع. (المترجمة).

ولاحقاً زجاجات كبيرة من دواء (تايلنول) Tylenol وأكياس بلاستيكية من اللوز والفستق اللذين يزرعان في ولاية كاليفورنيا. كانت أسرتنا ترسل إلينا قوائم بالأغراض والحاجيات المطلوبة، وكنا نملأ حقائبنا بكل ما كان بمقدورنا أن نملأها به.

لقد شعرت في أثناء إقامتي في بومباي في العام 1967 و1968 وكأنني كنت منفية بعيداً عن العالم الحقيقي. فقد كانت شقة جدي وجدتي في ضاحية جوهو، تخلو من جهاز تلفاز بالرغم من أنها محاطة بمنازل نجوم بوليوود. وكان هناك عبر الطريق الرئيس قرب المبنى الطابقي حي شعبي فقير قذر، تنبعث منه روائح كريهة. وكان الشيء الوحيد الذي يخفف من الحر الذي كان يفقدك القدرة على الحركة أن تجلس تحت مروحة تتحرك محدثة ضجة حادة. كان كل شيء مختلفاً: الطعام واللغة والمناخ والقواعد المتعلقة بما يمكن ارتداؤه وما لا يمكن ارتداؤه، ما يمكن أن يقال وما لا يمكن أن يقال. لم تكن هناك من خصوصية، فمنذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل كنت أستطيع أن أسمع ربات بيوت الحي من الجيران وهن يخبطن القدور، وأواني المطبخ، والأهالي يصرخون في وجوه أولادهم، وأغاني الأفلام الهندية وهي تصدح، وراكبي الدراجات، وهم يقرعون أجراسهم الصغيرة.

وجاء بائع الحليب في الصباح ومعه بقرته. وأحضرت جدتي أو إحدى عماتي وعاءً من النحاس ووضعته على الأرض، فجلس البائع القرفصاء إلى جانب البقرة، وأرسل دفقات من الحليب الدافئ داخل الوعاء. وقد تعلّمت أن أبقى عيناً ثاقبة على بائع الحليب؛ لأتأكد من أنه لم يكن يضيف الماء إلى الحليب عبر أنبوب مخفي بشكل جيد. وأخذنا الحليب إلى الطابق العلوي وقمنا بغليه. وبينما كنت أحتسي الحليب الساخن المخلوط بمسحوق الشوكولاته المدعم بالفيتامينات المسمى Ovaltine، كنت أحلم بأنني أجرجر أصابعي عبر المزيج المكثف على الجزء الخارجي من كوب طويل من الحليب البارد.

يعيش عمي وعمتي حالياً في غورغاون Gurgaon وهي ضاحية مزدهرة تقع جنوب مدينة نيودلهي. وهما يمتلكان ثلاجتين ويشتريان الحليب المعقم في أكياس بلاستيكية مختومة، وهناك شاشة تلفازية مسطحة كبيرة موصولة بالقمر الصناعي تقدم المئات من القنوات الهندية والأجنبية في غرفة معيشتهما، كما أنهما على تواصل مع الأسرة الموزعة في العالم عبر البريد الإلكتروني والهاتف. وتحافظ مكيّفات الهواء الموجودة في غرف النوم على بقاء

الشقة في جو منعش لطيف مع برودة معتدلة. وهناك سيارة صالون من طراز حديث من نوع هوندا بأربعة أبواب متوقفة في مِرأَب في الأسفل.

ومن شرفة سطح شقة عمي وعمتي، يمكنني أن أشاهد مبانيَ ترتفع في كل مكان، والأغطية الصغيرة المصنوعة من القماش المشمع الواقي من المطر التي يستخدمها عمال البناء من المهاجرين، التي تتناثر في قطع الأرض الشاغرة، والنسوة اللواتي يرتدين تنانير مزمومة بالكامل أو جزءاً من زي الساري الهندي، وقد انسال عليهن، والأذرع مغطاة بالأساور حتى أكتافهن، ينقلن كميات كبيرة من مادة الإسمنت المخلوطة حديثاً في سلات على رؤوسهن إلى الرجال، الذين ينقلون الحِمل فوق رؤوسهم قبل أن يتسلقوا بصعوبة وهم حفاة الأقدام أعمدة السقالة المتداعية الأوصال لتسليم الكتلة المبتلة. ويركض طفل قرب الأغطية متحمساً بمحاذاة إطار سيارة قديم يدفعه أمامه بعصا. ويرتفع وراءه مشهد برج يضم مكاتب مصرف «سيتي بانك».

وفي رحلة قمت بها مؤخراً إلى الهند، جلست في مطار بومباي المحلي الجديد في انتظار رحلة شركة «كينغ فيشر» للطيران، التي ترفع شعار «سافر في طيران الأوقات الممتعة» وقد ارتكز حاسوبي المحمول على ركبتيَّ. وقمت بإدخال الرقم السري من البطاقة التي كنت قد اشتريتها للتو من كشك تابع لشركة «تاتا إنديكوم»، وحصلت على الفور على اتصال لا سلكي قوي. وكنت قد مررت في طريقي من شقة الأسرة القديمة في جوهو، بمجموعات بائسة من الأسر المحتاجة، التي تعيش في فقر مدقع، وقد التمَّتْ مع بعضها تحت جسر علوي لطريق عام سريع لم ينتهِ العمل منه بعد، وفوق حصائر رقيقة من القطن المتسخ، ومن حولها أطفال صغار عراة، أنوفهم مغطاة بالمخاط. كان ذاك من نوعية المشهد الرديء، الذي يصدم على نحو عميق الأشخاص الذين يقومون بأول زيارة لهم إلى الهند، وهو المشهد الذي لم أكف عن التأثر لدى رؤيته.

وفي أثناء قيامي بتفقد بريدي الإلكتروني في محطة المغادرة المتوهجة بين رجال الأعمال الهنود والأجانب والعائلات التي كانت في انتظار إحدى الرحلات الجوية العديدة المتجهة إلى كل جزء من البلاد، فكرت في الهند التي عشت فيها منذ أربعين عاماً والهند في الوقت الحاضر، وتساءلت: أين ستكون الهند بعد أربعين عاماً من الآن؟

«إلى أين نتجه مع ملياراتنا من السكان؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه الهند على نفسها»، وقد قال لي صديق، ونحن نحتسي شراباً في نيودلهي: إنه سؤال يجب على العالم بأجمعه أن يطرحه.

إن نصف أفراد أسرتي من الهنود. وفي أثناء معظم سنيّ عمري، تغيَّرت الهند، ولكنها فعلت ذلك بشكل طفيف تقريباً دون إدراك، ثم، وفجأة، بدأت التغييرات تحدث بسرعة تسبّب لك الدّوار. وشعرت مع كل وصول بأنني أشاهد تصويراً فوتوغرافياً لانقضاء الوقت. لم يمر أي نظام ديمقراطي في التاريخ بعملية تحول مماثلة لضخامة ولأهمية عملية تحول الهند أو تسارعها.

وفي سفري في طول البلاد وعرضها، كنت شاهدة على صناعة التحول الذي لا يصدق، والذي طرأ على شكل الهند وخصائصها. وقمت بإجراء مقابلات مع المئات من الناس، الذين شاركوني رؤاهم لمستقبل البلاد، وكان معظمها طوباوي، مثالي؛ وبعضها مقلق. وتحدثت إلى الناس العاملين في المؤسسات الثقافية، الذين كانوا يعيدون تخيل سير وأحداث الهند القديمة من أجل جمهور عالمي جديد. والتقيت برجال أعمال يتفانون من أجل شمول الفقراء بالاقتصاد المنتعش للهند، حتى فيما هم يقودون شركاتهم إلى العالمية. وأصغيت إلى الخدم الذين يعملون في المنازل وسائقي سيارات الأجرة، والمزارعين والبائعين المتجولين، وهم يتحدثون عن صراعاتهم اليومية، وعن إحباطاتهم، وعن إيمانهم بأن حياة أولادهم سوف تكون أفضل. وقد صعقت في كل مكان، بالكبرياء، والتفاؤل، والإحساس بأن هذه اللحظة هي ملك للهند. ولاح لي مستقبل الهند، إمكانياته ومخاطره، ورأيت في ذاك المستقبل، مستقبلنا نحن؛ لأن مصير العالم من مصير الهند.

نموذج مصغر للعالم

ليس هنالك من بلد آخر يشكل أهمية بالنسبة لمستقبل كوكبنا أكثر من الهند. وليس هنالك من تحدٍ نواجهه، ولا مسافة نتوق إلى الحصول عليها لا يكون للهند فيها صلة مهمة بالموضوع. وتمثل الهند بدءاً من مكافحة الإرهاب العالمي إلى إيجاد العلاج للأوبئة الخطيرة المتفشية في العالم، ومن التعامل مع أزمة الطاقة إلى تفادي أسوأ السيناريوهات عن الاحتباس الحراري في العالم، ومن العمل على إعادة التوازن ما بين الحالات الصارخة من الإجحاف

وانعدام المساواة التي تعم العالم إلى الحث على الابتكار الحيوي اللازم لإيجاد وظائف وتحسين ظروف المعيشة - تمثل الهند اليوم لاعباً محورياً. إن العالم يخضع لعملية إعادة تقويم جدية للمعايير وتحديد مستويات وقدرات جديدة حيث تشكل نهضة قارة آسية أكثر العوامل أهمية في هذا الإطار. وتحمل الهند بيدها المفتاح إلى هذا العالم الجديد.

وتشكل الهند في الوقت نفسه حضارة آسيوية قديمة، وأمة حديثة متأصلة في القيم التنويرية، والمؤسسات الديمقراطية وفي قوة صاعدة متنامية في القرن الحادي والعشرين. وبتعداد سكاني يبلغ 1.2 مليار نسمة، فإن الهند تعد أكبر نظام ديمقراطي في العالم. إنها مجتمع مفتوح نشط ينبض بالحياة. ويضم النسيج السكاني المتنوع في الهند: الهندوس والمسلمين والسيخ والمسيحيين والبوذيين واليانيين والزرادشتيين واليهود وأتباع مذهب «الأرواحية»، الذي يقول بوجود روح لكل شيء في الكون، وهناك اثنتان وعشرون لغة رسمية في الهند. ويتكلم ثلاث مئة وخمسون مليون هندي اللغة الإنكليزية.

الهند هي نموذج مصغر للعالم. وتشمل جغرافيتها كل مناخ، من جبال الهملايا المغطاة بالثلوج إلى الشواطئ التي تنمو عند أطرافها أشجار النخيل، وإلى الصحارى، حيث تجول جماعات البدو الرُّحل والجمال. الهند دولة نامية مقسمة بين أقلية غنية صغيرة، وطبقة وسطى صاعدة، وثمانمئة مليون شخص يعيشون على أقل من دولارين في اليوم. وتواجه الهند جميع المشكلات الخطيرة لعصرنا - عدم تكافؤ اجتماعي شديد، عدم توافر ضمان وظيفي، أزمة طاقة متفاقمة، نقص حاد في المياه، بيئة متدهورة، احتباس حراري، وباء الإيدز المتفشي، هجمات الإرهابيين - على نطاق يفوق الخيال.

إن هدف الهند هو هدف مثير ورائع في مجاله ومداه: تحويل دولة نامية تضم أكثر من مليار شخص إلى دولة متقدمة وزعيمة عالمية بحلول العام 2020، وتحقيق ذلك بوصفه نظاماً ديمقراطياً في حقبة تشهد ندرة في الموارد وتدهوراً بيئياً. إنّ على العالم أن يمضي في تشجيع الهند. فإن فشلت الهند في تحقيق هدفها فإن ذلك يطرح خطراً حقيقياً يجعل عالمنا رهينة للفوضى السياسية، وللحرب الدائرة حول الموارد الآخذة في النضوب تدريجياً، والبيئة المسمومة، والأمراض المتفشية بسرعة هائلة. وسوف تقوم الجيوب الثرية بتوظيف الشركات الخاصة لتأمين حاجاتها والاستعانة بالميليشيات الخاصة لحمايتها من الفقراء الذين

يحتشدون عند أبوابها. ولكن إذا ما نجحت الهند، فإنها سوف تثبت أنه بالإمكان انتشال مئات الملايين من الأشخاص من براثن الفقر. وسوف تثبت أيضاً أن النظام الديمقراطي متعدد الأعراق، المتعدد الديانات ليس من أمور الترف والرفاهية المقتصرة على المجتمعات الغنية. وسوف ترينا كيف ننقذ بيئتنا، وكيف ندبر أمورنا في عالم نزق مشاكس متعدد الأقطاب. إن خطوة البداية التي تقوم بها الهند هي بحق مغامرة القرن.

بحثاً عن نموذج جديد

«إن التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو تحدٍ لم يجد له أحد حلاً في العالم: فنحن لم نعمل على تنمية العدالة والإنصاف. هذا ما قاله لي موكيش آمباني رئيس مؤسسة ريلاينس الصناعية، أكبر شركة في الهند. هل يمكن للأنظمة الديمقراطية الليبرالية أن تشكل اقتصاد سوقٍ عالمياً يكون مستداماً بيئياً، ويقلص من حالات عدم إقرار المساواة؟» لقد فشلت الولايات المتحدة في تحقيق هذا الأمر. ففي حين أنها كانت قد أثبتت مقدرتها على توليد ثروة واسعة، فإن ما يسمى بإجماع واشنطن قد قدم مصالح الشركات التجارية على مصالح المواطن العادي والمهن التجارية الصغيرة، وتسبب في توسيع الهوة ما بين الغني والفقير، وأدار أعماله من دون أي اكتراث للبيئة وتجاهلها بشكل هائل. ويعتمد ازدهار أمريكة على زيادة استهلاك موارد العالم - فبتعداد يبلغ ستة بالمئة فقط من تعداد السكان في العالم تستهلك الولايات المتحدة ثلاثين بالمئة من موارد كوكب الأرض. وهي تنتج حصة غير متكافئة -25 بالمئة- من الغازات الخطيرة التي تطلقها البيوت الزراعية البلاستيكية.

وتواجه الهيمنة الأمريكية التكنولوجية، والاقتصادية، والإستراتيجية موقفاً معارضاً للمرة الأولى منذ سقوط الاتحاد السوفيتي. ومن السخرية بمكان أن وسائل الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات التي دفعت أمريكة إلى المقدمة في أعوام التسعينيات من القرن الماضي تسهم الآن في تداعي الهيمنة الأمريكية ذاتها. فوسائل التكنولوجيا هذه أوجدت عالماً يتم فيه ضغط الوقت والمكان بصورة لم يسبق لها مثيل، حيث تكون الأفكار، والأموال، والخدمات والناس في حركة مستمرة متحررة من قيود الحدود القومية.

وقد أنشأت عملية العولمة التي حفزتها هذه الابتكارات التكنولوجية ما يسميه الاقتصادي أمارتيا سين Amartya Sen «عصراً من البحبوحة الهائلة» يجري فيه تكديس المليارات من الدولارات من قبل القلَّة، في حين بالكاد يتمكن المليارات من الناس من تحقيق النجاح والتوفيق في حياتهم. ومع بروز النهضة السريعة للصين من جهة، والتهديدات الإرهابية الجديدة من جهة أخرى فإن أحد الأسئلة الملحة فعلاً بالنسبة لعصرنا هي هل بإمكان الأنظمة الديمقراطية الليبرالية أن تقدم إلى المواطنين جميعهم، بمن فيهم الفقراء، الحرية لإدراك إمكاناتهم وقدراتهم البشرية.

إن تفاؤل أمريكة الذي لا يمكن كبته، واعتقادها بأنه يمكن للحياة أن تتحسن في النهاية، قد تضاءل في ظل الصورة المقيتة لحربها على الإرهاب، والفشل الذريع في العراق والاقتصاد العالمي المتحول. واستناداً إلى البحث الذي أجرته مؤسسة Pew Global Attitudes، فإن الرأي العام العالمي ينظر إلى الولايات المتحدة نظرة سيئة بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. وحتى في الهند حيث استمرت الولايات المتحدة في أن تحظى باحترام بالغ وعلى نحو يصيبك بالدوار بعد مدة طويلة من إنهيارها في مكان آخر، فقد انخفضت نسبة الرأي الإيجابي تجاهها بشكل مفاجيء من 71 بالمئة من الذين أبدوا موافقتهم على السياسة التي تنتهجها في عام 2003 إلى 56 بالمئة في عام 2006[1]. ويشعر الأمريكيون أنفسهم بأمان أقل وبثقة أقل بشأن مستقبلهم.

تدرك الهند والصين أنهما لا تستطيعان تقليد النموذج الأمريكي بشكل أعمى: فالأرض لا يمكنها ببساطة أن تتحمل الملايين من الأشخاص ممن يقومون باستهلاك موارد محدودة وفق المستويات الأمريكية، ولا إنتاج كميات كبيرة من الملوثات وفق المعدل الذي يحققه الأمريكيون. وليس بإمكان الغالبية العظمى من الناس في العالم أن تتحمل دفع التكاليف التي يُطلب من الأمريكيين أن يدفعوها من أجل تأسيس حياة كريمة: رعاية صحية متميزة وتعليم متميز. ولا يمكن للهند ولا الصين وهما تعانيان سلفاً غياب المساواة بشدة وأزماتٍ بيئيةً وصحيةً رهيبةً، لا يمكنهما أن يسمحا لجزء صغير من شعبيهما أن يعيش حياة على النمط الأمريكي.

لقد حققت أوروبة توازناً أفضل ما بين الرخاء والإنصاف، حيث وجهت بالاستفادة من الموارد المهمة بغرض تأمين رعاية صحية عالمية، مساكن بأسعار معقولة، معالجة أزمة البطالة، وغيرها من المنافع للمواطنين العاديين. وقد نشأ الاتحاد الأوروبي باعتباره الكيان السياسي والاقتصادي القومي الخارق والأول في العالم، واضعاً وراءه نهائياً وبشكل حازم وتام قروناً من العداء بين القوميات والميراث الرهيب لحربين عالميتين شهدهما القرن العشرون. إلا أن أوروبة تكافح أيضاً تفشي بطالة حادة فيها وتواجه التحدي الذي يطرحه دمج الأعداد المتزايدة من المهاجرين المسلمين.

وقامت روسية، وتحت نظام حكم فلاديمير بوتين، بسحق الأصوات المعارضة، وابتعدت عن المجتمع المفتوح الذي كانت قد أقبلت عليه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وتعد اليابان على قدر كبير من التجانس ثقافياً وحضارياً، لكي تعمل كنموذج لبقية العالم؛ وقد تحركت مؤخراً باتجاه الطرف اليميني جداً لمجالها السياسي مع صدور دعوات لنشر ثقافة قومية وعسكرية متطورة تماماً ومتجددة، تتجنب التطرق إلى سلوك اليابان في زمن الحرب. ويضمن الحجم المطلق للصين أنه سيكون لها تأثير كبير على النظام العالمي في حين ينمو اقتصادها، ولكن النظام الصيني لا يشعر بالراحة في الجلوس مع تلك الدول التي تقدر الديمقراطية، وحرية التعبير، والصحافة النابضة بالحياة.

والهند بمجتمعها المفتوح واقتصادها الفاعل والنشط، والتزامها بدمقرطة مؤسسات النظام العالمي وإيجاد الثروة بطريقة تكون شاملة ومستدامة، تقوم بتكوين نموذج بديل ومقنع بشكل لا يقاوم.

القرن الآسيوي

قال رئيس الوزراء الهندي سينغ لرئيس الوزراء الصيني وين جياباو عندما زار نيودلهي في عام 2005. «إن بإمكان الهند والصين أن يعملا معاً على إعادة تحديد شكل النظام العالمي». ويوجد هناك فيما بينهما ثلث البشرية، حيث يبلغ تعداد سكان الهند والصين 2.4 مليار نسمة. ويعد اقتصاد الهند، أسرع ثاني اقتصاد نامٍ بعد الصين مسجلاً معدل نمو سنوي يبلغ ثمانية بالمئة في عام 2006، مع طموح بالمحافظة على نسبة النمو بمعدل تسعة إلى

عشرة بالمئة أثناء السنوات الخمس القادمة وما بعدها. وقد تقبلت الهند مثلها مثل الصين سياسة اقتصاد السوق، وتقدمت لتجني فوائد العولمة. وترى كل من الهند والصين في هذه اللحظة نقطة تحول تاريخية ينجذب فيها المستقبل نحو قارة آسية، وهما ينظران إلى القرن الحادي والعشرين بوصفه القرن الآسيوي، وهو عصر ستفسح فيه المؤسسات التي أقامت النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، المجال أمام إطار جديد من العمل قائم على تحالفات جديدة وعلى توازن جديد للقوة.

وتعمل الهند والصين على حل النزاع الحدودي بينهما الذي لطالما تسبب في إفساد العلاقات الثنائية منذ أن وقعت الحرب بين البلدين في عام 1962. وقد كانت الهند ومنذ زمن طويل لا تثق في علاقة الصين الوثيقة بباكستان، لا سيما مسألة حصولها على وسائل التكنولوجيا ذات الصلة بالأسلحة النووية، إلا أن الهند وضعت مسألة حذْرَها هذا جانباً من أجل تحقيق تقدم في علاقتها مع الصين. ويرتفع المعدل التجاري القائم بين الصين والهند أكثر من أربعين بالمئة في السنة. وفي عام 2007، سوف تحل الصين محل الولايات المتحدة بوصفها أكبر شريك تجاري لدولة بمفردها مع الهند. وتدرك الهند والصين أنهما تواجهان تحديات مشتركة، تتمثل في الفقر المتفشي على نطاق واسع، وفوارق اجتماعية متزايدة بين المدن والأرياف، وتدهوراً بيئياً، واحتياجات متسارعة للطاقة من أجل المليارات من الناس. وتعرف كلتاهما أن أياً من هذه المشكلات قد يحد من زخم قدرتهما المثيرة للإعجاب على تحقيق المزيد من النجاحات، وأن يوقع بلديهما في حالة من عدم الاستقرار على الصعيد المحلي أو يورطهما في نزاع إقليمي.

وتدرك الهند والصين في الوقت ذاته أنه في السباق لتأمين الموارد الطبيعية الأساسية ولا سيما النفط والغاز الخام، ولتأكيد النفوذ في الدول المجاورة التي تربطهما بها حدود مشتركة، فإنهما تعدَّان دولتين متنافستين. ولكن حتى وإن تمكنت الصين وإلى الأبد من التفوق على الهند بالقوة الاقتصادية والقوة العسكرية المطلقة، فإنها لن تكون قادرة أبداً على أن تضاهي الميزة الهائلة للهند بوصفها نظاماً ديمقراطياً.

تشكل ديمقراطية الهند مدخلاً رائعاً إلى قوة معتدلة وصمام أمان طبيعياً لإحباطات مواطنيها. وتتقدم الهند في هذا العالم الهش والمتغير بسرعة بوصفها صديقاً للقوى

العظمى وصديقاً للدول النامية، ومصدراً عالمياً للإبداع الثقافي والابتكار التكنولوجي، ومجتمعاً مفتوحاً.

الهند الشابة

الهند هي الدولة الأكثر شباباً في العالم. فخمسون بالمئة من شعب الهند هم تحت سن الخامسة والعشرين. وبحلول العام 2015، سوف يكون هنالك 550 مليونا ونصف المليون مراهقٍ في الهند. وبعد مرور وقت طويل من وصول شعوب أوروبة، والولايات المتحدة، وحتى الصين إلى عمر الشيخوخة فسوف تظل الهند مع ذلك دولة شابة من دون أي نقص في الأيدي العاملة ولا غياب للزبائن. وقد عززت صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند ودورها كمزود عالمي للخدمات من الوضع المزدهر للبلاد. فالتصنيع يتقدم فيها بسرعة في حين بدأ محركه الاقتصادي الحقيقي، الإنفاق بالمفرق، بدأ للتو بالتهيؤ للانطلاق. ومدعوماً بنمو اقتصادي قوي، وضروب متعددة من السلع الاستهلاكية والخيارات الترفيهية، فإن شباب الهند تملؤهم ثقة قوية جديدة تستند إلى توقعات وآمال عريضة، وهم يؤمنون بأن المستقبل هو ملك لهم.

لقد اجتاحت البلاد روح معنوية عالية وعزيمة قوية ترى أن إنجاز الأعمال أمر ممكن، فألهبت مخيلة الهند. وهنالك شعار اعتمدته إحدى شركات الطيران الخاصة الكثيرة والحديثة في الهند، التي تعرض أسعاراً مخفضة واسمها «ايرديكان» يلائم هذا الجو العام بالتأكيد، وهو: «في كل مرة نقلع فيها ينظر الاقتصاد بأكمله إلى الأعلى»، أي إن الاقتصاد بأكمله يتحسن.

غوبال هو سائق سيارة أجرة من مدينة بنغالور يبلغ الثامنة والأربعين من العمر، وهو فخور جداً بابنته وعمرها سبعة عشر عاماً، فهي طالبة لامعة ممتازة. وهو يريد منها أن تحصل على وظيفة في مؤسسة صناعة تكنولوجيا المعلومات في بنغالور. وقد مضى عليه في العمل سائقاً أكثر من عشرين عاماً، وهو يمتلك السيارة التي يقودها ستة أيام في الأسبوع، ولمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً لتحصيل رزقه. وقد سألته عندما كنا معاً في يومنا الثالث: «ما هو رأيك بمستقبل الهند؟»

«رائع جداً. سوف تصبح الهند الرقم واحد». قالها وهو يدير رأسه كاشفاً عن ابتسامة عريضة، مما أوقع في نفسي الفزع الشديد، وجعلني أرتاع لأنه لم يعد ينظر أمامه إلى الطريق المزدحم .

وتقول لي دورجاڤاتي اوباديهاي وهي طالبة جامعية في التاسعة عشرة من عمرها من مدينة بومباي: «أنت تدركين أن أمريكة في حالة انهيار، أما الهند فهي في حالة تقدم. أنتم أيها الناس لن يعجبكم ذلك الأمر. لكنه واقع». تقولها وقد رفعت رأسها في حركة رصينة ومتحدية في آن واحد. وهي تعيش في إحدى الأحياء العشوائية الفقيرة لمدينة بومباي. وقد أيد والدها، وهو سائق سيارة أجرة، رغبتها في الدراسة في الجامعة على الرغم من اعتراضات أمها.

ويعمل بهافيش بافيشي في بيع قطع غيار للسيارات في مدينة آكولا بولاية ماهاراشترا. ويقول الزوج والأب البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً: «إن الهند قادمة. بإمكانك أن ترينها. إننا نشعر بفخر شديد. لقد أبلينا بلاء حسناً جداً. وسوف يقوم والدايَ بإنجاز العمل على نحو أفضل. وتومئ بقية أفراد العائلة الموزعة هنا وهناك برؤوسها علامة الموافقة.

ويقول لي ناندان نايلكاني، المدير التنفيذي المسؤول لشركة انفوسيس **Infosys**، الشركة الهندية الرائدة في مجال تكنولوجيا المعلومات، يقول لي وهو جالس في مكتبه في مدينة بنغالور: «إن الناس يرون الضوء في نهاية النفق. أخيراً سوف نتحرر من هذا الفخ. فهناك شعور بأن مستقبلنا يمكن أن يكون أفضل بالنسبة لأولادنا أكثر منه بالنسبة لنا، وقد جعلنا ذلك نبذل طاقة كبيرة للتوصل إلى كيفية حل المشكلات».

يعد نايلكاني شخصية أسطورية في الطفرة التكنولوجية التي حققتها الهند ورجلاً مشهوراً عالمياً بفضل دوره المعروف في إعطاء توم فريدمان فكرة تأليف كتابه الرائع جداً «العالم مسطح»، ويتألق وجه نايلكاني بشكل واضح عندما يبدأ بالحديث عن شركته. «ترمز انفوسيس إلى لحظة الإمكانية هذه بالنسبة للهند؛ نحن لدينا ستة وستون ألف موظف

ومتوسط أعمارهم هو سبعة وعشرون. إن الأمر يتعلق بتأسيس علامة تجارية عالمية. إنه يتعلق بتحقيق إنجازات حسب الميزة والجدارة. إنها شركة تتعلق بالمستقبل وليس بالماضي.

التقدم بخُطا واسعة على الساحة العالمية

وصف المدير التنفيذي السابق لشركة «ارسيلور» **Arcelor**، وهو فرنسي الجنسية غاي دولي، العرض المقدم من قبل شركة الحديد الصلب الهندية «ميتال ستيل» **Metal Steel** إلى شركة الحديد الصلب الأوروبية العملاقة بأنه عرض «لشركة مليئة بالهنود تدفع نقود الغش والاحتيال». ففي شهر حزيران من عام 2006، وبعد شهور من الجدال اللافت للأنظار - وبعد تدخل حكومة الهند على نحو مستغرب للدفاع عن ابن ينتمي إليها يعيش في لندن، ويمتلك شركة مسجلة في لوكسمبورغ، ولم يكن، قد استثمر أمواله أبداً في بلده الأم في تلك المرحلة - نجحت «ميتال ستيل» في الاستيلاء على «أرسيلور». فعمت الفرحة قلوب الهنود في أرجاء العالم.

كان استيلاء «ميتال» على شركة «أرسيلور» يرمز، بالنسبة للهنود، إلى مجيء عصر المؤسسات التجارية الهندية ونهاية امبرطورية تجارية غربية. وحتى مجيء شركة «ميتال»، كانت المخاوف الفرنسية بشأن العولمة تتجسد في صورة السبّاك البولندي المستعد للعمل بأجور أقل جداً من الأجور المعتمدة وفق المقاييس الفرنسية. وقد أثبتت الشركة الهندية الغازية أنها تجسد فكرة أكثر إثارة للفزع. فعلى الرغم من صدور تأكيدات عن «ميتال» بأنه لن يكون هناك من تسريح جماعي للعمال في شركة «أرسيلور»، وحيث تشكل حزم المنافع والأجور السخية كل شيء يخشى الفرنسيون أن يخسروه، فإن الكثيرين من الفرنسيين لم يتمكنوا من تخفيف الانطباع بأنهم سوف يدعون الثعلب يدخل خُمّ الدجاج.

بعد وقت قصير من الانقلاب الذي أحدثته شركة «ميتال ستيل» قام فيجاي موليا من الشركة المتحدة لمصانع الجعة في الهند بالسعي لامتلاك شركة تايتينغر للشمبانيا. فقال: الفرنسيون **Assez** «كفى». وتفوقت «مصالح محلية» غير محددة على العروض التنافسية، وسحب موليا عرضه. فالحديد هو أحد الأمور، والشمبانيا أمر آخر مختلف جداً!

كانت الشركات الهندية تعمل بهدوء لتملك شركات موجودة في أنحاء العالم، بما فيها شركات في أوروبة والولايات المتحدة. ويمتلك بهارات فورغ شركات في السويد وألمانية والمملكة المتحدة والولايات المتحدة والصين. وتقوم شركة انفوسيس «Infosys» بتوسيع عملياتها في الصين، والولايات المتحدة وأوروبة. وسارعت الشركة العملاقة لصناعة الطاقة الهوائية «سوزلون» إلى شراء شركات في أوروبة والولايات المتحدة بعروض رخيصة، واستثمرت أموالها في مجموعة من طواحين الهواء في ولاية مينيسوتا لتوليد الكهرباء. وفي عام 2005، امتلكت «شركة ويبرو» Wipro الهندية الرائدة في تكنولوجيا المعلومات، شركة New Logic «نيولوجيك»، وهي شركة تصنّع الرقاقات بالغة الصغر التي تدخل في صناعة وسائل اتصالات الهاتف الخليوي، ومقرها المركز الفرنسي للتكنولوجيا المتقدمة في صوفيا - انتبوليس.

وإن هي إلا أشهر من استملاك شركة ميتال لشركة ارسيلور، حتى قامت الشركة العملاقة لصناعة الفولاذ في الهند «تاتا» Tata بإتمام صفقة لشراء حصة المؤسسة الصناعية الانكلو هولندية للفولاذ «كوروس» Corus مقابل 8.1 مليارات دولار نقداً بالتمام والكمال. ودون أن تواجه أي صعوبات. وتجني شركة تاتا للمشروبات، وشاي تاتا (Tata Tea) أكثر من ثلثي عائداتها من الأسواق المهمة في العالم. وقد دأبت شركة Tata Tea على امتلاك شركات مشروبات أوروبية وأمريكية بشكل منهجي بدءاً بشركة «تيتلي» Tetley ومقرها المملكة المتحدة وذلك في عام 2000، واستمرت مع شركة الشاي الأمريكية «غودايرث» Good Earth في عام 2005. وفي عام 2006، اشترت «تاتا» الشركة الأمريكية رفيعة المستوى «إِيت اوكلوك كوفي»، Eight O'clock Coffee والشركة التشيكية «جيمكا» JEMCA؛ وحصلت على ثلاثين بالمئة من حصة شركة «أميركان غلاسو» American Glaceau للمياه المنكهة.

وتقوم الشركات الهندية التي تتوسع خارج البلاد بالتعاقد مع مديرين وموظفين محليين. ولدى شركة «تاتا» للاستشارات وحدها تسعة آلاف وخمسمئة موظف في الولايات المتحدة. وأعلنت في عام 2006، عن خطط لاستخدام ألف آخرين من الموظفين من الولايات المتحدة. وكانت شركة ماهيندرا وماهيندرا Mahindra & Mahindra تقوم بتصنيع الجرارات في مدينتي تومبول، وتكساس بإشراف فرع الشركة في الولايات المتحدة Mahindra U.S.A، وذلك منذ عام 1994، وفي عام 2003، دشنت مصنعاً جديداً قرب مدينة أتلنتا بولاية

جورجيا. ويعمل لدى شركة المختبرات الطبية «رانباكسي» Ranbaxy Laboratories، وهي شركة مستحضرات صيدلانية هندية رائدة، تسعة آلاف موظف في سبعة عشر بلداً.

قدمت في العام الماضي عرضاً عن الهند أمام الصف السادس الذي يضم ابنتي بين طلابه. وقلت لهم: إنه سيكون هنالك احتمال كبير أمامهم عندما يكبرون أن يعملوا لصالح شركة صينية أو هندية. ولم يبدُ أن هذا قد أزعجهم إطلاقاً. فالأمريكيون الذين كانوا يخشون من ترحيل أعمالهم خارج بلادهم إلى الهند ربما يجدون فرصاً جديدة بالعمل لصالح شركات هندية. وسوف يجد الأوروبيون أنفسهم في وضع مماثل على نحو متزايد. وكان تي.سي. رامادوري رئيس مجلس إدارة شركة «تاتا» للخدمات الاستشارية (TCS) قد قال لي في غرفة المعيشة في منزله القائم عند واجهة وورلي البحرية في بومباي: «لقد كان لدى قارة آسية دور قيادي عالمي امتد آلاف السنين، ثم تحول الدور إلى أوروبة ثم إلى أمريكة، وهو الآن يعود ثانية إلى آسية. وسيكون صعباً على الولايات المتحدة، وعلى أوروبة القبول بحقيقة أن آسية، ومن ضمنها الهند والصين، ومن الناحية الثانية أيضاً ماليزية، وسنغافورة، ودول أخرى، سوف تكون مركز تحقيق الثراء».

الثورة الصناعية الثالثة

قال لي عظيم بريمجي الموظف التنفيذي المسؤول لشركة ويبرو إحدى أكبر الشركات الهندية المشاركة في تنفيذ عقود وادارة نشاطات اقتصادية في الخارج، قال لي وهو يتحدث في مقر شركته في بنغالور: «أي عمل تجاري لا يتطلب حضوراً شخصياً يمكن أن يكون له مصدر مشترك. لقد أصبحت الهند مصدراً رئيساً للعمالة الماهرة بتكاليف قليلة، مع وجود فئة من العاملين الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية، ويتمتعون بمهارات عالية، ويستطيعون أن ينافسوا أفضل الخبرات ولا سيّما في مجال التكنولوجيا والعلوم، مقابل جزء زهيد مما يدفع لنظرائهم من العمال في الولايات المتحدة أو أوروبة.

وقد أبلغتني كيران مازومدار شو الموظفة التنفيذية المسؤولة لشركة «بيوكون» Biocon الشركة الهندية الرائدة في مجال التكنولوجيا الحيوية، وإحدى أكثر النساء شهرة في مجال الإدارة التنفيذية في الهند: إن الهند تملك الإمكانية؛ لأن تكون مختبر العالم. فنحن لدينا

عقول ذكية وميزة التكاليف المواتية. نحن ننكبّ على تلبية الحاجات الطبية للعالم، ونقول: «عليكم أن تصنّعوا أدوية يمكن تحمل دفع ثمنها. إن إنفاق مبلغ 2.5 مليار دولار ونصف المليار على تكاليف إنتاج دواء واحد ليس بالأمر المقبول».

وتغدو الهند مركزاً مهماً للبحوث العلمية والتنموية بالنسبة لأعداد كثيرة من الشركات الرئيسة متعددة الجنسيات. فقد وظفت شركة IBM حالياً 43,000 شخصٍ في الهند من أصل 330,000 ينتشرون في أنحاء العالم. وسوف تستثمر شركة «انتيل» Intel مليار دولار في الهند للسنوات الخمس القادمة. أما شركة «سيسكو» Cisco، فتستثمر (1.1) مليار دولار آخرين. وستستثمر شركة «مايكروسوفت» (Microsoft 1.7) مليار دولار وتستخدم للعمل 3,000 موظفٍ إضافي[2].

ويتوقع أن تزداد نسبة الوظائف في قطاعات التمويل المالي، التكنولوجيا، علوم الحياة، إدارة الموارد البشرية، وإدارة الأعمال التي يتم فيها استقدام كوادر مؤهلة من أوروبة، وأمريكة إلى دول العالم النامي، من مستواها الحالي البالغ أقل من (5) بالمئة إلى (30) بالمئة بحلول عام 2015[3]. وبحلول العام ذاته سوف يتم استقدام ما يقدر بـ (3.5) مليون شخص من فئات موظفي المكاتب والمدرسين من الولايات المتحدة إلى جانب تخصيص (151) مليار دولار من الرواتب للعقود الخارجية مع كون الهند وجهة الاستقدام بالدرجة الأولى[4].

إن الاقتصاد العالمي يخضع لعملية إعادة تنظيم كبرى تعمل على تحقيق إعادة التوازن في الوظائف واستثمار رأس المال باتجاه قارة آسية. وقد أوجدت وسائل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات محيطاً تكون فيه الوظائف الوحيدة التي يجب أن تظل وظائف محلية هي تلك التي تتطلب تفاعلاً مباشراً ووجهاً لوجه بين المتعاملين. ويمكن بالنسبة لجميع الوظائف الأخرى استقدام عمال من الخارج لأدائها في مواقع بعيدة ورفدها عن طريق تفعيل وسائل التكنولوجيا الرقمية. ويدعو آلان اس. بلايندر وهو أستاذ في الاقتصاد في جامعة برينستون، يدعو هذه بالثورة الصناعية الثالثة. وقد كانت الثورة الأولى تتمثل في تحول العمل من المزارع إلى المصانع وتجسدت الثانية في التحول من التصنيع إلى الخدمات. أما الثالثة فتتمثل في التحول الذي أمكن تحقيقه بفضل عصر المعلومات.

ويعتقد بلاينـدر أن الأبعاد النهائية للثورة الصناعية الثالثة «ربما مربكة». وعلى الرغم من أنه ليس ممكناً ولا مرغوباً إعادة الثورة إلى الوراء فإنني أشارك بلاينـدر الاعتقاد بأن الحكومات والمجتمعات في العالم المتقدم يجب أن تتصدى بشجاعة للتحديات الضخمة المعقدة ومتعدِّدة الأوجه، التي سوف يأتي بها العمل ما وراء البحار.(5) وهي لا تفعل ذلك في هذه المرحلة. فالعمال في الولايات المتحدة الذين فقدوا وظائفهم بسبب انتقال الكثير من الأنشطة الاقتصادية إلى الخارج يُتركون بمعظمهم ليتدبروا أمورهم بأنفسهم.

ومع التزايد المطَّرد في ظائف المهارات العالية في الهند، فقد أدى نزيف الأدمغة -تدفق المواهب باتجاه الدول المتقدمة في الغرب، لا سيّما الولايات المتحدة، والذي ميِّز النصف الثاني من القرن الماضي- إلى إيجاد تيارٍ مضاد في هذا القرن: إعادة دوران حركة الأدمغة. وكان والدي الهندي، وهو مهندس طيران يأمل أن يعود إلى الهند بعد تخرجه في الجامعة في أمريكة، ولكن لم تكن هناك من فرص لتوافق ما كان يمكن أن يحصل عليه في الولايات المتحدة. واليوم، وبينما تتوسع الأعمال التجارية الهندية في أوروبة وتنتقل الشركات الأوروبية والأمريكية إلى الهند؛ ينمو الطلب على الهنود الذين تلقوا تعليماً غربياً والهنود من ذوي الخبرة في عالم الأعمال الدولي، وتزدهر في الهند وظائف الرواتب العالية والمجتمعات المحلية الخاصة التي تقدم مزايا مواتية طبقاً للنمط الأمريكي المتبع، ويقرر عدد متزايد من الهنود بأن الوقت قد حان للعودة إلى الوطن. ويشكل الهنود العائدون من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تأثيراً قوياً في تحديث وطنهم الأم، حيث يطالبون بخدمات أكثر فاعلية، ويشتكون من الفساد ويجاهرون بعدم رضاهم عن البنية التحتية الرديئة.

في عام 2003. قدرت مجموعة الإندوس للاستثمارات (The Indus Entrepreneur TIE) بأن خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألف هندي غادروا وادي السيليكون* Silicon Valley عائدين إلى بلادهم. وأبلغني أمار بابو من شركة «انتل» الهند أن نحو (15) بالمئة من موظفي الشركة في بنغالورهم من الهنود، الذين عادوا من الولايات المتحدة. والكثير من الأشخاص

* يقع في وادي سانتا كلارا شمال ولاية كاليفورنية. يضم أضخم مركز لصناعة التكنولوجيا المتقدمة وشركات تكنولوجيا المعلومات. اشتق اسمه من رقاقات السيليكون التي تستخدم في أجهزة الحاسوب. (المترجمة)

الذين يعودون من الولايات المتحدة يكونون قد تشربوا جرعة وافية من الخبرة عن طبيعة المشروعات الاستثمارية الشخصية. وهم يستخدمون قطاع المقاولات وأموالهم لإنشاء شركات وأعمال جديدة في الهند. وبعضهم يتخذ من الهند مقراً له، والبعض يبدأ بتأسيس شركات جديدة في الهند في حين يبقي على قواعده في الولايات المتحدة. وهناك آخرون غالباً ما يوجدون في الطائرة بشكل متكرر، إلى حد أنهم لم يعودوا يعرفون أين يعيشون.

عصر النهضة الهندي

لقد بدأ شعب الهند البالغ عدده 1.2 مليار نسمة وهنود الشتات المؤلفين من عشرين مليوناً بدؤوا باستعراض قدراتهم وإمكاناتهم الثقافية والاقتصادية. «من يحتاج إلى الجمهور الأمريكي؟» هذا ما سألني إياه منتج الأفلام سمريتي ماندهرا ونحن نتناول طعام الغداء في نيويورك. «هنالك ثلاثة ملايين شخص فقط هنا» ولقد أذهلتني هذه الجملة بكل تأكيد. وأنا أشك في أن الجمهور الأمريكي مع رغبته العميقة وغير المحدودة في التسلية والترفيه لن تعود له أية أهمية في أي وقت قريباً. إلا أن لدى سمريتي وجهة نظر تستحق الاهتمام: «كل شيء موجود بمقياس مختلف في بومباي أو بيجين (بكين) عنه في نيويورك أو لوس أنجلوس».

وقال لي شاراد ديفاراجان الرجل الذي جاء بالرجل العنكبوت «سبايدرمان» إلى الهند، والذي هو جزء من المشروع الجديد لشركة Virgin لمجلات الأطفال المصورة وأفلام الرسوم المتحركة: «إن السجل التاريخي لأبطال الشخصيات المصورة العظماء الذين نعرفهم ونحبهم يمتد إلى مدى خمسين عاماً. إلا أننا لدينا في الهند أبطال خارقون يعود سجلهم التاريخي إلى خمسة آلاف سنة». ويوفر التراث الثقافي الغني للهند بئراً عميقة لمادة إبداعية منها تصنع الأعمال الفنية والترفيهية من أجل الجمهور العالمي الفعلي الذي يحتل المرتبة الأولى في العالم.

وحسب رؤية شاراد وشريكه غوثام تشوبرا للوضع -وهما يستمدان الإلهام من مرشديهما المخرج السينمائي شيكار كابور والمعلم الروحي ديباك تشوبرا- فإنهما مشاركان في ما هو ليس بأقل من صناعة عصر نهضة هندية. ومثلما تم نسيان الكثير من أرقى الإنجازات

والأعمال الفنية والفلسفية في الغرب أثناء حقبة العصور الوسطى لتؤدي إعادة اكتشافها ثانية إلى إحداث تأثير جديد مذهل في عصر النهضة الإيطالية في إيطالية، فإن الهنود يعتقدون أن الفنون والفلسفة الهندية هجعت في ظلام الهيمنة الإمبريالية الغربية وما أعقبها من أحداث. «العالم بحاجة إلى أساطير جديدة» هذا ما قاله لي ديباك تشوبرا. والثقافة الهندية تمتلك جميع العناصر لتكوين واحدة.

وقال لي شاراد وغوثام كل على حدة، إنه أمر مثير جداً. فأنت تشعرين وكأنك واحدة أفراد عائلة مديتشي* Medici عندما تكونين داخل الاستديو في الهند».

إن البرهان على قيام عصر النهضة الهندية موجود في كل مكان. فالعالم تثيره ثانية الموضة الهندية والموسيقا الهندية والأزياء المستوحاة من الهند. ويظهر الممثلون الهنود على شاشة التلفزة وشاشات السينما عبر الولايات المتحدة وحول العالم. وبعد مرور أربعين عاماً على قيام فريق البيتلز بوضع الهند على خارطة الوعي الغربي، تقوم الهند بوضع الغرب ضمن تضاريس عالمية جديدة.

ويرتبط مخرجو الأفلام والمنتجون الهنود بعقود واتفاقيات مع ممثلين مخضرمين وشخصيات لها وزنها من هوليوود. وتعمل شركات الرسوم المتحركة الهندية ليس فقط على إنتاج المحتوى لصالح أكبر تكتل للشركات الإعلامية في العالم، وإنما تقوم ببناء ملكيتها الفكرية الخاصة بها. فالمشاهدون الهنود والمستهلكون الهنود أعدادهم كبيرة وبدؤوا بامتلاك النقود لشد انتباه شركات الإعلام في أنحاء العالم بينما تقوم شركات إنتاج الأعمال الترفيهية الهندية بالتوجه بموهبتهم ورؤيتهم إلى العالمية.

وكان فريق شركة «ڤيرجن كوميكس» قد تعاقد في شهر تشرين الثاني الماضي مع نجم هوليوود الكبير نيكولاس كيج ليلعب الدور الرئيسي في فيلم سينمائي مأخوذ عن روايتهم المصورة وعنوانها The Sadhu «السادو**».

---

* عائلة إيطالية عريقة عاشت في فلورنسا وتوسكاني بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر.

** رجل دين هندوسي يعيش حياة التقشف والبساطة. (المترجمة)

تحديات مخيفة

تعيش في الهند نسبة مذهلة تبلغ أربعين بالمئة من فقراء العالم، بمن فيهم ثلث أطفال العالم الذين يعانون من سوء التغذية. وقد أشار تقرير قدمه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول 2006، المقرر الخاص جان زيغلر بعنوان «مدى الجوع المزمن وسوء التغذية في الهند» أشار إلى أن الجوع وسوء التغذية يشكلان مشكلتين كبيرتين في الهند في الوقت الحاضر أكثر مما كانا عليه في التسعينيات، وأن الهوة بين أولئك الذين يأكلون جيداً والذين ليس بمقدورهم الحصول على مايكفيهم من الغذاء قد اتسعت(6) . ففي بلد يفاخر بتوليه لموقع الريادة في حقل تكنولوجيا المعلومات وبنمو اقتصادي قوي، يعيش عدد مخجل من الهنود أوضاعاً ليست أفضل، وفي بعض الحالات أسوأ من الوضع في شبه الصحراء الإفريقية.

واستناداً إلى تقرير صدر العام الماضي عن اللجنة الدولية للإيدز، فإن الهند تضم أكبر عدد من السكان في العالم المصابين بفيروس «اتش.آي.ڤي» HIV المسبب لمرض الإيدز، حيث يوجد هناك أكثر من 5.7 ملايين مريض فيها، مع أن الرقم الحقيقي قد يكون أعلى كثيراً، ولا تتوافر آليات موثوقة تماماً للحصول على الأرقام الدقيقة. وهناك مجموعة من المؤسسات الخاصة تعمل مع هيئات الأمم المتحدة والبنك الدولي لمساندة الجهود التي تبذلها الحكومة الهندية لكبح تيار هذا الوباء الخطير وتقديم الرعاية والعلاج غير المكلف للضحايا. وقد أدى إنتاج الأدوية النوعية من قبل الشركات الصيدلانية الهندية إلى تخفيض تكاليف العلاج بشكل جذري، في الهند، وفي أجزاء أخرى من العالم النامي. وإن مقدرة الهند على التغلب على انتشار هذا المرض الفظيع في الوقت المناسب للحيلولة دون إلحاق ضرر كبير باقتصادها، هي مسألة مفتوحة للنقاش. وكان تقرير صدر عن المجلس القومي للبحوث الاقتصادية التطبيقية (NCAER) في عام 2006. قد حدد تكاليف مكافحة وباء الإيدز للسنوات العشر القادمة بنسبة (8.6) بالمئة من النمو الاقتصادي السنوي للهند(7).

وكان اجيت بالاكريشنان مؤسس Rediff.com رديف دوت كوم، أكبر بوابة للإنترنت في الهند والشركة الإعلامية التي تمتلك صحيفة «انديا ابرود» «India Abroad» من بين مطبوعات أخرى، كان قد قدم لي عندما التقيته مؤخراً لتناول القهوة في بومباي وصفاً

موجزاً لأسوأ كابوس يراه: «هل تريدين مني أن أبلغك عن السبب الذي يجعلني صاحياً ليلاً؟ سوف أقول لك. ربما لا أحفظ هذه الأرقام بشكل صحيح تماماً، لكنني لست أبالغ في تحديدها. فعندما حصلنا على استقلالنا، كان ثمانون بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي (GDP) مصدره الزراعة وكان خمسة وسبعون بالمئة من أبناء شعبنا يعيشون في المناطق الريفية. اليوم هنالك فقط ثلاثون بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي يأتي من الزراعة ومع ذلك فإن سبعين بالمئة تقريباً من أبناء شعبنا ما زالوا يعيشون في المناطق الريفية. ونحن ربما نحتاج إلى نحو عشرة بالمئة فقط من السكان المشتغلين في الزراعة. لذا قولي لي أنت: كيف بحق السماء سوف نوجد خمس مئة مليون وظيفة للناس الذين سوف يتركون العمل في الزراعة، وسوف يحتاجون إلى التوظيف، إضافة إلى عشرات الملايين من الوظائف التي نحتاجها للناس الذين يعملون في وظائف أدنى من مؤهلاتهم، والناس العاطلين عن العمل الآن في المدن، وإضافة إلى الأجيال الجديدة الصاعدة، في حين يستمر عدد السكان في التزايد؟ وقال وهو يستند بظهره في مقعده ثانية ومركزاً عينيه عليّ: إن ذاك هو ما يبقيني صاحياً في الليل».

استقطب قطاع تكنولوجيا المعلومات في الهند الاهتمام الدولي وأوجد تحولاً في طريقة تفكير جيل جديد من الشباب الهندي الذي يدرك أن التميز والعمل الجاد يمكن أن يقودا إلى التقدير والنجاح. غير أنه بالنسبة لكل ما يمكن رؤيته بصدد التكنولوجيا المتقدمة في بنغالور، فإن المشروعات التجارية المتصلة بتكنولوجيا المعلومات في الهند قد أوجدت وبشكل مباشر مجرد (1.3) مليون وظيفة مع (3) ملايين وظيفة أخرى تم اعتمادها بشكل غير مباشر. وهذا لا يقترب أبداً من مقياس إيجاد الوظائف الذي يتطلبه التعداد السكاني المتزايد للهند. فالتصنيع سوف يوجد بعض الوظائف التي لا بد أن شبان الهند بأمسّ الحاجة إليها. وسوف تتيح المنتجات التي تعتمد في صناعتها على نظام التسليف الجديد، ولا سيما نظام تمويل القروض الصغيرة، للآخرين بدء أعمال تجارية على نطاق ضيق. وتحظى تنمية المناطق الريفية في الهند حيث يعيش (850) مليون هندي، بإمكانية تحسين حياة المزارعين وإيجاد فرص جديدة في المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم في البلاد. وستحتاج الهند إلى هذا كله،

وإلى المزيد، من أجل تلبية الحاجات الأساسية والطموحات التي جرى تشجيعها حديثاً في نفوس شعبها العديد.

ويؤيدناندان نايلكاني الرأي القائل: إن إيجاد الوظائف هو أحد أكبر التحديات التي تواجهها الهند. وقد أبلغني وهو يتحدث عن قطاع تكنولوجيا المعلومات وحده: «إننا نحتاج إلى تحسين نمونا الاقتصادي بالفعل، لأننا نحتاج إلى إيجاد عشرة ملايين إلى اثنتي عشرة مليون وظيفة جديدة. وهناك أيضاً مقدار كبير من التفاوت بين الأقاليم. فدخل كل فرد في إقليم جوا يعادل أربعة أضعاف الدخل في إقليم بيهار. والعولمة هي في صالحنا. والابتكار ليس بمشكلة، وليس لدينا نقص في الأفكار، إلا أن التحدي يزيد من حجمه».

ويتمثل التحدي كذلك في التحرك بسرعة والتعامل مع أزمات متعددة جميعها وعلى الفور. وبالإضافة إلى الجوع، وڤيروس العوز المناعي البشري/ مرض الإيدز، والبطالة الجماعية، فإن الهند تواجه أزمة مياه حادة. ومع وجود (17) بالمئة من سكان العالم ولكن (4) بالمئة فقط من مياهه العذبة، فإن استهلاك الموارد المائية للهند يجري الآن بشكل يفوق طاقتها. كما يجري استنزاف مكامنها الجوفية وطبقاتها الصخرية المائية على نحو أسرع من وتيرة إعادة إشباعها بالمياه، مما يؤدي إلى تسرب مواد كيماوية خطيرة بما في ذلك الزرنيخ والفلورايد، إلى المخزون المائي المتبقي للطبقات الجوفية. كذلك فإن مياه الهند ملوثة إلى درجة كبيرة بمياه الصرف الصحي وبقاذوراتها وبالمخلفات الصناعية غير المعالجة ومفرزات المبيدات الحشرية. وتهدد الصين بإقامة سد على نهر براهما بوترا قبل وصوله إلى الحدود الهندية، وهي خطوة سوف تكون لها عواقب كارثية بالنسبة للملايين من الهنود.

ويؤدي الاحتباس الحراري إلى تقلص المساحات المغطاة بالثلوج في جبال الهيمالايا، وربما يقوم بتغيير أنماط هطل الأمطار التي يعتمد عليها الكثير من الأعمال الزراعية. وسوف تؤثر هذه العملية على الجنوب الاستوائي بصورة سلبية أكثر من تأثيرها على مناطق الشمال ذات المناخ المعتدل، فالاحتباس الحراري العالمي ينذر باحتمالات مرتقبة تشمل إغراق جزر اندامان ونيكوبار الهندية وغمر المناطق الساحلية بالمياه، وهي تشكل موطناً لمئات الملايين من السكان. وفي منطقة غرب البنغال وبنغلاديش المجاورة وحدها، قد تؤدي الارتفاعات المتوقعة

في منسوب مياه البحر إلى نزوح وتشريد ما قد يصل إلى ستين مليون شخص، ما لم يتم اتخاذ إجراء جذري لإيقاف انبعاث الغازات المتصاعدة من البيوت الزراعية البلاستيكية.

إن اندفاع الهند لتطوير صناعة الحديد الصلب لديها وتطوير قاعدتها التصنيعية يدفع بشركات التعدين وأصحاب المصالح المتنفذين إلى مناطق تعد تقليدياً موطن السكان القبليين الأصليين أو «الأديفاسيز» Adivasis كما يعرفون اليوم. وكانت المناطق الغنية بالمعادن في ولايتي تشهاتيسغار واوروبيسا قد شهدت نزاعات دموية بين شركات صناعة الحديد الصلب الكبيرة والسكان المحليين على خلفية طردهم من أراضي أجدادهم. وغذى الحرمان الاقتصادي الحاد والفوارق الاجتماعية المؤلمة نمو حركة تمرد تتبنى تعاليم الزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونغ تدعى «حركة الناكسال» TheNaxalites وسميت باسم بلدة ناكسالباري Naxalbari في غرب البنغال، حيث نظمت جماعة صغيرة منشقة عن الحزب الشيوعي الهندي انتفاضة فلاحية مسلحة في عام 1967. وقد امتد الناكسال حالياً إلى ما هو أبعد كثيراً من غربي البنغال. وتعتز الحركة بجيش قوامه نحو 20,000 رجل[8] وعدد غير معروف من المناصرين الذين تتكاثر صفوفهم بفعل ما يلحقهم من المظالم الاقتصادية والاجتماعية القاسية. ويعلق القرويون داخل المناطق التي ينشط فيها الناكسال، وسط تبادل إطلاق النار ما بين المتمردين وقوات الأمن. وقد أسرَّ لي محلل هندي كبير في نيودلهي العام الماضي بأن البعض يخشى بأن ما يُدعى «بالممر الأحمر» للناكسال لديه القدرة على العمل بأقصى إمكانياته في طول البلاد وربط المتمردين الماويين (تيار الزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونغ) في نيبال برجال العصابات في سريلانكا. ومن الواضح أن الهند تواجه تحديات مخيفة لا بد من التغلب عليها -وبسرعة- وإلا فإن المخاض الهائل لولادة دولتها الجديدة سوف يتضرر.

الابتكار من أجل البقاء

قال لي مسؤول تنفيذي هندي كبير: «لدينا فسحة زمنية تمتد ما بين خمس وسبع سنوات. فالهند لا تنعم بترف الوقت. ولا بد لها من أن تواجه وعلى الفور مجموعة من المشكلات بطرق تكون قابلة للمتابعة ومقبولة. ولا بد لها من أن تعمل على إدارة وتحريك

وسائل التكنولوجيا الجديدة بشكل يقلل إلى أدنى درجة من الضرر اللاحق بالبيئة، في حين تعمل على زيادة الموارد غير الكافية إلى حدها الأعلى من أجل تأمين المنافع التي تشكل حاجة ماسة للأعداد الضخمة من السكان. ويجب على الهند أن تستخدم - تستغل - موهبتها الثابتة المؤكدة بالنسبة للابتكارات التكنولوجية لكي توجد الحلول التي تحتاجها.

وتجازف السيارات الجديدة، ومصانع ومنشآت الطاقة الكهربائية، والمعامل في الهند بإضافة ملايين الأرطال من مادة الفحم إلى مناخ مثقل بالمادة سابقاً، ما لم تتحرك البلاد لتعزيز نموها بطاقات بديلة نظيفة. والهند هي الدولة الوحيدة التي لديها وزارة للطاقة غير التقليدية. كما لديها الإمكانية؛ لأن تصبح رائدة في ابتكار التقنيات الحديثة للإنتاج النظيف للطاقة. وتشكل الشركة الهندية سوزلون «Suzlon» مثالاً على كيفية تمكن الهند من زيادة حجم الطاقة البديلة وجعلها عالمية. فقد أصبحت شركة سوزلون وأثناء سنوات قليلة إحدى الشركات الرئيسة في مجال توليد الطاقة الكهربائية باستنباط طواحين الهواء، وهي تبيع الكهرباء لمنشآت ومرافق في ولاية كاليفورنيا وغيرها من الأسواق الأجنبية. وفي حين ترتفع أسعار النفط باتت وسائل التكنولوجيا البديلة أكثر جذباً للاهتمام بصورة متزايدة. ولدى ذكاء التكنولوجيا والحاجة الماسة لإيجاد حلول نظيفة للطاقة.

وتستخدم الهند وسائل التكنولوجيا الرقمية لإيصال الخدمات الصحية والتعليمية إلى الفقراء في المناطق الريفية النائية. وهي تقوم باستنباط أدوية نوعية وعلاجات قليلة التكاليف للأمراض الوبائية، وتوجد نماذج جديدة لتقديم رعاية صحية عالية المستوى بما في ذلك إجراء أحدث العمليات الجراحية وأكثرها تطوراً للفقراء. «إننا نحاول التفريق ما بين الرعاية الصحية والغنى» هذا ما قاله لي الدكتور ديفي شتّي مؤسس مستشفى «نارايانا هرودايالايا» لأمراض القلب وأحد أكثر الأشخاص المميزين الذين قابلتهم في الهند. وأضاف: «ربما يستمر الناس في أن يكونوا فقراء، لكنهم سوف يحصلون على الرعاية الصحية التي تعتمد تكنولوجيا متقدمة بكرامة». لقد باتت الهند أيضاً مقصداً جذاباً لتلقي العلاج في الخارج: فبإمكان الأمريكيين الذين ليس بمقدورهم تحمل نفقات العمليات مرتفعة التكاليف في الولايات المتحدة السفر إلى الهند وإجراء هذه العمليات مقابل دفع جزء صغير من التكلفة.

وتقوم الهند باستخدام التكنولوجيا من أجل خفض ثمن السلع الأساسية بحيث تجعلها متيسرة لأعداد متزايدة من الناس. كذلك تعمل الهند على إنتاج هواتف خليّوية ثمن الواحد منها عشرون دولاراً، وتصميم سيارات ثمن الواحدة منها ألفا دولار. وهي تعمل على صناعة أجهزة حاسوب غير مكلفة تقاوم الحرارة العالية وانقطاعات الكهرباء المتكررة. كما تقوم بإنشاء نماذج تجريبية لمصانع توليد الطاقة الكهربائية على نطاق ضيق، وهي تدار بفضلات المحاصيل مما يمكّن المزارعين من بيع الفائض من التيار الكهربائي ثانية إلى شبكة الخطوط الكهربائية. وليس في وسع معظم الناس في العالم تحمل عبء دفع الأسعار المطلوبة للسلع والخدمات في الغرب. غير أن لدى الهند الإمكانية لجعل تلك السلع والخدمات متاحة بأسعار يمكن للعالم بأسره أن يتحمل تكاليفها.

الطريقة الهندية

في خطابه الشهير الذي أذيع على الراديو في الساعة الثانية عشرة من منتصف ليل إعلان ولادة الهند دولةً مستقلةً بتاريخ 15 آب 1947، بيّن جواهر لال نهرو، أول رئيس وزراء للبلاد، وبوضوح، الوعد الجديد للدولة إلى شعبها قائلاً:

> «المستقبل يومئ إلينا. فإلى أين نتجه وما الذي سنسعى إليه؟ تأمين الحرية وإتاحة الفرصة للناس العاديين للفلاحين، وللعمال الهنود؛ مكافحة الفقر والجهل والمرض والقضاء عليهم؛ بناء دولة مزدهرة، ديمقراطية ومتقدمة؛ وإقامة مؤسسات اجتماعية واقتصادية وسياسية تضمن العدل والحياة الكريمة لكل رجل ولكل امرأة[9]»

وتظل هذه الأهداف أهدافاً مشجعة بقدر ما هي محيرة. ولا يزال فقراء الهند بانتظار الفرصة المواتية وبانتظار العدل، ولا يزال جزء كبير جداً من معيشتهم مثقل بالفقر، والجهل، والمرض. وما من شك أن بعض أسوأ حالات الاستغلال للكائنات البشرية يحدث في الهند - عبودية عقود الخدمة، وتجارة الجنس غير المشروعة واستغلال النساء والأطفال فيها، عمالة الأطفال، قتل الأجنة الإناث وقتل الأطفال - والأقل إثارة مع أنها موهنة بالمقدار نفسه، شدة الفقر وشدة المرض وشدة اليأس التي يعانونها يومياً.

وفي مواجهة أوضاع الأزمات التي لابد أن تعمل على حلها وإلا جازفت بتبديد الوعد الرائع لهذه اللحظة، فإن الهند تأخذ على عاتقها القيام بالمهمة الجبارة للوفاء بالتعهدات التي أعطاها نهرو للشعب ساعة إعلان استقلالها. ولقد استغرق الأمر بالبلاد ستين عاماً للوصول إلى هذه المرحلة، وهو ليس بالوقت الطويل في مهنة الأمم؛ ويعد سريعاً جداً بمقياس المسيرة الزمنية القديمة للهند باتجاه المدنية والحضارة.

وتدرك الهند أن عليها أن تخترع طريقتها الخاصة في العالم. وكنت قد سمعت مراراً وتكراراً ترجمة ما للاستراتيجية الراديكالية الآتية لنجاح الهند، تتعارض فيها أسس البداية مع ما هو بديهي: عالج كل مشكلة باعتبارها فرصة مواتية. ففي دولة تضم أكثر من مليار شخص، ابدأ بالتأكيد أنه في اقتصاد المعرفة، كل عقل لم تستغل قدراته بعد، هو ميزة بانتظار إدراكها. دع القوة المؤكدة لتنظيم المشروعات تؤثر في أكثر المشكلات استعصاءً، ولكن لا تفترض أن الاستثمار الخاص وحده يمكنه إنجاز العمل بالمقياس المطلوب وبالسرعة المطلوبة. قم بتكوين علاقات شراكة ما بين العمل، والحكومة، والمنظمات غير الحكومية. قم برعاية الشبكات المترابطة وتوجيه العلاقات ما بين أولئك الذين يمتلكون المعرفة العملية والمهارة وأولئك الذين يرغبون في أن يتعلموا؛ وأيضاً بين أولئك الذين يمتلكون رأس المال، وأولئك الذين يحتاجون إلى رأس المال لبدء مشروع ما. قم وبإصرار بالعمل على خفض التكاليف من أجل خفض الأسعار؛ قم بالإصغاء إلى الفقراء؛ هم يعرفون ما الذي يحتاجون إليه، وامنحهم القوة عن طريق منحهم التعليم الجيد ووسائل كسب العيش، وضع تصوراً لكيفية تلبية احتياجاتهم، وسوف يحالفك التوفيق وتحقق النجاح.

وقال لي شيف سيفاكومار مبتكر برنامج (e-choupal) «اي -تشوبال» الإلكتروني الإبداعي الذي تشرف عليه الشركة الهندية للتبغ (ITC) وهو عبارة عن أكشاك للإنترنت تعمل بمنزله مراكز إعلامية تربط المزارعين بالأسواق في مناطق الأرياف في الهند: «إن نماذجنا تقوم وعن طريق التخطيط السابق بترسيخ الاعتقاد القائل إن بإمكاننا أن نحقق النجاح فقط إذا ما قمنا بعمل مفيد، ونحن نقوم بعمل مفيد فقط عندما نحقق النجاح».

ولدى نارايانا مورثي، الذي كان من المشاركين في تأسيس شركة Infosys ثم تقاعد مؤخراً، نظرية تدعى «الرأسمالية الرحيمة» وقد أبلغني كيف يفهمها. «فالدور الرئيس لشركة كبرى

مساهمة هو إيجاد الثروة بشكل قانوني وأخلاقي. وتلك هي مسؤوليتنا الرئيسة. إلا أنه وفي إطار دولة نامية مثل الهند، فإن مسؤولية الشركة تصل إلى ما هو أبعد من ذلك. حيث إنه يجب عليك أن توجد حسن النية في المجتمع. وذاك لا يعني أن على الشركات التجارية أن تتولى القيام بمسؤوليات الحكومة. إن الإسهام الكبير الذي يمكن لشركة ما أن تحقق به الصالح العام يتمثَّل في علاقات الشراكة ما بين الخاص والعام».

أما في الولايات المتحدة، واختصاراً لما ورد في شهادة تشارلز إروين ويلسون الرئيس السابق لشركة جنرال موترز أمام لجنة الخدمات العسكرية التابعة لمجلس الشيوخ عقب تسميته وزيراً للدفاع من قبل الرئيس أيزنهاور، فإن «ماهو مفيد لشركة جنرال موترز يكون مفيداً للبلاد». ومنذ أن قيل هذا الرأي في عام 1952، عانت شركة جنرال موترز ظروفاً صعبة، وسرحت ثلاثين ألف شخص في الولايات المتحدة في عام 2006، ومع ذلك فإن فكرة أن كل ما يصب في مصلحة الشركات الأمريكية هو لصالح الشعب الأمريكي تظل تشكل مفهوماً أساسياً بالنسبة للسياسة الخارجية والداخلية للولايات المتحدة.

ومعظم رؤساء الشركات التجارية الهنود الذين التقيتهم يقلبون الصيغة رأساً على عقب. وهم يؤمنون بصدق أن نجاح مشروعاتهم ونشاطاتهم الاستثمارية يرتبط في النهاية بمدى إسهامهم في مواجهة المشكلات الملحة لبلادهم. وقد عبر موكيش آمباني عن ذلك بإيجاز بليغ بقوله: «إن ماهو مفيد للهند مفيد لشركة ريلاينس».

الرأسمالية الشمولية

ألقى واي. سي. ديفيشوور رئيس مجلس إدارة الشركة الهندية للتبغ، إحدى أكبر الشركات المساهمة في الهند خطاباً مثيراً أمام المساهمين من حملة الأسهم في شركته العام الماضي. وفي حين أنه كان مسروراً بإعلانه للمستثمرين أن العائدات السنوية بلغت (30) بالمئة، فقد كان فخوراً فعلاً بإبلاغهم بتحقيق هذه النتائج حتى بينما «تقوم شركتكم بوضع معايير جديدة في أداء مثلث الحد الأدنى المطلوب. وبصفته رئيساً لشركة يقوم عملها المعتاد على التبغ، فقد كان ديفيشوور يمتلك حافزاً خاصاً لتحويل الشركة الهندية للتبغ إلى مواطن تجاري صالح. ولا تزال السيرة المهنية الخاصة بالمسؤولية التجارية للشركة تثير الإعجاب

والاحترام. فالشركة الهندية للتبغ التي كانت تعمل من قبل على خفض استهلاكها من المياه إلى الحد الأدنى، وتلتزم باتخاذ إجراءات لضمان المحافظة على الموارد المائية أصبحت حريصة على وضع حد لانبعاث غاز ثاني أوكسيد الكربون من معاملها في عام 2006، وقد قطعت شوطاً لا بأس به في طريقها للوصول إلى وضع ينعدم فيه طرح النفايات الجامدة».

ويأخذ مثلث الحد الأدنى المطلوب في الحسبان البيانات والأوضاع المالية والاجتماعية والبيئية والنتائج التي تعوّدها. وقد أرجع السيد ديفيشوور نجاح الشركة الهندية للتبغ عبر هذه النقاط الأساسية الثلاث جميعها إلى قيم الشركة المتأصلة بعمق في روح الشعب الهندي والمميزة بتراثها ومعتقداتها. وأكد ديفيشوور أن هذه الخصوصية «تقرر خيار إستراتيجية الشركات التجارية، وتوجه مثل هذه الإستراتيجية لصالح سلسلة القيم الهندية أينما كان ذلك ممكناً ومعقولاً، وتشرك المؤسسة بإرادتها في مواجهة التحديات الاجتماعية الأكبر للنمو الشمولي والقابل للاستمرار».(10)

ويزداد اقتراب بعض زعماء الهند الأكثر امتلاكاً للأفكار والرؤى الثاقبة من هذا النموذج الرأسمالي الجديد الذي يحقق الثروة ويشجع على احتواء الطبقات الاجتماعية في بوتقة واحدة ومساندة البيئة. لقد جعلت حكومة الهند من سياسة الاحتواء الجزء الأهم من سياساتها الداخلية فشددت على التعليم المطور للجميع، وسنت القانون الوطني لضمان توظيف سكان الأرياف بهدف توفير أصغر شبكة أمان اجتماعية ممكنة للفقراء في المناطق الريفية في الهند. والسبب بسيط: ليست هنالك من طريقة أخرى.

القدرة على التخيل

لقد سمعت هنوداً كثيرين جداً من اناند ماهيندرا إلى موليكا دوت، ومن غوثام تشوبرا إلى روهيني نايلكاني، سمعتهم يقولون: إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى تأخر الهند في هذه اللحظة التاريخية الحرجة هو حدوث قصور في المخيلة وضعف القدرة على التخيل. والأمر ذاته يصح بالتأكيد بالنسبة لبقيتنا. فكوكبنا يترنح عند حافة كم هائل من الأزمات المخيفة، تتراوح ما بين الاحتباس الحراري، إلى الأوبئة المتفشية القاتلة، إلى فوضى الإرهاب والحروب. إن الاعتقاد بأن النمو الاقتصادي والتطور أمران ممكنان فقط عن

طريق التضحية بالإمكانيات، التي تنطوي عليها حياة المليارات من الكائنات البشرية، أو عن طريق إلحاق ضرر هائل ببيئتنا المشتركة، يعني الإصابة بقصور حاد في القدرة على التخيل. وإذا ما كان بإمكان الهند أن توجد اقتصاد معرفة يكون اقتصاداً متكيفاً مع التحديات التي تواجهها، وإذا كان بإمكانها أن تغيِّر عصر المعلومات إلى عصر للحكمة، فإنها سوف تنقذ نفسها - وتنقذ البقية منا كذلك.

إن سياسة الاحتواء الهندية سوف تخفف، وفي أفضل العوالم الممكنة جميعها، من حالة الانقسام الاقتصادي للرأسمالية الأمريكية، بينما ستؤدي عملية تنظيم المشروعات والأنشطة الاستثمارية ومزاولة الأعمال الحرة على الطريقة الأمريكية إلى تحفيز الاقتصاد الهندي. إن التزام الهند بعالم متعدد الأقطاب والتزامها بتعميم الديمقراطية في النظام العالمي النامي سوف يضع حداً للتوجه الأحادي الصارخ لأمريكة. وإن تركيز الهند على الإبداع في تطوير موارد بديلة للطاقة في توسيع الفرص التعليمية، والرعاية الطبية، وسبل العيش لأفقر مواطنيها سوف يدفع البلاد بقوة إلى مراكز قيادية في مجموعة كبيرة من المناطق الجديدة مجبراً الولايات المتحدة على إعادة النظر في سياساتها وأولوياتها. إن التزام الشركات الهندية بمبدأ تحقيق النجاح في العمل عن طريق القيام بالعمل المفيد، سوف يقيم مثالاً على رأسمالية شمولية ستشكل نموذجاً للعالم. وإن النقاش القديم الممل حول رغبة الولايات المتحدة في أن تفعل الشيء الصائب -مثلاً التحكم في انبعاث غازات البيوت الزراعية البلاستيكية- إلا أنه ليس بوسعها القيام به تماماً، هذا النقاش سوف يتم طيه، في حين تثبت الهند للعالم أنه ما من أحد بوسعه عدم التصدي لمعالجة هذه المشكلات. وبتجرُّئها على تخيل عالم مختلف، سوف تندفع الهند بقوة هائلة في موجة من النمو الاقتصادي تدعمها حلول إبداعية للمشكلات التي تهدد مستقبلنا الجماعي.

مصير العالم من مصير الهند

وبغض النظر عن أية مشكلة ملحة نفكر فيها -من الاحتباس الحراري العالمي، إلى الأوبئة المتفشية إلى أزمة الطاقة وإلى الهوة الواسعة القائمة ما بين الغني والفقير- فإن الوقت هو جوهر الأمر هنا ويشكل أهمية كبيرة. وتواجه الهند بتعداد سكانها الكبير ونموها

الاقتصادي المتسارع جميع هذه التحديات بإلحاح أكثر كثيراً مما يفعل البشر في عالم الدول الصناعية. ويجب علينا أن نركز انتباهنا على الوجهة التي تسير إليها الهند: فمن المرجح أننا جميعاً سوف يؤول مصيرنا هناك عاجلاً أم آجلاً.

وتُطوق الهند كل الوعود وكل المخاطر التي تكتنف هذه اللحظة الحاسمة في تاريخ البشرية. إن الهنود الذين كان لي شرف لقائهم والذين شاركوني رؤيتهم وتفانيهم يجمعون ما بين طموح رائع ومشكلات رهيبة جداً إلى حد أن الكثيرين منا يميلون إلى التظاهر بأنها غير موجودة. والهنود لا يملكون ترف التظاهر. ولا نحن في النهاية.

إن الهند تؤثر في حياتنا الآن بطرق أكثر كثيراً مما يدركه معظمنا. والحقيقة أننا غدونا نعيش سابقاً على كوكب الهند بكل معنى الكلمة. هذا الكتاب يتحدث عن نوع الكوكب الذي يمكن أن يكون عليه ذلك.

الفصل الأول

هنود وأمريكيون

«هذه التجربة سوف تغير مجرى حياتكم»، قالها فيكتور مينيزيس، عضو مجلس إدارة مؤسسة الهند الأمريكية (AIF)، في حين وقفت مجموعة من خريجي الجامعات ممن أنهوا دراساتهم مؤخراً مع مجموعة من الكوادر الشابة، وقد استحوذت على انتباههم كلمات مينيزيس. كانوا جميعهم قد اجتازوا بنجاح إجراءات الاختبار الصارمة، ليصبحوا «الزملاء الجدد لفيلق خدمات مؤسسة الهند الأمريكية» وكانوا متجمعين في حفل استقبال يقام على شرفهم في مقر المؤسسة في مدينة نيويورك. وقام بعضهم وهم يحملون بأيديهم كؤوس الشراب وأطباقاً صغيرة من المقبلات الهندية بالتنقل في المكان بعصبية، في حين كان آخرون ينظرون حولهم بثقة، وقد علت وجوههم ابتسامة مشرقة؛ وكانت قلة منهم قد زارت الهند من قبل. وكان بعضهم من الأمريكيين الهنود الذين يتكلمون إحدى اللغات الهندية. والكثيرون منهم لم تكن لهم من صلة بالهند على الإطلاق، عدا الرغبة في اكتساب الخبرة العملية في مجالات متنوعة مثل تحسين سبل العيش، صحة النساء، والتعليم الأساسي.

أرادت مارجوري شولمان وهي من مواطني ولاية كونيكتيكت وامرأة شقراء ضئيلة الحجم في سنيِّها العشرين الأولى، أرادت أن تتعلم المزيد عن المشروعات التجارية الصغيرة حتى تقوم بخدمة المجتمعات المحلية الفقيرة في الولايات المتحدة على نحو أفضل. وكانت ڤيمالا بالانيسوامي، التي نشأت في مدينة اوغستا بولاية جورجيا، قد توجهت إلى جنوب الهند. وقد أقرت بأن «لغتي التاميلية ليست ممتازة، ولكن بإمكاني أن أتدبر أمري في الكلام». وتبدو ڤيمالا وهي ابنة مهَاجرين من منطقة جنوب آسية بشكل لا لَبْس فيه، إلا أن كل قسم من حديثها يشبه تلك المواطنة الأمريكية التي تشكل هويتها. وقد أخبرتني أن إقامتها في الهند مدة عامين في وقت سابق جعلها تدرك كم كانت أمريكية في الواقع. «لقد أشار إليّ

الجميع على أنني الفتاة الأمريكية» قالت لي وهي لا تزال دَهِشةً قليلاً كونها الفتاة الهندية التي كانت تترعرع في صغرها في ولاية جورجيا. وكان جميع الزملاء الذين تحدثت معهم بلا استثناء يعتزمون أخذ خبرتهم في الهند وتطبيقها في مهن كانوا يأملون أن يمارسوها في العمل المصرفي، أو في الطب، أو في حقل الخدمات العامة.

وقد عمدت إلى إحراج فيكتور مينيزيس، وكان يرتدي بذة رجال أعمال أنيقة بسيطة وربطة عنق حريرية حمراء بسؤاله عما كان هؤلاء الشبان الأمريكيون يأخذونه معهم إلى الهند عدا عن المهارات والخبرات والتعليم، فقد كان التقدير الذي يحظى به البرنامج يعود إلى مؤسسة الهند الأمريكية. فأجاب موضحاً «هؤلاء الشبان الأمريكيون يصبحون سفراء للهند وللقضايا الهندية عندما يعودون». «أنظري، هنالك من الأمور المشتركة بين الهند والولايات المتحدة أكثر كثيراً مما هنالك من الاختلافات، وتشكل الهند مختبر تجارب رائعاً للعديد من الموضوعات والقضايا. إنها نموذج مصغر لكل مسألة سياسية مهمة يواجهها العالم».

وكانت مؤسسة الهند الأمريكية قد تلقت منحة كبيرة من مؤسسة فورد في العام الماضي لتشجيع الأعمال الخيرية الإنسانية داخل المجتمع الأمريكي - الهندي. إن الميل الأمريكي الهندي باتجاه رد العطاء سوف يندفع على الأرجح ليبلغ مستويات جديدة عن طريق هذا المسعى معززاً بذلك الحلقة الطيبة التي تعود بالنفع على كل من الهند والولايات المتحدة.

الولايات المتحدة والهند
شعبٌ لشعب

حتى مجيء هذا القرن، كانت العلاقة بين الولايات المتحدة والهند وبشكل حصري تقريباً علاقة شعب بشعب. كانت العلاقات التجارية والسياسية ليست ذات أهمية لأسباب أقلها أن حكومة الهند كانت لمدة ملحوظة من الزمن تتبع بريطانية العظمى. وفي ظل الحكم البريطاني أصبح اسم الهنود مرتبطاً باسم الولايات المتحدة بوصفها مستعمرة بريطانية أخرى مشابهة. وأبدوا إعجابهم بها لكونها حققت ما كانت تتمناه الهند: الاستقلال. وتدفقت التيارات الفلسفية القوية جيئة وذهاباً بين البلدين، وهي تيارات أثّرت بشكل كبير

في المستقبل السياسي لكلتا الأمتين. وكانت الفلسفة وعلم اللاهوت في الهند يشكلان مصدر إلهام عميقاً للأمريكيين الذين يؤمنون بالفلسفة القائلة إن اكتشاف الحقيقة يتم عبر دراسة آليات الفكر، وليس عن طريق التجربة. وقرأ رالف والدو ايمرسون وهنري ديڤيد ثورو الكتب الهندية المقدسة بما فيها «ڤيشنو پوراناس» Vishnu Puranas* و«مهابهاراتا» Mahabharata** وكتب الاثنان أشعاراً ومقالات من وحي قراءتهما للكتب الهندية.

وكانت بطاقة الدعوة التي وجهت لحفل زفاف والديَّ قد اقتبست الأبيات الآتية من شعر والت ويتمان «ممر إلى الهند» من ديوانه الشهير «أوراق العشب» الذي صدر عام 1855.

ممر إلى الهند!

إيهِ أيتها الروح، ألم تدركي غاية الرب منذ البداية؟

أن تنبسط الأرض وتتصل بشبكة من الخطوط.

أن تقترن الشعوب وأهل الجوار بعضهم ببعض وأن يهبوا أنفسهم للزواج.

أن يجري عبور المحيطات، وتقريب البعيد.

أن تتحد البلاد معاً.

كان اتحادهما الأمريكي - الهندي الذي تم في عام 1957 اتحاداً غير عادي. وساعد الاقتباس من ويتمان على وضع أسس له في تقليد أمريكي مميز، إلا أن هذا لم يمنع عميدة كلية البنات من استدعاء والدتي إلى مكتبها لمحاولة إقناعها بالعدول عن ارتكاب غلطة شنيعة. ففي حين أنها ربما لا تقوم بذلك بارتكاب أي شيء غير قانوني في ولاية أوريغون، فإنها سوف تكون متهمة بانتهاك قوانين عدم جواز اندماج الأعراق في الجنوب الأمريكي التي تمنع الزواج بين شخص أبيض وآخر غير أبيض.

* قصص أسطورية تدور حول أحد الآلهة الكبار في الديانة الهندوسية. وتعني كلمة «ڤيشنو» الكائن الأعلى. (المترجمة)

** ملحمة شعرية عظيمة من التراث الهندوسي مكتوبة باللغة السنسكريتية يعود تاريخها إلى نحو العام 400 قبل الميلاد. (المترجمة)

لقد قرأ المهاتما غاندي كغيره من الآلاف من الهنود الآخرين من جيله، بمن فيهم جدي وجدتي أنا، قرأ ايمرسون وثورو. وتأثر غاندي بفكرة ثورو عن العصيان المدني فدمجها في أساليبه السياسية الخاصة، سياسة اللاعنف، والمقاومة التي تنبذ العنف. ولم يغب عن ذهن غاندي أيضاً لقاء حصل مصادفةً بعد مدة قصيرة في اليوم الذي أعقب الحادثة الشهيرة عندما تم رميه خارج مقصورة قطار مخصصة للبيض فقط، مع «زنجي أمريكي» كان مثله محروماً من حقوقه المدنية في موطنه بجنوب إفريقيَّة التي كانت تحت حكم نظام عنصري. وقد ربط غاندي وأتباعه محنة الهنود المقهورين،المغلوبين على أمرهم، ولا سيما المنبوذين، بمحنة الأمريكيين الأفارقة في أمريكة في عهد الرئيس جيم كراو.

وأثناء أعوام العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، تابع الأمريكيون الأفارقة وعلى نحو وثيق تقدم غاندي وحركة تحرير الهند في مطبوعات كانت تقرأ على نطاق واسع مثل كتاب «الأزمة». وفي عام 1936، رأس هوارد ثورمان وفد صداقة من السود في زيارة إلى جنوب آسية واجتمع مع غاندي. وناقشا التشابه بين القمع الذي كان يتعرض له المنبوذون في الهند والقمع الذي يتعرض له الأمريكيون الأفارقة. وأصبح مارتن لوثر كينغ على معرفة بغاندي وفلسفته عبر كتاب ثورمان وعنوانه «المسيح والمحرومون»[1] ويظهر هناك في الفيلم التلفزيوني عن مارتن لوثر كينغ الذي يصوره وهو يلقي خطبته الشهيرة التي يقول فيها: «لدي حلم» عند أعتاب النصب التذكاري للرئيس لينكولن، يظهر الأتباع المحيطون به وهم يرتدون القلنسوة البيضاء التي كانت تميز نهرو. وكان كينغ قد قال عن إسهام نهرو في حركته: «لقد قام المسيح بتزويدنا بالعزيمة والحافز بينما قام غاندي بتزويدنا بالنهج»[2].

فاضت مشاعر التعاطف ما بين كفاح الهند من أجل الاستقلال وكفاح الأمريكين الأفارقة من أجل المساواة في الحقوق على نحو عميق. والمعروف تاريخياً أن الجامعات التي كانت مقتصرة على السود كانت تشجع الطلبة الهنود على المجيء للدراسة في مؤسساتها. وقد أبلغتني الكاتبة مارينا بودوس أن والدها، وهو هندي ينتمي لعرق معين من غويانا كان يتابع المحاضرات في جامعة هارفرد في الخمسينيات إلى جانب مجموعة من الطلاب القادمين من الهند.

وعلى الساحل الغربي، كان هناك أناس من طائفة السيخ قدموا من منطقة البنجاب مع غيرهم من المهاجرين من الهند إلى مدينة سياتل وإلى منطقة سنترال ڤالي في ولاية كاليفورنيا نحو العام 1400، ليعملوا في قطع الأشجار واستخراج الأخشاب منها فضلاً عن العمل في الزراعة. ومع إدراكهم القوي لوضعهم الذي يفتقر للحماية باعتبارهم من سكان مستعمرة تتبع بريطانية العظمى ومن رعاياها فقد أطلقوا حركة ثورية من أجل استقلال الهند عن الحكم البريطاني تسمى «حركة غادار» Ghadar Movement. كان مقر أعضاء الحركة أو «الغاداريون» موجوداً في مدينة سان فرانسيسكو، حيث لجؤوا إلى إصدار صحيفة. وجمع هؤلاء الأمريكيون الهنود المال في إطار سعيهم لنيل الحرية لوطنهم، ونظموا رحلة لقارب (كان مصيره الغرق) محملاً بالبنادق والذخيرة لتسليمها إلى المناضلين من أجل الحرية في الهند. وعمد مهاجرون آخرون من البنجاب، استقروا في كاليفورنيا، إلى إدخار أموال كافية لشراء أراضٍ وإنشاء مزارعهم الخاصة. وما يزال هناك مجتمع مزدهر من رعايا البنجاب موجود في مدينة بوبا بولاية كاليفورنيا وما حولها. وبعد السماح لهم بدخول الولايات المتحدة كرجال أَعزاب، تزوج الكثيرون منهم نساءً أمريكيات من أصل مكسيكي. وعندما تعرضت مزارعهم للتهديد بالمصادرة بمقتضى بنود قانون عام 1913 الذي يمنع تملك الأراضي للأجانب، لجأ الكثيرون إلى تسجيل أملاكهم بأسماء زوجاتهم لإنقاذ أنفسهم[3]. وبينما كان شعبا الهند وأمريكة يستمدان الإلهام من كفاح كل منهما من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية، كانت حكومتا البلدين تتبعان اتجاهاً مختلفاً تماماً. فبعدما ساد جو حميم العلاقة القائمة بينهما لمدة وجيزة عقب استقلال الهند في عام 1947، انساقت الولايات المتحدة والهند في تباعد حذر، وتحالفت كل منهما مع العدو الأكبر للآخر: الهند مع الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة مع باكستان أثناء حرب الأفغان ضد إسلام أباد. ومن السخرية بمكان أن الحرب الباردة التي كان لزاماً أن تهزم السوفييت قد فتحت أبواب الولايات المتحدة أمام الهجرة من الهند. وسعت الولايات المتحدة في السباق نحو السيطرة على المجال التكنولوجي والعسكري إلى تسخير مهارات الأفضل والأذكى حتى لو كان عليهم أن يأتوا من إفريقيَّة وآسية. وفي عام 1965، اتخذت الولايات المتحدة خطوة بفتح حدودها أمام العمال من ذوي الكفايات العالية القادمين من دول غير أوروبية الذين كانت هجرتهم تخضع سابقاً لإجراءات متشددة بغرض الحد منها.

عندما جاء والدي إلى الولايات المتحدة في عام 1949، بتأشيرة دخول تُمنح للطلاب، كان هناك عشرة آلاف شخص فقط من أصل هندي في البلاد بأكملها، وهو الرقم ذاته الذي كان مسجلاً في العام 1900. وبعد عام 1965، بدأ المهندسون، والأطباء، والعلماء الهنود وغيرهم من الأشخاص ممن تلقوا تعليماً جامعياً أو يسعون للتعلم في هذه المجالات، بدؤوا يصلون تباعاً بأعداد كبيرة وبشكل متزايد. ونشأت الصورة الثابتة في الأذهان لنمط طالب الهندسة الهندي (أصبح والدي مهندساً في الطيران مع أنه كان قد جاء في وقت سابق)، لكي يتم استبدالها بعد عقدين من الزمن بالهندي المهوّس بتكنولوجيا المعلومات.

ازداد عدد الهنود الذين يدرسون، ويعيشون، ويعملون في الولايات المتحدة بشكل مطرد أثناء أعوام السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي. وأثناء السنوات القليلة الماضية، أقدمت الهند وبشكل ثابت على إرسال طلاب للدراسة في الولايات المتحدة أكثر من أي بلد آخر. وفي عام 2005، جاء أكثر من ثمانية آلاف طالب من الهند إلى الولايات المتحدة لمتابعة الدراسات العليا، وهذا يزيد بنحو (30) بالمئة عن ستة آلاف الذين جاؤوا من الصين. وليس كل هندي يأتي للدراسة أو العمل في الولايات المتحدة يبقى فيها. فالكثيرون يعودون إلى الهند. وقد كان هذا عادة ما يصح بالنسبة لأبناء الطبقة الغنية، حيث كانت تجتذبهم الفرصة لتولي إدارة الشركات والمشروعات التجارية للعائلة أو التدرج في الوظائف العليا للدوائر الحكومية. وكان عدد ملحوظ من كبار رؤساء الشركات والسياسيين الهنود قد درسوا وعاشوا أو عملوا في الولايات المتحدة. وهناك كثيرون آخرون لديهم أولاد أو أفراد مقربون من العائلة قد فعلوا ذلك. ومما يثير الدهشة، عدد الهنود الذين يتولون مناصب عليا ممن التقيت بهم من حملة درجة الماجستير في إدارة الأعمال في مؤسسات أكاديمية أمريكية رفيعة المستوى مثل جامعات ستانفورد، وهارفارد، ووارتون أو كيلوغ - حيث إن الكثيرين من الأساتذة الممتازين هم من الهنود أيضاً. ولهذه الخبرات دور في نشوء روابط قوية مع الولايات المتحدة وميل طبيعي نحو تبني منهج أمريكي للعمل السياسي والتجاري.

وبحلول العام 2000، كان هناك (1.2) مليون شخص من أصل هندي يعيش في الولايات المتحدة. وهناك الآن (2.2) مليونان تقريباً. ومدعوماً بالهجرة المستمرة للهنود والتكاثر

الطبيعي للسكان المقيمين، فإنه يتوقع أن يتضاعف هذا الرقم كل عشر سنوات، جاعلاً من الأمريكيين الهنود أسرع جماعة آسيوية مهاجرة تزايداً في عدد أفرادها.

الأمريكيون الهنود

الأمريكيون الهنود أو الأمريكيون من أصول هندية هم إحدى الجماعات المهاجرة الأكثرها نجاحاً وازدهاراً، وأحسنها تعليماً في أمريكة. ويحمل ثمانية وخمسون بالمئة من الأمريكيين الهنود شهادة جامعية، بينما لا يحملها سوى 27 بالمئة من التعداد العام للسكان. ويبلغ متوسط دخلهم الأسري 64,000 دولار مقارنة مع المعدل الوطني البالغ 50,000 دولار. ويتحكم الهنود الأمريكيون بدخل شخصي قابل للتصرف فيه وكبير جداً، يبلغ بعد اقتطاع الضرائب (76) مليار دولار.[4] وتأتي الكثير من هذه الأرقام المثيرة للإعجاب نتيجة لقوانين الهجرة في الولايات المتحدة، التي أيدت قدوم المهاجرين من أصحاب المهارات والكفايات الممتازة ومن حاملي الشهادات الدراسية العالية من الهند، ممن سنحت لهم الفرصة للحصول على وظائف برواتب سخية.

ويحظى الأمريكيون الهنود بوجود غير متكافئ في بعض المجالات مثل الطب، الصناعة الفندقية وخدمات الضيافة، تكنولوجيا المعلومات، البحوث العلمية وإدارة الأعمال. وقد بات الأمريكيون معتادين على أن يعهدوا بأمور رعايتهم الطبية إلى الأطباء الهنود. وهناك استناداً إلى الرابطة الأمريكية للأطباء من أصل هندي، اثنان وأربعون ألف طبيب وخمسون ألف طالب طب من أصل هندي في الولايات المتحدة.[5] ويعد الدكتور سانجاي غوبتا الذي يظهر على شاشة تلفاز «سي. ان. ان» مثالاً على الرمز الذي تقدمه وسائل الإعلام لطبيب العائلة الأمريكية الموثوق القادم من الهند.

ويقدر سعر السوق للعقارات الموجودة في الولايات المتحدة التي يملكها أفراد من رابطة أصحاب الفنادق الأمريكيين من أصول آسيوية، وهي منظمة أسسها مهاجرون من الهند ويشرف عليها من يسمون الباتلز Patels. وهم أصلاً من ولاية غوجارات الهندية، يقدر بـ (29.9) مليار دولار تشكل أصول شركات تعمل بموجب امتيازات ممنوحة من الحكومة،

و(8.1) مليارات دولار قيمة ممتلكات مستقلة. وتوضح الرابطة على موقعها على الإنترنت أصل كلمة Patel فتقول: «كان قدماء الحكام في الهند يعينون قيّماً على السجلات ليبقى على اطلاع على المحاصيل السنوية، التي تدرها كل قطعة من الأراضي أو كل تلة صغيرة «pat» (بات). وأصبح ذلك الشخص يعرف باسم (باتل) «patel».[6] وقد أدى نجاح هذه المجموعة في مجال الأعمال الفندقية والموتيلات (النزل) المستخدمة من قبل المسافرين على الطرقات العامة في أمريكا إلى ظهور التعبير «نزل باتل» Patel motel.

ويضم كبار المديرين من الأمريكيين الهنود البارزين الذين يتقلدون مناصب رفيعة، اندرا نوويي المدير التنفيذي لشركة بيبسي Pepsico، راجات غوبتا، الشريك الإداري على مستوى العالم والمدير التنفيذي السابق لشركة ماكينزي Mckinsey وشركاه للاستشارات الإدارية العالمية؛ ڤيكرام بانديت، الرئيس السابق وموظف العمليات المسؤول للضمانات المؤسساتية والمجموعة المصرفية الاستثمارية التابعة لبنك مورغان ستانلي Morgan Stanley، شايلش ميهتا المدير التنفيذي السابق لشركة بروڤيديان Providian للخدمات المالية المساهمة؛ وفيكتور مينيزيس، نائب رئيس مجلس إدارة مجموعة سيتي غروب City Group. وهناك عامل واحد في هذه الظاهرة هو المعاهد الهندية للتكنولوجيا (IIT) ذات المقدرة التنافسية العالية والمعاهد الهندية للإدارة (IIM) التي تسمح بدخول شخص واحد فقط من أصل ستين ممن يتقدمون بطلبات الالتحاق بها، وتمنح أولئك الذين يتمكنون من التفوق تعليماً متميزاً رائعاً. ويتم تلقف خريجي هذه الكليات من قبل شركات رائدة من كل أنحاء العالم.

شكل إسهام الهنود العاملين في «وادي السيليكون» إسهاماً هائلاً وعظيماً بالنسبة للدور الريادي للولايات المتحدة في مجال التكنولوجيا وبالنسبة للانطلاقة الاقتصادية للهند. وكان الصحافي المخضرم مايكل لويس قد كتب في دراسته الشاملة حول ظاهرة وادي السيليكون في وقت سابق من عام 2000. وتحت عنوان «الجديد في الشيء الجديد: قصة وادي السيليكون»، «كانت الرائحة المؤكدة داخل أي شركة وليدة في وادي السيليكون هي توابل الكاري». وقد انجذب الكثير من معاهد التكنولوجيا الهندية وغيرها من خريجي العلوم التقنية نحو وادي السيليكون ليسهموا في الطفرة التقنية هناك في أعوام الثمانينيات والتسعينيات. وانتهى الأمر

بالآخرين في قطاع الأعمال والمشروعات التجارية أو مجال البحوث العلمية. وعمد الكثيرون من الهنود الذين ذهبوا إلى وادي السيليكون إلى تأسيس شركاتهم الخاصة هناك. وبحلول العام 2000، كان الأمريكيون من أصول هندية: إما يمتلكون الشركات التي كانوا يتولون فيها مناصب تنفيذية، أو كانوا يتبؤون مناصب إدارية عليا في (40) بالمئة من كل الشركات الناشئة في «سيليكون ڤالي»، وبلغ صافي رواتبهم الجماعية (62) مليار دولار[8]. ويضم بعض الهنود المعروفين على نطاق أوسع ممن جمعوا ثروات هائلة أثناء الطفرة التكنولوجية كلاً من ڤينود دهام، مبتكر معالج «بنتيوم»، ڤينود كهوسلا، أحد مؤسسي أنظمة «صن» متناهية الصغر، صابر بهاشيا، الذي أوجد البريد الإلكتروني Hotmail.com؛ سوهاس باتيل، مؤسس سيروس لوجيك «Cirrus Logic» المختصة بتوريد أجزاء الحاسوب الشخصي وكانوال ريكهي مؤسس «اكسيلان» Excelan، مزود خدمة تكنولوجيا المعلومات.

في أحد الأيام من عام 1992، كانت مجموعة من رجال الأعمال والمستثمرين الذين تعود جذورهم إلى منطقة الاندوس في الهند والناشطين في «وادي السيليكون» ينتظرون في المطار لاستقبال مسؤول حكومي هندي زائر، وشرعوا في الحديث فيما بينهم وقرروا أن يبدؤوا شيئاً يمكن أن يساعد رجال الأعمال على الاستفادة من خبراتهم. فكانت ولادة الشبكة العالمية «الاندوس للاستثمارات» (TheIndus Entrepreneur TIE). وهي أكبر منظمة غير ربحية في العالم بدأت عملها بمئة عضو، وتُعد الآن عشرة آلاف عضو في خمسة وأربعين فرعاً محلياً وتسع دول. والهند هي الدولة التي تضم معظم الفروع المحلية بعد الولايات المتحدة. وأصبحت (TIE) إحدى أكثر الشبكات الاستثمارية قوة في العالم وهي تتوسع بسرعة كبيرة جداً ومثيرة للدهشة. ومنذ عام 1992 أنشأ الأفراد المرتبطون بها شركات تجارية تبلغ الرسملة السوقية الموحدة لها (200) مليار دولار[9]. وبولادتها في وادي السيليكون كانت (TIE) تماماً من نتاج المجموعة الفريدة من الظروف التي أدت إلى ثورة تكنولوجيا المعلومات: التقارب ما بين جامعة ستانفورد ومركز بحوث باولو آلتو التابع لشركة كزيروكس، والنجاح الذي حققه بيل هيوليت وديف باكارد، مؤسسا شركة هيوليت باكارد الخبيران في تعديل وابتكار كل ما هو جديد في أجهزة الحاسوب والمعدات الإلكترونية.

لقد أدخلت (TIE)، على أي حال شيئاً هندياً بصورة فريدة من نوعها إلى هذا المحيط: العلاقة القديمة للتعلم التي تقوم ما بين المعلم والتلميذ. فالمعلمون (Gurus) في (TIE) يقومون بمساعدة المستثمرين الناشئين والمحترفين، والطلاب (Shishyas) مساعدتهم في تعلم أصول المهنة والتعامل مع الأنظمة المتبعة عن طريق مشاركتهم خبرتهم وعلمهم. كما تقوم (TIE) بتعزيز مبدأ تحقيق النجاح عن طريق القيام بالعمل الصالح. وعندما سئل عن دور تنظيم المشروعات الاجتماعية وشبكة (TIE)، أوضح فيش ميشرا وهو شريك كبير في المشروعات التي تنفذها الشركة المتضامنة «كليرستون» للمشروعات التجارية المشتركة وعضو في أحد فروع منظمة (TIE) «إن تنظيم المشروعات الاجتماعية يلبي حاجات الفقراء. وبذلك يجري إهمال أسواق المستويات الأدنى إلى حد كبير»[10]

إن الالتزام من جانب الهنود الأمريكيين الناجحين سواء لرد شيء ما من الجميل لبلدهم الأم ولمساعدة الآخرين على تحقيق النجاح قد تحول إلى محرك مهم لدفع العلاقات بين الولايات المتحدة والهند إلى الأمام: فرأسمال الاستثمار الخاص يتدفق على الهند، ويتم إرسال جزء كبير منه من قبل الأمريكيين الهنود الناجحين، الذين هم على اطلاع على الوضع في البلدين. وقد قال لي فيش ميشرا: «إننا في شركة كليرستون على معرفة جيدة بالهند كمصدر للمواهب وكسوق نشطة. إننا نعتقد بالفعل أن الهند قد حققت آلية الاشتعال والشعب المتعلم هو وقودها. أما الأوكسجين فهو البيئة السياسية، والاجتماعية المستقرة. والشرارة هي الفئة العمرية الشابة التي تتحرك صعوداً وبسرعة وتريد الإقبال على الاستهلاك». ولدى شركة كليرستون حالياً مكتب في مدينة بومباي.

أثناء حقبة الأشهر الاثني عشر التي انتهت في آب 2006، قامت مؤسسات رأس المال المغامر (VC) التي تمنح قروضاً لتنفيذ مشروعات إنتاجية باستثمار (2) ملياري دولار في شركات مبتدئة وأخرى متقدمة في أعمالها، وجرى رفع المخصصات المالية لمشروعات مماثلة متعددة وجديدة تركز على الهند إلى إجمالي (3) مليارات دولار[11]. وأعلنت شركة ماتريكس Matrix Partners المتضامنة المشتركة العام الماضي عن تخصيص اعتماد مالي للهند بقيمة (150) مليون دولار. وتم إنشاء شركة «سيكويا» لتوظيف الأموال فرع الهند عن طريق تملك شركة سيكويا للاستثمارات لشركة ويستبريدج لتوظيف الأموال، وهو صندوق مالي يركز

عملياته على الهند. وتشمل مؤسسات تجارية أخرى تختص بمشروعات رأس المال المغامر التي تقوم بتوظيف أموالها في الهند كلاينر بيركنز، كوفيلد وبايرز، نيوانتربرايز اسوسييت، نورويست، باتري، سييرا وكآنان بارتنرز.

ومما يثير الاهتمام بشكل خاص هو تركيز العديد من هذه الاستثمارات الخاصة على تمويل المشروعات الصغيرة، وتحسين البيئة، ومكافحة الأمراض المتفشية. وتعمل مؤسسات رأسمال الملا المغامر التي تتخذ من وادي السيليكون مقراً لها التي تركز على الهند، على إعادة اختراع مفهوم كلمة «الأخضر» ليعني كلاً من صديق للبيئة ومربح. وكان ڤينود كهوسلا من المشاركين في تأسيس شركة «صن مايكروسيستمز» Sun Microsystems وشريكاً تضامنياً لمدة طويلة في الشركة العملاقة Kleiner Perkins كلاينرپيركنز، Caufield & Byres، التي كانت قد تولت تمويل موقع Genentech، Googel، وSun. وبعدما تمكن من جمع مليار دولار، وساعد كثيرين آخرين من الشركات والأفراد على جمع ثروة مماثلة، انسحب كهوسلا من شركة Kleiner Perkins. وهو يقوم الآن بمتابعة استثماراته الخاصة، ينتقي ويختار مشروعات استثمارية لها علاقة بالجانب الاجتماعي مثل الوقود الحيوي، البطاريات التي تعمل بالوقود، والبطاريات التي تعمل بالطاقة الشمسية. إن مرجعيته الجديدة هي «أقصى تأثير اجتماعي بدلاً من أقصى ربح»(12). وهذا لا يعني أن كهوسلا يتطلع إلى خسارة أمواله. إنه يعني أنه يتخذ توجهاً يغطي كامل العوامل عندما يقوم بإجراء تحليل لعائد التكاليف في استثمار محتمل يشمل عوامل بيئية واجتماعية. إن كهوسلا يجمع معاً أفضل ما في كاليفورنيا وأفضل ما في الهند. وتعمل مثل هذه الجهود على تغيير النموذج الخاص بالأعمال الخيرية في الهند بعيداً عن المفهوم التقليدي للعطاء الخيري، باتجاه نموذج الاستثمار المسؤول اجتماعياً.

قد تكون نشأة أكبر منظمة إنسانية خيرية تركز نشاطاتها على الهند وهي (AIF) «مؤسسة الهند الأمريكية» انطلقت من ركام الزلزال المأساوي الذي ضرب ولاية غوجارات الهندية في عام 2001. وبناء على إلحاح من الرئيس بيل كلينتون، تم جمع عدد من الأمريكيين الهنود الذين حققوا إنجازات كبيرة من كل أنحاء الولايات المتحدة، معاً تحت قيادة راجات غوبتا وفيكتور مينيزيس، من أجل مواجهة الكارثة. وبالعمل مع منظمات محلية غير حكومية تم اختيارها بعناية، قامت AIF منذ ذلك الحين بتوسيع مهمتها للتعامل مع المجالات الرئيسة

التي تحتاج للمساعدة بما فيها ضغوط الهجرة الداخلية، تمكين النساء، الوقاية من مرض الإيدز والعناية بضحاياه، وشح المياه. وفي أثناء خمس سنوات فقط جمعت AIF أكثر من (35) مليار دولار. وما زال كلينتون الرئيس الفخري للمؤسسة.

وراجات غوبتا هو أيضاً رئيس مجلس إدارة AIF وأحد مؤسسي كلية الهند للأعمال (ISB) في مدينة حيدر أباد. وترتبط الكلية بوضع الزمالة مع كلية Kellogg للإدارة بمدينة وارتن، في جامعة بنسلفينيا وكلية لندن للأعمال. ويعدُّ مجلسها التنفيذي بمنزلة دليل بأسماء الشخصيات البارزة في مؤسسات تجارية هندية مثلما أن أعضاء مجلسها الإداري يحتلون مواقع بارزة في مؤسسات تجارية دولية. ومن بناء مدرسة في القرية التي ولدوا فيها إلى تقديم تبرعات بملايين الدولارات إلى جامعة كانوا يدرسون فيها، يسخّر الأمريكيون الهنود أنفسهم لتحسين أوضاع وطنهم الأم. إن إنشاء معهد بأهمية كلية الهند للأعمال مرتبط بشكل وثيق بكليات أعمال أمريكية وبريطانية وبأعضاء بارزين من الجالية الهندية في الشتات سوف يساعد على قيام روابط قوية بين القيادة المستقبلية للمؤسسات التجارية والاقتصادية في الهند وطبقة النخبة في المؤسسات التجارية الدولية.

في ربيع عام 2006، كان النبأ المهم المتداول في مدينة بنغالور يدور حول الرواتب التي حصل عليها خريجو المعهد الهندي للإدارة القائم في المدينة. فقد كانت تقدم إلى خريجي المعهد رواتب تبدأ بـ 90,000 دولار، وبلغ العرض الأعلى، الذي حطم الرقم القياسي، 193,000 دولار قدمه بنك باركلي في لندن. وتراجع ترتيب هذا الرقم بعد مدة وجيزة لاحقاً عندما قدمت مدرسة الهند للأعمال خريجاً تلقى عرضاً براتب يبدأ بمبلغ (233,000) دولار -من شركة هندية. ولم يكن بالإمكان تصور حصول خريجين هنود على مثل هذه الرواتب قبل سنين قليلة- ومن شركة هندية لا أكثر.

وتتناثر الموهبة الهندية ضمن نطاق كليات الأعمال الأمريكية حيث ينضم إلى الكادر التعليمي فيها أكثر الأساتذة شهرة من الهند. وقام العديد منهم وبكل وضوح بجعل فلسفة القيام بالعمل الصالح عن طريق القيام بالعمل المفيد حجر الزاوية لتراثهم الفكري. ومن أشهر هؤلاء بالتأكيد أستاذ جامعة ميتشيغان سي. كي. براهالاد. C.K.Prahalad، مؤلف

كتاب «الثروة عند أسفل الهرم»، الذي يجادل بأن الرأسمالية والقضاء على الفقر يمكن أن يسيرا جنباً إلى جنب. ويعمل الأستاذ في كلية هارفرد للأعمال راكيش كونارا Rakesh Khunara على إصلاح ثقافة أمريكية من الجشع لتصبح ثقافة من المساواة. وقد وجه دياك جيان عميد كلية كيلوغ للأعمال الدعوة إلى المؤلف والمعلم الروحي ديباك تشوبرا Dipak Chopra لإعطاء دروس لمسؤولين تنفيذيين يبحثون عن الأساليب ليكونوا رجال أعمال أفضل وأشخاص أفضل، وجعل من المقررات التي تعلم الأخلاق والمسؤولية الاجتماعية جزءاً من المنهاج الدراسي.

قوة سياسية جديدة متنفِّذة

بلغ الأمريكيون الهنود سن الرشد سياسياً بقدرة اقتصادية متنامية وأرقام مطلقة. وتعمقت ثقة الجيل الأول من المهاجرين الهنود في مقدرتهم على المشاركة في العملية السياسية الأمريكية على نحو مترادف مع نجاحهم الاقتصادي. أما الجيل الثاني من الأمريكيين الهنود الذين ولدوا في موطنهم الأصلي فقد كبروا وهم مرتاحون كونهم قد أثبتوا وجودهم على الملأ. وكان العديد منهم قد نشأ داخل تنظيمات عرقية عبر النوادي الهندية ونوادي دول جنوب آسية التي ازدهرت في ساحات الجامعات عبر البلاد. وجرى انتخاب عدد من الأمريكيين الهنود لمناصب حكومية وكان بينهم بوبي جيندال، النائب الجمهوري في الكونغرس عن ولاية لويزيانا، والمدعي العام لمدينة سان فرانسيسكو كامالا هاريس، وزعيم الأكثرية في الهيئة التشريعية لولاية ماريلاند اوبندرا تشيشوكولا. ويعمل آخرون لصالح مسؤولين بارزين منتخبين أو يعملون مستشارين مقربين من الإدارة الحالية. وتعمل نيرا تاندن Neera Tanden في منصب كبيرة المستشارين السياسيين للسيناتور هيلاري كلينتون، وكانت تقوم بتصريف شؤونها القانونية قبيل انضمامها إلى «مركز التقدم الأمريكي» حيث تعمل حالياً. وعمل آشلي تيلليس Ashely Tellis وهو من مواليد مدينة بومباي، وحالياً زميل مخضرم في مؤسسة منحة كارنيغي للسلام الدولي، عمل عن قرب مع السفير السابق روبرت بلاكويل أثناء توليه منصبه سفيراً للولايات المتحدة إلى الهند أثناء الفترة الأولى من إدارة جورج دبليو. بوش.

وقام تيلليس، أحد الأشخاص الرئيسين الذين قدموا اقتراح عقد اتفاقية التعاون المدني بين أمريكة والهند في مجال الطاقة النووية التي وقعها الرئيس بوش ورئيس الوزراء سينغ العام الماضي، بالحصول على إجازة مؤقتة من مؤسسة كارنيغي في عام 2006، ليتفرغ للعمل مستشاراً للإدارة الأمريكية من أجل ضمان تمرير الاتفاقية من قبل كل من مجلسي النواب والشيوخ. وبينما كان تيلليس يقدم المشورة إلى كبار أعضاء إدارة بوش، كان مديره السابق روبرت بلاكويل يعمل لصالح الحكومة بشأن القضية ذاتها. ويقود بلاكويل حالياً مجموعة، Barbour، Rogers& Griffiths وهي من جماعات الضغط المتنفذة في مبنى مجلس النواب الأمريكي، كابيتول هيل. وتم دفع مبلغ 700,000 دولار إلى شركته بوساطة الحكومة الهندية للمساعدة على دعم الجهود المبذولة للحصول على موافقة نيابية على الاتفاقية. كما دفعت الهند مبلغ 600,000 دولار إلى منظمة ڤينابل Venable وهي جماعة ضغط من بين أعضائها السيناتور الديمقراطي السابق بيرش باي Birch Bayh.[13]

وفي سعيهم لإقناع الكونغرس بالموافقة على اتفاقية التعاون المدني في مجال الطاقة النووية قامت حكومة الهند وإدارة بوش باستغلال حليف هائل: جماعات الضغط التي يشكلها الأمريكيون من أصول هندية. ومع أنهم ممثلون جدد نسبياً في واشنطن، فإن الأمريكيين الهنود يعملون على استعراض قوتهم السياسية. وتعد «لجنة العمل السياسي الأمريكية الهندية» (USINPAC) التي أنشأها سانجاي بوري في عام 2002، أكثر جماعات العمل السياسي الأمريكية الهندية نشاطاً في مجلس النواب الأمريكي. وتضم الجماعات الأخرى المركز الأمريكي الهندي للتوعية السياسية (LACPA) ورابطة الهنود في أمريكة (AIA) والاتحاد الوطني للروابط الهندية (NFIA) ورابطة الأمريكيين من أصول آسيوية هندية (NAAAID) والمنتدى الأمريكي الهندي للتثقيف السياسي (IAFPE).

إلا أن نفوذ هؤلاء جميعهم يتضاءل أمام حجم نفوذ «لجنة العمل السياسي الهندية الأمريكية» (USINPAC). فهذه المنظمة ينضوي تحت لوائها أكثر من سبعة وعشرين ألف عضو.[14] وباعتباري من الأفراد المشاركين في نشرة الأخبار المهمة التي تبثها اللجنة عبر بريدها الإلكتروني، فإنني أتلقى بانتظام رسائل تحثني على الكتابة أو الاتصال بممثلي في مجلس الشيوخ أو مجلس النواب في كل مرة يعرض فيها للمناقشة موضوع على جدول

أعمال الكونغرس يكون له تأثيرات على سياسة الولايات المتحدة تجاه الهند أو تجاه الأمريكيين الهنود. إن المهام المعلنة لمنظمة (USINPAC) هي العمل على تطوير مصالح الجالية الأمريكية الهندية عن طريق تقديم «دعم مشترك من جانب الحزبين الديمقراطي والجمهوري للمرشحين لمناصب اتحادية ووزارية ومحلية ممن يدعمون القضايا التي تُعدُّ مهمة للجالية الأمريكية الهندية»[15]. ولقد حدَّدت المنظمة بدقة خمسة مجالات ذات أهمية خاصة بالنسبة لها: العلاقات ما بين الهند والولايات المتحدة، الهجرة، إجراءات الحد من جرائم الكراهية، الفرص المتساوية، والحقوق المدنية، الأنشطة الاستثمارية وتنظيم المشروعات والأعمال التجارية. والفئة الأخيرة والغامضة نسبياً موضحة من قبل منظمة (USINPAC) على موقعها الإلكتروني على أنها «مناصرة قضايا مثل الأعمال القائمة على نطاق ضيق».

ومنذ نشأتها عملت (USINPAC) بشكل وثيق مع جماعات الضغط المؤيدة لإسرائيل. وكانت المنظمة قد أعدت لبدء نشاطها تحت رعاية لجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية (AIPAC). ووفق الأسلوب الذي تتبعه لجنة (إيباك) قامت يوسينباك USINPAC بإلحاق الشباب من الأطباء الأمريكيين الهنود الذين يتدربون في المستشفيات بمكاتب المجالس النيابية وأنشأت هيئة من المطلعين السابقين الذين يعرفون أصول العمل والذين يقيمون اتصالات مع أعضاء الكونغرس»[16] وكان مؤسس USINPAC سانجاي بوري قد صرح بصورة عملية «لا جدوى من إعادة اختراع الدولاب»[17] وحسبما ورد في تصريح كومار بارف لصحيفة «واشنطن بوست» في عام 2003، «فإن الأمريكيين الهنود يرون الجالية اليهودية الأمريكية بمنزلة مقياس يقارنون أنفسهم به. وهي تعد المستوى الذهبي المطلوب لناحية النشاط السياسي».[18]

وهناك جماعة موالية لإسرائيل تعمل معها USINPAC بشكل وثيق هي اللجنة اليهودية الأمريكية (AJC American Jewish Committee). وتقدم (AJC) منظمة USINPAC على موقعها على الإنترنت تحت عنوان «تطوير علاقات الشراكة بين الأعراق وبين الأديان»[19] وإن ما يجمع بين هاتين المنظمتين حقيقة يدور حول قضايا تتصل بالتخطيط الإستراتيجي والدفاع، وبصورة خاصة تلك التي تهدف إلى محاربة الإرهاب ولا سيما إرهاب الجماعات

الإسلامية. وتضغط USINPAC بالتحديد لدعم قيام تحالف إستراتيجي بين الولايات المتحدة والهند وتعاون دفاعي ما بين البلدين تحت شعار «الإرهاب وأمن الوطن». وتسعى الجماعة وبشكل خاص إلى ضمان «شمول الهند بالنظام الدفاعي الصاروخي الوطني».[20] ويعتقد العديد من الأمريكيين أن دعم إسرائيل يصب في المصلحة العليا للولايات المتحدة؛ وتعمل منظمة USINPAC وغيرها من جماعات الضغط الهندية بجهد كبير لإقناع الأمريكيين بأن الأمر ذاته يصح عن الهند.

كانت مساعي جماعات الضغط هذه مهمة جداً بالنسبة لتمرير اتفاقية التعاون المدني في مجال الطاقة النووية التي تطلبت إجراء تغييرات في القانون الأمريكي، وإحداث تحول في سياسة عدم انتشار الأسلحة النووية التي اتبعتها الولايات المتحدة عشرات السنين. واتخذت الجهود التي بذلت من أجل دعم فكرة أمن الولايات المتحدة ببيع التكنولوجيا النووية إلى الهند، اتخذت سبلاً مبتكرة. وفي العام الماضي، أنشأ جاك بونر مدير شركة بونر وشركاه Bonner & Associates جماعة ضغط أخرى حتى تدعى: مجلس قيادة الأمن الأمريكي الهندي. وكان هدف الجماعة حسب مجلة (بي. آر. ويك) «PRweek» تعبئة جماعات المحاربين القدماء العسكريين لصالح إجراء تغييرات تشريعية من أجل السماح ببيع التكنولوجيا الخاصة بالطاقة النووية إلى الهند على الرغم من أنها ليست من الدول الموقعة على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، وقد جعلت المجموعة عملها مؤهلاً لتحقيق هذا الغرض: فالهند لم تكن حاضرة في الذهن بين المحاربين القدماء في الولايات المتحدة. وأقر بونر بذلك قائلاً: «بصراحة تامة، إن جماعات المحاربين القدماء لم يكونوا على اطلاع واسع بالموضوع عندما حدثناهم عنه للمرة الأولى، لذا فقد كان علينا أن نبذل جهدنا معهم حتى يكونوا مرتاحين إليه». ولماذا التوجه إلى جماعات المحاربين القدماء في الولايات المتحدة عندما يكون النواب الأمريكيون هم الذين سوف يصوتون على اتفاقية التعاون المدني في مجال الطاقة النووية مع الهند؟ فأوضح بوند «إن المسألة لا تتمثل في الرسالة فقط وإنما في ساعي البريد الموثوق بهذا الشأن»[21]. وهذه هي خطة تدريب الفأر على قتل القط: فأي عضو في الكونغرس أو في مجلس الشيوخ يستطيع معارضة قضية يدعمها المحاربون القدماء في الولايات المتحدة باعتبارها حساسة بالنسبة لأمن أمريكة؟ وحسب مجلة «PRWeek» فإن

مسعى مجلس قيادة الأمن الأمريكي الهندي موَّله أمريكيون هنود أثرياء من كلا الحزبين، بمن فيهم راميش كابور، وهو أمين اللجنة الوطنية الديمقراطية، وكريشما سرينيڤاسا، الذي كان قد دعم حملة ترشيح بوش للرئاسة في عام 2000 وعام 2004.

تم إنشاء اللجنة الحزبية التنظيمية حول الهند والأمريكيين الهنود التابعة للكونغرس في عام 1994. ويبلغ عدد أعضائه 173 عضواً من أصل 109 من أعضاء مجلس النواب، بمن فيهم 105 من الديمقراطيين و68 من الجمهوريين. «وهدف اللجنة هو دعم برنامج الجالية الهندية الأمريكية في المجلس»[22]. وفي تأكيده على قوة اللجنة التنظيمية للهند، قال روبرت ام. هاثاوي الذي عمل مدة اثني عشر عاماً في هيئة لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس النواب، وهو الآن مدير برنامج آسية في مركز وودرو ويلسون الدولي للعلماء: «إنه وإلى حد مهم -ليس بشكل حصري بالتأكيد، ولكن إلى حد مهم- مسؤول عن المقدار الهائل من التغيير، وهو بحق مقدار هائل فعلاً، الذي حدث في موقف أعضاء الكونغرس حول الهند وحول أهمية العلاقات الهندية - الأمريكية».[23] وفي عام 2004، اتخذ مجلس الشيوخ الأمريكي خطوة مماثلة وأنشأ مجموعة «أصدقاء الهند». ويشارك في رئاسة المجموعة العضو الجديد في مجلس الشيوخ عن الحزب الجمهوري عن ولاية تكساس السيناتور جون كورنين والعضو الجديد في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي السيناتور هيلاري كلينتون. وهي المجموعة الأولى من نوعها على الإطلاق في مجلس الشيوخ الأمريكي، التي تركز اهتمامها على دولة واحدة. ونقل عن سفير الهند إلى الولايات المتحدة آنذاك لاليت مانسينغ ترحيبه بهذه الخطوة قائلاً: «عليّ أن أُشيد بجميع الزعماء الهنود للجالية الأمريكية - الهندية الذين جعلوا هذا الأمر يتحقق أخيراً»[24].

وأكد روبرت هوفمان وهو من جماعات الضغط العاملة لصالح شركة «اوراكل» Oracle للبرمجيات في مقال نشرته صحيفة انترناشونال هيرالد تريبيون في شهر تموز من عام 2006، أكد أن الهند ربما تكون يوماً ما الدولة الثانية فقط بعد إسرائيل من بين الجهات الدولية ذات النفوذ القادرة على التأثير في صناع القرار في واشنطن[25]. وكان مجلس الأعمال الهندي الأمريكي، (USIBC) وهو جزء من غرفة التجارة الأمريكية قد قام بممارسة جهد ضاغط وهائل في هذا الاتجاه نيابة عن الشركات الأمريكية المئتين التي يمثلها، بما فيها: جي بي

مورغان تشيس J.P.morgan chase، بوينغ Boeing، جنرال اليكتريك General Electric، داو كيميكل Dow Chemical، فورد Ford، أمريكان انترناشونال غروب Ameican International group، بيكتل غروب Bechtel group، لوكهيد مارتن Lookheed Martin، كما ألقت غرفة التجارة الأمريكية بثقلها في الأمر، حيث استخدمت «باتون بوغز» Patton Boggs وهي أكبر مؤسسة تجاربة ذات تأثير في واشنطن للمساعدة على الدفع باتجاه تمرير الاتفاقية.

ويتعلق موضوع الاتفاقية كلها بالأرباح التي تعود على الشركات الأمريكية. وتقدر غرفة التجارة في الولايات المتحدة أرباحاً بقيمة (100) مليار دولار في مبيعات الطاقة إلى شركات مثل (GE) جنرال اليكترك وبيكتل Bechtel. وقد زادت شركة جنرال اليكتريك من توقعاتها لمبيعات العام (2010) في الهند من (5) مليارات دولار إلى (8) مليارات دولار. ويقدر مؤيدو الاتفاقية أن الهند يمكنها إنفاق (27) مليار دولار على المفاعلات النووية لغاية عام (2020). وتأمل الشركات الهندية بأنها سوف تبني واحدة على الأقل من المفاعلات الجديدة للهند. ووفقاً لأحد كبار المستشارين في مجلس الأعمال الهندي الأمريكي، ويدعى ريموند فيكري، فإنه في حال الموافقة على الصفقة، ستحصل شركة لوكهيد على «فرصة معقولة للفوز بعقد تتراوح قيمته ما بين (4) مليارات إلى (9) مليارات دولار لتزويد سلاح البحرية الهندي بـ (126) طائرة حربية مقاتلة، وهو العقد الذي لم يكن من المحتمل أن توافق عليه الهند بينما كانت العقوبات ما زالت مفروضة». كما قدر فيكري أن الشركات الأمريكية قد تحصل على «جزء كبير من مبلغ الـ20 مليارات إلى الـ40 مليار دولار في عمليات الشراء التي يخطط الهنود للقيام بها بحلول عام 2020».(26)

ولم يكن اهتمام الشركات الهندية أقل تركيزاً على الأرباح الممكنة التي سيجري حصدها. فقد عمل اتحاد المؤسسات الصناعية الهندية (CII) دون كلل، وإن بالسر، من أجل التقرب من أعضاء الكونغرس حيث دفع أكثر من 538,000 دولار نفقات سفر إلى الهند لأجل تسعة عشر نائباً من أعضاء الكونغرس: إحدى عشرة زوجة، وثمانية وخمسون من موظفي الكونغرس مابين الأعوام 2000 و2005 - وقد كان ذلك قبل اعتبار اتحاد المؤسسات الصناعية الهندية جماعة ضغط. وفي نيسان 2005، وبعدما أفصح عن موقفه بممارسة الضغط للمرة الأولى، دفع اتحاد المؤسسات الصناعية الهندية لشركات غريفيث وروجرز،

باربور، Roggers& griffiths Barbour مبلغ 500,000 دولار للتأثير في الهيئات الحكومية المختلفة في الولايات المتحدة، بما فيها «الكونغرس، البيت الأبيض، وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع»[27]. وكما قال عضو مجلس الشيوخ عن ولاية الينوي السيناتور باراك أوباما، في ملاحظة ساخرة، وهو الذي كان قد عبّر عن وجهات نظر قوية تدعم عدم انتشار الأسلحة النووية، «يبدو أن هنالك جهداً منسقاً على نحو بالغ لجعل كل شخص أمريكي من أصل هندي أعرفه يتصل بي». وقال أيضاً: إنه كان قد تلقى اتصالات هاتفية من «مصرفيين بارزين في مجال الاستثمار»[28].

في 26 تموز 2006، أعطى مجلس النواب الأمريكي موافقته بأغلبية ساحقة على اتفاقية التعاون المدني في مجال الطاقة النووية بين الهند وأمريكة. وبعد مرور أيام من انتخابات منتصف الدورة التشريعية التي أعادت للديمقراطيين السيطرة على كل من مجلسي الكونغرس، وافق مجلس الشيوخ على الاتفاقية أيضاً بفارق كبير بلغ 85 صوتاً مقابل 12 صوتاً وذلك في 16 تشرين الثاني، 2006.

التجارة الأمريكية - الهندية المتنامية

تنمو الروابط التجارية ما بين الهند والولايات المتحدة بشكل سريع. وتمتلك كل من الشركات الأمريكية والهندية حصة متزايدة في اتخاذ القرارات الرئيسة الخاصة بالسياسة الخارجية التي تؤثر في العلاقة بين البلدين. وبين الأعوام 1990 و2006. وعبر سلسلة من الحكومات المختلفة تقودها أحزاب سياسية مختلفة نمت التجارة ما بين الولايات المتحدة والهند بنسبة كبيرة جداً بلغت 400 بالمئة لتتجاوز 26 مليار دولار. وكان قد تم الإعداد للتبادل التجاري بين البلدين لكي ينمو بنسبة 21 بالمئة في العام الماضي وحده. وفي اجتماع المنتدى الهندي الأمريكي للسياسة التجارية الذي عقد في مدينة نيودلهي في أيار الماضي، تعهدت الحكومتان بأن تضاعف النسبة إلى (60) مليار دولار تقريباً أثناء ثلاث سنوات. وبينما يظل هذا مع ذلك أقل جداً من حجم التبادل التجاري القائم بين الولايات المتحدة والصين، الذي تم تحديده بمبلغ (280) مليار دولار في عام 2005، فإن الجميع يتوقع أن تستمر التجارة ما بين أمريكة والهند في النمو على نحو مثير وسريع. وتتلهف الحكومة

الهندية لزيادة الاستثمارات الأمريكية على أراضيها التي من دونها سيكون هناك أمل ضئيل بالحصول على 150 مليار دولار تقول: إنها تحتاجها على مدى السنوات العشر القادمة من أجل تحديث البنى التحتية المتخلفة فيها. وفي تسارع مذهل لإزالة العراقيل أمام الشركات الأجنبية العاملة في الهند، أعلن وزير التجارة والصناعة كمال ناث في العام الماضي عن رفع سقف الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى 100 بالمئة في نطاق من القطاعات تشمل بناء المطارات، البنى التحتية الخاصة بقطاع النفط والغاز، وتجارة المبيع بالجملة نقداً. وهذا كله أساسي بدرجة أكبر عندما يأخذ المرء في الاعتبار أن المجالين الاثنين الأوليين من هذه المجالات كانا يخضعان للتأميم لعشرات السنين.

وتستمر الولايات المتحدة في الضغط بشكل قوي بالنسبة للقيود المتبقية المفروضة على الاستثمار من أجل إلغائها. فتجارة البيع بالتجزئة للعلامات التجارية المتعددة، على سبيل المثال، هي قطاع لا يُسمح للشركات الأجنبية بالعمل فيه داخل الهند، إلا أن شركة وول-مارت Wal-Mart كانت قد أقامت مكتباً لها هناك من قبل، ونُشر الكثير من التقارير الصحفية التي تتحدث عن الخطط التي وضعتها بالنسبة للسوق الهندية بينما كان هذا الكتاب في طريقه إلى الطباعة. وفي الخريف الماضي، نظمت إدارة بوش زيارة لأكبر وفد يمثل الشركات الأمريكية إلى الهند في أي وقت. وأعطت تفسيراً للرحلة ينطلق من كونها فرصة نادرة لجني الأرباح. واستناداً إلى ما ورد على الموقع الإلكتروني الحكومي لوزارة التجارة الخارجية الأمريكية حول الوفد الذي جرى الإعداد لزيارته آنذاك، فإن «الهند أسرع نظام ديمقراطي للسوق الحرة نمواً في العالم، تقدم فرصاً مربحة لجميع أنواع المؤسسات التجارية - لا سيما الشركات الأمريكية. وفي عام 2005، بلغ حجم الصادرات التجارية من الولايات المتحدة إلى الهند (8) مليار دولار تقريباً، وهو ضعف ما كان عليه في عام 2002»(29).

مجال تنافس المستويات

ومثلما كانت قد أشارت امارتيا سين، فالديمقراطية تكون شرعية عندما تكون قائمة على المشاركة الكلية في العملية الانتخابية وعلى توفر الفرص الاقتصادية البديلة والعدالة الاجتماعية. إن اقتصاد الهند الغض ينمو بشكل غير متساوٍ، مع وجود اختلافات كبيرة بين

الأقاليم وبين الطبقات الاجتماعية. ومع أن الولايات المتحدة أغنى من الهند كثيراً فإنها تواجه تحديات مماثلة. ويحتاج كلا النظامين الديمقراطيين إلى تسخير النمو لغرض إيجاد الوظائف ومنح جميع المواطنين الحق في التصويت على القضايا الاقتصادية وإبداء رأيهم فيها. ومن الواضح أن التحدي الذي يواجه الهند أكبر، إلا أنه تحدٍ لا تستطيع أي من الدولتين تجاهله. فالأمثلة التي تطرحها جنوب كوريا ويابان ما بعد الحرب وألمانية تثبت أنه عندما يتم الجمع ما بين النمط الصائب من السياسات الحكومية والنمو الاقتصادي، مع إيلاء أهمية كبرى لنسبة الأمية المرتفعة، والإصلاح الزراعي، والأمن الاجتماعي الأساسي، فإن المعجزات يمكن أن تحدث. وقد كانت البرازيل من جهة أخرى تنعم بمستوىً عالٍ من النمو إلى حد كبير في أعوام الثمانينيات، ولكن ولأنها أخفقت في التحرك لتحسين أوضاع شعبها وتوفير فرص النجاح له، واللازمة للتقليل من حالات الظلم الاجتماعي وعدم المساواة فقد ظلت تعد بلداً من التناقضات الاقتصادية. وتعمل الهند بجهد كبير لتلافي هذا المصير. أما الولايات المتحدة فلا تبذل أي جهد.

في عام 2006، أعدت مجلة «الايكونوميست» تقريراً خاصاً عن اللامساواة في أمريكة. واستشهدت المجلة بدراسة حظيت بمناقشة واسعة، أعدها ايمانويل سايز من جامعة كاليفورنيا وتوماس بيكيتي من دار المعلمين العليا حول الطريقة المذهلة المتبعة في تركيز الثروة باتجاه أعلى السلم الاقتصادي الاجتماعي الأمريكي ذاته. ووفقاً للدراسة التي أجراها سايز وبيكيتي، فقد تضاعف نصيب الدخل الإجمالي الذي يصل إلى أعلى إيراد بالنسبة لواحد بالمئة من الأمريكيين من (8) بالمئة في عام 1980، إلى أكثر من (16) بالمئة في عام 2004. وتضاعف عدد المئة الأولى من نسبة الواحد بالمئة 14,000 من دافعي الضرائب - تضاعف أربع مرات ما بين الأعوام 1980 و2004[30].

واستبعدت مجلة «الايكونوميست» احتمال أن يكون هذا الاتجاه مؤقتاً لأنه كان قد جاء نتيجة لحدوث تغييرات هيكلية في بنية سوق العمل في الولايات المتحدة تسببت فيها عملية التكامل الاقتصادي بين دول العالم لا سيما التكامل ما بين الهند والصين. وذكرت المجلة أن «إدماج الملايين من الصينيين من ذوي الخبرة الضعيفة والاستقدام المتزايد لأعمال الخدمات إلى الهند والدول الأخرى، أدى إلى توسيع الإمداد العالمي من العمال. وقد قلص

هذا الأمر من الثمن النسبي للعمالة وزاد من العائدات على رأس المال، الأمر الذي يعزز من تركيز الدخل في الأعلى»[31]. وقد بات هذا الاتجاه المجحف وما ينجم عنه من غبن بالغ واضحاً جداً إلى حد دفع برئيس البنك الاحتياطي الفيدرالي بين بيرنانك إلى التنبيه في آب 2006، إلى ضرورة اتخاذ خطوات لضمان المشاركة الوافية والواسعة في فوائد التكامل الاقتصادي العالمي[32].

ويكبر بسرعة دور الهند بوصفها مصدراً لعمالة رخيصة نسبياً وتتمتع بمهارات عالية المستوى، في حين تتسابق الشركات لكسب مزايا تنافسية والحصول على أقصى ما يمكن من الأرباح. وقد تحججت الشركات الأمريكية في الولايات المتحدة بأن النقص في العمال المهرة وأصحاب الخبرة، لا سيما في مجال تكنولوجيا المعلومات، يضعف من مقدرتها على النمو، فضغطت من أجل رفع السقف المحدد لمنح تأشيرات الدخول المسماة B1-H – وهي تأشيرات تسمح بدخول عمال من ذوي الخبرة العالية إلى أمريكا لمدة أقصاها ست سنوات عندما تكفلهم جهة التوظيف، أو رب العمل. وتشكل هذه التأشيرة واستقدام العمالة بعقود خارجية وجهان لعملة واحدة: ربط عمال من ذوي المهارات العالية من دول أجنبية، ولا سيما من الهند، إلى وظائف أمريكية إما عن طريق إحضار العامل إلى الولايات المتحدة أو بأخذ الوظيفة إلى العامل خارج البلاد. وكانت شركة مايكروسوفت وغيرها من الشركات قد مارست ضغوطاً شديدة العام الماضي من أجل جعل الكونغرس يرفع السقف من 65,000 إلى 115,000، والسماح لبعض الطلاب الأجانب بتجاوز «برنامج الفيزا» (تأشيرة الدخول) والانتقال مباشرة من مرحلة إكمال دراستهم ونيل الشهادة الجامعية إلى مرحلة البطاقة الخضراء المكفولة مالياً التي تسمح لهم بالإقامة والعمل.

وفي غضون ذلك كان رون هيرا، وهو أستاذ السياسة العامة في معهد روتشستر للتكنولوجيا ورئيس اللجنة السياسية للبحوث والتنمية التابعة لمعهد الهندسة الكهربائية والإلكترونية- الولايات المتحدة الأمريكية قد أدلى بشهادة أمام لجنة المشروعات الصغيرة التابعة لمجلس النواب الأمريكي، «حول الاستعانة بكوادر من الخارج لوظائف الخبرات العالية» وذلك في شهر تشرين الأول من عام 2003. وأبلغ البروفيسور هيرا اللجنة أنه «وفقاً لأحدث المعطيات الصادرة عن مكتب إحصاءات العمالة، فإن مهندسي الكهرباء، الإلكترونيات، وأجهزة

الحاسوب يستمرون في مواجهة نسبة بطالة أعلى من عامة الشعب، وأكثر من ضعف النسبة للمديرين وأصحاب المهن الآخرين. وتعد الأمور بالنسبة للمهندسين الإداريين أسوأ حتى بوجود نسبة بطالة تبلغ (8) بالمئة».[33] ويعزو هيرا هذا الوضع بشكل مباشرة إلى تزايد استقدام العمالة من الخارج وإعطاء تأشيرات الدخول من نموذج (H-1B) التي تمنح للعمال الفنيين الأجانب.

إضافة إلى ذلك يرى هيرا في الأمريكيين الهنود (هو نفسه من أصل هندي) عاملاً رئيساً في هذه العملية. وهو يقول: «هنالك ترابط واضح بين الشتات الهندي في الولايات المتحدة، واستخدام تأشيرة (H-1B) واستقدام الموظفين من خارج البلاد». ويبلغ عدد الرعايا الهنود ممن يتلقون تأشيرة دخول من النموذج (H-1B) (37) بالمئة. من المجموع العام. وأعربت نقابة المبرمجين، وهي جماعة مناصرة لعمال صناعة معدات الحاسوب، عن قلقها بأن متاجر بيع مستحضرات العناية بالجسم التي توظف حاملي التأشيرة (H-1B) تقوم باستغلال العمال الأجانب فيما تعمل على خفض الأجور التي تدفع في الولايات المتحدة بحيث تكون أقل من 45,820 دولاراً للكوادر الفنية العاملة في مهنة الحاسوب في حين أن وزارة العمل تحدد متوسط الراتب للوظائف المتعلقة بهذا القطاع بأكثر من 62,000 دولار».[34]

ولا يعترض رون هيرا على استقدام عمال فنيين ضروريين بتأشيرات الدخول من الفئة (H-1B). إنه يعترض على متاجر بيع مستحضرات العناية بالجسم التي توظف عمالاً للعمل برواتب أقل جداً من المستويات التي تحددها المؤسسة الصناعية الأمريكية، وبذلك تؤدي إلى خفض الأجور والإسهام في حدوث بطالة مرتفعة بين الكوادر الفنية الأمريكية المختصة في مجال الحاسوب. أما الجانب السيىء من مسألة التأشيرة (H-1B) فهو عمل الشركات والأفراد في المناطق الحرة وخارج الحدود ومايترتب عليه من تراجع العائدات الضريبية. فقد جرى حتى هذا الحين انتقال ما يقدر بمليون وظيفة أمريكية ما وراء البحار. ويقدر أيضاً أنه بحلول عام 2005، سوف يكون هناك 3.4 مليون شخص من فئة موظفي المكاتب والمدرسين يعملون في الخارج. وهناك على وجه العموم (14) ملايين وظيفة مكتبية أمريكية أو واحدة من أصل تسعٍ معرضة للانتقال خارج الحدود، وهو رقم مذهل، مع كون الهند

الوجهة الأولى للعقود الخارجية[35]. ولا بد لحكومة الولايات المتحدة من أن تقر كيف أن الثورة الصناعية الثالثة، بما فيها استقدام العمالة من الخارج وتأشيرات (H-1B) تضر بعمال الولايات المتحدة. كما يجب عليها أن تتوصل إلى اعتماد سياسات سوف تساعدهم على حماية أوضاعهم من هذه التعديلات التي تؤثر بشدة في بنية العمل.

الجانب الهندي من العمل ما وراء البحار

واجهت مشكلة مؤخراً مع جهاز الحاسوب المحمول الذي يخصني الأمر الذي تطلَّب مني أن أتصل بقسم خدمة الزبائن في شركة IBM، آ.بي.ام. مايكروسوفت Microsoft، ولينكسيس Linksys. وقد حولت الشركات الثلاث جميعها مكالمتي الهاتفية إلى الهند. فتحدثت إلى امرأة شابة في بنغالور تعمل مع IBM، وشاب في غورغاون يعمل مع مايكروسوفت، وشاب آخر في مدينة بيون يعمل مع لينكسيس. كان هؤلاء الشبان الهنود مهذبين بشكل لا يمكن أن تخطئه، وقد فوجئوا بوجود شخص يتكلم عبر الهاتف ويعرف شيئاً ما عن بلدهم. إلا أنني عندما كررت ترداد الشعار القائل Koi desh perfect nehi hai (ليس هناك من بلد مثالي) من فيلم Rang De Basanti «رانغ دو باسانتي»، [وتعني «لَوِّنه بالأصفر»] وهو فيلم عرض مؤخراً ويلقى شعبية هائلة لدى الفتية في سن المرحلة الجامعية في الهند وقد شاهدوه جميعهم، أجاب أحدهم وقد بدا خائفاً قليلاً «في الواقع سيدتي، ليس مسموحاً لنا. فعلينا أن نتكلم الإنكليزية فقط».

وتشكل مراكز الاتصالات الهاتفية مجالات جذب لشباب الهند الذين يقيمون في المدن حيث توفر لهم دخلاً يكون أحياناً أكبر من دخل أولياء أمورهم، إضافة إلى توفير فرصة للعمل في محيط مليء بأشخاص شبان من عمرهم. ومن المؤكد أن عملهم صعب من دون شك. فهم يشتغلون في أعمال المناوبة ليلاً عندما يكون الوقت نهاراً في الولايات المتحدة وغالباً ما يكونون عرضة لتلقي الشتائم وللمعاملة السيئة من جانب زبائن سريعي الغضب. ولقد نمت وبسرعة ثقافة كاملة لمراكز الاتصالات الهاتفية، مع قيام مطاعم، ومقاهٍ، ونوادٍ ليلية إلى جانبها تعمل على إرضاء مجموعة من الشباب الذين يملكون مدخولاً متيسراً يتيح لهم إنفاقه حسب رغبتهم، وهم -وإلى حد بعيد- متحررون من رقابة أولياء الأمور

(معظم الشباب الهنود يعيشون في البيت). وفي العام الماضي نشر تشيتان بهاجات رواية أحدثت ضجة كبيرة، وكانت الأكثر رواجاً في الهند عنوانها «ليلة واحدة @ مركز الاتصالات الهاتفية». وهي تتحدث عن مجموعة من الشخصيات الهائمة على وجهها في الليل الفارغ لمدينة الأقمار الصناعية غورغاون في دلهي، وهم يحاولون إيجاد الحلول لمجموعة من المشكلات التي يواجهها جيلهم بالذات. ورئيس المجموعة هو شخص محتال جشع يتملق رؤساءه الأمريكيين. وكل الشباب الذين تحدثت معهم أثناء جولة مشكلة حاسوبي في الهند أبلغوني أنهم سمعوا بهذا الكتاب، وقد قرأه واحد منهم. وعندما سألته عمّا إذا كان قد قدم صورة دقيقة عن تجربته أجاب، سيدتي، الأمر يعتمد كثيراً على رئيسك في العمل». وعندها تذكرت أن «هذا الاتصال الهاتفي ربما يكون مسجلاً لغايات ضمان مستوى عالٍ من الأداء».

قبل الثورة التكنولوجية في الهند، كانت إمكانية الحراك الاجتماعي معدومة تقريباً، وكانت فرص الإنسان الشاب في الحياة يحددها وإلى درجة كبيرة وضع أسرته، ومعارفه واتصالاته، وثروته. وقد غيرت شركات التكنولوجيا في الهند هذا الوضع. وأثبتت أنه بالإمكان توظيف المرء كي يعمل ويحقق النجاح بناء على ما يمتلكه من مزايا فقط. وقد أبلغني ناريانا مارثي رئيس مجلس إدارة شركة Infosys والمشارك في تأسيسها أن نموذج نظام أصحاب المزايا الرفيعة الذي قدمته الشركة كان «الأمر الأكثر ثورية الذي حصل في هذا البلد». ويشكل العمل ما وراء البحار بالنسبة للهند تياراً حيوياً ومتنامياً لوظائف جديدة للشعب الفتي التواق للحصول على الفرص المواتية. كما شكل عاملاً رئيساً في نمو قطاع تكنولوجيا المعلومات في الهند الذي خُطط له ليرتفع من 1.4 بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي في العام 2001 إلى 8-10 بالمئة بحلول عام 2008[36].

ويكبر حجم انفوسيس Infosys، الشركة ذات الربح المأمون التي تتخذ من مدينة بنغالور مقراً لها بسرعة مذهلة بنسبة 50 بالمئة كل عام، لتمثل ذهنية خاصة لقدرة الهند على تصدير العمالة إلى الخارج لتسيير عمليات تنفيذ مشروعات الشركات التجارية والمؤسسات الاقتصادية. ومنذ انطلاقها كشركة ناشئة قبل خمسة وعشرين عاماً فقط على يد مجموعة من الأصدقاء الذين لم يمتلكوا شيئاً أكثر من الحماسة لإيجاد عمل، فإن Infosys لديها

حالياً ستة وستون ألف موظف في عشرين بلداً مختلفاً. ويبلغ متوسط عمر موظفيها سبعة وعشرين. وتعد شركتا ويبرو «Wipro» وتاتا «Tata» للخدمات الاستشارية الشركتين الأخريين العملاقتين في مجال صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند، وهناك أيضاً المئات من الشركات الأصغر حجماً. وكل هذه الشركات تقوم بتوسيع نطاق الخدمات التي تقدمها بشكل سريع، حيث تنتقل من صيانة أنظمة الحاسوب إلى تطوير البرمجيات وإعادة تصميم الأنظمة، وتقديم الخدمات الاستشارية ومجالات أخرى. وتتحول الوظائف عن الأمريكيين الذين هم في منتصف العمر ومعها الرعاية الصحية والمنافع المكلفة إلى الهنود، الذين هم في سن العشرينيات، والمتلهفين للحصول على وظيفة. ويبدأ راتب مهندس البرمجيات في الهند بنحو 5,000 دولار في حين يصل راتب الوظيفة ذاتها في الولايات المتحدة إلى 60,000 دولار.[37]

وبحلول عام 2009، سوف يكون 20 بالمئة من القوة العاملة التابعة لشركة آي. بي. ام «IBM» المنتشرة في أنحاء العالم والبالغة ثلاثمئة ألف موظف تقريباً، سوف تكون موجودة في الهند. وتعد شركة انتل Intel، سيسكو cisco، مايكروسوفت Microsoft واتش.بي H.P (هيوليت باكارد) مجرد بعض الشركات التي تتمركز في الولايات المتحدة، وتمتلك مرافق ومنشآت في الهند. وتنظر هذه الشركات إلى الهند باعتبارها فرصة ثنائية الشُّعب: واحدة كطريقة للتقليل وبشكل كبير من تكاليف العمالة وكمدخل إلى البحث العلمي المتقدم، والثانية، كسوق تملك إمكانية التفوق على أسواق الولايات المتحدة وأوروبة ومنطقة شرقي آسية النامية. وكما أبلغني آمار بابو، المدير الإداري لشركة انتل الهند «فإن شركة انتل تنظر إلى الهند كموقع مهم بالنسبة للشركة لمتابعة البحوث العلمية ومشروعات التنمية على مستوى العالم. وتشكل الهند في الوقت ذاته سوقاً استهلاكية لتكنولوجيا المعلومات. وستشكل الأسواق الناشئة كذلك مصدراً للكثير من التطور الذي سيشهده المستقبل. وتتوسع مشروعات فرع شركة انتل في الهند بنسبة ثلاثين بالمئة».

الأمريكيون في الهند

كان الأمريكيون الوحيدون الذين شاهدتهم في الهند لسنوات عديدة هم السياح المغادرين والقادمين في المطار. أما الآن فتمتلئ المطاعم والحانات الجديدة بالمغتربين

الأمريكيين والأوروبيين الشباب الموجودين في الهند بغرض المغامرة إلى حد ما؛ ولأنهم يرون فيها وإلى حد ما أيضاً وجهة لفرصة مواتية. ووفقاً لمقال نشر في مجلة «بيزنس ويك» BusinessWeek العام الماضي، يعمل ثلاثون ألف مغترب في الهند لدى شركات صناعة التكنولوجيا والشركات التي تنفذ عقوداً خارجية، بزيادة تبلغ ثلاثمئة بالمئة في ثلاث سنوات فقط». وتقدر مجلة «تايم أوت مومباي» Time Out Mumbai وهي النسخة الصادرة في مدينة بومباي من مجلة «تايم أوت» TimeOut، إن عدد الأمريكيين الذين يعملون ويعيشون في بومباي يبلغ أربعة آلاف شخص[39]. وهذا ليس بالرقم الضخم مقارنة بـ لنقل الخمسين ألف أمريكي الذين يعيشون في باريس أو مئات الآلاف من المغتربين من جميع أنحاء العالم الذين يستقرون في مدينة نيويورك بغرض الإقامة فيها، إلا أنه عدد أكبر كثيراً من عدد الأمريكيين الذين اعتادوا على العيش في بومباي في أي وقت.

وعدا عن الأمريكيين من أصول هندية أو الرعايا الهنود الذين كانوا يقيمون في الولايات المتحدة، والذين يعودون إلى الهند ضمن مجموعات، هناك خريجو جامعات جدد من أمثال ناثان لينكون، وهو مواطن من مدينة ميلووكي بولاية ويسكونسن، وبيتر نورلاندر، وهو خريج جامعة كورنيل. وكلاهما في بداية العشرينيات من العمر، ويعملان لصالح شركة Infosys في مجمع الشركة الفخم في مدينة بنغالور. وعندما زرت الشركة في وقت مبكر من العام الماضي، هيأ لي رئيسهم ناندان نايلكاني الجلوس في غرفة اجتماع تطل على مدخل الشركة حتى أتبادل الحديث معهم.

كان بيتر الأكثر اطلاعاً وذكاءً بين الاثنين. وكان قد زار الهند مع أسرته وعاش وحده أيضاً في بومباي مدة من الزمن أثناء دراسته في الجامعة كطالب طب متمرن يكتب في صحيفة Financial Express «فايننشال اكسبرس». لم يكن ناثان قد زار الهند أبداً قبل تسلمه وظيفته لدى شركة Infosys وعندما سألته كيف انتهى الأمر بفتى من ويسكنسون في مدينة بنغالور، قال لي: «كنت أقوم بعملية البحث عن وظيفة، مثل كل شخص آخر تماماً، فعثرت على القائمة المعلنة للوظائف الخاصة بشركة Infosys. ولم أدرك حتى إنها كانت لوظيفة في الهند. وعندما تكلمت مع والدي بشأنها، قال لي: أساساً إنه سوف يتبرأ مني ما لم أحاول الحصول عليها. وهكذا، حصلت على العرض بعدها وأنا على ما يرام تقريباً، ولن

يحدث لي هذا ثانية أَبداً. وقد أَبلغوني أنه كان هناك سبعة موظفين أمريكيين في الشركة. وهم يقيمون في مجمع سكني من عدة شقق تملكه Infosys، وفي حين يبعد المجمع سبعة عشر كيلو متراً فقط، أكثر قليلاً من عشرة أميال، عن مباني الشركة، فإن الوقت يستغرق ساعة أو اثنتين ليشقوا طريقهم من البيت إلى مكان العمل عبر الازدحام الفظيع لحركة السير في مدينة بنغالور.

وأوضح ناثان قائلاً: «نحن لا نطبخ». نحن نطلب الطعام من الخارج إلى المنزل. وهناك بعض الأماكن الصينية. ومطاعم البيتزا مثل «بيتزا هات» HutPizza و«دومينوز» Domino's. أو نقطع الشارع إلى مكان حيث نستطيع أن نحصل على وجبة كاملة من تلك التي تتميز بها منطقة جنوب الهند، وذلك مقابل عشرين روبية [نحو أربعين سنتاً]. «لقد حدثاني عن حياة الليل في بنغالور والصعوبات التي تواجههما في مواعدة فتيات هنديات. فإما أن الفتيات لا يخرجن إلى المحال العامة، أو كما قال لي لينكون: «كأن الفتيات هن أغنى منك كثيراً، أنت تفهمين؟ كأنهن من الأثرياء في الواقع. إنهن متعجرفات جداً. وإذا ما تحدثن إليك فذلك لأنهن كن يعشن في الخارج، ويعرفن أنه لا مانع من الحديث الى الشباب».

وبعدما التقيت ناثان وبيتر، قامت شركة Infosys وبشكل مفاجئ بزيادة عدد كوادرها من الولايات المتحدة، باختيارها ثلاث مئة موظف جديد، العديد منهم يمتلكون معلومات أساسية في التكنولوجيا من أرقى الكليات مثل معهد ماساشوستس للتكنولوجيا «MIT». وسوف يقضي معظم هؤلاء الأعضاء الجدد بضعة شهور في التدرب في مبنى الشركة في مدينة ما يسور بالهند، ثم ينتقلون إلى مواقع الشركة حول العالم، ويتضمن ذلك العودة ثانية إلى مواقع في الولايات المتحدة. والاتجاه واضح: سوف تقوم الشركات من أي بلد بالبحث عن أفضل موهبة يمكنها الحصول عليها، وحيثما يمكنها إيجادها، وذلك يشمل الشركات الهندية التي توظف الأمريكيين والأوروبيين.

وشركة Infosys ليست هي الشركة الهندية الوحيدة التي تتعاقد مع موظفين أمريكيين. فقد كان اناند ماهيندرا، وهو خريج جامعة هارفرد (بدرجة امتياز) وكلية هارفرد للأعمال، قد بدأ بتوظيف خريجي الفئة الجامعية في عام 2003. عندما أرسل إليه ريان فلويد وهو خريج جامعة ييل رسالة بالبريد الإلكتروني يسأل فيها عن الفرص المتوافرة.

وفي شهر تشرين الثاني «نوفمبر» من عام 2004، وبعد عام من العمل مع الشركة قام ريان بجولات متكررة لصالح شركة ماهيندرا وماهيندرا ووصل إلى جامعات هارفارد، تافت، ييل، برينستون، پين، وكولومبيا من أجل التعاقد مع موظفين جدد. وتعد إستراتيجية اناند ماهيندرا مباشرة وغير معقدة، حيث يقول: «قد يبقى هؤلاء الشباب سنتين في العمل إلا أنهم يصبحون سفراء للبلد وللشركة. ومثل ذاك الإنسان سوف يحصل على حافز وعلى فكر يفوق المعتاد. وأنا أدفع لهم ما أدفعه لهندي يحمل شهادة الماجستير في إدارة الأعمال. ونحن نحصل على الثمن».

عندما سألته كيف عرف أياً هم الشباب الذين سيكونون على مستوى الخبرة الهندية، وأيهم لن يكونوا كذلك حقاً، أجاب: «إنني أستخدم السؤال الخاص بحبات المصفوفة. فأنا أسألهم: «هل أنت إنسان يختار الحبة الحمراء أم الحبة الزرقاء؟ من المؤكد أنه إذا ما جئت أنتِ، فإن حياتكِ سوف تتغير».

كنت أتبادل الحديث مع أناند في البهو المؤدي إلى غرفة الطعام الخاصة في مقر شركة ماهيندرا في حي وورلي بمدينة بومباي. وعلى مسافة من الطريق الرئيس في وسط منطقة الطاحونة القديمة، كان المبنى المضلع المصنوع من القرميد الأحمر يبدو مقطعاً بمساحات مفتوحة وأقسام منسَّقة بشكل جذاب ومسارب مختلفة تسير في اتجاهات مختلفة. وأجرى أناند اتصالاً هاتفياً مع ديفيد ارناو، وهو من خريجي جامعة هارفرد، ويعمل لصالحه وطلب منه المجيء والتحدث معي.

لم يكن ديفيد ارناو ذو الشكل الحسن، والشخصية المتميزة، طويل القامة والبالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، وله عينان زرقاوتان، لم يكن قد جاء إلى الهند من قبل. وقد قال لي: «كنت أرغب بالعمل في أمريكة اللاتينية. ولم أكن قد سمعت في الواقع عن الازدهار الذي تشهده الهند. إلا أن توافر الفرصة للعمل في تصدير السيارات إلى أمريكة اللاتينية عن طريق شركة هندية أثار فضولي». وتوقف عن الحديث، ثم تابع قائلاً: «أَنتِ تدركين أن معظم الشركات التي تأتي من أجل التعاقد مع موظفين هي مؤسسات استشارية. وليس هناك من شيء دولي تقريباً. وقد بدت هذه أشبه بفرصة غير عادية».

سألته إن كان قد أحب وظيفته.

فأجاب: «أنت تأخذين على عاتقك مسؤولية أكبر هنا وبإمكانك أن تقومي بإنجاز أشياء أكثر مما يمكنك إنجازها في مجال العمل الاستشاري في أي وقت. إنني أتعلم أموراً كثيرة جداً.

وتساءلت كيف كان حال هؤلاء الأمريكيين الشباب وهم يعيشون في مدينة بومباي، فقال ديفيد: «كانت هناك صعوبة في الشهرين الأولين بالفعل. وقد كان عليَّ أن أتعلم كل شيء من جديد. كان عليّ أن أتعلم مجدداً كيف أسير في الشارع».

وكان هناك شخصان أمريكيان آخران يعملان لصالح ماهيندرا عندما كنت هناك العام الماضي. وقد أوضح أناند ماهيندرا أن ثلاثتهم يتقاسمون شقة في باندرا، وهي أول ضاحية في مدينة بومباي، حيث تتناثر البيوت القديمة ذات الطابق الواحد وأبنية الشقق المتواضعة على امتداد شوارع تصطف على جانبيها الأشجار، وحيث تم افتتاح بعض أحدث المطاعم والنوادي. وتعد ضاحية باندرا منطقة شعبية يؤمها الشباب، وهي أقل غلاء وأكثر إثارة من منطقة جنوب بومباي. وابتسم اناند قائلاً: «هم يُعرفون باسم فتيان ماهيندرا». وقال لي وهو يرمق ديفيد بنظرة وقد لمعت عيناه: «لقد علمت بأمر حفلة عيد الميلاد التي كانوا يتنكرون فيها بثياب الأقزام».

ورفع ديفيد بصره مدهوشاً، وصاح: «أنت تعرف أكثر مما نعرف أنك تعرف!»

فضحك أناند.

الفَصْلُ الثَّانِي

المستقبل كما تتخيله الهند

في أمسية دافئة في غير أوانها من شهر تشرين الثاني الماضي، اجتمعت الصفوة المثقفة للمجتمع الهندي في مدينة نيويورك في الجناح البللوري من فندق «تاڤرن اون ذي غرين» Tavern on the green في منطقة سنترال بارك، عقب حضور عرض خاص لفيلم ميرا نير الجديد، الماثل في الذاكرة، والمنقول عن رواية الكاتب جومبا لاهيري وعنوانها «السُّميّ». كان العرض هو فيلم الافتتاح لمهرجان الأفلام السادس، الذي رعاه مجلس الفنون الأمريكي الهندي (IAAC)، وسبق إقامة حفل عشاء كبير ومزاد علني. وتحت إحدى الثُريّات العديدة غير المتناسقة والمتوزعة على نحو بديع، لتشكل جزءاً من سحر القاعة، كان الكاتب سلمان رشدي الذي ترأس الحفل ترافقه زوجته فائقة الجمال عارضة الأزياء بادما لاكشمي؛ وكيران ديساي التي كانت قد حصلت للتو على جائزة بوكر عن روايتها «إرث الخسارة»، وشاشي ثارور، الذي كان قد حل ثانياً في التصويت على منصب الأمين العام القادم للأمم المتحدة؛ وأورهان باموك، الذي كان قد فاز مؤخراً بجائزة نوبل للآداب، وصادف إن كان في الجوار حيث إنه كان يدرس في جامعة كولومبيا، كانوا جميعهم غارقين في الحديث بعضهم. مع بعض وكان هناك حولهم ضيوف يرتدون أزياء هندية منمقة، والقليل منهم يرتدون أزياء الحفلات، وبذات رجال أعمال، وثياب فنانين عادية، ويتنقلون في أرجاء المكان حاملين كؤوس الشراب في أيديهم، ويتبادلون التحيات بالاسم ويقبّلون الواصلين الجدد في الخد.

وفي حفل الاستقبال الذي سبق عرض الفيلم، امتدت لائحة مشاهير النخبة الثقافية من الشتات الهندي إلى ما لا نهاية. ولمحت بالفعل الممثلة الشهيرة والمؤلفة مادهور جافري، وقد أصدرت لتوها مذكراتها في كتاب عنوانه «تسلق أشجار المانغو» وزوجها عازف الكمان البارع سانفورد أولن، وكان هناك المنتج السينمائي جاغموهان موندهرا -كان فيلمه

«البحار الخلفية» يتصدر أفلام المهرجان بعد أيام قليلة- وزوجته تشاندرا، ومخرجة أفلامهما ابنتهما سمريتي موندهرا. وشاهدت ساريتا تشودري التي مثلت في فيلم ميرا نير «توابل المسيسيبي»، وكان هناك الممثل كال بن الذي يقوم بأداء أول دور درامي جدي له في فيلم «السُّميّ». وقد جلس على المنصة مع ميرا نير للإجابة عن الأسئلة التي طرحت عقب عرض الفيلم. وكان سريناث سرينڤاسان عميد كلية كولومبيا للصحافة ومؤسس رابطة الصحافيين لمنطقة جنوب إفريقية (SAJA)، كان يتحدث مع نيلام ديو، القنصل العام للهند في نيويورك. وألقيت التحية على سوندارام طاغور الذي يدير صالة طاغور الفنية، وڤيشاكا ديساي، رئيس الجمعية الآسيوية. وكان أناند وانورادها ماهيندرا قد حضرا من بومباي. كان ماهيندرا الراعي الرئيس للأمسية، وأبرز الغلاف الخلفي لبرنامج المهرجان الرسالة القائلة: «ماهيندرا، يقدم لكم الهند عبر السينما». فقد تخصص اناند في الأفلام وفن التصوير عندما كان طالباً يدرس في جامعة هارفرد، ومن الواضح أنه لم يفقد اهتمامه بالأفلام أبداً. وبدا أرون شيڤداساني، المدير التنفيذي لمجلس الفنون الأمريكي الهندي، وأحد القوى المحركة في مجال دعم وتشجيع الفنون الهندية والفنون المستوحاة من الهند في نيويورك، بدا في كل مكان وفي الوقت نفسه.

وفيلم «السُّميّ» هو تجسيد لرواية مكتوبة ببراعة عن تجربة المهاجرين الهنود في الولايات المتحدة ترسم المنحنى البياني لحياة زوجين من منطقة البنغال في الهند، وهما يؤسسان للعيش في المنطقة الشمالية الشرقية الباردة من أمريكة، ويقومان بتنشئة ولديهما المحاصرين بشكل حتمي ما بين ثقافة والديهما، والثقافة الأمريكية المولودين في كنفها. ويرى الأمريكيون الهنود أن القصة مؤثرة في العمق، لأنها شكل مغاير من أشكال قصصنا نحن، تروى على نحو رائع.

الفيلم عبارة عن تصوير رقيق للغاية لمدينتين عزيزتين على قلب ميرا نير، كالكوتا ونيويورك (هي مدينة بوسطن في الكتاب) وللثقافتين الهندية والأمريكية. وقد كتب السيناريو الجميل للفيلم، سوني تارا بوريڤالا التي كان قد عمل مع نير منذ فيلمها «تحية إلى بومباي»! الذي أخرجته عام 1988.

ويشكل فيلم «السُّميّ» علامة فارقة في تطور السينما الهندية الدولية، المستندة إلى مادة موضوع غنية مع تمثيل رائع لمجموعة من النجوم تضم الممثلَين الهنديين عرفان خان وتابو في أداء يحطم قلبك (لم تكن هناك من عين لم تدمع في دار السينما المكتظة بالحضور)، وكذلك نجماً أمريكياً صاعداً من أصل هندي هو كال پن، والممثلة المولودة في لندن زليخة روبنسون، والممثلين الأمريكيين غلين هيدلي وبروك سميث. ولقد تماهت ميرا نير عاطفياً مع الرواية، كما أبلغتني عندما أجريت معها مقابلة في الشتاء الماضي. وقالت: «أنا من مدينة كالكوتا، وأنا من مدينة نيويورك أيضاً. أنا أذكر كيف كان شعوري عندما جئت إلى هذا البلد للمرة الأولى. وأنا لا أزال لا أحب انتعال الأحذية». لقد كان الجلوس في صالة العرض السينمائية المعتمة محاطة بأفراد الجالية الهندية، الذين كانت قصتهم تظهر على الشاشة، تجربة مؤثرة للغاية.

والفيلم الذي يتوجه إلى الجمهور في كل أنحاء العالم هو إنتاج مشترك لشركة فوكس «سيرتشلايت بيكتشرز» Fox Searchlight Pictures الأمريكية للسينما وشركة الأعمال الفنية الترفيهية الهندية «يو.تي.ڤي موشن بيكتشرز» Motion Pictures UTV، مع تمويل إضافي من شركة الإنتاج اليابانية «انترتينمنت فارم» Entertainment Farm. وستقوم شركة UTV بتوزيع الفيلم في الهند؛ أما شركة فوكس فستوزعه في أسواق أخرى. وتأمل الشركتان بأن هذا سوف يكون الفيلم الذي سيؤكد، عقب نجاح الفيلم الذي أخرجته نير عام 2004، وهو «عرس الرياح الموسمية» على التسليم بأهمية وقيمة السينما الهندية في السوق العالمية.

يدير شركة UTV روني سكروڤالا وهو رجل في الأربعينيات من عمره صنع نفسه بنفسه وأنشأ شركته عند بدء رواج التلفزيون في الهند. وروني رجل دمث الخلق مهذب، ويشعر بالارتياح وهو يرتدي الجينز أكثر من ارتداء بذة رجال الأعمال. وعلى الرغم من مسلكه العادي، فإن روني يأخذ على محمل الجد إيصال الأعمال الفنية الترفيهية وشركته إلى العالمية. ولم يعرض فيلمه الذي حقق نجاحاً كبيراً «رانغ دو باسانتي» Rang De Basanti وظهرت فيه الممثلة البريطانية أليس باتن، وهي تتكلم اللغة الهندية بطلاقة، لم يعرض في دور السينما «الهندية» في منطقة كوينز في نيويورك أو أديسون في مدينة نيوجيرسي. بل عرض في صالة للعموم في مانهاتن، والأمر ذاته ينطبق على فيلم شركة UTV عن رجال

العصابات واسمه «دون» «Don» تمثيل شاهروخ خان. وإن انضمامه إلى شركة «فوكس سير تشلايت بيكتشرز» للعمل على فيلم «السُّميّ» ينطوي على حكمة تامة بالنسبة للاتجاه العالمي الذي يسير نحوه روني بشركة UTV. ويعد المواطنون الهنود في الشتات الجمهور الرئيس في الخارج للتلفاز الهندي ولأفلام بوليوود. وقد برز الشتات في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كجسر قوي مابين الهند وبقية العالم.

جسر بين الهند وأمريكة

يقوم الأمريكيون من أصول هندية، مثلهم مثل الأعداد الغفيرة من المهاجرين، الذين جاؤوا قبلهم بإضافة نكهاتهم الخاصة إلى الخليط الأمريكي، بشكل بطيء ولكن بثقة. وفي أي مكان يتلفت فيه الأمريكيون فإنهم يصادفون شيئاً من الهند. وتعد ممارسة رياضة اليوغا أسرع نشاط لأوقات الفراغ تزايداً في البلاد. وقد انتشرت المطاعم الهندية من ساحل إلى ساحل، ومن سلسلة الوجبات السريعة مثل Naan Slop «نان سلوب» على ساحل كاليفورنية إلى معابد آخر مطبخ حديث مثل Suvir Saran's Devi «سوڤير سارانس ديڤي»، المطعم الهندي الوحيد الذي نجح في إدراجه ضمن «دليل ميشلين» لأفضل المطاعم في مدينة نيويورك. وتتوافر علب مجمدة من الطعام الهندي المعد سابقاً في محال السوبرماركت في كل مكان.

ويقوم الأمريكيون من أصول هندية والهنود الذين يعيشون في الولايات المتحدة بإضفاء نبرة هندية على عالم الفن والآداب خارج نطاق السينما. وكان الرسام التجريدي ناتڤار بهاڤسار قد عاش وحقق نتائج من عمله في غرفة العلِّية في منزله في حي سوهو في نيويورك لمدة أربعين عاماً. وتعلق لوحاته حيث ترسم المواد الملونة القوية فيها إحساساً شعرياً من الألوان، تعلق في متاحف مهمة بارزة وضمن المقتنيات الخاصة من الأعمال الفنية، وتباع بانتظام جميع لوحاته التي تعرض في المعارض التي يقيمها في مدينة نيويورك. كان زوبين ميهتا أول هندي يقتحم ميدان الموسيقا الكلاسيكية الأمريكية. وكان ميهتا، وهو من مواليد بومباي، المدير الموسيقي للأوركسترا الفيلهارمونية في لوس أنجلوس لمدة ستة عشر عاماً قبل أن يشغل إدارة الأوركسترا الفيلهارمونية لمدينة نيويورك، وهو المنصب الذي تولاه حتى عام 1991. وتقوم ريخا مالهوترا، المعروفة أكثر باسم دي.جي. ريخا تقوم بإمتاع حشد

مختلط في أحد النوادي بمهرجانها الموسيقي الشهري المعروف اسم «بيسمنت بهانجرا» Basement Bhangra، وهو مهرجان حقيقي تعزف فيه مقطوعات موسيقية معاد تسجيلها، وتترافق إيقاعاتها مع عروض بصرية برّاقة.

كان الأدب المجال الثقافي الأول الذي برز فيه الفنانون الهنود فجأة وبقوة على المسرح الأمريكي المعاصر. وسجل سلمان رشدي الذي يعيش في نيويورك حالياً، اللحظة التأسيسية للزيادة المفاجئة والسريعة في صدور الأعمال الأدبية الهندية المكتوبة باللغة الإنكليزية مع كتاب «أولاد منتصف الليل». والمؤلفون الكنديون روهنتون ميستري (كتاب «التوازن الدقيق») شوناسينغ بالدوين («ذكريات الجسد») وام. جي ڤيسانجي («حياة فيكرام لال في الوسط») جميعهم معروفون جيداً في الولايات المتحدة. ويعيش اميتاڤ غوش مؤلف سلسلة من الكتب التي لقيت استحساناً من النقاد، بما فيها كتابه الأخير «المد الجائع» يعيش في مدينة بروكلين، وكذلك جومپا لاهيري.

وتوفر محطات الأقمار الصناعية والبث التلفازي التي تعمل بالكابلات على مدار أربع وعشرين ساعة خط اتصال أساسياً بالوطن الأم بالنسبة للهنود الذين يعيشون في بلاد الاغتراب. وتقوم القوة الشرائية لهنود الشتات بإحداث تحول في توزيع أفلام بوليوود ومضمونها؛ كما تقوم الشركات الإعلامية الهندية بشراء موطئ قدم لها في هوليوود، في حين يقوم الهنود الذين يمتلكون الخبرة في محيط وسائل الإعلام الأمريكية بأخذ خبراتهم ومعرفتهم معهم إلى الهند. ويبحث تكتل شركات وسائل الإعلام الأمريكية الضخمة عن هنود ميسورين في كل من الولايات المتحدة والهند من أجل تسهيل دخولهم إلى سوق مزدهرة. وبقدم واحدة في أمريكة وقدم في الهند، تقوم هذه المجموعة من الناس بإحداث تغيير مهم فيما تنتجه وسائل الإعلام العالمية وفي الموضوعات التي تطرحها.

إن الهند مهيأة لتصبح ليس فقط سوقاً ضخمة لما يتم إنتاجه من أعمال فنية ترفيهية أو مجمعاً مهماً للعمالة الرخيصة في مجال الرسوم المتحركة وغيرها من العمليات كثيفة العمالة، وإنما لتصبح ينبوعاً لمحتوى أصلي أنشأه هنود من أجل جمهور عالمي. وإن اليوم الذي ستحتل فيه الهند مكان أمريكة كقوة عظمى في ميدان الأعلام والترفيه ربما يكون آتياً بأسرع مما نعتقد.

تيليوود

يلعب التلفاز دوراً قوياً وفاعلاً على نحو فريد في عملية التحول التي تشهدها الهند. وقد كان تطور التلفاز في الهند على مدى العقدين الماضيين أمراً مثيراً. وكان هناك حتى عام 1991، محطة تلفازية حكومية واحدة، هي دوردارشان «DoorDarshan». وبدعم من منظمة اليونسكو، تم إدخال التلفاز إلى الهند بوساطة حكومتها وذلك في عام 1959. وباستقراره أصلاً في DRDO (منظمة البحوث الدفاعية والتنمية) كان هدفه الرئيس الارتقاء بأمة متباينة وتوحيدها. وظلت هذه مهمة المذيع الوطني من بداية الثمانينيات حتى نهايتها، عندما وصل التلفاز الملون إلى الهند وشجعت الحكومة الهندية شراء هذه الأجهزة عن طريق خفض رسوم الاستيراد. وفي عام 1983، كانت إشارات التلفاز متاحة لثمانية وعشرين بالمئة من السكان، وتضاعف الرقم إلى 56 بالمئة بحلول عام 1986، ووصل إلى أكثر من 90 بالمئة بحلول عام 1990. ومع إعادة تسميتها مجموعة «دي.دي» DD للقنوات التلفازية، ما زالت محطة دوردارشان تصل إلى أكثر من 90 بالمئة من السكان الهنود وتنقل مجموعة متنوعة من البرامج باللغة الإنكليزية وبإحدى عشرة لغة محلية تبث على عشرين قناة مختلفة.[(1)]

جاءت شبكتا تلفاز «سي ان.ان» CNN و«ام.تي.ڤي» MTV إلى الهند في عام 1991، على أمواج القمر الصناعي «ستار» STAR. وبعد مرور ستة عشر عاماً ليس إلا، يستطيع الهنود أن يختاروا البرامج التي يريدون متابعتها من بين عدد يصل إلى 350 قناة، ويمتلك اليوم كل تكتل للشركات الإعلامية الرئيسة من ديزني، إلى تايم وورنر، إلى ڤياكوم إلى الـ بي. بي.سي، قنوات تبث داخل الهند[(2)]. وقد عجل انفتاح الهند على باقي العالم في عام 1991، في حدوث زيادة سريعة ومفاجئة في عدد وسائل الإعلام. وفي حين أن معظم الأمريكيين قد اختبروا قدوم كل واحدة من هذه الوسائل الإعلامية كأمواج مختلفة، واحدة تندفع فوق الأخرى، واختبروا التعامل مع وسائل الاتصالات المتقدمة ومتابعة الأعمال الفنية الترفيهية تدريجياً وبصورة منتظمة، فإن الكثيرين من الهنود ينفتحون عليها جميعها دفعة واحدة. وتشهد الهند تطوراً سريعاً في قطاع التلفاز سواء في عدد الأسر التي تملك جهازاً تلفازياً وعدد القنوات والبرامج المتاحة. وبشروعها في البث بفعل قدوم القنوات التلفازية الهندية الجديدة مثل «زي تي.ڤي» ZeeTV، يزداد وبسرعة كبيرة عدد شبكات التلفزة المملوكة

لأشخاص هنود وعدد البرامج التي يعدها هنود في الداخل، مثلما هو حال الأعداد المتزايدة من شبكات التلفزة والبرامج الأجنبية. وهنالك قطاعات كاملة من الشعب، التي اعتادت أن تكون معزولة عن باقي المجتمع وعن العالم باتت الآن على تواصل مع التلفاز وتتابع برامجه. وتقوم زوجات ذوي الدخل الأدنى، والمزارعون وأصحاب المحال الصغيرة بمشاهدة التلفاز واستخدام أجهزة الهاتف الخليّوي في الوقت الحاضر؛ كما بدؤوا باستخدام الإنترنت.

من الصعب تخيل مدى السرعة التي تتغير فيها الهند والمدى الذي تدفع به وسائل الإعلام والأعمال الفنية الترفيهية عملية التحول التي تشهدها البلاد؛ ومن الطبيعي أن يطرح مثل هذا التغيير السريع أفكاراً للبحث عن الهوية الوطنية والهوية الشخصية. فوسائل الإعلام ليست هي الفضاءات التي يتم فيها استكشاف العديد من قضايا الهوية هذه، فهي أيضاً المكان الذي يجري فيه ابتكار ونشر صور عن الهند الجديدة -دولة تتطور وتواكب العصر الحديث بسرعة- لكل من الجمهور الهندي وللجمهور في كل أنحاء العالم. وفي الوقت ذاته، فإن ما يسمى بالفارق الرقمي الذي يشكل مصدر معاناة لكوكب الأرض، ويفصل بجلاء تام أولئك الذين يملكون الاستفادة من الإنترنت والحصول على وسائل التكنولوجيا الهائلة هذه وتتاح لهم فرصة استعمالها عن أولئك الذين لا يحظون بهذه الفرصة، هو واقع قائم داخل الهند ذاتها. إن إحدى التحديات الجوهرية التي تواجه البلاد هي كيفية ضم فقراء الهند إلى ثورة وسائل الإعلام والاتصالات.

لقد تزامنت الانطلاقة المظفرة للتلفاز مع - وشكلت مهمازاً- لنمو اقتصادي متسارع، ومع تغلغل العلامات التجارية لشركات ذات قوميات مختلفة داخل السوق الهندية، وبروز طبقة جديدة من المستهلكين. وإلى جانب المسلسلات الاجتماعية الهندية الجديدة، والبرامج الحوارية، والبرامج الموسيقية والبرامج الإخبارية، فقد أدى التلفاز خدمات لمجموعة متعددة من الإعلانات المُعدة ببراعة لمجموعة متزايدة من المنتجات والخدمات. وجعل التلفاز العالم خارج الهند مرئياً من جديد لعدد متزايد من الهنود. لقد قدم التلفاز الهند الحضرية إلى القرويين في المناطق الريفية وعرّفهم بها. وهو يستعرض أساليب حياة الأغنياء أمام أعين الفقراء. وقد فتح عوالم جديدة مغرية من الإمكانيات أمام مجموعة من المشاهدين الهنود حتى في حين يقوم بتعميق الهوة ما بين أولئك المواطنين الذين هم جزء من الهند الجديدة وأولئك الذين ليسوا كذلك.

شكل التلفاز في الهند قوة من أجل دمقرطة الطموح. فقد ظهرت فجأة مجموعة كبيرة من نجوم «تيليوود» لتحدي نجوم بوليوود من الممثلين الذين باتوا أنصاف آلهة. وصنع مواطنون عاديون ثرواتٍ سريعةً، وحققوا الشهرة بين ليلة وضحاها في برامج تلفازية مثل KaunBanegaCrorepati -وهو النسخة الهندية من برنامج «من يريد أن يصبح مليونيراً»- وبرنامج «معبود الهند». وإلى جانب حشد كبير من القنوات التي تبث باللغة الهندية، تتكاثر القنوات التي تبث باللغة الوطنية ولغات الأقاليم، وتعمل على انتشار تجربة صناعة التلفاز خارج نطاق النخبة التي تتكلم اللغة الإنكليزية وسكان المدن والمناطق الشمالية الذين يتكلمون الهندية. وتعد الهند مجتمعاً مجزأً للغاية -تقسمه اللغة، الإقليم، الديانة، الطبقة الاجتماعية والنظام الطبقي المتوارث عند الهندوس- وحيث تبلغ نسبة الأُمية بين النساء 53 بالمئة وبين الرجال 30 بالمئة، فضلاً عن تفشي الأمية بين 26 بالمئة من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة إلى الرابعة والعشرين(3). والكثيرات من النساء في الهند لا يعملن خارج المنزل، وتتيح لهن فرصة متابعة البث التلفازي، كما تتيح لغيرهم من المواطنين التواصل مع مسيرة حياة الأمة والعالم الأوسع.

لقد حقق نمو الهند منذ ثمانينيات القرن الماضي نجاحاً باهراً إلا أنه نجاح غير متوازن أيضاً. فهنالك تنافس قوي ما بين القبول المفاجئ بالتحرر من القيود، وبين الرأسمالية القائمة على الطراز الأمريكي وبين حماية مصالح المستهلكين من جانب النخبة الحاكمة ونخبة رجال الأعمال في هذا النظام الديمقراطي النشط الذي غالباً مايتسم بالفوضى. وهناك ردة فعل عنيفة ضد الانفتاح السريع للبلاد، هناك قلق بشأن التدفق السريع للبضائع الأجنبية والشركات الأجنبية على البلاد وشيوع نمط الحياة على الطريقة الأجنبية. وأدى المفعول القوي الذي تحدثه الإعلانات التلفازية وانتشارها والمشاهد الممتعة للبرامج الأجنبية أو البرامج المستوحاة منها، إلى وضع اللوم على التلفاز بصدد انعطاف الهند باتجاه الرأسمالية الاستهلاكية، التي لا يتوافق معها معظم الهنود، وتسبب ذلك على أية حال في تخلف الكثيرين.

أيضاً، تزامن صعود التلفاز في الهند مع تفكك العمل السياسي في البلاد وحدوث زيادة في عدد الأحزاب والزعماء الذين يستندون إلى النظام الطبقي المتوارث وإلى أسس إقليمية،

وقيام سلسلة من حكومات الائتلاف الوطني -بعضها أكثر هشاشة من الأخرى- ونهوض القومية الهندوسية(4). والواقع فإن بث المسلسل التلفازي رامايانا* Ramayana منذ كانون الثاني «يناير» 1987، وحتى شهر آب 1989، الذي سجل رقماً قياسياً في عدد المشاهدين في انحاء الهند، تزامن مع نهوض حركة «رام جانمابهومي Ram Janmabhoomi»، التي دفعت في النهاية حزب جاناتا بهاراتيا القومي الهندوسي أو (BJP) إلى السلطة. وقد كان التاريخ الحديث للهند حافلاً بالعنف السياسي. وكانت البلاد تتمزق مرة تلو الأخرى بفعل الهجمات الإرهابية والصدامات العنيفة المتبادلة بين الجماعات الدينية ولا سيما الهندوس والإسلام، وكذلك ما بين السكان الأصليين الذين يسكنون الأدغال أو «الأديڤاسيز» كما يُسمون في الهند، وبين الشركات المتنفذة العاملة في مجال استخراج المعادن من الأرض، عدا عن ذكر مسألة نمو حركة «الناكسال» Naxalites وغيرها من حركات التمرد التي تشكل مبادئ ماوتسي تونغ مصدر إلهام لها.

كانت موليكا تشوبرا الشخصية الرئيسة التي تمثل محطة تلفاز «ام.تي.ڤي» MTV للأغاني الغربية في الهند في عام 1995. وقد كانت ترغب دائماً بالعمل في وسائل الإعلام، وكانت الفرصة المتاحة للذهاب إلى الهند مع طاقم محطة «ام.تي ڤي» فكرة شائقة فيما يخصّها بالنسبة اليها وجرى الترتيب لإقامتها في فندق تاج الرائع، الذي يطل على النصب التذكاري لبوابة الهند عند الواجهة البحرية في بومباي. إلا أنه وبعد مدة بدأت تتساءل: ما الذي كانت تفعله «بالجلوس في السيارة والمرور عبر الأحياء الشعبية الفقيرة لمدينة بومباي ومشاهدة عشرين طفلاً حفاة من دون أحذية داخل متجر يتابعون بث محطة MTV، وانتابها شعور أشبه بـ«أوه ياإلهي، إنني أَنشر هذا في الهند. وكانت تلك هي اللحظة التي قررت فيها أن أترك العمل في محطة MTV».

بإمكاني أن أرى أولئك الأطفال الحفاة بأقدامهم المغبرة وأطراف أصابعهم المفلطحة وقد فغروا أفواههم وهم يتابعون مشاهدة التلفاز. وكنت قد مررت وبعد بلدة دادار مباشرة،

*ملحمة شعرية عن رحلة الملك راما، إحدى أهم الأعمال الأدبية عن الهند في قديم الزمان، وتروي حكاية رحلة الخير للقضاء على الشر. (المترجمة)

وعلى الطريق إلى منطقة جنوب بومباي لتناول طعام الغداء، أو للذهاب إلى حفلة، مررت بالرتل الطويل من أكواخ الصفيح الفقيرة المكونة من غرفة واحدة، والعديد منها لها طابق ثانٍ ملحق بها يتم الصعود إليه بوساطة سلم، وتنحشر الأكواخ ما بين الطريق وبين حائط يمتد على طول خط السكك الحديدية. وتتدفق الأُسر على الشارع تطبخ وتنام وتغسل أغراضها من مياه الدلاء وتجلس وتتجاذب أطراف الحديث مع الجيران، بينما تنطلق سيارتي مسرعة. وتعدو الكلاب ببطء على طول الشارع، ماضية في سبيلها بين الناس، وبعضهم وقد نام الآن والتف على نفسه في غفلة راضية، على وسادة رقيقة. وتقضم الماعز قطعاً صغيرة من النفايات. والأبواب مفتوحة. وليس هناك من نوافذ أو هناك أحياناً فتحة صغيرة بقضبان حديدية قائمة في أعلى الحائط من أجل إفساح المجال لدخول القليل من الهواء والقليل من الضوء. وتتوافر المياه الجارية الوحيدة من حنفية تقع على مسافة بعيدة بعض الشيء. وليست هناك من دورات مياه. وعلى مقربة من مكب للنفايات يركض طفل صغير ويتغوط. وبإمكانك أن ترى داخل الأكواخ: أكداساً مكومةً من الصناديق الكبيرة، ثياباً معلقة على علاّقات، سريراً تتشارك فيه الأسرة بأكملها، وبين كل مسكن صغير وآخر جثم الناس وكلهم انتباه، مستغرقين في المشاهدة أمام التوهج الأزرق المتقطع لجهاز تلفاز.

وعلى الرغم من الجور اللاحق بالمواطنين نتيجة عدم تحقق المساواة بينهم على الصعيد الاقتصادي، فقد زود التلفزيون شعباً متنوعاً بإحساس المجتمع المحلي الوطني العام، أثناء زمن عامر بتحولات اجتماعية وسياسية واقتصادية واسعة النطاق. وهو وسيلة يمكن للملايين من المواطنين أن يتقاسموا بها تجربة طموحات جديدة وهموم جديدة(5) وتجمع مباريات رياضة الكريكت ولا سيما التي تقام ضد الخصم الرهيب المجاور، باكستان، أو ضد بريطانية الاستعمارية السابقة، تجمع الهنود معاً من كل بقعة من البلاد، والحقيقة من كل زاوية من كوكب الأرض ومن كل المراتب الاجتماعية في تجربة وطنية مشتركة هائلة. وقد باتت برامج الألعاب التلفازية تلقى شعبية واسعة مع مناصرة البلدات والولايات التي تشكل مسقط رأس المشاركين فيها لمواطنيها وقيام الملايين من المشاهدين بالتصويت عبر خدمة الرسائل القصيرة المكتوبة من هواتفهم الخليّوية. أما في المسلسلات التلفازية التي تتناول قضايا الأسرة والمجتمع، فتتضارب آراء الأجيال بصدد التقويمات المختلفة لمثل هذه

البرامج مثل البرنامج الذي يحظى بشعبية ضخمة Kyunki Saas Bhi Kabhi Bahu Thi (لأن الحماة كانت هي نفسها زوجة الابن ذات يوم)، أو أحد المسلسلات المفضّلة لدى عمتي واسمه، «ميللي» Millie.

ولأنني غالباً ما أُقيم معها، فقد شاهدت Millie عدة مرات في منزل عمي وعمتي في غورغاون، الضاحية الجنوبية لمدينة نيودلهي التي تعيش تطوراً متسارعاً. وفي البداية، دفعتني الحركات المضحكة والمتصنّعة وتحركات الكاميرا المبالغ فيها والتسجيل الصوتي للبرنامج الذي يرسل زعيقاً يشق الآذان كل مرة يتم الكشف فيها عن حقيقة مثيرة أو إطلاق ملاحظة حادة، إلى الاعتقاد بأن البرنامج كان سطحياً بشكل سخيف. وكانت الخادمات اللواتي يعملن لدى العائلة الثرية في المسلسل التلفازي يرتدين ثياباً باللون الزهري والأبيض، وكانت التنانير قصيرة جداً مثل تلك التي تلبسها الخادمات الفرنسيات، وكن ينتعلن أحذية رياضية خفيفة بيضاء، ويضعن أهداباً اصطناعية، مع مكياج واضح من مساحيق الزينة والبودرة الجافة. لكنني حالما فهمت حبكة الرواية أدركت أن «ميللي» كانت قصة مؤثرة عن الصراع الطبقي في الهند الآخذة في التحول. ويتبين أن ميللي، الشخصية التي سميت الرواية باسمها، وهي فتاة شابة من بين الخادمات، هي الابنة غير الشرعية للابن المفضل في الأسرة. ويتصدى المسلسل التلفازي «ميللي» وتحت مظاهر التكلف والتصنع لمعالجة قضايا لا تبعث على الارتياح عن الاستغلال الطبقي والجنسي في قلب أقدس مؤسسة في الهند، الأسرة.

وتلعب الدعايات التلفازية دوراً مهماً في عملية تحول الهند. وأثناء فواصل الإعلانات التجارية التي تتخلل مسلسل «ميلي» أو آخر الأخبار من تلفاز NDTV، يتبختر شبان هنود جذابون في سراويلات الجينز الضيقة وبقصات شعر تتبع الموضة السائدة مزهوين بحاجياتهم وأغراضهم عبر الشاشة الصغيرة، وينطلقون في سباقٍ للسيارات الحديثة، ويهتزون في حركات سريعة، وهم يحتسون زجاجات الصودا المثلجة، وكل ذلك على وقع تسجيل صوتي لموسيقى البوب الممتعة. وتقوم ربات البيوت وهن يرتدين لباس الساري الهندي، بمناقشة مزايا المنتجات والعلامات التجارية الجديدة، التي تقلل من عناء عملية الطبخ، أو تظهر مدى حرصهن لتوفير الرعاية والحنان لأسر محظوظة، بأن تكون لديها

أمهات يعرفن كيف يتخذن قرارات استهلاكية حكيمة. ويقوم رجل يرتدي ملابس غربية عادية بمساعدة والده الذي يرتدي لباس «الكورتا» kurta التقليدي -رداء فضفاض يصل إلى الركبة- بالنزول من قطار. ويدرك هذا الابن العصري أن البوليصة المناسبة للتأمين على الحياة هي المفتاح إلى مساعدة والديه على العيش بكرامة في سن الشيخوخة.[6]

ومهما كان نوع المنتج، فإن الإعلانات الدعائية لمشروب البيبسي أو الكولا أو الدراجات النارية من ماركة «باجاج Bajaj» أو أثواب الساري من ماركة «ساتيا بول Satya Paul»، تعمل على نشوء مذهب استهلاكي كان حتى وقت قريب غريباً على المواطنين الهنود. كما إن إمكانيات تطور مجال الدعاية والإعلان في الهند كبيرة جداً ومثيرة للإعجاب. ويشير تقرير لمؤسسة «برايسووترهاوسكوبرز PricewaterhouseCoopers» إلى أن عائدات وسائل الإعلام الإلكترونية، بما فيها التلفاز، قد تتضاعف ثلاث مرات من 4.6 مليارات دولار في عام 2005. إلى 12.8 مليار دولار بحلول عام 2010[7]. ويتوقع أن تمتلك الهند 180 مليون جهاز تلفازي منزلي بحلول عام 2008، وذلك مقارنة بأكثر قليلاً من 100 مليون جهاز تلفازي منزلي في أمريكا اليوم. وبوجود نحو 600 مليون مشاهد، تشكل الهند الآن أكبر سوق لصناعة التلفزيون في العالم[8]. وتمتلك ستون بالمئة من الأسر الهندية 119، مليون أسرة تقريباً، جهازاً تلفازياً، وتحظى (42) بالمئة من هذه الأسر بخدمة نقل البرامج التلفازية عن طريق الكابل[9].

هناك ثلاثون قناة إخبارية في الهند. وتحوز أعلى نسبة مشاهدة من بينها القنوات التي لا تتحدث اللغة الإنكليزية، وهي تبث بلغات مختلفة بما فيها الهندية، الماراثية، الغوجاراتية، البنجابية، البنغالية، لغة الكانادا، التاميل، الاوريا، المالايالام، والتيلوغو.[10] ويتحدث أكثر من مليون شخص في الهند اثنتين وعشرين لغة، وتمتلك معظم الولايات لغاتها الرسمية المختلفة الخاصة بها. ويبلغ العدد الكلي للغات التي يتم التحدث بها في الهند كل يوم «رقماً مذهلاً هو 850 لغة. ولدى معظم الأقاليم ليس فقط صناعة تلفازية مزدهرة بلغتها المناطقية، بل لديها أيضاً صناعة الأفلام الخاصة بها ونجومها الخاصين؛ وكذلك تقاليد أدبية غنية، وصحف يومية، ومجموعة متنوعة من المجلات. ويسهم التنوع اللغوي في الهند في وجود جو إعلامي متعدد الأطياف ودائم التغيير بشكل هائل.

عندما دعيت الأسبوع الماضي لتقديم تعليقات على الهواء على قناة «هيدلاينز توداي» «Headlines Today»، إحدى القنوات الإخبارية الرئيسة التي تبث باللغة الإنكليزية، وذلك أثناء زيارة الرئيس بوش إلى الهند، كان مضيفي مبتهجاً ومتحمساً لاكتشافه أنني أتكلم الهندية. وأراد على الفور أن يصلني بقناة «آج تاك» «Aaj Tak» وهي قناتهم الإخبارية التي تبث باللغة الهندية. وأوضح لي المذيع المعتمد لنشرات الأخبار راهوال كانوال: «سيدتي، أنت لا تفهمين. نحن نستقطب اليوم نسبة مشاهدة عالية جداً. وذاك يعني أن زهاء خمسين مليون شخص يشاهدون قناة «هيدلاينز توداي». «ولكنْ هنالك ستون مليون شخص على الأقل يشاهدون «آج تاك»، وهم لا يتوصلون إلى الاستماع إلى محلل أجنبي أبداً. وسيكونون سعداء جداً». غير أنني عارضت الأمر، وكنت خائفة تماماً من فكرة لعب دور الخبير بلغة أتكلمها بمهارة، ولكن ليس بشكل متقن على الإطلاق.

وجاءت الإجابة السريعة: «لا تقلقي إذا لم تكوني تعرفين الكلمة باللغة الهندية استخدمي فقط الكلمة الإنكليزية، فنحن جميعنا نفعل ذلك على أية حال»، مشيراً بذلك إلى وجود ميل في الهند للخلط ما بين اللغتين الهندية والإنكليزية في لغة «هنكليزية»، وهو اتجاه تم دعمه عن طريق التلفاز. وقد أوجد بدوره ما يشكل لهجة هندية مختلفة أخرى ومتميزة لتثير فزعاً كبيراً لدى النخبة المثقفة التي تتحدث اللغة الهندية. وتمثل اللغة «الهنكليزية» طريقة أخرى إضافية لأبناء جيل أصغر من أجل الإعلان عن ارتباطهم ببقية العالم ولتمييز أنفسهم عن جيل أكبر وأكثر ارتباطاً بالعقيدة والمبادئ.

عندما سألت توم فريستون، المدير التنفيذي السابق لشركة «ڤياكوم Viacom» عن إمكانيات التلفاز في الهند، قال لي: إن لدى الهند حركة نشطة لا تراها في كثير من الأسواق الأخرى. ولدى الهند عدد أكبر من البيوت، والكثير من هذه البيوت لا تمتلك جهاز تلفاز بعد. لذا فأنتِ لديك أشخاص أكثر وأيضاً أشخاص أكثر لا يمتلكون أجهزة تلفاز لكنهم يرغبون في ذلك ويحصلون على الوسيلة لشرائها: وذاك يعني الكثير من إمكانية النمو». والحقيقة فإنه من المتوقع أن تزداد العائدات التي يتم تحصيلها من طلبات الاشتراك في تلفاز الكابل وغيره من خدمات البث بما يقدر بـ 1.67 مليار دولار في عام 2004، إلى 4.2 مليار في عام 2009[11].

كان تلفاز «ام.تي.ڤي» التابع لشركة «ڤياكوم» أحد أولى القنوات الأجنبية التي تأتي إلى الهند. وقد افتتحت منذ ذلك الوقت قناتا «ڤي.اتش.آي VHI» و«نايكلوديون Nickelodeon». وسألت فريستون الذي كان يعمل مديراً تنفيذياً لشركة «ڤياكوم» آنذاك، إن كانت لديه خطط أخرى لتوسيع وجود تلفاز شركة Viacom في الهند.

أجاب فرستون: «أود أن أطلق قناة كوميديا هندية فذاك شيء لا ينتقل بشكل جيد تماماً. إنه يشكل تحدياً في السوق الهندية. إننا في الولايات المتحدة جمهور تلفاز متعدد. فالناس يشترون تلفازاً جديداً، وتذهب الأجهزة التلفازية القديمة إلى داخل إحدى غرف نوم الأطفال. أما في الهند فهي سوق تلفاز وحيد. وعندما يشتري الناس جهازاً تلفازيّاً جديداً فإنهم يقايضونه جزئياً بجهازهم القديم، ويقوم شخص ما لا يملك تلفازاً ولا يمكنه تحمل نفقات شراء تلفاز جديد، يقوم بشراء ذلك القديم. وينتهي المطاف بالأجهزة القديمة في القرى. لذا، أنت لديك الأسرة بكاملها أمام تلفاز واحد. وكنا نقوم عادة بإعداد برامج لجمهور محدد فأنت تعلمين أن قناة «ام.تي.ڤي» للشباب وقناة «نايكلوديون» للأطفال ولا تزال الهند سوقاً عامة، لذا فإن ذلك يشكل تحدياً فيما يخصنا».

لم يمنع تحدي السوق العامة للتلفا في الهند الشركات العملاقة في الولايات المتحدة والمتميزة في مجال الأعمال الفنية الترفيهية من الدخول إلى البلاد. وعندما كنت في الهند في شهر أيار الماضي، كانت هناك ملصقات ضخمة معلقة في كل أنحاء بومباي للدعاية للبرنامج التلفازي الناجح الذي تنتجه شركة ديزني للأطفال وأولاد السن المحير، المسمى «ذاك مناسب لريڤين»، وتظهر فيه الممثلة التي تقوم بالدور الرئيس ريڤين سيموني، وهي تبدو هندية بشكل مذهل، في موضع بارز من الصورة مع اثنين من الأطفال الهنود الجذابين إلى حد بعيد، في خلفية كل لوحة إعلانات. وتمتلك شركة ديزني ثلاث قنوات في الهند اثنتان منها «تون ديزني Toon Disney» و«هونغاما Hungama» وهي محطة أطفال اشترتها الشركة العام الماضي من تكتل شركات وسائل الإعلام «يو.تي.ڤي UTV»، التي تبث برامجها باللغة الهندية. وعن شراء محطة تلفاز أطفال جرى تأسيسها على يد هنود، قال آندي بيرد الرئيس الدولي لشركة والت ديزني: «تشكل الهند أولية إستراتيجية على المدى الطويل. ومن المهم جداً أن نطور عملنا محلياً، فضلاً عن تطويره عبر تصدير المحتوى ذي

المنشأ الأمريكي[12]. وبالنسبة للمحتوى الأمريكي فإن الشركة تركز على أن بإمكان جمهور هندي تتراوح أعماره ما بين عشرة إلى خمسة عشر عاماً أن يشاهد **Lizzie Mcguire** ليزي ماكغواير، **Jojo's Circus** سيرك جوجو»، و**Kim Possible** «كيم بوسيبل» إلى جانب أفلام وبرامج تلفازية ورسوم متحركة من إنتاج شركة ديزني. وتعتزم الشركة أيضاً إنتاج نسخة عن فيلم هندي من المسلسل التلفازي والفيلم السينمائي«هاي سكول ميوزيكال» **High School Musical**[13].

من المؤكد أن شركة ديزني تقوم بتقديم أكثر كثيراً من مجموعة من الشخصيات والبرامج التلفازية للأطفال الهنود. وقبل إطلاق القنوات التلفازية في الهند، كانت الشركة تملك أكثر من خمسة وخمسين من المشروعات التجارية المرخصة، وتقيم صلات مع بائعي التجزئة في كل أنحاء البلاد، لكي تقوم بعمل ما تقوم به في الولايات المتحدة بشكل مرضٍ جداً: تبيع مجموعة من المنتجات الاستهلاكية المرتبطة بخصائص وشخصيات أفلام مختلفة لشركة ديزني[14]. فالجيل الحالي من الأطفال الهنود هو الأول الذي يكبر مع مجموعة من الشخصيات التي تظهر على شاشة التلفاز والسينما ثم ليترجم ذلك إلى رغبة في شراء منتجات إضافية. وسوف يكون تأثير هذا النوع من التجربة على النمو المستقبلي للسوق الاستهلاكية الهندية النشطة جداً، تأثيراً استثنائياً وضخماً.

وقد أنفق المعلنون في السنة المالية التي تنتهي في عام 2005. زهاء (26) مليون دولار في دعم ظهور منتجات على شاشة تلفاز الأطفال في الهند، بزيادة بلغت (169) بالمئة عن العام السابق[15]. وتربط جولييت بي. شور في كتاب «ولد للشراء» مجيء قنوات الاطفال التلفازية والتطور الذي تلاها في عملية صناعة الإعلان والدعايات الموجهة بشكل محدد إلى الأطفال في الولايات المتحدة، تربطه بتحول الأطفال الأمريكيين في الثمانينيات إلى «محور للثقافة الاستهلاكية الأمريكية»[16]. وربما يكون ذلك المحور على وشك الانتقال إلى الجانب الآخر من كوكب الأرض.

وفي عام 2006 أضيف برنامج الأطفال الأمريكي النموذجي إلى مجموعة البرامج المشهورة والمهمة التي يبثها التلفاز الهندي. وبدعم من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) وبالشراكة مع شبكة تيرنر للرسوم المتحركة وموقع بوغو (Pogo) المخصص للأطفال، تم

إنتاج برنامج «شارع سمسم الهند» Aka Galli Galli Sim Sim[17]. ويفخر البرنامج بمجموعة محلية من الشخصيات جرى ابتكارها خِصيصي للسوق الهندية، بمن فيها اثنان من البشر هما باشا Basha وداوا Dawa، ومابيتس تشامكي Muppets Chamki وهي شخصية فتاة ذات سلوك صبياني، وبومبا Boombah، وهو أسد كبير محبوب، وآنتشو Aanchoo التي تنتقل إلى مكان وزمان آخر عندما تعطس، وغوغلي Googli المولع بالقراءة[18]. ويتضمن البرنامج رسوماً متحركة ومقاطع تمثيلية قصيرة ومتقنة بمشاركة شخصيات «شارع سمسم» الأمريكية المحبوبة مثل «ايلمو» Elmo. وهو يهدف إلى الوصول إلى (157) مليون طفل هندي تحت سن السادسة، وسوف يستخدم محطات الإذاعة وغيرها من المنابر لتحقيق ذلك. وقد عمل معدو برنامج «شارع سمسم» عن كثب مع المربين الهنود للتأكد من تعديل مضمونه وفقاً لحاجات جمهور هندي من الصغار[19]. وسوف يتم إنتاج البرنامج باللغة الهندية مع نسخة محتملة بلغة التاميل كلغة ثانية لاحقاً. وبالإمكان ابتكار موضوعات إضافية في وسائل إعلام أخرى، بما في ذلك الوسائل المطبوعة والإنترنت وبلغات هندية أخرى أيضاً.

ويستطيع (65) بالمئة فقط من أطفال الهند الذين هم في سن مرحلة رياض الأطفال والقاطنين في المناطق الريفية و(52) بالمئة من القاطنين في الأحياء الشعبية الفقيرة في المدن الوصول إلى موارد التعليم الموجودة والخاصة بالطفولة المبكرة[20]، ومن السخرية بمكان أن برنامج «شارع سمسم» وهو برنامج تلفازي أمريكي قدير، يهدف إلى تحقيق إحدى الغايات الأصلية للتلفاز في الهند كما كان يراها الزعماء الأوائل للبلاد: التعليم. وسوف يكون من الممتع رؤية الأثر الفعلي لبرنامج «شارع سمسم الهند» في بلد يعاني فيه (47) بالمئة من الأطفال سوء التغذية[21]. ومع ذلك فإن إطلاق برنامج «شارع سمسم» في الهند هو مشروع طموح يستقطب اهتمام وسائل الإعلام في القطاع الخاص، والتلفاز التربوي غير الربحي، ودعم حكومتي الهند والولايات المتحدة.

ولا تشكل الهند المحاولة الأولى لعرض برنامج «شارع سمسم» أمام مئات الجمهور الأجنبي. فالبرنامج يبث في أكثر من 120 بلداً، وتشمل النسخ المُعدة من البرنامج والمحددة لكل بلد: «ڤيلا سيسامو Vila Seasamo، البرازيل؛ سيمامشتراسيه Semamstrasse، ألمانية؛ 1 رو دو سيزام 1rue de Sesame فرنسة؛ اوليتسا سيزام Ulitsa Sezam روسية؛ ريتشوف

سمسم Rechov Sumsum، إسرائيل والأراضي الفلسطينية؛ وتاكالاني سيسامي Takalani Sesame، جنوب إفريقية. وكانت هناك في عام 1998، وحتى عام 2001، نسخة صينية هي Zhina Jie، تبث على مستوى البلاد في الصين. كما كانت هناك منذ عام 2000، نسخة مصرية من «شارع سمسم» وهناك خطة لإعداد نسخ من البرنامج لبثها في بنغلاديش وأفغانستان. وبينما أثنى مسؤولون حكوميون أمريكيون في البيت الأبيض والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية على فائدة برنامج «شارع سمسم» في الترويج للقيم الأمريكية وتنمية المشاعر الودية تجاه الولايات المتحدة خارج البلاد، لا سيّما في الدول الإسلامية فإن ورشة عمل تلفاز الأطفال التي أنتجت على مدى طويل برنامج «شارع سمسم» تنفي بحزم لجوئها إلى ترويج القيم الأمريكية أو الغربية[22]. وعلى أي حال فإن قدوم برنامج «شارع سمسم» إلى الهند» يعد مثالاً مثيراً على مقدار تخلص الحكومة الهندية من الحذر الذي كانت تتوخاه إزاء النفوذ الأجنبي أو التدخل الأجنبي لا سيما ذاك الذي تمارسه الولايات المتحدة.

وفي عام 1991، وعندما بدأت الحكومة الهندية بفتح سوق التلفاز في الهند أمام وسائل البث الخاصة، لم يكن تكتل الشركات الأجنبية الوحيد الذي عمد إلى اقتناص الفرصة. فقد قامت شركات هندية مثل ZeeTv (دخلت منذ ذلك الوقت في شراكة مع شركة تيرنر برودكاستينغ) وUTV، وNDTV، و«تي.ڤي.آيتين» T.V.Eighteen وصحارى Sahara بتعبئة طلبات الحصول على الترخيص. وقد ارتبط معظمها بقدر أو بآخر بمجموعات الشركات الكبيرة التي تمتلك مصالح في أكثر من دولة وهي تقوم بالتوسع في توزيع برامجها في ما وراء البحار من أجل الوجود في سوق دولية سريعة النمو. ويستهدف الكثير من مشروعهم الطموح خارج البلاد، هنود الشتات مع تقديم شبكة «ديش نيتورك Dish Network» في الولايات المتحدة خدمة برامج تلفازية عبر الأقمار الصناعية من جنوب آسية باللغة الإنكليزية والهندية، فضلاً عن لغات ولاية البنجاب، ولاية غوجارات، التيلوغو، المالايالام، البنغال والتاميل. كما حصل تلفاز NDTV على ترخيص في كندا لبدء بث تلفازي لإحدى القنوات على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً في الأسبوع في عام 2005.

وعلى الرغم من هذه المحاولات الجديدة، ما زال أمام شركات وسائل الإعلام الهندية شوطاً طويلاً تقطعه قبل أن تتمكن من الدخول في منافسة قوية إن لجهة الحجم أم المال،

مع تكتل مجموعات شركات وسائل الإعلام القائمة التي تمتلك مصالح في أكثر من دولة والمتمركزة في الولايات المتحدة، أوروبة، أسترالية أو اليابان. وليست هناك من شركة إعلامية هندية بما فيها شركتا وسائل الإعلام المطبوعة العملاقتان بينيت Bennett، وكولمان Coleman الأكبر في الهند، تستطيع حتى الآن أن تكون في مستوى شركة من شركات سوني Sony، ڤياكوم Viacom، ديزني Disney أو تايم وورنر Time Warner. ولكن وفي حين تواصل الهند مسيرة التطور، سوف تزداد مقدرة شركات وسائل الإعلام الهندية على المنافسة على المستوى الدولي خارج نطاق الشتات الهندي.

تحدي الآلة الإعلامية الأمريكية

لم يكن هناك، حتى مؤخراً، من مكان يمكن فيه للأمريكيين الهنود رؤية أنفسهم مصورين بشكل واقعي على شاشة التلفاز، ولو بأية طريقة؛ غير أن محطة أم.تي.ڤي ديشي MTV Desi* تعمل على تغيير ذلك الوضع. ويعمل نصرت دوراني مديراً عاماً لشبكة تلفازي أم.تي.ڤي وورلد، وهي مجموعة مختارة من قنوات ام.تي.ڤي الموسيقية التي ترضي أذواق الجماهير المنتمية إلى ثقافتين مختلفتين في الولايات المتحدة. وكان تلفاز أم.تي.ڤي. ديشي، الذي افتتح في شهر تموز من عام 2005، ويتوجه ببرامجه إلى الأمريكيين من رعايا دول جنوب آسية، هو القناة الأولى من بين ثلاث قنوات. أما القناة الثانية وهي أم.تي.ڤي. تشي MTVChi التي كانت موجهة إلى الأمريكيين من أصل صيني فقد باشرت بث برامجها في شهر كانون الأول «ديسمبر» 2005، وبدأت محطة تلفاز أم.تي.ڤي.كي MTV K الموجهة إلى جمهور أمريكي - كوري بالعمل في حزيران 2006[23]. وعندما سألت نصرت ما هو المحتوى الذي يعرضونه على محطة أم.تي.ڤي. ديشي. قال لي: «إن برامجنا منهجية. والمثال على ذلك هو برنامجنا التلفازي المسمى ڤيديو كيتشدي Video Kichdi»، حيث يختلط كل شيء مع بعضه. فقد نعرض مقطعاً لفرقة «غريندآي» GreenDay ثم مقطعاً لفيلم قديم من إنتاج بوليوود، ثم مقطعاً لـ «ميسي اليوت» Missy Elliott ثم آخر تقدمه فرقة «كارميسي»

* «Desi» تلفظ باللغة السنسكريتية «ديشي» وتعني «من البلد» وتشير إلى المهاجرين القادمين من منطقة جنوب قارة آسية وسلالاتهم أو المغتربين في الشتات، وثقافتهم وتراثهم. (المترجمة)

Karmacy وهي فرقة موسيقى الهيب هوب التي تنتمي إلى مدينة غوجارات ومركزها مدينة سان فرانسيسكو؛ وبذلك نعكس أذواق جمهور المشاهدين.

وتابع قائلاً: «إنه يجري العمل على تطوير ظاهرة بوليوود على نحو غير متوقع». فما يثير اهتمام الجمهور الأمريكي الشاب هو البرامج التي تلقى قبولاً لدى هويته المزدوجة. وهناك الكثير من عمليات الاختبار الدائرة. فلحن «ميسي اليوت» يتآلف مع الموسيقا الهندية. وعندما كانت المغنية الكندية آلانيس موريسيت في الهند، استخدمت الكثير من المؤثرات الموسيقية الهندية. كما قامت المغنية ومؤلفة الأغاني والمنتجة الكندية أيضاً نيلي فورتادو للتو بتسجيل عمل موسيقى مع منتج من بوليوود».

وكان نصرت وهو من مواطني بلدة لوكناو، قد ترك عمله كمدير تسويق في شركة هوندا في دبي من أجل متابعة حلمه بالعمل لدى محطة MTV، وباشر العمل في مقر الشركة في نيويورك بصفة متمرن في سن الخامسة والثلاثين. وبقصة شعره المشابهة قليلاً للموضة الرائجة بين هواة موسيقى الشباب، وبنطال الجينز الأسود الذي يرتديه، وحذائه الخفيف، فإنه لا يزال يبدو كفرد من جيل ام.تي.ڤي. وهو يقول لي: «إن السؤال الأساسي للهوية ومفاده «من أنا»؟ هو الدافع بالنسبة لكل ما يتعلق بشخصيتنا جميعنا. وقد أثبت لنا البحث العلمي أن الأمريكيين من أصل آسيوي لا يرون أنفسهم في الاتجاه السائد للتلفاز. فلا شيء هناك في الخارج يخاطب حالة الثقافتين المختلفتين التي تعيشينها». ولذا، كما يقول نصرت: قام الموسيقي رابي شيرغيل بإطلاق فكرة محطة «ام.تي.ڤي.ديشي» التي تتخطى الحدود القومية: شباب، كبار السن سواء كانوا من الولايات المتحدة، أم من الهند». وقد وصل رابي شيرغيل وبسرعة إلى أعلى المراتب في قوائم موسيقى البوب الهندية مع أدائه الموسيقي المعاصر لإشعار الشاعر الصوفي الذي عاش في القرن الثامن عشر بوليه شاه Bulla Ki Jana main kaun ومعناها «أنا لا أعرف من أنا». وبإمكان شباب القرن الحادي والعشرين من الهنود ومن الأمريكيين الذين ولدوا في منطقة دول جنوب آسية أن يفهموا السبب الذي يجعل تفكيرهم مشتتاً على نحو بالغ، فهم لم يعودوا متأكدين من هويتهم.

إن نصرت دوراني مقتنع بأن اللحظة التي ستشهد بروز فنان آسيوي كبير في الولايات المتحدة باتت وشيكة. وهو يقول: «سوف يتطلب الأمر دوراً كبيراً واحداً فقط لاقتحام حقل

النشاط الفني بالطريقة التي فعلها المغني الإسباني ريكي مارتن بالنسبة للجمهور الأمريكي المتحدر من أصول لاتينية. وقد حقق المغنون الهنود بالي سانجو، وكارش كيل، وام.سي بنجابي وفرقة لندن كورنرشوب (حققوا) جميعهم مستوى من الشعبية في دول العالم يصل بالضبط إلى ما هو أدنى من حدود النجومية الخارقة. وتبحث محطة تلفاز «ام.تي.ڤي وورلد» عن النجم الآسيوي، الذي سوف يتألق فجأة ويصبح محط أنظار الاهتمام الدولي.

وينتقل المحتوى الهندي خارج سوق الشتات الهندية، ويشق طريقه داخل التيار السائد في مدن نيويورك، وهوليوود وبيربانك. ويعمل على الدفع بهذا الاتجاه جزئياً جيل ناشئ من المهاجرين الهنود الشباب والأطفال المولودين من مهاجرين هنود، وهو جيل له شأنه وبات قادراً على إبراز كفايته وقدراته في كل مجال من المجالات الإعلامية الترفيهية. ومن الأدلة على ذلك ظهور المزيد من الوجوه الهندية في نشرات الأخبار التلفازية مثل دالجيت دهاليوال في برنامج «الزاوية الواسعة» Wide Angle على قناة «بي.بي.اس» PBS أو الدكتور سنجاي غوبتا على شاشة تلفاز سي.ان.ان CNN. وفي المسلسلات التلفازية، مثل ناڤين آندروز في برنامج تلفاز الواقع الذي يلقى شعبية واسعة واسمه «الضائعون». والدليل الآخر هو وجود الهنود في مناصب لها نفوذها في حقل العمل الإعلامي مثل صونيا نيكور، وكانت تشغل منصب نائبة رئيس قسم اختيار الممثلين لدى ستوديوهات «ان.بي.سي NBC». وكانت صونيا عاملاً في تحقيق اختيار ناجح لممثلين من أصل هندي مثل بارمايندر ناغرا - الذي شارك الممثلة كييرا نايتلي في أداء الدور الأول في فيلم (إِثنها على طريقة بيكهام Bend it like Beckham- وفي مسلسل «غرفة الطوارئ» E.R. ساعدت صونيا في إنتاج مسلسل أمريكي يعتمد على كوميديا الموقف اسمه Nevermind Nirvana «لا تكترث لنيرڤانا»، الذي يقدم أسرة من الأطباء الأمريكيين والهنود. وهي اختارت الممثل كال بين (مثل في فيلم هارولد وكومار يذهبان إلى وايت كاسل Harold and Kumar go to White Castle & The Namesake) وفيلم السُّمي ليقوم بدور الابن. وفي النهاية، وأسوة بعدد كبير جداً من برامج الشبكات الجديدة التي يجري الترويج لها، لم يقع الخيار على البرنامج للعرض. إلا أن صونيا على قناعة بأن اللحظة التي سوف تبدأ فيها شبكات التلفزة بإنتاج البرامج الملائمة لسوق البيئة العرقية الهندية تقترب بسرعة.

وتعدُّ ميرا نير وامو نايت شاياما لاو المخرجان الاثنان الكبيران من أصول هندية، اللذان يعملان في إخراج أفلام في هوليوود، ويقيمان في الولايات المتحدة، وغوريندر تشادها (مخرج فيلم Pride and Prejudice – الكبرياء والتعصب) وشيكار كابور (مخرج فيلم «إليزابيت») في انكلترة، وديبا ميهتا (فيلم «المياه») في كندا يعدّون من أقوى المخرجين الهنود على المستوى الدولي. وبينما يقوم شايمالان بقصر المحتوى الهندي لأفلامه على لقطات سريعة يظهر فيها المخرج بنفسه أو مشاهد خاطفة لوطنه الأم (مخلوقات من كوكب آخر يصلون إلى الهند أثناء لحظة بث تلفازي قصيرة في فيلم Signs - إشارات) فإن الآخرين ينكبون بعمق على اكتشاف الأفكار والموضوعات التي تخص الهند ومواطنيها في الشتات.

بوليوود تأتي إلى هوليوود

جاءت ميرا نير من الهند إلى الولايات المتحدة في عام 1976، بهدف الدراسة في جامعة هارفرد. وكان أول فيلم تمثيلي قدمته -«تحية إلى بومباي!»- قد أطلقها إلى الشهرة في عام 1988. وحقق فيلمها «عرس الرياح الموسمية» عام 2001، الذي شكل نقلة نوعية كبيرة، ونجاحاً دولياً باهراً، وأعد المرحلة للانتشار في كل أنحاء العالم لأفلام بعيدة عن الصيغة التي تعتمدها بوليوود؛ وهي الأفلام التي تصور حقيقة الحياة المعاصرة في الهند. ويؤكد هذا الكلام أحدث أفلامها، «السُّميّ The Namesake».

في عام 2005، وقّعت نير عقداً مع شركة فوكس للقرن العشرين من أجل إعادة إخراج الفيلم الكوميدي الناجح الذي أنتجته ستديوهات بوليوود «مونابهاي» Munnabhai ومعناه «الأخ مونا». ولمعرفة المزيد عن هذا المشروع التجاري، التقيتها في ستديو في وسط مدينة مانهاتن، حيث كانت مشغولة بنقل التسجيل الصوتي لسيناريو فيلم «السّمي» إلى شريط جديد. كانت نير ترتدي أحد قمصانها الحريرية الطويلة المشبعة بالألوان الذي يميز أسلوبها في اختيار ثيابها، وبنطالاً أسود اللون، وقد تركت تعليماتها للفريق الذي تعمل معه كي ينجزها قبل أن نغادر لتناول طعام الغداء. وميرا نير هي من نوع الأشخاص الذين يؤثر فيك حماسهم الإبداعي بشدة مثل قوة من قوى الطبيعة، فتملأ مساحة أكبر كثيراً من الشخصية نفسها. وكانت قد اقترحت الذهاب إلى مطعم أفغاني قريب. وبدا واضحاً أن

فريق العمل كان يعرفها جيداً مع أنه لم يكن يعرف من كانت في السابق. وقد سألتها «لماذا إعادة إخراج فيلم مونابهاي؟»

أَجابت قائلة: «لقد كان الفيلم المفضل عند ابني زوهران. وأنتِ تعلمين أن هناك كماً كبيراً جداً من الأفلام السيئة المعروضة للأطفال، وأردت بصفتي أمّاً أن أُخرج فيلماً لمجموعة الأطفال الذين هم في عمر ابني، ويكون أفضل مما يعرض. وزوهران مرتبط كثيراً بهذا المشروع».

«لقد شاهدت فيلم «مونابهاي» في مجمع تجاري في جوهو بمدينة بومباي، وبينما كنت أغادر المبنى تخيَّلت أنني أقوم بإخراج الفيلم مع أمريكيين أفارقة وهنود داخل ستوديوهات ڤينودتشوبرا المنتج السينمائي المقيم في الولايات المتحدة. ومخرج الفيلم من أصدقاء الطفولة، لذا اتصلت به هاتفياً وأبلغته بأنني أَرغب في شراء حقوق الإخراج، فأعطاني إياها مقابل دولار واحد. وقالت نير وقد علت الابتسامة وجهها، أنت تعلمين فنحن الهنود نقوم بإنجاز الأمور على هذا النحو».

وقامت على الفور بتوقيع عقد مع شركة فوكس للقرن العشرين، من أجل إخراج الفيلم. وقالت: «إنني أطلق على الفيلم الجديد اسم «غانغستا، دكتور في الطب». وقد اخترت جيسون فيلاردي الرجل الذي كتب رواية «الإطاحة بالمنزل» ليكتبه، وهو يعمل حالياً على المسوَّدة الثالثة. والشخصية الرئيسة هي أساساً رجل أمريكي من أصل إفريقي يقع في حب طبيبة أمريكية من أصل هندي. وسوف اختار نجمة من بوليوود من أجل الجزء الخاص بالعلاقة العاطفية في الفيلم. أما بالنسبة للشخصية الرئيسية فإنني أريد كريس تاكر أن يلعب هذا الدور. إنه يكلف خمسة وعشرين مليون دولار لكنني آمل أن أحظى به. وسوف يكون ذلك أول إعادة إخراج في هوليوود بميزانية ضخمة لفيلم من إنتاج بوليوود».

وكانت بوليوود قد قامت على مدى سنوات بإعادة إخراج أفلام من إنتاج هوليوود من دون أي تغيير ومن دون شراء الحقوق الخاصة أولاً، ولا حتى مقابل دولار واحد. وفي حين أنه لا يزال مشروعاً قيد الإعداد (قالت نير مؤخراً: إنها ربما تقوم بإنتاج الفيلم بدلاً من إخراجه) فإن فيلم «غانغستا دكتور في الطب» سيكون معلماً مهماً في تدفق المحتوى الهندي داخل الاتجاه الأمريكي السائد.

لقد أبلغني عدة أشخاص يعملون في المهنة أن شركات أفلام سينمائية أخرى تقوم بإغراء بوليوود فتشتري حقوق الإخراج وتوقع كذلك اتفاقيات مع مخرجين هنود. وقد التقط نجم هوليوود ويل سميث عدوى بوليوود. فقد وقعت شركته «اوفربروك انترتينمنت» اتفاقية مع شبكة تلفاز «يو.تي.في» UTV الهندية في عام 2006، قيمتها ثلاثون مليون دولار. وأعلن سميث عن خطط لإنتاج فيلمين: أحدهما فيلم إثارة حية بكلفة (10) ملايين دولار وفيلم رسوم متحركة يتم إخراجه باستخدام التخطيط المنفذ «بالحاسوب». وسوف تقوم شركة أفلام سوني السينمائية بتوزيعهما في دول العالم، وقد اعترفت هوليوود بشكل واضح بالجاذب العالمي لمقومات بوليوود والمواهب التي لم تكتشف بمعظمها لمنتجي ومخرجي بوليوود المتمرسين.

بومباي: العاصمة السينمائية للعالم

ليست هناك من مدينة في الهند أكثر من بومباي ارتباطاً بالفراغ القائم ما بين النهدين، وبمقدم الجسم العاري فوق الخصر وبالعضلات القوية المفتولة في أعلى الذراعين، وبممثلين يؤدون أدواراً رئيسة يملؤهم الغضب والحقد المكبوت وبنجمات سينمائيات ناشئات يقمن بأدوار البطولة يتبرّجن ويتجهّمن فيقلبن شفاههن استياءً. بومباي هي عاصمة بوليوود، مركز صناعة السينما والتلفاز في الهند. والمدينة هي أيضاً العاصمة المالية للبلاد، ومقر لسوق الأوراق المالية ولكل مصرف أجنبي رئيس وبيت استثمار كبير في العالم من غولدمان ساكس إلى بنك «اتش.اس.بي.سي» HSBC إلى البنك الألماني. وتمثل بومباي بالنسبة للهند ما يمكن أن تكونه نيويورك زائد لوس أنجلوس بالنسبة للولايات المتحدة. وقد كانت بومباي وقبل وقت طويل من الانطلاقة الاقتصادية الأخيرة للهند محجاً لكل هندي طموح يتطلع إلى جني ثروة أو تحقيق شهرة ونجاح.

وتشبه واجهة الشاطئ خطاً منحنياً مرصعاً بأشجار النخيل يمتد على طول الطريق البحري لمدينة بومباي بأبنيتها الكلاسيكية المشيدة وفق طراز الفن المعماري الزخرفي القديم والمطلة على الأمواج الخفيفة لبحر العرب، تشبه نسخة مزرية أكثر من الكراوزيت في مدينة كان الفرنسية، حيث يذهب كل عام وفد يتزايد حجمه دائماً من نجوم السينما

ومنتجي الأفلام الهندية لكي يسيروا مزهويين بأعمالهم، ويبيعوا إنتاجهم المعروض. وقد أصبحت نجمة السينما الهندية ايشواريا راي، وهي عارضة معتمدة رسمياً من شركة لوريال لمستحضرات التجميل في الهند، أصبحت شخصية تثير ضجة واهتماماً متوقعاً بين الناس في مدينة كان مع قيام كل من الصحافة الهندية والفرنسية بملاحقة كل تحرك لها، وإعطاء تفاصيل عن ثيابها الفاخرة. ولكن وفي حين تغري اليخوت البيضاء المتألقة على سطح المياه اللازوردية للبحر الأبيض المتوسط والراسية في ميناء مدينة كان، بإشاعة تكهّنات حول هوية الأمراء العرب أو امراء «وادي السيليكون» الذين رسوا في الميناء، تتمايل مراكب صيد الأسماك الخشبية الصغيرة على سطح بحر كئيب قبالة شاطئ مدينة بومباي بانتظار رزقها. وتسير نساء هنديات بلباس الساري و«السالوار كاميز» * Salwar Kameez، وثنيات ثيابهن المصنوعة من نسيج الحرير والقطن الخالص تتماوج مع هبات النسيم، يسرن بمحاذاة الخط المنحني للخليج، بمظهر مختلف كلياً عن مظهر النساء اللواتي يستلقين عاريات الصدر على شاطئ الريفييرا الفرنسية لأخذ حمام شمس. وعلى شاطئ تشاوباتي يقوم البائعون بتقديم ماء جوز الهند الطازج وحلوى «الكولفي» Kulfi المثلجة الدسمة المنكهة بالفستق، واللوز والزعفران. فبومباي ليست مدينة كان، ولا هي كاليفورنيا.

وعلى عكس ما يشير إليه الاسم، فقد كانت صناعة الأفلام في الهند ناشطة في الواقع قبل وقت طويل من صناعة الأفلام في هوليوود. وكان أحد الأفلام الصامتة للإخوة لوميير قد عرض في مدينة بومباي في عام 1896، وأنجز أول مخرج في الهند، واسمه هاريشتشاندرا بهاتفاديكار، فيلمه السينمائي الأول في المدينة في عام 1899. وتقع الاستديوهات الفعلية لبوليوود في الضواحي الشمالية لبومباي، بعيداً عن الطريق البحري والقصور الأسطورية للأفلام القديمة: قصر ايروس، قصر ريغال، وقصر المترو المهدم الآن بشكل يدعو للأسى حيث كان والدي يقضي أياماً وهو يشاهد أفلاماً سينمائية من إنتاج هوليوود قبل أن يهاجر إلى أمريكة في عام 1949. ويعيش نجوم السينما في الوسط من هذين الموقعين والأغنى

* هو الثوب التقليدي الذي يرتديه الرجال والنساء على السواء في دول جنوب آسية. وهو عبارة عن بنطال واسع من الأعلى وضيق من الأسفل، يعلوه رداء فضفاض يصل إلى الوركين أو الركبتين مع فتحتين جانبيتين لتسهيل الحركة. (المترجمة)

بينهم في بيوت من الاسمنت ذات طابق واحد مغطاة بكثافة بنباتات استوائية مزهرة، بعيداً عن شاطئ جوهو (يعد بمنزلة شاطئ ماليبو Malibu) وآخرون في شقق تتميز بإطلالة على المحيط في ضاحية باندرا (تقابلها سانتا مونيكا). وتشكل القصور الفخمة الباذخة لنجوم السينما في مدينة بومباي جزءاً من سحر ما يمكن أن تكون إحدى أجمل المدن في العالم ما لم يعش أكثر من ستين بالمئة من سكانها في أحياء الصفيح الفقيرة أو في الشوارع[24].

عندما كنت طفلة كنت أعيش مدة من الوقت في جوهو حيث كان جدي وجدتي يمتلكان شقة خاصة بهما. وكنا نخرج كل مساء إلى الحي نبحث عما يجري تصويره من مشاهد للأفلام في بيوت نجوم السينما. وقد كانت الهند آنذاك أكثر فقراً مما هي عليه اليوم. وكانت الأفلام التي تحوي مشاهدَ داخليةً تعكس جواً من الرفاهية تصور في منازل خاصة. وكنا سنحاول اختلاس نظرة إلى نجوم السينما وهم يدخلون ويخرجون. وهم لم يتوانوا أبداً تقريباً عن التوقف والابتسام باتجاهنا أو منحنا توقيعهم، مع أنني أذكر إحدى الممثلات وقد بدا عليها الانزعاج قليلاً قبل أن تسرع لتقلّها سيارة ستيشن أمريكية مضى على إنتاجها عشر سنوات ولها كسوة من الألواح الخشبية المقلدة على جانبيها. وقد كان هذا قبل وقت طويل تماماً من الوقت الذي أصبح فيه بالإمكان شراء سيارات من ماركة «بي.ام.دبليو، مرسيدس» أو اعتباراً من العام الماضي، «رولز - رويس».

إنني أرغب اليوم بشكل مشابه بأن أرى فيلماً من أفلام بوليوود يصور في شوارع مدينة نيويورك كما يصور في مدينة بومباي. فمخرجو بوليوود يتجهون إلى العالمية. وستون بالمئة من أرباح بوليوود تأتي من أسواق خارج البلاد، وتعمل الأفلام السينمائية الهندية وبشكل متزايد على إشباع رغبات الجمهور في دول العالم، سواء في مناطق الشتات الهندي وفي أماكن التوزيع التقليدية الواسعة للأنشطة السينمائية، التي تمتد ما بين شرقي آسية إلى الخليج وما ورائه. وقد دأب المخرج السينمائي باش تشوبر أهم مخرج للأفلام الكلاسيكية في بوليوود على تحقيق نجاحات متواصلة لعشرات السنين، وتشمل بعض أفلامه الناجحة التي أخرجها مؤخراً فيلم «من يجرؤ على الحب يحظى بالعروس» «Dilwale Dulhania Le Jayenge»، «القلب المجنون» «Dil To Pagal Hai»، «نيل ونيكي» «Neal «N» Niki»، «فانا» «Fanaa» وتوزع شركته وهي شركة أفلام «ياش راج Yash Raj» أفلاماً سينمائية هندية، ليس

في الهند فقط وإنما في الخارج، عبر شركة أفلام «ياش راج Yash Raj» المساهمة، العاملة في الولايات المتحدة وغيرها من الشركات الأجنبية المسجلة.

وأبدع المخرج كاران جوهار في صناعة أفلام تقدم شخصيات أمريكية من أصول هندية أو شخصيات هندية تعيش في الولايات المتحدة. وعالج فيلم Kabhi Alvida Naa Kehna «لا تقل وداعاً أبداً»، الذي تم عرضه العام الماضي الاحتمالات المؤلمة لحدوث الطلاق بين الأزواج الهنود. ومن المؤكد أن جعل أحداث الفيلم تقع في الولايات المتحدة مكن الجمهور الهندي من التعاطي مع هذا الموضوع الحساس بشكل أسهل حتى حينما نبه إلى ضغوط الحياة العصرية في الهند وأمريكة على السواء.

ويشكل ارتباط شركة أفلام «آدلابس» الهندية المحدودة مع شركة «آشوك اميتراج هايد بارك» للأعمال الفنية الترفيهية التي تتخذ من هوليوود مقراً لها، يشكل أحد أكثر خطوات البداية طموحاً لتنفيذ أعمال سينمائية في هوليوود، وتمتلك شركة «آدلابس» حالياً مكاتب في الولايات المتحدة وإنكلترة. وكانت شركة «آدلابس» للأفلام السينمائية تعتزم توزيع ثمانية عشر إلى عشرين فيلماً سينمائياً في الخارج في عام 2006. وعلى العكس من ذلك تسعى شركة «هايد بارك انترتينمنت» إلى الانتقال إلى داخل السوق الهندية. ويشكل هذان المثالان مجرد غيض من فيض. فالجميع يريد الدخول في النشاطات المزدهرة التي تشهدها الهند على صعيد الأعمال الفنية الترفيهية الهندية.

وفي عام 2003، أطلق ڤين بهات ونيل سينوي وهما أمريكيان من أصل هندي في العقد الثالث من العمر شركة تسمى «212 ميديا» من أجل وضع محتوى أفلام بوليوود أمام مشاهدي التلفاز الأمريكي. وفي عام 2004 شكلا شركة تسويق باسم BODVOD - «بوليوود عند الطلب»، «فيديو عند الطلب». وأقاما شركة مع شركة «تايم وورنر» من أجل إدراج «بوليوود عند الطلب» على شبكة الكيبل الخاصة بها. ولم يكن ڤين ولا نيل قد شاهدا من قبل فيلماً من إنتاج بوليوود عندما كانا في طور النمو في الولايات المتحدة. والواقع فإنهما لم يصبحا مدركين لوجود فرصة مواتية ممكنة إلا بعد أن ذهبا إلى الهند للعمل في مناسبة خيرية بحضور شخصيات مشهورة من أجل جمع الأموال في إطار الجهود التي تبذلها مؤسسة

الممثل الأمريكي ريتشارد غير لوقف انتشار مرض الإيدز. وقد التقيا بالكثير من المخرجين الهنود في بومباي، الذين تذمروا من عدم تمكنهم من توزيع محتوى إنتاجهم في الولايات المتحدة، دون أن يتعرضوا للغش والاحتيال من جانب الوسطاء. وولدت شبكة BODVOD، وكان انتصارها الأكبر حتى الآن الحصول على الحقوق الخاصة بمحتوى شبكة «يو.تي.ڤي». وأدرج الفيلم الذي أخرج عام 2005. وحقق نجاحاً باهراً «Rang De Basanti» على شبكة تايم وورنر. وأعلنا عنه عبر «الكابل المتقاطع» فاستقطبا مشاهدين من أسواق تقع ما وراء مناطق الشتات الهندي، ويمكن التعويل عليها.

وقد وقع ڤيل ونيل للتواتفاقية مع «ڤيديو غوغل» لتوزيع أفلام محطة تلفاز «يو.تي.ڤي». وأوضح لي ڤين أن «بوليوود تتأهب لإحداث تغيير في نموذج عمليات التوزيع. ولن تخاطر هوليوود أبداً بالعائد المسرحي، ولكن «يو.تي. ڤي» هي شركة إبداعية جداً إلى حد أنهم سمحوا لنا بأن نجرب ونرى ما بإمكاننا أن نفعله بالنسبة للاتصالات الخاصة للهاتف الخليوي، وبالنسبة لـ «فيديوغوغل». وأضاف قائلاً: هناك في «يو.تي.ڤي» رجل واحد. ونستطيع الاتصال به هاتفياً، وسوف يرد على اتصالنا، ونستطيع التحدث معه. والأمر يسير وكأننا أُسرة. فهناك مستوى معين من الثقة. أما في هوليوود فهنالك عدد كبير من الأشخاص المغرورين جداً. وأنتِ لا تستطيعين حقاً القيام بذلك».

صناعة الرسوم المتحركة في الهند

إن إحدى أسرع المهن التي تنمو في عالم الأعمال الفنية الهندية الترفيهية هي صناعة أفلام الرسوم المتحركة، وهو مجال يبدو مفصلاً خصيصي من أجل الهند في عصر المعلومات. وقد عززت الرسوم المتحركة الرقمية التي تستخدم برامج الحاسوب ذات الأبعاد الثنائية والثلاثية المصنَّعة على نطاق واسع مثل «مايا Maya» و«سوفت إيميج Softimage» وثورة الاتصالات الخاصة بالإنترنت، عززت قيام اتحاد عالمي غير مترابط من الاستوديوهات المستقلة لإنتاج أفلام الرسوم المتحركة. وتقوم الاستديوهات الكبيرة -دريم ووركس Dream Works، ديزني Disney، پيكسار Pixar- وتحت ضغط من شركات إنتاج أفلام الرسوم المتحركة الطموحة الناشئة حديثاً التي تتطلع إلى تقليص التكاليف، تقوم بزيادة إنتاجها

من الأفلام مستخدمة شبكة من صانعي أفلام الرسوم المتحركة في مواقع دولية مختلفة من البارعين في استخدام النظام الرقمي وبكلفة أقل وبإمكان الاستديوهات الكبيرة أن تقوم بتجميع أو تفكيك هذه الشبكات وإلغائها وفقاً لحاجات كل مشروع. وحسب تعبير لاري كازانوف من شركة «ثريشهولد Threshhold» للأعمال الفنية الترفيهية في هوليوود «ماذا يهمنا لو كان الرجل موجوداً في «ڤان نايز* Nuys Van» أم في الهند؟»[25]

وحتى مع الرسوم التخطيطية أو رسوم «الغرافيك» التي يتم إنجازها بوساطة جهاز «الحاسوب»، فإن صناعة الرسوم المتحركة تظل عملية تستدعي بذل جهد شاق جداً. ويتطلّب فيلم مفصل بالكامل للرسوم المتحركة الآلاف من ساعات العمل، حيث يستغرق شهوراً من الجهد المبذول من قبل فرق من صانعي الرسوم المتحركة. وقد دعم الجهد قليل الكلفة نفسه الذي غذى إزدهار مركز الاتصالات الهاتفية ولجوء الشركات إلى الاستعانة بشركات أخرى تتولى تنفيذ آلية العمل نيابة عنها (BPO) في الهند، تحقيق زيادة في عمل ذي حجم كبير وثمن منخفض خاص بأفلام الرسوم المتحركة. إلا أن هذا النمط من العمل آخذ في التغير حيث تقوم مؤسسات صناعة أفلام الرسوم المتحركة بدفع سلسلة الأسعار إلى الأعلى، وهي تتطلع إلى أن تصبح الجهة التي تتولى امتلاك وإنتاج المقومات الخاصة بصناعة الأعمال الفنية للرسوم المتحركة ذات المواصفات الدولية.

وتعد أفلام الرسوم المتحركة المنفّذة وفق النظام الرقمي مربحة للغاية، حيث حصدت 225 مليون دولار عن كل فيلم في شباك التذاكر في الولايات المتحدة عام 2005، مقارنة بـ33 مليوناً بالنسبة إلى فيلم سينمائي من أفلام التشويق والمغامرات[26]. ويتوقع أن تصل أرباح صناعة الرسوم المتحركة الرقمية العالمية إلى (75) مليار دولار في عام 2009. ويسجل العنصر الهندي للصناعة زيادة سنوية تبلغ (35) بالمئة.

ويتوقع أن تبلغ 950 مليون دولار بحلول العام نفسه[27]. إن الابتكارات القائمة على صعيد البرمجيات والمتعلقة بالرسوم المتحركة، التي يمكن أن تكلف مبلغاً ضئيلاً يصل إلى 5,000

* مقاطعة في منطقة وادي سان فيرناندو قرب مدينة لوس إنجلوس بولاية كاليفورنيا الأمريكية. كانت موقع تصوير المسلسل التلفزيوني الشهير «بيڤرلي هيلز 90210». (المترجمة)

دولار ويمكن تشغيلها على حاسوب شخصي تجعل من إقامة منشأة للإنتاج مع مجموعات من مراكز العمل، التي تعتمد على أجهزة الحاسوب، أمراً غير مكلف نسبياً.

وتحصل عدة ستوديوهات رئيسة في الهند على عقود كبيرة من تكتل شركات دولية مختصة بإنتاج الأعمال الفنية الترفيهية، فضلاً عن المشاركة في الإنتاج وتقديم عروض جديدة مبتكرة. ويضم هذا التكتل شركة تونز للرسوم المتحركة في مدينة كيرالا، وستديوهات «كريست» للرسوم المتحركة و«يو.تي.ڤي.تونز»، و«پرانا» للرسوم المتحركة، و«مايا» للأعمال الفنية الترفيهية في بومباي. وتوظف هذه الشركات المئات من صانعي أفلام الرسوم المتحركة وتعمل مع أكبر الشركات المختصة على إنتاج الأعمال الفنية الترفيهية في العالم. وتقوم بعض هذه الشركات بالتحول بزخم كبير من ورشة لتأجير الأعمال وفق النموذج المتبع في الاستعانة بشركات أخرى تتولى تنفيذ آلية العمل نيابة عنها، باتجاه تنفيذ عمليات إنتاج مشتركة أو حتى باتجاه إنشاء مكتبات الملكية الفكرية الخاصة بها.

وقد استفادت شركة «مايا» للأعمال الفنية الترفيهية التي أسسها منتج الأفلام الهندية الحائز على عدة جوائز كيتان ميهتا والممثلة ديبا ساهي، من قيام صندوق «انتل كابيتال» الهند للتكنولوجيا بتوظيف أمواله فيها للعمل على تحسين أنظمة الحاسوب لدى الشركة ورفدها بأحدث مجموعات عمل أجهزة الحاسوب، التي تستند إلى معالج اكسيون Xeon. كما شكلت شركة مايا فريقاً مع شركة انتل، وهي شركة ملتزمة بتحسين الفرص التعليمية في مجال تكنولوجيا المعلومات، وذلك لتأسيس (MAAC) أو «أكاديمية مايا للعلوم السينمائية المتقدمة». وتتيح (MAAC) تعليم صناعة أفلام الرسوم المتحركة ثلاثية الأبعاد، والمؤثرات البصرية، وإنجاز مراحل ما بعد الانتاج التي تشمل إضافة الموسيقا والتوليف وغيره.

وقد تحولت شركة «يو.تي.ڤي تونز» كلياً إلى إنتاج أفلام الرسوم المتحركة باستخدم التكنولوجيا المتقدمة للأبعاد الثلاثية وبرنامج «فلاش» المخصص لتحميل الصور الرقمية. ووفقاً للمدير التنفيذي للشركة روني سكروڤالا، فإن شركة الرسوم المتحركة «لن ترتاح حتى نحقق موقعاً قيادياً، ولهذا الغرض فقد منحنا أنفسنا إطاراً زمنياً من أربعة وعشرين شهراً»[28]. وهذا هو خط السير الذي يجب أن تتبعه صناعة الرسوم المتحركة الهندية إذا

ما كان لها أن تتقدم إلى ما بعد نموذج الاستعانة بشركات أخرى لتنفيذ قسم من أعمالها، وأن توجد شركات متميزة عالمياً تنتج أفلاماً ذات مضمون مستوحى من الهند مقارنة بأفلام ذات مضمون أمريكي أو أوروبي ينفذها صانعو أفلام رسوم متحركة هنود لا يكلفون غالياً.

إن روني سكروفالا من شركة UTV مقتنع بأن نموذج العقود الخارجية لمتابعة آلية العمل ليس نموذجاً تنافسياً على المدى الطويل بالنسبة للهند. وسوف يأتي أحد ما، في مكان ما دائماً ليقوم بالعمل مقابل نقود أقل. أنه مؤمن بمقدرة الفنانين الهنود على التأكيد «بأن الجانب الفكري المرن جداً لمهنة الرسوم المتحركة تظل ضمن حدود البلاد. وهذا بإمكانه أن يدعم دورة أخرى من النمو في صناعة الرسوم المتحركة في الهند. إضافة إلى ذلك فإنه في مجال الخدمات التي يقدمها برنامج «فلاش» والأبعاد الثلاثية للرسوم المتحركة، لم تتمكن أية دولة في أنحاء العالم من الحصول على موقع الصدارة تماماً حتى الآن. وما تزال الهند تقف في الواجهة، وسوف تشهد تطوراً كبيراً في هذا الميدان»[29].

وسوف تتمثل نقطة التحول في قيام ستديو هندي لأفلام الرسوم المتحركة بإنتاج فيلم سينمائي طويل ومبتكر يستقطب السوق الدولية، فيلم «قصة دمية» هندي. أو ربما فيلم «Hanuman» «هانومان»* وكان هذا الفيلم وهو من إنتاج شركة «سهارى وأن ميديا آند انترتينمنت»، ونفذت رسومه المتحركة شركة «سيلفرتونز» أول فيلم سينمائي طويل للرسوم المتحركة يتم إنتاجه في الهند بشخصيات هندية وبحبكة هندية للرواية. ولدى عرضه في تشرين الأول من عام 2005. لقي الفيلم ردود فعل جيدة بصدد المحتوى إلا أنه ارتؤي أنه يفتقر إلى الأسلوب التقني المنمق ومظاهر البهرجة المعروفة. وحسب تعبير سوكاينا ڤيرما في أحد المقالات النقدية: لن يكون من المنطقي توقع تحقيق نوعية الدقة الخاصة بفيلم «حورية البحر» أو «طرزان» داخل قسم «الغرافيك» للحاسوب. ويعد فيلم الرسوم المتحركة هذا جهداً محترماً إلى حد ما بالنسبة لمبتدئين. ويلاحظ المرء بعض العيوب هنا وهناك، إلا أن المضمون العام مقنع بما يكفي ليشد إليه الأنظار. وكلنا أمل أن تبدو الأمور في أثناء خمس أو ست سنوات أخرى أكثر نجاحاً، وأن تبشر بمستقبل واعد[30]، وربما يحدث ذلك بشكل

* مخلوق يشبه القرد تنسب إليه قوة خارقة، وبعض القدسية في الديانة الهندوسية.

أسرع بلجوء رواد الصناعة في الهند على التركيز سابقاً على هدف التنافس بشكل حازم ومباشر مع شركات «پيكسار»، «ديزني»، «دريم ووركس»، في سوق تنطلق في التوسع باتجاه قارة آسية.

وكنت قد شاهدت على جهاز الكمبيوتر في منزلي في نيويورك في الصيف الماضي، فيلماً قصيراً من الرسوم المتحركة يدعى «راعي البقر المهراجا»، وأنا مستغرقة في الضحك بشكل هيستيري، حتى سالت الدموع من عيني. وكان قد أرسله لي آتول راو نائب رئيس الشؤون الإبداعية في شركة تونز الهند للرسوم المتحركة، وذلك لإعطائي فكرة عن نوع العمل الذي يقوم به. وكان آتول وهو كاتب، ومنتج، وممثل مسرحي، وتلفازي، وسينمائي لعدة سنوات -وكندي من أصل هندي- قد انتقل إلى مدينة تريڤاندروم في الهند قبل أربع سنوات للانضمام إلى شركة «تونز» عقب قيامه بمهام محددة في شركات فوكس، و«نيكيلوديون» و«ورنر بروذرز». وهو يقضي وقتاً ممتعاً للغاية.

وقال لي وهو يلهث قليلاً: لقد مضى علينا ثمانُ سنوات ونحن نقوم بهذا العمل في الهند، في حين كان قد مضى على كوريا واليابان خمسة وعشرون عاماً. والكثير من الأمر يعتمد على التوقيت: فالبرمجيات الآن مذهلة تماماً مقارنة حتى ببضع سنوات سابقة. ولكن أكثر من ذلك أنه هنا الدافع والطاقة الإبداعية؛ وعندما جئت من كندا للزيارة، اعتقدت أن هذا المكان مدهش. كانت هناك مشكلات بالتأكيد، ولكن كان هناك عزم كبير جداً للتعلم وللقيام بكل ما يحتاجون إلى القيام به من أجل أن يصبحوا الأفضل. وقد فكرت فعلاً بأن هذه ستكون فرصة مميزة».

وسألت آتول عما سمعته من أناس كثيرين جداً: بأنه جرى سحب الإبداع من نفوس الهنود عن طريق تطبيق نظام تعليمي صارم ركز على الرياضيات، والهندسة، والتعلم عن ظهر قلب، وأن الأمر سيستغرق وقتاً لجعل فئة من كتاب السيناريو يصلون إلى المستويات التي حققتها هوليوود في رواية القصص. فضحك وقال: «نعم، لقد سمعت ذلك النقاش عن غياب الإبداع مرات كثيرة جداً. إنه مصطنع. فالأشخاص الهنود الذين التقيت بهم أناس مبدعون بشكل لا يصدق، وخياليون بشكل لا يصدق. إنه مكبوت في الداخل كله، لذا فإنهم عندما يوجدون في وضع بإمكانهم أن يعبروا فيه عن أنفسهم، فإنهم يتفجرون إبداعاً تماما.

وهذا ليس خطأ النظام التعليمي، إنه خطأ المؤسسة الصناعية. فبوليوود لم تعطِ أية قيمة لكتابة النصوص. وقد كان الأمر معهم «دعك من القصة، دعنا نتفق على الأغاني وعلى الممثلين». إن الإبداع ليس هو ما نفتقده: إنه التخصص في كتابة النصوص والاستعداد داخل المؤسسة الصناعية لدعم بنية تحتية تجتذب الإبداع وتحفزه مستخدمة نماذج تقليدية من التطوير. وقد بدأ ذلك يتغير الآن، فانتبهي!»

كان أحد الأسباب الذي دفع جي. اي مينون G.A Menon المؤسس الراحل لشركة تونز لإنشاء الشركة هو إيجاد وظائف. فصناعة الرسوم المتحركة تتطلب جهداً شاقاً جداً؛ وقد شعر مينون أنها كانت صناعة مفيدة للهند. فأسس مدرسة للتدريب هي أكاديمية تونز ToonzAcademy. وأوضح آتول أن الاشخاص الوحيدين الذين يستطيعون بحق أن يصنعوا أفلاماً للرسوم المتحركة ثلاثية الأبعاد هم الأشخاص الذين يتعلمون الصناعة التقليدية للرسوم المتحركة أولاً». وبإمكان خريجي أَكاديمية تونز العمل حيثما يشاؤون، وهم لا يجدون أية مشكلة في العثور على وظائف في مجال الصناعة الرائجة للرسوم المتحركة.

وسألت أتول عن إمكانية أن يصل فيلم سينمائي هندي للرسوم المتحركة إلى العالمية فقال لي: «بالنسبة إلى فيلم سينمائي طويل لعرضه حول العالم، أنت تحتاجين إلى النص الصحيح. وحتى هوليوود لا تعده بشكل صحيح دائماً، كما تعلمين. ففيلم «طارد النمل» لم يكن فيلماً سيئاً ولكنه فشل. والأمر بالنسبة للهند هو مجرد مسألة وقت. ويتعلق جزء من المشكلة بالخجل القائم في الولايات المتحدة من تقبل أفلام أجنبية. وقد تكون البنية التحتية في هوليوود غير آمنة إلى حد بعيد. ويتعلق جزء منها بتجاوز طريقة وواقع التوزيع، ولكن ذلك سوف يحدث عاجلاً أم آجلاً لأن وسائل الإعلام الجديدة كافة سوف تجبرهم على الانفتاح».

ثورة وسائل اتصالات

تبرز الهند بوصفها عاملاً رئيساً في رواج وسائل إعلام جديدة لاسيما وسائل الإعلام المحمولة. فأنا أعدّ هاتفي الخليّوي لا شيء أكثر من هاتف محمول. وأريد له أن يعمل بشكل يمكن الاعتماد عليه باعتباره هاتفاً في أي وقت أرغب في استخدامه، وفي أي مكان في العالم.

لقد كانت لي نقاشات مضحكة مع أكثر من عشرين بائعاً أرادوا أن يبيعوني هاتفاً خليّوياً محملاً بأصوات أجراس وصفارات أراها أموراً مشتتة للانتباه ومدرجة بغرض التسلية، وأحاول أن أقول لهم: «اسمعوا أنا لا أريد لعبة. أريد هاتفاً». وهم لا يفهمون ما أقوله ولا يستوعبونه. ومن الواضح أنني باعتباري شخصاً في الأربعينيات من العمر، لست جزءاً من هدف السوق بالنسبة للمجموعة واسعة الانتشار من وسائل الاتصالات. ومن جهة أخرى فإن ابني الذي يبلغ الخامسة عشرة يعامل هاتفه الخليوي كجهاز بحجم قبضة اليد من أجهزة وسائط الإعلام المتعددة، وهو يلتقط صوراً ثابتة ومتحركة، ويرسل رسائل نصية إلى أصدقائه بشكل دائم، ويلعب الألعاب، ويستمع إلى الموسيقا، ويسجل رنات صوتية على هاتفه الخليوي. هو جزء من السوق المستهدفة بوسائل الإعلام الجديدة والخاصة بالذين تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والرابعة والعشرين، الذين يشكلون جزءاً من السكان ممن يمتلكون إمكانات هائلة في الهند.[31]

عندما تحدثت إلى طوم فريستون الذي كان آنذاك المدير التنفيذي المسؤول لشركة ڤياكوم Viacom، قال لي: «إننا نبحث مع شركة ريلاينس إمكانية تحميل المحتوى على الهواتف الخليوية. فعملهم يتقدم بسرعة ونحن نتكلم مع شركة «ايرتيل» Airtel أيضاً». وتعد شركتا ريلاينس وايرتيل اثنتين من أكبر الشركات المزودة لخدمات الهواتف الخليوية. ولا يستطيع أحدٌ يعمل في مجال التلفاز أن يتجاهل الاتصالات الخليوية، وبشكل خاص ليس في الهند، حيث إن أحدث توجه للتلفاز هو التلفاز المتفاعل باستخدام الهواتف الخليوية. وقد حازت برامج تلفازية تطلب من المشاهدين التصويت أو إعطاء آرائهم عبر إرسال رسائل قصيرة أو نصوص رسائل مكتوبة أثناء بث البرنامج على الهواء، حازت شعبية عالية في الهند. فقد يشعر المواطنون الهنود أن آراءهم قد يتم تجاهلها عندما يصوتون للسياسيين، إلا أنهم عندما يصوتون من أجل فريقهم الغنائي المفضل على تلفاز MTV أو نجمهم المفضل في برنامج FameGurukul «فيم غوروكول»، فإنهم يتلقون نتائج فورية. وهذا يترجم إلى أرباح هائلة بالنسبة لكل من شبكة التلفزة، التي تفرض رسماً مالياً كبيراً من أجل الدخول إلى البرنامج، ولشركة الهواتف الخليوية، التي تفرض مبلغاً مالياً على الزبون بالنسبة لكل رسالة قصيرة يرسلها.

تضيف سوق الهاتف الخليوي في الهند أكثر من ثلاثة ملايين مشترك كل شهر، إلى مجموع كان يتوقع أن يصل إلى 78.5 مليوناً في شهر حزيران من عام 2006 (زيادة عن 386 مليوناً في شهر كانون الثاني من عام 2005)[32] وتكبر قاعدة اشتراك الشباب في الهند في الهاتف الخليوي بمعدل يبلغ أكثر من 300 بالمئة سنوياً[33]. والهند هي أيضاً السوق الأولى لألعاب الهاتف الخليوي المسماة «بريكس» BRICs، والأسواق الناشئة النامية بسرعة لكل من البرازيل وروسية والهند والصين، التي يرجح أن تنمو بمعدل يبلغ أكثر من 700 بالمئة بحلول عام 2010. ويتوقع الخبراء أنه بحلول عام 2009، سيكون هناك 220 مليون شخص يمارسون الألعاب على الإنترنت، حيث ستكون الهند في وضع للاستحواذ على حصة تبلغ 336 مليون دولار[34].

ويزداد استخدام الإنترنت في الهند بشكل هائل. واستناداً إلى تقديرات عام 2006، فقد تم إحصاء أكثر من 50 مليون شخص من مستخدمي الإنترنت زيادة عن 35 مليوناً في عام 2005، و5 ملايين فقط في عام 2000. وتحدد الأمم المتحدة معدل الزيادة في استخدامه عند نسبة كبيرة تبلغ 89 بالمئة سنوياً[35]. ويبدو خمسون مليوناً أشبه برقم كبير، إلا أنه يعادل 4.5 بالمئة فقط من التعداد العام للسكان في الهند. وكان هناك في الولايات المتحدة في المقابل (205) مليون شخص من مستخدمي الإنترنت في عام 2005[36]. بينما تم إحصاء 110 مليون مستخدم للإنترنت في الصين. إن عملية ربط الاتصالات في أنحاء الهند عبر خطوط أَرضية هو ببساطة ليس بالأمر العملي أو المعقول. وتقوم البلاد بدلاً من ذلك بدعم النجاح الذي حققته مع وسائل الاتصالات الخاصة بالهاتف الخليوي من أجل توسيع عملية ربط الخطوط بالإنترنت عبر الاتصالات اللاسلكية العالية السرعة. وكانت شركة «ريلاينس انفوكوم» Reliance Infocom أكبر مزود خدمة اتصالات لاسلكية قد أعلنت في عام 2006 عن خطة للانضمام إلى شركة الـجي اليكترونكس LG Electronics، لمساندة التوسع السريع لعملية ربط واسعة النطاق للاتصالات اللاسلكية عبر البلاد[37].

وبدأ المعهد الهندي للتكنولوجيا في مدينة مدراس التي يطلق عليها الآن اسم تشيناي Chennai مشروعاً للتواصل عبر الإنترنت عبر أكشاك إلى أكثر من 700 مليون هندي يعيشون في القرى. وهذه الأكشاك هي عبارة عن مقصورات تضم جهاز حاسوب يستخدم

عادة تقنية لمس الشاشة مع رموز برامج بسيطة مناسبة لمستخدمي الإنترنت الأميين. وتدار ثمانون بالمئة من هذه الأكشاك بوساطة نساء[38].

وقد أكد تقرير صدر عام 2006، عن شركة «جاكست كونسلت» Juxt Consult وهي شركة استشارية مختصة بتكنولوجيا المعلومات ومقرها دلهي: أن نسبة مذهلة تبلغ (51) بالمئة من مستخدمي الإنترنت الهنود تأتي من الطبقة المتوسطة الأفقر في الهند، الذين يبلغ دخلهم أقل من عشرة آلاف روپية (زهاء 250 دولاراً) شهرياً، بينما يكسب (24) بالمئة منهم ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف روپية شهرياً. والعديد من هؤلاء يدخلون إلى مواقع الإنترنت عن طريق التردد على مقاهي الإنترنت الشعبية الموجودة في الهند[39].

وفي حين تبدي الحكومة حرصاً على تسريع عملية ربط البلاد بالإنترنت والمجيء بالمزيد من الملايين من الهنود للتواصل عبره، فإنها تبدي حذرها كذلك إزاء المظاهر السلبية للإنترنت ذاته. فقد شهد الصيف الماضي احتجاجات صاخبة لمستخدمي الإنترنت الهنود عندما تبين لهم أنه لم يعد باستطاعتهم الوصول إلى المدوّنات المفضلة لديهم، بما فيها المدونة الشعبية blogspot.com. ولم تعقب الحكومة على الأمر في البداية ثم أقرت بأنها كانت قد أمرت المواقع التي تمول المدونات بإغلاقها، وأعلنت لاحقاً أنها لم تكن تنوي أبداً إغلاق جميع المدونات، وإنما أرادت ببساطة أن تمنع الوصول إلى إحدى المدونات التي كانت قد ظهرت فيها رسائل مهيجة للمشاعر، وتزيد من حالة الاحتقان التي كانت قائمة عقب حوادث التفجيرات الإرهابية التي شهدتها مدينة بومباي. وقالت الحكومة: إنه كان عليها أن تتحرك لصالح منع قيام أحداث عنف بين المسلمين والهنود. ثم أردفت قائلة: إنها لم تكن تملك التقنية لإغلاق مدونة واحدة، ولذا كان على المخدمين أن يغلقوا كل وسائل الوصول إلى الإنترنت. ولم يتم حل الوضع بعد منذ كتابة هذه السطور.

كذلك حاولت الحكومة الوطنية وحكومات الولايات والحكومات المحلية أن تفرض إجراءات صارمة على استخدام الإنترنت من جانب الإرهابيين الذين يخططون لضرب أهداف هندية، وأيضاً على الكتابات والصور الإباحية المتداولة على الإنترنت، وهي تعد نشاطاً مخالفاً للقانون يشهد زخماً كبيراً في البلاد[40]. إن أحد الأمور المزعجة فعلاً في

استخدام الحاسوب في مقاهى الإنترنت في الهند هو الفيض المنتظم من المشاهد الإباحية الذي يتعرض له المرء. فالمجتمع الهندي هو مجتمع محافظ جنسياً - دفع زوجان إسرائيليان غرامة في العام الماضي بدلاً من تنفيذ عقوبة السجن عشرة أيام في مدينة راجستان، لأنهما تبادلا القبل أثناء مراسم زفافهما؛ وتعمل حكومة الولاية على تحذير السياح الأجانب بأن الاتصال ما بين الرجال والنساء في العلن غير مقبول[41]. وفي عام 2005، اضطرت نجمة السينما خوشبو التي تنتمي إلى ولاية التاميل للاعتذار إلى جمهورها، وهي تبكي لأنها أدلت بتصريح مفاده أن ممارسة الجنس قبل الزواج موجودة في ولايتها. وكان الناس قد اندفعوا إلى الشوارع للتظاهر احتجاجاً[42].

ويُعرف الترتيب التقليدي لمعيشة الأسرة الهندية بأنه الأسرة المشتركة، حيث يعيش الإخوة وزوجاتهم وأولادهم معاً في المنزل نفسه. ومن غير المألوف للغاية بالنسبة للناس في الهند أن يعيشوا بمفردهم، ومن الصعب أيضاً أن تجد الخصوصية. فالهند بلد مزدحم. ومقاهي الإنترنت هي إحدى الأماكن القليلة حيث يمكن للناس، الرجال في الغالب الكثير، النفاذ إلى مواد إباحية من دون ذكر الاسم. والكثير من مقاهي الإنترنت تتمتع بسمعات غير مقبولة باعتبارها «بيوت دعارة»، وكنت قد دخلت أكثر من مرة إلى مقهى للإنترنت في الهند لمراجعة بريدي الإلكتروني وأدركت بعد فوات الأوان، من نوعية التعبير على وجوه الزبائن وكلهم من الرجال، إنني اخترت المؤسسة الخطأ. والرائج أكثر جداً من الكتابات والصور الإباحية، هو مواقع الزواج. وتعد مواقع Shaadi.com، وBharatMatrimony.com، وJivansathi.com ثلاثة من أكبرها.

والإنترنت هي إحدى الوسائل الرئيسة التي يبقى هنود الشتات عبرها على اتصال مع الوطن الأم. وتعد «رديف.كوم» Rediff.com البوابة التي تحتل المرتبة الأولى على الشبكة العنكبوتية في الهند ولديها عائد أكبر بثلاثة أضعاف من أقرب منافسة لها وهي «سيفي. كوم» Sify.com[43]. إنني أتابع قراءة الصحف والمجلات الهندية على الإنترنت لأبقى على اطلاع على أخبار البلاد كما يفعل معظم الهنود الذين أعرفهم في الخارج. وقد أشارت دراسة أجراها بول سي. آدامز واميلي سكوب من جامعة تكساس في عام 5 - 2004 أن الأمريكيين الهنود الذين عرّفوا أنفسهم باعتبارهم من مستخدمي مواقع الإنترنت الموجهة للهند كانوا

أكثر احتمالاً؛ لأن يفهموا معنى الحفاظ على الثقافة كهدف، وأن يؤمنوا بأن الهنود قد أسهموا في بناء حضارة العالم أكثر من الأوروبيين[44] وبإمكان الهنود أن ينحازوا إلى تفوق ثقافتهم والدليل على ذكائهم في ميدان التكنولوجيا لاسيما المهاجرين إلى الولايات المتحدة الذين يمتلكون مهارات فنية عالية، الذين يشعرون بالحنين إلى الوطن، ويساورهم القلق من فقدان أولادهم هويتهم الهندية ويحرصون على عدم الخلط بينهم وبين أقليات أقل نجاحاً على الصعيدين الاقتصادي والتعليمي[45]. وقد وفرت الإنترنت للأفراد من المغتربين الهنود المتفرقين في الشتات إمكانية البقاء على تواصل مع بعضهم، ومع الوطن الأم مثلما تقوم بعملية ربط الهنود من كل منطقة ومن كل المراتب الاجتماعية في الهند ببعضهم.

أفلام سينمائية للتحميل:
هزيمة القراصنة في أكبر سوق للعالم.

وقد قرر بين ريكهي وسمريتي مندهرا وهما شاب وشابة أمريكيان من أصل هندي من منتجي الأفلام السينمائية، قررا العام الماضي استخدام الإنترنت في محاولة لتجنب الخسائر التي تلحقها عملية القرصنة بالإنتاج السينمائي، بينما يقومان بزيادة توزيع فيلمهما الخاص إلى الحد الأقصى، واسمه «محمول ماءً». وقد رفضا قبول صفقة توزيع تقليدية من ستة أرقام كانت سوف تتولى عرض فيلم «محمول ماءً» في دور السينما في أنحاء الولايات المتحدة. وكانت تلك خطوة شجاعة بالنسبة لاثنين من منتجي الأفلام الناشئين. واختار بن وسمريتي بدلاً من ذلك السماح للاري بيج المشارك في تأسيس موقع غوغل باستخدام فيلم «محمول ماءً» من أجل إطلاق موقع «غوغل ڤيديو». وجعل الفيلم متاحاً للتحميل على موقع غوغل ڤيديو في كل أنحاء العالم، مدة أربع وعشرين ساعة أسبوعياً مقابل (4) دولارات. وأبلغني بن وهو ابن كانوال ريكهي kanwal Rekhi أحد أنجح المستثمرين الرواد في مجال تكنولوجيا المعلومات في وادي السيليكون، أبلغني أن الاتفاق تم «لأنني كنت قد نشأت في وادي السيليكون، وكان ابن عمي مانو ريكهي يعمل لدى غوغل، وكنا نقوم بعرض أفلام في فناء الموقع». واستطردت سمريتي بتفصيل أوسع قائلة: «كنا نعرض أفلاماً في فناء موقع غوغل في مدينة ماونتن ڤيو بولاية كاليفورنيا، وقلنا للمشرفين على غوغل: «اسمعوا، نريد أن

نكتشف طريقة جديدة بالكامل لتوزيع الأفلام السينمائية». وقد أحبوها تماماً. وأنت تعلمين أن إدراج فيلمي على موقع غوغل ڤيديو لا يكلفني شيئاً، ولذا فإن بإمكاني تحديد رسم بمبلغ أربعة دولارات مقابل نسخة نظيفة من الفيلم، يمكن لشخص ما أن يقوم بتحميلها بصورة قانونية ولا يُعرِّض حاسوبه للفيروسات ات. وسوف يدفع الناس أربعة دولارات بالمقابل. وبالإضافة إلى ذلك فإن بإمكان أي شخص في العالم أن يشاهد فيلمنا في أي وقت يشاء».

وسمريتي هي ابنة المنتج السينمائي المخضرم المعروف في هوليوود وبوليوود جاغموهان ماندرا Jagmohan Mundhra، وكان فيلمه Provoked (المستفَز) عام 2006. قد حقق نقلة نوعية. وهو من تمثيل كل من ايشواريا راي، ميراندا ريتشاردسون، روبي كولترين وناڤين اندروز. نشأت سمريتي في أجواء مهنة تجارة الأفلام. وكان والدها وأثناء قيامه بتدريس مادة التسويق في جامعة ولاية كاليفورنيا بمدينة نورثريدج، يحلم بكيفية دخول المهنة. وكانت الخطوة الأولى لماندرا شراء مسرح قديم متداعٍ بشاشة عرض واحدة في مدينة كلڤر في السبعينيات، حيث بدأ بعرض أفلام من إنتاج بوليوود أمام جالية صغيرة، لكن عدد أفرادها كان يزداد مع المهاجرين الهنود المحرومين -في الأيام التي سبقت ظهور الفيديو، و«دي.ڤي.دي» والإنترنت أو التلفاز اللاقط للأقمار الصناعية- من مشاهدة الأعمال الفنية الترفيهية القادمة من موطنهم. وأدارت شقيقته مادهوشري مطعم الوجبات الخفيفة الملحق بالمبنى، حيث قدمت «الساموزا» من صنع منزلي - وهي معجنات مقلية محشوة باللحم أو الخضراوات. وبوصفه هندياً فقد صادفته أوقات صعبة في اقتحام مهنة صناعة الأفلام في لوس أنجلوس، ووجد أخيراً مدخلاً إليها عبر سوق الأفلام المنقولة مباشرة على أشرطة الفيديو التي يملكها أشوك اميتراج، وروجر كورمان وغيرهما من المنتجين المستقلين.

وقال لي حينما التقيته في لندن العام الماضي حيث كان ينهي فيلمه: «المستفز»: «كنت أعلم أن بإمكاني أن أكتب نصاً أفضل، ولم أكن أملك خيارات كثيرة هناك. وكان عليَّ أن أضع حداً للوضع المتناقض الذي حيَّر الناس فجعلهم يقولون لي»: أنت لم تصنع فيلماً أمريكياً أبداً، إذن كيف بإمكانك أن تصنع واحداً؟

ومع بلوغ سمريتي سن المراهقة، كان والدها قد أنجز عدة أفلام مهمة في هوليوود وبوليوود ولم تكن جميعها مخصصة لسوق الفيديو. وكان فيلمه Bawander أو «عاصفة الرمال» تمثيل

ناندیتا داس قد قوبل بالاستحسان، وحاز على إعجاب النقاد لإدانته اضطهاد الطبقات الاجتماعية الأدنى والظلم اللاحق بالنوع الاجتماعي (المقصود هنا الإناث) في ريف الهند. وكان كانوال ريكهي، والد بن، رفيق دراسة سابق لموندهرا من معهد «آي.آي.تي» IIT في بومباي أحد صروح المعهد الهندي للتكنولوجيا القادرة على المزاحمة. وكان ابنه بن مهوّساً بإنتاج الأفلام السينمائية فهل كان هناك أي شيء باستطاعة جاغ أن يفعله له؟ لقد صادف الأمر أن سمريتي البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً كانت قد ذهبت إلى الاباما للتمرن على معدات الأستوديو الذي كان تصور فيه مشاهد فيلم الأخوين كوين «آوه يا أخي، أين أنت«؟ فهل سيكون بن مهتماً بالانضمام إلى سمريتي في موقع التصوير؟ تلك كانت الطريقة التي التقى فيها الصديقان وشركاء المهنة اللذان لا يفترقان في الوقت الحاضر، وهما يترددان دائماً على منطقة المستنقعات في الجنوب الأمريكي بصحبة الممثل جورج كلوني.

كان لدى بن وهو طفل الفرصة لاستعمال معدات تصوير رقمية من أحدث طراز قبل وصولها إلى السوق. وقد قال لي: «كانت عندي مؤثرات رقمية من إنتاج شركة آپل Apple ومعدات تشغيل ثمنها ما يوازي الآلاف من الدولارات. وقد حصلت عليها من صديقي بيتروو الذي كان عمه يعمل لصالح شركة Apple. كنت مفتوناً تماماً بالأفلام السينمائية، وكنت أتجول مع آلة تصوير حملتها في يدي طوال الوقت منذ أن كنت في سن التاسعة. ومع بلوغي سن الثامنة والعشرين كنت قد أعددت أول فيلم لي مع بعض أصدقائي في الحي. وأعتقد أنه عندما كان والدي يتناول التذاكر عند الباب المؤدي إلى دار السينما المحلية الخاصة بنا في مدينة لوس غاتوس حيث عرضنا أنا ورفاقي الفيلم، عندها فكر للمرة الأولى أنه «ربما يكون بن قادراً على أن يفعل هذا كوسيلة لكسب العيش».

لم يتقبل بن تراثه الهندي حتى كبر. «لم أعرف أنني كنت هندياً، أعني، أنني ببساطة لم أتواصل مع الجانب الهندي مني على الإطلاق. ثم ذهبت إلى الهند وانتابني شعور مذهل لا يصدق من الألفة. وأنا الآن منخرط في كوني من البنجاب ومن السيخ». والواقع فإن فيلمه «محمول ماءً»: يقدم عائلة من السيخ تتعرض للخطر عندما تتوتر الأجواء بشدة عقب هجوم إرهابي بعامل بيولوجي على المخزون المائي لمدينة لوس أنجلوس. وتلعب الممثلة الهندية المخضرمة شابانا عزمي دور ربة الأُسرة الكبيرة المحترمة والمتصلبة. وهناك مشاهد مؤثرة

للطقوس وللاحتفالات الدينية الخاصة بطائفة السيخ مع شرح من ابن الأسرة لتوضيح بعض النقاط للصديقة اليهودية البيضاء التي أحضرها إلى البيت.

وفيلم «محمول ماءً» هو من نوعية الأفلام التي سيشاهد الأمريكيون المزيد منها. إنه لا يجاهر علناً بارتباطه بالهند. إنه يدور حول شخصيات أمريكية في خلفية أمريكية، ويصادف أن بعض تلك الشخصيات فقط، مثلهم مثل المزيد والمزيد من الأشخاص الموجودين في الحياة الأمريكية الحقيقية، بمن فيهم منتجو الأفلام، يصادف أن يكونوا من الهنود الآسيويين.

وتمتلك سميريتي تصوراً واضحاً عن مكان مستقبل العمل السينمائي. وعندما التقينا في نيويورك، أدلت بهذا التصريح المفاجئ. «من يحتاج إلى الجمهور الأمريكي؟ هناك فقط ثلاث مئة مليون شخص هنا».

كما شرحت لي وجهة نظرها بالنسبة لأمور المهنة بين الهند والولايات المتحدة، وكشفت عن أن «هوليوود ستحاول الاستيلاء على بوليوود؛ لأنهم يعرفون أنها هي موقع السوق الفعلية. لكنهم سيفشلون. فقد كانت بوليوود تتمتع باكتفاء ذاتي لمدة طويلة. وهؤلاء الرجال مثل ياش تشوبرا، يعرفون جمهورهم فعلاً، وهم بارعون جداً في عملهم. وكانت الهند تحظى بتشجيع كبير لاعتزازها بنفسها في السنوات العشر الأخيرة ويجب علينا أن نكيف منتجاتنا لتتلاءم مع حاجات جماهير الهنود. وهم لم يعودوا يشعرون بالرهبة من الأمور هنا بعد الآن. والواقع فإنني أشعر بالرهبة مما يجري هناك».

وتعتمد سمريتي على الإنترنت لمساعدتها على إيصال أفلامها إلى الجمهور في أنحاء الأرض بما في ذلك الهند، في حين تعمل على ضمان عدم تعرضها للسرقة والاحتيال في سياق ذلك. وتقوم هوليوود بالحذو حذوها. وتشكل شركة مترو غولدن ماير (MGM) وباراماونت، وفوكس للقرن العشرين، ويونيفرسال، وورنر برودرز، وسوني بعض الشركات المشتركة المالكة لشركة توزيع رقمي تسمى «موريلينك» «Morilink» جرى إطلاقها في عام 2006. وهناك خدمة أخرى هي «سينما نيو» «Cinema New» بدأت بتقديم أفلام من إنتاج شركة «سوني بيكتشرز هوم انترتينمنت» Sony Pictures Home Entertainment MGM و«ليونزغيت» Lionsgate من أجل تحميلها في الوقت نفسه التي تصدر فيه على أقراص «دي.

ڤي.دي» DVD. وقد وقعت شركة Sony Pictures Home Entertainment أيضاً اتفاقية مع شركة «غوبا» GUBA المختصة بتوزيع أشرطة الفيديو على الإنترنت، ولمنحها حق الحصول على استعمال القائمة المبوبة للأفلام السينمائية الشاملة، التي أعدتها شركة سوني.[48] ولا تأخذ أي من هذه الاتفاقيات الخطوة الأكثر شمولاً التي اتخذتها سمريتي وبن بفيلم «محمول ماءً» بعرضه على الإنترنت بدلاً من عرضه في دور السينما أو بالتزامن مع ذلك. ووفقاً لتقرير إخباري نشر في مجلة Tech News World «تيك نيوز وورلد»، في عام 2006، فإن الثنائي الشاب العامل في مجال إنتاج الأفلام السينمائي متقدم بنحو خمس سنوات عن بقية المؤسسة الصناعية السينمائية؛ وعندما تتمكن من اللحاق بهما، سوف يكون هناك تغيير كبير في الطريقة التي يتم بها توزيع الأفلام»[49].

المديتشي الجدد

تمتلك عائلة تشوبرا - الأب والمعلم الروحي الشهير ديباك Deepak، والابن الصحفي المختص بكتابة التحقيقات غوثام Gotham والابنة المؤلفة موليكا Mallika المسؤولة سابقاً في محطة تلفاز MTV في الهند - إلى جانب شاراد ديڤاراجان Sharad Devarajan صاحب شركة Gotham Entertainment «غوثام انترتينمنت» الذي يمتلك الحقوق الهندية في شركة «مارڤل آند دي.سي كوميكس» Marvel and DC Comics، والمخرج السينمائي شيكار كابور، يمتلكون مشروعاً تجارياً مشتركاً جديداً. فقد وقعت هذه المجموعة اتفاقاً مع ريتشارد برانسون في العام الماضي لإنشاء شركتي «ڤيرجن لمجلات الأطفال المصورة» و«ڤيرجن لأفلام الرسوم المتحركة». وباستخدام سلسلة متاجر ڤيرجن كمنافذ لبيع إنتاجهم، عدا عن ذكر العلامة التجارية القوية لشركة Virgin ذاتها، فإن الشركة سوف تأتي بأعلى نوعية من المحتوى الهندي إلى سوق عالمية متكاملة لوسائل الإعلام. إن الهدف الطموح للمجموعة هو ابتكار ميثولوجيا جديدة أو إيجاد علم جديد للخرافات خاص بعصرنا، علم مترسخ في أساطير الهند والقوى الروحية لقارة آسية، ويستند إلى طاقم جديد من الممثلين من الأبطال الخارقين من أجل حقبة مضطربة ومن أجل جمهور يتموضع بشكل متزايد خارج الغرب[50].

وقد غير غوثام تشوبرا واسمه الأصلي غاوتاما Gautama، وهو مثل اسم الفيلسوف الهندي الملقب ببوذا، غير اسمه منذ سنوات قليلة لأنه، حسناً، نظراً للطريقة التي يكتب بها الاسم باللغة السنسكريتية، فإن غوثام Gotham هو في الواقع طريقة أخرى يمكن بها تهجئة الاسم. وقد جعلت التهجئة الجديدة أيضاً الاسم أكثر ثباتاً وتبين أنها كانت علاَّمة بالغيب بشكل غريب: فاسم غوثام هو الذي جعله ينهمك في مهنة إصدار المجلات المصورة للأطفال.

وأسر لي غوثام: «لقد التقيت مع شاراد ديفاراجان [هو الآن شريكه الرئيس في العمل]؛ لأنه كان يمتلك شركة تدعى «غوثام انترتينمنت غروب» Gotham Entertainment Group مجموعة غوثام للأعمال الفنية الترفيهية. وفكرت أن هذا كان إما مصادفة كلية، وإما القدر».

سألته: لماذا اخترت مجلات الأطفال المصورة؟ فقد بدت وسيلة ضئيلة الأهمية بالنسبة لمشروع طموح كهذا.

ويجيب غوثام موضحاً: كان أبي يقول دائماً أنا مجرد مترجم أعمل على إيصال الفلسفة الهندية إلى العالم، «وأنا أشعر وكأنني أقوم بالشيء ذاته. وقد كان للمخرج السينمائي شيكار كابور تأثير هائل أيضاً. وهو يمثل بالنسبة لي تجسيداً فعلياً لعملية نقل الهند إلى العالم. لقد كبرت مع شيكار، إلى جانب أبي بالطبع، وكانت عندي هاتان القدوتان المفعمتان بالقوة والنشاط اللتان آمنتا بنقل قصص من الهند إلى بقية العالم. وعندما التقيت شاراد قمت على الفور بالجمع بين ما كان يفعله، وما كان والدي وشيكار يحاولان أن يفعلاه. كما أدخلت الكثير من خبرتي الخاصة في عملية إعداد التقارير الإخبارية بصفتي صحافياً». وكان غوثام قد عمل في تغطية برامج التحقيقات التلفزيونية مدة سبعة أعوام لصالح «محطة القناة الأولى» المنهجية الخاصة.

ويختلف الأسلوب الشخصي لشاراد ديفاراجان اختلافاً كبيراً عن أسلوب غوثام. فهو فتى ولد ونشأ في جيرسي، وهو رجل طويل القامة أسمر وأنيق يرتدي ثياباً مفصلة جيداً، ومكوية جيداً: قمصان جديدة وسراويلات مثنية بشكل جميل. وهو أكثر تمسكاً كثيراً بالشكل من غوثام، الذي يحمل حقيبة معلقة على ظهره، ويرتدي سراويلات الجينز. ويعيش شاراد في الطرف الشرقي العلوي من مدينة مانهاتن في حين يعيش غوثام في مدينة سانتا مونيكا بولاية كاليفورنية.

ويتكلم شاراد ديڤارا جان بسرعة، وهو يعبر بفصاحة عما يفعله، ويبدو مستعجلاً لإنجاز الملايين من الأمور، إلا أن هذه الأمور تؤثر فيه بشكل يجعله راغباً في التمهل قليلاً لمشاركتك إياها. وقد أمضيت وقتاً عصيباً في تتبع شاراد والعثور عليه: فالرجل يعيش داخل طائرة حسب علمي، وهو يتنقل بشكل دائم على متنها ما بين نيويورك وبنغالور ويقوم برحلات خاطفة إلى لوس أنجلوس ولندن، وبرحلات إضافية إلى بقية أنحاء آسية وأوروبة.

ويقول لي على الفور: «لقد نشأت في أسرة إعلامية. فقد أصبح والدي رئيساً لشركة وورنر ميوزيك ميديا **Warner Music Media** وبي.ام.جي دايريكت **BMG Direct** في الولايات المتحدة. ولم تكن لديه خبرة سلفاً في العمل في حقل الإعلام، وكان من خريجي المعهد الهندي للإدارة». وباعتباره يحمل ميولاً فنية توجه شاراد للانضمام إلى كلية الفنون بعد تخرجه في المدرسة الثانوية. وقادته سلسلة من الوظائف غير المنتظمة أخيراً إلى العمل في دي.سي كوميكس **DC Comics** المختصة بالمجلات المصورة للأطفال.

«في عام 1997، سمحت لي شركة دي.سي **DC** بامتلاك حقوق النشر في الهند، وتقدمت بطلب في هذا الشأن إلى شركة مارڤيل **Marvel** فحصلت على حقوق النشر في الهند منهم أيضاً. وهذا أشبه بالحصول على كل من شركتي كوك وبيبسي **Pepsi** و**Coke**. إنه أمر مدهش تماماً. فقد كانت الهند بشكل عام خارج الرادار حقيقة آنذاك، وهم لم يدركوا الإمكانيات الموجودة فيها، وقد أدركها شاراد فعلاً.

قال شاراد: «انظري، هناك مئتا فيلم سينمائي قيد الإعداد في الوقت الراهن يستند إلى كتب مصورة للأطفال، مثل فيلم «ڤي كما في كلمة ڤنديتا» «**V for Vendetta**»، وليست لدى عامة الشعب أية فكرة بأن هذه الأفلام مبنية على قصص مصورة للأطفال. فهناك «هالك الخارق» بالطبع و«سوبرمان»، حسن، ولكن القصص الأخرى؟ مستحيل».

وقد أدرك شاراد أنه لم يكن بإمكانه أن يستخدم فقط ما يسميه «الوسيلة المجانية فعلاً» لمجلات الأطفال المصورة لكي يجعل من شخصيات معروفة جيداً لشركتي دي.سي ومارڤل شخصيات هندية مثل «الرجل العنكبوت» سبايدرمان، لعرضها في سوق هندية لم تستثمر بعد، إلا أنه كان بمقدوره أيضاً أن يأخذ مجلات هندية مصورة للأطفال وأفلاماً من الرسوم

المتحركة تتميز بأفكار جديدة ومبتكرة إلى بقية العالم. وشكل فيلما «أنيم ومانغا» Anime and Manga سابقة حققت نجاحاً كبيراً في كل بقعة من كوكب الأرض. «إن ما حصل مع اليابان هو نموذج لما يمكن أن يحصل مع الهند. وقد قامت كوريا بإنجاز عمل أفضل حتى بفيلم «manhwa» «مانهوا» الذي أخذ معه كل الثقافة الكورية، بما في ذلك نجم البوب رين، Rain، الذي يعد الآن موهبة معروفة في دول العالم. لذا، فإن ما نعتقده هو أن المجلات المصورة للأطفال يجب أن تكون جزءاً من حزمة ثقافية كاملة تضم السينما، الموسيقا، الموضة، كل شيء».

وينظر شاراد إلى شركته على أنها تعمل على جبهة الهند العالمية الجديدة. وهو مدرك بدقة للعوامل المتوافرة في هذه اللحظة التاريخية من بروز الهند على الساحة العالمية. وتأتي قضايا الهوية في صلب اهتمامات الشباب حيث يسعى كل جيل إلى تعريف عصره.

ويطرح شاراد سؤالاً بأسلوب لا ينتظر إجابةً قائلاً: «إذن ما هي الموضوعات والأفكار المتداولة بين شباب الهند؟ هنالك الكثير من القلق بشأن العولمة. ويحتل اكتشاف الهوية جزءاً من تفكيرنا. وعندما أخذنا سبايدرمان إلى الهند أردنا أن نُظهر التضارب القائم ما بين التقليدي وبين الحديث، الطفل القادم من القرية الذي يجب عليه أن يتأقلم مع محيطه في بومباي، و«مناطق الزمن المزدوج» في الهند اليوم حينما تحدث التغييرات بشكل سريع للغاية ولا تكون دائماً على المسار ذاته».

والشخصية التي تم ابتكارها بالنسبة للنسخة الهندية من سبايدرمان المسماة باڤيتر برابهاكار، هي طفل قروي متخلف جداً يلبس الدوتي، وهي ثياب الرجال التقليدية في الهند التي تلتف حول الخصر والساقين التي اعتاد غاندي أن يرتديها. وهو يصل إلى مدينة بومباي الكبيرة للالتحاق بالمدرسة. ومثل جموع أبطال الأرياف السذج الذين سبقوه، فإنه يجد نفسه أُضحوكة لسكان المدن الأكثر حنكة بأمور الحياة، ولكن هذه هي هند القرن الحادي والعشرين. أما الأولاد في المدرسة التي يذهب إليها فهم متطبعون بأفكار الغرب وأسلوب الحياة فيه ومنقطعون عن التواصل مع أصولهم الهندية. وأما الفتيات اللواتي يرتدين سراويلات الجينز

الملتصقة ويظهرن أعلى الخصر من أجسادهن عارياً مع سرة مثقوبة، فهن قساة القلب بصورة خاصة، ما عدا واحدة، بالطبع التي تدرك القيمة الحقيقية للبطل.

يقول لي شاراد: «لقد كانت المجلات المصورة للأطفال دائماً وسيلة عظيمة لتناول القضايا الاجتماعية. أنت لا تستطيعين التحدث عنها في الوقت الحاضر، لذا أنت تفعلين ذلك مستقبلاً عبر قصص الخيال العلمي». خذي رواية **X-Men** «الرجال المجهولون» فقد كانوا يتحدثون عن العنصرية وعن نبذ المتحولين. كانوا بمنزلة السود الذين عاشوا في الستينيات، والشاذين الذين يعيشون في العصر الحالي. كما أن العلوم وأمور الماورائيات في الهند مرتبطة ببعضها بشكل غير مرئي، وقصص الخيال العلمي لا تحتاج إلى جهد كبير. وذلك كله يأتي مجتمعاً في المجلات المصورة للأطفال.

واستطرد شاراد قائلاً: «أما بالنسبة للسوق الهندية فقد دخلتها محطة تلفزيون **MTV** وشبكة الرسوم المتحركة كارتون نيتوورك **Cartoon Netwoork** عبر التلفاز، ولكن ما من أحد كان يدخل مجال الطباعة. ولم يكن هناك من أحد في مجال النشر يُعد برنامجاً لتوزيع المجلات من أجل جمهورنا. وقد عملت على جعل شبكة التوزيع تنتشر في الهند ثم توسعت فيها باتجاه سنغافورة، ماليزيا وهذا العام إندونيسية».

وتمتد طموحات شاراد إلى ما هو أبعد من جنوب آسية. «سوف نقوم الآن بعكس الاتجاه والسير بعملية تصدير الأعمال الكلاسيكية والحكايات الخرافية والقصص الهندية الخالدة، مثل «رامايانا» «مهابهاراتا» «روايات **Jataka** جاتاكا»* و«بانكاتانترا»** **Panchatantra** إلى العالم. إلا أنه سوف يجب علينا إعادة تخيل هذه الخرافات من أجل عالم يضم من يعجبه مشاهدة أفلام مثل «بوكيمون» و«هاري بوتر». إن الأسس التي بُني عليها أبطالنا راسخة في تراث ومعتقدات متميزة وطريقة تفكير مختلفة جداً عن طريقة الغرب الذي يتم تعريف أبطاله عبرها بوساطة نظرة فلسفية مسيحية - يهودية. إذن ماذا يحصل في بلد من مليار

* قصص صغيرة ذات مغزى تضم مقاطع شعرية تحكي عن المبادئ الأخلاقية، بألسنة الحيوان. (المترجمة)

** ومعناها خمسة أبواب. هي الأصل الهندي من أصول كتاب «كليلة ودمنة» يقال: إن مؤلفها حكيم يُدعى برهمن وشنو عاش حوالي العام 300 ميلادية. (المترجمة)

إنسان لا يتخلون عن ذاك التراث؟ ماذا يعني ذلك؟ سوف تكون قصصنا متأصلة في التراث الهندي، ولكن عليها أن تكون قصصاً فريدة في مواجهة القصص الغربية التي ما زالت تسيطر على الساحة».

ويتفق غوثام مع رؤية شاراد بشأن الكيفية التي يمكن بها للمحتوى الهندي أن ينطلق في الغرب عبر الوسائل الإعلامية المختصة بالرسوم المتحركة ومجلات الأطفال. وقد أبلغني أن «شاراد وأنا كنا نتفرج على فيلم أنيم الياباني، بوكيمون، وعلى نجاح فيلم «النمر الجاثم»، وفيلم «التنين الخفي»، ونفكر ما إذا كان هذا المحتوى شرق الآسيوي يمكن أن يكون ناجحاً جداً في أمريكا، ثم لم لا يكون محتوى هندياً؟ وقد كان والدي وسيخار مقتنعين أيضاً أن الوقت لا بد أن يأتي لابتكار محتوى هندي ليس من أجل الهند فقط، وإنما من أجل الغرب أيضاً».

التقى غوثام وشاراد معاً وشكلا «ستوديوهات غوثام» ووضعا خطة لتقديم شخصيات روائية للكتب ولأفلام الرسوم المتحركة. وكانا يرغبان بالقيام بالعمل الإبداعي في الهند، وكان لدى شريكهما الثالث، سوريش سيتارامان خلفية ومعلومات واسعة في مجال وسائل الإعلام، وكان يعرف في الواقع كيفية إنشاء ستوديو في الهند وجعله يعمل.

سألت غوثام عن عدد المرات التي يذهب فيها إلى الهند فأجاب: «إنني أذهب كثيراً جداً كل شهرين أو نحوه، لمدة أسبوع إلى عشرة أيام. وأذهب مرة في السنة لقضاء شهرين متواليين، وأشعر وكأنني بحاجة إلى الذهاب بانتظام من أجل استعادة نشاطي. فليس هناك من شيء يشبه وجودك داخل الاستديو. إنه مثير للغاية. فأنتِ تشعرين بأنك واحدة من أفراد عائلة مديتشي».

واستخدم شاراد هذا التشبيه ذاته عندما تحدثت إليه بعد أَسابيع قليلة: «كان شروعنا في العمل في بنغالور أشبه بمختبر لعائلة مديتشي. فأنت تشعرين وكأنك موجودة هناك مع أناس يبتكرون ويرسمون».

إن التشبه بعائلة مديتشي أمر مثير للاهتمام؛ لأن غوثام وشاراد مثلهما مثل الكثيرين من الهنود الآخرين، والأشخاص من أصل هندي، يؤمنون فعلاً أن إحدى المظاهر التي

تحدد عصرنا هي نهضة الهند كحضور ثقافي وسياسي كبير. وإن مهمتهما في انطلاقة هذه النهضة ليست مقتصرة فقط على إيجاد الوسائل للتعبير عن الخرافات القديمة والرموز الدينية والفكرية والفنية الهندية، وإنما أيضاً لتشجيع ورعاية المواهب الهندية التي تنتظر أن تتفتح وتؤتي ثمارها. وإلى جانب الإدراك والرؤية الثاقبة، يعد المال بمنزلة زيت التشحيم اللازم لزيادة سرعة دوران المحرك الإبداعي، الذي سوف يدفع بنهضة الهند إلى الأمام.

ووجه إليّ شاراد سؤالاً اتبعه بالإجابة قائلاً: سألني «لماذا تعاني الهند كساداً في الإبداع؟ إن ذلك مرتبط بالجانب الاقتصادي فأنت عليكِ أن تدفعي أجوراً عالية مقابل الحصول على الموهبة الجيدة والاحتفاظ بها، ومن أجل أن تدفعي أجوراً عالية عليك أن تبيعي بكميات كبيرة خارج نطاق الهند. ولدينا أشخاص من خيرة الرسامين ونحن ندفع لهم لاكات [اللاّك هو مئة ألف روبية زهاء 2,500 ألفين وخمسمئة دولاراً]. نحن نحدد الموهبة وندفع لأجل الموهبة. نحن نريد أيضاً أن نثقف الجيل القادم. إننا نحاول العمل مع «المعهد الوطني للتصميم». إن سوريش يتكلم مع عدد كبير من هذه المعاهد من أجل معالجة مسألة ندرة الإبداع. فالكليات والمعاهد الهندية تُخَرِّج فنيين وليس فنانين. إنها تقتل الإبداع وما نريده هو أن يعرف الشباب أن بإمكانهم توجيه رسالة من شأنها أن تغير العالم». ويعترف شاراد بأنهم يلجؤون إلى العمل عن طريق الاستعانة بكوادر من الخارج لإنجاز العمل. إلا أنه يقول لي: إنهم يفعلون ذلك»؛ لأنه يتيح الفرصة لتدريب شبابنا أيضاً. وهو يعرف أنه عاجلاً أم آجلاً سوف يتمكن شخص ما في مكان ما من إنجاز العمل بتكاليف أرخص، وأن العقود الخارجية هي في النهاية طريق مسدود.

إن طموح شاراد وغوثام طموح رائع: فقد صرح غوثام: «نحن لا نريد أن نكون أفضل عمل يُصَدَّر خارج قارة آسية، نحن نريد أن نكون الأفضل في العالم. وسوف نستقطب إلى جانبنا أفضل المواهب الموجودة في الخارج، سواء كانت من مذيعي نشرات الأخبار القدامى أو الجدد»، وقد احتاجوا إلى جمع مبلغ مهم من المال من أجل تحقيق ذلك الهدف.

وأوضح غوثام قائلاً: «بدأنا بتقصي خط سير رأس المال المخاطر». وركزنا على خط سير الأصدقاء والعائلة. ثم جلسنا أنا وشاراد في أحد الأيام وقلنا، أنظر ما هو فريق الأحلام

بالنسبة لنا؟ إذا ما أمكننا إشراك أي شخص في العالم في هذا الأمر، فمن سوف يكون. وكان الاسم الذي استمر في الظهور في أعلى القائمة هو اسم ريتشارد برانسون. لذا قمت فقط بالتقاط سماعة الهاتف، واستخدمت مزيجاً من مهاراتي كصحافي وطرحت كذلك بعض الأسماء للإفادة منها في هذا السياق مثل اسم والدي وأيضاً اسم شيكار، مما جعل مساعد برانسون يقر بأنه كان لدينا شيء ما ربما يثير اهتمام الرجل. واتصل برانسون بعد يومين قائلاً: «لقد أحببت فيلم اليزابيث»، وهو الفيلم الذي أخرجه شيكار كابور ومثلته كيت بلانشيت. «وأحب الكتب التي ألفها والدك» وذاك كان كل شيء. إن ريتشارد مخترع حقيقي. وهو يرى مستقبل العلامة التجارية لشركة «فيرجن» في قارة آسية باعتبار أنها المكان الذي يتوجد فيه التطور».

بعد توقيع الاتفاقية بثمانية شهور فقط، بدأت الشركة بعرض إصداراتها الأولى، ثلاثة كتب مصورة للأطفال مع رتل من الشخصيات الجديدة، السادو، ديفي*، «والمرأة الثعبان» تبعتها سلسلة أخرى من هذه المجلات باسم «عودة رامايان». وسوف يتفرع المشروع المشترك الجديد إلى إنتاج رسوم متحركة، وألعاب، وأفلام سينمائية.

ويعي غوثام تماماً حقيقة الوسط المتكامل لوسائل الإعلام. وهو يتنبأ «أن المزيد من الناس سوف يرون إنتاجنا على جهازهم الخليوي أكثر مما يرونه في كتب من ورق أو في دور العرض. وأن الاهتمام يتركز على إيجاد شخصيات لا تنسى، تستطيع أن تعمل في وسائل إعلام مختلفة، شخصيات متأثرة بالتراث الغني للثقافة الهندية. وهو يقر» بأن الأبطال العظماء للمجلات المصورة للأطفال الذين نعرفهم ونحبهم جميعنا، لديهم بالتأكيد تاريخ طويل يمتد خمسين عاماً. إلا أننا لدينا في الهند أبطال خارقون يعود تاريخهم إلى خمسة آلاف عام.

وهو يشير إلى أن أكثر محتوى ثقافي جماعي نجاحاً هو أساساً الخرافات القديمة. «فكلها تدور حول القدر، حول الشخص المختار»، وهو يستشهد بأفلام مثل **The Matrix** (المصفوفة) **Lord of The Rings** (سيد الخواتم) و**Harry Potter** (هاري بوتر). «انظر إلى المشهد الأول من فيلم «الرجل الوطواط» أو «باتمان» الجديد، حيث تبدأ القصة بأكملها

*الآلهة الكبرى عند الهندوس (المترجمة)

بالرجل الوطواط وهو يقوم باكتساب قدراته في أجواء جبال التيبت، وهذا كله معد لتلبية الطلب على القصص الهندية».

واسأله عن فيلم «حرب النجوم» الذي لطالما كان يسترعي انتباهي باعتباره أعظم تجربة لجوزيف كامبل في إنتاج الأفلام الخرافية. ويتفق غوثام مع هذا الرأي بشكل تام. «أنت تعلمين أنني كنت محظوظاً كثيراً لأكون قريباً من المخرج جورج لوكاس. فقد كان دائماً واضحاً جداً بشأن شخصية لوك سكاي ووكر * في كونه من الأتباع الجدد لفلسفة اليوغي. إن يودا (Yoda) بطل الفيلم والشخصية الرئيسية فيه هو مثل الماهاريشي ** بالضبط». ويخلص غوثام إلى القول، وقد بدا وهو يتكلم أشبه كثيراً بأبيه «هذه نماذج أصلية أساسية. هذه أشياء متجذرة بعمق داخل نفوسنا. ولهذا السبب فإن ما نقوم باستثماره من أفكار وتجارب ومعارف سوف يحالفه النجاح.

وبعد الاستماع إلى حديث غوثام وشاراد عن الشركة، أردت أن أتوصل إلى معرفة وجهة نظر تشوبرا الأكبر سناً. وقد تساءلت لماذا كان رجل يحمل شهادة دكتور في الطب بنى مهنته على الرابطة ما بين العقل والقلب والمجيء بالقيم الروحية إلى الغرب، مشاركاً في مشروع يتمحور حول المجلات المصورة للأطفال والرسوم المتحركة.

وافق ديباك تشوبرا على لقائي في مركز ومنتجع تشوبرا قرب ساحة تايمز سكوير. كان المدخل مليئاً بكتب الدكتور تشوبرا التي تعد من الكتب الأكثر رواجاً. وقادني سلم لولبي نزولاً إلى باحة المنتجع حيث جعلتني الموسيقا الهادئة والإضاءة الخافتة، ورائحة البخور، أتمنى لو كان عندي الوقت لإجراء تدليك لجسمي أو الخضوع لعلاج صحي هندي.

تقليدي يعتمد على الأعشاب وممارسة اليوغا والالتزام بطعام محدد. وقد تعرفت إلى تشوبرا على الفور. وبعدما رحب بي بحرارة، دعاني إلى غرفة مكتب صغير ولكنه مريح ومجهز بمكتب وكراسي أثرية هندية مقلدة.

* هي شخصية خرافية لمحارب أسطوري يظهر في سلسلة أفلام حرب النجوم وينجح في المساعدة على القضاء على إمبراطورية المجرات وإحلال نظام «اليوغي الجديد». (المترجمة)

** من حكماء الهندوس. (المترجمة)

لقد فاجأني ديباك تشوبرا. فقد كانت لديه رؤية واضحة تماماً عن الدعاية المضللة المحيطة بحكاية «نهضة الهند». وهذا هو بالضبط السبب وراء مشاركته في المجلات المصورة للأطفال وأفلام الرسوم المتحركة التي تصدرها وتنتجها شركة ڤيرجن.

وقال بلهجة استياء: «نعم، لقد أصبحت بوليوود تلقى شعبية. وماذا في ذلك؟ إن الهند على وشك أن تحظى بأعداد ضخمة من أصحاب المليارات. فماذا في ذلك؟ وكيف يكون في ذلك فائدة؟ ليس هناك من وضوح في كل هذه النهضة التي تخص الهند. إن شيئاً ما يحدث بالتأكيد لكن الهند بلد تحوي تناقضات حادة. وقد كانت لدى نهرو الرؤية الثاقبة لإنشاء عدد من المؤسسات التعليمية. ونحن نحصد النتائج الآن. وقد جاء بعض الخريجين إلى الغرب لأنهم كانوا أغنياء وأصبحوا أكثر غنى.

ولكن التفاوت في الأوضاع الاقتصادية ازداد في الهند. فالغذاء يتعفن في مستودعات تخزين البضائع، بينما يتم وفي الوقت نفسه تصدير ثلاثين بالمئة من الأغذية إلى الشرق الأوسط. حقاً، ما الذي يدعونا للشعور بالارتياح؟»

لقد صعقت صراحة لهذا التقويم الخطير. فمن النادر، وسط الجلبة المعلنة لولادة الهند أن تجد صوتاً معارضاً لاسيما من جانب اجتماع ناجح جداً، يضم هنوداً في نيويورك. ثم حدد تشوبرا ما يحدث في الهند في إطار الصورة العالمية الأكبر.

«انظري إن العالم في حالة فوضى. وإذا ما كتب لنا البقاء -وأظن أن ذلك ربما يكون حدساً بعيداً- إذا ما شاهدت فيلم آل غور «الحقيقة المزعجة» عن الاحتباس الحراري في العالم، الذي جرى عرضه للتو في دور السينما، فإن بنغلاديش وفلوريدا الساحليتين مهددتان بالفناء - لذا، إذا ما كتب لنا البقاء، فإن علينا أن ننظر إلى الأمور الأكثر أهمية. فالقومية مرض، وقد أطلق عليها كريشنامورتي* Krishnamurti اسم «القبلية»، كما شبّه اينشتاين القومية بمرض الجدري.

* 1895-1986. كاتب هندي معروف اشتهر بطروحاته الفلسفية والروحانية وتركيزه على العلاقات الإنسانية وأهمية إحداث تغيير إيجابي في المجتمع والحاجة إلى قيام ثورة في نفس كل إنسان بعيداً عن أي تأثير خارجي. (المترجمة)

ويمثل المجتمع في جزء كبير منه الخرافات القديمة التي يعيشها. أما السبب الذي يجعلني متحمساً بشأن موضوع شركة «ڤيرجن» والأطفال، والسبب الذي يقف وراء دعمنا لهم أنا وشيكار فهو أننا نحتاج إلى ابتكار خرافات وأساطير جديدة للشعوب، نحتاج إلى مخيلة جديدة، إلى إبداع جديد، وأنا أؤيده في ذلك من كل قلبي، ليس انطلاقاً من المبدأ القومي، ولكن لأننا بحاجة إلى مواد أولية جديدة من أجل عملية التخيل، مواد تجتاز الحدود القومية، ويجري تداولها عبر مختلف بقاع الأرض. ويقول شيكار: «إذا ما تم نزع قناع «الرجل العنكبوت» سبايدرمان يوماً ما، وجرى الكشف عن كونه صينياً، فسيكون ذلك أمراً جيداً».

وتترسخ لدى شاراد ديڤاراجان وبشكل أكبر، الفكرة التي تتركز حول نوعية الثقافة الهندية، التي ستسهم بشكل خاص في ابتكار هذه الميثولوجيا. فمن جهة، سيقوم فريق شركة ڤيرجن باستلهام أساطيرهم من ميراث ثقافي عمره خمسة آلاف عام؛ ومن جهة أخرى، يقول شاراد: سيحدث الانفجار الثقافي الهندي بشكل أسرع من أي انفجار آخر رأيناه. وسوف يحركه الشباب الهندي والوسائل والآليات التي يمتلكونها وكلها مرتبطة بالإنترنت. ويقوم شيكار، وديباك وغوثام ببناء شخصيات جديدة متعددة المستويات والوجوه في فيلم «عودة رامايان». وقد كانت الهند تاريخياً ثقافة تطرح أسئلة تقليدية: ما هي الهندوسية وما هي ديانات الشرق وعلومه الفلسفية؟ إنها تشكل مطلب الباحث عنها، إنها تشكل منطلقاً للتفكير بالنسبة لك».

إن التفكير هو في النهاية ما يرغب فريق شركة ڤيرجن أن يشجع عليه جمهوره ويلهمه لكي يفعله. ويرى ديباك تشوبرا في هذا الأمر مهمة مستعجلة وحساسة. «فقد كانت ردود الفعل على هجمات الحادي عشر من أيلول بمنزلة قصور ضخم في المخيلة. ونحن بحاجة إلى تفهم الأوضاع والظروف المحيطة. والتكنولوجيا التي لا تقترن بالسياق العام تكون خطيرة جداً. وقد سنحت لي الفرصة مؤخراً للتحدث في مبنى وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) فقلت لهم: إن آلة صغيرة كهذه - ورفعت جهاز التريو الذي يخصني سوف تكون لها القوة في أثناء عشر سنوات لتدمير الولايات المتحدة». وهذا يخيفني. وأنهى حديثه قائلاً: «لا يمكننا أن نتحمل أن تخذلنا المخيلة وتخيب آمالنا مرة ثانية».

إمبراطورية ترفيهية هندية

هناك مجال واحد تولت فيه أمريكة قيادة العالم من دون منازع هو مجال الثقافة الشعبية. وكانت الولايات المتحدة، سواء في قطاع السينما والموسيقا والتلفاز، أم الإنترنت هي الرائدة في تحديد الاتجاه العالمي في هذا السياق. وينظر الأمريكيون -وغيرهم من أنحاء العالم- إلى سيطرة أمريكة على الإعلام العالمي وعلى الإنتاج الفني الترفيهي على مدى عقود، على أنه أمر مسلَّم به. إنه أحد الأسباب التي جعلت الولايات المتحدة تمارس تأثيراً ملحوظاً على أجيال من الأعداء والحلفاء على حد سواء.

وهنالك عاملان اثنان يدفعان بقطب التأثير هذا بعيداً عن الولايات المتحدة، باتجاه قارة آسية. فقد تردت بشدة سمعة أمريكة كمجتمع مفتوح، برموزه الاجتماعية والثقافية بفعل الانهيار الحاصل في العراق والادعاءات القائمة حول ممارسة أعمال تعذيب وما نُشر من صور عن فظائع التعذيب، والعقابيل المدمرة لإعصار كاترينا - التي بثت صورها في أنحاء العالم. وفي الوقت نفسه، فإن الحيوية المذهلة الذي تميز الأنظمة الاقتصادية في آسية، ونهوض أكبر دولتين عملاقتين في العالم، الهند والصين، يشكلان عوامل إيجابية تسهم في تحفيز الملكات الإبداعية وجذب الاستثمار نحو ما يُنشىء بصفته أكبر أسواق الأعمال الفنية الترفيهية ووسائل الإعلام التي عرفها العالم على الإطلاق. إضافة إلى ذلك فإن مكانة الهند بوصفها ديمقراطية متعددة الثقافات وزعيمة للعالم النامي تمنحها سلطة أدبية لإيجاد ما يوافق انتشارها الثقافي. ويتوق المواطنون الهنود إلى تأكيد هذه العناصر الأساسية لما يسميها جوزيف ناي القوة اللينة، قوة الإقناع، قوة جعل الآخرين يرغبون في القيام بما ترغب أنت أن يقوموا به.

ويتوقع أن تنمو صناعة الأعمال الفنية الترفيهية العالمية إلى (1.8) تريليون دولار بحلول عام (2009)، بزيادة تبلغ أكثر من (6) بالمئة سنوياً. وفي غضون ذلك تتسبب النهضة التي تشهدها الهند والصين بوجود الأعداد الهائلة من السكان الشباب فيهما والطبقات المتوسطة التي تحقق توسعاً سريعاً، في إحداث تحول في بنيان الاقتصاد العالمي باتجاه قارة آسية. وتتهافت وسائل الإعلام الأمريكية وشركات إنتاج الأعمال الفنية الترفيهية من أجل

الدخول إلى هذه الأسواق. وبحلول عام (2015) سوف يأتي (70) بالمئة من عائدات العالم من الوسائل الإعلامية والأعمال الفنية الترفيهية، من قارة آسية. وسوف تشكل الهند، باقتصاد ألهبته طفرة في الاستهلاك وأكثر شعوب العالم شباباً، سوف تشكل نصف هذه النسبة، أي أكثر من ثلث الإجمالي العالمي[51].

«يمتلك الهنود ميزة هائلة على وسائل الإعلام الغربية؛ لأن كل شيء يأتي إلى هناك وجمهور الشباب يحب كل شيء». هذا ما يجادل به اميتاف كول، وهو منتج أفلام سينمائية يقيم في مدينة مانهاتن بالولايات المتحدة، وكان قد عمل في الهند وجمع أكثر من مليون دولار لإنتاج فيلم عن رواية مترجمة للكاتب جومبا لاهيري الفائز بجائزة «البوليتزر» عن مجموعته القصصية القصيرة وعنوانها «مفسر العلل». وقد يكون هندياً أو من الشرق الأوسط أو أياً كان، فهم لا يكترثون، إنهم يحبونه. إنه انفتاح مذهل. أما في الغرب، فيتلاشى القديم لإفساح المجال أمام الجديد. وفي الهند يعمل الجديد بجد للاكتساب من القديم. وقد دأب بيل رويدي نائب رئيس مجلس إدارة محطة MTV ورئيس محطة MTV الدولية على القول: «إن ثقافة شباب الهند هي مستقبل ثقافة موسيقى البوب». وهو أعلم بذلك. وأنا أعتقد أن ذاك هو السبب وراء ذلك الانفتاح الذي يبديه الشباب الهندي، وكيفية تمكنهم من فصل مختلف الأشياء والموضوعات من مختلف الأماكن».

وتشكل الهند أكثر من سوق مربحة بالنسبة للمحتوى الأمريكي. فهي أمة نشطة تركز اهتمامها بشكل فريد على وسائل الإعلام وعلى الأعمال الفنية الترفيهية في العصر الرقمي، وقد حباها الله تعالى أحد أغنى الموروثات الثقافية في العالم، وهي على تواصل مع شعب يحقق نجاحاً مزدهراً في أراضي الشتات. وقد سألت توم فريستون هل كان يعتقد أن بإمكان الأعمال الفنية الترفيهية الهندية أن تكون لها النوعية ذاتها من التأثير الدولي الذي تنعم به الأعمال الترفيهية الفنية الأمريكية؟

فأجاب: «لم يكن لديك محتوى إبداعي يأخذ اتجاهاً ينطلق إلى العالمية فعلاً من أي مكان آخر غير الولايات المتحدة، إلا أنه سوف يحدث في الهند. وللغة علاقة كبيرة بذلك. والإنكليزية هي لغة تسافر وتقطع مسافات نوعاً ما، وكل شيء آخر سوف يظل

«داراً للسينما تعرض أفلاماً أجنبية». فالمخرجون الهنود صاروا أكثر حنكة وذكاء، وهم يكسبون أموالاً أكثر. وقريباً سيمتلكون المال لاستيراد ممثلين، الأمر الذي أعتقد أنهم سوف يفعلونه. إذن، سوف ترين ممثلين أمريكيين في أفلام هندية. وذلك سوف يكون لافتاً للانتباه».

إنني أتخيل الممثلة سكارليت جوهانسون أو الممثل براد بيت، وهما يمثلان أمام شاهروخ خان أو پرايتي زينتا في فيلم هندي. وهي ليست بفكرة بعيدة الاحتمال. فقد شاركت الممثلة الشقراء ذاتها والبريطانية ذاتها أليس باتن، ابنة الحاكم السابق لمدينة هونغ كونغ، كريس باتن، في فيلم Rang De Bassanti الذي حقق نجاحاً باهراً في عام (2005). وتعلمت أليس اللغة الهندية لأداء دورها حيث تحدثتها بطلاقة في الفيلم فأدهشت وسحرت جماهير الحضور. وبعد سنوات من جعل من كنت أتحاور معهم من الهنود يتفاعلون باستغراب حينما أتوجه إليهم بالحديث باللغة الهندية ويسألونني: السيدة تعمل في السلك الدبلوماسي، أليس كذلك؟ ولقد مررت بتجربة ممتعة لم أعهدها سابقاً في العام الماضي، تمثلت في قيام سائقي سيارات الأجرة والبائعين في شوارع الهند بسؤالي بالهندية وهم يبتسمون «أوه، أشعر وكأنني موجود في فيلم Rang De Bassanti باستماعي إليكِ!»

وتعد وسائل الإعلام الإلكترونية قوة فاعلة لابتكار المجتمعات المحلية الموجود في المخيلة. وإذا ما كان هناك من شيء يعد مجتمعاً عالمياً، فمن المؤكد أنه مجتمع عالمي للشباب. ويتلهف الشباب الهندي على إدراك إمكاناتهم وإمكانات بلدهم. وهم يتواصلون مع الإنترنت بطموح هائل وثقة عظيمة. وكما قال لي ميتاف كول: «يريد الهنود الآن أن يتولوا قيادة الأمر برمته. وبإمكاني أن أتذكر سيدة كانت تعمل في مجال الإخراج مع محطة MTV الهند عندما كنت أعمل على إعداد شريط ڤيديو لها، وهي تقول لي: إن ما كان يبحث عنه سايروس اوشيدار، المخرج المبدع آنذاك في فرع المحطة في الهند، هو «الأحدث» الأكثر إثارة للاهتمام؛ اميتاف نحن نحتاج إلى مزيد من «الأحدث» وفي كل مرة كانت تقولها، كانت يدها ستنخفض لتهوي بضربة قاطعة. «اجعله «الأحدث» إنني أقول لك: إن ذلك هو المكان الذي سوف يأتي منه «الأحدث». إنه سيأتي من الهند ومن باقي أنحاء قارة آسية».

العلامات التجارية في الهند

تتطور آلية الإعلان في الهند بالسرعة نفسها التي تتطور فيها وسائل الإعلام التي تروج لعرض الإعلانات. فقد تعلمت الشركات التي تملك مصالح في أكثر من دولة وبسرعة، أنها ولكي تبيع منتجاتها إلى المستهلكين الهنود، فإنه سوف يجب عليها أن تجعلها هندية. وعلى العكس من ذلك فإن الشركات الهندية تعمل على ربط منتجاتها بمقاييس الجودة الغربية: إما مع ما يطلق عليه عموماً الهندي العالمي -إنسان ذو ثقافة عالية، عالمي الانتماء والتفكير يشعر بالراحة في بومباي، مثلما يشعر بالراحة في نيويورك أو لندن- أو مع قيم هندية تقليدية. وفي أي من الحالتين فإنه يتم طرح المنتج للبيع عن طريق المبالغة في الترويج لمواصفاته، باعتباره يتيح للمستهلك المرور بتجربة تؤكد على الفور استقامته الثقافية بوصفه هندياً، وتحتفي بوصوله إلى عالم الرخاء والتطور الغربي. وتحقق الإعلانات الخاصة بمنتجات متنوعة بتنوع قهوة «النسكافيه» Nescafé الجاهزة، وثياب الرجال التي تحمل العلامة التجارية «ريموند» Raymond، تحقق هذا المزيج، وغالباً ما تترافق مع صوت مهذب لرجل يتحدث بلهجة أبناء الطبقة العليا الهندية، ومن دون أخطاء ودائماً بلهجة بريطانية جداً، وإنما مع الأسلوب الصحيح تماماً للإيقاع الخفيف.

احتفى مفهوم «السواديشي» Swadeshi* التقليدي بالاكتفاء الذاتي الهندي الذي تم تحقيقه عبر التضحية بالاستهلاك الغربي. وكان الآلاف من الهنود بقيادة المهاتما غاندي، قد عمدوا إلى التخلص من ثيابهم المستوردة، وأحرقوها في نيران كبيرة حاكت حماسة المشاعر الوطنية المتقدة وهي تكتسح البلاد. وأصبح القماش القطني المنسوج يدوياً على النول المسمى «كادي» Khadi النسيج المفضل للباس الهندي. وكان لابد من رفض التكنولوجيا الأجنبية بشكل بارز وتام والمتمثلة في آلات النسيج الكهربائية، والمنتجات الأجنبية المتمثلة في الثياب الجاهزة. وكان دولاب الغزل الذي كان يعمل عليه غاندي يومياً لإنتاج خيوط الغزل

* ومعناها الاكتفاء الذاتي. وقد باتت حركة تدعو إلى تعزيز مفهوم غاندي عن الاستقلال الوطني وتشجيع الصناعة المحلية ومقاطعة البضائع الأجنبية واستيعاب العاطلين عن العمل في الصناعات القروية. (المترجمة)

اليدوية، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً جداً باستقلال الهند إلى درجة أنه كان موضوعاً في منتصف علم الدولة الجديدة، حيث تم استبداله في الدقيقة الأخيرة بدولاب «أشوكا» Ashoka*.

أما اليوم فقد تغير كل شيء. فالهند ترى نفسها الآن وقد باتت مهمة ومفيدة تماماً، ولها قيمتها عبر تقبلها وإتقانها لصناعة التكنولوجيا والمنتجات الأجنبية، بطريقة مماثلة كثيراً لما حدث مع حشود الغزاة القدماء الذين جاؤوا لغزو البلاد، فوقعوا أسرى لسحرها بدلاً من ذلك. وإن ما تتميز به الهند من فطنة وذكاء حاد في مجال تكنولوجيا المعلومات والابتكار العلمي، قادها إلى واجهة الأبحاث والتنمية، هو مثال جيد على هذا. ويشعر الهنود بفخر عظيم كونهم يستطيعون أن يرتقوا ليس فقط إلى مستوى المقاييس العالمية وإنما حتى أن يتفوقوا عليها في بعض الحالات. ولأنه جرى إنجاز الكثير جداً في وقت قليل جداً، فإن الشعب الهندي لديه إيمان جديد بالإمكانيات والطاقات غير المحدودة لبلاده، وهو يلاحظ «برضا بالغ» أن العالم يمنح الهند أخيراً نوع الاهتمام الذي تستحقه. وتنعكس هذه المشاعر وتتعزز بفعل مايراه المشاهدون الهنود على شاشة التلفاز. وقد اهتمت المؤسسات الصناعية الإعلامية والترفيهية بما في ذلك المؤسسات المصاحبة لها المختصة بالإعلان والتسويق، اهتمت بشدة فجأة بشعور الهند الجديد بثقتها بالمستقبل: وهي تحتفي به وتشجعه.

كذلك انضمت الصحافة المكتوبة في الهند إلى البحث عن المشروعات الناجحة المربحة، وقامت في بعض الحالات برمي تاريخ ساطع من التقارير والتحقيقات والتحليلات المستقلة الممتازة من أجل ملاحقة عائد الإعلانات. ولم تكن هناك من مجموعة لوسائل الإعلام المطبوعة أكثر إجراماً بهذا الشأن من مجموعة «بينيت» و«كولمن» الناشرة لصحيفة «تايمز اوف انديا» «TimesofIndia». وتحتل اندو جاين، وهي ربة العائلة التي تمتلك هذه المجموعة المربحة للغاية، التي تدار بشكل رئيس من قبل ولديها الاثنين، تحتل حالياً مرتبة دائمة في قائمة أصحاب المليارات التي تصدرها مجلة «فوربس». وهي تمتلك صافي حقوق ملكية معلن

* 273-232 ق.م أعظم إمبراطور حكم شبه القارة الهندية. ويرمز الدولاب الذي يضم أربعة عشر قضيباً معدنياً إلى ما يُعرف بالدارما، الشريعة الأزلية الهندوسية وتعاليم بوذا ومفهوم الفضيلة والصدق.

قيمته (1.7) مليار دولار. وقد جمعت جزءاً ليس بالقليل من ثروتها الهائلة عن طريق تحويل مطبوعاتها إلى وسائل فاعلة للدعاية والإعلان.

وقد أبلغني ناريش فيرنانديز Naresh Fernandes، رئيس تحرير طبعة مجلة «تايم اوت» Time Out التي تصدر في بومباي الذي اعتاد العمل لدى صحيفة «Times of India» أن صحيفة «تايمز أوف انديا» مسؤولة بالفعل عن إعطاء صورة مصطنعة عن هذه المدينة وأنت تعلمين، أنه شيء من نوعية ما ينشر في «الصفحة رقم 3». فقد كانت هناك زيادة مستشرية على نطاق واسع في الصحف الهندية لقسم أخبار المجتمع في «الصفحة 3» إلى حد أنه من الصعب الحصول على أي معلومات عن الهند، وأقل جداً عن العالم، عبر قراءة هذه الصفحات التي تركز على الحفلات والسينما ونجوم الإعلام وشخصيات المجتمع.

ولم تكن الصحافة التي تعطيك انطباعاً مريحاً عن الهند مقتصرة على المطبوعات الهندية ففي عام 2006. أعلنت أغلفة المجلات في أنحاء العالم بكل فخر عن «نهضة الهند» و«شركة الهند المتحدة»، و«الهند الجديدة» وأصبحت الهند الجديدة، حسناً، أنباءً.

إن هذه الهند الجديدة الخاصة بطبقة استهلاكية متمكنة تمسك بلحظتها المشرقة في التاريخ عبر ثورة تكنولوجيا المعلومات هي إلى درجة ما، هندٌ اخترعتها وسائل الإعلام. إن مقدرة الهند الجديدة على إبراز صورة إيجابية عن نفسها خارج حدودها، وعلى الشاشات وداخل وعي الناس في أرجاء الأرض قد تحققت، على نحو ليس بضئيل، عن طريق التخطيط. ويتم إنجاز ذلك بأخذ جزء من القصة -قصة هندٍ أغنى وأذكى وأكثر قوة ونفوذاً تغدو أكثر شبهاً بالغرب- وتحويله إلى القصة الكاملة. والنتيجة هي صورة محسنة ظاهرياً للهند حيث يجري التستر على الحقائق الأقل جاذبية للفقر المستوطن فيها، ووباء الإيدز المتفشي، والكارثة البيئية، والبُنى التحتية الريفية المنهارة، يجري التستر عليها بشكل سهل، إن لم يكن تجاهلها تماماً.

والنقطة المهمة في الموضوع هي ليست أن الهند الجديدة غير موجودة. هي موجودة، وهي صدقاً مثيرة للاهتمام وطافحة بالإمكانيات. إلا أنه من غير المعقول أن تكون الهند القديمة ميتة وغير موجودة. فالهنود يتحدثون بحرية عما يسمونه ببلدين اسمهما الهند،

وغالباً ما يشيرون إلى الهند الجديدة باسمها الإنكليزي «India»، والهند القديمة باسمها الهندي بهارات «Bharat». والهند هي ما يتم تمجيده في وسائل الإعلام بينما يتم الدفع بالحقائق الثابتة بصورة لا تدعو للارتياح لبهارات، بعيداً عن الشاشة وخارج العناوين الرئيسة للأنباء، جاعلة من كم هائل من المشكلات الخطيرة ومن عذابات الملايين من أبناء الشعب الهندي غير مرئية فعلياً. إن صور الأميين من الهنود الذين يعيشون مستوى معيشة ليس بأفضل من ذلك الموجود في شبه الصحراء الإفريقية لا تجتذب الاستثمار الأجنبي المباشر، ولكن صور الفنيين من الشباب بهيئتهم النظيفة وذقونهم الحليقة الموجودين في فناءات جامعات تكنولوجيا المعلومات المشادة على طراز جامعات كاليفورنيا، تفعل ذلك.

وتلعب إن الطرقات السريعة الجديدة مع القليل من سيارات الصالون الأمريكية اللامعة، التي تنطلق عليها بسرعة فائقة دوراً في جعل الهند معروفة للمستثمرين والقراء في الغرب. وتُكذب هذه الصورة العصرية طرقات وشوارع المدينة المختنقة، حيث تتزاحم أعداد غفيرة من السيارات والشاحنات مع المشاة وراكبي الدراجات الهوائية والعربات الخشبية التي تجرها الثيران المخصية، والجمال، والأحصنة أو الناس.

ويتم تمييز الهند الجديدة وتسويقها بشكل بارع جداً إلى جمهور دولي عن طريق مؤسسة أنصاف العلامات التجارية الهندية. ووفقاً للنشرة الخاصة بالمؤسسة، فإن «IBEF» India Brand Equity Foundation هي عبارة عن شراكة عامة - خاصة ما بين وزارة التجارة والصناعة، وحكومة الهند، واتحاد الصناعات الهندية. والهدف الرئيس للمؤسسة هو تكوين آراء اقتصادية إيجابية عن الهند عالمياً». وتدرك الحكومة الهندية ورؤساء المؤسسات والشركات التجارية تماماً بأن الآراء لها أهميتها لاسيما في اقتصاد المعرفة، الذي يشهد اهتماماً إعلامياً مكثفاً. وتهدف «IBEF» إلى التركيز على الأمور الإيجابية عندما يتعلق الأمر بالآراء العالمية حول الهند. وقد كان أكثر النجاحات روعة التي حققتها «IBEF» حتى تاريخه بالتأكيد، وإسهامها في العرض الباهر الذي أقامته أمام الاجتماع السنوي للأعضاء فائقي الثراء والنفوذ للمنتدى الاقتصادي العالمي، الذي عقد في مدينة دافوس بسويسرا العام

الماضي. وقد صعق الحاضرون بلوحات الإعلانات وهي تعلن عن الهند: «أسرع ديمقراطية للأسواق الحرة نمواً في العالم». وعندما دخلوا إلى غرفهم في الفندق قُدمت لهم أجهزة «آي بود» من باب الضيافة، محمّلة بأغانٍ هندية معروفة مع شال من نسيج الباشمينا الصوفي، مجاناً. وكان الاستعراض المسرحي الرائع الذي تم إخراجه على نمط أسلوب بوليوود الجانب الأبرز في الفقرة الترفيهية للاجتماع، وتم باعتزاز الإعلان عن نهضة الهند إلى نخبة العالم التي كانت وفق كل الروايات مفتونة بما شاهدته.

وجاء رد فعل بهارات حاداً ومباشراً. فقد جرى بعد عدة أيام الإعلان عن إضراب نظمه عمال المطارات الرئيسة في الهند، مما أدى إلى توقف الرحلات الجوية داخل البلاد وخارجها على نحو شكّل ضغطاً كبيراً، واستضافة المسافرين في مراحيض طافحة تفوح منها الروائح الكريهة مع ساعات طويلة من الانتظار. وحسب تعبير أناند ماهيندرا في حديثه فإن الناس يهبطون في مطار بومباي للمرة الأولى في حياتهم ممسكين بنسخة من كتاب «العالم مسطح» الذي قرؤوه للإعداد لرحلتهم إلى الهند، وقبل أن يكونوا قد نزلوا من الطائرة يشاهدون الأحياء الفقيرة القذرة المكتظة بالسكان تمتد تحتهم ويفكرون «ياه، أية صفحة كانت تتضمن ذلك؟ لقد فاتتني قراءة ذاك الجزء». وأنا أقول لرجال الأعمال الزائرين: إن الأكثر أهمية من كل شيء هو أن التركيبة الذهنية وطريقة التفكير هي التي تغيرت في الهند. والباقي سوف يتلو». ويعلم أناند أنه يبالغ عندما يروي هذه الطرفة. فمن الواضح أن هناك ما هو أكثر من طريقة التفكير الذي يتغير. هناك واقع قائم خلف الدعاية المضللة. إلا أنه وغيره من كبار رؤساء الشركات التجارية الهنود يعرفون أيضاً مدى ما يجب بذله من جهد أكبر من أجل ردم الهوة ما بين واقع الهند وصورتها الجديدة.

وبعد مرور عشرات السنين من تحمل عبء الخجل من كونهم ينتمون إلى بلد فقير، أصبح العديد من أفراد النخبة الهندية ونظرائهم الهنود في دول الشتات يشعرون بالارتياح لتوفر قصة جيدة لديهم يروونها عن الهند. إنهم يشعرون بسعادة عارمة إزاء احتمال أن تصبح الهند لاعباً عالمياً غنياً وقوياً لمنافسة الولايات المتحدة والصين. وهم يضيقون ذرعاً بالفقراء.

ويشعر الكثيرون أن الوقت قد حان لكي تتعافى الهند، وهي إحدى أعظم الحضارات في العالم، من الضرر الفظيع الذي لحقها من جراء عملية استعمارها وأن تطالب باستعادة مكانتها الصحيحة بين الأمم العظيمة في العالم. والهنود هم من بين أكثر الشعوب إيماناً بقوميتهم ممن صادفتهم في حياة الأسفار التي قضيتها جاعلين حتى من الأمريكيين الذين يلوحون بالأعلام، يبدون أشخاصاً وطنيين لهم وزن ضئيل. وكلمة وطنية باللغة الهندية تقابلها كلمة deshprem، حب الوطن، ويتفاعل الهنود عاطفياً مع كل من النجاحات التي تحققها بلادهم وتجاه أية إهانة أو تحقير ملحوظ يرونه. ويشعر الهنود بفقر الهند على أنه أقصى إذلال يصيبهم، ويسلب الأمة مكانتها الصحيحة كقوة عالمية، وهو تذكير باقٍ للظلم الاستعماري الذي نهب البلاد أثناء مدة الحكم البريطاني للهند. ولدى الهنود إيمان عميق بأنهم، وبوجود مجال متساوٍ للمنافسة، يستطيعون أن يهزموا الغرب باستخدام الوسائل نفسها التي يستخدمها.

وقد كانت هذه وبشكل أساسي، رسالة فيلم «لاغآن» Lagaan المرشح لنيل جائزة الأكاديمية لعام 2002، الذي روى حكاية مجموعة من القرويين الهنود الفقراء الذين يهزمون أسيادهم البريطانيين بكل معنى الكلمة وبوسائلهم هم: لعبة الكريكيت. ويكسب رئيس الفريق الهندي، الذي يؤدي دوره الممثل آمير خان ليس اللعبة فقط، وإنما يكسب أيضاً قلب امرأة إنكليزية شابة جميلة تعلمه قواعد اللعبة بشكل سري، إلا أنه يصدها من أجل فتاة هندية جميلة من القرية.

محاولة السيطرة على الصحافة

هذا لا يعني أن الصحافة التي تجري تحقيقات ناجحة جداً غير موجودة في الهند. ففي شهر آذار من عام (2001). هزت صحيفة «تيلكا» Tehelka الأسبوعية البلاد عندما نشرت نص أشرطة تسجيل أعدها سراً اثنان من مراسليها هما انيرودها بهلال وماثيو صاموئيل، وهي تظهر عمليات قبض رشاوى في وزارة الدفاع على أعلى المستويات في الحكومة الهندية. واستقال بعدها وزير الدفاع جورج فيرنانديز نتيجة «عملية وست آند / الطرف الغربي» أو ما أصبح يعرف ببساطة على أنه أشرطة «تيلكا». ولم يكن بالإمكان

تحمل مثل هذه الوقاحة من جانب جريدة إخبارية متعالية فتعرضت للملاحقة من قبل الحكومة حتى اضطرت إلى وقف العمل فيها وخفض عدد موظفيها من 120 شخصاً إلى أربعة أشخاص فقط. وجرى استهداف اثنين من المستثمرين في الصحيفة هما شانكار شارما وديفينا ميهرا، مع أنهما كانت لهما أسهم مالية صغيرة في الصحيفة، ولم يكونا مشاركين على الإطلاق في إدارة التحرير.

غير أن تارون تيجبال رئيس التحرير المؤسس لصحيفة «تيلكا» لم يرغب بالاستسلام مطلقاً، وهو وطاقم المحررين المقلص الذي كان كافياً للعمل في الحدود الدنيا اللازمة لم يفقدوا إيمانهم أبداً بأن صحيفة «تيلكا» سوف تحيا مجدداً على الرغم من أنه، كما قال لي في حفل غداء أُقيم في مدينة دلهي منذ سنتين: «تم تجريدنا أنا وجيتان (زوجته) من كل شيء. وقد مرت بنا سنوات صعبة نوعاً ما». وجرى تجنيد مجموعة من المؤسسين المشاركين في الصحيفة لتوفير دعم مادي يجعل الصحيفة تقف على قدميها ثانية. وقام 1400 هندي تقريباً بالاكتتاب فيها سابقاً وتسجيل اشتراكاتهم. وهناك من بين هؤلاء بعض أكثر الأسماء شهرة من العاملين في وسائل الإعلام الهندية وفي حقل الأعمال الفنية الترفيهية، بمن فيهم ميرانير، شابانا عزمي، وماهيش بهات، عدا عن ذكر نجم بوليود الكبير شاهروك خان، وكذلك عدد من كبار الصناعيين الهنود، ووجوه المجتمع والمفكرين. وفي عام 2004، عادت صحيفة Tehelka للصدور مرة ثانية، وبلغ توزيع النسخة المطبوعة من الصحيفة مئة ألف عدد. وتصل النسخة الموزعة على الإنترنت إلى القراء في كل أنحاء العالم. وتستمر الصحيفة في توجيه انتقادات لاذعة، وإدارة عمليات خفية للكشف عن المجرمين بمشاركة بعض العاملين فيها حيث يندسون بينهم بدعوى أنهم من محترفي الإجرام، فتكشف عن فضائح الفساد عند كل منعطف، من رخص الطيارين التي يمكن الحصول عليها من دون قيادة طائرة من قبل إطلاقاً، إلى الأحزاب السياسية التي تدفع أموالاً لشهود في قضايا جنائية لمنعهم من الإدلاء بشهاداتهم. وقد شكل المثال الذي قدمته الصحيفة حافزاً للصحافة المطبوعة ووسائل الإعلام المسموعة، التي تركز على إجراء التحقيقات والتحريات. وكتب لي تارون قائلاً: «اليوم كل قناة أخبارية تنفذ عمليات للكشف عن المجرمين يتظاهر فيها أفراد

طاقمها بأنهم من محترفي الإجرام، وهنالك حالة مستمرة من التصميم والرغبة بالمناقشة تملأ الأجواء». إن عودة صحيفة Tehelka إلى ممارسة دورها الإعلامي هي شهادة على روح التصميم لدى الصحافيين الهنود الذين لن يقبلوا بالتزام الصمت.

أما الشخصية المثابرة الأخرى التي تعمل في المجال الإعلامي والثقافي في الهند فهي موليكا سارابهاي. وكانت موليكا قد أرسلت طواقم التلفاز إلى الشوارع في عام 2002، من أجل تصوير وقائع المجزرة التي ارتكبت في مسقط رأسها في بلدة أحمد أباد بولاية غوجارات ضد مسلمي الولاية، وبموافقة من الحكومة المحلية. وقد شاركت لاحقاً في تقديم شكوى قضائية باسم المصلحة العامة ضد ناريندرا مودي، رئيس وزراء ولاية غوجارات أو ما يعرف بالوزير الأول. وواجهت بعد هذا مضايقات متواصلة شملت توجيه اتهامات إليها بأنها كانت تستخدم أكاديمية الرقص التابعة لها واسمها «داربانا»، من أجل التستر على عصابة تهريب أشخاص إلى داخل الولايات المتحدة بطريقة غير مشروعة. وكان على موليكا وهي ممثلة لها شهرة دولية، وراقصة، ومصممة رقصات، وشخصية إعلامية كافحت على مدى طويل من أجل حقوق الإنسان بما فيها حقوق المرأة، كان عليها أن تحمل قضيتها إلى محكمة العدل العليا في الهند قبل أن تقوم شرطة ولاية غوجارات بإسقاط التهم السخيفة الموجهة ضدها.

وقد تلقت في العام الماضي ضوءاً أخضر من هيئة التخطيط الهندية من أجل تنفيذ مسلسل تلفازي طموح يستلزم الكثير من الجهد والعمل، ومخصص لطرح موضوعات اجتماعية وتنموية حساسة على جمهور واسع عبر الأسلوب الجذاب للمسلسلات الاجتماعية. وبعد تلقيها مذكرة تفاهم تجعل الدعم رسمياً، بدأت سارابهاي عملية الإنتاج ولكن التمويل المالي المخصص للمسلسل لم يتحقق أبداً. ونشرت صحيفة «بايونير» The Pioneer مقالة مثيرة للغضب تتهم الحكومة بإعطاء سارابهاي أموالاً من أجل توجيه «ضربة عنيفة إلى ولاية غوجارات». وقالت لي ببساطة عندما اتصلت بها هاتفياً لأستفسر عما يحدث أنه تم إبلاغها ببساطة أخيراً، «إن رئيس وزرائك لم يكن مسروراً».

في عام (2006)، جاء ترتيب الهند في المرتبة «105» في القائمة التي تصدرها منظمة «مراسلون بلا حدود» (حلت الولايات المتحدة في المرتبة الثالثة والخمسين). وكان ينظر إلى

صحافتها على أنها «حرة جزئياً» من وجهة نظر منظمة Freedom House «فريدوم هاوس» «البيت الحر»، وبينما تتمتع الهند بصحافة ديناميكية نشطة وحتى فوضوية لا سيّما بالمقارنة مع الصحافة في أية دولة أخرى تقع في محيطها تقريباً، وبالتأكيد بالمقارنة مع الصين - فإن نقاد الحكومة الوطنية وحكومات الولايات والحكومات المحلية قد يتعرضون لمضايقات شديدة إذا ما تسببت تقاريرهم في التأثير في الوضع القائم، وكشفت الفساد المستشري أو أبرزت ما يعد الصورة المغلوطة.

ويشهد توزيع المطبوعات في الهند ازدهاراً كبيراً. وتزداد المقدرة على معرفة القراءة والكتابة، ويتم إدخال صحف ومجلات جديدة بسرعة مذهلة، سواء النسخ الهندية من مطبوعات أمريكية وأوروبية معروفة وأخرى هندية جديدة أيضاً. فهناك نسخ هندية من مجلات «ال» Elle، و«كوزموبوليتان» Cosmopolitan وحتى مجلة ذات لهجة أخف حدة من مجلة Maxim. وقد انضمت هذه المجلات إلى مجلات هندية لها شأنها مثل «اوت لوك» OutlooK، «فيمينا» Femina ومجلة «سيمينار» Seminar، التي تركز على ما يصدر من مطبوعات، والمجلة النصف شهرية ڤير «Verre» الخاصة بالهند المهتمة بمتابعة المقتنيات باهظة الثمن الملفتة للانتباه، والمطبوعة على ورق صقيل، التي تصدرها سيدة المجتمع المعروفة في مدينة بومباي آنورادها ماهيندرا.

ويجتذب رواج وسائل الإعلام المطبوعة في الهند الصحافيين اللامعين للعودة إلى الوطن من الخارج. فقد ترك راجو ناريستي رئيس التحرير السابق لصحيفة وول ستريت جورنال- أوروبة WallStreetJournalEurope ترك عمله العام الماضي ليعود إلى الهند من أجل إطلاق طبعة هندية من الصحيفة مع مجموعة «هندوستان تايمز» Hindustan Times. وستكون هذه أول طبعة أجنبية تصدر في الدول المشاركة في إصدار الصحيفة. وانتقل فيرنانديز الذي يصدر مجلة «تايم آوت» مجلة عائداً إلى الهند في عام (2001) بعد خمس سنوات من العمل مع صحيفة وول ستريت جورنال في نيويورك. وبدأ غوتام أدهيكاري بإصدار صحيفة جديدة في عام (2005)، تسمى «ديلي نيوز آند اناليسيس» DailyNews&Analysis، والمعروفة باختزال الأحرف الأولى من كلماتها، وهي DNA «دي. ان.آي».

منذ أقل من عقدين كانت الهند بلاداً أدارت فيها الدولة التغيير من الأعلى في محيط محمي من رأس المال العالمي. وعدا عن صحافة مطبوعة حرة نوعاً ما، كان الوسط الإعلامي تحت السيطرة. وكانت لدى الناس فرص محدودة ليكونوا شهوداً على العالم خارج محيطهم المباشر. وكانت لديهم حتى فرصة أقل للمشاركة في ذلك العالم. وكانت الروح الجماعية السائدة هي روح البساطة والزهد، أما في الوقت الحاضر فإن الهند تتحول بسرعة إلى دولة يسيطر عليها مواطنون مستهلكون يرون في العولمة وعملياتهم الاستهلاكية، المحركات المزدوجة التي ستدفع البلاد إلى تحقيق قدرها بصفتها قوة عالمية. والهنود سواء في الهند وفي بلاد الشتات متحمسون للخوض في مجال الشركات الإعلامية والأعمال الفنية الترفيهية. أما طموحهم فلا حدود له، وأما رؤيتهم فهي رؤية شاملة.

وبينما تقوم الهند، العملاق الحضاري الناهض، باكتساب قوة اقتصادية وسياسية، فإن نفوذها الثقافي سوف يزداد أيضاً. يوماً ما عما قريب، وعندما توجد كتلة مهمة من الموهبة، والمال، والسوق في قارة آسية، سيتم الوصول إلى مرحلة انقلابية وستنتقل الهند من الانضمام إلى اللعبة، أو حتى الفوز في اللعبة إلى اختراع قواعد جديدة لألعاب جديدة. وعندها سوف تصبح الأمور مثيرة للاهتمام.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

نظام البيع بالتجزئة في الهند

قمت في العام الماضي وأثناء رحلاتي المتكررة إلى غورغاون، مدينة الأقمار الصناعية في نيودلهي، التي تعج بالحركة وتعد إحدى المحاور الحيوية للهند الجديدة، قمت بإحصاء ليس أقل من ستة مراكز تسوق تجارية في المدينة. وهناك عمليات بناء تجري في كل مكان هذه الأيام: شقق سكنية، أبراج مكاتب، وطرقات، وهناك بين المباني الجديدة قيد الإنشاء، الأكواخ الصغيرة لعمال البناء وأسرهم. وتتشارك الكلاب الضالة والأبقار الهائمة على وجهها الطرقات والشوارع مع السيارات الحديثة. وتطلق اللوحات الإعلانية عروضاً من شركات الهاتف الخليوي، والبنوك، ومخاون الألبسة عند كل منعطف. وتهدر الشاحنات على طول الطرق الرئيسة من دلهي إلى جايبور. وتمر السيارات الصغيرة من طراز «ماروتي» Maruti وسيارات الصالون من طراز Indica Tata «تاتا انديكا»، بسرعة كبيرة وهي تنزلق داخل حركة السير، ثم تندفع خارجها مطلقة أبواقها. وتمتلك العديد من الشركات الهندية والأجنبية على السواء مكاتب لها هنا - تاتا كونسلتينغ Tata Consulting، نسلتة Nestlé، سيتي بانك CitiBank، ورانباكسي Ranbaxy، على سبيل الذكر - وتنعكس على جوانبها الزجاجية اللامعة الأشجار المُغبرة وقطع الأراضي الصغيرة من حولها. وتوجد مراكز الاتصالات بكثرة هنا وكذلك المقاهي، ومطاعم الوجبات السريعة والمجمعات التجارية التي تلبي حاجات ورغبات موظفيها الشباب.

لم يكن قد مضى على بناء أي من المجمعات التجارية أو مراكز التسوق التي رأيتها في غورغاون أكثر من بضع سنوات. وكانت هناك خمسة أخرى قيد الإنشاء. وجميعها تحوي خليطاً من العلامات التجارية العالمية والهندية. وبعضها مختصة ببيع سلع معينة: فسوق الذهب يضم متاجر لبيع المجوهرات. ويختص ام.جي. اف بلازا MGF Plaza بالأجهزة

الإلكترونية فيعرض سلعاً تحمل علامات تجارية مثل، سوني، باناسونيك وفيليبس، إل. جي. سامسونغ، والعلامة التجارية الخاصة بالهند وهي Videocon فيديوكون. أما مراكز التسوق المخصصة لمستلزمات الأعراس فهي رائجة بشكل هائل في الهند. وهناك واحد على طريق «سونا» خلف ملعب الغولف التابع لشركة DLF للاستثمارات العقارية.

ويحتوي مجمع ميتروبوليتان التجاري Metropolitan المرتبط بالمخزن الشعبي الهندي الكبير المتعدد الأقسام «شوبرز ستوب» Stop Shopper's على مجموعة مختلفة من المحالّ التجارية بما فيها سامسونايت، اديداس، سواتش، روليكس، وماركس آند سبنسر. وهناك أيضاً محل ريموند Raymond الهندي القديم المختص بالملابس الرجالية والآخذ في التوسع، ومحل ويلز «لايف ستايل» Wills Lifestyle. ويرفع Wills شعار «تمتع بالتغيير»، وهو مرتبط بالعلامة التجارية الخاصة بسجائر ويلز، التي تنتجها شركة تبغ الهند ITC، ويهدف Wills إلى إرضاء أذواق الشباب الهنود في المدن. ويعلن موقع العلامة التجارية على الإنترنت أن «Wills Lifestyle» هو سلسلة من مخازن السلع الراقية المميزة التي تتيح خوض تجربة تسوق دولية حقيقية عبر توفير جو فريد متميز وعلى مستوى عالمي.

وهناك عبر الشارع من مكان المجمع التجاري المسمى ميتروبوليتان، عند مركز «دي. تي سيتي سنتر» دار كبرى للسينما متعددة الاستعمالات وسبع شاشات عرض تشكل دعامة لمجموعة من المخازن والمطاعم. وتعد دار السينما التي تضم عدداً من الصالات شيئاً جديداً آخر نسبياً في الهند، حيث استمرت دور السينما ذات الشاشة الواحدة والمبنية وفق الطابع الفني القديم الذي شاع في الثلاثينيات، استمرت في العمل مدة أطول من مثيلاتها من دور السينما الأمريكية والأوروبية لمدة عقدين من الزمن على الأقل. وكانت هناك في العام الماضي وفي مدخل صالة السينما ملصقات تعلن عن فيلم «هاري بوتر» و«القدح النارية» وبذلك كان بإمكاني أن أكون داخل دار كبرى للسينما في مجمع تجاري مشابه للمجمعات التي ترتادها الطبقة الثرية في الولايات المتحدة.

كنت أنا وعمتي وعمي موجودين هناك لمشاهدة «تاج محل» وهو فيلم تاريخي تجري أحداثه في القرن السابع عشر أثناء حكم إمبراطور المغول شاه جاهان، الذي أمر ببناء النصب الشهير ليكون بمنزلة ضريح لزوجته المحبوبة ممتاز. وأغدق فيلم «تاج محل» الذي

تم الترويج له باعتباره الفيلم الذي كانت تكاليف إنتاجه الأعلى في تاريخ بوليوود، أموال ميزانيته التي يقال إنها بلغت (18) مليون دولار على الأزياء المتقنة للممثلين وعلى المناظر التصويرية. وكان الحوار المتكلف للفيلم الذي دار باللغة الأوردية المليئة بالمصطلحات الفارسية من أجل استحضار الحقبة المغولية، غير مفهوم بالنسبة لعمتي وعمي الهنديين اللذين يعيشان في غورغاون ويتكلمان الهندية، كما كان بالنسبة لي. وعندما انتهى عرض الفيلم كانت صدمة لنا أن نخرج من أجواء الهند في أيام المغول لندخل الأجواء الساكنة المبردة التي تخيم على المجمع التجاري بأرضياته الرخامية الملمعة والسلم المتحرك الصاعد بشكل دائم، وإحدى أكثر الحمامات العامة نظافة التي ما رأيتها في أي مكان في العالم.

بعد ذلك ذهبنا لنتمشى. كانت هناك متاجر مختصة ببيع مواد وسلع للديكور الداخلي، ومتاجر لبيع لباس «الساري» الهندي و«السالوار كاميز»، وعدة محال تجارية لبيع الأحذية. وكان هناك عند نهاية طرف واحد من الفسحة المركزية المفتوحة للمجمع التجاري، مقهى من سلسلة مقاهي باريستا Barista يقدم مجموعة من الشطائر والكعك المحلى إلى جانب مشروب الكابوتشينو، والاسبريسو وغيرها من مشروبات القهوة الساخنة والمثلجة. وكان هناك مطعم صيني، ومحل بسيط يقدم طعام التندور Tandoori المشوي في فرن من الآجر، ومطعم من سلسلة مطاعم روبي تيوزداي Ruby Tuesday متوفرين لتقديم وجبات لمن لديهم شهية قوية للطعام. ويقدم مجمع «دي.تي.سيتي سنتر» أيضاً سوبر ماركت حديثة تدعى «كروسروذز» حافلة بأطعمة معلبة ومصنعة من الهند ومن دول أخرى من أنحاء العالم.

وكان هناك داخل المجمع التجاري كل أنواع المتسوقين وهم يتنقلون أزواجاً وضمن مجموعات صغيرة - عائلات تتبعها أطفالها، ومجموعات من الشباب في أواخر سن المراهقة أو بداية العشرينيات، وأزواج من أعمار مختلفة. وكان جميع من تجاوزوا العشرين من الحشد ذكوراً وإناثاً يرتدون سراويلات الجينز وبلوزات أو الجينز مع قمصان «الكورتيس» Kurtis الرداء الفضفاض القصير الهندي الشائع بين النساء، وكان العديد من الأمهات والنساء في منتصف العمر يرتدين زي «السالوار كاميز» التقليدي وكانت هناك القليل من النساء يرتدين لباس الساري ولم يرتد أي من الرجال الملابس الهندية التقليدية، ولم ألحظ أُناساً يحملون الكثير من أكياس المشتريات. وعندما سألت عمتي عن هذا الأمر

قالت لي «ليس بمقدور الكثيرين أن يتحملوا تكاليف شراء البضائع التي تباع هنا. والناس يأتون للفرجة، ورؤية ما يعجبهم ثم يذهبون إلى سوق «كارول باغ» و«لاجبات ناغار» حيث الأسعار أفضل.

وهذان السوقان هما عبارة عن قطع مستطيلة الشكل من المخازن التجارية تنتظم على طول الشوارع المزدحمة قرب الأحياء السكنية لمنطقة جنوب مدينة دلهي. وهما تشبهان كثيراً البازار الهندي التقليدي بوجود باعة متجولين مختلفين يبيعون بضائعهم بمحاذاة الطرق العامة، وكلها تعج بالألوان والضجيج والمساومات الحادة. وهذا هو المكان الذي كنا نتسوق فيه عندما كنت أعيش في الهند في طفولتي.

وعلى الرغم من حالة السعار القائمة مؤخراً لإنشاء المجمعات التجارية، فإن معظم الهنود مازالوا يتسوقون من البازارات التقليدية، والدكاكين الصغيرة المستطيلة القائمة على طول طرقات السيارات أو داخل الأزقة الملتوية لإحياء المدينة القديمة. ويعرف أصحاب الدكاكين زبائنهم بالاسم، ويعرضون عليهم دائماً تخفيضات في الأسعار، وغالباً ما يقدمون البضائع بالدين. وتشمل الإجراءات الاحتفالية للتسوق من أجل شراء ثوب سارٍ جديد في متجر تقليدي، تشمل أولاً أن ينزع المرء حذاءه عند العتبة، ثم يجد له مكاناً مريحاً على الأرض المغطاة بشراشف قطنية بيضاء ناصعة ونظيفة ممدودة فوق فرشات رقيقة. ويتم تقديم فنجان من الشاي أو شراب بارد. ويكون مساعدو صاحب المتجر قد بدؤوا قبل ذلك ببسط أذرع من قماش الحرير المطوي، بعضه محبوك بشكل متشابك والبعض الآخر مطرز بشكل دقيق، واحد من كانجيفارام وآخر من باتان. وقد أمضى النساجون المهرة أَشهر لإنتاج قطعة واحدة من القماش المتلألئ الذي يتم قبوله أو الموافقة عليه بإيماءة من الرأس، أو بتلويحة باليد.

وتولد المجمعات التجارية الكثير من المنافسة أمام الأسواق التقليدية في الهند. وتعلن لوحة إعلانات كبيرة عند موقع مجمع تجاري آخر أيضاً في طور التنفيذ عن الآتي «قريباً: أكبر مجمع تجاري في الهند، كيلو متر واحد من التسوق». وقد تساءلت ما إذا كانت كلمة كيلو متر تعني: كيلو متراً مربعاً واحداً أو كيلو متراً طولياً واحداً؛ وفي كل الأحوال، فقد كان البناء سيكون ضخماً. وتتباهى لوحة إعلانات قرب مجمع تجاري في مدينة بومباي قائلة:

«آلهة كل المبيعات! كما تتبجح لوحة كبيرة في واجهة عرض البضائع الخاصة بأحد متاجر سلسلة «شوبرز ستوب» في مدينة كالكوتا بعبارة تقول: «رابطة هنود العالم».

بدأ العمل المنظم للبيع بالتجزئة في الهند خطواته الأولى للتو. وتشكل مراكز التسوق التجارية والمخازن الكبرى (80) بالمئة من تجارة البيع بالتجزئة في الولايات المتحدة و(20) بالمئة في الصين، و(3) بالمئة فقط في الهند. والهند هي بالفعل أمة من أصحاب المتاجر. وتعمل نحو 12 مليون بقالية (كيراناس) Kiranas، ودكاكين شعبية صغيرة وأكشاك صغيرة الحجم، والبسطات التي تقام على جانبي الطرقات، تعمل على تزويد أكثر من مليار من أبناء الشعب الهندي، بحاجاتهم من التسوق باتباع نظام البيع بالتجزئة. ويمكن العثور على «الكيرانا» في كل مكان. فهي في المدن قد تكون دكاكين ضيقة، جدراناً تصطف عليها رفوف تصل إلى أعلى السقف، ويقف صاحب الدكان خلف طاولة عرض زجاجية، يجيب عن الأسئلة من أجل تلبية الطلبات من علب البسكويت أو الـ Bidis، وهي سجائر صغيرة جداً ملفوفة باليد، ومسحوق للأسنان، أو جبنة معلبة من ماركة «آمول» Amul. وقد تكون الكيرانا في القرى أكثر قليلاً من كوخ على جانب الطريق مع بعض الحاجيات الأساسية. غير أن هذا الوضع على وشك أن يتغير. فمن المتوقع، وأثناء العامين القادمين أن تخفف الحكومة الهندية من القوانين التي تحظر عمل سلسلة متاجر البيع بالتجزئة ذات العلامات التجارية المتعددة، مثل «وول مارت» وسلسلة المتاجر الفرنسية الضخمة «كارفور»، في الهند. وتتدافع الشركات الهندية من أجل تأسيس وجود قوي لها في تجارة البيع بالتجزئة والاستحواذ على حصة في السوق قبل حدوث ذلك.

وتعد شركة «بانتالون» المحدودة للبيع بالتجزئة التي يملكها كيشور بياني KishoreBiyani's Pantaloon Retail Ltd أكبر شركة بيع بالتجزئة في الهند. وتمتلك شركته ثلاث سلاسل متاجر رئيسة للبيع بالتجزئة: مخزن متعدد الأقسام لبيع الألبسة يدعى Pantaloons، وسلسلة متاجر تضم خليطاً من السلع وتبيع بالمفرق مع تقديم حسومات تدعى «البازار الكبير» Big Bazaar وسلسلة متاجر بقالية اسمها Food Bazaar أو «سوق الأغذية». وقامت شركة ترنت المحدودة Trent Ltd. وهي فرع من شركة Tata بمتابعة الافتتاح الناجح لسلسلة متاجرها متعددة الأقسام المسماة «وست سايد» «Westside» قبل سنوات قليلة مع سلسلة متاجر بيع

بالتجزئة تعرض اقتطاعات تدعى «ترنتس ستار انديا بازار» Bazaar Trent's Slar India. وكانت مجموعة كي. راهيجا K.Raheja العقارية العملاقة قد افتتحت مخزنها الشعبي متعدد الأقسام «شوبرز ستوب» في وقت سابق من عام 1991. ودخلت شركة غودريج أغروفيت المحدودة Ltd Godrej Agrovet وهي فرع من مجموعة غودريج، المشاركة منذ وقت طويل في القطاع الزراعي، دخلت في تجارة البقالة مع المؤسسة التجارية «نيتشرز باسكت» Nature's Basket، وهي سوبر ماركت يلبي حاجات الطبقة الغنية. وهناك في متجرها الذي يعرض سلسلة منتجاتها في شارع واردن بمدينة بومباي، زاوية لتقديم أنواع العصير كافة واستشاري في التغذية. ويعرض المتجر إيصال الطلبات إلى المنازل في الأحياء الفخمة القريبة من منطقة مالابار هيل Malabar Hill و(سي رود نيبيان) Nepean Sea Road. وسواء كانت ترضي رغبات أكثر الناس ثراء في الهند أو الطبقة الوسطى الكادحة، فإن سلسلة المتاجر هذه قد حققت نجاحاً هائلاً. وتفسح الألوان الفوضوية لبازارات الهند التقليدية، والمنتجات المحلية الفريدة التي تتميز بها كل بلدة، وكل حي، وحتى كل بائع، والتنافر الحاصل في صيحات التجار وترويجهم الملح لبضائعهم للتنافس على لفت انتباه الزبائن، تفسح المجال أمام التناسق، وإمكانية التنبؤ، وبث الألحان الموسيقية الهادئة في كل أماكن العمل وفي كل الأوقات. وقد تحقق الشركات الإنتاجية الهندية على الأرجح أرباحاً في الأسعار وفي ثبات المستهلكين الهنود على مبدأ الشراء، إلا أن الهند ستكون قد خسرت بذلك أيضاً جزءاً من سحرها.

ثورة البيع بالتجزئة

تعد الهند وفقاً لبحث استهلاكي أجرته مؤسسة AC Nielsen عام 2006، أكثر دولة متفائلة مالياً في العالم. ويعتقد (66) بالمئة من الهنود أن الوقت الحالي هو الوقت المناسب لشراء ما يريدونه أو يشعرون أنهم بحاجة إليه. وهي نسبة أعلى من نسب أي من الدول الحادية والأربعين التي شملها البحث[1]. وتشكل الطفرة التي تشهدها الهند في مجال إنشاء المجمعات التجارية استجابة مباشرة لهذا التفاؤل. ويتوقع أن يتم بناء (343) مجمعاً تجارياً في الهند بحلول عام 2007[2]. وبالإضافة إلى المطاعم ودور السينما الكبرى المتعددة الصالات، توفر المراكز التجارية للأطفال مساحات للعب، وأماكن مغلقة لألعاب الفيديو وحتى المجازات الطويلة الضيقة ذات الأرضية الخشبية الخاصة بممارسة لعبة البولينغ. وهناك أيضاً ملاهي

الديسكو أو المراقص الصاخبة. وحسب تعليق آرون بوري رئيس تحرير صحيفة «India Today» «انديا توداي» «أنت لا تشتري منتجاً في مجمع تجاري، أنت تشتري خبرة»(3)

وتعد المجمعات التجارية وسيلة للأغنياء من الهنود وأفراد الطبقة الوسطى من ذوي الطموح لتجربة بيئة مترفة، خالية من إزعاجات الشارع الهندي المعهود. وتتيح مراكز التسوق التجارية الفاخرة مساحة محمية بعيداً عن الفقراء، والأبقار الهائمة، والكلاب المنبوذة، والأكوام الصغيرة من القمامة والأكياس البلاستيكية المتراكمة التي يجدها المرء في الشارع خارج المجمع تماماً؛ لأنه طالما أنك داخل المجمع التجاري، فإن بإمكانك أن تستمتع بمقدار صغير من المتعة التي تحظى بها دول العالم الأول في جو مكيف، وفي بلد لا يستطيع معظم الناس فيه حتى أن يتحملوا كلفة شراء شريحة من عجينة البيتزا من أحد مطاعم الوجبات السريعة. وتظهر عبارات «عالمي» و«مصنف عالمياً» في الإعلانات الخاصة بكل من المنتجات التي تباع في المجمعات التجارية وتلك الخاصة بالمجمعات ذاتها. وكل ما يحتاج الهنود إلى أن يفعلوه هو التسوق في مجمع تجاري محاط بهذه العلامات التجارية لكي يشعروا وكأنهم جزء من العالم النامي الغني - وهم كذلك، في تلك اللحظة.

إن الفكرة القائلة بأن شراء النفوذ هو الوسيلة للتواصل مع العالم القائم ما وراء الهند، هو شيء يستخدمه المعلنون من أجل استغلال التصورات والمفاهيم التي يحملها الهنود عن العولمة. وتقول صفحة كاملة منشورة في مجلة «انسايد آوتسايد» المختصة بديكور المنازل للإعلان عن ألواح الجدران التزيينية التي تحمل العلامة التجارية «غلوديكور» Glodecor المصنوعة في أمريكة، تقول للزبائن الهنود المحتملين: «أحضر التصميمات الداخلية الأمريكية إلى الهند (لا حاجة إلى تأشيرة دخول)(4) وقد سنحت لي فرصة كبيرة بينما كنت أنتظر عدة ساعات في مطار كالكوتا وصول رحلة طيران متأخرة، لكي أدرس ملصقاً إعلامياً دواراً مُضاءً من الخلف يتوزع على ثلاثة جوانب يخص شركة هندية كبيرة اسمها كومبتون غريفز Compton Greaves. وكانت الرسائل الثلاث تقول: «اشتر منتج شركة «كومبتون غريفز»، إحصل على تكنولوجيا عالمية دون تكلفة إضافية!. «بينما تغرق العلامات التجارية الدولية السوق، هناك علامة تجارية هندية واحدة تحرك السوق الهندية»، معظم الشركات الهندية تنافس بعضها فقط. وتنافس شركة كومبتون غريفز أفضل الشركات في العالم».

ويؤكد كبير الاقتصاديين في مؤسسة Morgan Stanley، مورغان ستانلي، ستيفن روتش، أن المستهلك الهندي ربما يكون على وشك أن يجعل المستهلك الأمريكي -الذي كان لزمن طويل ملكاً على مملكة الاستهلاك العالمية- يبذل كل مهارته وجهده من أجل أن يتفوق عليه. وهو يلاحظ أن الاستهلاك الخاص في الهند يشكل نسبة مذهلة تصل إلى (64) بالمئة من الناتج المحلي العام، وأقل بشكل طفيف فقط من الدولة الأعلى في الإنفاق، أي الولايات المتحدة، عند نسبة تبلغ (70) بالمئة وأعلى من اليابان (57 بالمئة)، أوروبة (54 بالمئة) أو الصين (38) بالمئة[5]. وهو يحذر بأن المحرك الاقتصادي العالمي للاستهلاك الأمريكي سوف يضعف عندما تنفجر الفقاعة الإسكانية. ومع قيام أنظمة اقتصادية ناشئة تعتمد على الصادرات، يحتاج العالم إلى مستهلك جديد» كما يقول روتش[6]. ويبدو الهنود أكثر من سعداء لسد الفراغ.

وإذا ما قرنت ولع الهنود بالإنفاق مع السكان الشباب لشعب البلاد -300 مليون شخص ما بين أعمار الإنفاق المرتفع، البالغة الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين- فإنك تحظى بمقومات أكبر سوق استهلاكية رآها العالم على الإطلاق. ويقسم المجلس الوطني للبحوث الاقتصادية التطبيقية ومقره نيودلهي، الطبقة الوسطى التي تزداد نمواً في الهند كالآتي: 90 مليون شخص يكسبون ما بين 4,400 دولار و21,800 دولار سنوياً، زائد 287 مليوناً يتراوح دخلهم الأسري ما بين 2,000 دولار و4,000 دولار سنوياً وهم ممن يطمحون للانضمام إلى الطبقة الوسطى.[7] وبحلول العام (2010)، سيرتفع عدد هذه المجموعة من المستهلكين الهنود بشكل كبير ليبلغ (561) مليون شخص. أضف إلى ذلك ما يقدر بـ 37.2 مليون أسرة حضرية من الطبقة الوسطى الأكثر غنى فتكون لديك سوق من المستهلكين يساوي عددهم تقريباً مجموع عدد سكان الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

لا بد أن أعداد المستهلكين الهنود تثير الدهشة للغاية، لكنهم يمثلون أقلية بالنسبة لإجمالي عدد سكان الهند. فهناك ثمانمئة مليون هندي لا يمتلكون القوة الشرائية للمشاركة في التقدم المفاجئ والسريع الذي تحققه تجارة البيع بالتجزئة في البلاد. إن الهوة ما بين أولئك الذين يستطيعون الشراء والذين لا يستطيعون آخذة في الاتساع. وفي حين تكبر هذه الهوة تكبر معها مخاطر حدوث احتكاك اجتماعي خطير وعلى نحو متسارع جداً.

ويقود نمو الطبقة المستهلكين في الهند، وإلى درجة كبيرة، شعب الهند الفتي. فالشباب الهندي الغني من أبناء المدن يبلغون سن النضج في عالم جديد تعد مراكز التسوق التجارية القائمة فيه الأمكنة المفضلة لديهم لارتيادها؛ وهي تلقى شعبية بين الشباب في البلاد. أما تجربة التسوق التي يراها أَهلوهم ثورية جداً فهي تعد بالنسبة لهم مجرد الطريقة التي تكون عليها الأمور. وسوف يستمر قطاع البيع بالتجزئة في الهند في النمو في حين تتحول الأجيال اللاحقة إلى مستهلكين - على افتراض أنهم يجدون وظائف كافية. فالعديد من ملايين الشباب الهندي ليست لديهم وظائف جيدة أو آباء أغنياء. وهم لا يستطيعون تحمل دفع تكاليف السلع التي تتراقص أمام أعينهم في التلفاز بصورة تثير غيظهم. إن إحدى أكبر التحديات التي تواجه الهند هي إيجاد فرص العمل من أجل شعبه الفتي الناشئ، مما سيتيح للمزيد منهم المشاركة في ثورة البيع بالتجزئة التي تشهدها البلاد.

وفي حين يقوم الشباب الغني المُترف بشراء الملابس، والكماليات، ومنتجات التسلية الشخصية، فإن الكثير من الإنفاق الجديد في الهند يتركز على السلع المنزلية. وتزداد مبيعات أفران المايكروويف، وأجهزة تكييف الهواء، والغسالات، وآلات تشغيل أقراص DVD/VCD وأجهزة التلفاز الملونة، والبرادات، تزداد بشكل مثير للإعجاب[8]. وتهدف شركة «ال.ج» LG الكورية العملاقة للأجهزة المنزلية الإلكترونية التي تصنع العديد من هذه المنتجات، إلى ارتفاع إيراداتها خمسة أضعاف من الآن وحتى عام 2010، حيث تتوقع أن تحقق عائداً بقيمة (10) ملايين دولار من السوق الهندية[9]. ويعيش معظم الهنود ضمن «عائلات مشتركة» تقليدية، حيث يحضر الأخوة زوجاتهم إلى المنزل ليعيشوا في ظل والديهم، وبينما تعمل كل عائلة على وضع ترتيباتها الخاصة بتنظيم الدخل المشترك مقابل الدخل الخاص، فإن كل فرد من أفراد العائلة الهندية يكسب دخلاً يسهم به في الإنفاق على مستلزمات الأسرة بشكل عام. ومع تزايد عدد الأشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد، تتجمع المداخيل في صندوق مشترك وتنخفض النفقات وتكبر القوة الشرائية. أما الأجهزة المنزلية فهي أشياء مكتسبة يمكن للأسرة بأكملها أن تتمتع بها. وفي العديد من بيوت الطبقة الوسطى الهندية تتموضع الثلاجة بفخر لتعرض في غرفة الجلوس، التي تستعمل أيضاً كغرفة طعام سواء كانت هناك مساحة لغرفة طعام في المطبخ أم لا. ويعد تجميع الأجهزة المنزلية والأجهزة الإلكترونية مؤشراً ملموساً على تحسن الوضع الاقتصادي للأسر.

وتنعكس إحدى أكثر الأوجه إثارة للقلق في الروح الاستهلاكية الجديدة، في الزيادة الحادة في المنتجات الاستهلاكية باعتبارها تشكل جزءاً من مهر العروس. وكانت العروس تأتي حسب التقاليد مع مجموعة من المجوهرات، والثياب، وبعض الأشياء والأغراض المنزلية وبعض النقود. ويعد المهر أمراً مخالفاً للقانون في الهند إلا أن ذلك لم يؤدِ إلى زوال هذه العادة. ويطلب أهل العريس هذه الأيام أجهزة تلفازية وغسالات، دراجات نارية، وحتى سيارات. وهناك الكثير من الروايات المأساوية لا سيما في شمال الهند حيث تنتشر عادة المهور على نطاق أوسع، عن عرائس تم إرهاقهن إلى درجة إقدامهن على الانتحار أو حتى قتلهن على أيدي انسبائهن -المعروفات بوفيات المهور- لأن أهالي الفتاة المسكينة لم يتمكنوا من تسليم اللائحة الكاملة بالسلع المطلوبة من عائلة زوجها الجديدة.

ونحن في الولايات المتحدة ننظر إلى الأجهزة المنزلية باعتبارها تخفف عن ربات البيوت من عبء ترتيب المنزل. وهذه ليست هي الحال في الهند بالضرورة، ويعني الانقسام الكبير ما بين الأغنياء والفقراء ووجود الأعداد الكبيرة من الناس الفقراء جداً، أن المساعدة المنزلية متوافرة بسهولة حتى داخل أسر الطبقة الوسطى الأفقر. وحتى الأسر المتواضعة تتباهى بالاستعانة بالخدم من أجل القيام بأعمال الغسيل. وغالباً ما يكون عمل النساء في البيوت التي بمقدورها تحمل تكاليف السلع الاستهلاكية الحديثة، مقتصراً على إعداد الطعام. وبإمكان هذا أن يشكل وبسهولة وظيفة بدوام كامل، حيث إن معظم الطعام الهندي يتم تحضيره طازجاً كل يوم، لذا فإن أدوات المطبخ تعد شائعة جداً. ولطالما كانت الخلاطات وآلات تجهيز الطعام الكهربائية ومنذ زمن بعيد من اللوازم الثابتة في مطابخ الطبقة الوسطى الهندية.

وتشكل أفران المايكروويف نعمة حقيقية، حيث يكون بالإمكان الانتهاء من إعداد الطعام في الصباح، وتسخين الأطباق عندما يتم تقديم الوجبة في وقت لاحق من اليوم. وفي هذه الحالة توفر ربة المنزل أو حتى الزوجة العاملة على نفسها الوقت والجهد بالفعل. وفي بيوت أسرتي أنا وبيوت أصدقائي يعد هذا أمراً ملائماً بالنسبة للخدم، الذين يقومون ببساطة بتسخين وجبة الطعام وتقديمها لأفراد الأسرة بعد تحضيرها في وقت سابق من قبل النساء

في المنزل، أو من قبل طباخة تعمل لدى الأسرة. ومن المعهود أن يتناول الخدم طعامهم بعدما تكون الأسرة قد فرغت من الأكل. ويجري هذا عادة على أرض المطبخ، فيتجمع خدم المنزل حول أطباق الطعام المسكوب ويأكلون معاً. وكنت قد اقتحمت المطبخ أثناء ما هو متعارف عليه على أنه استراحة خاصة بالخدم، وفاجأ ذلك مزاحاً ودوداً منعشاً كان يدور بينهم أثناء الوقت المخصص لوجبة الغداء قبل أن استأذن بالمغادرة بسرعة. ثم وبينما تقوم نساء المنزل بأخذ قيلولة بعد الظهر - وهي طريقة مفيدة لتمرير أعلى أجزاء النهار حرارة، وطريقة ضرورية حينما يكون الناس قد استيقظوا مبكراً للاستفادة من برودة الصباح، وتأخروا في النوم من أجل الاستمتاع بساعات المساء - يقوم الخدم بغسل جميع الأطباق وتنظيف المطبخ.

لقد جعلت الأجهزة المنزلية مثل آلات غسل الثياب الكهربائية الناس عاطلين عن العمل. فغسل الثياب هو مهنة ذات اختصاص في الهند. ويشتهر محترفو غسل الثياب الذين يطلق عليهم اسم دوبيس «dhobis» ومفردها «دوبي» بمقدرتهم على جمع الغسيل من منازل مختلفة عديدة وعدم فقدان أو خلط غرض واحد. والعديد من الأُسر لديها من يأتي إلى المنزل يومياً، ووظيفته أن يغسل الثياب. وتُجمع الثياب المتسخة للعائلة وتوضع لتنقع في دلاء من الماء بعد انتهاء الحمام الصباحي للجميع ثم يأتي «الدوبي» ويغسل كل شيء ويعلقه على الشرفة أو على سطح المنزل كي يجف. والكثيرون من الهنود الذين أعرفهم ممن يقومون بشراء الغسالات الكهربائية، يفعلون ذلك؛ لأنهم يرون أن ثيابهم تصبح نظيفة بالتخفيف من اهترائها نتيجة الاستعمال. والثياب الحديثة لا سيما المصنوعة من خيوط تركيبية، لا تعود مقبولة عندما تُغسل باستخدام الطريقة الهندية التقليدية التي تقضي بخبطها بعصا خشبية على حجر مسطح كبير.

أيضاً تتم عملية الكي عادة بإرسال الثياب إلى شخص في الحي يعمل في كي الثياب باستخدام آلات المكابس. وهنالك حيث تعيش عمتي وعمي في إحدى ضواحي غورغاون، في شارع هادئ تظلله الأشجار المزروعة على جانبيه ويضم بيوتاً ذات طابق واحد مزودة بوسائل الراحة، هنالك شخص يعمل في كي الثياب بالمكابس عند الزاوية. وكان قد بنى

كوخاً صغيراً من غرفة واحدة يستخدمها للقيام بكل أعمال الكي للحي، ويعيش فيها أيضاً مع أسرته. وهو يستعمل مكاوي كبيرة مصبوبة من الحديد الثقيل، ولها فتحة مجوفة لوضع قطع الفحم الساخنة. وتُعاد الأغراض التي تعطى له للكي في الصباح، بعدما يكون قد كواها بشكل ممتاز في مساء اليوم نفسه. وتدفع له النقود بالقطعة. وتمتلك عمتي وعمي مكواة كهربائية وطاولة لأعمال الكي في البيت، إلا أن هذا يُستخدم في معظمه من أجل إتمام لمسات بسيطة أو حاجات الكي التي تستلزمها اللحظة الأخيرة. إنه لأمر مريح جداً أن تعطي أشياء إلى كوي محلي، تماماً مثلما يرى الأمريكيون من أهل المدن أنه من المريح أن يتم كي قمصانهم في محل مختص بتنظيف الملابس بدلاً من القيام بكيها في البيت.

لقد تسببت كل ثورة اقتصادية في تاريخ البشرية في إلحاق الضرر بأساليب الحياة وسبل العيش التي حلت محلها. ولن تكون ثورة البيع بالتجزئة في الهند مختلفة عن ذلك. فالآلات التي تسهل إنجاز الأعمال سوف تؤدي إلى البطالة بالتأكيد. وسوف تختفي الدكاكين الصغيرة والأشياء المميزة المحلية. ويأمل المرء أن يجد الملايين من الشباب الذين أغوتهم الثقافة الاستهلاكية في المناطق الحضرية، الوظائف المضمونة التي يحتاجونها مستقبلاً، كما يأمل أن يجد الملايين من الفقراء في المناطق الريفية، ومعظمهم مزارعون، أسواقاً جديدة لتصريف إنتاجهم. وهذا هو التحدي الحقيقي الذي تطرحه عملية البيع بالتجزئة في الهند.

التوجه نحو استخدام الهاتف الخليّوي

كانت عملية استخدام الهاتف في الهند تعد أمراً يصعب الاضطلاع به للغاية. وقد استغرق الأمر بجدي وجدتي سنوات للحصول على جهاز هاتف ثابت لاستعماله في شقتهم المريحة بضواحي بومباي، لأنهما رفضا، من حيث المبدأ، أن يدفعا الرشوة التي كانت سوف تسرّع من إجراءات وجوده في المنزل. وكان جهاز هاتفهم مثله مثل كل الهواتف التي شاهدتها في الهند في نهاية الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي آلة لها قرص دوار مرقم، سوداء اللون وثقيلة الوزن تعود إلى أعوام الثلاثينيات. وقد كان عليك أن تصرخ في سماعة الهاتف

لكي يسمعوك عبر المدينة وحتى يكون صوتك أعلى من صوت الاتصالات المتقاطعة لأحاديث أشخاص آخرين كانت تُسمع على الخط. وكان يجب عليك لكي تجري اتصالاً هاتفياً بمدينة هندية أخرى، فضلاً عن اتصال بالخارج، كان يجب عليك أن تحجز ما كان يسمى على نحو غامض مكالمة هاتفية بعيدة، ثم تنتظر دورك ضمن رتل من الناس حتى ينادي عليك عامل المقسم ويوصلك بالخط. وقد يستغرق هذا ساعات.

أما الآن فهناك شركات اتصالات متعددة للهاتف الخليّوي بما فيها «ريلاينس»، «بهارتي ايرتل» و«هاتش» تتبارى لاكتساب الزبائن. وقد أوجد نجاح الاتصالات عبر الهاتف الخليوي منافسة جادة بالنسبة للمؤسسة الحكومية التي تتولى توفير الخطوط الأرضية؛ ونتج عن ذلك حدوث تحسن جذري في الاتصالات التي تتم عبر الخطوط الأرضية أيضاً.

وتعمل الاتصالات القائمة عبر الهاتف الخليوي على تغيير نسق عملية البيع بالتجزئة وصولاً إلى سلسلة المعنيين بالقيمة السلعية ابتداءً من المنتج وانتهاءً بالمستهلك. ويستطيع صيادو الأسماك والمزارعون تتبع أسعار البيع بالجملة على شبكة الإنترنت أو عبر استخدام هواتفهم الخليوية. وبإمكان بائعي التجزئة، وحتى الذين يعملون على نطاق محدود جداً، التواصل بشكل أفضل مع الزبائن. فمثلاً قد يعيش الكوَّى الذي يقوم بكي الثياب لعمي وعمتي، في كوخ مؤلف من غرفة واحدة لكنه يملك هاتفاً خليوياً بات جزءاً أساسياً من مهنته. وفي أي وقت تكون لدى عمتي وعمي ثياب بحاجة إلى الكي، فإنهم يتصلون به ويأتي لأخذها. وعندما تصبح الثياب جاهزة، يبادر هو للاتصال ويسألهم متى يكون بإمكانه إيصالها وتسليمها. ويقوم صيادو الأسماك في القرى الصغيرة التي تعمل في صيد السمك على طول السواحل الهندية، يقومون بالاتصال بالشاطئ عندما يكونون جاهزين لإحضار صيدهم لمعرفة في أي سوق ساحلية قريبة يجري بيع السمك الذي اصطادوه مقابل السعر الأعلى. ويستخدم بائعو الخضراوات والفاكهة، والخياطون والخدم في المنازل والسائقون وهم معروفون بكثرة في الهند، يستخدمون جميعهم الهواتف الخليوية في حياتهم اليومية العملية ليبقوا على اتصال مع الجهة التي تزودهم بالسلع والمنتجات، ومع الزبائن وأرباب العمل.

ويحظى البائع الذي يعمل على نطاق محدود، أو الموظف المحلي الذي يمتلك هاتفاً بميزة تنافسية على منافسيه الذين لا يمتلكون هاتفاً. والكثيرون من الناس ممن يمتلكون سيارات في الهند يقومون بتوظيف سائقين نظراً لضآلة الرواتب. وتؤدي الطرق المزدحمة، ومحدودية عدد مرائب السيارات إلى تحويل عملية القيادة إلى كابوس. ويُحضر معظم أرباب العمل لسائقيهم حالياً هاتفاً خليّوياً إن لم يكن لديهم واحد من قبل، فالأفضل الاتصال بهم في أي وقت يحتاجونهم فيه. وأينما اتجهت في الهند، ترى الناس يتحدثون على هواتفهم الخليوية أو مشغولين بإرسال رسائل قصيرة مكتوبة عبرها. وعندما كنت في الهند في عام 2006، أعلن عن خفض رسوم الدقيقة الواحدة نتيجة للمنافسة الشديدة الدائرة بين الشركات الرئيسة التي تقدم هذه الخدمة، مع قيام شركة ريلاينس بخفض الرسوم بشكل كبير إلى روپية واحدة - أقل من سنتين اثنين لكل دقيقة بالنسبة لاتصال يجري في أي مكان في الهند. وحملت اللوحات الإعلانية التي انتشرت في أنحاء البلاد إعلاناً يقول بفخر: «روپية واحدة، بلد واحد».

وبإمكاني أن أشهد بوجود ذلك الجاذب القوي للهواتف الخليوية وأن أعطي برهاناً قاطعاً عليه. ففي حفل كبير أقيم بمناسبة عيد ميلاد ابنة عمي الأربعين في منزلها في «أليبا» Alibagh، المنتجع الساحلي المقابل لمنتجعات «هامبتون» Hampton بالنسبة لأصحاب الثروات الفاحشة في بومباي، اختفى جهاز الهاتف الخليوي الذي كنت أحمله من على مائدة معدة لتقديم القهوة. وتبع ذلك الكثير من البحث العجول، إلا أن الإجماع كان أن الهاتف الذي تُرك دون مراقبة، كان ببساطة مغرياً جداً لأحد الفتيان الموجودين ضمن الجيش الصغير من النادلين الذين تم استقدامهم للأمسية - وكلهم مراهقون يكسبون في الشهر أقل مما ينفقه معظم الضيوف في دقيقة تقليدية، حتى يمتنع عن أخذه ويصمد أمامه. وعندما رويت القصة لصديقة لي في نيودلهي أجابت ببساطة «ذاك أمر عادي. إنه يحدث لأي شخص».

في عام (2006)، أقامت شركة «نوكيا» Nokia مصنعاً لأجهزة الهواتف الخليوية في الهند، وقبل أن تكون عملية البناء قد أشرفت على الانتهاء، حتى كانت الشركة قد التزمت بعقود لتصنيع مليون جهاز. وقد أكد إدوارد. جي. زاندر المدير التنفيذي المسؤول لشركة موتورولا Motorola للهواتف الخليوية على أهمية السوق الهندية بالنسبة لشركته عندما

صرح أن «موتورولا» هي أول شركة متعددة الجنسيات تجعل من الهند مقراً عالمياً بالنسبة لمبادرة الأسواق فائقة النمو [HGMs] وقد وقع اختيارنا على الهند لتكون مقر قيادة عمليات الشركة، بسبب الأهمية الإستراتيجية للبلاد بالنسبة لعمليات «موتورولا» المنتشرة في العالم وبسبب تحقيقها لأعلى نسبة نمو، وللإمكانيات الموجودة ضمن مبادرة الأسواق فائقة النمو المحددة، وكذلك بسبب الميزة الجغرافية». وقد استثمرت شركة موتورولا (150) مليون دولار في إقامة مصنع جديد في الهند، وتخطط لتوسيع سوق الأجهزة الخليوية فيها عن طريق خفض أسعار مجموعة الهواتف المركبة التي تضم أداة للاستقبال وأخرى للإرسال، في قطعة واحدة. وستباع الهواتف المصنعة في معملها الهندي بالتجزئة مبدئياً مقابل (40) دولاراً بهدف خفض السعر سريعاً إلى ما دون (30) دولاراً[10] ويقول سونيل بهارتي ميتال رئيس مجلس إدارة مؤسسات «بهارتي» التجارية التي تشمل «بهارتي للاتصالات»: إن حلمي هو أن تنخفض أسعار مجموعة الهواتف المركبة إلى (20) دولاراً [900 روپية] أو أقل»[11]. وتستقطب تكاليف الإنتاج الرخيصة شركات تصنيع أجهزة الهواتف الخليوية لإنشاء مصانع لها في الهند من أجل أسواق التصدير. وبحلول عام 2010 ستكون شركة (L.G) قد استثمرت (60) مليون دولار في مصنع لإنتاج (20) مليون هاتف سنوياً نصفها سيكون مخصصاً للتصدير[12].

إن توسع قطاع الاتصالات عبر أجهزة الهواتف الخليوية في الهند يقود أيضاً إلى نمو قطاع أجهزة الحاسوب الشخصي، مع بدء ارتفاع سجل المبيعات باعتبار أن الأسعار قد انخفضت. ووفقاً لڤيني ميهتا، المدير التنفيذي للمجموعة الصناعية الهندية «اتحاد شركات صناعة تكنولوجيا المعلومات» (Manufacturers Association for Information Technology MAIT)، إن التحسن [في سجل المبيعات] يرجع في الواقع إلى الهواتف الخليوية حيث بدأ الناس في الهند بالانهماك في الحراك الاجتماعي بوصفه جزءاً من عملهم التجاري.[13] وكانت الزيادة على مدى سنتين مذهلة، ففي حين ارتفعت مبيعات أجهزة الحاسوب بشكل عام بنسبة (30) بالمئة في السنة التي انتهت في شهر أيار من عام 2006، ارتفعت سجلات المبيعات بشكل هائل بنسبة (168) بالمئة.[14] وكانت المنافسة شديدة مع قيام شركات تحوز علامات تجارية دولية مثل «آيسر» Acer، «هيوليت باكارد» HP، «أي. بي. أم» IBM بسحق الأسعار لكسب حصة

في السوق[15] وأعلن مايكل ديل «Michael Dell» أن شركته سوف تضاعف قوتها العاملة في الهند إلى عشرين ألف موظف، وأنها تبحث بشكل فاعل عن موقع لإقامة مصنع هناك. ومع وجود توقعات بأن ترتفع المبيعات السنوية لأجهزة الحاسوب في الهند من (5) ملايين في عام 2006، إلى (20) مليوناً بحلول عام (2010)، فإن حجم السوق الهندية وإمكانياتها هي ببساطة كبيرة جداً بحيث لا يمكن تجاهلها.[16]

ويكلف أرخص حاسوب مكتبي في الهند زهاء عشرة آلاف روپية (220 دولاراً). ويدفع خفض الأسعار بالمبيعات إلى الأعلى في المدن الأصغر وفي المناطق الريفية حيث المداخيل أقل. وشهدت ثاني أكبر أربع مدن زيادة في مبيعات أجهزة الحاسوب الشخصي بنسبة (50) بالمئة في عام (2006)، عن السنة المالية السابقة. وفي عام 2007، كان يتوقع أن تصل مبيعات هذه الأجهزة في الهند إلى 6 ملايين وحدة[17]. وتشهد سوق أجهزة الحاسوب الشخصي الناشطة في الهند منافسة قوية. ففي الأول من شهر كانون الثاني 2006 أعلنت الشركة الصينية العملاقة «لينوڤو» Lenovo التي كانت قد اشترت حصة شركة IBM في مشروعهما المشترك لإنتاج الحواسب الشخصية في عام 2005، عن تسمية الهند منطقتها الجغرافية الفاعلة الخامسة. واستناداً إلى ادريان كوتش وهو نائب رئيس مخضرم يعمل مع شركة HP (هيوليت باكارد) فإن الشركة «تُجري تقويماً بشأن مدى سرعة التوسع الذي ستحققه». وفي غضون ذلك أعدت شركة «ديل» Dell مشروعات طموحة لكي تصبح الشركة الأولى في تصنيع إجمالي إنتاج السوق الهندية. وكانت أسرع الشركات نمواً في أجهزة الحاسوب الشخصي في الهند العام الماضي الشركة الهندية HCL (اتش.سي.ال)، التي تخطط لتوسيع حجم إنتاجها السنوي إلى (1.4) مليون وحدة بحلول عام 2007.[18]

تحويل المحنة إلى فرصة مواتية

تعيش المناطق الريفية في الهند وضعاً متخلفاً جداً عن وضع مدنها الرئيسة في مجال استخدام الحواسب الشخصية، وإمكانية التواصل عبر الإنترنت. وتبذل البلاد جهداً منسقاً من أجل إدخال تكنولوجيا المعلومات إلى المناطق الريفية، حيث لا تزال تعيش أكثرية السكان. وتتضافر عوامل غياب شبكة كهربائية يمكن التعويل عليها، ودرجة حرارة عالية

للغاية، والغبار، والرطوبة الشديدة، تتضافر جميعها لجعل استخدام الكمبيوتر يكاد يكون مستحيلاً في الكثير من الأماكن، حيث يتألف البيت من غرفة واحدة مصنوعة من قضبان من القصب وسقف من القش أو كوخ من الجص له سقف من القش، أو كتلة إسمنتية غير معزولة عن المؤثرات الخارجية مع إطارات للنوافذ مسدودة بقضبان حديدية فقط.

إلا أن الهند، كما أوضح لي أناند ماهيندرا «هي مكان غريب لنجاح كل أنواع الجهود والمساعي المبذولة. ففي اقتصاد قليل التكلفة ويتطلب معالجة متأنية، يغدو العديد من الخيارات التي لا يتم اكتشافها أبداً في الدول الأغنى، قابلاً للتطبيق والنجاح هنا». والمثال الجيد على هذه الظاهرة هو تعاون شركة انتل مع شركتي «ويبرو» Wipro و«اتش.سي. ال» HCL لإنتاج أجهزة كمبيوتر شخصي متينة». فقد صممت الأجهزة، لكي تتحمل الظروف القاسية للحياة اليومية في ريف الهند: درجات الحرارة العالية بما فيه الكفاية لقلي بيضة، والغبار والانقطاعات في التيار الكهربائي. وفي حين أنها ستكلف أكثر قليلاً من أجهزة الحاسوب الشخصي التقليدية «فإن المستهلكين سوف يوفرون النقود؛ لأنهم لن يحتاجوا إلى وضع أجهزة تكييف الهواء، ومولدات إضافية للطاقة الكهربائية أو غيرها من المعدات فقط للمحافظة على استمرار عمل الآلات.[19]

وهذا مثال ممتاز على الضبط نوع الابتكار الذي تشجع عليه بيئة الهند غير المواتية. إن غياب البنية التحتية في الهند يعيق توسع حجم السوق الهندية بالنسبة للسلع المخصصة للمستهلكين الأغنياء. وهكذا، فبدلاً من انتظار خدمة كهربائية ونظام تكييف هواء يمكن التعويل عليهما، لكي يصلا إلى المناطق مترامية الأطراف للبلاد، فإن الشركات الهندية تقوم بتصنيع أجهزة جديدة تتطلب ببساطة طاقة أقل وباستطاعتها العمل في مناخ حار - والذي يصادف أن تكون الظروف التي يعيش فيها المليارات من الناس في دول العالم النامي.

في عام 1994، قام تولسي تانتي Tulsi Tanti ببناء اثنتين من طواحين الهواء في محاولة يائسة لتأمين طاقة كهربائية كافية لتشغيل مصنع النسيج الخاص بأسرته في ولاية غوجارات. وقد كان القرار موفقاً جداً، وأدرك أنه قد عثر على منجم للذهب مصادفةً. وتقوم شركة سوزلون Suzlon للطاقة، التي خرج بها تانتي من تجربته مع محنة الطاقة، بتصنيع وتركيب عنفات توربينية تعمل بطاقة الرياح. وهي الآن خامس أكبر شركة طاقة

للرياح في العالم[20]. وقد أثبتت شركة سوزلون نفسها وبسرعة بوصفها لاعباً عالمياً رئيسياً، بامتلاكها في عام 2006، لشركة Hansen Transmissions «هانسن ترانسميشنز» وهي شركة كبيرة لتصنيع علب المسننات الخاصة بالعنفات التوربينية المستخدمة لتوليد طاقة الرياح، ومقرها بلجيكا.

وتمتلك شركة سوزلون بالإضافة إلى أكبر مجموعة من طواحين الهواء لتوليد الطاقة في آسية التي تبلغ استطاعتها خمسمئة ميغاواط، وتقع قرب الطرف الجنوبي للهند، حيث تهب رياح التجارة باستمرار، تمتلك منطقة صناعية كبيرة في جنوب ولاية مينيسوتا الأمريكية.» ومع تلقيها طلبات للتنفيذ تقدر قيمتها بـ (600) مليون دولار من زبائن من كل من الولايات المتحدة، والصين، واستراليا، قامت سوزلون بتوظيف قسم من أموالها في منشأة مخصصة لتقديم خدمات المساعدة، وفي ورشة تدريب أقامتهما في مدينة بايبستون بولاية مينيسوتا لتصنيع نصول المراوح[21]»، حسبما ذكر نآآزنين كارمالي لمجلة «فوربس».

لقد قطعت الهند على نفسها وعداً بتحقيق استقلالية في الطاقة بحلول عام 2020. وستحتاج الهند بحلول عام (2030) إلى توليد أربع مئة ألف ميغاواط من التيار الكهربائي لتلبية حاجات التنمية المطروحة. وكان الرئيس الهندي عبد الكلام قد تعهد بأن هذا الأمر سوف يعتبر «ثلاثة مصادر مختلفة، هي الطاقة الكهرمائية، الطاقة النووية، والمصادر غير التقليدية للطاقة»[22]. وهو يجادل بأنه يجب على الهند أن تزيد من نسبة الطاقة القابلة للتجديد في استهلاكها العام من الطاقة، من المستوى الحالي البالغ 5 بالمئة إلى 25 بالمئة. وتعمل الهند وبهدف توفير الطاقة المستخدمة في وسائل النقل على تطوير وقود حيوي من الفحم غير المعشَّق، كما تشجع على استخدام الوقود الذي يشكل الهيدروجين أساساً له فضلاً عن استخدام السيارات الكهربائية. وفي عام 2000 فرضت السلطات الهندية إجراءات تقضي بأن تكون سيارات الركاب مطابقة للمعايير التي وضعها الاتحاد الأوروبي، وطلبت في عام 2001، أن تفي وسائل النقل في أربع مدن كبرى -بومباي، دلهي، كالكوتا، وتشيناي- بمعايير الفئة الثانية* الأكثر تشدداً التي حددها الاتحاد الأوروبي. لقد ساعدت

* خاصة بالمواصفات المطلوبة لوقود السيارات والبنود التي يتوجب الالتزام بها للحد من انبعاث غازاتها. (المترجمة)

وزارة الطاقة غير التقليدية في الهند وبشكل مباشر في عملية توسيع طاقة الرياح عن طريق شركة سوزلون

وغيرها من شركات توليد الطاقة الكهربائية باستخدام طواحين الهواء، وذلك عن طريق إعداد أطلسٍ يضم خرائط توضح حركة الرياح لاختيار المواقع الأفضل في البلاد لإقامة مناطق لتصنيع طواحين الهواء المولدة للطاقة. كما عرضت الحكومة الهندية منح المؤسسات الصناعية مهلة ضريبية، وسمحت للمستثمرين الهنود الناشطين في مجال إنتاج طاقة الرياح بالمطالبة بخفض الضرائب بنسبة (80) بالمئة منذ السنة الأولى»[23]

ونتيجة لسياسة الطاقة ذات النظرة المستقبلية التي تبنتها الهند، باتت سوزلون وغيرها من شركات الطاقة الهندية تتولى موقعاً قيادياً على الصعيد العالمي فيما يتصل باستخدام أحدث ما تم التوصل إليه من وسائل التكنولوجيا والمنتجات التي بإمكانها أن تخفف من تأثيرات غاز ثاني أوكسيد الكربون، فضلاً عن خفض إنتاج العالم من الغازات التي تطلقها البيوت الزراعية البلاستيكية. ويجادل اناند ماهيندرا قائلاً: «إن الفرق ما بين الهند والعالم النامي هو أننا سوف نعمل على بلورة حقوق ملكية فكرية [IPR] تنشر هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة، ولسوف نصبح قادة».

وتلعب وسائل التكنولوجيا اللاسلكية دوراً مماثلاً. فعملية استخدام الحواسيب الشخصية من دون ربطها بالإنترنت ليست بذات فائدة تقريباً في عالم اليوم ولا جدوى منها. وتظل هناك مساحات واسعة من أراضي الهند من دون خطوط هاتف يمكن التعويل عليها ومن دون كهرباء،فضلاً عن انعدام وجود نظام الأحزمة العريضة من الكابلات اللازمة لربط أجهزة الكمبيوتر بالإنترنت. ومن الواضح أن الاتصالات اللاسلكية هي الطريقة المتبعة لربط سكان الأرياف ببعضهم في المناطق النائية من الهند. وقد وقعت شركة مايكروسوفت اتفاقاً مع شركة انتل، «اتش.سي.ال» وشركة «بهارتي سانغام نيغام للاتصالات» Bharti Sangam Nigam بهدف توسيع عملية استيعاب نطاق واسع من أجهزة الحاسوب الشخصي لاسلكياً. وتقوم شركة مايكروسوفت باستثمار (2) ملياري دولار آخرين في إنشاء خمسين ألف مقهى للإنترنت على مدى السنوات الأربع القادمة[24]. إن الجمع ما بين مضاعفة

مبيعات الحواسب الشخصية في البلدات الصغيرة والمناطق الريفية والاستيعاب واسع النطاق لها في محيط من الأسعار المتهاودة يعني أن عدداً أكبر من الهنود سوف يكونون على تواصل مع الإنترنت عبر مجال جغرافي واجتماعي أوسع.

وهذا سوف يفتح ومن دون مبالغة عالماً من الإمكانيات الجديدة للتعليم، والترفيه، ومتابعة الأخبار، والتفاعل الاجتماعي لمجموعة كاملة من الهنود في أنحاء البلاد. فحياتهم سوف يتم تغييرها، وهم ملزمون بدورهم بتغيير المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للهند بطرق من الصعب التنبؤ بها. وقد استغرق الأمر أجيالاً بالنسبة للأمريكيين للانتقال من عملية إجراء الاتصال الهاتفي بمساعدة عامل المقسم في خط هاتفي يربط المشتركين بمركز التوزيع بشكل جماعي منذ أكثر من قرن مضى، إلى التعامل عبر الاتصالات اللاسلكية الواسعة النطاق القائمة في الوقت الحاضر. ويتحول العديد من المواطنين الهنود اليوم من الحقبة التي كان يعمل فيها ذلك الخط الهاتفي المشترك والوحيد، مباشرة إلى استخدام الحاسوب عن بعد لاسلكياً بين ليلة وضحاها، فعلياً. وهم أشبه بالمسافرين في رحلة الزمن الذين ينطلقون في القرن التاسع عشر ويجدون أنفسهم في القرن الحادي والعشرين. إن التأثير الاجتماعي والاقتصادي لدخول سكان الأرياف في الهند الذين يبلغ عددهم (700) مليون شخص، عصر المعلومات سوف يكون تاثيراً جديداً مختلفاً وسيحدث تغييراً جذرياً.

ديترويت تصل إلى ديكان(1)

أذكر عندما كنت طفلة، وأنا أرتج في مقعدي بمحاذاة منحنى طريق من طرقات الهند، وأميل إلى جانب عربات نقل خفيفة تجرها ثيران مخصية، ونساء يسرن وقد حملن صرراً على رؤوسهن بينما أنا محشورة بصحبة عدد من إخوتي وأخواتي، وعماتي وبنات عمومي داخل المقعد الخلفي لسيارة من طراز امباسادور. وكنت أستطيع تلمس كل نابض حديدي قوي من نوابض المقعد المنجد المتين تحت عجيزتي النحيلة.

وقد كان هناك في الهند وعلى مدى عشرات السنين نموذجان فقط من السيارات للاختيار من بينها، وهما سيارة الامباسادور التي لا تتعطل التي تشبه المقصورة، وهي

(1) ديترويت، هي مدينة صناعة السيارات في الولايات المتحدة - ديكان، هضبة في المنطقة الجنوبية الوسطى من شبه القارة الهندية أقيمت عليها عدة مصانع لشركات السيارات العالمية.

نسخة من سيارة الصالون موريس اوكسفورد Morris Oxford من إنتاج عام 1940، وعادة ما تدهن باللون الأبيض فقط، أما السيارة الأصغر التي تليق بالنساء أكثر، فهي السيارة بريمير بادميني Premier Padmini المصنّعة عام 1958، والمصممة وفق طراز سيارة «فيات 1100». فإذا ما أردت أن تشتري إحدى هاتين السيارتين للسير بها على الطرقات الهندية ذات الحفر الدائرية الكبيرة، فإنك كنت تدفع النقود مقدماً في الوقت نفسه الذي تقوم فيه بحجز السيارة واضعاً نفسك ضمن رتل من الناس من أجل سيارة من المقرر أن تنساب من خط التجميع في وقت ما مستقبلاً. وأنت لم تكن لتقوم بمقايضة سيارة قديمة بأخرى حديثة الطراز: فلم يكن هناك أي منها. أنت كنت تتولى إصلاح السيارة إلى الأبد، وتشعر بأنك محظوظ لأنك تمتلك واحدة بأي شكل.

تعد الهند حالياً رابع أكبر سوق للسيارات في قارة آسية، وهي تتوسع بسرعة. فكل شركة كبيرة متخصصة في تصنيع السيارات تقوم بإنشاء مصانع لها في الهند. وفي عام 2005، تجاوزت الهند خط المليون الأول في مبيعات آليات الركاب. وتنشغل شركة هوندا للسيارات في زيادة حجم عملياتها هناك توقعاً منها لحصول نمو قوي في السوق الهندية. وكانت شركة «فورد» Ford للسيارات قد باعت خمساً وعشرين ألف سيارة في الهند بحلول عام 2006، وهو عدد السيارات التي كانت قد باعتها أثناء عام 2005 بأكمله. وصرح آرڤيند ماثيو رئيس فرع شركة فورد في الهند ومديرها الإداري في العام الماضي: «إننا نرى أنه بتقدمنا على هذه الوتيرة، فإننا سوف نصل إلى نهاية عام 2006، وقد حققنا زيادة تقارب مئة بالمئة في المبيعات مقارنة بالسنوات الماضية»[25]، وازدادت مبيعات سيارات شركة جنرال موتورز General Motors في الهند من طراز آڤيو Aveo، تاڤيرا Tavera واوبترا Optra في تموز 2006، بنسبة (37) بالمئة عما حققته في شهر تموز من السنة السابقة. وتقوم الشركة باستثمار (300) مليون دولار في معمل آخر لتصنيع السيارات في ولاية ماهاراشترا سيكون قادراً على إنتاج (140,000) وحدة سنوياً، أي أكثر من ضعف القدرة الإنتاجية الحالية لشركة جنرال موتورز في الهند، لتصل إلى ما مجموعه 225,000 وحدة سنوياً[26].

هنالك عدد من العوامل تؤدي إلى ازدهار سوق السيارات في الهند. فالطرقات تشهد تحسناً في بنيتها وبإمكان من يرتادوها اختبار سيارات ذات أداء أقوى عبر اختبار قدراتهم

على الطرق السريعة والحديثة للبلاد. فقد زالت المعتقدات وأساليب التفكير الأخلاقية والاجتماعية القديمة، التي تمثلت في أسلوب حياة الزهد التي عاشها غاندي، التي لم تكن تشجع على استعراض مظاهر الثروة في بلد فقير. ويتباهى الهنود المهتمون بوضعهم الاجتماعي بغناهم وثرواتهم عن طريق قيادة سيارات فاخرة. وتقوم الأسر الكبيرة التي يمكنها تحمل تكلفة شرائها بإجراء عملية مقايضة لاستبدال الموديلات أو النماذج الاقتصادية الأصغر بعربات النقل المقفلة الصغيرة وسيارات الدفع الرباعي. ويحتاج كل فرد من أفراد الأُسر الغنية التي تعيش حياة مشتركة والذاهبون في اتجاهات مختلفة إلى استخدام سيارة أثناء النهار. إلا أن معظم الناس ما زالوا يبحثون عن الثمن الأفضل. ويباع تسعون بالمئة من السيارات في الهند بأقل من 15,000 دولار. ولا يزال هذا المبلغ يشكل ثروة في بلد يصل معدل الدخل السنوي فيه إلى 500 دولار فقط.

ولهذا السبب، وعلى الرغم من الهجوم الكاسح لشركات السيارات العملاقة الأمريكية والأوروبية والشرق آسيوية على السوق الهندية، تظل الشركة المسيطرة في الهند المختصة بإنتاج سيارات الركاب، شركة «ماروتي اديوغ» Maruti Udyog. وكانت الشركة قد أطلقت في عام 1983، سيارة (Maruti 800) وهي من بنات أَفكار سنجاي غاندي الابن الأكبر للسيدة أنديرا غاندي، وذلك بوصفها «سيارة الشعب» الرخيصة. وينسب إليها الفضل في المساعدة على إطلاق ثورة السيارات في الهند وإحداث تغيير جذري فيها، وهي تظل أكثر الماركات شعبية من بين سيارات الركاب في البلاد. وقد تخلت الشركة عن حصتها الأكبر لصالح شركة سوزوكي، الجهة الأجنبية الجديدة المشاركة في المشروع. وبثمن يبلغ زهاء 250,000 روپية أو (5,500) دولار تبقى سيارة (Maruti 800) سيارة شعبية يمكن تحمل تكلفة شرائها.

ولناحية ما يسميه الهنود مركبات أساليب المعيشة فقد باتت سيارات الدفع الرباعي تكتسب شعبية هائلة لدى أولئك الذين يمتلكون المقدرة على شرائها. وكانت شركة ماهيندرا وماهيندرا، وهي مجموعة شركات متعددة الأنشطة توظف أموالها في مشروعات مختلفة، وبدأت نشاطها في الهند في الخمسينيات من القرن الماضي بصناعة سيارات الجيب ذات الدفع الرباعي من طراز «ويليس» Willys قبل أن تبدأ العمل في مشروع جديد ومختلف لتصنيع الجرَّارات، كانت قد قررت في عام 2002، العودة إلى عملها الأصلي بإنتاج سيارات

دفع رباعي حديثة. إلا أَن الهدف كان يتركز هذه المرة على السوق المهتمة بالرفاهية والترف المرتبطين بالجاه والمكانة الرفيعة في الهند. وقام اناند ماهيندرا رئيس الشركة الذي يتمتع بالحيوية والنشاط والمنتمي إلى الجيل الثالث الذي تولى إدارتها ودرس في جامعة هارفرد قام بمجازفة خارقة للعادة بتحويل الاستثمار الأكبر الوحيد في تاريخ الشركة البالغ (120) مليون دولار باتجاه تطوير وتصنيع مركبة في وقت قياسي، سيارة ستدفع بالشركة قدماً داخل سوق جديدة. وقد حققت سيارة «سكوربيو» Scorpio نجاحاً باهراً على الفور. وبكلفة تبلغ 20 بالمئة فقط من كلفة جهد مماثل كان سيبذل في الولايات المتحدة أصبحت السيارة مربحة بعد إنتاج خمسين ألف وحدة فقط. وقد تعهد أناند ماهيندرا الذي يؤمن بتقدم شركته إلى الأمام عن طريق طرح أفكار مبتكرة بصورة مستمرة، تعهد بالالتزام بجعل 20 بالمئة من مبيعات التصنيع في الشركة تأتي من الآن فصاعداً من مشروعات إنتاجية جديدة.

عقب نجاح مشروع سكوربيو (العقرب)، عقدت شركة ماهيندرا وماهيندرا اتفاقية شراكة مع شركة رينو الفرنسية لصناعة السيارات من أجل تصنيع السيارة لوغان «Logan» وهي سيارة رخيصة الثمن تباع حالياً في رومانيا مقابل ستة آلاف يورو أو زهاء (7,500) دولار. وسوف يتم إنزال سيارات «Logan» في الأسواق الهندية هذا العام. وتشمل الاتفاقية استخدام شبكة توزيع شركة رينو للمساعدة على توسيع دخول سيارات شركة ماهيندرا إلى الأسواق الأجنبية بما فيها ماليزيا، روسية، جنوب إفريقية، وإندونيسية.[27] إن اناند ماهيندرا على قناعة بأن التوجه عالمياً هو الطريق الوحيدة التي ستحقق البقاء لشركته. وتستعد شركة ماهيندرا وماهيندرا التي تقوم بتصنيع وبيع الجرارات في الولايات المتحدة منذ عام 1994، تستعد الآن لأن تصبح الشركة الهندية الأولى في إِنتاج السيارات التي تتعامل مع السوق الأمريكية مع التخطيط لبدء بيع سيارتها SUV ذات الدفع الرباعي في هذه السوق.

ويتوقع أن تتمكن المؤسسة الصناعية الهندية للسيارات من إنتاج أكثر من مليوني وحدة بحلول عام (2008)، الأمر الذي سيضع الهند في مرتبة متقدمة على المملكة المتحدة وكندا لناحية القدرة الإِنتاجية وعلى المستوى مع البرازيل، التي تعد ثامن أكبر منتج للسيارات في العالم. إن أكثر من الثلث، (37) بالمئة، من مشتري السيارات الهنود هم من الذين يشترونها

للمرة الأولى. إلا أن عدد هؤلاء في الصين يشكل (81) بالمئة من مشتريات السيارات. وتعد إمكانية زيادة حجم النمو في السوق الهندية إمكانية هائلة على افتراض أن باستطاعة الهند الاستمرار في توسيع دائرة مواطنيها الذين يمتلكون قوة شرائية كافية لشراء سيارة[28].

أما أولئك المستهلكون الهنود الذين لا يقدرون على شراء سيارة فهم يلجؤون إلى شراء دراجة نارية. وبإمكانهم اختيارها من نماذج تسمى Ambition، Discover، Pulsar، Avenger، Passion، Splendour، ومعناها: المنتقم، النجم الساطع، اكتشف، الطموح، البهاء، الشغف. وكانت شركة هيرو هوندا تدير حملة دعائية عبر مطبوعات عديدة وأخرى عبر التلفاز على السواء عندما كنت في الهند العام الفائت من أجل الترويج لطراز من السيارات مخصص للنساء حصراً. واسم الطراز هو: «بليجر- المتعة» وكان شعار الإعلان الذي يصور فتيات شابات مليحات يرفضن عروضاً من الشبان لركوب سياراتهم، يتساءل: «لماذا يجب أن يحصل الفتيان على كل المتعة؟». ويزداد عدد الشابات الهنديات اللواتي يعملن قبل الزواج وحتى بعد الزواج. وهن يمتلكن النقود لإنفاقها، ويحتجن إلى التحرك والتنقل بسهولة، كما يمتلكن الرغبة في الاستقلالية. وتشكل الدراجة النارية في الهند سيارة الأسرة للكثيرين من الناس الذين ليس بمقدورهم ببساطة شراء سيارة. ومن الشائع أن ترى أُسراً بأكملها، بمن فيهم أطفال محمولون على الأذرع جالسين بانتظام خلف بعضهم على دراجة نارية يشقون طريقهم في خط متعرج ضمن حركة السير.

إن انتظار تمكن المزيد من الهنود ليصبح بمقدورهم تحمل كلفة تحديث مركبة العائلة ذات الدولابين إلى مركبة تتألف من أربعة دواليب هو إحدى الطرق لتوسيع سوق السيارات. أما الطريقة الأخرى فتتمثل في خفض التكاليف. وقد أعلنت شركة Tata Motors عن خطط لتصنيع سيارة عائلية جديدة تستوعب خمسة ركاب ستباع بالتجزئة مقابل مئة ألف روبية أو زهاء 2,200 دولار[29]. ولم تعلن الشركة الكثير من التفاصيل بشأن خططها حتى وضع تأليف هذا الكتاب، ولكن استخدام المواد اللاصقة بدلاً من القيام بعملية لحام للأجزاء مع بعضها شكل إحدى الخطط التي جرى التطرق إليها. كما أن تصنيع الأجزاء المستقلة للسيارات لتجميعها عند الطلب لدى الشبكة الواسعة من شركات بيع السيارات وورشات إصلاح السيارات التابعة لشركة Tata يشكل خطة أخرى. وإذا ما تحقق النجاح للشركة

فإنها سوف تضع ذلك الرمز المطلق للحرية، والحراك الاجتماعي، والفردية -السيارة الخاصة- في متناول قطاعات كاملة من المجتمع الهندي التي نادراً ما تجرؤ على أن تحلم بامتلاك مثل هذا الشيء في الوقت الحاضر.

كذلك تدعم مؤسسة صناعية السيارات الهندية التوجه نحو خفض انبعاث الغازات، وزيادة فاعلية مادة البنزين. وبينما قط يستطيع البعض تحمل تكاليف شراء سيارات SUV التي تبتلع البنزين ابتلاعاً، فإن معظم الهنود الذين يشترون السيارات يهمهم المردود الاقتصادي للوقود، كما يهمهم سعر الشراء. وقد وجهت عدة بلديات مذكرة لطيفة اللهجة إلى مؤسسة صناعة السيارات، حثت فيها على اتخاذ خطوات تتيح للمركبات العامة، مثل الباصات وسيارات الأجرة، العمل على الغاز الطبيعي المضغوط (CNG). وتعاقدت شركة ماهيندرا وماهيندرا مع الدكتور آرون جورا الذي كان يدير مشروع شركة فورد لإنتاج سيارة «اسكيب اس.يو.ڤي» Escape SUV ذات الدفع الرباعي التي تستخدم خليطاً من الوقود السائل والجاف، من أجل الإشراف على مشروع سيارات مماثل خاص بالشركة. كما أن الهند على أهبة الاستعداد للتوصل إلى إنتاج سيارات تعمل بوقود الكبل الكهربائي المرن، التي تستهلك حتى (80) بالمئة من مادة الإيثيل الكحولي، وهي تُستخرج من مصادر نباتية مثل الذرة الممزوجة بمادة الديزل. وتشكل السيارات التي تسير وفق آلية الكبل المرن (75) بالمئة من السوق الجديدة للسيارات في البرازيل حالياً. ومع إدراكها لضغط الطلب المتزايد على السيارات وأسعار النفط الآخذة في الارتفاع، تبحث الهند بشكل دؤوب ونشط في تطوير أنواع من الوقود الحيوي مثل الكحول الايثيلي.

إن إحدى أكثر شركات السيارات إثارة للاهتمام في الهند هي الشركة المنتجة للسيارة الصغيرة «ريڤا» Reva. وتصنع ريڤا، ومقرها مدينة بنغالور، سيارات تعمل بالكهرباء كلياً. وهي تعرض حالياً سيارة تتسع لراكبين، ولها مؤخرة ذات باب خلفي. وتستعد شركة ريڤا التي تأسست عام 1995. لتطوير سيارات صديقة للبيئة وتسويقها في أوروبة بكل عزم وتصميم. وقد حصل طراز السيارة على مصادقة الاتحاد الاقتصادي الأوروبي (EEC) ويجري الآن تصديرها إلى المملكة المتحدة ومالطا، واختبارها للسوق في الولايات المتحدة، النرويج، سويسرا، قبرص، اليابان وسريلانكا. ولدى الهنود دافع أبعد كثيراً من الولايات

المتحدة لمتابعة تنفيذ خطط تصنيع إبداعية تعمل على خفض كلفة البيع بالتجزئة، فضلاً عن امتلاكهم وسائل تكنولوجيا مبتكرة تدعم فاعلية الوقود وتعطي مردوداً أفضل وتقلل من انبعاثات الغازات، حيث إن أصحاب مصانع السيارات في أمريكة كانوا يكتفون بتحقيق الكسب السهل من دون حاجة إلى بذل جهد كبير، وهم يستهينون بالشروط الأساسية التي وضعتها الحكومة بشأن فاعلية الوقود منذ مدة طويلة جداً. وتدفع الحاجة بالهند باتجاه تولي دور ريادي عالمي في تصنيع سيارات ومركبات ذات كلفة منخفضة ومردود اقتصادي جيد، ولا تتسبب في زيادة معدلات تلوث البيئة.

الائتمان الميسر

وبينما ترتفع رواتب البعض في الهند إلى جانب ارتفاع القوة الشرائية -زادت بمعدل (135) بالمئة عام 2005- تبقى الزيادة المفاجئة في فرص الائتمان المصرفية الجديدة بالنسبة للمستهلكين الهنود أحد أهم العوامل في الطفرة الاستهلاكية التي تشهدها البلاد. فقد ولت الأيام حينما كانت الأسر تقتصد في النفقات وتتذمر حتى تتوفر لها النقود من أجل أن تحقق خبطة لشراء ثلاجة كهربائية جديدة، دراجة نارية، سيارة أو حتى منزل. فثمانون بالمئة من سيارات الركاب تُباع الآن بوساطة عمليات التمويل. وهناك في ولاية غورغاون مجمع تجاري جديد للسيارات قيد الإنشاء. وستقام فيه صالات عرض لماركات مختلفة من السيارات، وكذلك مرافق مختصة بتقديم التمويل والتسهيلات المالية، وكلها توجد تحت سقف واحد. وفي عام 1995، كان هناك (2.6) مليونا أسرة هندية تستطيع الوفاء بشروط الحصول على قرض عقاري. وبحلول عام 2003، كان هذا الرقم قد ارتفع إلى (20.5) مليوناً غير أنه لا يزال يشكل جزءاً ضئيلاً من المجموع الكلي للسكان البالغ (1.2) مليار نسمة. ومع ذلك فإنه يتوقع أن تنمو سوق القروض العقارية في الهند بنسبة كبيرة تبلغ 30-45 بالمئة سنوياً، لتصل إلى قيمة كلية مقدارها (77) مليار دولار بحلول عام 2008[30].

قال لي ميهير دوشي رئيس بنك كريديه سويس بوسطن، فرع الهند عندما تحدثت إليه في بومباي في عام 2006: «إن بيئة الإقراض الاستهلاكية مختلفة كلياً في الهند الآن مقارنة

ببداية التسعينيات. فقد كانت الأسعار آنذاك أعلى بنسبة 20 بالمئة. وهي الآن أقل بنسبة (10) بالمئة. وتستغل الطبقة الوسطى التي تؤلف ربع مليون نسمة، الأسعار المنخفضة، فتعمد إلى اقتراض المال من أجل الإنفاق».

وهنالك في كل مكان تذهب إليه في الهند لوحات إعلانية ودعايات تروج للقروض الاستهلاكية في ظل المنافسة الحامية الدائرة بين المصارف، وذلك لشد انتباه المستهلك الهندي المنفتح حديثاً على أجواء الاقتراض. ويؤكد ستيفن روتش من مصرف مورغان ستانلي: «أن المصارف الهندية تركز على خطط النمو الموجهة للمستهلك لا سيما في مسألة تمويل القروض العقارية وبطاقة الائتمان وبطاقة الحساب المدين»[31]. وتشمل هذه المصارف سيتي بانك **Citibank**، اتش.اس.بي.سي **HSBC**، جي.اي. موني **GE Money**، إلى جانب مجموعة كبيرة من المصارف الهندية، ومنها على سبيل الذكر آي. سي. آي. سي **ICICI**، دينا بانك **Dena Bank** واتش.دي.اف.سي **HDFC**.

وبينما ساعدت عملية إقراض المستهلكين دون شك في دعم الطفرة الاستهلاكية في الهند، وتزايد الإقبال على الشراء، فإن هناك أموراً تبعث على القلق بأن ثمة وهماً ائتمانياً قد يكون في طور التشكيل. فأسعار السكن ترتفع بسرعة، وتضغط المصارف بهمة عالية للحصول على جزء من سوق الأقراض الاستهلاكية، في حين يمتلك المستهلكون خبرة ضعيفة في مسألة تدبر سداد الديون. وكان آجيت بالاكريشنان الموظف التنفيذي المسؤول لموقع **Rediff** «رديف» دوت.كوم قد حدثني في شهر كانون الأول «ديسمبر» من عام 2005، ونحن نتناول فنجاناً من القهوة في قاعة الاستقبال بفندق اوبروي في مدينة بومباي عن موقفه الحذر إزاء هذا التوجه فأوضح قائلاً: لقد بدأت عملية إقراض المستهلكين قبل نحو خمس سنوات بتقديم قروض غير مكلفة ودفعات نقدية أولية قليلة. وهي تصل الآن إلى نسب مخيفة جداً. كما تقوم عملية الإقراض في مجال البيع بالتجزئة برفع تكلفة الاستهلاك في الهند، في حين دأبت الحكومة على القول: «لا تبنوا أوهاماً». ويبدو وكأن مخاوفه لها مايبررها تماماً. ففي شهر نيسان من عام 2006، وضع بنك الاحتياط الهندي موضع التنفيذ سلسلة من الإجراءات المخصصة لحماية المصارف من القروض الهالكة، التي لا يؤمل استرجاعها.

واستناداً إلى تقرير نشر عام 2006. في مجلة «المصرفي» The Banker فقد كانت المصارف في الهند «تتأنى لتقويم مخاطر إقراض الملايين من صغار المقترضين الذين يملكون سجلاً دائناً غير مترابط. إن حالة الذعر لم تظهر إلى السطح بعد، غير أن المصارف والمشرفين على وضع الضوابط التنظيمية لا يشعرون بالارتياح إزاء الكيفية، التي يمكن بها للارتفاع في أسعار الفائدة، والأسعار المحلقة للممتلكات العقارية، أو الانكماش الحاد في أسواق الأسهم، أن يؤثر في الميزانية العامة[32]. وقد بات الإقراض في مجال البيع بالتجزئة جزءاً مهماً من العمل المصرفي في الهند، حيث يضم زهاء ربع الاعتماد المصرفي.

ومن أجل استرداد القروض الهالكة، لجأت البنوك إلى اتخاذ عدد متزايد من الإجراءات الجذرية التي تتراوح ما بين التعاقد مع فرق موسيقية من أجل قرع الطبول أمام بيوت المتخلفين عن الدفع إلى توظيف مجموعة من الرجال الشرسين من أجل ترهيبهم. وكانت طالبة هندية في قسم الدراسات العليا ممن أجريت معهن مقابلة في نيويورك لاستطلاع رأيها في سياق أحد البحوث التي كنت أجريها قد أبلغتني أنها تعرف الكثيرين من الطلاب الهنود الذين، لقناعتهم بأن البنوك لن تتمكن من الوصول إليهم في الخارج، كانوا قد تخلفوا عن دفع ديون مرتبطة ببطاقات الائتمان قبيل مغادرتهم إلى الولايات المتحدة. وتلقى طالب كنت على معرفة به اتصالاً هاتفياً من والديه المذعورين في الهند يقولان فيه: «إنهم أرسلوا بعض الرجال لتحطيم السيارة، وأبلغونا أنهم سوف يحطموننا في المرة القادمة إن لم تدفع ديونك». وقد بادر إلى سدادها على الفور.

ازدهرت قروض التعليم في الهند في حين يتدافع أولياء الأمور لتجميع المبالغ الكبيرة المطلوبة لإرسال أولادهم إلى أفضل المدارس. ويستخدم العديد من المستفيدين من هذه القروض، النقود للدراسة في الخارج حيث يمكن أن تتجاوز تكاليف التعليم أكثر كثيراً من ميزانية عائلة هندية. وفي محاولة للعثور على المتخلفين عن الدفع الذين فروا من البلاد تفكر مؤسسة الصناعات المصرفية الهندية في استخدام نظام شريط الباركود [شيفرة الخطوط المستقيمة التي تحوي معلومات يعالجها الحاسوب] على جوازات سفر المقترضين لجعل أمر اقتفاء أثرهم أسهل بالنسبة إليها[33]. ويشكل هذا الإجراء الجذري الذي ينتهك

خصوصية المقترضين مؤشراً على مدى يأس المصارف الهندية من الإمساك بالمتخلفين وتجنب عواقب القروض الهالكة.

إقراض الفقراء

قال لي الدكتور ناتشكت مور نائب المدير الإداري لمصرف ICICI الهند: «إذا ما قمت برسم خط عند، لنقل، ثلاثة أو أربعة دولارات يومياً للدخل، فإن جزءاً كبيراً من شعب الهند سوف يقع تحت ذلك الخط». كما أوضح أن مصرف ICICI كان قد بدأ أصلاً بالنظر في مساعدة الأغلبية الفقيرة في الهند بنموذج تقليدي للمسؤولية الاجتماعية: خصص المصرف جانباً بعض الأموال، واستخدمها لدعم المبادرات الصحية والتعليمية والتمويل الصغير. وبينما لا يزال المصرف يتابع الموضوع الصحي والتعليمي كجزء من جهود المسؤولية الاجتماعية فقد أدرك أنه يمكن الأخذ في الاعتبار أن التمويل الصغير يندرج في إطار فرص العمل، وبعد القيام ببعض البدايات الخاطئة، يبدو أن ICICI قد توصل إلى صيغة لإعطاء الفقراء شيئاً تنظر إليه الطبقة الوسطى والناس الأثرياء على أنه أمر مسلم به: فرص الحصول على الائتمان الميسر بفائدة ضئيلة وغيره من الخدمات المالية.

وقال الدكتور مور موضحاً «إن الضمان الحقيقي الذي يملكه إنسان فقير هو نوعية الحياة التي مرت به أو بها. لقد كنت أنهض صباحاً. كنت أعمل بجد. وكنت أعتني بعائلتي. إن حقيقة كون شخص ما يعيش بشكل منظم على مدى العمر هو أمر ذو قيمة كبيرة للغاية». وأشار إلى أن السيارة المستعملة لا قيمة كبيرة لها كضمانة إضافية، إلا أن المصارف تصر على نظرتها إلى الضمانة الإضافية الملموسة بوصفها الملكية الوحيدة الجديرة بالاعتبار. وهناك أشخاص فقراء جداً ليست لديهم ملكيات ملموسة، غير أن السمعة التي بنوها بصفتهم مواطنين مستقيمين يمكن أن تكون ذات قيمة أكبر كثيراً. «وقد تساءل مصرف ICICI: لماذا لا نجعل من هذه السمعة ذاتها الضمانة الإضافية عبر نموذج الإقراض الجماعي المتبع وفق أسلوب مصرف غرامين الشهير؟ إن اعتقادنا الوحيد هو أن بإمكان كل شخص أن يفعل شيئاً. إن امرأة لا تملك شيئاً، ومن دون تعليم، لا شيء، يمكنها أن تفعل شيئاً. وإذا كان بمقدورها

الحصول على قرض، فإن بإمكانها شراء جاموسة وبيع الحليب. بإمكانها أن تبدأ بمشروع إقامة بستان لزراعة الخضراوات وبيعها.

وهذه هي بالضبط الفلسفة التي أدت بمحمد يونس الحائز على جائزة نوبل، إلى بدء مشروع أفضل مصرف للتسليف معروف في العالم مختص بالمشروعات الصغيرة، وهو «مصرف غرامين» Grameen Bank. ويقوم مصرف ICICI بتبني هذا النوع من التفكير والعمل مع أكثر من مئة منظمة شريكة ومع الحكومة، لزيادة عدد السكان الذين يحصلون على خدماتهم في الوقت الذي يقومون فيه بالتقليل من المخاطر، وزيادة عدد القروض المقدمة للمشروعات الصغيرة إلى مستوى لم يبلغه أي مصرف آخر حتى الآن. وقد ذكر لي الدكتور مور أن برنامج قروض المشروعات الصغيرة التابع لمصرف ICICI يخدم، وبعد مرور أربعة أعوام على إنشائه، ثلاثة ملايين زبون، ويمتلك أصولاً وممتلكات بقيمة (600) مليون دولار. وهدفهم هو الوصول إلى (25) مليون أسرة وأصول وممتلكات بقيمة (10) مليارات دولار. وقال أيضاً: «الأمور ستكون أسهل كثيراً إذا ما كان بالإمكان جعل السجل الائتماني للمقترض محمولاً عبر الأقاليم والمصارف عن طريق تزويد كل واحد منهم ببطاقة تعريف فريدة تطبق تقنية مطابقة المشاهدات البيولوجية كحدقة العين وبصمات الأصابع وتتيح تتبع سلوكه الائتماني. وبإمكانه بعد ذلك التوجه إلى كشك للإنترنت أو فرع لأحد المصارف واستخدام بصمة الإبهام لطلب سجله، محولاً بذلك سجله الائتماني السليم إلى مدخل مباشر للحصول على سلفة غير مكلفة. وأشار الدكتور مور إلى أنه يجب على الحكومة أو الذين يتولون تنظيم العمل المصرفي في إعطاء تفويض باستخدام مثل هذه البطاقة؛ وبإمكان المصارف تولي البقية.

وقال بشأن جموع الفقراء في الهند: «هذه هي سوقنا. لدينا فرصة هائلة إلى حد بعيد هنا في الهند وأنا متفائل للغاية بشأن مستقبل هذه البلاد. وقد كانت أعوام التسعينيات -قامت الهند بتحرير اقتصادها في عام 1991- أقل مما يعتقد أنها كانت عليه. ولم نكن مستعدين. والحقيقة فإن الأمور قد بدأت بالانطلاق الآن فنحن نقوم ببناء أسس عملنا على قيمة حقيقية. نحن مربحون ونقوم بتقديم خدماتنا لمن يحتاجنا بالفعل.

طفرة البناء

بالإضافة إلى تلقف السيارات، والمعدات المنزلية، والأجهزة الإلكترونية ببطاقة ائتمانهم المكتشفة حديثاً، فقد دأب الهنود على استخدام القروض العقارية لشراء البيوت والشقق. وأدى التهافت على طلبها إلى ارتفاع الأسعار بشكل حاد. وارتفعت أسعار الأراضي فجأة وبسرعة كبيرة. وتعادل أسعار الأملاك العقارية في بعض مدن الهند الأسعار في مدينة مانهاتن، لوس أنجلوس أو سان فرانسيسكو، وهي أعلى في بعض الحالات. ولا يزال معظم الهنود، (70) بالمئة تقريباً، يعيشون في المناطق الريفية إلا أن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) يتوقع أن تمتد عملية التوسع العمراني بنسبة أربعين بالمئة مما يؤدي إلى مضاعفة عدد سكان المناطق الحضرية في الهند إلى 600 مليون نسمة بحلول عام (2030).[34] وعند تلك المرحلة سيبلغ عدد سكان مدينة بومباي (35) مليون نسمة، بينما سيصل عدد سكان كل من مدينتي دلهي وكالكوتا إلى (35) مليون نسمة لكل منهما. وإلى جانب هذا النوع من الزيادة في عدد السكان الحضر، سوف تكون هناك حاجة دائمة للمساكن لعشرات السنين القادمة. وسوف تزداد في تلك الأثناء أيضاً الحاجة إلى مكان يخصص لبناء أحدث المكاتب لتضم قطاعات صناعة تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتعلقة بالاقتصاد الهندي الآخذ في التوسع والتطور. وتتطلب هذه الصناعات بدورها وجود مبانٍ ذات معايير معينة ضمن بنيتها التحتية لا سيما توفر تيار دائم من الكهرباء من أجل تغذية المعدات وأجهزة تكييف الهواء بالطاقة الكهربائية. وبما أن المساحات العمرانية في المدن الرئيسة الكبرى في الهند متخمة بالمباني فإنه يجري العمل على إقامة مجمعات مكاتب جديدة في مناطق نائية ومناطق اقتصادية خاصة (Special Economic Zones SEZs)، حيث يجري تشييد خليط من المكاتب، والمدارس، والمساكن وغيرها من المنشآت المرافق العامة.

وفي الهند يعيش (51) بالمئة فقط من سكان البلاد في دور تصنف على أنها جيدة. ويعيش أربعة وأربعون بالمئة في منازل بالكاد تعد قابلة للحياة فيها. في حين يعيش (5) بالمئة في دور متهدمة[35]. ويحدد الإحصاء الرسمي للسكان في الهند تصنيف «الجيد» «القابل للحياة»، أو «المتهدم» اعتماداً على «وجهة نظر ورد المجيب»[36]. وفي بومباي يعيش (60) بالمئة من سكان المدينة في مساكن دون المستوى المطلوب، وفي الشوارع، وفي بعض الأحيان

تحت غطاء مفتوح من القماش المشمّع، وأحياناً دون أي شيء آخر سوى بطانية موضوعة بينهم وبين حافة الرصيف. وإذا كان على الهند فعلاً أن تحول نفسها إلى دولة نامية، فإن عليها أن توجه اهتمامها إلى معالجة حاجة فقرائها إلى المأوى وإلى المسكن. إلا أن طفرة الإسكان التي تشهدها الهند لا تقدم المساكن مقابل تكلفة رخيصة أو دون مقابل وهو ما تحتاجه غالبية المواطنين الهنود بشدة. وتتجه شركات التعمير والعاملون في سوق المضاربات العقارية والتجارية نحو مجمعات الأبنية الفاخرة التي يمكن لهم أن يطلبوا مقابلها ثمناً مرتفعاً. وهنالك دافع ضئيل لإسكان الفقراء أو حتى الطبقة الوسطى الأدنى بشكل لائق معقول، كما هو ظاهر من أكواخ الصفيح القذرة التي تزدحم في مواجهة جدران العقارات الفاخرة. وفي حين جعل توسيع عملية الديون العقارية، من الشقق والبيوت ذات الطابق الواحد، التي تباع بأسعار مرتفعة، في متناول سوق أكبر حجماً، فإن السوق المؤهلة للقروض العقارية تظل صغيرة الحجم نسبياً.

ويجعل التهافت على شراء الأراضي في الهند من رواج سوق العقارات الأخير في الولايات المتحدة يبدو غير ذي أهمية بالمقارنة. فالجميع -من الشركات العالمية العملاقة العاملة في مشروعات بناء العقارات إلى صناديق أسهم المخاطرة والتحوط أو الأسهم الوقائية الباحثة عن فرص أكبر كثيراً من المعتاد- يشارك في النشاطات التي تشهدها السوق سعياً وراء مكاسبها. وفي عام 2005، دفع «فارالون كابيتال مانيجمنت» Farallon Capital Management وهو صندوق أسهم وقائية مقره الولايات المتحدة آنذاك، السعر الذي لا يصدق وقيمته 54.5 مليون دولار مقابل قطعة من الأرض في بومباي مساحتها أحد عشر فداناً، ولم يكف العاملون في قطاع الإنشاءات عن الضحك عندما عرض الصندوق (95.5) مليون دولار لقاء قطعة أرض مجاورة، لكنهم اكتشفوا أن عرضهم كان العرض الأقل الثاني. وقد ارتفعت أسعار الأراضي من (30) بالمئة إلى (100) بالمئة في مدة ثمانية عشر شهراً فقط انتهت في تموز الماضي، بينما ازدادت أسهم العقارات بمقدار 2,000 بالمئة حيث انضم الجميع إلى هذا التوجه. كما لجأت جميع المصارف الكبرى في العالم إلى الاستثمار في سوق العقارات الهندية أو في صناديق مالية متداولة تستثمر في العقارات الهندية، بما فيها مورغان ستانلي، ميريل لينش، مؤسسة جي.اي للتمويل التجاري العقاري، جي بي مورغان، وورب ورغ بينكاس وإدارة الأصول الألمانية

MorganStanley,MerillLynch,GECommercialFinanceRealEstateJ.PMorgan,) .(Warburg Pincus,Deutsche Asset Management 37

وقد شكل هذا كله نعمة للشركات الكبيرة العاملة في مجال البناء والتعمير مثل شركة «مانتري ديڤيلوبرز» Mantri Developers في بنغالور، وشركة «بانستشيل ديڤيلوبرز» Panscheel Developers إلى جانب الشركات العقارية العملاقة «دي.ال.اف» DLF، «راهيجا» Raheja، و«هيراندانى» Hirandani. وأينما توجهت في الهند تشاهد أبنية شققية في طور التشييد، وتروج اللوحات الإعلانية لأسباب الراحة والرفاهية المتوافرة في مناطق عمرانية جديدة مع مشاهد من المناظر الطبيعية غير معروفة في الهند الحضرية: حدائق عامة نظيفة وواسعة، وبرك سباحة، وملاعب لممارسة رياضة كرة المضرب. وتشكل الصفحة الكاملة من الدعايات المنشورة لصالح شركة «بارسڤناث ديفلوبرز ليميتد» Parsvnath Developers'Ltd عن مدينة الملوك «كينغ سيتي» في البنجاب نموذجاً لما تعد به هذه المجمعات السكنية. فمدينة الملوك هي حسناً، منطقة سكنية خاصة رائعة وفخمة جداً إلى حد أنها تصلح لإقامة الملوك. «وسوف تكون المنطقة مملكة من الراحة والرفاهية والثراء قائمة بذاتها في خضم حالة الفوضى التي تعيشها الهند خارج أبوابها. وسوف يكون هناك الكثير من المساحات الواسعة «فيلات مصممة على نحو جميل إلى جانب طرقات معبدة عريضة ومزروعة بصفوف من الأشجار على جانبيها. وجرى تنسيق أرضها بحيث تخلو من الحواجز لتضم ساحات عامة خضراء» إضافة إلى «مدرسة، ومجمع تجاري، مركز للتسوق، مرافق صحية، ونادٍ أنيق يوفر وسائل الراحة الحديثة «ودعونا لا ننسى»، «الأمن».

وحيثما يتم تخصيص الأرض من أجل بناء المساكن الشعبية رخيصة الثمن، فإن شركات البناء المجردة من المبادئ الأخلاقية لا تتورع عن أخذها طمعاً في غايات ربحية أكثر. وكان أحدث وأجمل مجمع للتسوق في بومباي واسمه «Atria Millenium Mall» «اتريا ميللينيوم مول» قد افتتح بهدوء في ضاحية Worli في العام الماضي. والمجمع التجاري الذي يحوي علامات تجارية مثل Aldo، Levi's، United Colors of Benetton، Nike، Pepe Jeans، وSony - عدا عن ذكر أول صالة عرض لسيارات رولس رويس في الهند - أَصبح موضع جدل

حاد عندما جرى رفع دعوى قضائية باسم المصلحة العامة ضده على أساس أنه تم بناؤه على مساحة (180) ألف قدم مربعة من الأراضي المحجوزة لإسكان المشردين، «وتسجيل ثماني عشرة مخالفة لقوانين خاصة بمنطقة التنظيم الساحلية (CRZ) وبإعادة تعمير المجتمعات السكنية (DCR) والنسب المتعلقة بحجم الأرض المعدة للبناء إلى المساحة الكلية للبناء ذاته (FSI)، فقد طلبت المحكمة العليا في بومباي لاحقاً من حكومة الولاية ومن شركة «بريهانومومباي المحلية [BMC Corporation Brihanmumbai Municipal]، توضيحاً للملابسات المتعلقة بالإعفاءات التي منحت لشركة الإنشاءات كما صدرت توجيهات إلى شركة بريهانومومباي المحلية الأسهام بتقديم تفسير لسياستها المتعلقة بالاستحواذ على مبلغ ثمانين مليون روبية من شركة التعمير من أجل إسكان المشردين»[38]. وبعبارة أخرى فقد طلبت المحكمة من الشركة المحلية توضيح كيفية توصلها إلى إعطاء هذه الأرض لشركة التعمير وماذا فعلت بالأموال التي تلقتها منها من أجل بناء مساكن رخيصة الثمن يمكن تحمل تكاليفها (يفترض المرء في مكان آخر ما). وتقوم المحاكم الهندية، والحكومات المحلية في بعض الحالات باتخاذ إجراءات صارمة ضد أعمال البناء غير المشروع، إلا أن الفساد المستشري والمبالغ الهائلة من الأموال الناشطة في هذا المجال، تجعل من هذا الوضع مشكلة مستعصية.

الهند تحلق جواً

يبدو أن أجواء وفضاءات الهند آخذة بالازدحام مثلما هو الوضع في شوارعها. فهنالك شركات طيران جديدة تظهر فجأة وبسرعة كل بضعة شهور، وعندما تم تدشين شركة خطوط ديكان Air Deccan الجوية في عام (2003)، أحدثت موجات من الذهول في كل أنحاء السوق المحلية الهندية بتقديمها لعروض رحلات جوية من دون فرض رسوم إضافية وبأسعار متهاودة بشكل لا يصدق. وبإمكان ركاب شركة الخطوط الجوية «ديكان» أن يشتروا مجموعة من ثلاثين بطاقة محلية مقابل 50,000 روبية. وهذا يجعل ثمن البطاقة الواحدة 1,666 روبية أو زهاء (37) دولاراً[39]. وقد وضعت أجور السفر الرخيصة الآلاف من الهنود الذين لم يكونوا قادرين أبداً على تحمل نفقات السفر بالطائرة داخل أجواء الهند، ومما يثير

الدهشة أن (40) بالمئة من ركاب شركة طيران ديكان كانوا يسافرون جواً أول مرة في حياتهم عندما تم افتتاح خط الشركة، في عام (2003)[40]. وينسب إلى شركة الطيران الفضل في زيادة حركة الطيران الإجمالية في البلاد بنسبة (10) بالمئة[41]. وبإدراكها للامكانيات المتوافرة عمدت شركة طيران أخرى هي «سبايسجيت» Spicejet وتعرض أسعاراً مخفضة أيضاً إلى تبني سياسة مماثلة وحذت حذوها على الفور.

وأطلق فيجاي موليا، وهو رئيس الشركة المنتجة للعلامة التجارية لمشروب الجعة الهندي «كينغفيشر» Kingfisher، الذي يتمتع بشخصية واثقة ملفتة للانتباه أطلق شركة طيران بهذا الاسم في عام 2005. وعلى النقيض من شركتي «ايرديكان» و«سبايسجيت» فإن شركة «كينغفيشر» تسوق نفسها من منطلق توفير وسائل الرفاهية والمتعة، وشعارها يقول: «سافر بطيران الأوقات الممتعة». ويستمتع ركاب درجة رجال الأعمال بالجلوس في مقاعد مجهزة ليستلقوا عليها مع دعامات منفصلة لإراحة الأكتاف ووجبات طعام من اختيار الذواقة يقصد بها إرضاء الذوق المميز الشهير لمؤسس الشركة السيد موليا نفسه. ويستفيد جميع الركاب من خدمات العناية والإطعام التي يقدمها سرب من المضيفات الجوّيات اللواتي يرتدين تنانير حمراء قصيرة جداً وينتعلن أحذية حمراء لها وقع معدني. وعليه فليس من المستغرب أن السفر الداخلي للركاب جواً في الهند قد ازداد بنسبة (24.2) بالمئة في العام الفائت وحده. ويقدر بأن (100) مليون هندي جديد من الطبقة الوسطى سوف يصبحون مسافرين محتملين جواً بحلول عام (2010).

وقد ازدادت حركة الطيران الدولي إلى الهند بنسبة (18) بالمئة العام الماضي. وبدأ ريتشارد برانسون رئيس شركة الخطوط الجوية «ڤيرجن» بالسفر بالطائرة إلى الهند من لندن ثلاث مرات أسبوعياً في عام (2005). وكان قد أعلن أنه يرغب في الحصول على حصة رئيسة في شركة طيران محلية هندية أيضاً[42]. ولجأت شركة طيران «جيت ايرلاينز» Jet Airlines الهندية إلى توسيع شبكة مساراتها لتشمل أوروبة، جنوب شرق آسية، والشرق الأوسط. وتقدمت بطلب للشروع في تقديم خدمات النقل إلى الولايات المتحدة في عام (2007). وتسيِّر شركة «كونتننتال ايرلاينز» ContinentalAirlines رحلاتها دون توقف من مدينة نيو آرك الأمريكية إلى دلهي، كما تقوم شركة طيران «أمريكة ايرلاينز» American

Airlines بتنظيم رحلات جوية مباشرة من شيكاغو إلى دلهي، وكذلك الأمر بالنسبة لطائرات شركة «دلتا» للخطوط الجوية التي تحلق دون توقف من مطار جون اف. كيندي إلى بومباي. ويزداد السفر جواً في درجة رجال الأعمال من وإلى الهند في حين تقوم الشركات الدولية بالتوسع في أعمالها في الهند، وتتوسع الشركات الهندية في عملياتها في الخارج. وتزداد أيضاً حركة السياحة سواء إلى الهند أوعن طريق سياح هنود يقضون إجازاتهم في الخارج - ينفقون ما بين 3,000 دولار و5,000 دولار على إجازاتهم في الغرب - ويتجاوز الطلب على الرحلات الجوية الدولية عدد الرحلات المتوافرة كثيراً.

ويعني وجود المزيد من شركات الطيران والمزيد من الركاب وجود المزيد من الطائرات. وكانت آخر شركة طيران عاملة وهي «انديغو» IndiGo، قد أدهشت الحاضرين في معرض الطيران في باريس عام 2005، بتقديم طلب لتأمين أسطول كامل من مئة طائرة نفاثة من طراز ايرباص A320 الحديثة. كما قدمت شركة «كينغفيشر ايرلاينز» طلباً بالحصول على مجموعة كبيرة من طائرات إيرباص الحديثة. وتتوقع شركة بوينغ لصناعة الطائرات تلقي طلبات من الهند للحصول على طائرات لأغراض تجارية في حدود مبلغ يتراوح ما بين 25 مليار إلى 35 مليار دولار على مدى العشرين عاماً القادمة. وطلبت شركة الطيران الهندية في تلك الأثناء أربعاً وثلاثين طائرة من مؤسسة «إيرباص» الأوروبية للصناعات الجوية تبلغ قيمتها (2.5) مليار دولار ونصف المليار دولار تقريباً.

إن كل من يسافر إلى أو داخل الهند يدرك بصورة مؤلمة الضغط الذي يشكله هذا التطور الخارق للعادة على مطارات البلاد. وكنت قد قمت بثلاث رحلات إلى الهند ما بين شهر تشرين الثاني 2005 وأيار 2006، وتعاملت مع ما مجموعه اثنتي عشرة رحلة جوية داخلية، ولم تكن أي من رحلاتي - أَقلتني طائرات شركات «جيت ايرويز»، «كينغفيشر» و«انديان ايرلاينز» تقلع في الوقت المحدد. وكانت بعض الرحلات الجوية تؤخر عدة ساعات. وكانت اللازمة المكروهة المستخدمة من قبل شركات الطيران الداخلي الهندية عندما يتم تأخير إحدى الرحلات «نأسف للإزعاج». والإزعاج هو تعبير لطيف عن كونك عالقاً في مطار مع توفر أسباب راحة محدودة للغاية وخيارات قليلة باستثناء الجلوس والانتظار إلى وقت غير محدد.

وللشروع في معالجة هذه المشكلة، التزمت الحكومة الهندية بإعادة بناء وتحديث أكبر مطارين في البلاد في مدينتي دلهي وبومباي. وتجري أعمال التنفيذ بالشراكة ما بين القطاعين الخاص والعام، وتملك فيها سلطة مطارات الهند حصة بنسبة (25) بالمئة. وبالإضافة إلى ذلك، يجري التخطيط لإنشاء مطارات جديدة في مدينتي بنغالور وحيدر أباد، مع اختيار خمس وثلاثين مدينة أصغر لتحديث مطاراتها[43].

وهذه كلها أخبار سارة. إلا أنه وكما كان الوضع في الهند على مر التاريخ، فقد كان هذا الجهد مثله مثل غيره من شؤون الارتقاء بالبنى التحتية التي تشكل حاجة ماسة، كان بمنزلة رد فعل على أزمة قائمة. وبإلقاء نظرة على الأرقام الهائلة على الجانب الذي يشهد تطوراً متزايداً، نجد هناك مخاوف مشروعة بأنه بحلول الوقت الذي يتم فيه إنهاء العمل بهذه التحسينات فإن حركة الطيران الهندية سوف تكون قد تجاوزت مجال الاستيعاب، وبأن الهند سوف تتخبط مرة ثانية للتكيف مع أزمة البنى التحتية. وتقوم الصين وبشكل مغاير كلياً بإنشاء بنية تحتية متقدمة كثيراً عما هو مطلوب. وينوه الخبراء الذين يتابعون شؤون البلدين بالبنية التحتية الأفضل كثيراً للصين كميزة مهمة على الهند. ولا يمكنني إحصاء عدد الساعات التي أمضيتها وأنا عالقة في حركة سير خانقة وأنا أتحرك بصعوبة للوصول إلى مكان لقاءٍ أو موعد عشاء على بعد أقل من عشرة أميال. ومرة تلو المرة كان عليّ أن أُلغي مواعيدي أو أجعل الناس يلغونها من جانبهم لمجرد أنه كان من المستحيل الوصول إلى مكان اللقاء في الوقت المحدد. ولا يمكن لمحرك السيارة وهو في حالة دوران بطيء أن يغذي بالكهرباء جهاز تكييف الهواء على مستوى يمكن أن يخفف من شدة الحر القائظ. وهنالك متسع من الوقت للتمعن في الركاب الموجودين في السيارات المحيطة وإتمام عملية إجراء الاتصالات الهاتفية أو إرسال الرسائل الإلكترونية إن لم تكن البطارية تعمل في هاتفك الخليوي أو هاتف البلاكبيري Blackberry. وكانت ابنة عمي التي تعيش على الطريق البحري في بومباي قد انطلقت بالسيارة في العام الماضي لاصطحاب أولادها لحضور عرض يقدم لصالح جمعية خيرية على أحد المسارح في باندرا، وهي أقرب ضاحية إلى المدينة. وبعد مرور ساعتين، أسقط في يدهم وهم عالقون داخل حركة السير قرب البيت وعادوا أدراجهم. والسؤال هو ما إذا كان بالإمكان تنفيذ أعمال التحسينات بشكل سريع بما فيه

الكفاية لجعل الهند بلداً تنافس الصين فيما يتصل بالبنى التحتية عدا عن ذكر ماليزيا، سنغافورة وغيرها من المراكز التجارية الإقليمية.

المقتنيات الثمينة

جاء في تقرير عن الثروات في العالم: أن غياب البنية التحتية ليس له من تأثير مثبط على عملية الإنفاق من جانب الهنود من ذوي الثراء الفاحش، فقد ازداد عدد الأفراد الذين يحصلون على نسبة عالية من صافي قيمة ممتلكاتهم في الهند بنسبة (14.6) بالمئة في عام 2004[44]. وفي عام 1996، تم ضم ثلاثة أثرياء هنود إلى قائمة «فوربس» **Forbes** الخاصة بأصحاب المليارات. وبعد عشر سنوات بالضبط كان هناك ثلاثة وعشرون هندياً على القائمة. ومعظم هؤلاء الهنود من أصحاب المليارات حققوا ثرواتهم في الطفرة التي تشهدها وسائل التكنولوجيا الحديثة في الهند، بمن فيهم عظيم بريمجي (11 مليار دولار) رئيس شركة «ويبرو» العملاقة لتكنولوجيا المعلومات، وسونيل بهارتي ميتال (4.9 مليارات دولار؛ ولا تربطه أية قرابة بلاكشمي ميتال رئيس شركة بهارتي للمشروعات الهاتفية المشتركة) وتولسي تانتي (3.7 مليارات دولار) مالك شركة «سوزلون» للطاقة التي تولدها الرياح. ويحتل موكيش وآنيل امباني المرتبة الثالثة والرابعة بين الهنود الوارد ذكرهم في القائمة بثروة تبلغ (71) مليار دولار و(5.5) مليارات على التوالي، وتسلم كل منهما حصة في شركة ريلاينس **Reliance** وهي الشركة التي أسسها والدهما دهيروبهاي آمباني، وكانا ناشطين في تحقيق تقدم في أعمال الشركة قبيل وفاة والدهما في عام (2002)[45]. وأكثر هؤلاء ثراء هو لاكشمي ميتال رجل الأعمال وأحد أقطاب صناعة الحديد الصلب المقيم في لندن (20 مليار دولار).

والعديد من هؤلاء الهنود من أصحاب الثروات الضخمة معروفون بأسلوب الحياة البسيط الذي يعيشونه، لا سيما أولئك الذين حققوا ثروتهم في حقل تكنولوجيا المعلومات. فعظيم بريمجي يستقل طائرات رحلات جوية تجارية ويقود سيارة من طراز «تويوتا». ويقال: إن نارايانا مورثي صاحب شركة انفوسيس **Infosys** يقوم بغسل أطباقه بنفسه. أما شريكه في

انفوسيس،ناندان نايلكاني، فهو على نحو مماثل شخص بسيط متواضع، ويرد على بريده الإلكتروني بنفسه.

إلا أن الكثيرين من الهنود الأثرياء ومع أنهم غير مدرجين ضمن مجموعة أصحاب المليارات -حتى الآن- لا يجدون حرجاً في إنفاق أموالهم على السلع الفاخرة وعلى أسلوب حياة مترفة. واستناداً إلى المجلس الوطني الهندي للبحوث الاقتصادية التطبيقية، فإن (53,000) أسرة في الهند كانت تحصل على إيرادات سنوية تبلغ عشرة ملايين روپية أو زهاء (250,000) دولار في عام (2005). وهو رقم كان يتوقع أن يرتفع إلى (140,000) أسرة بحلول عام (2010). أما القسم الذي يتلو: أي الأُسر التي تكسب من 5 إلى 10 ملايين روپية (125,000 دولار إلى 250,000 دولار) فسوف يرتفع عدده إلى 250,000 أسرة بحلول نهاية العقد الحالي.

انتقلت مؤسسات العلامات التجارية الأجنبية الفاخرة إلى الهند لإرضاء الأغنياء وتلبية رغباتهم. وكان أثرياء الهنود قد اعتادوا أن يلجؤوا للسفر إلى الخارج لإشباع ميولهم واختيار ما يناسب أذواقهم، ثم يقومون بدفع مبالغ ضخمة من الرسوم الجمركية على مشترياتهم عند الحدود الهندية. وقد بات بإمكانهم الآن أن يتسوقوا في وطنهم. فدار أزياء «شانيل» Chanel الفرنسية تمتلك متجراً داخل فندق «امبريال» في نيودلهي الذي جرى ترميمه بشكل رائع. وفي متجر متصل ببهو فندق «اوبروي» بمدينة بومباي تقوم مجموعة «شوبارد» ببيع مجوهراتها من الألماس في حين تبيع «بياجيت» الساعات المعروفة باسمها. وبإمكان الهنود شراء حقائب من تصميم دور أزياء «لوي ڤويتون» أو «فيندي» وأحذية «فراتيللي روسيتي» وملابس «دولتشي وغابانا» «كلوي»، «ستيلا ماك كارتني» أو «ڤالنتينو». أما شركة «ب.أم.دبليو» BMW للسيارات فهي في سبيها إلى افتتاح مصنع لها في الهند لإنتاج سياراتها من سلسلة 500 و700. وتعمل شركة «مرسيدس» في تصنيع وبيع السيارات في الهند منذ عام (2001).

وتضم الأملاك الفاخرة في الهند مساحات واسعة من الأرضيات الرخامية وأشجار النخيل المزروعة في أصص من التراب، وسجاد فاخر يدوي الصنع تدوسه الأقدام. وهناك إما قطع أثاث أثرية أو مقلدة تجمع ما بين الطراز الإنكليزي والهندي مع صور مطبوعة

وموضوعة ضمن إطارات على نمط اللوحات الفنية الشائعة في بريطانية، وربما تكون هناك حتى لوحة أصلية لرسام مشهور أو لوحات «مشهد الشرفة» مرسومة بأسلوب حديث ومن النوعية التي يراها المرء في كل مكان في العالم، وكلها خطوط وزوايا واضحة مع لوحات فنية من رسم فنانين هنود معاصرين. ويدار جهاز التكييف المركزي للهواء بشكل ثابت إلى درجة باردة بصورة مزعجة. وقد خطر لي في زيارتي الأخيرة إلى الهند عندما تأرجح ميزان الحرارة بشكل منتظم فوق مئة الدرجة في الخارج، أن درجة الحرارة داخل الفنادق من فئة خمسة نجوم، قد جرى حسابها لإتاحة المجال لرجال الأعمال لارتداء بذة ملابس غربية بارتياح مع ستراتهم وربطات العنق المعقودة.

إن أكثر ما يلفت النظر في المؤسسات الفاخرة في الهند سواء كانت فندقاً أم مطعماً أم متجراً لبيع الملابس أم مكتباً أم منزلاً أنيقاً هو كثرة الخدمات المقدمة. فهنالك شخص ما موجود لكي يفتح باب سيارتك، لكي يفتح باب العمارة، لكي يعرض عليك أن يحضر لك شيئاً تشربه -فنجاناً من الشاي، مشروب الصودا المثلج، عصير جوز الهند الطازج- ولكي يقدم لك شيئاً لتأكله. وهناك شخص ما يمكن إرساله لإحضار أي شيء قد تحتاجه. وقد تكون هناك فتيات شابات يعرضن عليك طوقاً من أزهار الياسمين. وسوف تقدم المشروبات حتى لو كانت كوباً من الماء، على صينية عليها مفرش مزخرف. وكل هذا سوف يتم عمله مصحوباً بابتسامة، وسوف تتم مخاطبتك «سيدتي» أو «سيدي» طوال الوقت.

وليس هناك في الهند من تحفظ إزاء التباهي بما يملكه الناس لا سيما في بومباي. فالنساء الثريات يتزين بشكل خيالي بمجوهرات مصاغة من أحجار كبيرة من الماس، وبعقود اللؤلؤ الممتاز المستخرج من قاع بحر الجنوب، وأحجار الزمرد والروبي، وبمقدار كبير من الذهب - في منتصف النهار. وهن يتأنقن أيضاً لاصطحاب أولادهن من المدارس أو تناول الغداء مع بعض الصديقات. وإضافة إلى المصاغ والمجوهرات فهن يرتدين ملابس حريرية جميلة وقطنية محبوكة على نحو دقيق مع مسحة من الألوان النقية الفاتحة الخفيفة، ومكوية بشكل متموج؛ وتلمع أظفار أقدامهن المطلية على نحو متقن في صنادل لها عقب بسيط وأشرطة رفيعة جداً، وهن يخرجن من سياراتهن وينسبن إلى داخل الملاذ الهادئ الذي يقصدنه.

وليست هناك من حاجة أبداً إلى أي اتصال مع عامة الناس في الخارج، وإذا ما استدعت الحاجة وجودهم في الجوار، حسناً، هنالك أشياء لا يعيرها المرء اهتمامه ببساطة.

لقد كانت الهند وعلى مدى قرون مصدراً للسلع الفاخرة بالنسبة للعالم: أقمشة نسيجية رائعة، مجوهرات جميلة زاهية، وتوابل ذات روائح تدير الرؤوس. ومن السهل جداً أن يصاب المرء بالهوس كلياً وهو يتسوّق في الهند. فهناك أشياء جميلة جداً للشراء: أقمشة حريرية مطرزة، الخشب المُطعم بالصدف، الفضة المطروقة، أقراط بكميات وافرة. وانطلاقاً من هذا التقليد تنطلق العلامات التجارية الفاخرة الخاصة بالهند. وهي تستحوذ على التيار الاقتصادي الهندي المتنامي من أجل توسيع أسواقها في الداخل وفي الخارج. وهناك مصممو الأزياء روهيت بال، تارون تاهيلياني، ومونيشا جيسينغ الذين تباع أزياؤهم وتصاميمهم مقابل الآلاف من الدولارات. ويقوم تارون تاهيلياني بنشر إعلانات مأجورة على صفحتين من صفحات الإعلانات في المجلات الهندية المختصة بالموضة وأساليب المعيشة المُترفة، حيث يورد فيهما لائحة بأماكن عمله: روما وميلانو ولندن والرياض وسنغافورة وطوكيو وهونغ كونغ وميلبورن وميونيخ وفيينا وجنيف واستنبول والكويت ودبي ونيويورك وموسكو و ووست بالم بيتش. كما أنه يمتلك متاجر في دلهي وبومباي. وهناك عدد من بائعي المجوهرات لا يمكن حصره في قائمة. وهناك أيضاً مجلة «ڤيرڤ» «Verve» التي تعكس هذا كله، وتصوره بشكل ناجح.

ومجلة «Verve» مجلة نسائية هندية رائعة بصورة مذهلة، وهي ترضي حاجات القارئ المرفَّه الذي يسافر أو يعيش في الخارج، إلا أنه يجد متعته في الهند. تأسست المجلة قبل أكثر من عشر سنوات فقط، في العام 1995. وقد أبلغتني انورادها ماهيندرا، رئيسة تحرير وناشرة «Verve» أنها أصدرت المجلة لأنها وصديقاتها من النساء لم يتمكّن من العثور على مجلة كن يرغبن في قراءتها في الهند ويصدرها هنود، وتعكس حياتهنَّ واهتماماتهنَّ. وأوضحت لي ونحن نتناول طعام الغداء في بومباي العام الماضي «عندما بدأت بالعمل على المجلة كان الإنسان الساذج أو الغبي فقط سوف يقدم على ما أقدمت عليه. فمن الذي سيرغب بالإعلان في مجلتنا؟ من سيدفع مئة وخمسين روپية [أكثر قليلاً من 3 دولارات] ثمناً لمجلة

مثل مجلتنا؟ «وتظهر جاذبية لون بَشَرَة انورداها مع انسدال شعرها الأسود الطويل. وهي أم لابنتين في سن المرحلة الجامعية (مع أنك لم تكن لتعرف ذلك من مظهرها). وكانت قد قالت لي إنها وصديقاتها كن قد جعلن من ترتيب وتجهيز المنازل أولوية لديهن، إلا أنهن أردن أن يفعلن شيئاً إبداعياً. وقد كان العمل على إصدار مجلة أمراً باستطاعتهن القيام به في أوقاتهن الخاصة مما يترك لهن المجال للعناية بأولادهن. وتابعت قائلة: «لقد كبرت السوق من حول المجلة الآن، ولكن عليَّ أن أقول إنه حتى آنذاك (في ذلك الوقت كان عندي إحساس بالتغيير الوشيك في الهند عبر النساء اللواتي كنت أعرفهن. وقد كانت مجلتي تركز على المرأة الهندية وليس على السوق الهندية». ومنذ إطلاق «Verve» بدأت أنورادها ماهيندرا بإصدار مجلة عصرية للرجال تسمى «عالم الرجل».

وقد كانت ماهيندرا وهي صحافية سابقة تعمل حالياً بشكل مستقل وسبق أن عملت لصالح جي. والتر ثومبسون ووكالة الإعلانات والدعاية التي يمتلكها في مدينة بوسطن، كانت ملتزمة منذ البداية باعتماد أسلوب كتابة جديد وقيم عالية في إصدار مجلة «Verre». فجودة الورق و الطباعة و عرض الموضوعات و التصوير و تصميم الغلاف و المقالات في الداخل كلها جزء من مجموعة صقيلة خلابة مماثلة في براعة إعدادها لمجلة «فوغ» Vogue أو «ڤانيتي فير» Vanity Fair.

وقالت بفخر: «إن مهنة الحصول على المحتوى الدولي، مثل شخصية أجنبية مشهورة، هو أمر سيقوم معظم النشرات المرخصة بإعادة طباعته من عدد مجلة أخرى أو مطبوعة أخرى، ولكن إذا ما قمنا نحن بالعمل، فسوف نجعل أحد صحافيينا يتولى إنجازه، وإلا فإن قراءنا سيرون أنه مضمون مختلف كلياً من حيث النوعية. وفيما يخص موضوع الغلاف الذي دار حول الممثلة البريطانية ليز هيرلي، فقد كان بإمكاننا وبسهولة أخذ المادة من جهات النشر التي تقوم بنشر ما لديها من تقارير في الصحف والمجلات في وقت واحد إلا أننا لم نفعل ذلك. بل قمنا بإعدادها بأنفسنا.

وتدور مجلة «Verve» بمجموعها حول العلامات التجارية للسلع الفاخرة. وتتضمن الجهات المعلنة في المجلة «فيرساتشي»، «ڤاشرون كونستانتين»، «شانيل»، «اسكادا» «ڤان كليف واربيل»، «لا بريري»، ومجموعة من الهنود من مصممي الأزياء، والمجوهرات،

ومهندسي الديكور. وهنالك إعلانات سخية عن عروض الأزياء تستهلك صفحة كاملة أو صفحتين متقابلتين، إضافة إلى مقابلات مع شخصيات مشهورة إلا أن المجلة ليست كلها موضوعات خفيفة فهنالك مقالات عن الاتجاهات الثقافية المعاصرة، وعن الأفراد الذين يحدثون تأثيراً مهماً في محيطهم. وهي تنشر كذلك صوراً فوتوغرافية فنية.

ولدى مجلة «ڤيرڤ» معجبون مهوَّسون بها خارج الهند. وهم يتولون القيام بعملية البيع مباشرة عبر متاجر هارودز Harrods وسيلفردجز Selfridges في لندن. وقد أشركتني آنورادها في الاطلاع على رسائل تلقتها بالبريد الإلكتروني من قراء من أنحاء العالم، وكذلك من مجلات معروفة تطلب صوراً نشرت بشكل حصري في مجلة ڤيرڤ، وأرفق أحد المعجبين الجملة الآتية « أحب أن أمسك بيدي نسخة من المجلة حيث إنني أعاني عوارض الانقطاع عن الهند». وعندما سألتها ما إذا كانت تخطط لإصدار أي طبعات أجنبية، أجابت: «الآن هو الوقت المناسب لإصدار طبعة أمريكية في الولايات المتحدة. وقد أصبحت «ڤيرڤ» موضع إعجاب بالغ بالنسبة للهند المعاصرة، وبالنسبة للثقافة الهندية الحديثة. ونحن نتلقى اتصالات من قبل طلاب يدرسون في أوروبة والولايات المتحدة يقولون فيها: إنهم يكتبون عن مجلة ڤيرڤ، وسوف نصدر طبعة في دبي أولاً. كما أننا نتعاون مع العلامة التجارية ساتيا بول Satya Paul في سنغافورة. إننا نقيم تحالفات كثيرة. ونحن نرغب في تقديم عدد يضم مختلف السلع، ويكون مخصصاً للعلامات التجارية الفاخرة عن طريق تغطية المناسبات المهمة وورش العمل».

ساتيا بول هي علامة تجارية هندية أخرى مثيرة للاهتمام. فعندما امتلك سانجاي كابور المدير التنفيذي المسؤول النشط لشركة «غينيسيس كولورز» Genesis Colors مبنى ساتيا بول في عام 2002، كان عبارة عن دار أزياء لا بريق لها لبيع الساري، الذي كان يجري التخلي عن ارتدائه نتيجة للطفرة الاستهلاكية في الهند. وهي الآن إحدى أسرع العلامات التجارية نمواً، حيث تتوسع بنسبة مئة بالمئة كل عام. وهنالك خمسة وعشرون متجراً لبيع العلامة التجارية ساتيا بول في الهند مع بيع ثياب الساري في غيره من منافذ البيع بالتجزئة أيضاً. فكيف حقق كابور مثل هذا النجاح وهذا الانقلاب المدهش؟ ولمعرفة حقيقة الأمر، توجهت للقائه في بيته في نيودلهي.

يعيش كابور في الطابق الثاني من منزل مؤلف من كتلة واحدة مطلي باللون الأصفر الباهت، ويقع في منطقة سكنية جميلة جنوب مدينة دلهي - وقد تكلمت معه في صبيحة يوم شتوي جميل في غرفة معيشته الفسيحة. كانت نوافذ الشرفة الصغيرة التي تطل على الحديقة مفتوحة على مصراعيها وقد ملأ صوت زقزقة العصافير أرجاء المكان. ونظراً للحس العصري الذي تعطيه التصاميم الحديثة للعلامة التجارية SatyaPaul، وخطوطها القوية، وألوانها الخصبة الغنية فقد دهشت للأثاث الهندي التقليدي الموجود في الغرفة والمحفور بشكل منمق. وكان كابور، الذي نشأ في سنغافورة ويحمل درجة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة روتشستر يرتدي بذة أنيقة بلون واحد أخضر باهتٍ وربطة عنق.

وعندما سألته عما فعله لإنجاح «ساتيا بول» وتحويل الساري، وهو ثوب تقليدي جداً، إلى شيء حديث جداً ومعاصر جداً، أجابني: «لقد قمنا بدمغ تصاميم ساتيا بول بالفن الحديث، وأعمال موندريان Mondrian، كليمت Klimt، ماتيس Matisse، وكاندينسكي Kandinsky، كما استعنا بفن الخط، فأضفنا خطوطاً جميلة مكتوبة باليد على طول القطعة من الساري، التي تتدلى فوق الكتف المسماة «پالو» «Pallu». وطبعنا أبياتاً من الشعر الصوفي على أقمشة الساري. وحتى إننا وضعنا متنزّه سنترال بارك Central Park على إحداها. كما أن اللون مهم جداً وكذلك جودة الطباعة، ونحن لدينا وحدتنا الخاصة التي تُعنى بإتقان عملية الطباعة. وقرع جرس الهاتف في غرفة مجاورة فاستأذن للرد عليه. وعندما عاد قدم لي بعض الشاي قبل أن يستطرد في شرح المزيد من التفاصيل عن خطته.

«لقد كان جميع مصممي الأزياء في الهند مشغولين في تجهيز ثياب نجوم السينما. حسناً، إن المرأة الهندية العادية لا تعيش مثل ممثلة السينما وهي معجبة بها، لكنها لا تتماهى معها. هي ترغب في أن ترتدي ثياباً جميلة، وأن تشعر بنفسها جميلة في المساء، ولكنها بحاجة إلى ثياب عملية أثناء النهار. وقد قمنا بتصميم ثياب الممثلة المغمورة مونا سينغ، التي ظهرت في البرنامج التلفازي الذي يتمتع بشعبية كبيرة (لا أحد يشبه جاسي) فارتفعت مبيعاتنا بعد ذلك بشكل سريع. وكانت تصاميمنا توجد في كل غرفة معيشة من كل منزل من منازل الطبقة الوسطى في الهند. وقد حققنا زيادة بنسبة أربعة وخمسين بالمئة في مبيعات المخازن، التي تضم النوعية ذاتها من السلع في العام الماضي».

وبالإضافة إلى الارتباط طوال الوقت بعقد لتصميم أزياء خاصة بمسلسل تلفازي يحظى بشعبية واسعة، فقد جعل سنجاي كابور علامة ساتيابول التجارية ترتبط بمناسبات مختلفة تماماً عن بعضها، مثل جمع التبرعات الخيرية، وحفلات الموسيقا الكلاسيكية الهندية، والمعارض الفنية. وهو يقول بحماسة: إن ما نصنعه هو فن قابل للارتداء. والساري هو أكثر الأثواب أناقة يمكن لامرأة أن ترتديه، وهو يبرز مفاتن الأجساد كلها. إنه أكثر زي أنوثة في العالم. ومع ذلك فإن معظم النساء الهنديات الشابات اللواتي يمضين معظم وقتهن وهن يرتدين سراويلات الجينز، لا يعرفن كيف يلبسن ستة أمتار من قماش الحرير. ولجعل ارتداء الساري أسهل بالنسبة لأولئك الزبونات المحتملات «فقد اخترعنا الساري البنطال، المصمم بخصر مطاطي، وعليه فأنت تقومين أثناء ارتدائه بدفعه للأعلى فقط، وإلقاء القطعة الطويلة فوق كتفك، وها أنت جاهزة للانطلاق. إلا أن تسعة وتسعين بالمئة من مبيعاتنا تكون من أزياء الساري التقليدي».

تولت شركة «ساتيا بول» تصميم أزياء موظفي شركات الطيران أو موظفي الشركات الفندقية الهندية، التي ترغب في أن يكون لها مظهرٌ متميزٌ، لكنها تريد من موظفاتها من النساء أن يرتدين الساري. كما تقوم الشركة بتصميم ربطات العنق وغيرها من الإكسسوارات. وقال لي كابور وصوته يمتلىء فخراً: «إن ثمانين بالمئة من موظفينا هم من النساء، ولا سيما كل أفراد المكاتب. إنني أنظر إلى الخارج باتجاه المساحة المخصصة لوقوف السيارات، وأرى جميع هذه السيارات من طراز مرسيدس متوقِّفة هناك، وأفكر «تمهل لحظة، إنني لا أدفع لأولئك الفتيات ما يكفي لشراء سيارة مرسيدس: ولكن أنت تعلمين، أن هناك شعوراً قوياً جداً في الهند اليوم يبعث على الارتياح بين الناس العاديين. فالأطفال الصغار فخورون بأنهم هنود. وهم يتمتعون بالأمان في عملهم، وكان من المعتاد في السابق أن يقلدوا اللهجة الأمريكية ربما، ولكن ليس بعد الآن. إنه لأمر رائع أن تكون هندياً. أما هؤلاء النسوة، فهن ينحدرن من عائلات لا يستلزم وضعها أن يخرجن للعمل، إلا أنهن يرغبن بأن يكن هناك في مكان ما في الخارج، ويفعلن شيئاً إبداعياً وهن يأتين ويعملن بجد. وعندما نكون منكبين على العمل في مشروع ما يكون الجميع هناك حتى الساعة العاشرة مساءً، الجميع.

ولقد تعجبت كيف أن شركة تقوم بتصنيع أزياء الساري، وحتى الطراز المعاصر منها المُطبّع بلوحات فنية معاصرة، باستطاعتها أن تتوسع خارج الهند.

وهو يقول لي: «إن الساري لباس جميل جداً، والهند بلد حار جداً، والأزياء الهندية رائجة جداً في أوروبة والولايات المتحدة، غير أن الهند تنشط أيضاً في منطقة الشرق الأوسط وفي جنوب شرق آسية. وهنالك جاليات غنية من الهنود في كل مكان. وقد قررنا التوجه إلى سنغافورة ودبي أولاً، ثم سنرى، ربما لندن، لكننا نقوم بتوسيع عملنا في الهند كذلك. وسوف نفتتح تسعة متاجر جديدة هنا. ونحن نتوسع داخل المدن متوسطة الحجم. إن تجربتنا مع البرنامج التلفازي: «لا أحد يشبه جيسي» قد أظهرت لنا أن هناك سوقاً لأزيائنا في كل أنحاء الهند».

هنالك العديد من مصممي الأزياء الهنود يقومون ببيع تصاميمهم عبر المتاجر الراقية القائمة في أوروبة، والشرق الأوسط والولايات المتحدة. كما تقوم شركة «ساتيا بول» بتنفيذ أعمالها بشكل ناجح في بريطانية و فرنسة و الولايات المتحدة و إسبانية و دبي و سنغافورة. ونتيجة لتحقيق (10) إلى (15) بالمئة من عائداتها من هذه الأسواق الأجنبية، فإن الشركة باتت على استعداد لفتح متاجرها الخاصة بها. وستكون شركة «ساتيا بول» أول شركة تصميم أزياء هندية تقوم بهذه الخطوة مسجلة بذلك علامة فارقة في مجال البيع بالتجزئة في الهند. وهذا دليل على المستوى الجديد من الثقة الموجود في الهند بأن مصمم الساري يعتقد أن النساء في أوروبة وفي الولايات المتحدة مستعدات لارتداء نماذج حديثة من أحدى أقدم الألبسة في آسية.

أطعمة العلامات التجارية تغزو الهند

كل حي وكل بلدة صغيرة في الهند لديها متعهدون يزوِّدونها بالوجبات الغذائية الخفيفة مع وصفات لإعداد الطعام تحرص العائلات على حفظها بعناية. ويقوم صغار الباعة ببيع أطعمة خفيفة في الشارع أو في دكاكين صغيرة جداً، فيكسبون عيشهم بقدر ما في استطاعتهم. إن التنوع الموجود في الأطعمة الخفيفة والحلويات المتوافرة لا حدود له في الواقع. وهناك أيضاً البائعون الذين يجرّون عربات ذات دواليب صغيرة لبيع عصير قصب السكر الطازج،

ومعهم جذوع طويلة من القصب الأخضر بانتظار تمريرها عبر العصارة وسكب عصيرها الحلو المذاق في أكواب ثخينة لونها أزرق مائل للخضرة. ويقوم غيرهم ببيع ماء نبات جوز الهند، حيث يقطعون الجزء الأعلى من جوزة الهند الخضراء بوساطة سكين عريضة ثقيلة، ويغرسون مصاصة في الجزء الأعلى منها حتى تتمكن أنت من شرب السائل عبر الغلاف الصلب للثمرة. ويجلس الناس القرفصاء أمام أوعية ضخمة من الزيت الساخن يجري فيها قلي مكونات من الخبز والطحين والأرز مثل الـ «باجياس» bhajias، «پوريس» Puris، «ساموزاس» samosas، «ڤاداس» vadas وغيرها من الأكلات الخفيفة المملحة لذيذة المذاق. وتشتهر مدينة بومباي بأكلة تسمى «پاوپاجي» Pau bhaji، وهي خليط من الخضراوات المضاف إليها التوابل، وتقدم مع فطائر طرية من الخبز الأبيض، ويشتق اسمها Pau من البرتغاليين الذين أدخلوا مثل هذا الخبز إلى الهند في القرن السادس عشر. وهناك «پامي پوري» Pami puri، «پيل پوري» bhel puri، «سيف پوري» Sev puri. وكلها تشكيلات متنوعة من وجبات الطعام الخفيفة، التي يجد الهنود رابطاً بينها وبين البائعين المتجولين، مثلما يفعل سكان مدينة نيويورك بالنسبة للنقانق الساخنة التي تباع في الشوارع داخل شطيرة من الخبز وبسكويت «بريتزل» الهش المملح الذي يتخذ شكل العقدة.

ويقطع الناس مسافات طويلة للحصول على حلوى معينة أو وجبة خفيفة معينة من متجر معين. وكل هندي يعرف أين يوجد أفضل بائع لوجبات Pau bhaji أو boti kabab أو حلويات mithai، في بلدته. ولأسرتي ولع خاص بالحلويات التي تأتي من متجر بهاجات بندا في جيتبور، وهي بلدة صغيرة في إقليم كاثياوار بولاية غوجارات. وهناك شيء ما لا يمكن تقليده في نكهة وقوام هذه الحلويات الطرية الخاصة المصنوعة من الحليب، بحيث لا يمكن للآخرين مهما كانوا ماهرين، أن يقلدوه على الإطلاق. وسوف يكون الأمر مأساوياً لو كانت الهند ستفقد كل هذه الخصوصية الإقليمية وكل هذا التنوع، وتصبح «أمة وجبات سريعة» مثل الولايات المتحدة، حيث تعرض كل بلدة سلسلة المطاعم ذاتها والمقاهي ذاتها ومحال السوبر ماركت ذاتها.

وتنفق الأغلبية الساحقة من المستهلكين الهنود، سواء أبناء الطبقة الوسطى الأدنى، من ذوي الطموح، وكذلك الشباب الذين ما زالوا يعيشون في بيت الأسرة، نقودهم على

سلع دنيوية يستطيعون دفع ثمنها أكثر كثيراً من أزياء الساري المصممة من قبل دور أزياء معروفة. وتزدهر المبيعات في مجالات الوجبات الخفيفة والسلع المخصصة للعناية الشخصية والألبسة و مشروبات المقاهي و المطاعم والأفلام. ولا تزال الهند تمثل نسبة صغيرة من المشروعات التجارية لشركة كوكاكولا في القارة الآسيوية، (9) بالمئة فقط مقارنة بنسبة الـ (21) بالمئة للصين[47]. وفي عام 2005، ارتفعت مبيعات «النامكينز» namkeens وهي خليط من الأكلات الهندية الخفيفة التقليدية بنسبة (43) بالمئة، والبسكويت بنسبة (18) بالمئة[48] وأكثر من (75) بالمئة من سوق المأكولات الخفيفة في الهند لا تحمل علامة تجارية، أي أنها يجري تأمينها عن طريق الملايين من صغار الموردين المحليين. وترى الشركات العملاقة المختصة بالأطعمة الخفيفة التي تحمل علامات تجارية مثل بيبسيكو ونستلة ترى في هذا الوضع سوقاً محتملة ضخمة لمنتجاتها[49].

ولا تزال توجد وبكثرة، البسطات الصغيرة، والأسواق التي تقام في الهواء الطلق، والبائعون المتجولون الذين يتنقلون لبيع بضائعهم مطلقين صرخات تشق الآذان وتصل إلى ربات البيوت داخل مطابخهن التي تدب فيها حركة ناشطة. وتشتري الأسر الفاكهة والخضراوات الطازجة يومياً مع أن هذا الأمر بدأ يتغير. وكان اللبن الزبادي يُصنع دائماً في منزل أسرتي كل يوم، ولا زال كذلك أحياناً، غير أنه يجري في أغلب الأحيان الآن شراؤه في أوعية بلاستيكية ثم يحفظ في الثلاجة. وما زال أفضل «لاسي» Lassi * يُحضر حسبما أذكر من قبل أحد المختصين، ويقدم في قدح من الآجر أو الطين المحروق، ويتم التخلص منه بعد الاستعمال؛ ويعطي الطين المحروق للمشروب نكهة تشبه التراب مما يضفي عليه لمسة لذيذة خاصة لا يمكن تقليدها. وتقوم شركة «آمول» في هذه الأيام بتصنيع شراب «لاسي» المُعلب ومذاقه طيب جداً بالرغم من فقدان نكهة الطين المحروق فيه. وما زال بإمكانك وأنت في مدينة دلهي القديمة أن تحظى

بشراب اللاسي التقليدي إلا أنه يجب عليك أن تعثر على الزقاق الخلفي الصحيح الذي يسير متعرجاً عبر الحي القديم، والأمر يستحق العناء لأجل ذرات من بذور حب الهال

* مشروب اللبن الرائب المثلج المضاف إليه الملح والتوابل أو السكر (المترجمة)

السوداء المنثورة على سطح اللبن السائل المغطى بالرغوة؛ ولأجل التحدي المتمثل في تمييل القدح المصنوعة من الطين المحروق إلى فمك، من دون أن تجعل إطاراً من الرغوة البيضاء يعلق على شفتك العليا.

وتشهد سوق الأطعمة الهندية المبيعة بالمفرق -السوق الخاصة بمنتجات الأطعمة التي تحمل علاقات تجارية- نمواً كبيراً بنسبة (30) بالمئة سنوياً. ويتوقع أن تصبح رابع أكبر سوق في العالم بحلول عام (2020). ومن مجموع ما قيمته (750) مليون دولار في الوقت الحاضر، فإنه يتوقع أن ترتفع مبيعات الأطعمة بالمفرق إلى (37) مليار دولار بحلول عام (2015)[50]. وتسارع شركات بيع الأطعمة بالمفرق إلى توجيه عادات شراء المأكولات لدى الهنود باتجاه المخازن الكبرى للبيع بالتجزئة، حيث تطغى الأطعمة الموضبة داخل علب خاصة على كل ما عداها. وتقف محالُّ السوبر ماركت والأسواق الضخمة على أهبة الاستعداد للحلول محل (12) مليون بقالية تقوم بتزويد معظم الهنود بأطعمتهم المحلية والسلع الاستهلاكية البسيطة[51]. وتعد شركات ريلاينس، آ.تي.سي ماهيندرا شابهلاب، بهارتي، تاتا ترنت، غودريج أغريڤور وإيسار أغروفيت مجرد بعض الشركات الهندية المهمة والمؤثرة في ميدان بيع المأكولات بالتجزئة، ومعظمها تبحث في كيفية تطوير «سلسلة الأغذية الباردة»، لإحضار المنتج من الحقل إلى السوق دون أن يفسد في الطريق. وهناك آخرون يبحثون كيفية إحضار السوق إلى المزارعين، وتزويدهم بالمعطيات التي سيحتاجونها، كالبذور، والأسمدة، ووحدات التخزين المبردة، لتأمين الإمدادات الخاصة بهذه المشروعات الجريئة.

ومع كون الغالبية من شعب الهند تعيش في مناطق ريفية، حيث تتوافر لديها فرصة ضئيلة للتسوق، فإن الجزء الأعظم من القدرة الاستهلاكية للبلاد تظل غير مستغلة بالكامل تقريباً. وقد أبلغني شيف سيڤاكومار المدير التنفيذي لفرع المشروعات التجارية الدولية التابع للشركة الهندية الكبرى للتبغ والأطعمة المصنعة عندما التقيته في مدينة حيدر آباد العام الماضي: أنه «على الرغم من انخفاض متوسط دخل الفرد في الريف الهندي مع وجود قاعدة استهلاكية تضم سبعمئة مليون نسمة، وهو أكثر من عدد سكان الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي مجتمعين، فإن إمكانيات تداول عمليات البيع بالتجزئة في المناطق الريفية الهندية ما زالت هائلة جداً ولم تستغل بعد. وأحد الأمثلة المفيدة على كيفية استثمار إمكانية

البيع بالتجزئة للفقراء من المستهلكين هو عبوة الكيس الورقي الصغير و كيس الشامبو أو غسول الشعر ومسحوق الغسيل والمستحضرات التجميلية أو الطبية السائلة ومسحوق القهوة -عدِّديها أنت- فهذه كلها يمكن تغليفها بسهولة بمقادير ضئيلة لبيعها بأسعار زهيدة. وقد دأبت شركتا المنتجات الاستهلاكية العملاقة بروكتر وغامبل Procter & Gamble ويونيليفر Unilever وغيرها من الشركات، وعلى مدى سنين، على بيع هذه الأكياس التي تسد حاجة فرد واحد فقط، في الهند وفي غيرها من الدول النامية، وتجني منها أرباحاً طائلة.

شركة وول مارت تتطلع إلى السوق الهندية

يعتمد العديد من رؤساء الشركات التجارية والمسؤولين الحكوميين، الذين تحدثت معهم في الهند، على الأسلوب الأمريكي لعملية البيع بالتجزئة القائمة على نطاق واسع، وعلى المشروعات الزراعية لإنجاز العمل. وحسب تعبير رئيس شركة «ويبرو» عظيم بريمجي «فإن مجال البيع بالتجزئة آخذ بالانفتاح. وسوف تدخل كمارت Kmart ووول- مارت Wal-Mart في عمليات واسعة النطاق في مجال توريد السلع وتصنيعها لصالح الأسواق العالمية والأسواق الهندية. وسوف يوجد ذلك الأمر الكثير من الثراء والغنى. ومن المؤكد أن عمليات البيع بالتجزئة وتنفيذ المشروعات الزراعية على نطاق واسع سوق يوجد وفرة في المال والثروة. والسؤال هو، لمن؟

ولقد وجدت أن معظم الهنود الذين كانوا على علم بالأمر أو كانوا يعتزمون دخول ميدان الطفرة المتوقعة المتمثلة في إنشاء سلسلة لا تنفصل من السلع من المنتج إلى المستهلك، لم يكن لديهم أي إدراك مطلقاً بأنه (1) قد يكون هناك أي جانب سلبي للأمر، أو (2) ربما تكون هناك سبل مختلفة لمعالجة هذا الأمر، فبعضهم يربح كثيراً جداً، والبعض الآخر يربح فقط. كما أنه من الصعب فهم المنطق المتعلق بكيفية احتمال تمكن نموذج من المشروعات الزراعية الهادفة إلى دعم إنتاج أراضي الريف، من السير في عملية ترحيل مبهمة لأعدادٍ كبيرةٍ من المزارعين الذين يعملون على نطاق ضيق، وتحويل المزارعين الهنود إلى مستهلكين. فالبلدات المهجورة فعلياً التي تسمى مدن الأشباح في منطقة وسط الغرب الأمريكي حيث تم إيقاف عدد كبير جداً من المزارع الأسرية عن العمل من جانب المؤسسات العملاقة العاملة في

المشروعات الزراعية، وهجر الناس بيوتهم وبلداتهم بحثاً عن عمل بأجر منخفض في المدن الأكبر، هذه البلدات من الصعب أن تكون نموذجاً جيداً لتمكين المناطق الريفية في الهند.

تعد شركة Wal-Mart أكبر شركة للبيع بالتجزئة في الولايات المتحدة، وهو الاسم الذي يغلب ذكره على لسان رجال الأعمال الهنود عندما يحدثونني عن شركات البيع بالتجزئة. إلا أن وول-مارت لم يحالفها التوفيق على مستوى العالم، سواء في مشروعاتها التجارية الداخلية أم الدولية. وللتخلص من هذا الوضع لجأت الشركة في العام الماضي إلى بيع مؤسساتها التجارية في كل من ألمانية وكورية الجنوبية بثمن منخفض، بعدما لحقت بها خسائر فادحة في كلا البلدين. فنموذج العمل ضمن مناطق واسعة وإجراء تخفيضات كبيرة لم ينجح في هذين البلدين وعمل كلاهما على تحسين الأنظمة الاقتصادية الصناعية فيهما مع إبداء تساهل بسيط تجاه التفاوت الاقتصادي. وفي شهر آب « أغسطس » من عام (2006) أعلنت وول-مارت وكنتيجة لعمليات البيع بأسعار رخيصة إلى حد ما، عن أول انخفاض فصلي في الأرباح يحدث أثناء عشر سنوات[52]. ولكن هموم ومصائب العمل التجاري الدولي لم تكن المشكلة الوحيدة التي عانتها وول مارت؛ فقد أقر إتش.لي.سكوت الابن المدير التنفيذي المسؤول لشركة وول-مارت «إننا، وبصدق تام نشعر بالخيبة إزاء أداء مبيعات وول-مارت الولايات المتحدة»[53].

ومع دعمها من قبل ألمانية وكورية الجنوبية، فقد ركزت وول مارت أنظارها بشكل أدق من أي وقت مضى على الهند. والوجود الوحيد للشركة فيها حتى الآن هو مكتب للعقود الخارجية في مدينة بنغالور. ولا يزال يجب على الحكومة الهندية أن تمنح التراخيص بفتح متاجر لبيع العلامات التجارية المتعددة المملوكة لجهات أجنبية؛ غير أن وول مارت لا تشعر بالقلق إزاء ذلك. وكان قد نقل عن آمي وايات المتحدثة باسم الشركة للشؤون الدولية قولها في صحيفة «ايكونوميك تايمز» الهندية «Economic Times»: «إن خطوات التعرية سوف تتيح لنا التركيز على أسواقنا الأساسية والبحث عن فرص جديدة في الأسواق الاستهلاكية النامية مثل الهند»[54]. ونقل المقال نفسه عن لوف غويل، المدير التنفيذي المسؤول لشركة «غروث فنتشرز» Growth Ventures وهي شركة استثمارية أمريكية تمتلك مصالح وأسهماً لها في مجالات البيع بالتجزئة، وصفه للخطوة التي اتخذتها شركة وول-مارت: بأنها رائعة، وأن

السوق الهندية هي سوق فيها عناصر للمنافسة أقل جداً من ألمانية وكورية؛ والطبقة الوسطى فيها تواقة لتطبيق الأساليب العصرية في عمليات البيع بالتجزئة، وللحصول على المنتجات العصرية التي تبيعها الشركات الغربية، التي تتبع نظام البيع بالتجزئة مثل وول-مارت».

ولدى الطبقة الوسطى في الهند حماسة واضحة تجاه شراء منتجات تباع بالتجزئة. وتحاول هذه الطبقة اختبار تجارب جديدة للبيع بالتجزئة مثل مراكز التسوق التجارية، ولكن معرفة ما إذا كانت هي ذاتها متحمسة لتقبل أساليب البيع بالتجزئة التي تختص بها شركة وول-مارت هي مسألة أخرى، ومعرفة ما إذا كان الهنود يرغبون في تقبل أساليب التوظيف التي تتبعها وول-مارت هي أيضاً مسألة أخرى. فشركة وول-مارت لا تقوم بخفض الأسعار فقط، فهي تخفض الأجور. ومن المحتمل أن الهنود ليست لديهم أي فكرة عما هم على وشك أن يتعرضوا له عدا عن ذكر العدد الكبير من المنتجين، والموردين، والموزعين، وبائعي التجزئة، سواء العاملين على نطاق واسع أم ضيق، الذين سوف يواجهون مشكلات في العمل عندما تقوم شركة وول-مارت بإرغامهم على القبول بأشياء مخالفة لرغباتهم عقب استقرارها للعمل في بلادهم. وهم لا يعلمون عن الضرر الذي تحدثه وول-مارت في المجتمعات المحلية، التي تنتقل إليها في الولايات المتحدة، ولا عن الكلفة الباهظة التي تترتب على الحكومات المحلية، وحكومات الولايات، والحكومة الاتحادية، نتيجة أجور المعيشة الأشبه بالكفاف، التي تدفعها شركة وول-مارت، وهم ربما لا يعلمون أيضاً بشروط العمل في مصانع الموردين والمعروفة برواتبها المتدنية والتابعة لشركة وول-مارت، أو أن صحيفة «نيويورك تايمز» New York Times ذكرت أن العمال في الصين، بنغلاديش، أندونيسيا، نيكاراغوا وسوازيلاند لجؤوا إلى مقاضاة الشركة في عام (2005). واتهموها بإخضاعهم للعمل القسري وبالإخلال بدفع أجورهم كاملة، ومنعهم من ممارسة حقهم في مخالطة زملائهم[55].

وبينما يمضي هذا الكتاب إلى الطباعة، بات الجو العام في مواجهة شركة وول-مارت سلبياً جداً في الولايات المتحدة إلى حد أن الحزب الديمقراطي أعلن عن وقوفه ضد الشركة ومعارضته لسياستها، وذلك يشمل كلاً من المحافظين أمثال جو ليبرمان من ولاية كونكتيكت، وقد اختار حالياً أن يصبح مستقلاً، والليبراليين أمثال نانسي بيلوسي من ولاية

كاليفورنيا[56]. وكان السيناتور المخضرم والمتنفذ جو بايدن عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ديلاور قد أدلى بتصريحات عنيفة ضد وول-مارت في الصيف الماضي، وأنبها على دفع أجور أقل من المعدل، قائلاً: «إن مشكلتي مع وول-مارت هي أنني لا أرى أية دلالة على أنهم يهتمون بمصير أفراد الطبقة الوسطى»[57]. وكان جورج ميللر وهو عضو في الكونغرس عن الحزب الديمقراطي من ولاية كاليفورنيا وعضو قديم عن الحزب في لجنة التربية والقوى العاملة التابعة للمجلس، أشد حدة في انتقاداته، مؤكداً في تقرير أعده عام (2004). أن شركة وول-مارت تقود السباق العالمي إلى الهاوية بقيامها بكبح مستويات الأجور، وتدابير الحماية في مكان العمل وقوانين العمل». ويورد التقرير تفاصيل عن التأثير السلبي للشركة على المجتمعات المحلية الأمريكية التي تقيم فيها مشروعاتها التجارية. وهو يقدر التكلفة السنوية بالنسبة لدافعي الضرائب لمتجر افتراضي تملكه وول-مارت يضم مئتي موظف بـ (420,750) دولار بما في ذلك المساعدة التي تقدمها الحكومة من أجل وجبات الغداء المجانية والمدعومة، وبرامج الإسكان المعانة، الرعاية الطبية، أقساط الضرائب وغيرها من التكاليف التي تنجم عن الأجور المتدنية وغياب المزايا والعلاوات المستحقة لدى وول-مارت[58].

إن آخر شيء يحتاج إليه المزارعون الهنود والموظفون المرتقبون للمتاجر هو أن يوضعوا تحت رحمة شركة مثل وول-مارت. وبينما تجمد الحكومة الهندية إعطاء الإذن لشركات وول مارت، وكارفور وغيرها من الشركات الدولية العملاقة المختصة بالبيع بالتجزئة، للعمل في الهند، فإن الشركات الهندية تستخدم النافذة التي لديها لادعاء حقها في الإمكانيات الريفية غير المستثمرة للهند وفي القطاع المالي للبيع بالتجزئة. ومن الأفضل لهم أن يسرعوا. فقد أعلنت شركة وول-مارت ومؤسسة «بهارتي انتربرايز» في تشرين الثاني الماضي عن مشروع تجاري مشترك لإنشاء المئات من المتاجر في أنحاء الهند، وهي خطوة يقصد بها الالتفاف على القوانين الحالية.

حكاية شاي

ولد سنجاي بهانسال في مزرعة للشاي في منطقة دارجيلينغ الأُسطورية الشهيرة في الهند. كان أَبوه مديراً لمزرعة كبيرة اكتسب شهرة بامتلاكه موهبة فطرية ومقدرة خاصة

على إحداث تحول في المزارع الفاشلة. وسنجاي، وهو رجل كفيّ في منتصف الأربعينيات من العمر، يتولى حالياً رئاسة مجلس إدارة «رابطة شاي دارجيلينغ»، ويمتلك شركة «شاي آمبوشيا» Ambootia Tea، التي تنتج أحد أغلى أنواع الشاي في العالم. وللحديث معه في موضوع الشاي سافرت إلى مدينة كالكوتا، حيث ما زالت تقام المزادات الكبيرة لبيع الشاي الهندي بالجملة.

يقع مكتب بهانسال على أرض منشأة تغليف الشاي التي يمتلكها بالقرب من ميناء كالكوتا على ضفاف نهر هاغلي العظيم. والمنشأة عبارة عن بناء منخفض من الإسمنت. وهنالك في داخل المبنى جو مريح، وضوء معتدل يتسرب عبر المَناور الموجودة في السقف، فيتكشف عن ألوان خضراء وبيضاء مائلة للصفرة، وكلمات مكتوبة بخط كبير ومطلية بالذهب عند الحائط الخلفي، تقول: «نقي وانسجام وإيقاعي وحيوي ومكتفٍ ذاتياً والطبيعة وشامل».

تحدثت إلى سنجاي بهانسال مدة ثلاث ساعات تقريباً. وقد انتهى حوارنا فقط لأنه كان عليَّ أن أغادر - كان بمقدوره أن يستمر في الحديث إليّ عن الشاي ثلاث ساعات أخرى. إنه يعيشه، يتنفسه، ويشرب مقادير كبيرة منه.

وكان قد اصطحبني في البداية في جولة على مستودع البناء، وأطلعني على مكان تخزين الشاي عندما كان يأتي من المزارع الواسعة الموجودة في مكان مرتفع عن سطح البحر عند سفوح جبال الهملايا، وكيف كانت تجري عملية فرزه وتصنيفه. وكوسيلة لاختبار مدى جدارتي تقريباً، كما شعرت، قدم لي عينات من الشاي لتذوّقها. وبمحض المصادفة كان الشاي الذي أعجبني أكثر، هو النوع الذي كان يعده الأفضل.

ثم عدنا أدراجنا إلى مكتبه. وتم إحضار أول فنجان من الفناجين العديدة من شاي دارجيلينغ ذي اللون الذهبي الباهت، وبدأ يروي لي حكاية الشاي في الهند قائلاً: «تشكل المؤسسة الصناعية الهندية للشاي المثال الأول للزراعة الصناعية. وقد أحضر البريطانيون نباتات الشاي إلى الهند من الصين، حيث كان لكل من يزرع الشاي طريقته في تخمير الشاي، وكان الشاي ثقافة كاملة بحد ذاته. ونظر إلى فنجاني وقال ناصحاً وهو يشير إلى

الفنجان وصحنه الصغير المصنوعين من الخزف الناعم المزوج برماد العظام والموضوعين أمامي: اشربي شايك، سوف يصبح مذاقه مراً إذا ما تركته مدة طويلة».

قام البريطانيون بإجراء تجارب منذ البداية فعمدوا إلى تطعيم نبتة شاي بأخرى، وجرَّبوا تشكيلات متنوعة وأنواعاً مختلفة من التربة. وأنشؤوا مشروعاً متكاملاً تماماً للزراعة العضوية للشاي، يقوم بأكمله على تركيبة تتألف من ثلاثة مستويات متدرِّجة. وتعد منظومة الشاي البريطاني في الهند مثالاً توضيحياً لما يطرحه عالم الاقتصاد آدم سميث: الأرض زائد العمل، زائد رأس المال، زائد تنظيم المشروعات الاستثمارية. واحتسيت الشاي، وكان طعمه لذيذاً وخفيفاً على لساني بخفة غيمة تتحرك بشكل لولبي نزولاً من جبل كانتشينجونغا الضخم، الذي يبلغ ارتفاعه 28,168 قدماً، الذي يعلو منحدرات دارجيلينغ الحادة المكسوة بنباتات الشاي.

«كان هدف مالك المزرعة بيع الشاي للتاجر. وكان هدف التاجر إيجاد سوق للشاي. وتم إحداث مراسم جديدة كاملة بين أبناء الطبقة الارستقراطية في أوروبة أثناء تحلقهم لتناول الشاي. وقد أقبلوا عليه بشكل غير معقول. وبعد ذلك بوقت طويل كانت أول علاوة تمنح للعمال في انكلترة هي استراحة قصيرة من العمل لتناول شاي الصباح. ولدى إدراك أن العمال قد جددوا نشاطهم باحتساء الشاي، جرى اعتماد استراحةٍ أخرى لتناول الشاي بعد الظهر. وبدأ الفقراء بشرب الشاي، وكانت تلك أول مرة يقومون فيها بغلي الماء قبل شربه، وبذلك خفَّضوا من نسبة الأمراض والوفيات».

ووصلت وجبة أخرى من شاي دارجيلينغ. وقدم في فنجان مختلف عليه رسم دقيق أزرق اللون منقوش على خزف نفيس جداً، كان الشاي محتجزاً كأنه خيال داخل وعائه شبه الشفاف. ولعدم رغبتي في ترك هذا الشاي يصبح مر المذاق مددت يدي لارتشفه على الفور.

«حذارِ، إنه ما زال حاراً جداً، وإذا ما أحرق لسانك فلن تكوني قادرة على تذوق أي شيء، كوني صبورة». فسحبت يدي.

وتابع قائلاً: «قامت الشركات التجارية البريطانية بتولي عمليات التصنع والتصدير، وأقدمها شركتا «بروك بوند» Brook Bond و Lipton «ليبتون». وكان متجر هارودز في لندن

قد بدأ نشاطه كحانوت لبيع الشاي. وازدهر نظام توطين نبتة الشاي وزرعها في مناطق معينة. وكان على البريطانيين لدى إعلان الاستقلال، أن يتخلوا عن ملكيتهم لمزارع الشاي الموجودة في الهند. وكان تجار «الماروار» Marwar* معروفين جيداً بالنسبة لهم، فوقع عليهم الخيار الأول لشراء حصص المزارع التي كان لا بد من بيعها. والنتيجة هي أن أكثرية مزارع الشاي يملكها سكان الماروار حالياً. وتولى أمر مزارع جيمس فينلاي مؤسسو شركة تاتا «Tata» الذين تملكوها في الستينيات، لكن معظم المزارع مملوكة من قبل سكان الماروار. وتعد الملكية المحلية قليلة بشكل مؤسف حيث تبلغ خمسة بالمئة فقط؛ ويقصد بالمحلية البنغاليون في إقليم البنغال، التاميل في إقليم تاميل نادو، والآساميون في ولاية آسام». وسنجاي بهانسال مواطن بنغالي.

أمسكت بفنجاني وارتشفت الشاي الدافئ، واستنشقت بهدوء البخار الذي تصاعد من سطح السائل المتلألئ، وقلت: «إنه لذيذ الطعم».

«يجب أن تكون نكهة الدارجيلينغ داخل فمك. إنها رائحة الشاي الذكيَّة؛ تلك التي تميز الدارجيلينغ عن بقية أنواع الشاي في العالم. إن سمته الفريدة هي نتيجة لخليط نادر من التربة والمناخ وأصناف النباتات والأساليب الزراعية وأساليب التصنيع. وليس هناك من شاي مثيله في العالم».

وانتظرني ريثما أعيد الفنجان في مكانه على صحنه حتى أتمكن من استئناف الطباعة على جهاز الحاسوب المحمول، الذي زوَّدني به، لكي يكون بمقدوري التقاط كل كلمة من حديثنا.

«استمرت المجموعة الأولى من المالكين الهنود في اتباع نظام توطين النباتات، فأبقوا على ما ورثوه من الأجهزة الضخمة المستخدمة في تسويق أنواع الشاي التي كانت تخص شركات زراعة الشاي التي استوطنت الهند -شركتا ليبتون وبروك بوند- التي كانوا قد توارثوها. وكانت الأسواق والمنتجون منفصلين تماماً، وليس هناك من تواصل بينهم. وتغير هذا مع قدوم جهاز الفاكس. فقد كان بإمكان شركات الشاي إرسال فاكس وإجراء اتصال فوري بالمصدرين إلى الأسواق الموجودة في أنحاء الهند. وكان النموذج الاستيطاني مفيداً

* أكبر منطقة في إقليم راجستان في الوسط الغربي من الهند. (المترجمة)

فقط حتى انفتاح الاتصالات في التسعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ثم انهارت صناعة الشاي الروسية مع انهيار الاتحاد السوفيتي. وكان الروس يحصلون على الشاي الهندي بالمجان تقريباً، نظراً لواقع التبادل النقدي الموات للروبل والروبية. وبحلول نهاية الثمانينيات، كانت اللعبة بأكملها قد انتهت وانهار كل شيء».

عندما سنحت لي الفرصة لشراء شركة «آمبوشيا» جعلت لها الأفضلية على غيرها. فقد كانت الطبيعة المغامرة للمشروعات الاستثمارية الصناعية في حال خمود. وتسلل إليها العجز وعدم الكفاية. إذن ما الذي فعلناه في شركة آمبوشيا؟ لقد أصبحنا من «الهبّيين» *. ربما بدت على ملامحي علامات الدهشة لأنه ضحك وأردف قائلاً: «أقصد زهاء ستٍ من أصل خمسمئة من العائلات التي تتاجر بالشاي في الهند. كنا شباباً، ورأينا أن هناك فرصة مواتية للقيام بعمل شيء مختلف. كان هنالك اتجاه جديد في قطاع الغذاء، والأغذية العضوية. وكان من السهل زراعة شاي دارجيلينغ عضوياً. ولقد تحسنت نوعيته في الواقع مع اتباع طرق الزراعة العضوية.

ووصل فنجانٌ ثالثٌ من الشاي. كان بلون العاج الأبيض المائل للصفرة ومحاط بإطار ذهبي عند حافته. واكتفيت هذه المرة بابتسامة شاكرة للرجل الذي وضع الفنجان أمامي وواصلت عملية الطباعة.

«كنا ننتقد النظام الذي كان قائماً. ورأينا أن الفرصة الملائمة تكمن في مجال العقارات والأملاك إلا أنه كان علينا أن نحذف من التركيبة قطار شحن نباتات لتوطينها في مناطق أخرى، وهكذا قمنا بالخطوة الأولى وسحبنا إِنتاجنا من سوق المزادات.

سألته: «كيف يعمل نظام المزادات؟»

«سوف أقول لك. هنالك أساساً ست فئات من الوسطاء يتوزعون ما بين المزرعة وزبون البيع بالتجزئة الأخير: السمسار/المزايد، تاجر هندي، سمسار دولي، تاجر دولي، بائع جملة محلي -شخص يشتري الشاي بالأطنان لأجل سوق محلية محددة مثل أسترالية أو

* الشباب الذين يطيلون شعورهم ويرتدون ملابس غير مألوفة ويتحدون النظم الاجتماعية السائدة. (المترجمة)

فرنسا أو الولايات المتحدة- وبائع جملة على نطاق أضيق الذي يفصل الشاي إلى وحدات من العلب المغلفة ويبيعها بالكيلو غرام.

«إننا شركة الإنتاج الوحيدة التي تمتلك هيكلية منظمة متكاملة. فمكاتبنا التجارية موجودة هنا، ومستودعاتنا موجودة هنا، وعملية التصنيع التي نجريها تتم هنا. نحن شركة صغيرة، لكننا نمتلك أفضل نوعية على الإطلاق، وذلك يتيح لنا التعامل مع أحسن بائعي تجزئة للشاي في العالم».

ثم نهض وأخذ عن الرف كتاباً للزينة من القَطْع الكبير، مزخرفاً بألوان عديدة، ويباع بثمن مرتفع، وأَراني إياه. كان كتاباً نفيساً عن تاريخ شركة بيع الشاي الفرنسية الممتازة «مارياج فرير». وكان عليه إمضاء شخصي باسمه بتوقيع فرانك ديسان، المدير العام للشركة. وأراني صورة منشورة في الكتاب تبدو فيها منتجات شاي دارجيلينغ الذي تنتجه شركة امبوشيا معروضة في مكان بارز في المتجر الجميل التابع لشركة «مارياج فرير» في حي مارييه بباريس. وبعد عدة شهور قمت أنا بزيارة إلى مقر الشركة، وكانت هناك لافتات معلقة تقول بالفرنسية: «وصل شاي دارجيلينغ الجديد»، وعندما سألت البائع عن المزرعة التي جاء منها الشاي أجاب: آمبوشيا». «وأوضح لي السيد بهانسال» لم يسبق لنا أن حددنا سعراً للشاي الذي تنتجه شركتنا والذي نرسله إلى شركة مارياج. ومهما كان المبلغ الذي يرغبون بدفعه، فإن ذاك هو ما نأخذه، فتسير الأمور على ما يرام. أننا نكن تقديراً كبيراً لأنواع الشاي التي لدينا، ولأذواقنا؛ وهم كذلك. ولهذا السبب تسير الأمور على ما يرام.

واستطرد قائلاً: «كان أول مشروع مرخص لزراعة الشاي عضوياً على أملاكي هو مزرعة مللوتار، ثم مونتيڤيوت، ثم آمبوشيا. وفي عام 1997، حصلنا على ملكية عقارات في ولاية آسام. وفي العام (2004)، والعام (2005)، امتلكنا خمسة عقارات أخرى من الأراضي ونحن في طور تحويلها إلى مزارع عضوية. وسأقول لك: لماذا قمت برفع سلسلة القيمة. فلأَننا مزارع عضوية باستطاعتنا أن نتجاوز العراقيل المرتبطة ببيع منتج من العالم الثالث بشروط المنتج، والتعليب، والتصميم؛ وهذا يعطينا الجرأة لكي نبيع مباشرة إلى هارودز، وأن نزيح تلك الفئات الست من الوسطاء. ولأننا نتولى أمور المزارع الخاملة فننعشها ثم نحولها إلى

حقول عضوية ذات قيمة عالية ومرغوبة، ونلغي الوسطاء، فإننا نتقدم من مرحلة انعدام الربح إلى مرحلة تحقيق الربح بنسبة مئة بالمئة».

ولقد بدأنا في مزرعة آمبوشيا بثورة في طرق تصنيع أصناف الشاي يدوياً، وأحدثنا تغييراً كاملاً في آلية الإنتاج. ولدينا ثمانية وعشرون صنفاً منها ليست من النوع الأسود أو الأخضر التقليدي. وكنا أول الناس الذين قاموا بإطلاق عملية تصنيع أنواع الشاي الأبيض في الهند وشاي «التنين الأسود» الصيني المخَّمر جزئياً قبل تجفيفه، والذي يجمع خصائص الشاي الأسود والأخضر معاً، وقد حققت مبيعاتنا رواجاً هائلاً في الأسواق. ولا تباع أنواع الشاي التي ننتجها في متاجر «هارودز» و«مارياج فرير» فقط، ولكن أيضاً في متجر «هول فودز» Whole Foods و«دين وديلوتشا» Dean and Deluca. كما تشتري شركة شاي «ستاش» Stash حاجتها من الشاي من مزارعنا. ونحن نملك بطاقات بيان المواصفات الخاصة بنا وهي «انيكا» «Ineeka» و«تري - ليلا» Tre-leela وتباع في الولايات المتحدة فقط. إنه أغلى شاي يُحضّر في عبوة الأكياس الصغيرة الذي تبيعه فروع متاجر «هول فودز» و«تارغت» Target في الولايات المتحدة. وأنا الآن المالك الوحيد للأراضي المزروعة بالشاي الذي لا ينحدر من نسل أحد الملّاك الأصليين، وأنا أبيع أغلى شاي في العالم».

أبلغني السيد بهانسال: أن هناك ثمانيَ وسبعين مزرعة في منطقة دارجيلينغ تغطي ثمانية عشر ألف هكتار، وتستخدم مباشرة خمسين ألف عامل، وتوفر المرافق السكنية لمئتي ألف شخص. وكنت قد زرت بلدة دارجيلينغ في عام 1986، واستقلني القطار الذي يشبه قطار الألعاب في كتب الحكايات، حتى آخر نقطة ممتدة من الجبل، اضحك مع أولاد المدارس الذين كانوا يقفون على جانب الطريق يطلبون توصيلهم مسافة محطة أو اثنتين، وأنا أتشبث بالقسم الخارجي من القطار الصغير أزرق اللون. وقد أقمنا في فندق «ويندرمير» Windermere البريطاني العتيق والذي بدا من عصر آخر وكما أذكر، كان يقدم يومياً ونحن جلوسٌ، طعام غداء يتألف من الدجاج بالكاري، وكذلك حلوى الحليب والدقيق، وكان علينا أن ندفع مبلغاً إضافياً لقاء الحطب الثمين لإيقاد النار في غرفتنا الباردة كل مساء.

وفي فندق «ويندرمير» بمناظره الخلابة والتلال المحيطة المغطاة بنبات الشاي والهابطة عمودياً بانحدار شديد تحت حقول تحظى بعناية جيدة، كان من السهل تخيل حياة

المستوطنين البريطانيين، سواء كانوا من ملاك المزارع أو زواراً موسميين لمنطقة التلال هرباً من حر الصيف القائظ في السهول الهندية وفي البلدة. وكانت تنتظم على جانبي طريق المجمع التجاري مبانٍ مزخرفة مشيدة على الطراز الإدواردي، تعلوها قمم مثلثة الشكل شديدة الميلان. وعندما تم تشييد هذه المباني، وعلى مدى عقود لاحقة، كان مجتمع دارجيلينغ يتبع نظاماً هرمياً تندرج طبقاته في ترتيب دقيق بحيث تضم ملاك المزارع البريطانيين، السياح من البريطانيين أو المقيمين منهم ممن يملكون بيوتاً ويأتون في مواسم معينة، الأثرياء من البنغال الذين يأتون في المواسم أيضاً، المشرفين على إدارة المزارع من الهنود الذين يتم إحضارهم من منطقة السهول، وعمال نيباليين. ولا تزال المزارع موجودة والعمال موجودين، إلا أن باقي العالم قد اختفى. ولا تزال الحياة في منطقة دارجيلينغ تتمحور حول الشاي. فصناعة الشاي هي رب العمل الرئيسي والنشاط الاقتصادي الرئيس في المنطقة. وتنتج ولاية آسام أكثر من (400) مليون كيلو غرام من أصناف الشاي سنوياً. ويبلغ الإنتاج الكلي للعالم من الشاي (3) مليارات كيلو غرام، والهند هي أكبر منتج له، حيث يصل إِنتاجها إلى (850) مليون كيلو غرام، وتستهلك زهاء 700 مليون داخلياً.

«إن الذي يعمل لديّ في تذوق الشاي هو الأفضل في الهند، ولا بد لي أيضاً من أن أكون متذوقاً بارعاً للشاي. ومن بين المزارع الثماني والسبعين الموجودة في دارجيلينغ، بإمكاني أن أميِّز طعم منتجات ستين منها من مجرد ارتشاف الشاي. وبإمكانه هو أن يميز الثماني والسبعين جميعها».

لقد أَسهمت الأسعار المرتفعة للشاي التي تطلبها شركة دارجيلينغ في وجود الكثير من الشاي المغشوش، الذي يرفق ببطاقات مواصفات مزوَّرة. فمنطقة دارجيلينغ تنتج فقط (10) ملايين كيلو غرام من الشاي سنوياً، غير أن ما يقدر بـ (40) مليون كيلو غرام من الشاي يجري بيعه في أنحاء العالم باعتباره يحمل علامة دارجيلينغ. إن إحدى مهام سانجاني بهانسال في الحياة هي حماية نزاهة بطاقة المواصفات، التي تحمل اسم «Darjeeling»، ولهذا السبب فقد لجأ إلى منظمة التجارة العالمية.

ويقول بهانسال موضحاً: «إن ما نحاول أن نفعله هو حماية شاي دارجيلينغ في السوق الدولية حتى ينتقل المنتج من كونه إنتاجاً سائباً إلى إنتاجٍ معبأ. مثل مشروب الشمبانيا

تماماً. فالشمبانيا لا بد من تعبئتها في قناني في إقليم «شمبانيا» في فرنسة. وإلا لا يمكن تسميتها شمبانيا. وأنتِ تروجين له في الأسواق حتى تتمكني من حمايته. ونحن نقوم بشن حملة تسويق واسعة لتثقيف الناس بمنتجات «Darjeeling».

ونتوقف لنحتسي شاينا. ويقول بهانسال وقد افتر فمه عن ابتسامة صغيرة: «الشاي هو احتسٍ وتَمهل. والقهوة هي احتسِ وأسرع».

«إننا نقوم بابتكار آلاتنا الخاصة. فالآلة التقليدية حجمها ضخم، وطاقة العمل لديها غير كافية البتة -إنها تحرق الفحم الحجري والخشب- ويعتمد وقودها على الفحم، وإنتاجيتها ضئيلة بشكل سيء جداً. وكانت قد صممت منذ أكثر من مائتي عام من قبل البريطانيين، ليس بغرض الاستخدام في تصنيع الشاي، وإنما لأجل أفران الخبز. إنها مصنوعة من معدن الحديد المصبوب، ومن المفترض أن هذه الآلة تنتج الأفضل في العالم! إننا نعمل على هذا الأمر عبر المعاهد الهندية للتكنولوجيا، ومع مؤسسة «كاراغبور» Karagpur لتكنولوجيا المعلومات. وتقوم الحكومة بتمويل هذا المشروع وتتم إدارته من قبلي، وبدأ تنفيذه في العام الماضي. كما قمت بالتخطيط لإقامة مركز للتميز سيكون مقره بلدة دارجيلينغ. وسوف يُعنى بشؤون العلوم والعمالة الزراعية. وستشكل مدينة كالكوتا قاعدة لعمليات التسويق والتوزيع.

وفي الوقت الراهن، ومهما يكن التحول الذي سأحققه في السنوات الثلاث إلى الخمس القادمة، فإنني سوف أعمل على زيادته عشرين مرة. وأنت تشعرين فعلاً في الهند الآن، بالحيز المفتوح الذي يمكنك أن تغامري فيه بالدخول في أي نشاط استثماري. وهدفي هو نقل مهنة العمل في تجارة الشاي من شيء له علاقة بالخدمات إلى عمل تجاري عصري مختلف كلياً، حيث يمكن دعم مزايا ممارسة الأنشطة الاقتصادية الاستثمارية إلى أعلى مستوى. وفي أثناء السنوات الخمس القادمة سوف أتحوَّل إلى إنسان مجنون. إنني أَرى بالفعل، الفرصة الملائمة هنا، حيث لدينا مئة مليون شخص يمتلكون القدرة نفسها على كسب المال مثلما هو الحال في الولايات المتحدة. وسيرتفع ذاك العدد إلى مئتين وخمسين مليوناً. وأنا لم ألجأ هنا إطلاقاً إلى المساومة على الأسعار مع بائع الخضراوات والفاكهة، لأن هذا يعد استغلالاً،

ولكنني كنت يقظاً -واعذريني على العبارة- لأطلب أسعاراً لم يُسمع بها سابقاً مقابل منتجات الشاي التي أبيعها. لم أُضفْ سنتاً زيادة؛ أنا حصلت على دولار إضافي».

وسألني ما إذا كنت أرغب في تذوق نوع آخر من منتجات الشاي المتوافرة لديه. فأجبت بأنني أود ذلك، ولكنني شربت كمية كبيرة جداً. ولا أدري ما إذا كنت أستطيع أن أعبر عن تقديري له بشكل صحيح، فقال: «إذن من الأفضل التوقف». ثم أقوم أنا بحفظ المستند في جهاز الحاسوب المحمول في حين يقوم مساعده بتجهيز القرص المدمج لي. وخرجنا إلى ساحة المستودع الرئيسة وكان الليل قد أرخى سدوله بينما كنا نتكلم. ويسقط وهج الغسق الأزرق الغامق عبر صف النوافذ على المنضدة، حيث أرى الفناجين التي استخدمناها لتذوُّق الشاي وقد جرى غسلها ووضعت من أجل تجربة عملية تذوّق أخرى.

وتابع قائلاً: أنت تعلمين أن العادة كانت توجب أن تكوني عضواً في إحدى النقابات لمزاولة هذه المهنة. وقد كان والدي موظفاً وأنا أحقق النجاح بوصفي مستثمراً في مشروعات تجارية. إنني أَعد نفسي هندياً عادياً، ولكن ولأن مزاولة الأنشطة الاقتصادية والأعمال الحرة كانت مقيدة لمدة طويلة، فإنني أعد شاباً ناجحاً جداً في مؤسستنا الصناعية.

وصلنا إلى الباب الأمامي. وجلس سائقي في مقعده وأدار مفتاح محرك السيارة.

«إذن» قال سنجاي بهانسال في ختام حديثه وهو يرافقني إلى سيارتي ويفتح لي الباب: «هذا هو ما يحدث في الهند. لم يكن باستطاعة والدي أن يحلم بما أنوي أن أفعله».

الفصل الرابع

600,000 قرية

في شهر نيسان الماضي، وفي أوج موسم الجفاف، وبينما كانت التقارير الإخبارية عن إقدام المزارعين على الانتحار في فيداربها، وهي منطقة تقع شرقي ولاية ماهاراشترا، ترد إلى الصحافة الهندية أسبوعياً، تلقيت اتصالاً هاتفياً من صديق قديم يعمل صحافياً في بومباي اسمه ديليب دسوزا. وقد دعاني للانضمام إليه في رحلة كان ينوي القيام بها لزيارة القرى التي كانت تشهد حوادث انتحار المزارعين. وبعد ذلك بإسبوعين كان القطار الليلي قد استقلني من بومباي إلى نيابور، أقرب مدينة رئيسة إلى القرى الواقعة في منطقة فيداربها التي أردنا زيارتها.

ولم أكن قد سافرت بالقطار في الهند منذ أيام الدراسة، حينما كان الوقت متاحاً لي بشكل أكبر في حياتي، وكانت الخطوط الجوية الوحيدة آنذاك والمكلفة نسبياً، التي تفتقر إلى الكفاية بصورة بالغة، هي شركة الخطوط الهندية التي تديرها الدولة. التقيت ديليب في البيت في باندرا، واستقلنا قطار السكة الحديد الذي ينتقل بين المدينة والضواحي إلى محطة دادار، حيث استقلّنا قطارنا إلى نيابور. ودادار هي عبارة عن محطة تقع في الضواحي، قذرة وهزيلة ووجودها ليس عبثياً. كان هواء أواخر نيسان دافئاً وثقيلاً حتى في المساء. وزحف زوجان من الفئران على طول السكك الحديدية، وانزلقا داخل فتحة بمحاذاة أسفل رصيف المحطة في حين بدأ القطار بالسير. وقام ديليب الذي يقول: إن أجهزة تكييف الهواء تجعله يشعر بالغثيان، قام بمساعدتي على إيجاد مكاني في عربة نوم مكيَّفة من الدرجة الثانية، ثم تابع طريقه إلى عربته غير المكيفة. كان القطار ممتلئاً بالكامل تقريباً عندما صعدنا إليه، حيث كان قد انطلق من محطة المغادرة والوصول الرئيسة للسكة الحديد في مدينة بومباي المسماة تشهاتراباتى شيفاجي.

ومحطة تشهاتراباتي شيڤاجي المعروفة سابقاً باسم «فيكتوريا تيرمينوس» Victoria Terminus ولا تزال تسمى (VT) من قبل السكان المحليين، مثال رائع على الهندسة المعمارية البريطانية الفخمة في الهند، وتتألف من مجموعة مبانٍ ضخمة من الأبراج المستديرة مع مزاريب منحوته في هيئة وجوه غريبة، تبرز إلى الخارج من قبته المركزية فوق السطح. وكان الشعور سيكون مختلفاً بالمغادرة من إحدى أكثر محطات القطارات شهرة في العالم بدلاً من محطة دادار البسيطة الخاصة بالضواحي، وكنت أشعر بالأسف لأننا لم نمتلك الوقت لكي نشق طريقنا إلى قلب المدينة لنركب من هناك. ولكن في اللحظة التي دخلتُ فيها إلى العربة، عادت كل قصص الأدب الروائي عن السفر بالقطارات في الهند ولاسيما قطار الليل، تتدافع في رأسي. ثم قمت بترتيب حقائبي وأومأت بالتحية إلى الركاب الذين يشاركونني مقصورتي، امرأة في منتصف العمر، وامرأة أكبر منها مع زوجها، ورجلان اثنان. وبعد زهاء ساعة من مغادرتنا لمحطة دادار، دخل علينا خادمٌ حاملاً شراشف بيضاء منشَّاة، ومخدات وبطانيات غليظة من الصوف. وقام بتحويل مقاعدنا إلى مراقد للنوم مثبتة بثلاثة أوتاد، وبتجهيز أسِرَّتنا. وقد هدهدني للنوم الاهتزاز اللطيف للقطار، وصوت الطَّرق المخفف للدواليب وهي ترتج لدى مرورها فوق عوارض السكة الحديدية الواحدة تلو الأخرى: كإيقاع نبضات قلب كبير لأم حنون.

وعندما استيقظت، كنت قد عدت إلى الهند التي تذكرتها منذ ما قبل الازدهار الكبير، وعاد الخادم وجرَّد المراقد من أغطيتها وقلبها في الهواء لإعادة المقاعد إلى وضعيَّتها المستخدمة أثناء النهار. وشق الركاب بشعورهم المنفوشة وثيابهم المجعَّدة طريقهم للوصول إلى الحمام للاغتسال؛ وبادرت بدوري للاغتسال عند مرحاض ومغسلة مصنوعين من الحديد الثخين الذي لا يصدأ، ارتفاعهما منخفض وكلاهما كانا أكثر نظافة من المرافق الفظيعة، التي تذكرتها منذ سنين خلت. وقامت مجموعة من العاملين في المطبخ بالتنقل بين عربات القطار يقدمون الشاي الساخن وبيضاً مخفوقاً مطبوخاً بمادة دهنية لطعام الإفطار. كان معظم الركاب قد أحضروا معهم مأكولاتهم الخاصة. وهيؤوا للأكل رقائق القمح وأرغفة الخبز المخمر الذي يُصنع في بلادهم، والبسكويت والفاكهة. وكوني أفتقد قهوة الصباح التي أتناولها عادة اشتريت سخاناً صغيراً من الشاي لكن مذاقه كان حلواً للغاية فلم أتمكن من شربه.

وفي حين كان محرك القاطرة يبطئ من سرعته وهو يدخل المحطات الواقعة على طريقه، أطلق صفيراً حزيناً طويلاً. وهرع الباعة إلى القطار حاملين معهم البرتقال، وشرائح من جوز الهند الطازج، الفستق المحمص، المزيد من الشاي، والمشروبات الغازية الباردة، ثم غادرنا المحطة. وانسابت أمامنا المناظر الطبيعية للهند الممتدة على مساحات شاسعة في شريط سينمائي بالألوان لا ينتهي من البلدات المغبرة، والقرى المتكدسة على بعضها بالقرب من مساجد ذات لون أخضر فاتح، وتماثيل أكبر من الحجم الطبيعي في بذات زرقاء لزعيم الداليت **Dalit** (المنبوذون) الدكتور بهيماراو رامجي امبيدكار **Bhimrao Ramji Ambedkar**، أو أعلام بلون الزعفران الأصفر الغامق ترفرف فوق معبد هندي. وانفتحت الحقول بلونها الزمردي على الفضاء الباهت الذي لا نهاية له. وقام مزارعون بشوارب عجيبة يرتدون أحزمة من القماش على وسطهم وعمامات زاهية الألوان، بقيادة ثيران مخصية صبورة عبر صفوف من الحقول المرتبة. وأومضت شجرة غولموهار **Gulmohar** (شعلة الغابة) رائعة بأزهار قرمزية معتقة بوفرة من الألوان ما لبثت أن اختفت. وكان هناك فتيان يحملون عِصيّاً طويلة يقودون الماعز عبر الأخاديد القاحلة؛ ومشت النسوة وقد انتصبت ظهورهن بشكل مستقيم تحت حمولات ضخمة من الحطب أو العلف على رؤوسهن. وكانت هناك قطعان من البقر بظهورها المحدبة وعيونها الشبيهة بعيون الظباء، ومجموعات من القردة الكبيرة المتراخية بوجوهها السوداء تتهادى تحت ظلال شجرة مانجو قديمة مثقلة بالثمار، وأذيالها مرفوعة مثل علامة التعجب. وعبر القطار نهراً في بولغاون، وقد كان مجرد مجرى هزيلاً في ذاك الوقت من السنة يتعرج عبر طبقة رملية واسعة. وغاصت الجواميس راضية في الوحل بالقرب من طيور الكركي البيضاء التي وقفت متوازنة بين الأوراق الطافية من زنبق الماء؛ وكانت النسوة تضرب الثياب بعنف على الصخور المتلألئة بصورة متكررة لتنظيفها وانبسطت خلفهن ثياب الساري الزاهية لتجف في صفوف من الألوان غير المتسقة.

هذه هي الهند التي يعرفها معظم الهنود. فسبعون بالمئة من سكان الهند يعيشون في المناطق الريفية. وهناك (120) مليوناً من الأُسر العاملة في الزراعة في الهند. وهناك ستمئة ألف قرية.

وكنت أسافر بالقطار في طول البلاد وعرضها في الهند، مستخدمة الدرجة الثالثة وأنا جالسة على مقعدٍ خشبي قاسٍ،طويل، وسافرت بالدرجة الثانية العادية على مقعد متسخ منجَّد بمادة الفينيل، كما سافرت بالدرجة الثانية المزودة بجهاز تكييف للهواء. وفي إحدى المرات وفي رحلة استغرقت سبع عشرة ساعة جلست على حقيبتي في أحد الممرات والتوى جذعي بشكل مؤلم بعيداً عن ساقايّ بفعل اكتظاظ الناس. كنت أركب في مقصورة النساء في طريقي لحضور مهرجان پوشكار ميلا*، الذي يقام على هامشه معرض للمواشي والجمال يقبل عليه البدو الرحل بثيابهم البرَّاقة. وفي كل مكان حولي كانت هناك قرويات من راجاستان يرتدين ثيابهن التقليدية كاملة، وينشدن أغانيَ دينيةً ترددت عبر العربة، وكن يتبادلن الضحكات وهن يهدهدن أطفالهن في مهدهم، ويوبخن أطفالاً في أول عهدهم بالمشي، ويعيدون رواية قصص بذيئة.

تعود تجربة السفر بالقطار في الهند إلى القرن التاسع عشر. ويعد القطار، وهو ينزلق على قضبان منبسطة داخل مناطق داخلية واسعة لجلب المواد الخام إلى موانئ المدن الحيوية، تذكاراً مصنوعاً من الفولاذ لغزو كوكب الأرض على يد القوى الغربية الصناعية. فالطائرة النفاثة تقل الركاب إلى أيّ مدينة في الهند أثناء بضع ساعات. وتستغرق رحلة القطار وقتاً طويلاً، أياماً ولياليَ كاملة عبر بلد لا يشاهده أبداً ركاب الطائرات. وفي ختام الرحلة، وبعد تقاسم الوجبات الخفيفة، ومراقبة حقائب بعضهم أثناء استراحات الدخول إلى الحمام ومعرفة قصص حياة بعضهم واستماعهم إلى أصوات شخير البعض منهم، ويثير الفراق شعوراً بحزن غريب دائماً.

في بلاد القطن

من بين كل ثروات الشرق جميعها، كان القماش الناعم من القطن والحرير المحاك يدوياً هو الذي جذب الشركة البريطانية للهند الشرقية إلى الهند. ودفعت الشهية الأوروبية المفتوحة على أقمشة الكاليكو (أو الأقمشة القطنية الخام المسماة على اسم ميناء كاليكوت

* مهرجان ثقافي سنوي يقام في بلدة بوشكار المقدسة عند الهندوس، ويجتذب الحجاج لزيارة المعابد والاستحمام في بحيرة يُعتقد أن الإله براهما سبح فيها ذات يوم. (المترجمة)

الهندي الذي كانت تأتي منه) وأقمشة الموسلين والحرائر، والبيسلي المزركشة بالرسوم، والمشتق اسمها من بلدة بيسلي في سكوتلندا، دفعت الرجال الذين تم إرسالهم من إنكلترة من أجل توريد شحنات من هذه الأقمشة الفاخرة إلى حالة من الهياج. وقد خلب عقلهم الجشع فجمعوا واحداً تلو الآخر، ثروات كبيرة أو هلكوا أثناء المحاولة. وبهدف محاصرة تجارة النسيج قامت شركة الهند الشرقية ومن دون أية شفقة بإحالة كبار النساجين في الهند من وكلاء مستقلين يبيعون منتجاتهم الخاصة إلى موظفين للشركة، يقومون بحياكة ما يطلب منهم بأسعار تحددها الشركة ودون أن تكترث سواء رضوا بها أم لا. وكان مصير الذين اعترضوا قطع إبهامهم حتى لا يتمكنوا من الحياكة مرة ثانية إطلاقاً. وكان ذلك تصرفٌ وحشيٌ حكم عليهم بالموت جوعاً. وكان لتصدير القطن إلى إنكلترة دور في دعم الثورة الصناعية والدفع باتجاه اختراع وسائل تكنولوجيا جديدة لاستخدامها في أعمال الحصاد، وتصنيع وغزل وحياكة القطن ليغدو قماشاً. ونقلت المكننة عملية النسيج إلى خارج الهند وإلى مصانع جديدة في مدينة لا نكستر، بإنكلترة، التي شهدت نشاطاً كبيراً تركز على القطن الذي لم يكن لينمو أبداً في بريطانية الشديدة البرودة، وكانت أمتار القماش المنجزة تباع ثانية إلى الهنود.

زرع الإنسان القطن في الهند أول مرة قبل خمسة آلاف سنة. وتدل قطع النسيج القطني المأخوذة من الحضارة القديمة لوادي الأندوس على مهارة كبيرة في أشغال النسيج والطباعة. وكان هيرودوس قد أثنى على الأقمشة القطنية الهندية في القرن الخامس قبل الميلاد، وقامت الهند بتصدير القماش القطني إلى كل من اليونان وروما. ومن أنواع القطن التي تنمو في الهند هناك **G.herbaceum** و**G.arboreum**، وهذه أصناف متنوعة قصيرة التيلة. أما الأنواع الأمريكية من القطن التي تتميز بتيلة أطول **G.hirsutum** و**G.barbadense** فهي أيضاً تزرع فيها حالياً كما، تكثر أنواع القطن المهجنة. وهناك زهاء مئتي صنف مختلف من القطن يزرع في الهند، وتتم مواءمة أصناف القطن الطبيعي قصير التيلة بشكل جيد مع الظروف المحلية، وهو مناسب تماماً للحياكة اليدوية. وتتطلب آلات النسيج التي تعمل بالكهرباء أو الأنوال الكهربائية توفر المقاومة الأعلى للشد التي تميز قطن التيلة الأطول. وتحدد ملاءمة القطن للأنوال الكهربائية قياس جودته. والقطن ذو المقاومة الأعلى للشد والتيلة الأطول يحصل على علامة أعلى، وبالآتي يحصل المزارع على سعر أعلى.

والخصم الرهيب للقطن هو حشرة Anthonomous grandis Boheman، المعروفة بالأحرى باسم خنفساء القطن. وتطير الحشرات المجنحة مكتملة النمو في حقول القطن، حيث تتزاوج وتضع الإناث بيوضها في أزهار القطن. وتكبر الشرنقة داخل جوزة القطن التي تضم البذور فتتلفها. وكان المزارعون الهنود قد بدؤوا باستخدام المبيدات الحشرية في الأربعينيات من القرن الماضي. وقد كانت فاعلة في البداية بشكل رائع غير أن الخنافس سرعان ما أصبحت قادرة على المقاومة. وجاء بعد ذلك جيل جديد من المبيدات الحشرية تمكن من السيطرة على خنفساء القطن، ولكنها أصبحت مقاومة لهذه المبيدات على السواء، مع مرور الوقت. ويُستخدم سبعون بالمئة من المبيدات الحشرية في الهند في رش القطن، ومع ذلك فقد ازدادت مقاومة خنفساء القطن بشكل قوي جداً إلى حد أن الاستعمالات المتعددة للمبيدات الحشرية، التي وصلت إلى عشر دورات من رش القطن سنوياً، ليس بإمكانها السيطرة على هذه الحشرات.

وصل القطار إلى مدينة نايبور في الساعة الثامنة والنصف صباحاً. وكانت الحرارة قد بلغت الآن أكثر من مئة درجة فهرنهايت. ووجدنا خارج المحطة السائق الذي استأجره ديليب، والحمد لله أن ديليب كان بمقدوره تحمل تشغيل مكيف الهواء في السيارة، فطلبت من السائق أن يثبت برودته عند أعلى درجة. وتقع نيابور في وسط الهند بالضبط وقد تم اختيارها لتكون الموقع المستقبلي لأول مركز للشحن الجوي، حيث تعتزم شركة «بوينغ» بناء مركز صيانة جديد للطائرات لقارة آسية بأكملها هنا. وتشتهر نيابور عادة وبدرجة أكبر بكونها عاصمة البرتقال في البلاد. وكانت هنالك لوحات إعلانية عن البرتقال في كل مكان. وقد مررنا ببرتقالة عملاقة مصنوعة من الإِسمنت، قائمة فوق نصب خاص على عامود على جانب أحد شوارع المدينة.

كانت وقفتنا الأولى لتناول طعام الإفطار مع الصحافي جايديب هارديكار الذي كتب تقارير مكثفة لصالح مجموعة متنوعة من المطبوعات حول المنطقة التي شهدت حالات انتحار المزارعين. وقد ذهبنا إلى شقته المتواضعة، حيث جاءت عدة قطط منزلية تحتك بأقدامنا في حين كنا نستمتع بتناول فطور مكون من الشاي و«الأوپاما» Uppama، وهو طعام إفطار شائع في جنوب الهند مصنوع من السميد. وأعطانا جايديب فكرة عن المناطق التي

ربما نرغب في تفحّصها، وبعض المعلومات الأساسية عن كيفية تردي وضع المزارعين إلى هذا الحد مما جعلهم يشعرون بمنتهى اليأس.

وبينما تتمتع النخبة الحضرية المتعلمة وكبار الملاك في الهند بالازدهار الاقتصادي، فإن الملايين من الأسر الهندية العاملة في الزراعة تكافح بصعوبة لتأمين قوتها. فقد أوقفت الحكومة بعض إجراءات دعم الأسعار وشحت الأمطار أو لم تعد تهطل بانتظام، وانخفض مؤشر الجدول البياني للمياه، وجفت الآبار. وهذه المشكلات مألوفة للمزارعين الأمريكيين غير أن معظمهم يحصلون على دعم حكومي أكثر مما يحصل عليه المزارعون في الهند، وعندما يخفق كل شيء، فإن هناك احتمالاً بأن يتمكن المزارعون الأمريكيون من الحصول على وظيفة خارج المزرعة، أما المزارعون الهنود فليسوا محظوظين إلى هذه الدرجة. وفي مسعى منهم من أجل البقاء، يقوم المزارعون باقتراض النقود بمعدلات فوائد فاحشة، أشبه بالربا، وذلك لشراء بذور جديدة هجينة ومعدلة هندسياً، وأسمدة صناعية ومبيدات حشرية وكلها باهظة الثمن. وللحصول على النقود التي يحتاجونها من أجل سداد هذه الديون، فإنهم يغيرون طبيعة الإنتاج إلى حد أكبر حتى من الزراعة المعيشية أو ما يعرف بزراعة الكفاف لغرض الاستهلاك الشخصي وليس للبيع، إلى المحاصيل النقدية. وعندما تفشل هذه الخطط لا يكون أمامهم من وسيلة لتسديد ديونهم، ولا طعام كذلك. وقد تضافرت هذه العوامل لجعل مستقبل الآلاف من المزارعين الهنود قاتماً جداً إلى حد أنهم يبذلون الطاقة الوحيدة المتبقية لهم في مواجهة مصيرهم: يقتلون أنفسهم.

منذ عام 1997، أقدم أكثر من مئة ألف مزارع هندي على الانتحار. ويرتبط هذا الرقم المخيف مباشرة بالتغييرات التي طرأت على السياسة الزراعية للهند، وفقدان فرص الائتمان المشروعة التي تدفع المزارعين إلى الاقتراض من المرابين الجشعين، وأزمة مياه خطيرة[1]. والولايات الأسوأ تأثراً بها هي اندرا براديش، كارناتاكا، كيرالا، وماهاراشترا. ومما يدعو للسخرية أن هذه هي الولايات التي ازدهرت فيها المراكز الحضرية أثناء المدة نفسها، مدينة حيدرآباد في اندرا براديش، بنغالور في كارناتاكا، تريفاندرام في كيرالا، وبومباي في ماهاراشترا.

غادرنا شقة جايديب ونحن نشعر بالانتعاش والحماسة للخروج إلى الريف. فقد أَفسحت المدينة المجال أمام قيام ضاحية خارجية شبه ريفية ونصف صناعية تقيم فيها العائلات الثرية. وكانت هناك معامل يعلوها الغبار، ومن الواضح أنها معامل مهجورة ذات إنتاج محدود، ودكاكين صغيرة مبنية من الإسمنت، ونساء يحملن أكداساً من الفروع الملتوية للحطب على رؤوسهن. وظهر لنا فجأة من خارج هذا المشهد الجاف للغاية والمُلفح بشمس نيسان، متنزَّه مائي ضخم، قصر مشيد على طراز العصور الوسطى في أوروبة، يضم عدة مبانٍ مع أبراج صغيرة ذات شرفات. وعلى الرغم من أنه كان يوماً حاراً في أثناء العطلة الصيفية في الهند، فإن المتنزَّه كان مغلقاً. وعلى بعد كيلو مترات قليلة فقط أسفل الطريق رأينا لوحة إعلانية كبيرة تقول: «متنزَّه هايلاند! أعلى التلة، حافل بالإثارة!» وكان هناك حول المنعطف الآتي على تلة صغيرة لونها بني، أيضاً حديقة ملاهٍ أخرى، فيها عجلة حديدية ضخمة وعربة ركوب أشبه بتنين طويل مع مقاعد مصفوفة على ظهره، وعدد من المنحدرات المائية. وكانت مغلقة بدورها وبدت نصف مهملة.

كان لدى ديليب لائحة بأسماء المزارعين الذين كانوا قد انتحروا مؤخراً نشرتها منظمة ڤيداربها جان اندولان ساميتي (VJAS Vidarbha Jan Andolan Samiti)، وهي منظمة يديرها كيشور تيواري، تناصر مزارعي الإقليم في محنتهم(2). وتشير اللائحة إلى اسم كل ضحية، والمنطقة التي تقع فيها قريته. وتم جمع الأسماء من تقارير تشريح الجثث والتقارير الصحافية التي جرى توثيقها بشكل فردي عن طريق منظمة VJAS. وقد قررنا أن نركز على بعض المناطق التي بإمكاننا زيارتها في جولة ليست لها وجهة محددة.

وعلى الطريق السريع المؤلف من مسربين ارتجت الشاحنات الكبيرة في سيرها، وقد كتبت عليها كلمات مطلية بألوان زاهية تقول: «استخدم آلة التنبيه من فضلك»، وتتوسل إطلاق بوق السيارة أَثناء التجاوز. وانطلقت سيارات الدفع الرباعي بسرعة هائلة متجاوزة غيرها دون أن تطلق أبواقها، ولا حتى حول المنعطفات المخفية. وكانت العربات ذات العجلات الثلاث تميل على نحو خطير وهي محملة بحمولات زائدة من منتجات المزارع أو الأشخاص. وكل بضع دقائق كانت هناك سيارة تمر في الاتجاه المعاكس تنذر بالاصطدام بنا وجهاً لوجه، وتنحرف داخل مسربها الخاص بها في اللحظة الأخيرة. وكانت هناك شاخصات عديدة على

الطريق تحث على الالتزام بتعليمات القيادة الآمنة؛ وكنا أنا وديليب نسخر من استطلاعها أولاً ثم من قراءة مضمونها: «علامات الطريق هي علامات الحياة» «الطريق السريع ليس وسيلة للطيران» وهناك لافتة ذات فحوى غامض، عند جسر فوق أحد الأنهار، تقول: «الرجاء عدم الغوص في الأعماق». تركنا الطريق السريع وتوجهنا خارجه في امتدادات أسفلتية ذات مسرب واحد تتقاطع مع الحقول. كان هناك قطن في كل مكان، إلا أن وقت الحصاد كان قد فات، وكانت النباتات متغضنة منكمشة، وكان لونها بنياً. وكان الكثير منها يحمل أوراقاً باللون الأحمر القريب للون الصدأ المائل للحمرة، التي تدل على إصابتها باللاليا Lalia، وهو مرض يحول لون القطن إلى اللون الأحمر، ويتلف النبات. وتوقفنا لنستفسر عن الاتجاهات، وأخبرنا الناس الذين التقيناهم عن سبب مجيئنا إلى المنطقة، وسألناهم ما إذا كانوا يعرفون أي شخص أقدم على الانتحار مؤخراً. وقد أرشدنا القرويون على الفور إلى الضحايا ممن لم يرد ذكرهم في قائمة منظمة «ڤيداربها يان آندولان ساميتي».

وخارج مدينة آكولا الصغيرة، وجدنا أنفسنا في قرية دادهام، وهي تجمع نموذجي لمنازل متداعية آيلة إلى السقوط، بعضها مبنية من مواد محلية عبارة عن سياجات من أغصان صغيرة مضفورة مغطاة بالطين ومسقوفة بسطوح من الآجر، وبعضها أكواخ بسيطة مؤلفة من غرفة واحدة من الإسمنت. ولم تكن أي من الأزقة في القرية معبَّدة، وجرت مياه الصرف الصحي في جداول صغيرة، حيثما كانت تسحبها الجاذبية الأرضية، وأحياناً عند حافة الأزقَّة ولكنها كانت في أغلب الأحيان تلتف لتتجمع في الوسط. وغفت كلاب نصف برية في الظل، فيما كانت الخنازير تنبش في الروث، والأبقار مربوطة من عقالها تحت أشجار الأكاسيا الصغيرة. وجاء إلينا زعماء القرية ورافقونا باتجاه مكتب المجلس المحلي فيها، ويدعى Gram Panchayat «غرام بانتشايات». وحظينا باستقبال معد سلفاً من جانب هؤلاء القرويين. فالوضع الذي يعيشه المزارعون في هذه المنطقة هو وضع قاسٍ، يبعث على القلق، وكان وصول صحفي من بومباي وكاتب أجنبي يعني أمراً واحداً فقط لهؤلاء الناس: من المؤكد أننا كنا هناك لتقديم المساعدة.

يعد «Gram Panchayat» الهيئة الحاكمة على مستوى القرية. وكل قرية في الهند لديها «Panchayat» أو مجلس محلي يتألف من خمسة أعضاء ويتخذ قراراته بشأن القضايا

المحلية، ويتلقى التمويل الحكومي المخصص للقرية. ومكتب «غرام بانتشايات» في دادهام هو مكتب نموذجي: غرفة واحدة، داخل كوخ إسمنتي بنوافذ مفتوحة تحميها قضبان حديدية، ومزينة بمجموعة من الصور القديمة المعلقة أسفل السقف مباشرة لأبطال قوميين وأبطال إقليميين: غاندي، Gandhi، نيتاجي سوبهاش تشاندرا بوز NetajiSubhash Chandra Bose، راجيف غاندي Rajiv Gandhi، شيفاجي Shivaji، امبدكار Ambedkar، واحدثها انديرا غاندي Indira Gandhi التي اغتيلت في عام 1984. وكان هنالك خلف رأس بوز عصفور من عصافير الدوري مشغولاً» بإعادة ترتيب عشه. وكانت هناك أيضاً صور لاثنين من الشخصيات المقدسة: ساي بابا Sai Baba وبوذا Buddha.

وقرية دادهام، مثلها مثل كل القرى التي زرناها هي قرية من الداليتس Dalits أو المنبوذين، أدنى طبقة اجتماعية في التسلسل الهرمي الطبقي الصارم والمتزمت في الهند، وهي تعد وضيعة جداً، وأدنى من الفئات الاجتماعية الرئيسة الأربع الآتية، وهي حسب الترتيب التنازلي: «البراهمانس» Brahmans أو العلاَّمة من رجال الدين Kshatriyas «كشاترياس» أو المحاربون النبلاء، التجار، والمزارعون. وعندما سألنا القرويين عن ديانتهم أجابوا بشكل حتمي «البوذية» الديانة التي اعتنقها آمبيدكار، الزعيم الكبير للمنبوذين في الهند، وذلك للتخلص من تشدد النظام التراتبي الاجتماعي القاسي في الهند. وبدلاً من المعبد الهندي أو المسجد الإسلامي، كانت لدى هؤلاء القرويين تماثيل بالحجم الطبيعي أو أكبر من الحجم الطبيعي لآمبيدكار وهو يقف مبتسماً مرتدياً بذة على الطراز الغربي باللون الأزرق المائل للحمرة، وواضعاً نظارات ذات إطار أسود. وأسرع اثنان من كبار السن في القرية وستة من الشباب للتجمع في مكتب المجلس المحلي، وقمنا جميعنا ومن باب الاحترام بخلع أحذيتنا قبل دخول المبنى. وبدا أن الأرضية الإسمنتية المغبرة لم تكنس منذ أسابيع، وتمت دعوتنا للجلوس على كراسي مصنوعة من مادة البلاستيك حول طاولة خشبية. وكان الأثاث الآخر الوحيد في المكان لوح أسود مثبت على الحائط (سبورة) وخزانة معدنية قديمة. وروى لنا الرجال قصتهم.

كان بريمتشاند باندورانغ كيول في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر عندما انتحر بشرب المبيد الحشري السائل. كان والده مصاباً بمرض الجذام وعهد بمزرعته

التي تبلغ مساحتها فدانين إلى ابنه بريمتشاند للعناية بها. وبهذه المساحة فقط من الأرض التي زرعها بالقطن، كان بمقدور الأسرة أن تعيش بصعوبة. واحتاج والد بريمتشاند إلى الدواء ولم يكن المال متوافراً لديه، لذا، ومثله مثل العديد من الأشخاص الآخرين في القرية والملايين من الناس الفقراء في كل أنحاء الهند، اقترض بريمتشاند ألفي روبية (زهاء 45 دولاراً) من مرابي خاص. وكان هذا المرابي واسمه بهاندو واكير يعيش في بلده آكولا. وكان عدة أشخاص في القرية مدينين له بالمال، وكان يأتي إلى المنطقة بشكل منتظم ودائماً في صحبة اثنين من ذوي العضلات المفتولة، من أجل تحصيل ديونه على القرويين. وكان واكير يفرض فائدة بنسبة (10) بالمئة - أسبوعياً. بادئ الأمر كان بإمكان بريمتشاند أن يدفع له الفائدة المطلوبة ولكنه سرعان ما تخلف عن الدفع؛ وفي حين كانت ديونه تزداد بشدة لم يعد هناك أي أمل بتسديدها.

كان المرابي واكير يُرهب القرية، كان يمشي فيها بخُطا واثقة وكأنه يمتلك المكان، ويقتحم البيوت ويضرب الناس «كان الناس خائفين جداً. قال لنا أحد الرجال: » كانوا يفرون ويختبئون حتى يرحل. وكان قد اعتاد على أخذ أشخاص معه إلى منزله في آكولا، وضربهم هناك أيضاً»، وقال الرجال إن بريمتشاند شهد في أحد الأيام عملية تعرض قروي آخر، كان مديناً لواكير بالمال، لضرب وحشي. كان مذعوراً جداً وخرج إلى الغابة وابتلع السم». ثم قام بجر نفسه عائداً إلى القرية ومات ميتة أليمة. كان بريمشتاند متزوجاً وعنده ابن في عامه الأول.

وعندما اكتشف واكير أن ضحيته قد قتل نفسه استشاط غضباً. وهجم على القرية محطماً الأبواب وهو يخور كالثور، ودخل منازل أشخاص آخرين يدينون له بالمال وأساء معاملة زوجاتهم، فعلياً. وخرج إلى حقول بريمتشاند فوجد زوجته وأمها تعملان هناك. وضرب والدة بريمتشاند بوحشية شديدة إلى درجة أنه أصابها بكسر في الفخذ. وقال لها عندما انتهى: إذا ما أقدمت على الهروب فسوف أغتصب ابنتك. وأقفل عائداً بخطوات ثقيلة إلى القرية، وحطم خم الدجاج الذي تملكه الأسرة وهشم دراجة نارية. ثم غادر المكان.

كان واكير قد تجاوز حدوده. وكان القرويون غاضبين. ونسوا خوفهم وأقسموا على منع واكير من ترهيبهم. وبعد ظهر ذاك اليوم عاد واكير. كان ثملاً ومغروراً جداً بحيث جاء

دون حراسه الشخصين. فحاصره رجال القرية وانهالوا عليه ضرباً حتى الموت بالهراوات الطويلة (المستخدمة في كل أنحاء الهند حتى من قبل الشرطة لضرب الناس) واستدعى رجال القرية الشرطة في الرابعة بعد الظهر ولكن عناصرها لم يحضروا حتى الساعة التاسعة مساء. واستغرب رجال القرية لأن الشرطة تأخرت كثيراً، فعندما كانوا يستدعونهم في الماضي أثناء حالات هياج واكير لم تكن الشرطة لتستجيب على الإطلاق. وذكر رجال القرية أنهم كانوا قد سمعوا واكير يتحدث على هاتفه الخلوي قائلاً: «اخرس. لا تتدخل أنت تتلقى مبلغ الخمسين ألفاً المخصص لك».

وعندما حضرت الشرطة أخيراً طلبوا معرفة من كان مسؤولاً عن مقتل واكير. ولم يكن أحد ليقول أي شيء. وبدلاً من ذلك أبلغ القرويون الشرطة بكل ما أقدم عليه واكير من أفعال سيئة بحقهم، ثم تقدم أحد الرجال إلى الأمام، وقال: «أنا فعلتها، ثم آخر، وواحد تلو الآخر قال كل رجل: «أنا فعلتها» وقال شيخ القرية أو الـPatil: «كان واكير يتسبب في مضايقة الكثيرين من الناس في القرية؛ كما أساء معاملة هؤلاء الرجال الخمسة». فاحتجزت الشرطة الخمسة على الفور إلى جانب حماة بريمتشاند العجوز، واتهمتهم بارتكاب جريمة قتل. وفي إطار الأُسلوب المعهود في الهند، قامت الشرطة بجمع شهادات مكتوبة لأشخاص من خارج القرية لم يوجدوا في أي مكان قريب من مسرح الجريمة.

وجاء والد واكير ووجه الإهانات اللفظية لرجال القرية، وتوعد بالثأر لابنه.

عندما أُحيلت القضية إلى المحكمة عاد كل رجل في القرية فشهد ثانية بأنه هو الذي قتل واكير. وبرأ القاضي المتهمين الخمسة وأخلى سبيلهم، ورفض متابعة النظر في الدعوى، وبعد المحاكمة جاءت الشرطة إلى القرية، وقالت للرجال: «إن ما لم نتمكن من فعله، أنتم فعلتموه» وذكر القرويون في دادهام أنه عندما علم جيران واكير بأنه قتل قاموا بتوزيع الحلوى في الشوارع.

قمنا بزيارة عدة قرى أخرى. وكان مشهد الفقر المُدقع واضحاً في كل مكان: أطفال حفاة يرتدون أسمالاً، وشعرهم أشعث متلبد، ومجارير مفتوحة وأسرّة ركائزها مكسورة تتقاسمها عائلات كلها، ولحافات قديمة متسخة رقيقة، وجدران متفتتة مغطاة بأقمشة من

مادة البلاستيك. كان الناس بالكاد يصمدون. وقد توسلوا إلينا لنساعدهم. هل بمقدورنا أن نحصل على وظيفة لأحد أفراد الأسرة؟ هل بمقدورنا أن نساعد في تسريع عملية الانفاق الحكومي؟ هل بمقدورنا أن نحصل لهم على قرض؟

وفي قرية بارشي تاكلي دخلنا بيتاً وضيعاً متصدّعاً عبارة عن زريبة مكشوفة نصف معرضة للعوامل الجوية القاسية، أرضها قذرة و من دون أثاث عدا عن سريرين قديمين للأطفال. كانت هناك أم جالسة فوق أحدهما، ونادت على ابنها البالغ من العمر عشرين عاماً: «لقد أنهى الصف السابع. كان بطلاً في رياضة الكاراتيه في المدرسة.» قالتها بصوت أجشّ، وأرتنا صورة فوتوغرافية لابنها ذي الوجه الناعم الذي رحل الآن إلى الأبد؛ ولم أستطع التوقف عن التفكير في ابني المراهق، وشعرت بغصّة في قلبي». وأوضحت المرأة قائلة والدموع تنهمر من عينيها: «نحن نملك ثلاثة فدادين ونصف الفدان، وقد زرعناها بقصب السكر. فشحَّت الأمطار وجفَّ الزرع. وسألناها ما إذا كان عندها بئر لسقاية المزروعات فأجابت: «لدينا بئر ماء لكنه جف». ومثل كل شخص آخر، اقترضوا المال ولم يستطيعوا سداد الديون.

وقالت وهي تنتحب وتضغط بمنديلها على وجهها: «لقد أسرعنا به إلى المستشفى، وحاولوا بذل جهد كبير لإنقاذه. لقد حاولوا. كان الطبيب رجلاً ماهراً لكنه لم يتمكن من إنقاذ حياة ابني». أعطيت هذه المرأة بعض النقود. وشعرت أنني عاجزة جداً أمام حزنها وأمام عَوَزِها وحاجتها. وكنت أعلم أن النقود سوف تعينها مدة أسبوعين فقط، وربما مدة أشهر، ولكنها كانت كل ما أملك أن أفعله آنذاك، وهناك في تلك البقعة.

وصلت إحدى الجارات لرؤيتنا. وأحضرت معها ابنها الحي لكنه كان يعاني من العجز، نيسار خان الذي يبلغ الثامنة عشرة من العمر. كان قد فقد جزءاً من ذراعه اليمنى في مطحنة الحبوب. قالت: إنه «كان يحصل على عشرين ألف روبية كتعويض من قبل رب العمل الذي كان يعمل لديه. وحدث ذلك قبل عامين وتساءلت: «هل تستطيعون مساعدته؟ هل بإمكانكم إيجاد وظيفة له؟ وقد وعدنا أن نجعله على اتصال مع «جايبور ليمب» **Jaipur Limb**، وهي مؤسسة خيرية ناجحة تنشط في تأمين الأطراف الصناعية للمحتاجين في إقليم راجستان.

وفي بلدة ساتارغاون، ذهبنا إلى بيت تشايا سانديش شيرسات؛ امرأة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها ترملت مؤخراً إثر انتحار زوجها. كانت تجلس على الأرض وتُرضع ابنها وهو في شهره الثاني. كانت قد ذهبت إلى بلدتها من أجل الولادة كما هي العادة في الهند، وأقدم زوجها على الانتحار في غيابها. «سألناها»: هل ذكر لك أنه كان يواجه مشكلات؟ فأجابت باحتشام، وهي تبعد بيدها بعض الذباب عن وجه الطفل ذي الملامح الدقيقة: «حاولت أن أسأله لكننا كنا متزوجين حديثاً فقط. وكان يعاني تراكم بعض الديون وقال لي: إن عملي كان أن أقلق بشأن الطهو وإعداد الطعام، وأن عمله لم يكن من شأني. فماذا بإمكاني أن أفعل؟ وكان والداها الطاعنان في السن يجلسان قريباً منها، وبدا أنهما ضائعان تماماً. وجُلت بنظري على كوخهم المؤلف من غرفة واحدة. كان هناك في الزاوية مزار لآمبيدكار وبوذا، وكانت هناك صور عائلية موضوعة ضمن إطارات على الحائط إلى جانب صورة كبيرة لبطلة التنس الهندية سانيا ميرزا، وصورة لممثلة السينما المعروفة راني ماكيرجي ترتدي سروايلَ مثيراً.

كان من الصعب ترك هؤلاء الناس فقط مع وعد بأننا سوف نكتب عما رأيناه. فهم يعيشون على الأرز المفتت، الذي يحصلون عليه من الحكومة مقابل روبيتين للكيلو الواحد، وهو الأرز نفسه الذي يطعمه المزارعون الأحسن حالاً لدجاجاتهم. وهم يأكلون العدس أحياناً. وإلا فإن هنالك الملح فقط، وفي بعض الأحيان القليل من البصل لإعطاء نكهة للأرز.

وكان أحد ضحايا حوادث الانتحار قد حاول أن يستعيض عن مزرعة الأسرة المتهاوية ببسطة صغيرة الحجم لبيع مُضغ ورق التنبول؛ وهي أكلة هندية شهية مصنوعة من توابل حلوة المذاق، وغالباً ما يتم خلطها مع جوزة ثمرة الكوثل وهي من شجر النخليات، ولفها داخل ورقة خضراء. وعندما فشل ذلك المشروع التجاري صب وقود الكيروسين على نفسه وأضرم فيها النار، وذلك قبل ستة أيام من وصولنا، وكان عمره ثلاثين عاماً. وعقب وفاته باعت الأسرة البسطة بثمن بخس مقابل ألف وخمس مئة روپية (زهاء 35 دولاراً). وقال لنا والده: إنه كان يمتلك ثلاثة فدادين، وأنه كان قد اقترض سبعة آلاف روپية لإعطائها إلى ابنه. وكان الابن قد اقترض أيضاً المال من المرابين.

وسألنا الأرملة: «ماذا ستفعلين الآن؟»

«سوف أعمل في الحقول. سوف أبيع جهدي».

«كم ستكسبين من المال».

«خمس وعشرون روبية في اليوم [ستون سنتاً]»

ونظرت إلى ابنتيها الصغيرتين وعمرهما ثلاثة عشر وأحد عشر عاماً. كانتا كلتاهما جميلتين بحق. ولمعت عيناها بدمع ترفض أن تذرفه. لابد أنها كانت في الثلاثين من عمرها، ولكنها كانت منهكة وبدت أكبر من سنها بعشرين عاماً.

وأبلغنا والد الضحية ماهاديو كيسان بينجاركار أنه كان يقوم بحصاد ما مجموعه ثلاثة قنطارات -القنطار هو مئة كيلو غرام أو 220 رطلاً- من القطن من فدادينه الثلاثة. وقال: إنه كان قد أنفق أربعمئة روبية ثمناً لكل علبة من البذور، وإن كل علبة كانت تغطي مساحة فدان ونصف الفدان، وبذلك يكون قد أنفق ما مجموعه ثمانمئة روبية على البذار. وكان قادراً على أن يدفع فقط ثمن استعمال المبيد الحشري لمرة واحدة، وقد كلفه خمسمئة روبية ولم ينقد محصوله وبلغ ربحه الإجمالي ثلاثة آلاف وخمسمئة روبية أو (75) دولاراً. وقال لنا السيد كيسان: إنهم اعتادوا زراعة «السرغوم» وهو نبات يشبه الذرة، والخضراوات، ولكنهم يزرعون حالياً القطن فقط. وقد كان عليهم أن يشتروا طعامهم، وقال: إنه كان لديه بئر لكنه جف، وأن الجدول البياني للمياه قد انخفض بمقدار مئة قدم. وتبلغ تكاليف حفر بئر أعمق، مئة ألف روبية، وأنهم لم يكونوا يمتلكون المال حقيقة. وكان هناك صبي صغير في العائلة عمره زهاء خمس أو ست سنوات يركض في الجوار، وقد أثارت حماسته زيارتنا غير المعتادة إطلاقاً. كان يرتدي قميصاً أحمر ذا ياقة عالية، وعليه الشعار الرياضي لألبسة فيرساتشي.

المزارعون الذين التقينا بهم كانوا جميعهم مدينين بالمال، وكلهم يزرعون القطن. وكانوا جميعهم قد حاولوا زراعة القطن (Bt) الجديد المعدَّل وراثياً، سواء الذي تنتجه شركة مونسانتو وشريكتها الهندية «مايكو» Mahyco، التي تقع مكاتبها الرئيسة في ولاية ماهارشترا؛ وهو صنف مسجل تحت العلامة التجارية «بولغارد» (Bollgard) أو زراعة صنف هندي أرخص. كانت هناك كل أنواع البذور التي يمكن للمزارع أن يختار من بينها: بذور هجينة مختلفة، بذور معدلة وراثياً بشكل قانوني، وبذور غير قانونية بأسعار رخيصة. وحملت

البذور المعدلة وراثياً، المورثة أو الجين Baeillus Thuringiensis وهي بكتيريا سامة لأنواع كثيرة من الحشرات، بما فيها خنفساء القطن. ويشار إليها عموماً باسم قطن (Bt). ولا تزال فاعلية القطن (Bt) في مقاومة الحشرات الضارة موضع جدل، حيث تتفق معظم الآراء بأن هذا الصنف من القطن لا يلغي الحاجة إلى المبيدات الحشرية مع أنه قد يقلل منها. ويعرب أصحاب الآراء المعارضة عن قلقهم بأن النباتات المعدلة وراثياً ربما تلوث التربة، وتنشر مورثاتها المتغيرة جينياً فوق نباتات أخرى، وتؤدي بذلك إلى عملية تحول لا يمكن السيطرة عليها أو ضبطها. كما وُجهت انتقادات إلى القطن من صنف (Bt) بسبب سُميته التي تؤثر في نطاق واسع من الحشرات، بما فيها الحشرات المفيدة. وتباع بذور «بولغارد» التي تنتجها شركة مونسانتو مقابل 1,850 روپية للعلبة الواحدة، وهذا يزيد كثيراً عن سعر البذور الهجينة العادية، ويفوق السعر المحدد للبذور الهندية المعدلة وراثياً.

وكان المزارعون عادة ما يدَّخرون جزءاً من بذارهم لزراعته في السنة القادمة، غير أن البذور المعدلة وراثياً مسجلة بموجب براءة اختراع، وليس من المسموح للمزارعين إعادة إنتاجها.

في شهر آب «أغسطس » من عام 2006. أعلنت شركة مونسانتو: أنها سوف تتولى إدارة شركة «دلتا وباين لاند»، الشركة التي أَنجزت إنتاج ما يسمى بالبذور القاضية. والبذور القاضية مبرمجة وراثياً لإنتاج بذور معقمة في النبتة التي تنمو منها، بحيث لا يكون بالإمكان تخزين وزراعة الجيل اللاحق من البذور. ويجب على المزارع أن يبتاع بذوراً جديدة من الشركة كل سنة. وقال هيو غرانت المدير التنفيذي المسؤول لشركة مونسانتو في تعليقه على هذا الكسب: «إن شركة دلتا وباين لاند تمثل توافقاً ممتازاً لشركتنا، في حين نتطلع إلى جلب مزايا ذات قيمة إضافية وبذار من النوعية العالية إلى مزارعي القطن حول العالم»[3]

كان العديد من المزارعين الذين التقيناهم قد بدؤوا رحلتهم مع الديون مع بنك للتسليف أو بقرض من أحد المرابين لزراعة المحصول الأول للقطن من صنف (Bt). وقد اعتقدوا أن هذا الصنف سوف يعود عليهم بإيرادات أفضل. ففشل محصولهم الأول. ولم تكن هناك من مياه كافية أو أن هطل الأمطار لم يحصل في الوقت الملائم للمزروعات. وتحول لون النباتات إلى الأحمر مع إصابتها بمرض Lalia. الذي ليس لأصناف القطن من نوع (Bt)

أية وقاية منه. ومع وقوعهم في الدين بعدما خسروا محصولهم الأول من قطن (Bt)، أقدم المزارعون على مجازفة أكبر وحاولوا ثانية. ولم يكن بإمكان محصول من القطن العادي أن ينقذهم، ولذا فقد شعروا أنه من الأفضل أن يقامروا وأن يأملوا بمحصول وافر. وفشلت زراعة المحصول الثاني أو أدت إلى إعطاء نتائج رديئة. وحاول البعض للمرة الثالثة، وأقدم البعض الآخر على قتل نفسه.

بدا واضحاً استناداً إلى العدد الضئيل من المجتمعات المحلية الزراعية التي زرناها أن مزارعي المناطق الجافة الذين يظل إنتاجهم محدوداً لن يكونوا قادرين أبداً على العيش، وهم يزرعون المحاصيل النقدية. فهم لم يكونوا يمتلكون المال اللازم للأسمدة والمبيدات الحشرية التي تتطلبها هذه المحاصيل. ولم يكن أمامهم من وسيلة لري حقولهم، ولذا فإذا ما شحت الأمطار أو هطلت في الوقت الخطأ، كان في ذلك هلاكهم.

من المستحيل تقريباً بالنسبة لصغار المزارعين في الهند الاقتراض من المصارف. فحجم القروض التي يحتاجونها لا تثير اهتمام المصارف. كما تطلب منهم المصارف إحضار شهادة من كل بنك آخر في المنطقة تثبت أنه ليس هناك ديون في ذمتهم، قبل أن يقوم مصرف ما بإقراضهم. ولا يستطيع المزارعون أن يفعلوا ذلك في الواقع. فهم لا يعرفون موقع كل البنوك أو لا يمتلكون الوسيلة للتنقل أو الوقت الكافي للذهاب هنا وهناك، وزيارتها جميعها. وهم غالباً ما يقترضون من أجل دفع تكاليف احتفال ديني أو مناسبة زواج في العائلة، والبنوك لن تُقرض المال من أجل ذلك. ولذا فهم يتحولون إلى المرابين الخاصين الذين يفرضون فوائد مالية فاحشة.

ذهبنا للتحدث إلى مادهو جادهاف، وهو صحفي متدرب من مكتب صحيفة «داينيك بهاسكار» في آكولا، ثاني أكبر صحيفة تصدر باللغة الهندية في الهند. كان المكتب يقع في شقة صغيرة في الطابق الثاني من مبنى سكني في حي هادئ. وقد أبلغنا أن معظم المرابين هم أنفسهم مزارعون، لكنهم مزارعون أحسن حالاً، ويمتلكون حقولاً أكبر. وهم يأخذون صك الملكية الخاص بأرض المدين باعتباره ضمانة إضافية. والشرفاء منهم يعيدونه عندما يتم سداد الدين. أما الآخرون الأقل نزاهة فيحتفظون بالصك؛ وليس هناك من شيء يمكن لصغار المزارعين أن يفعلوه إزاء ذلك بما أنه لم يكن هناك أي عقد مكتوب، ومعظمهم

أميون. وبهذه الطريقة يقوم كبار المزارعين بتوسيع قبضتهم على عقارات الأراضي. وقال جادهاڤ أَيضاً: إن الكثيرين من ضحايا حوادث الانتحار هم من المدمنين على الكحول أو لعب القمار. وهو يقول إن أولئك الذين يكدحون ويعملون بجد يحققون نتائج إيجابية إلا أن الناس في المنطقة «كسالى».

وأشار كمثال مناقض، إلى أن الرعاة الذين يعملون لصالح شركة «كاثياواري» الصناعية يسوقون قطعان مواشيهم على طول الطريق من غوجارات إلى ڤيداربها، لتأتي على مخلفات الجذوع المتروكة في الحقول بعد عملية الحصاد. وهم يجلبون بقراتهم كل يوم، يبيعون الحليب، ويجنون كمية من المال قبل عودتهم إلى البيت في نهاية الموسم. «كان هناك مؤخراً مطر غزير رافقه هطل وابل من حبات البَرَد. وكان بصحبة العاملين لدى شركة كاثياواري عدد قليل من الأطفال، وكان الناس يعرضون عليهم المأوى، غير أنهم كانوا يرفضون قائلين: «إذا مات ابني لا بأس، لكنني لن أدع ماشيتي تموت». ومكثوا هناك في العراء مع ماشيتهم. وقد أوليت اهتماماً خاصاً لهذه القصة، لأن أصول عائلتي من منطقة «كاثياوار»، لكنني لم أفصح عن هذا الأمر.

تتصف حياة الرعي والزراعة في الهند بالقسوة والخشونة، وهي محفوفة بالمخاطر. ويدرك الشباب في القرى أن الهنود الذين يقطنون المدن ممن هم في سنهم يعيشون حياة مختلفة جداً. وقد جعل التلفاز الهنود من أبناء الريف على اطلاع على الحياة في المدن، وحتى الحياة في البلاد الأخرى. وقال جاهداڤ: «لقد تغيرت الثقافة كثيراً بسبب التلفاز. وتتمثل نوعية البيئة الجديدة في أن الشباب لا يريد امتهان العمل في الزراعة، وحتى لو كان المزارعون يحققون نجاحاً في عملهم، فإن من المحتمل أن البعض من الجيل الأصغر لن يرغب في مزاولة الأعمال الزراعية. وبالنظر إلى الظروف البائسة للمزارعين الذين قمنا بزيارتهم، فليس من المستغرب أن عدداً كبيراً من الشباب -في سن التاسعة عشرة أو العشرين من العمر- قرروا أن شقاءهم، وبالمقارنة مع أساليب الحياة ذات الدوافع الاستهلاكية والنجاحات العملية الكبيرة التي يرون هنود المدن الأثرياء يستمتعون بها على شاشة التلفاز، كان ببساطة محزناً جداً بشكل لا يطاق.

وأثناء مرورنا بمدينة آمراڤاتي، وقد كانت مركزاً لزراعة القطن لمدة طويلة، صادفنا جبالاً من القطن الأبيض المنفوش بانتظار عملية حلجه قرب محلجة للقطن. ودخلنا إلى مجمع البناء مروراً بأكوام من القطن باتجاه بيت صغير مؤلف من طابق واحد مبني وفق النمط العمراني الذي كان قائماً في العشرينيات وله شرفة واسعة، وذلك للقاء المالك، زوبين دوتيوالا.. كان البيت يقع وسط حديقة جميلة تحجب عمليات معالجة وتصنيع القطن. ورحب بنا السيد دوتيوالا في منزله، وكان سعيداً بإشراكنا في سرد تفاصيل مسيرة حياته وعمله في مهنة حلج القطن. وجلسنا في غرفة الجلوس حيث كان هناك جهاز ضخم لتبريد المياه، جعل الغرفة مريحة بشكل مقبول. وأبلغنا أن الألعاب المبعثرة فيها كانت تخص ابنته البالغة من العمر خمس سنوات، وقد أخذتها أمها لممارسة رياضة السباحة. وبعدما كنا قد رأيناه، بدأ أمراً رائعاً أن يوجد في مكان ما قريب، بركة سباحة بلون زرقة السماء فيها مياه نظيفة منعشة ومضافة إليها مادة الكلور.

كانت محلجة القطن من أملاك عائلة دوتيوالا لخمسة أجيال متعاقبة. وكانت تدار أصلاً بآلة مصنوعة من الحديد الثقيل تعمل على البخار وجرى تركيبها من قبل البريطانيين، وقام السيد دوتيوالا بتحديثها منذ ذلك الوقت. وقد أبلغنا أن باقي أفراد عائلته موجودون في بومباي حالياً، وهم يستمرون في القول له أن يترك مهنة القطن القديمة، ويأتي إلى المدينة «لكنني سعيد تماماً بالقيام بهذا العمل» حسب تأكيده.

ويعمل دوتيوالا وسيطاً. يشتري القطن الخام من المزارعين ثم يقوم بحلجه لفصل المادة الليفية عن البذور. وهو يبيع أكياس القطن المحلوج إلى الوكلاء الذين يأخذون القطن إلى مدينة بومباي أو مدينة كوامباتور. وتباع البذور لاستخراج الزيت. وهو يدفع النقود للمزارعين الذين يجلبون له القطن حسب طول التيلة وحجم مقطع النسيج القطني. وكذلك حسب كمية التلف المخلوط مع النسل، كما تسمى الألياف البيضاء. «إنني أدفع ما بين ألف وتسعمئة روپية إلى ألفي روپية لكل قنطار حسب النوعية. وتدفع الحكومة ألفاً وسبعمئة روپية. وكانت الحكومة تدفع في السابق، وقبل تقليص إجراءات دعم الأسعار مبلغاً مثيراً للسخرية يتراوح ما بين ألفين وخمسمئة إلى ألفين وسبعمئة روپية لكل قنطار، وفي ولاية ماهاراشترا فقط. ولم يكن الأمر مقبولاً لكن المزارعين تعوّدوه ولذا فإنهم يعانون الآن.

وقال: إن القطن من صنف (Bt) كان متفوقاً على كل ما عداه مع تميزه بنوعية محسنة ومحصول ذي مردود أفضل. ولكنه أقر بأن صغار المزارعين في المناطق الجافة لا يمكنهم أن يوفقوا في تحقيق نتائج إيجابية ملموسة بزراعة القطن من صنف (Bt): «إن أولئك المزارعين الذين تتوافر لديهم إمكانية الحصول على التربة الصالحة والمياه والجهد الكافي يبلون بلاء حسناً. أما صغار المزارعين فيمنون بالفشل. ومحاصيلهم محكوم عليها بالهلاك الأمر الذي يدفعهم إلى الانتحار. كما أبلغنا» أن القطن هنا لا يمكنه مضاهاة قطن ولاية غوجارات؛ فطوال هذه السنين أدت خطة حكومة مهاراشترا إلى الإبقاء على إجراءات غير فاعلة ولا جدوى منها مع الافتقار للكفايات. وصغار الفلاحين هنا غير متعلمين، وليست هناك من وسيلة تجعلهم قادرين على المنافسة».

وبينما كنا نتكلم مرت بنا عربات تجرها ثيران مخصية تعلوها أكداس من القطن، في حين كانت تنقل القطن حول المُجمع. وقد أخبرته عن الحالات التي أطلعنا عليها والأوضاع التي كنا لمسناها في القرى. فرد قائلاً وهو يهز كتفيه دون اكتراث: «إنهم أشبه بالجراء».

ودعانا للقاء بعض المزارعين الذين كان يعرفهم، وكانوا يحققون مردوداً مناسباً، قائلاً: «بإمكانهم أن يخبروكي عن أشياء كثيرة». كان أحدهم قد تعرض لحادث أدى إلى إصابته إثر ارتطامه بإحدى المعدات الموجودة على أرضه، وكان موجوداً في مشفى محلي في البلدة بانتظار إجراء عملية جراحية في ساقه. وأجرى السيد دوتيوالا اتصالاً هاتفياً ثم أغلق السماعة، وقال لنا: إن باستطاعتنا، إذا كانت تلك رغبتنا، التوجه للاجتماع بالمزارعين في حينه.

وتكومنا في سيارتنا وهي سيارة بيضاء اللون من طراز «Tata India»، وانطلقنا إلى المستشفى. كان مشفى خاصاً ونظيفاً، ومن الواضح أنه كان مجهزاً بشكل جيد. كان المزارعون في الطابق الثالث متجمعين في غرفة الرجل المصاب. كان هنالك اثنان من إخوته، بوروشوتام لادا واومبراكاش لادا وصديق لهما اسمه جوغال كيشورراثي. وكان هؤلاء الرجال أكبر جسدياً من المزارعين المساكين الذين كنا قد رأيناهم في القرى المعدمة. وكانوا متعلمين. كان أبناء الرجل المصاب موجودين هناك، هارش لادا، وعمره سبعة وعشرون عاماً وهو الذي كان يتولى إدارة أمور المزرعة، وڤيبور لادا وعمره أربعة وعشرون عاماً وهو الأخ الأصغر الذي عمل لصالح مصرف ICICI موظفاً في قسم التأمينات. كان كلاهما

متعلمين، يرتديان ثياباً مرتبة، ويتحدثان اللغة الإنكليزية بطلاقة. وجاءت أمهما وقدمت لنا الشاي. وكانت هي أيضاً ترتدي ثياباً أنيقة. كانوا قد هاجروا إلى ماهاراشترا من إقليم البنجاب قبل ثلاثة أجيال وكان من الواضح أنهم قد حققوا إنجازات في عملهم وحالفهم التوفيق؛ وقد أبلغونا أنهم كانوا يزرعون القطن، والقمح، والعدس، وقصب السكر والقرطم (العصفر) وأزهار دوار الشمس. وكان كل واحد منهم يزرع زهاء ستمئة فدان، وهي أكبر بمئتي أو ثلاثمئة مرة من مساحة الأراضي التي يمتلكها ضحايا حوادث الانتحار.

وقد ألقوا باللائمة في حوادث الانتحار على شرب الكحول ولعب القمار. وكانوا يعتقدون أن صغار المزارعين أصبحوا كسالى، يعتمدون على أموال الدعم الحكومي للأسعار بحيث إنه عندما جرى سحبها لم يستطيعوا التكيف مع الوضع. غير أنهم اعترفوا أيضاً بأن المنافسة تشتد وأن النزعة السائدة كانت تسير باتجاه إقامة مزارع أكبر فأكبر. وقال كيشور راثي «المشكلة تكمن في المياه. فهناك إما أمطار غير كافية أو أن المطر يهطل في الوقت الخاطئ». وكان أومراكاش لادا مصراً على أن القطن من صنف (Bt) لم يكن هو المسؤول، فقد حصلنا على ثمانية إلى عشرة قنطارات لكل فدان بزراعة الصنف (Bt) من القطن، وثلاثة إلى أربعة قنطارات فقط بزراعة الصنف الآخر». وقد أتيت على ذكر الرجل الذي التقيناه، والذي حصل على قنطار واحد من القطن لكل فدان. فأقروا بأنهم كانوا يحصلون على الوسائل اللازمة لري مزروعاتهم وأن هذا الأمر هو الذي أحدث كل هذا الفارق. كان بإمكانهم إيصال المقدار اللازم من المياه إلى المزروعات في الوقت المناسب من دورة حياة النبتة. وكانوا يحاولون إقامة نظام الري بالتنقيط، لكنهم ذكروا أن البنوك لم تكن لتقرض المال لهذا الغرض. وقال هارش لادا: إنه «حيثما قدمت الحكومة المساعدة في عملية الري، ارتفع الإنتاج. وقد وضعوا موضع التنفيذ بعض الخطط من أجل تجميع مياه الأمطار، ولكن الهطل نفسه كان قليلاً جداً فلم يُحدث أي فرق». وجادل دوتيوالا وبوروشوتام لادا بأنه كان يجب على المزارعين أن يكونوا حذرين في موضوع السقاية: ففي ولايتي البنجاب وهاريانا، أدت المياه ذات النوعية الرديئة والاستخدام المفرط للسماد إلى إنهاك التربة».

وكان هارش واثقاً بأن المزارعين سوف يربحون أكثر إذا ما تضامنوا مع بعضهم، ووافقه الرأي جوغال راثي قائلاً: «إن تقطيع الأراضي إلى مزارع أصغر فأصغر، أدى إلى تقليص

الإنتاج، وسيؤدي دمج الأراضي إلى زيادته». وأجرى هؤلاء المزارعون في الحقيقة النقاش ذاته الذي يجريه دائماً الأمريكيون من أصحاب المصالح في حقل المشروعات الزراعية الكبرى وغيرها من الشركات الزراعية، بشأن الحجم والفاعلية.

إلا أن الأغلبية العظمى من مزارعي الهند هم من صغار الملاك الذين يمتلكون ما بين فدان وخمسة فدادين من الأرض. وليست لديهم أي مهارات أو ثقافة تمكنهم من الترويج لمنتجاتهم وإقناع الآخرين بها في ساحة سوق العمل في المدن. وعندما يجبرون على ترك أراضيهم، ينتهي بهم المقام في أحياء المدن الشعبية الفقيرة أو عمالاً مهاجرين. وكانت تقديرات الخبيرين في علم الاجتماع مادهاڤ غادجيل وراما تشاندرغوا تشير قبل عشر سنوات، إلى وجود مئات الملايين ممن يسميانهم اللاجئين البيئيين في الهند -ثلث عدد سكان البلاد بأكمله- الذين أرغموا على ترك مزارع أجدادهم أو مناطق الغابات. أما وقد دفعوا للرحيل نتيجة لبناء السدود، وتحويل مجاري المياه، وإزالة الأشجار والحراج، وفشل المحاصيل النقدية أو غيرها من أشكال استنزاف الموارد، التي جعلت من المستحيل البقاء على قيد الحياة في بيوتهم الريفية، فقد انتهى هؤلاء الناس لاجئين في الداخل يعيشون على هامش مراكز الاستهلاك الحضرية أو مهاجرين دائمي الترحال والتنقل، بحثاً عن قليل من العمل، وقليل من الطعام[4]. وفي طريقنا إلى نيابور لنستقل الطائرة عائدين إلى بومباي، التقيت أنا وديليب مع جايديب هارديكار مرة ثانية. قال لنا: إن أحياء السكن العشوائي الفقيرة في نيابور تكبر بنسبة عشرة بالمئة كل عام، وأن ثمانية آلاف شخص يعيشون في هذه الأحياء، وأن الكثيرين منهم كانوا مزارعين نازحين.

في الثلاثين من حزيران « يونيو » عام 2006. قام مانموهان سينغ رئيس الوزراء الهندي بزيارة إلى ڤيداربها. وكانت أزمة حوادث انتحار المزارعين قد أصبحت موضوعاً بارزاً في التقارير الأخبارية على مستوى البلاد، مع ورود تقارير جديدة عن حدوث وفيات كل أسبوع تقريباً. ومخاطباً المزارعين الذين يعانون وطأة الوضع الاقتصادي، أكد لهم رئيس الوزراء: «إنني جئت إلى هنا لأطّلع على محنتكم. أنا أعرف مدى الألم الذي تكابدونه. وسوف أرى ماذا يجب فعله للحيلولة دون حصول مثل هذه الأزمة في المستقبل[5]. ووعد السيد سينغ بإعفاء المزارعين من جميع الفوائد المستحقة على قروض المصارف في المناطق الست الأكثر

تضرراً جاعلاً المزارعين مؤهلين للحصول على قروض جديدة. كما تعهد بتخصيص أموال لعمليات الإغاثة الطارئة الفورية، وبالتحقيق في أسباب عدم تنفيذ مشروعات الري. وقال أيضاً: إنه «كان مدركاً للحاجة إلى الابتعاد عن المحاصيل النقدية»، ووعد بالمساعدة على إيجاد موارد دخل موازية للمزارعين[6].

في شهر تشرين الثاني الماضي عقدت أكبر جماعة مناصرة للمزارعين في الهند، تدعى «جماعة كيسان سبها لعموم الهند» (AIKS The All India Kissan Sabha) مهرجاناً كبيراً في مدينة نيودلهي. وتجمع الآلاف من العمال من مختلف الولايات الهندية من أجل مطالبة الحكومة، بمعالجة الأزمة الزراعية في البلاد. وكانت إحدى مطالبهم إجراء إحصاء رسمي لحوادث الانتحار بين المزارعين. وتبنى القضية مختلف الأحزاب السياسية، وكان من المتوقع ان تحتل حيزاً مهماً من جدول أعمال الدورة الشتوية للبرلمان الهندي لعام 2006.

أزمة المياه في الهند

مع تزايد عدد السكان بمقدار ثمانية عشر مليون نسمة كل عام وتحقيق نمو اقتصادي قوي، تمر الهند الآن بأزمة مياه حادة تهدد بأن تصبح أسوأ كثيراً. ويتوقع استناداً إلى دراسة للوضع أجراها البنك الدولي، أن يتضاعف استخدام مياه المنازل في المناطق الحضرية للهند بحلول عام (2025)[7]. كذلك تعني الخطط الموضوعة لإحداث تحول في النهج الذي تتبعه الهند في الزراعة، بالتأكيد، استخدام كميات أكبر من المياه في المناطق الريفية للبلاد. وقد علق أصحاب المصالح الصناعية والشركات الزراعية المتنفذة في المدن في نزاع على المياه مع صغار المزارعين والسكان القبليين أدى إلى وقوع مواجهات عنيفة شملت كل المناطق، وكانت رؤية جواهرلال نهرو لتحديث بلاده في منتصف القرن العشرين قد انطوت على بناء سدود كبيرة أسماها «معابد الهند الحديثة». وكان مئات الآلاف من المزارعين الهنود والقبليين قد نزحوا عن أراضيهم بسبب مشروعات السدود التي أقيمت في كل أنحاء البلاد بما فيها سد «ساردار ساروفار» على نهر «نارمادا» في ولاية غوجارات. وحقق هؤلاء الأشخاص الذين أرغموا على الرحيل القليل من التعويض إن كان هناك من تعويض، والقليل من المساعدة الموعودة لإعادة إسكانهم في مناطق جديدة. وكان نجم بوليوود المحبوب آمير خان قد تصدر

عناوين نشرات الأخبار عندما احتج بصورة مثيرة للجدل على نقص التعويض الكافي للناس، الذين جرى ترحيلهم مع بدء العمل بإنشاء سد «ساردار ساروفار». ولقيت أفلامه مقاطعة من جانب مواطني ولاية غوجارات من سكان المدن، الذين يرون في السدود ضرورة لتقدم الولاية، كما حظر عرضها من قبل حكومة الولاية الملتزمة كلياً بأصحاب المصالح الناشطين في المجالات العمرانية والصناعية والزراعية القائمة على نطاق واسع.

إن إقامة السدود على نهر نارمادا، ولا سيما بناء سد «ساردار ساروفار» هو أكثر مشروع سدود إثارة للجدل في الهند. فقد احتج المؤلف والناشط اروندهاتي روي على نحو صارخ ضد بناء السد، وألف كتاباً عنه بعنوان «ثمن المعيشة»، كما كتب ديليب داسوزا كتاباً آخر عن الموضوع عنوانه «نارمادا الملعون». وناضل ميدا باتكار، الذي يعد وبصورة كبيرة أكثر ناشطاً اجتماعياً في الهند المعاصرة التزاماً بتعاليم غاندي، ناضل ضد إقامة السد لسنوات عديدة وقاد حركة أطلق عليها اسم «حركة انقاذ النارمادا» وهي تلفظ بالهندية Narmada Bachao Andolan وتعرف بالأحرف الأولى (NBA). وقد نجحت الحركة في تأخير المشروع لكنها لم تفلح في منع تنفيذ إقامة السد الذي ازداد ارتفاعه من (88) متراً في عام (1999)، إلى (121.92) متراً في عام (2006)، عقب سلسلة من القرارات اتخذتها المحكمة العليا في الهند تجيز إضافة زيادات تدريجية في الارتفاع. ومع كل زيادة كانت هناك مساحة أوسع خلف السد تتعرض للفيضان وتغرق عدداً متزايداً دائماً من القرى والمعابد والأراضي الزراعية والغابات. وتم ترحيل 320,000 شخص بسبب السد. وقضت أعداد كبيرة من الناس أثناء عملية بنائه، ومات أيضاً مئات آخرون بسبب الضغوط التي تعرضوا لها نتيجة ترحيلهم وإعادة إسكانهم في مناطق جديدة ضد رغبتهم. وأوشك ميدا باتكار على الموت عدة مرات: إما عبر الإضراب عن الطعام أو لرفضه الانتقال من المنطقة مع تزايد ارتفاع منسوب المياه.

نادراً مايكون النزاع الحاد على نهر نارمادا الجدال الوحيد القائم بشأن المياه في الهند. فقد انشغلت ولايتا كارناتاكا وتاميل نادو في نزاعات حادة على حقهما في مياه نهر كوفري. ولدى الحكومة الهندية مشروع طموح جداً –البعض سيقول أنه يشكل مفخرة ويدعو للاعتزاز الشديد، وآخرون سيقولون: إنه مشروع أحمق تماماً– لربط كل أنهار البلاد عبر نظام من القنوات. ويعرف المشروع باسم مشروع «ربط الأنهار». وقد لقي معارضة من جماعات

الحفاظ على البيئة بوصفه عملاً من الأعمال البيئية الأشد حماقة والأشد خطورة، الذي سيدمر نظام الطبيعة القائم على ضفاف الأنهار في الهند. ووقعت بلدية مدينة نيودلهي عقداً مع شركة «ديغريمون» Degrémont، وهي فرع من شركة المياه الفرنسية العملاقة «سويز» Suez لنقل المياه من قناة غانغا العليا المتفرعة عن مشروع سد تيهري Tehri في ولاية أوتار براديش عبر خلال مصنع جديد لمعالجة المياه في سونيا ڤيهار، لإرواء سكان المدينة في جنوب وشرقي دلهي. وقد احتج المزارعون الذين يعتمدون على هذه المياه لري مزروعاتهم وبقوة على المشروع مؤكدين أنه لن يترك لهم سوى كمية قليلة من المياه. ويضمن مصنع سونيا ڤيهار لشركة سويز عشر سنوات من الأرباح المتواصلة. وتزود الحكومة الشركة بالأرض والكهرباء، وتكاليف عملية المعالجة ذاتها التي تصل إلى مايوازي أربعمئة مليون روپية أو زهاء (45) مليون دولار لإيصال المزيد من المياه إلى سكان دلهي العطشى.

تعد خصخصة قطاع المياه اتجاهاً عالمياً سائداً. ويقدر البنك الدولي أن عملية خصخصة المياه هي تجارة تساوي ما يمكن أن يصل إلى تريليون دولار، و بما أن الغالبية العظمى من شعوب العالم لا يشترون مياههم من مصادر خاصة في الوقت الحاضر. ويظهر البنك الدولي في تقرير مهم حول الأزمة المائية في الهند تحت عنوان «الاقتصاد المائي للهند: الاستعداد لمستقبل مضطرب» يظهر تحيزاً باتجاه عملية الخصخصة بشكل عام، وخصخصة المياه بشكل خاص، مؤكداً أن «الدولة بحاجة إلى تسليم تلك المهام التي لا تحتاج إلى أدائها، وإلى إيجاد المقدرة على القيام بأمور كثيرة بإمكان الدول فقط أن تقوم بها. ولا بد من إدخال المنافسة في سياق توفير خدمات المياه العامة الأساسية.[8] وتسيطر ثلاث شركات ضخمة تقيم مصالح لها في دول عدة على (40) بالمئة من السوق المائية الخاصة للعالم: بيكتل Bechtel، سويز Suez، وڤيڤندي Vivendi. وتلتحق شركات مهمة أصغر بالباقين بأية طريقة، في حين تزداد الإمكانية الربحية للسوق فيما يعرف بعمليات «الذهب الأزرق» الذي تقدر قيمته الآن بحدود 400 مليار دولار.

ويشكل النمو السكاني، والتوسع العمراني والتحول المخطط للاقتصاد الزراعي للبلاد وفق النموذج التجاري - الزراعي الموجه للتصدير، مجرد بعض العوامل التي تسهم في أزمة المياه المتفاقمة في الهند. وتوفر المياه الجوفية (80) بالمئة من الحاجات الداخلية للريف

الهندي و(50) بالمئة من الحاجات الداخلية للمدن[9]. وتستمر الجداول البيانية للمياه بالهبوط في حين يجري استنزاف المكامن المائية بشكل أسرع من إمكانية إعادة تعبئتها. والكثير منها ملوث بمواد عالية السمية، وتكلف إزالتها مبالغ مكلفة جداً بالنسبة لدولة نامية كالهند. كما انخفضت مؤشرات الجداول البيانية للمياه في بعض مناطق الهند بما يصل إلى (70) بالمئة. وأكد لي العديد من أسر ضحايا حوادث الانتحار ممن أَجريت معهم مقابلات في ڤيداربها بأنهم كانوا يمتلكون آباراً بالفعل، فإن هذه الآبار كانت قد جفت ولم يكونوا يملكون المال ليقوموا بأعمال الحفر إلى العمق المطلوب حالياً لاستخراج المياه.

إنقاذ المياه، إنقاذ المجتمعات

نيروپا بهانجار امرأة في الخمسين من عمرها كلها حيوية، تتمتع بثقة ورباطة جأش وذات نظرة معبرة متألقة. وكانت مهتمة بدورها بأزمة المياه في الهند على مدى سنوات. وهي مُدرسة سابقة في علم الأحياء المجهري، وتحولت إلى مديرة مدرسة ثم عملت لصالح شبكة الآغا خان منذ عام (1987). وحتى عام (1993). وعملت لاحقاً مع شركة Ion Exchange India «ايون اكستشينج انديا» وهي شركة رائدة في مجال معالجة المياه، وذلك بصفة مستشارة لمشروع إنشاء نواتهم الريفية. وقد غيرت التجربة من نظرتها إلى الأمور. فقد اكتشفت أثناء عملها في القرى في ريف ولاية غوجارات أن أعداداً هائلة من القرويين كانوا مصابين بتسمم حاد بالفلوراين، وهو تسمم ينجم عن وجود كميات كبيرة جداً من مادة الفلور في مياههم. وقالت لي: كان المؤشر البياني للمياه قد هبط بمقدار ثمانين بالمئة، وكان الفلور الموجود بشكل طبيعي قد بات مركزاً. لم تكن هناك مياه جديدة تتسرب داخل التربة لإعادة تعبئة المكامن المائية الجوفية. كان الناس يعانون كثيراً المرض ولم يكونوا قادرين على الوقوف على أقدامهم من دون مساعدة. وتعيش نيروپا عند واجهة وورلي البحرية في بومباي في أحد الطوابق العالية التي تتمتع بمنظر عام لبحر العرب، لا يحجبه شيء. وقد جلسنا على حصير من القش في غرفة نومها التي تستعمل كغرفة مكتب أيضاً. وكنت أستطيع أن أرى جيداً مسافة بعيدة من البحر، وبعيدة بما فيه الكفاية لكي ألحظ وجود خط واضح يفصل المياه ذات اللون البني الداكن والملوثة للغاية القريبة من الشاطئ، عن المياه الملونة، بصورة طبيعية أكثر، باللون الأزرق الفولاذي التي تموج على مسافة أبعد.

قالت لي نيروپا: إن 25 مليون شخص معرضون للتسمم بمادة الفلور «الذي يُصفي الكالسيوم من عظام الناس. وفي محيط مدينة أحمدأباد مثلاً، حيث يعيش الناس حياة أفضل، ويتوافر كلس أكثر في نظامهم الغذائي، لا يتأثر هؤلاء بشدة كما هو الحال في مناطق أخرى، حيث لا يملك الناس أكل منتجات الألبان». وتحدثت نيروپا عن المشكلات الأخرى الموجودة في مخزون المياه الجوفية في الهند: الزرنيخ والحديد. «لقد باتت الأمور أسوأ منذ الاستقلال، حيث تتزايد كميات المياه التي يجري تحويلها إلى المدن إما بشكل مباشر من أجل مياه الشرب، أو بشكل غير مباشر عبر المنتجات الخاصة بالأسواق الحضرية التي تحتاج إلى المياه بشكل مكثف من أجل إنتاجها». وأتت نيروپا على ذكر مشكلات المياه الجوفية التي نشأت في جوار مصانع كوكاكولا في ولايتي كيرالا واندرا براديش.

وانطلاقاً من رغبتها في عمل شيء ما يكون فاعلاً في معالجة أزمة المياه التي يعانيها الريف الهندي، قامت نيروپا بالسفر إلى منطقة كاتش والمناطق المحيطة بولاية مهاراشترا، فزارت الأماكن التي تبذل فيها مساعٍ حثيثة للمحافظة على مياه الأمطار وتجميعها، وحاولت فهم أيها حققت نتائج (فاعلة وأيها أخفقت. وكانت متأثرة بشكل خاص بزيارتها إلى ريليغاون سيدهي، وهي قرية شهدت تحولات رائعة على يد الابن المنتمي والناشط الاجتماعي آنا هازير. فبلجوئه إلى إشراك القرويين في بناء سلسلة من السدود الترابية، وسدود التقطير وغيرها من إجراءات تجميع المياه، كان آنا هازير قد أفلح في رفع البيانات المائية وضمان توفر المياه الكافية للشرب والري. فتحولت ريلغاون سيدهي من مكان مجدب قاحل يخلو من أي نشاطات حيوية في السبعينيات تغطي فيه أكشاك بيع الكحول غير المشروع على بضائع أهل القرية، وتتلف المحاصيل تدريجياً تحت أشعة الشمس القاسية، إلى قرية مزدهرة نضرة خضراء تقوم اليوم بتصدير الخضراوات إلى الخليج العربي.

كان الدرس الأساسي الذي تعلمته نيروپا من التحقيقات التي أجرتها أنه بينما كان تجميع مياه الأمطار هو الحل، كان من الضروري إشراك القرويين في أي إجراءات تتخذ لمساعدتهم. فقد كان عليهم أن يشعروا بأن المشروع ملك لهم، وإلا فإنه لن ينجح؟ «المشكلة الكبيرة في الهند هي أن إدارة شؤون المياه يتولاها مهندسون مدنيون ليسوا مجهزين بما يلزم للقيام بعمل يعتمد على المجتمع المحلي. فعندما ضربت الأمطار والرياح الموسمية

المنطقة في عام (2005). على سبيل المثال، وعندما غمرتنا فيضانات مرعبة، تضرر الكثير من السدود، وبرك المياه وغيرها من الهياكل المائية. وبما أنه في معظم الحالات، كانت هذه البنى قد شيدت من قبل الحكومة من دون أي مشاركة من جانب السكان المحليين فيها، لم يبال أي شخص من أفراد المجتمع المحلي بإصلاحها. وقامت نيروپا بالتحرك «عندما جاءت خادمة خالتي إليّ وطلبت مني أن أساعد قريتها التي تعاني مشكلة وجود نقص حاد في المياه. وسافر القرويون في رحلة طويلة شاقة للقائها في شقتها في بومباي أول مرة. وفي عام 2001، قامت بالمساعدة على بدء مشروع لتجميع مياه الأمطار في القرية. وتعهدت منظمة غير حكومية ريفية في المنطقة تدعى «شير» SHARE (وتعني شارك) وهي الأحرف الأولى من اسمها كاملاً (Society to Heal , Act, Restore, Educate) أي جمعية الاستشفاء، العمل، الإصلاح، التعليم) تعهدت بتنفيذ المشروع. وتعمل SHARE حالياً بالتعاون مع «رابطة الطلبة السابقين في جامعة صوفيا» (SCESA Sophia College Ex Students Associatien) - التي تعد نيروپا عضواً في لجنتها الإدارية - في ستين قرية في ماهاراشترا. وقد توسعت اهتمامات عملهم في توفير المياه لتشمل تدابير الحفاظ على الصحة العامة والزراعة الثانية. نحن لن نبدأ بمشروع جديد في القرى التي يعاني أهلها مشكلات طبقية وإدمان الكحول أو غيرها من الانقسامات حتى يتآلفوا مع بعضهم».

تتمثل إحدى المظالم النموذجية للتعصب الطبقي في الهند في منع الداليت (المنبوذين) من استخدام بئر القرية من قبل القرويين الآخرين. وينظر الهندوس الذين يلتزمون بالأفكار التقليدية للطائفة إلى أي اتصال يتم بالمصادفة، بما في ذلك الاتصالات غير المباشرة عبر تناول الطعام أو الشراب مع الداليت، بوصفه عملية تدنيس. ومع ذلك فإن شخصاً من الداليت قد يقتل في الهند اليوم، ولا سيما في المناطق الريفية التي تتمسك بالتقاليد المحافظة، لكونه أقدم على ملامسة أحد الهندوس من أبناء الطبقة الاجتماعية المنغلقة، مصادفة أثناء سيره في الطريق. وربما يتم تعقب الأزواج الشباب الذين يجرؤون على الوقوع في الحب متجاوزين الحدود الطبقية، فيكون مصيرهم القتل. وربما يسمح لأولاد المنبوذين في المدارس العامة بدخول غرف الصفوف مع أولاد الطبقات الاجتماعية المتوارثة، ولكنهم غالباً ما يجب عليهم الجلوس منفصلين عنهم، كما يفرض عليهم أن يأكلوا على مسافة

بعيدة من الأولاد الآخرين. وتؤثر مشكلات نقص المياه بشكل غير متناسب على المنبوذين، بما أنهم آخر من يحظى بأولوية الوصول إلى الموارد الحيوية المهمة بما في ذلك المياه.

وعندما يتفق القرويون على العمل والتكاتف معاً، عندها فقط تقوم كل من منظمة SHARE ورابطة SCESA بتبني القرية ومعالجة قضاياها. ويتم اختيار هيئة محلية ولجنة مائية لتمثيل القرية، وقد تضم رئيس المجلس المحلي للقرية ويسمى «ساربانتش» Sarpanch وهو ينتحب ديمقراطياً. وأحياناً يكون رئيس المجلس امرأة في الوقت الحاضر، ومن المهم بشكل خاص، إشراك نساء القرية في موضوع المياه بما أنهن مسؤولات عن إيجاد المياه من أجل الاستعمال المنزلي، وغالباً ما تسير النساء في الهند عدة أميال كل يوم بحثاً عن المياه، وهن يحضرن معهن إلى البيت ما يقدرن على حمله فقط داخل جرار فوق رؤوسهن. ويجب على القرويين، على أي حال، تأمين يد عاملة دون مقابل، وهم يسهمون بشكل كامل في عملية البناء، ويتعلمون كيفية المحافظة على النظم الجديدة لمجمعات المياه التي يقومون بإنشائها. وقد كان البرنامج ناجحاً للغاية إلى حد أن الناس الذين كانوا قد تركوا قُراهم بسبب تفاقم القضايا المعيشية يتقاطرون الآن ببطء عائدين إلى ديارهم.

تنشط نفيسة باروت في العمل مع Utthan (يوتان) وهي منظمة غير حكومية تسخِّر جهودها لخدمة قضايا المرأة والمياه، وتتركز نشاطاتها في المناطق الساحلية لولاية غوجارات. وما يلفت الانتباه بشأن نفيسة التي تتحدر من خلفية قروية متواضعة هو تمسكها بمبدأ غاندي عن الديمقراطية العميقة، وهي تقول في إحدى مقالاتها: «كان غاندي قد اقترح أسلوباً للحياة يضمن قابلية البقاء، وكذلك المساواة بين الذكر والأنثى، والنهوض بأوضاع المعدمين. وكان المبدأ الأساسي لفلسفة غاندي يتمثل في مشاركة الناس في صناعة القرار، وإيجاد حلول محلية لقضايا المعيشة الأساسية، وحل النزاعات بإجماع الآراء»(10)

وتمول منظمة يوتان إقامة السدود الترابية، عمليات تجميع مياه الأمطار، إعادة تخزين المياه الجوفية، بناء برك مياه تقليدية في القرى، وغيرها من أساليب إعادة المياه إلى المجتمعات المحلية، التي استنزفت مخزونها الطبيعي من المياه إلى درجة انعدام قابلية البقاء. وفي القرى التي تقع على طول ساحل ولاية غوجارات حيث تنشط منظمة يوتان، سجل المؤشر البياني للمياه انخفاضاً كبيراً، وتلوثت الكثير من الآبار بمياه البحر. وتؤدي

إعادة ملء الآبار بالمياه عن طريق توجيه الجريان السطحي للهطل المطري باتجاهها في أثناء موسم الأمطار وغيرها من وسائل تجميع المياه، تؤدي بشكل جذري إلى تحسين مخزون مياه الشرب بالنسبة للقرى المتضررة. فالمياه في الآبار التي أصبح طعمها مالحاً تعود فتصبح حلوة ثانيةً. وتروي نفيسة كيف أنه مرة تلو المرة، أصبحت النساء اللواتي بدأن رحلة تمكين أنفسهن عن طريق العمل على تنفيذ مشروع مائي، واثقات بما يكفي للسعي من أجل الحصول على قروض مصرفية، وإقامة أعمال مشتركة كالمزارع الجماعية وبدء إنشاء تعاونيات، والمطالبة بمعاملتهن باحترام من جانب أسرهن ومجتمعاتهن.

وقد وجد ام.دينيش كومار وتوشآر شاه، وهما باحثان يعملان مع برنامج جنوب آسية التابع للمعهد الدولي للإدارة المائية، وجدا مستويات من مادة الفلور أعلى من الحدود المسموح بها في مياه أربع عشرة ولاية هندية مع تعرض (62) بالمئة من قرى الهند لكمية زائدة عن الحد من الفلور. كما عثروا على مستويات عالية من الملوحة في مياه منطقة غرب البنغال وفي المناطق المحيطة بمدينة دلهي، فضلاً عن الكشف عن وجود كميات كبيرة من الحديد في المياه التي ترفد ولايات بيهار، راجستان، تريبورا، وغرب البنغال، وكذلك ولاية اوريسا الساحلية. ويؤثر التسمم بالزرنيخ على ما يقارب (36) مليون شخص يعيشون غرب البنغال وفي بنغلاديش، حيث يعتمد الكثيرون من الناس على أنابيب الآبار التي تثقبها طبقة سفلية محملة بالزرنيخ تتشكل بصورة طبيعية. كما أن كثافة تركيز مادة النشادر نتيجة للجريان السطحي للأسمدة هي أعلى من المستويات المسموح بها في إحدى عشرة ولاية هندية. وتلوث السوائل الصناعية الجارية مياه الهند بمعادن ثقيلة كالرصاص، الكاديوم، الزنك، والزئبق، وتبذل جهود ضئيلة لتنظيف مكامن المياه الجوفية من هذا التلوث الهائل. «فالهند أفقر من أن تتحمل تكاليف الاستعانة ببعض وسائل التكنولوجيا التي تمت تجربتها في الغرب بنجاح لاسيما في الولايات المتحدة؛ لأنها مكلفة بشكل يمنع شراءها»[11]. وبالنسبة إلى دولة نامية كالهند أيضاً، تشكل الجهود التي تعتمد على المجتمع المحلي لإعادة تعبئة المكامن الجوفية وتحسين أسلوب إدارة الوضع المائي الأمل الأفضل لمواجهة أزمة المياه في المناطق الريفية.

الذوبان القادم

ليست الهند هي التي أوجدت الاحتباس الحراري في العالم، ولكن الاحتباس الحراري سوف يؤدي إلى خراب الهند. ويتمركز معظم سكان الهند على طول الشريط الساحلي الواسع للبلاد. ويتأهب عشرات الملايين منهم لترحيلهم عن المناطق الساحلية في حال حدوث ارتفاع في مستويات مياه البحر حسب التنبؤات. ويحذر تقرير مهم جداً لوزير المالية في المملكة المتحدة السير نيكولاس شتيرن نشر في الخريف الماضي، بأنه حتى اتفاقية كيوتو لا تسهم بما فيه الكفاية للحيلولة دون وقوع كارثة عالمية وشيكة نتيجة لتغير الظروف المناخية. وهو يحث الحكومات على التحرك على الفور، وإنفاق واحد بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي أو (184) مليار جنيه استرليني للتحكم في انبعاث غازات البيوت البلاستيكية وإلا فإن الخسائر ستكون أضخم مما يمكن للإنسانية أن تتحمله[12].

سوف يكون تأثير الاحتباس الحراري ملموساً في الجزء الجنوبي من الأرض، ومن ضمنه الهند، أكثر كثيراً من الجزء الشمالي. وستكون الخسائر الاقتصادية عدا عن ذكر الخسائر البشرية مخيفة جداً لدى التفكير فيها. وكما هو الحال مع العديد من المشكلات الأخرى التي تواجهها الهند، فإن مجرد فداحة الضرر الذي قد يحدثه الاحتباس الحراري، والذي لا تُتخذ أية إجراءات للتخفيف من حدته، تشل الذهن والقدرة على التفكير. إلا أن الهند تمتلك طوع بنانها التكنولوجيا اللازمة لإيجاد حلول، لما يمكن أن يكون أخطر أزمة واجهتها الإنسانية على الإطلاق، كما تملك نفوذاً عالمياً متنامياً للضغط على «أسوأ المسيئين»، الولايات المتحدة والصين، من أجل التحرك أيضاً.

في عام (2006)، ارتفعت درجات الحرارة في العالم بحدود درجة واحدة على مقياس سلسيوس إلى أعلى درجة حرارة تسجلها منذ مليون سنة. وكانت درجات الحرارة أدفأ مما كانت عليه في أي وقت آخر في أثناء المدة الزمنية الواقعة مابين الدورين الجليديين للمناخ المعتدل، التي دامت اثنتي عشرة ألف سنة، وتطورت في أثنائها المدنية كما نعرفها. وفي الوقت الذي كان فيه الاحتباس الحراري ظاهراً على أوسع نطاق في أقصى الشمال،

بات من الملحوظ أن المحيط الهندي أصبح أكثر دفئاً، وكذلك الأمر بالنسبة للوضع في جبال الهيمالايا. ويميل الاتجاه الحالي نحو المزيد من الاحتباس الحراري، وهو وضع يحمل إمكانية إحداث تأثيرات مدمرة بالنسبة لمسيرة التنمية في الهند ولمستقبل شعبها.

وتعليقاً على تقرير نشر في (26) أيلول «سبتمبر» 2006، حول محاضر جلسات الأكاديمية الوطنية للعلوم»، أصدر جيمس هانس من معهد غودارد لدراسات الفضاء التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) هذا التحذير: «إذا ما بلغ المزيد من الاحتباس الحراري درجتين أو ثلاث درجات على مقياس سيليسيوس، فإن من المرجح أن نشهد تغييرات تجعل من الأرض كوكباً مختلفاً عن الكوكب الذي نعرفه. وكانت آخر مرة تشهد فيها الأحوال الجوية مثل ذلك الطقس الدافئ في منتصف العصر البليوسيني منذ نحو ثلاثة ملايين سنة تقريباً عندما كان مستوى البحر يصل وفقاً للتقديرات إلى (25) متراً تقريباً (ثمانين قدماً) أعلى من المستوى الذي يصله اليوم»[13] ويحذر آل غور في فيلمه السينمائي وكتابه المسمى «الحقيقة المزعجة» بأنه في حال ذوبان القطب الشمالي -وهناك علامات واضحة بأن ذلك هو ما يفعله تماماً- فإنه سيتم ترحيل (60) مليون شخص من كالكوتا، ومنطقة غرب البنغال الساحلية، وبنغلاديش[14]. وفي شهر تموز عام (2005)، كانت بومباي مغمورة بسبع وثلاثين بوصة من مياه الأمطار في أثناء أربع وعشرين ساعة، وهو أكثر هطل غزارة شهدته أي مدينة في الهند من قبل، وأدى إلى وفاة أكثر من ألفي شخص. وفي الأسبوع الأخير من شهر آب (2006)، فاضت مقاطعة بارمر في ولاية راخستان المعرضة للجفاف بعدما غمرها 750 ميلليمتراً من مياه الأمطار، وهي كمية أكبر خمس مرات من المعدل السنوي الإجمالي؛ ومات آنذاك مئة وثلاثة وتسعون شخصاً ونفق خمسة وأربعون ألف رأس من الماشية.

وفي حين أنه بالإمكان تفسير كل واقعة خطيرة للأحوال الجوية السيئة بمعزل عن غيرها باعتبارها استثنائية، فقد سجل التاريخ عدة وقائع من هذا النوع على مدى قرون، فلم يعد هناك بعد الآن من مجال للإنكار بأن هذه الوقائع تتزايد في تكرارها وفي شدتها. وفي عام (2005)، أفاد تقرير للمنظمة الدولية للأرصاد الجوية التابعة للأمم المتحدة أن (90) بالمئة من الكوارث الطبيعية جميعها التي وقعت ما بين عام (1992)، وعام (2001)، كانت نتيجة لأحوال طقس سيّىء جداً «نجم عنها مقتل 622,000 شخص وإلحاق الضرر بملياري

شخص آخرين، وتدمير أراضٍ صالحة للزراعة وانتشار الأمراض. ويقدر الحجم الكلي للخسائر الاقتصادية على مدى المدة ذاتها بنحو (450) مليار دولار»[15]. وفي عدد خاص حول مسألة الاحتباس الحراري واحتل غلاف المجلة في شهر أيلول من عام 2006، حذرت مجلة «الايكونوميست» بأن «جليد المحيط المتجمد الشمالي مثلاً، يذوب سريعاً بصورة غير متوقعة بمقدار تسعة بالمئة كل عشر سنوات. كما أن الأنهار الجليدية آخذة بالذوبان بشكل مثير للاستغراب. وهناك مجموعة من الظواهر مثل النشاط البركاني، التي كان يعتقد في السابق أنها غير مرتبطة بتغير المناخ، يجري ربطها به بشكل متزايد.

وقد ارتفعت درجات الحرارة في جبال هيمالايا، «سقف العالم» الأسطوري الذي يضم أعلى القمم على وجه الأرض، ارتفعت في السنوات الأخيرة بمقدار درجة واحدة على مقياس سيلسيوس؛ وتحوي جبال هيمالايا أكبر عدد من الأنهار الجليدية خارج المناطق القطبية. وتشكل هذه الأنهار الجليدية مورداً للمياه بالنسبة لمليارى نسمة. كما تشكل البحيرات المتجمدة خطراً كبيراً بشكل خاص: عندما تنهار السدود الجليدية فجأة، تجرف معها كل شيء في الأسفل كما حدث على نحو مأساوي للقرويين في نيبال. وقد ازدادت هذه الحوادث بمقدار عشرة أضعاف في أثناء السنوات العشرين الماضية. واعتباراً من عام (2005) كانت هناك أربع وعشرون بحيرة جليدية معرضة لخطر الانشطار في بوتان وأربع وعشرون أخرى في نيبال[17] وفي حين تتلاشى الأنهار الجليدية بفعل الذوبان، سيتراجع جريان المياه في الأنهار الرئيسة للمنطقة، وسيتقلص حجم تدفق المياه عبر السدود الكهرمائية، مما يؤدي إلى خسارة للطاقة لا يمكن للمنطقة أن تتحملها.

التسمم بالمبيدات الحشرية

يعد استخدام المبيدات الطفيلية والمبيدات الحشرية من بين الأكثف في العالم مع تسجيل (165) مبيداً طفيلياً. وقد ازداد استخدامها بشكل ثابت، وذلك استناداً إلى تقرير صدر عام (2001) عن «المجلس الهندي للبحوث الطبية». ويجري في الهند حالياً إنتاج واستخدام مادة الـ«د.د.ت» D.D.T، «بي.اتش.سي» BHC، «الكاربوميدات» carbomate، السلفوناميد المثبت endsulfan وكذلك الليندين lindane، وجميعها موجودة في المياه السطحية والمياه الجوفية.

وقد قدمت المبيدات الفطرية فوائد كثيرة للهند بالتأكيد، وكان لها تأثير إيجابي ملموس. فالمناخ الاستوائي للبلاد يعرضها لأمراض عديدة منشؤها الحشرات، بما فيها الملاريا وداء الخيطيات وحمى الضنك والتهاب الدماغ والكوليرا والتيفوئيد، الذي ينتشر عن طريق قمل الإنسان. ويُعزى إلى مبيد د.د.ت الفضل في التقليل من الإصابات السنوية بالملاريا من (75) مليون حالة في عام 1952، إلى 2-4 مليوناً في الوقت الراهن. وقد كانت المبيدات الطفيلية عنصراً أساسياً في الثورة الخضراء، وأدى استخدامها مع خليط من البذور الهجينة الجديدة، والأسمدة الصناعية، وعمليات الري، إلى زيادة غلال المحاصيل بشكل جذري أثناء أعوام الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. إلا أن ثمن هذه الغلال كان باهظاً. فقد اكتشفت بقايا من مبيد «د.د.ت» و«اتش.سي. اتش» وغيرها من المبيدات الطفيلة في أنسجة بشرية وحيوانية، وفي المياه وفي الهواء في أرجاء العالم كله. وأدت الحملة لإنقاذ الصقر الأمريكي الأصلع إلى صدور قرار عام 1972، بحظر استخدام مبيد «د.د.ت» في الولايات المتحدة، مما أسفر عن تقليص وجوده في الولايات المتحدة بشكل كبير، غير أن ذلك لم يعن التخلص منه. وتسجل مستويات الـ «د.د.ت» و«اتش.سي.اتش» ارتفاعاً ملحوظاً في الهند بالتحديد، كما يظهر في التحاليل المخبرية لعينات من الدم، والدهون، وحليب الأم.

واستناداً إلى تقرير المجلس الهندي للبحوث الطبية، «فإن القراءة المتأنية لبيانات رواسب المبيدات الطفيلة في الهند في عينات الفاكهة، الخضراوات، الأنواع المختلفة للحبوب كالحنطة والشعير والأرز والذرة ودقيق القمح والزيوت والبيض واللحوم والسمك والدواجن والحليب البقري والزبدة والجبنة تدل على وجودها بكميات ضخمة[18]. وقد حدد العلماء وجود HCB، وهو مبيد فطري أيضاً، وD.D.T وHCH في عينات الطعام التي فحصوها. وكانت هذه المواد الكيماوية قد ارتبطت بالتسبب بمرض السرطان واضطرابات هرمونية بإمكانها أن تضر بالخصوبة، وأدت في إعداد من الحيوانات البرية، ولا سيما الحيوانات البرمائية إلى إحداث تبدلات جنسية غريبة فتحولت إلى كائنات مخنثة، تجمع معاً خصائص الأُنوثة والذكورة.

كانت المبيدات الطفيلية الكيماوية ناتجاً فرعياً لصناعة الأسلحة الكيماوية، ولم يتم تطويرها من أجل الاستخدام التجاري إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن بين كل المبيدات

الطفيلية التي تشكل مخاطر على صحة الإنسان، يعرف مبيد الليندين على نطاق واسع بأنه الأسوأ، فهذا المبيد الذي يتلف الأعصاب، هو الكلور الغازي السام لبنية أعضاء الجسم، ومن عائلة مبيد الـ د.د.ت نفسها. وبإمكان المستويات العالية منه أن تتسبب في حدوث اختلاجات ووفيات. كما أن التعرض للمستويات المتدنية منه قد يؤدي للإصابة بالسرطان وتعطيل عمل الجهاز الهرموني الطبيعي. وقد حظرت اثنتان وخمسون دولة وبشكل مطلق إنتاج واستخدام مبيد الليندين، في حين ما تستنفد الولايات المتحدة 230,000 رطلٍ منه سنوياً في منتجات معالجة البذور، وما زالت تسمح باستخدامه لمعالجة قمل الرأس. أما الهند فتستمر الهند في تصنيع الليندين.

ونشر مركز العلوم والبيئة في نيودلهي (Center for Science and the Environment CSE) تقريراً في عام (2003). أورد فيه أمثلة على وجود مستويات عالية من رواسب المبيدات الطفيلية في المخزون الغذائي للهند، بما فيها المشروبات الخفيفة المصنّعة من قبل شركتي كوكاكولا وبيبسي كولا فرع الهند. وأكدت اللجنة المشتركة للبرلمان الهندي النتائج التي توصل إليها مركز العلوم والبيئة، وأوصت بوضع معايير محددة لصناعة المشروبات الخفيفة. كذلك أصدر المركز في العام الماضي تقريراً جديداً وجه فيه اتهامات بأن المستويات ما زالت عالية فقط، وإنما ارتفعت عن المستويات التي كانت عليها في عام 2003. وكان من بين رواسب المبيدات الطفيلية التي عثر عليها في المشروبات الخفيفة مستويات عالية من الليندين.

كان رد الفعل من جانب حكومة الولايات المتحدة ومجموعات الشركات التجارية الهندية - الأمريكية سريعاً وعدائياً. فقد حذر نائب وزير التجارة الدولية فرانكلين لافين بأن هذا النوع من التصرف يعد انتكاسة للاقتصاد الهندي. «وقال»: إنه في وقت تقوم فيه الهند ببذل جهود شاقة من أجل جذب الاستثمارات الأجنبية والمحافظة عليها، سوف يكون من المؤسف أن يُجرى البحث في الموضوع تحت سيطرة أولئك الذين لم يرغبوا في معاملة الشركات الأجنبية بشكل عادل[19]. وعبر براباكار بوثيردي، رئيس غرفة التجارة الهندية - الأمريكية عن غضبه من إرسال «الرسالة الخاطئة للمستثمرين في وقت تتوافر فيه فرص كبيرة للشركات التجارية في كلا البلدين للعمل معاً». ومع النمو السريع للروابط الاقتصادية

والعسكرية والإستراتيجية، والتحضير لمجيء أكبر وفد تجاري أمريكي يزور الهند في نهاية عام 2006، كان للتقرير الصادر عن مركز العلوم والبيئة الذي استهدف الشركات الأمريكية العملاقة المنتجة للمشروبات الخفيفة وقعاً مدوياً. وقامت المحكمة العليا في الهند بزيادة الوضع سوءاً وتعقيد الموقف عندما أعطت الشركات مهلة ستة أسابيع للكشف عن وصفاتها السرية لمعرفة الأسباب التي تؤدي إلى احتمال وقوع حوادث تلوث كهذه. ومع استثارتها للغضب السياسي، عمدت أحزاب المعارضة من التيارات اليسارية واليمينية إلى إدانة الشركات -الرموز المتنفذة للرأسمالية الغربية والثقافة الاستهلاكية- من أجل رفع شأن هذه الأحزاب في عيون الناخبين الهنود المذعورين. وقامت عدة ولايات، وعلى الفور، بحظر بيع المشروبات الخفيفة لشركتي كوكا كولا وبيبسي كولا.

غادرت شركة كوكا كولا الهند كما هو معروف في عام (1977). عوضاً عن الكشف عن تركيبتها الكيميائية السرية، وكانت عودة الشركة في عام (1993). رمزاً لإعادة تأهيل الهند في السوق العالمية وعلامة على أن الهند كانت آمنة ثانية كساحة للمشروعات التجارية الأمريكية. ومع أن الهند تشكل (1) بالمئة فقط من مبيعات المشروبات الخفيفة لشركة كوكا كولا في العالم، فإنه ينظر إلى إمكانيات السوق الهندية على أنها هائلة، كما تشكل الهند جزءاً من الخطة الإستراتيجية طويلة الأمد للشركة. وسوف تعمل شركة «Coke» جاهدة للبقاء في الهند، إلا أنها لن تنشر وصفتها السرية مطلقاً.

وكانت خيبة الأمل الفعلية في النقاش بأكمله هو أن كل الأحزاب كانت مذنبة باتخاذها مواقف منقسمة: فهناك موقف يرى في شركة «كوك» دلالة سيئة على الاستغلال الغربي مقابل موقف آخر يعد شركة «كوك» دلالة رائعة على انضمام الهند إلى العالم الغربي المتقدم. وبات الوضع معقداً، ويتطلب مقاربة أكثر دقة. إن تبرئة شركة كوكاكولا وإعفاءها من المسؤولية على أساس أن مادة السكر والمياه في الهند هما المذنبان الحقيقيان، ومن دون فتح نقاش عام وصادق عن كيفية مواجهة المشكلة الخطرة المتعلقة بالتلوث بالمبيدات الطفيلية ليس في الهند فقط، بل في كل أنحاء العالم، هو أمر لا يبعث على الرضا وهذه المشكلة هي أبعد ما تكون عن مقدرة شركات المشروبات الخفيفة الغربية لحلها، إلا أنه من

الصحيح أيضاً أن الهند تواجه مشكلات مائية وبيئية حادة بحيث إن تصنيع المشروبات الخفيفة لا يفعل شيئاً لمعالجتها.

ومن المؤسف أن الجدل الدائر حول المبيدات الطفيلية يأتي ليضيف إلى هموم أخرى بالنسبة لشركة كوكا كولا في الهند. فقد جرى اتهامها باستنزاف المكامن المائية الجوفية في مصنعها في مدينة بلاتشيمادا، بولاية كيرالا مما أدى إلى حدوث انخفاض في مؤشر المياه إلى أعماق لا يمكن للقرويين المحليين استجرارها. ويجب على نساء القرى أن يقمن برحلات شاقة وطويلة من أجل إحضار المياه التي يحملنها في الأواني عائدات إلى بيوتهن، في حين تغادر المصنع حمولات متتالية من المشروبات الخفيفة المعلبة تحملها شاحنات نقل البضائع. كما أُتهمت شركة كوكاكولا بالتخلص من الرواسب الطينية الكثيفة، وهي منتج فرعي ينجم عن تصنيع المشروبات الكحولية، في أرض المزارعين وعلى طول قناة مائية قريبة من المصنع. وقد لجأ السكان المحليون إلى تقديم شكاوى عديدة بشأن الرائحة الكريهة التي تطلقها هذه المادة.

أثار الجدل بشأن مشروب الكولا في الهند عدة قضايا. أولاً، في بلد لا يملك فيه الكثير من الناس فرصة الوصول إلى مياه الشرب السليمة، ووجهت اتهامات بأن قيام إحدى أقوى الشركات متعددة الجنسيات في العالم بتحويل المياه -التي لا تدفع شيئاً مقابل الحصول عليها، التي تتهم بأنها تأخذها من السكان المحليين الفقراء- إلى مشروب خفيف ثمنه مرتفع بصورة يصعب على هؤلاء السكان شراؤه، لا يبدو أمراً صالحاً مهما كانت الحقيقة. ثانياً، وكما أشار تقرير مركز العلوم والبيئة (CSE) مثله مثل تقرير (المجلس الهندي للبحوث الطبية) ICMR فإن هناك نسبة من المبيدات الطفيلية غير الآمنة متفشية في المخزون الغذائي للهند. ولابد أن معجزة ستقع إذا ما قام مصنع للمشروبات الخفيفة يستخرج مياهاً جوفية تقع في منطقة زراعية في الهند، بإنتاج منتج غير ملوث وخالٍ من المبيدات الطفيلية. والسكر في الهند، وهو مكوّن أساسي من مكونات الكوكا كولا والبيبسي، هو أيضاً ملوث برواسب المبيدات الطفيلية. ومن الصعب عدم تصور أن مزج السكر الملوث بالمبيدات الطفيلية مع المياه الملوثة بالمبيدات الطفيلية قد ينتج عنه مشروبات خفيفة ملوثة

بالمبيدات الطفيلية. ووفقاً لمقال نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» عندما ثار الجدل حول هذه المسألة في العام الماضي، فإن هناك نقاشاً دائراً في الهند حول «كيفية تنظيف السكر من آثار المبيدات الطفيلية، وهناك أيضاً إقرار بأن المياه الجوفية للبلاد هي بشكل عام، ملوثة بشدة إلى حد أن معظم المنتجات الغذائية تحوي بعض رواسب المبيدات الطفيلية.

وقد فندت شركة كوكاكولا الهند نتائج تحليل مركز العلوم والبيئة (CSE)، واستشهدت بتقرير لمختبر مستقل أظهر أن مشروباتها الخفيفة المصنّعة في الهند تفي بالمعايير التي حددها الاتحاد الأوروبي. وتمسك مركز العلوم والبيئة بما توصل إليه من نتائج[21]. وكانت القضية قد توقفت هنا عندما كان هذا الكتاب في طريقه إلى المطبعة.

ولسوء حظ شركة كوكا كولا، فقد كانت الشركات الأمريكية تمتلك سجلاً طويلاً ومعيباً في كل أنحاء العالم عن إهمالها للاعتبارات المتعلقة بسلامة المستهلك وسلامة البيئة. وكانت المعايير المفروضة من جانب الحكومة الوسيلة الوحيدة لإرغام العديد من الشركات على كبح التلوث أو احترام الصالح العام للمواطنين العاديين والمجتمعات المحلية. وفي حالات كثيرة قامت شركات تتمركز في الولايات المتحدة بنقل مكاتبها ومنشآتها إلى دول، حيث تكون المعايير البيئية، وقوانين العمل، وغيرها من القيود والتعليمات المفيدة، التي اكتسبتها الديمقراطيات المتقدمة بشق الأنفس، أقل صرامة أو غير مطبقة بشكل فاعل.

إضافة إلى ذلك فقد كان لدى الهند صورة واضحة عن الشركات والمؤسسات التجارية الأمريكية، وتجارب سلبية مشحونة عاطفياً معها[22]. وكان أكثرها إثارة للانفعال الحادث المأساوي الذي وقع عام (1984) في معمل كيميائي في بلدة بوبال. وفي وقت وقوع الحادثة، كان هذا المعمل التابع لشركة يونيون كارباید Union Carbide يقوم بتصنيع المبيدات الطفيلية. وأدى حدوث تسرب في غاز سام إلى مقتل سبعة آلاف شخص من ضمنهم عدد كبير من الأطفال. وتوفي خمسة عشر ألف شخص آخرين نتيجة التعرّض لاستنشاق الغاز. ويظل العدد الدقيق للضحايا، ومنهم الأشخاص الذين يعانون مرضاً مزمناً أو أذية جسدية دائمة، غير محدد حيث تتراوح التقديرات ما بين مئة ألف إلى نصف مليون. وسعت الهند دون أن توفق إلى تسليمها المدير التنفيذي المسؤول للشركة آنذاك، وارن اندرسون؛ ولم يتم تحميل أي شخص المسؤولية حتى تاريخه.

ويظل تسرب الغاز السام في بوبال أحد أسوأ الحوادث الصناعية في التاريخ. وقد أنكرت كل من شركتي «يونيون كاربايد» و«داو كيميكل» للكيماويات التي اندمجت معها في عام 2001، كل مسؤولية عن الحادث. ولم يتم تنظيف موقع التسرب أبداً. وأصدرت منظمة العفو الدولية تقريراً شديد اللهجة في عام (2004)، بمناسبة الذكرى العشرين للكارثة، دفعت فيه بأن «قضية بوبال تظهر كيف أن الشركات تتهرب من مسؤولياتها إزاء حقوق الإنسان»[23]. وفي حين تكبر مصالح الشركات التجارية الأمريكية في الهند، يأمل المرء بأن يطغى مستقبلاً إحساس أكبر من المسؤولية تجاه المجتمعات المحلية.

ثورة خضراء ثانية

كانت الثورة الخضراء التي أحدثت تحولات في مجال الزراعة في القرن الماضي اختراعاً أمريكياً خالصاً. وبدأت هذه الثورة في عام (1944)، مع مشروع أبحاث قامت بتمويله مؤسسة روكفيلر في المكسيك، وأجراها الدكتور نورمان بورلوغ، الاختصاصي في علم الوراثة عند النباتات وهو من ولاية مينيسوتا، وذلك بهدف المساعدة في إنتاج أنواع هجينة جديدة من النباتات تزيد من غلال الحبوب الغذائية. كان المشروع ناجحاً بشكل هائل، فتحولت المكسيك في أثناء عقدين من الزمن من دولة مستوردة للقمح إلى دولة مصدرة له. وفي أعوام الستينيات من القرن الماضي ساعدت مؤسسة روكفيلر على جلب الثورة الخضراء إلى الهند التي كانت تواجه نقصاً حاداً في الغذاء إلى درجة أثارت مخاوف من حدوث مجاعة خطيرة. وجرى زرع البذور الهجينة التي تمت تنميتها في المكسيك، في إقليم البنجاب، حيث ازدادت كميات المحاصيل ازدياداً كبيراً. وتابع الدكتور ام. اس سواميناثان مهمة رعاية ثورة الهند الخضراء، فعمد إلى تطوير بذور نباتات هجينة محلية ونشر الغلال كالمعجزة في كل أنحاء جنوب وجنوب شرق آسية. وانتقلت الهند من مستورد صرف للحبوب إلى دولة منتجة لمحاصيل وافرة منها ما وصل إلى (131) مليون طن من الحبوب في عام (1978)، مما جعلها إحدى أكبر الدول المنتجة للحبوب في العالم.

وبالإضافة إلى البذور الهجينة الجديدة، قامت الثورة الخضراء بعملية استخدام مكثف لكل ما هو جديد من المبيدات الطفيلية، والمبيدات العشبية والأسمدة الصناعية وأساليب

الري. ووضعت الأسمدة الزراعية التي تعتمد على النيتروجين المصنوع من الغاز الطبيعي، وضعت النباتات على قدم المساواة مع الستيروئيدات [أنواع من المركبات العضوية] وزادت من خط الإنتاج. غير أنه تبين وبسرعة أن المبيدات الطفيلية التي تحوي الكلور العضوي كانت تتسبب في الإضرار بما هو أكثر من الطفيليات الزراعية. وقد لفت نشر كتاب راشيل كارسون «الربيع الصامت» عام (1962) الانتباه إلى مخاطر مادة د.د.ت وساعد على إطلاق الحركة البيئية.

ارتفع سعر الأسمدة الصناعية بشكل مترادف مع سعر الغاز الطبيعي، الأمر الذي أدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج الغذائي. أضف إلى ذلك، فإن التلوث الناجم عن هذه الأسمدة في صيغة نيترات، يطرح مشكلة خطيرة في العالم كله. وفي الولايات المتحدة حيث تعد أسمدة النيتروجين عنصراً أساسياً في أكثر الزراعات إنتاجاً في العالم، «تم إغلاق المزيد من الموارد المائية العامة بسبب انتهاك معايير مياه الشرب بالنسبة لعنصر النيترات أكثر من أي ملوث آخر»[24] ومن دون هذه الأسمدة، فإن الغلال الكثيرة لحقبة ما بعد الثورة الخضراء لم تكن لتكون ممكنة، ومع ذلك فهي تطرح مخاطر جدية، وربما تلحق الضرر ببيئتنا بشكل دائم ولا سيما بمياهنا[25]. فهناك كميات هائلة من المياه التي يتم إيصالها عبر عملية السقاية يمكن أن تكون مضرة بيئياً. كما أن المبالغة في استخدام المياه في الري له آثار سلبية على تركيبة التربة، حيث يزيد، ولا سيما بالتزامن مع استخدام الأسمدة النيتروجينية، من ملوحة التربة ويقلل من إنتاجيتها وخصوبتها. ويواجه المزارعون هذه المشكلات في إقليم البنجاب حيث انطلقت ثورة الهند الخضراء.

لم تؤد الزيادة السريعة في إنتاج الأغذية في الهند إلى القضاء على الجوع في البلاد. وعلى الرغم من أن الهند تدعي أن لديها اكتفاء ذاتياً لناحية الغذاء، وأنه لناحية مجرد كمية الحبوب الغذائية التي يجري إنتاجها، فإن الادعاء له ما يبرره، فإن المزيد من الناس في الهند يعانون الجوع أكثر من أية دولة أخرى بمفردها. وهناك على الأقل (232) مليون شخص في الهند لا يحصلون على ما يكفيهم من الغذاء. ووفقاً لتقرير أصدرته منظمة اليونيسيف (UNICEF) في العام الماضي، فإن 200 مليون طفل ممن يعانون سوء التغذية -ثلث مجموع الأطفال الذين يعانون سوء التغذية في العالم- يعيشون في الهند. ويعاني نصف أطفال الهند

تقريباً (47) بالمئة، نقصاً حاداً في الوزن[26]. وكما أشار آمارتيا سين، فإن الحصول على كمية كافية من الغذاء ليس كافياً، فالناس يجب أن يمتلكوا الحق في الحصول على الغذاء.

لم تتمكن الهند من الوفاء باحتياجاتها من الحبوب الغذائية في العام الماضي. واستوردت الحكومة (2.2) مليوني طن من القمح، بما فيها شحنات من شركات أمريكية عملاقة مثل (كارغيل) Cargill، أكبر شركة في العالم لتجارة الحبوب، وآرتشر دانييلز ميدلاند Archer Daniels Midland. وليس بإمكان الخطوات الواسعة التي تتخذها الهند في إطار تزايد إنتاجها من القمح -تحقق زهاء 70 مليون طن من الإنتاج سنوياً- مجاراة الزيادة المستمرة في عدد السكان والاستهلاك المتضخم. وقد أسهم تحويل الأراضي من قبل المزارعين المقيمين فيها الذين يعيشون فيها على الكفاف من محاصيل غذائية إلى محاصيل نقدية كالقطن، أسهم في تفاقم المشكلة؛ وكذلك فعل خفض مساحة الأرض المحددة لزراعة الحبوب الغذائية التقليدية المغذية، وتلك التي لديها قدرة كبيرة على الاحتمال والنمو في العراء على مدار العام مثل السرغوم وحبة الدخن. وتسبب الانخفاض الحاد في إنتاج القمح في رفع اسعار دقيق القمح، العنصر المكون للخبز الهندي المشروح الذي يشكل عصب الحياة لمئات الملايين، وذلك بمقدار (30) بالمئة في العام الماضي[27]. وقد أدى هذا الأمر إلى إجهاد أسر الطبقة الوسطى الأدنى وإلى معاناة فقراء الهند من حرمان كبير.

هناك عنصر أساسي في وضع العلاقات الأوثق بين الهند والولايات المتحدة يتمثل في مبادرة تنمية زراعية جديدة رحب بها الرئيس بوش بوصفها «ثورة خضراء ثانية»، وذلك أثناء الكلمة التي ألقاها عند قلعة بورانا كيلا التاريخية في دلهي عندما زار الولايات المتحدة في العام الماضي. ويطلق على المبادرة مبادرة المعرفة الزراعية الهندية - الأمريكية. ويقوم الدكتور نورمان بورلوغ، وعقب فوزه بجائزة نوبل لجهوده المبذولة في الثورة الزراعية الأولى، بالمشاركة في الجهد المشترك الجديد. وتندرج أهداف المبادرة الزراعية كما يلي: (1) رفع الإنتاجية الزراعية لدعم الأمن الغذائي؛ (2) زيادة انتقال التكنولوجيا، بما فيها التكنولوجيا الحيوية، (3) بناء سياسة سليمة وبيئة تنظيمية. (4) توسيع التجارة والاستثمار وتشجيع اندماج الهند في الاقتصاد العالمي. (5) ضمان دور رئيس للقطاعات الخاصة الهندية والأمريكية، و(6) إعادة تنشيط علاقات الشراكة بين الجامعات في الولايات المتحدة والهند.

ويبدو من المستغرب، للوهلة الأولى، تسمية اتفاقية زراعية «مبادرة معرفة». ولكن من الأهداف الأساسية للاتفاقية، توسيع الملكية الفكرية القابلة لمنحها براءة اختراع أو امتياز. ووفقاً لموقع وزارة الزراعة الهندية على الإنترنت، فإن المشاركين عن القطاع الخاص هم مزرعة ماساني والشركة الهندية للتبغ من الجانب الهندي، ومونسانتو، وآرتشر دانييلز ميدلاند، وقبل كل الشركات، شركة وول-مارت من الجانب الأمريكي. وتشارك شركتا مونسانتو وارتشر دانييلز ميدلاند الآن، وكما رأينا، سابقاً وبكثافة في القطاع الزراعي الهندي. وتملك شركة وول-مارت كل التصميم على أن تكون كذلك في اللحظة التي تسمح فيها الحكومة الهندية بدخول الشركة إلى البلاد. وكانت صحيفة «Hindu» قد ذكرت في تقرير لها العام الفائت أن «البحث في تهجين المورثات (الجينات)، أي إجراء بحوث على الكائنات العضوية المعدلة وراثياً في المحاصيل، والحيوانات، والأماكن المخصصة لصيد الأسماك، سوف يشكل جزءاً مهماً من التعاون في مجال التكنولوجيا الحيوية»[28] وفي تقرير للصحيفة العلمية المحترمة «Nature» «نيتشر» والصحيفة المختصة بالتكنولوجيا الحيوية «Nature Biotechnology» «نيتشر بيوتكنولوجي» أكد كي.اس. جايارمان «أن أكثر ما يثير استياء النقاد هو وجود شركة مونسانتو، ثاني أكبر شركة منتجة للبذور المعدلة وراثياً في العالم، وشركة وول-مارت أكبر شركة بيع بالتجزئة في العالم، في عضوية مجلس إدارة المبادرة الجديدة».

وينقل المقال عن محلل شؤون السياسة الغذائية الهندي ديفندر شارما قوله بشأن الدور الذي من المحتمل أن تلعبه الجامعات الهندية فيما يتعلق بشركتي مونسانتو وول-مارت: «بوجودهما في مجلس الإدارة، فإن الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات جاهزة جميعها لتقرير برنامج البحوث الزراعية الهندية»[29].

إن الجمع مابين التنوع الوراثي الغني للنباتات والحيوانات في الهند، وسوقها الكبيرة المحتملة ومقدرتها الأكيدة كمركز للبحوث والتنمية، كلها تشكل نقاط جذب قوية تستقطب اهتمام الشركات التجارية الأمريكية. فبإمكان هذه الشركات أن تتطلع إلى توسيع نطاق أصول حقوق الملكية الفردية الخاصة بها، وبشكل سريع، باستخدام الطاقة الذهنية الهندية للمساعدة على إطلاق أفكار جديدة في مجال التكنولوجيا الحيوية وبحوث تهجين المورثات،

واستخدام الحقول الهندية لاختبار منتجات مهجنة جديدة أدخلت فيها عناصر مورثة من صنف آخر، ثم بيع هذه المنتجات للمستهلكين الهنود، سواء للمزارعين منهم أو لزبائن متاجر البيع بالتجزئة.

وقد أجريت اتصالاً هاتفياً مع سومان ساهاي من منظمة «حَمْلة المورثات «جين كامبين» في دلهي لأطرح عليها المزيد من الأسئلة بشأن تحفظها على الاتفاقية الزراعية بين الهند والولايات المتحدة. و«حملة الجينات» هي منظمة غير حكومية تركز نشاطاتها على توفير الأمن الغذائي والأمن المعيشي للمجتمعات الريفية والقبلية، وعلى تسخير وسائل التكنولوجيا من أجل تعديل الأغذية وراثياً، كما تركز على المعرفة المتأصلة، والاستخدام المقبول للموارد الطبيعية، المحافظة على الموارد الجينية وعلى حقوق الملكية الفكرية. كانت سومان تعبر عن انتقادها للاتفاقية بقوة قائلة: «سوف تكسب الهند القليل وتمنح الكثير جداً». وقالت لي: «اسمعي، إن الاتفاقية الزراعية هي بمنزلة تسديد لدين الاتفاقية النووية. وأنا أفهم الأمر على هذا النحو تماماً فمن السهل أن ندرك لماذا تحتاج شركة مثل مونسانتو وغيرها من أصحاب المصالح الزراعية الأمريكية إلى الهند. وهنالك مقدار كبير من المعارضة للكائنات الحية المعدلة وراثياً [GMOs] في أوروبة، وإفريقيَّة واليابان. فلمن سيبيعون هذه الأشياء؟ إن دولة زراعية عملاقة مثل الهند مهمة جداً بالنسبة إليهم.

في عام 2006. قام المزارعون في ولايات اركنساس، ميسوري، المسيسيبي، لويزيانا، تكساس، وكاليفورنيا بمقاضاة قسم علم المحاصيل في شركة «باير» Bayer بعدما دخلت سلالة معدلة وراثياً من الأرز جرى تطويرها في مخابر الشركة ولم تتم الموافقة عليها، دخلت في السلسلة الغذائية ولوثت محصول الأرز في الولايات المتحدة. ويحوي الأرز المعدل على نوع من البروتين أطلق عليه اسم «ليبرتي لينك» LibertyLink يتيح له مقاومة المبيدات العشبية المستخدمة في القضاء على الأعشاب الضارة. وبعد اكتشاف التلوث، حظرت اليابان استيراد شحنات الأرز الأمريكي، ووضع الاتحاد الأوروبي الأسس المطلوبة للفحص المخبري للتأكد بأن جميع شحنات الأرز القادمة من الولايات المتحدة لم تكن ملوثة. وقد شكل هذا ضربة كبيرة لمنتجي الأرز في الولايات المتحدة[30]. ولا أحد يعلم التأثيرات المحتملة على المدى البعيد للجينات المعدلة للنباتات أو الحيوانات التي تدخل السلسلة الغذائية.

وقد سألت سومان عن الأسباب التي تدعو الحكومة الهندية إلى منح الولايات المتحدة رأسمالٍ من المورثات بهذا الحجم الهائل. ولم ترغب سومان في ذكر أسماء، ولكنها أبلغتني أن صنّاع القرار المتنفذين «لديهم ارتباطات مباشرة بهذا الأمر» والشركات الأمريكية ليست هي الوحيدة المفضلة. فشركة «سنجينتا» **Syngenta** السويسرية العملاقة المختصة بالتكنولوجيا الحيوية، مثلاً، تعمل مع مؤسسة «ڤاسانتداد» **Vasantdada** لإنتاج السكر في پيون بولاية مهاراشترا، في موضوع قصب السكر المعدل وراثياً. وقالت لي سومان بشكل عام: «لقد كانت هناك قناعة كبيرة على أعلى مستوى في الحكومة الهندية بقضية الكائنات العضوية المعدلة وراثياً.

وتابعت قائلة: «كان هذا مهيأ بصورة ذكية جداً عن طريق ربطه بالثورة الخضراء». فالثورة الخضراء بالنسبة للهنود، هي التي أعطتنا سيادتنا، وجعلتنا مكتفين ذاتياً، لذا فإن اللجوء إلى الربط ما بين هذه الاتفاقية بتلك عن طريق تسميتها «ثورة خضراء ثانية» هو أمر حكيم وذكي جداً. ولكن هذا لا يشبه الثورة الخضراء في شيء. فكل المعرفة التي ولدتها الثورة الخضراء كانت معرفة عامة. وستكون هذه كلها معرفة خاصة. وهي تتعلق بحقوق الملكية الفكرية والشركات الاحتكارية التي تقوم بتوسيع حدود ما تملكه».

ثورة دائمة الخضرة

من أجل تحديث زراعي مستدام

يطرح الدكتور ام. اس سواميناثان، وهو نظير نورمان بورلوغ الهندي، سياسة عملية مختلفة عن تلك التي تدعمها الشركات الزراعية الأمريكية. والدكتور سواميناثان، وهو «مستشار فخري» للجانب الهندي في مجلس «مبادرة المعرفة»، مقتنع بأن ثورة «دائمة الخضرة» مستدامة بإمكانها أن تنقذ الزراعة الهندية، وعلى نطاق أوسع، المجتمع الهندي. وتعرف مؤسسته «مؤسسة ام. اس سواميناثان» للبحوث أو (MSSRF) بتأكيدها على نهج تشاركي من الأسفل إلى الأعلى يضع الأشخاص قبل التكنولوجيا»[31]. وبصفته رئيساً للهيئة الوطنية الهندية للمزارعين، أعلن الدكتور سواميناثان في المؤتمر العلمي الثالث والتسعين

الذي عقد في العام الماضي في الهند» أن الأمر لا يتعلق فقط بزيادة الغلال وإنما أيضاً بزيادة الإنتاجية من دون التسبب في إلحاق ضرر اجتماعي أو بيئي»[32].

ويهدف عمل الدكتور سواميناثان بشكل أساسي، إلى اتباع طريق في المنتصف، اتباع اتجاه للزراعة الهندية ليس هو بالنموذج الذي تتبعه الشركات التجارية الأمريكية ولا هو عودة إلى أساليب الزراعة التقليدية الصرفة، التي لا يمكنها ببساطة أن تفي بالحاجات سواء تلك التي يتطلبها المزارعون أو السكان الحضر في الهند الذين يتزايد عددهم على نحو سريع. وهو ليس، على سبيل المثال، معارضاً بالمطلق للنباتات المعدلة وراثياً. إلا أنه يعتقد أن الهند تحتاج إليها وتستحق إنشاء هيئة تنظيمية للتكنولوجيا الحيوية الزراعية يمكن لعامة الناس أن تثق بها. وهو ملتزم أيضاً بوضع الصالح العام، والأمن الغذائي للمزارعين فوق كل الاعتبارات الأخرى، بوصفهما يشكلان حجر الأساس لبرنامج وطني للأمن الغذائي للجميع. كما أنه يرغب في رؤية المزارعين يبيعون الفائض من إنتاجهم فقط، وأن يجعلوا هذا الفائض متاحاً في نظام عام للتوزيع. وهو يريد أن يثقف المزارعين، وأن يجعلهم يتعلمون القراءة والكتابة، وأن يعرفوا كيفية التعامل مع التكنولوجيا حتى يحصلوا على المعلومات ذاتها والوسائل ذاتها التي تحصل عليها المؤسسات التجارية الزراعية الكبيرة.

والدكتور سواميناثان، وقد انحسرت جبهته الآن فوق الإطار المعدني لنظارته بعد تساقط شعره، مدرك بشكل قاطع للأمور العرضة للخطر في هذه اللحظة الحرجة. وهو يعتقد أنه لا بد من تحطيم «التمييز العنصري التكنولوجي»، الذي يحول في الواقع دون وصول ثورة تكنولوجيا المعلومات إلى الفقراء، ويحجبها عنهم. كذلك فإن الحصول على التكنولوجيا يجب أن يكون ديمقراطياً ومنصفاً، وهو يشجع الأساليب الزراعية التي تكون مقبولة بالنسبة لبيئة طبيعية جرى استنزافها سابقاً إلى حد الإنهاك. وبالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) قامت مؤسسته بإطلاق مبادرة «القرى الحيوية» في عام 2000. وأوضح قائلاً: «تعني القرى الحيوية قرية تحتل فيها التنمية البشرية مكانة رفيعة. وهي تشكل بذلك مصطلحاً للتنمية التي تركز على البشر. وقد أطلق أيضاً مشروعاً لإنشاء مصرف شعبي لتطوير خطط تمويل القروض الصغيرة وغيرها من الوسائل المالية المفيدة للفقراء من

سكان الأرياف. والدكتور سواميناثان ملتزم بالتعامل مع «التحديات المزدوجة للقضاء على الفقر والمحافظة على الموارد الطبيعية»[33].

وفي المناطق الجافة مثل منطقة ڤيداربها حيث يعتمد المزارعون على هطل شحيح للأمطار لا يكاد يكفي، يؤيد الدكتور سواميناثان رعاية محاصيل الحبوب التقليدية الموجودة في عائلة نبات الدخن الذي يعطي محصولاً وافراً من الحبوب الصغيرة والملائمة للمناخ المحلي وأوضاع التربة، مثل ذرة السرغوم وحبة الدخن اللتين كان يزرعهما ماهيديو يوكيسان بينجاركار وأفراد الأسر الآخرين الباقين على قيد الحياة الذين التقيتهم، وبعض أهالي المزارعين الذين كانوا قد أقدموا على الانتحار. وبينما تعطى الاتفاقية الزراعية بين الهند والولايات المتحدة أهمية بارزة «لضمان دور أساسي للقطاع الخاص» يشدد الدكتور سواميناثان على أن «الخصخصة المتزايدة للغذاء وأنظمة السلامة المائية تقود منذ الآن إلى صفقة اجتماعية غير متساوية»[34] والدكتور سواميناثان شخصية لها احترامها في ميدان الزراعة في الهند، ويأمل المرء بأنه سوف يستمر في التأثير في السياسة الزراعية الهندية. إن رؤيته الشمولية ومعرفته المتعمقة بالزراعة في بلاده تمتلك الإمكانية لإطلاق ثورة لزراعة منصفة مستدامة ومهمة بالنسبة لمستقبل الهند.

أكشاك الإنترنت

يشكل الإنتاج الزراعي (24) بالمئة فقط من حجم الاقتصاد الهندي، غير أن زهاء (850) مليون شخص يعتمدون على الزراعة من أجل البقاء. ويعيش خمسة وعشرون بالمئة من هؤلاء، (212.5) مليون شخص تحت خط الفقر، بمداخيل تبلغ دولاراً واحداً أو أقل في اليوم. وتؤدي المستويات المتدنية من التعليم والصحة، وغير المستقرة أيضاً، إلى تثبيط مقدرتهم على إدراك طاقاتهم البشرية الكامنة. وقد ازداد الإنتاج الزراعي في الهند بنسبة تتراوح ما بين (1.5) و(3.2) بالمئة فقط مقارنة بالمعدل القومي المتسارع للنمو البالغ (8) بالمئة. ولتحقيق نسبة النمو السنوي المقررة والبالغة (10) بالمئة، فإن الحكومة الهندية متحمسة لرفع نسبة النمو الزراعي إلى (4) بالمئة. إلا أن السياسات التي تدعمها الحكومة من أجل تحقيق زيادة سريعة في النمو عبر تشجيع البيع بالتجزئة وعبر المحاصيل النقدية الموجهة نحو التصدير

التي يتم إنتاجها ضمن خطط زراعية واسعة النطاق، تجازف بإلحاق ضرر اجتماعي وبيئي خطير بالريف الهندي»[35].

وفي حين تحسنت الغلال بشكل جذري منذ الأيام التي سبقت الثورة الخضراء، فإن المنظومة الزراعية تبدو عليها علامات الإجهاد. فقد كان النقص في محصول الهند من القمح في العام الماضي، ناجماً في جزء منه عن غلال راكدة؛ ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى الشركات الخاصة التي تنهش القمح الذي عادة ما تبيعه الحكومة من أجل المخزون الاحتياطي. وتظل غلال المحاصيل الغذائية الأساسية مثل فول الصويا أقل جداً من تلك التي تنتجها البرازيل. ولدى الهند أكبر عدد من الأراضي التي يجري حرثها ورعايتها، من أية دولة على وجه الأرض، ومناخها يتراوح ما بين معتدل إلى استوائي. وتمتلك البلاد الإمكانية لتصبح إحدى أولى المناطق الغنية بمحاصيل الحبوب والفاكهة والخضراوات المعدة للتصدير في العالم. ويكمن التحدي في تطوير الزراعة الهندية وبناء مقدرات حشودها الكبيرة من صغار المزارعين لضمان أمنهم الغذائي، وتحسين رزقهم المعيشي وزيادة قدرتهم الشرائية.

وقد عمدت الشركة الهندية المحدودة للتبغ «آي.تي.سي» ITC، وهي شركة زراعية عملاقة إلى تنفيذ إستراتيجية خطة ثورية لربط المزارعين بالأسواق بطريقة تؤدي إلى تمكين وإثراء المزارع، وتحسين الإنتاج الزراعي ونوعيته وزيادة الأرباح وحصة شركة (ITC) من السوق. وتستخدم هذه الخطة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أو برنامجاً يعتمد على تقنية الاتصالات الدولية، وذلك لتفعيل الإفادة من هذه القوة الرئيسة المحركة للازدهار الاقتصادي للهند.[36] وتشكل شركة (ITC) أحد أفضل الأمثلة عما اكتشفت أنها فلسفة تتشارك في تبنيها على نطاق واسع، الشركات التجارية الهندية بتحقيق النجاح عن طريق القيام بالعمل المفيد أو تطبيق فلسفة «زيادة قيمة حملة الأسهم عبر خدمة المجتمع»[37].

وتتألف الخطة من إنشاء أكشاك عبارة عن مراكز معلومات تستخدم الحاسوب الشخصي، مع إتاحة الفرصة للدخول إلى شبكة الإنترنت. وتسمي الشركة هذه الأكشاك «أي - تشوبالز» e -Choupals. أو الأكشاك الإلكترونية وقد أقامت الشركة هذه الأكشاك في قرى تقع على بعد (1.5) كيلو متر سيراً على الأقدام من المزارع التي تستهدفها الخطة، أو كشك واحد لكل

تجمع من خمس قرى. ويدار كل e- Choupal بوساطة أحد السكان المحليين المقيمين في القرية، الذي يتلقى تدريبه على يد فنيين في شركة (ITC) ويسمى سانتشالاك sanchalak، ويوضع جهاز الحاسوب في منزله. وتتصل مراكز أكشاك الإنترنت بمحاور أو مراكز رئيسة تقع على بعد خمسة وعشرين إلى ثلاثين كيلو متراً من المزارع المستهدفة - المسافة نفسها التي يقطعونها عادة للوصول إلى الأسواق- التي تتموضع في مبانٍ أقامتها (ITC). وتعمل هذه المحاور كنقاط تجميع لمحاصيل المزارعين، وكذلك كمحطات يختارون منها ما يحتاجونه من المستلزمات الزراعية، مثل الأسمدة والبذور. وهي تدار من قبل وسطاء محليين تختارهم الشركة كوكلاء مشتريات مدربين يعملون أيضاً بائعين ويسمون «ساميوجاكس» Samyojaks. وتتصل المحاور الرئيسة بدورها، بشبكة من الشركات الساعية لشراء منتجات المزارع أو بيع مستلزمات زراعية للمزارعين؛ وتستحوذ شركة (ITC) نفسها على جزء كبير من الإنتاج الذي تمد به فرعها المتطور المختص بالأغذية المصنّعة، وتقوم الشركة أيضاً بتوسيع الخدمات التي تقدمها في محاورها لتشمل تسليف الأموال، التأمين، الغاز المستخدم في مواقد الطهي وغيرها من المنتجات التي ربما يرغب المزارعون في شرائها.

ويقدم «كشك الإنترنت» معلومات حول الأسعار المتداولة في السوق بالنسبة للسلع الزراعية الأساسية، ويتيح الاطلاع على أفضل الأساليب والعادات المتبعة في الزراعة. وهو لا يتقاضى ثمناً مقابل هذه الخدمات المتوافرة في إطار خطة واعية موضوعة لاستقطاب مشاركة واسعة من جانب المزارعين. وبإمكان (السانتشالاك) أيضاً أن يجمع عينات التربة —هناك برنامج تعليمي مصور على جهاز الحاسوب يرشد المزارع إلى كيفية القيام بهذه العملية— وأن يقوم بتحليلها عن طريق خبير الإرشاد الزراعي، ومن ثم بناءً على هذه النتائج، يوصي بإجراء التعديلات اللازمة لتحسين إنتاجية التربة. ويقدم الـe-choupal أيضاً معلومات عن متابعة أحوال الطقس، حتى يتمكن المزارعون من اختيار الوقت الأنسب للزراعة، وإضافة الأسمدة، واستخدام المبيدات الطفيلية في محاصيلهم. وفي حال اختيار المزارع أن يبيع محصوله لشركة ITC، فإنه يُعطى مقابله سعراً يكفله له السانتشالاك الموجود في القرية. وعندما يسلم المحصول إلى المركز الرئيس يقوم الـ «الساميوجاك» بوزن وفحص وتقدير جودة المنتج، ثم يدفع النقود للمزارع على الفور، وفقاً لسعر السوق الموضح والمكفول سابقاً. وباستطاعة

المزارعين أيضاً أن يختاروا بيع محصولهم عند «المانديز» الـ Mandis أو الأسواق المركزية للمنتجات الغذائية القائمة في كل أنحاء الهند، وحيث تقوم الحكومة والوكلاء المستقلون باختيار مشترياتهم من المحاصيل. غير أن المزارع لن يعرف تماماً مقدار المبلغ الذي سيتم دفعه له، إلا بعد أن يكون قد نقل منتجاته. كما أنه لن يتسلم المبلغ كاملاً، ومن الأرجح أنه سيجب عليه العودة عدة مرات لتحصيل نقوده كاملة. وتراهن الشركة الهندية للتبغ (ITC) بأنه بينما يظل الخيار للمزارع فإنه سوف يختار أن يبيع محصوله للشركة ذاتها.

وقد توجهت إلى مقر المشروعات التجارية الدولية لشركة (ITC) في سيكاندر أباد (تقع عبر النهر في الجانب المقابل لمدينة حيدر أباد) للتحدث مع شيف سيفاكومار المدير التنفيذي للفرع وأحد مبتكري مشروع «أكشاك الإنترنت». وأثار اهتمامي التزام الشركة بالمحافظة على ملكية المزارع لأرضه وخياراته في الحياة. ومثله مثل الكثيرين جداً من خيرة المديرين التنفيذيين في حقل الأعمال التجارية، فإن السيد سيفاكومار شخص بسيط، متواضع، دقيق جداً في عمله، ومتحمس جداً للعمل في سبيل وضع تصور واضح لتحسين حياة الفقراء في الهند، عبر اعتماد أساليب أفضل على الصعيد المهني. كان السيد سيفاكومار وهو متوسط القامة، ذو مظهر جدي، يرتدي قميصاً ذا كم قصير مفتوحاً عند الرقبة وبنطالاً أسود؛ ودار بيننا حديث في مكتبه، الذي يقع عند الطرف الخلفي للمبنى، في يوم مشمس. وقد أبلغني أن التزام الشركة بالمحافظة على عنصر الخيار الحر واحترام ملكية المزارع لأرضه ولعمله، كان أمراً جوهرياً لفلسفة العمل التي تتبناها شركة (ITC) «وتقوم نماذجنا وبناءً على تخطيط معدّ سلفاً بترسيخ الاعتقاد بأننا نستطيع أن نحقق النجاح فقط إذا ما قمنا بعمل مفيد، وأننا نقوم بعمل مفيد عندما نحقق النجاح. وهذا نموذج هندي خاص يقدم شيئاً فريداً من نوعه، شيئاً بمقدورنا أن نفعله بشكل ناجح جداً في قارة إفريقية أو في أجزاء أخرى من قارة آسية، غير أن بإمكانه أيضاً أن يقدم شيئاً لأمريكة الشمالية.» والسيد سيفاكومار على قناعة بأن المحافظة على حرية المزارع ووكالته الزراعية «تدفع شركة (ITC) إلى أن تكون أكثر قدرة على التنافس باعتبار أن علينا أن نعرض على المزارعين صفقة مغرية أكثر بالنسبة إليهم وتتيح للمزارع أن يحتفظ بكرامته».

وليست كل الشركات المتعجلة على الاستثمار في المجال الزراعي ترى الأمور على هذا النحو. فقد سعى سانيل بهارتي ميتال الذي جمع ثروته من عمله في مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية، إلى الالتحاق بركب المشروعات الزراعية الناجحة، وهو في سبيله إلى تأسيس شركة تجارية زراعية، توجه عملياتها نحو التصدير اسمها «بهارتي فيلدفريش» Bharti Field Fresh. وقامت الشركة باستئجار خمسة آلاف فدان في إقليم البنجاب لهذا الغرض، وهي تتعاون مع شركة «روتشيلد غروب» لشحن الفاكهة والخضراوات الطازجة إلى محال السوبر ماركت في المملكة المتحدة. وبإمكان المزارعين الذين لجؤوا إلى تأجير أراضيهم أن يعملوا فيها بوصفهم عمالاً، إذا ما أرادوا كسب دخل إضافي. ويزعم بهاراتي أن هذا سوف يؤدي إلى تحسين سبل العيش، إلا أن هناك مخاوف بأنه حالما يتم تأسيس المنظومة، سيجري جلب عمال من المهاجرين يتلقون أجوراً أقل، وسيجري بالآتي صرف المالكين الشرعيين للأرض من العمل. وصرح نائب رئيس الشركة راكيش ميتال في حديث لصحيفة «انترناشنال هيرالد تريبيون» International Herald Tribune أنه يعتقد أن هذه الفرصة التي تتيحها الزراعة هي أكبر من الفرص التي تتيحها وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، التي هي أكبر من فرص تكنولوجيا المعلومات [38].

ويُخشى أن تفقد الهند اكتفاءها الذاتي من الغذاء للأبد، بينما ينتقل المزارعون «من تنمية منتجاتهم الرئيسة كالقمح إلى تنمية محاصيلٍ أسعارها أعلى منه مثل البامية والبصل المانغا والتوابل والقريدس وشاي دارجيلينغ وأرز بسمتي ذي الحبة الطويلة، الكاجيو والحليب ولحوم الجاموس» أما المحاصيل التي تزرع فسوف تفرضها أذواق المستهلكين الأوروبيين والأجانب الآخرين، وليست الأسواق المحلية أو الحاجات الغذائية الوطنية. وقد اختارت الشركة الزراعية العملاقة «Pepsico» الهند لتكون مركزاً للمنتجات الزراعية بالنسبة لقارة آسية، حيث تقوم على سبيل المثال بتصدير محلول عصير البرتقال المركز الذي يتم إنتاجه في الهند إلى الأسواق الآسيوية الأخرى [39].

إن عملية تحويل الاقتصاد الزراعي للهند إلى اقتصاد موجه نحو التصدير يكون ذا قيمة عالية فيعمل على استخدام سلسلة المطاعم الخارجية الجديدة لجلب الإنتاج الطازج وبسرعة إلى أسواق المدن والمطارات، حيث تستطيع طائرات الشحن إيصالها إلى الأسواق

الأجنبية، سوف تؤدي دون ريب إلى إحداث تحول في الزراعة الهندية وإيجاد ثروة جديدة. وكان المصرف الهولندي «رابوبانك» Rabobank قد أصدر تقريراً عام 2005. لصالح وزارة الصناعات الغذائية التحويلية في الهند نوه فيه «بأن الهند سوف تضاعف حصتها من الغذاء العالمي والصادرات الزراعية من (1.5) بالمئة إلى 3 بالمئة في السنوات العشر القادمة مع ارتفاع قيمة الصادرات بشكل سريع إلى (30) مليار دولار بحلول عام (2015). بعدما بلغت (8) مليار دولار في عام 2003[(40)]. ولكن ليس من الواضح إلى أي حد سوف يقوم المزارعون المعدمون في الهند بالمشاركة في هذه الثروة. وفي حين ترتفع أسعار المنتجات الأساسية في السوق الداخلية للهند، فإن الملايين من الفقراء في البلاد يواجهون، وبصورة متزايدة خطر سوء التغذية أو المجاعة.

هناك الكثير من الأخذ والرد القائم حول مسألة هدر المواد الغذائية في الهند، لأنها تفتقر إلى سلسلة خارجية لنقل الفاكهة والخضراوات الطازجة بشكل سريع إلى أسواق المدن والأسواق الأجنبية. ويفترض هذا النقاش أن هناك مستهلكين من المدن ومن الأجانب فقط يستهلكون الأغذية الهندية. وقد نفى السيد سيفاكومار وجود أي هدر، وأكد لي أنه «على المستوى الكلي، يستمر الناس في الحديث عما نسبته خمسة وعشرون إلى ثلاثين بالمئة من الهدر، ولكن الهدر يطال كمية قليلة جداً من الغذاء. والحاصل هو عبارة عن تراجع في قيمة السلع. فسعر المنتج في محل السوبر ماركت يبلغ مئة روبية في الصباح، وسبعين في منتصف اليوم، وثلاثين في نهاية اليوم. وإذا ما كان كل شيء سيباع بمئة روبية، فماذا يحدث للذي يشتري بمبلغ ثلاثين روبية؟ لدينا طبقة متوسطة آخذة في النمو تفضل إنفاق مئة روبية إذا ما كانت الجودة متوافرة، لذا فإن هناك خسارة في ثمن السلع التي تباع بمبلغ ثلاثين روبية، إلا أنه ليس هناك أي هدر من هذا القبيل».

وما لم يكن باستطاعة الشركات أن تلتزم بنوعية المفهوم المستند إلى علاقة الربح الأكيد المتبادل أو الفائدة المتبادلة بينها وبين المزارعين والمعمول به وفق برنامج «أكشاك الإنترنت» الذي وضعته شركة (ITC)، والمنطلق من كون الناس هم مصدر الاستثمارات، فإن هناك خطراً حقيقياً يهدد بنهب القطاع الزراعي الواسع في الهند لصالح تحقيق الأرباح للشركات المتنفذة التي تركز على عملية التصدير وعلى عملية الإنتاج، من أجل تلبية المتطلبات المتزايدة لسوق

الإيرادات الأعلى الناشئة في الهند. وسيرغم المزارعون المستقلون على التخلي عن إنتاجهم لأصحاب الشركات، ويجبرون على العمل لديهم بموجب عقود في الأرض، التي كانوا يتولون إدارتها سابقاً. وإذا ماحدث ذلك، فإن مزارعي الهند في القرن الحادي والعشرين سوف يجدون أنفسهم في وضع ليس بعيداً عن الوضع الذي كان عليه النسَّاجون الهنود في القرن الثامن عشر عندما سلبت شركة الهند الشرقية منهم قوتهم كمنتجين مستقلين، وحولتهم إلى عمال بالقطعة، يعملون في تجهيز المنتجات لسوق الرفاهية الأوروبية، وهم يؤسسون في الواقع ومرة ثانية، لقيام إمبراطورية تجارية على حساب الجماهير الهندية المعدمة.

ويعتقد سيڤاكومار المسؤول في شركة (ITC): أن الهند متنوعة جداً وديمقراطية جداً بالنسبة لهذا النوع من النموذج الاستغلالي، مما يجعل من نجاحه أمراً صعباً. وستحول تركيبة الديمقراطية الهندية ومستوى الاختلاف في الخواص، في النهاية، دون تحويل الزراعة الهندية إلى منظومة زراعية صناعية وفق النمط الأمريكي. فالمنظومة الهندية تستند في أسسها إلى آلية تمويل القروض الصغيرة وإلى الميول المحلية. وقد مضى على وجود المنتجات الغذائية لشركة «كيلوغ» Kellogg's هنا زهاء عشرين عاماً. وهي ما تزال بالكاد تحقق ربحها البالغ عشرين مليون دولار. كما اضطرت سلسلة مطاعم ماكدونالد إلى تغيير منتجاتها بشكل كامل من أجل الهند. وهكذا فإن هنالك ضابطاً واحداً يتمثل في الديمقراطية، وضابطاً آخر يتمثل في تمويل القروض الصغيرة، فالمزارع الهندي يعمل في ظل أوضاع قاسية جداً. وتحتل مسألة تمويل القروض الصغيرة أهمية خاصة في الهند، لأن المزارع الهندي الذي ينتج على نطاق ضيق يعمل ضمن هوامش ضئيلة جداً، فيكون غير مشمول بالقروض التقليدية التي تقدمها المصارف الكبرى. ويرحب سيڤاكومار بالحراك الدائر والاهتمام الذي يحظى به القطاع الزراعي في الهند من جانب الولايات المتحدة في صورة «مبادرة المعرفة»، «لأنها فتحت الباب للمناقشة». وقال وهو ينقر بقلمه على مكتبه: «لم نجر أي نقاش جدي بشأن النموذج الذي يجب أن تتبعه الشركة التجارية للإنتاج الزراعي؛ لأنه ليس هناك من شركة تجارية هندية للإنتاج الزراعي؛ وهناك في الوقت نفسه الكثير من العمل الذي بإمكاننا القيام به معاً عبر الاتفاقية الزراعية. ونحن باستطاعتنا أن نتعلم من النهج الأمريكي وهناك وعي كبير على الجانب الهندي لما هو موضع خلاف لناحية

حقوق الملكية الفكرية، ولناحية البحوث العلمية الجامعية. ولكنْ هناك حلول توافقية في أي مفاوضات ثنائية. وسيقرر الهنود في النهاية ما هو الأفضل بالنسبة للهند».

وفي غضون ذلك يلتزم السيد سيفاكومار بتوسيع خطة أكشاك الإنترنت، التي وضعتها شركة ITC: «نريد أن نكون موجودين في مئة ألف قرية بحلول عام 2010». وعندما التقيته كانت الشركة قد بدأت للتو في تطبيق برنامج رائد لإتاحة الفرص التعليمية للقرويين عبر أكشاك الإنترنت. وقال: إن القرويين الهنود كانوا توّاقين للتعلم، ولم تكن هناك فرص تعليمية جيدة في متناولهم. كما تقوم شركة ITC باستطلاع إمكانية تنفيذ برامج محو الأمية للكبار مجاناً، وبالعمل مع البرنامج الناجح الذي أعدته شركة Tata للاستشارات، وكذلك إدراج برامج تعتمد على المنهاج الدراسي للمدارس الثانوية. إن الإمكانيات التي تنطوي عليها خطط مثل خطة أكشاك الإنترنت لإتاحة المدخل أمام غالبية الشعب الهندي من أبناء الأرياف ممن يتعرضون للإهمال، للحصول على الفرص التعليمية، الصحية، والترفيهية، هي بالتأكيد إمكانيات هائلة بشكل واضح.

استخدام المدينة لإنقاذ البلاد

في عام 1958، ترك جون بايسل، وهو أمريكي من ولاية كونكتيكت عمله بوصفه بائعاً في مخزن «ما يسي» الكبير المتعدد الأقسام، وجاء إلى الهند بدعوة من مؤسسة فورد لمساعدة الجمهورية التي كانت ما زالت حديثة العهد نسبياً على تطوير صناعتها النسيجية، التي تعتمد على الأنوال اليدوية. فوقع في حب الصناعات الحرفية الهندية، وأغرم بامرأة هندية تدعى بيملا. وأقام الزوجان منزلهما في نيودلهي. كان الاثنان من المبادرين إلى طرح عدد من المشروعات: فأسس جون «فابينديا» «Fabindia» وهي شركة تسخِّر عملها لإحياء الحرف الهندية التقليدية في الوقت الذي تؤمِّن فيه أسباب الرزق للهنود من أبناء القرى. أما بيملا أو بيم كما تُعرف عادة، فقد أسست دار «بلاي هاوس»، وهي روضة أطفال حديثة تطبق أفكاراً وأساليب مبتكرة في التربية، وتخرَّج فيها العديد من الشخصيات الهندية البارزة.

وعلى مدى سنوات عدة، أبقى جون بايسل على الحجم الصغير للشركة، وكان يدير في البداية مخزناً يبيع نوعاً واحداً من البضائع في حي «غريتركايلاش» في دلهي. ثم توسعت

شركة «فابينديا» بالتدريج. إلى أن توفى جون بعد معاناة طويلة مع المرض في عام 1998. وتولى ابنه الذي رزق به من زواجه من بيم، إدارة أعمال الشركة (أما ابنتهما مونسون فهي مخرجة سينمائية عملت في فيلمي «عرس الرياح الموسمية» و«الأرض»). وبينما ظل الابن ملتزماً بحماسة برؤية والده للدور الحيوي، الذي تقوم به الصناعات الحرفية في المجتمع الهندي والثقافة الهندية، فقد كان يعمل بشكل متواصل على توسيع شركة فابينديا. وكانت سلسلة متاجر الشركة تفاخر بوجود أربعة وثلاثين مخزناً تابعاً لها في العام الماضي مع وضع خطط لإنشاء ثلاثين آخرين. وعندما ذهبت إلى مكاتب شركة فابينديا في منطقة اوكلا الصناعية في دلهي للقاء ويليام بايسل والاطلاع على أمور الشركة، كانت هناك مالكة مخزن من مدينة غواندونغ في الصين، وكانت أعمالها تسير بشكل مرضٍ جداً، مما جعلها تخطط لفتح مخزن آخر. وتمتلك شركة فابينديا مخازن في روما وفي دبي، وهم يخططون لافتتاح واحد في مدينة نيويورك أو كونكتيت. كما بدأت الشركة بإدارة أعمالها التجارية على الإنترنت في عام 2005.

تقع منطقة اوكلا الصناعية في الضواحي الجنوبية الشرقية لمدينة دلهي بالقرب من نهر يامونا. وهي تضم مبانيَ متتالية من المصانع والمستودعات الإسمنتية العريضة المنخفضة، ومن دون واجهات أمامية. ولا تبدو مكاتب شركة فابينديا من الخارج مختلفة عن أي مبنى في الجوار. وهناك في الداخل مستودع ضخم وعميق يقع ضمن عدة طبقات وتصطف المكاتب وقاعات الاجتماعات على طرفي المبنى. ويعمل الجزء الباقي كوكالة مركزية أو كغرفة مقاصة لتجميع البضائع التي تصل من كل أنحاء الهند حيث يتم بعد ذلك فرزها من أجل شحنها إلى المخازن المختلفة.

ويليام بايسل رجل طويل القامة في بداية سِنيِّه الأربعين، وكان يرتدي قميصاً مصنوعاً من نسيج محاك بالنول اليدوي عندما التقيته وعقبت على الفور قائلة: إنني لم أكن ارتدي واحداً مثله. درس ويليام في مدرسة «لوميس تشافي Loomis chaffee» في مدينة ويندسور بولاية كونكتيكيت وفي جامعة ويسليان Wesleyan؛ ثم عاد إلى الهند. وقبل التحاقه بعمل الأسرة، عمل لصالح «مركز العلوم والبيئة» ومحطة إذاعة بي. بي. سي. أما مقدار ما يعرفه من معلومات عن الأنوال اليدوية فهو مماثل لما يعرفه أي شخص آخر في البلاد، أو أكثر.

وفي أثناء سيره في مستودعه، التقط قطعاً مختلفة من الثياب. كانت هناك قمصان قطنية محبوكة للرجال باللون الأزرق الغامق، مع عينات قليلة من القمصان النسائية باللون الأبيض المائل للصفرة، وقمصان طويلة تصل إلى الركبتين محاكة بنقوش أنعم وأوضح مصبوغة بالألوان البرتقالية والحمراء الداكنة. وكانت هناك أغطية للطاولات باللون العاجي مصنوعة من قماش الموسلين الخالص، ومطوية على نسق مربعات مرتبة. وقد كان بإمكانه أن يحدد مباشرة أية قرية جاء منها القماش.

كان هناك جو عائلي يخيم في أرجاء شركة «فابينديا». ودعيت إلى مكتب ويليام في الطابق العلوي، لتناول الغداء مع مشترٍ صيني، وأحد أعضاء فريق المصممين التابع لوليام. كان الطعام من صنع منزلي بسيط ولذيذ؛ وفي الطابق الذي يلينا نزولاً كان مديرو المخازن من جميع أنحاء الهند متواجدين هناك، يعقدون اجتماعاً ويستمتعون أيضاً بنوعية الطعام نفسها؛ وقد اختلط الجميع بعضهم ببعض بحرية. ومما أثار دهشتي قلة عدد الرجال الذين كانوا في المكان. وعندما استفسرت من ويليام عن هذا الأمر لاحقاً قال لي: «إن معظم مديري مخازننا وكبار المسؤولين في الإدارة هم من النساء».

أمضيت بعض الوقت مع أنجانا باترا التي ترأس البرنامج التدريبي للشركة. وكان قد مضى على عمل أنجانا مع شركة «فابينديا» زهاء تسع سنوات. وهي امرأة لطيفة المعشر في الخمسينيات من عمرها، وكانت ترتدي قميصاً فضفاضاً، وأعطتني درساً خصوصياً موجزاً عن الشركة. كان أول شيء أردت السؤال عنه هو الطعام. فأوضحت: «أن الطعام كله يأتي من طرف امرأة تطبخ خارج بيتها. ونحن نعطيها منتجاتنا الغذائية العضوية، وهي تستخدمها في عملية الطهي. وقد طلبنا منها أن تقوم بإعداد بعض وصفات الطهي لنا». لم أكن أعلم بموضوع تنويع الشركة لمشروعاتها بحيث تشمل الأغذية العضوية. كنا نجلس في مكتب انجانا المنزوي، وكانت هناك تقارير قديمة، ونشرات تفصيلية، ووثائق للشركة مكدسة داخل خزانة معدنية. كانت غرفة المكتب مضيئة مشرقة، وعملية بشكل عام. «بدأنا خط إنتاج الأغذية العضوية منذ عامين تقريباً. ونحن نبيع الحبوب، البندق، الأعشاب، المكسرات، القهوة والشاي في مخازننا حالياً. وتتوافر الفاكهة والخضراوات الطازجة للتسليم في دلهي عبر موقعنا على شبكة الإنترنت. وقد أضفنا إليها الأغذية المصنعة، والأطعمة المحفوظة، ذاك

النوع من الأشياء. كما أننا نقدم وصفات مختلفة لإعداد ألوان الطعام. ونحن نفكر بفتح مقاهٍ، ولكننا إذا ما فعلنا ذلك فإننا سوف نتعاقد مع طرف آخر لإدارة المشروع».

وسألت انجانا عن التطور الخارق الذي حققته الشركة في السنوات الأخيرة، فأجابت «حسناً، الكثير من ذلك يعود إلى ويليام غير أننا لا نعلن عنه. لقد آمنا دائماً بالكلام الشفهي. وتلك هي الطريقة التي تطورنا بها؛ وأنت تعلمين أن عملياتنا التجارية القائمة على الإنترنت هي دولية كلياً، والناس يزورون الهند، ويكتشفون وجود شركة «فابينديا»، وهم يرغبون في أن يتمكنوا من الحصول على منتجاتنا عندما يعودون إلى ديارهم. كذلك يشكل الهنود في بلاد الاغتراب زبائن دائمين آخرين. ونحن نتلقى طلبات من كل أنحاء العالم».

وتساءلت عن سبب الامتناع عن اللجوء إلى الإعلانات للدعاية للشركة فضحكت إنجانا، وقالت: «هذا العمل التجاري يتعلق بما هو أكثر من العمل التجاري. فقد كانت رؤية والد ويليام تتمثل في زيادة إنتاج الصناعات الحرفية إلى أقصى حد. وكان مفتوناً ومعجباً بوفرة التصاميم والمهارات الفنية. وأراد أن يعرض هذا الفن للعالم. وكان يعتقد أيضاً أن الناس بحاجة إلى أن يكونوا قادرين على البقاء في قراهم. ورأى أنه إذا ما كان بالإمكان تسليم الناس أعمالاً منتظمة ليؤدوها، وإذا ما كان بالإمكان أن يجنوا رزقهم من هذه الحرف التقليدية أو حتى إذا ماكان بالإمكان إحياء الحرف القديمة، فإن باستطاعتهم البقاء في مجتمعاتهم المحلية.

وماذا عن اسم الشركة، فابينديا؟ وقلت لها: إنني وجدت الاسم جذاباً جداً ورائعاً، فضحكت ثانية، وقالت: «كلمة فابينديا، تعني **fabric** نسيج زائد **India** الهند، وهي تعني أيضاً «الهند الرائعة».

وتوقف ويليام عند مكتب إنجانا، قائلاً: «دعيني إذن أُريكِ كيف يعمل هذا المكان». وتوجهنا خارجاً عبر الباب بعيداً عن دهليز المكتب؛ وقد صدمت على الفور بالحر المرهق، فالمستودع لم يكن مجهزاً بمكيِّفات الهواء، وكانت الحرارة في الخارج تبلغ (110) درجات فهرنهايت على الأقل. ولم يبدُ على ويليام الانزعاج، وأراني سلسلة من الأقفاص يمتد ارتفاعها من الأرض إلى السقف مملوءة ببضائع مختلفة. «هنا نقوم بتجميع الطلبات الخارجية. نحن

نبيع فقط عبر منافذ البيع الخاصة بنا. وكل واحد من هذه الأقفاص يحتفظ بما طلبه مخزن معين من أجل بيان موجوداته وجرده. ثم أخرج منها أشكالاً مختلفة من القمصان، ومفارش الطاولات، وأغطية المخدات، وكان يعرف رقم بطاقة الموجودات الخاصة بكل من هذه السلع. وسألته عن كيفية إدارة عملية الفرز وتلبية الطلبات فأجاب: لدينا عبقري في التكنولوجيا. لا، هذه حقيقة. إنه يجعلنا نعمل بصورة فاعلة أكثر من وول- مارت. إن نظامنا يستطيع أن يتعامل مع شرائط «الباركود» التي تتضمن معطيات عن المادة المبيعة وثمنها، أكثر مما يستطيعه جهاز وول مارت. ولا بد أنني بدوت غير مصدقة، لأنه أضاف قائلاً: لا، هذه حقيقة.

وسألته عن القطن البلدي. وأبلغته بالأمور المزعجة التي كنت قد شاهدتها في ڤيداربها، وبما قاله لي الجميع بأنه بينما كان القطن البلدي متكيفاً بشكل رائع مع ظروف الزراعة المحلية الجافة ومع أنواع التربة، فإن طول تيلته كان قصيراً جداً بالنسبة للأنوال الكهربائية. وغدت ملامحه كئيبة قليلاً، وهو يقول: «إن القرويين الذين نعمل معهم يقومون بفرز خيوط الغزل التي ينسجونها. والقطن البلدي مناسب تماماً للأنوال اليدوية. ولو رأينا أنه كان علينا أن نتدخل على مستوى القرار المتعلق بالقطن البلدي لكنا فعلنا ذلك. وكنا قد تدخلنا قبل ثلاث أو أربع سنوات من أجل معالجة موضوع الضريبة المفروضة على الألبسة الجاهزة، التي شملت الأنوال اليدوية. وعدنا أدراجنا إلى مكتبه الذي كان، ولله الحمد مزوداً بمكّيف للهواء.

«نحن مجموعة من الناس الذين يساورهم القلق على مصير المنتجات الصناعية للأنوال اليدوية وعلى مصير التنمية الريفية. وقد طرحت شركة «فابينديا» في الأسواق بطاقة بيان مواصفات للعلامة الحرفية مشابهة لبطاقة بيان مواصفات العلامة الصوفية. وهي تشير إلى نوعية التقنية التي استخدمت في إنتاج القماش مثل «محبوك» أو «مطبوع» بتصاميم معينة. فالتطور أمر مثير للاهتمام. دعيني أريكِ شيئاً. وسحب دفتر أوراق قانونية من فوق مكتبه، ورسم لي مخططاً إيضاحياً. هذا هو المكان الذي نجد فيه صناعات يدوية جيدة. «كان للرسم البياني جانبان أحدهما للهند الريفية، والآخر للهند الحضرية. وكان كل واحد منهما مقسماً إلى ثلاث مناطق. فعلى جانب الهند الريفية كانت هذه المناطق تضم محصولاً

واحداً، محصولين اثنين، وثلاثة محاصيل، أما على جانب الهند الحضرية فقد كانت هذه المناطق تضم التعليم، الإدارة، والتكنولوجيا. وقال بالنسبة للهند الريفية: إن أفضل الحرف كانت توجد في مناطق المحصول الواحد. أما في مناطق المحصولين فقد كانت نوعية الحرف من الدرجة الثانية. ولم تكن هناك من حرف في مناطق المحاصيل الثلاثة، فسألته، لا وقت لديهم، أليس كذلك؟ أجاب «بالضبط». ثم قام بتعداد أسماء بعض المدن الهندية، وأردف قائلاً: أنت تحصلين على صناعات حرفية في الأماكن التي لا توجد فيها مثل هذه المزايا، في لوكناو، في اندور، في سيليغوري، في شيلونغ، أما في بنغالور؟ كوتشين؟ فلا مجال للتفكير في الموضوع».

هذا لا يعني أن ويليام بايسل يعارض تعليم القرويين في الهند. فقد كان له دور فاعل في تمويل مدرسة في راداستان. وقد جادل بأنه «إذا ما تمكن الناس من الحصول على تعليم جيد في المناطق الريفية، فإنهم سوف يبقون فيها». وكانت المدرسة قد تأسست في عام 1992. وهناك الآن أربعمئة تلميذ فيها. «وتدفع الفتيات نصف رسوم التعليم، وهي رسوم معتدلة جداً. وتستمر الدراسة في المدرسة حتى الصف العاشر وستصل قريباً إلى الصف الثاني عشر. وسوف نقوم بفتح مدرسة ثانية أيضاً». كما أبلغني أنهم استخدموا موادَّ محليةً فقط في بناء المدرسة، وهم يلجؤون إلى تجميع المياه، وجمع مياه الأمطار خلف السدود الترابية. وأعطاني نشرة مطبوعة ومفصلة تحوي معلومات عن المدرسة.

وبما أن عمله كله يعتمد على الأنوال اليدوية التي تنسج القطن، فقد سألته عن وضع الصنف Bt من القطن والبذور المهندسة وراثياً في مواجهة المئات من الأصناف التقليدية المحلية والمتنوعة. فقال: إنني إنسان عملي ورجل أعمال، وأعتقد أن عليك أن تجري معادلة بشأن المكان الذي تنفقين فيه كل التكاليف، عندما تقومين بحساب الأرباح. فهناك ثمن للتنوع الوراثي، فدعينا نعطي ذلك أهمية. إن ما تفعلينه أساساً هو استبدال عشرين مجموعة متنوعة باثنتين لهما حقوق محفوظة. وهذا أشبه بوضع جميع بيوض بقائك في سلة واحدة.

وختم بالقول وهو يبتسم: «أنا أعمل في مجال الأنوال اليدوية لأسباب عملية أيضاً. إنها تجعلك تشعرين ببرودة أكثر، فالقماش يتنفس. وأنا أرتدي فقط ما هو محيك بالأنوال

اليدوية». وتخيلت خزانة ملابسي في بيتي في نيويورك. عندي بالفعل بعض الثياب المحيكة يدوياً بالنول، من الهند، ولكن عندي بالتأكيد الكثير من الثياب الأخرى أيضاً، ومن المرجح أن معظمها كان مصنوعاً من قطن مهجن أو من صنف القطن Bt. و عندي بعض الملابس المصنَّعة من نسيج تركيبي مشتق من النفط. ولم أكن واثقة من طبيعة نسيج الملابس الصوفية. فأنا لم أتخلص من الأشياء غير المرغوب فيها في خزانة ثيابي بعد، لكنني ألقيت نظرة على ملابسي عبر مفهوم جديد.

وفي طريق عودتي إلى البلدة فكرت في القرى التي شاهدتها في الجبال في وسط فرنسة في عام 1980، حيث أجريت دراسة عن الألحان الشعبية التي كان يعزفها أهل الأرياف الفرنسيون على آلة الكمان. وتعلمت مجموعة من المعزوفات الموسيقية على يد موسيقيين ماتوا جميعهم الآن، وهي موسيقا كانوا قد تناقلوها معهم غير منقوصة، من القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته. وشهدت أسلوباً من الحياة لم يعد قائماً. ومعظم تلك القرى باتت الآن منتجعات لقضاء العطلات بالنسبة للعائلات الهولندية والبريطانية، التي اشترت المنازل الحجرية القديمة من أجل تحويلها إلى بيوت لقضاء الصيف فيها. وتابعت رؤية أحد بيوت المزارع القديمة بسقفه الرائع المصنوع من القش، وهو يتفتت إلى ركام على مدى السنوات العشر التي تلت. ومن سنة إلى الأخرى، انخفض سطحه، الذي ظل دون إصلاح، إلى الأسفل تدريجياً حتى تقوس بأكمله. وبدأت الجدران المبنية من الحجارة بالتداعي بعد ذلك.

اختفى عالم الفلاحين الكادحين في فرنسة، واختفت حياة القرى، بما في ذلك الموسيقا، والاحتفالات، والحرف كلها اختفت في أقل من عقد من الزمن. وقد شاهدت الأمر يحدث. وحدث هذا النوع نفسه من الاختفاء السريع للقرى الهندية التقليدية في ولاية غوجارات في الهند في الثمانينيات من القرن الماضي(41). وقد تساءلت وأنا أستمع إلى ويليام بايسل، بعد كل ما عرفته عن الخطط الموضوعة لتحديث الهند، وعن خطط التصنيع الزراعي، كم من الزمن يمكن لحياة القرى التي تشكل مصدراً للحرف اليدوية التي يرعاها ويليام، أن تدوم وتستمر. وفكرت في البلدات الصغيرة التي كانت تشهد حركة ناشطة سابقاً في منطقة وسط الغرب الأمريكي التي تحولت إلى بلدات أشباح هجرها سكانها والـ 150,000 مزرعة أسرية امريكية التي تتراجع سنوياً. والملايين من المزارع التي ضاعت على مدى السنوات العشرين الماضية.

لعبت شركة «فابينديا» ومدة خمسين عاماً دوراً في رعاية ثروة من التقاليد الحرفية الهندية، ووفرت للقرويين حياة لائقة مقابل ما أبدوه من مهارات، ووظفت الشركة أموالها في تأمين تعليم جيد برسوم متيسرة لأولاد القرى، ولا سيما الفتيات. فإن كان ويليام على صواب، وإن كان باستطاعة الشركة أن تقوم بذلك العمل مدة عشرين سنة أخرى، فإن الهند، كما يعرفها ويحبها الكثيرون منا، ربما لن تواصل البقاء فقط، وإنما ستصبح أفضل. وإن كان باستطاعة شركة «فابينديا» أن تجعل الملايين من سكان المدن في الهند، وأوروبة، والصين يدركون قيمة الأنوال اليدوية والحرف اليدوية، فإن المزيد من سكان المدن الكبرى، من أمثالي ربما يلقون نظرة على ما هو معلق في خزائنهم، ويفكرون على الأقل في مصدر الثياب، وما هي الأشياء التي تدخل في صناعتها.

سألت وليام عن المشروع التجاري الذي تنفذه شركة فابينديا لإنتاج الأغذية العضوية. قلت له: إنني شعرت بالإزعاج لما علمته بشأن موضوع التلوث بالمبيدات الحشرية في الهند.

فأجاب: «إن الحكومة الهندية توجد مبررات لعملية التصنيع الزراعي، لأنها تعتقد أن ذلك سوف يُوجد وظائف، وسوف يفسح المجال أمام قيام الكثير من المشروعات الاستثمارية. ومع مجيء الثروة الخضراء، ارتفع إنتاج القمح، وكانت هنالك فجأة كميات كبيرة جداً من المياه للري بسبب المشروعات المائية الجديدة فبدؤوا يزرعون الأرز في البنجاب. وكان ذلك ضرباً من الجنون. فقد هبط مؤشر الجدول البياني للمياه وتلوثت التربة والمياه وبصورة مكثفة، بمادة النترات. ونحن محظوظون بطريقة ما هذه المرة، لكوننا متأخرين جداً في دورة المسار (النباتي). وسيتم الكشف عن النهج الغربي بأكمله. وإذا ما كان بمقدور الهند أن تصمد مدة عشرين سنة أخرى، فإن هذا الغزو الأخير سينكشف على حقيقته: مجموعة من الشركات المتنفذة القوية التي تبحث عن تحقيق الحد الأقصى من الأرباح».

ويجب على الهند لكي تثبت أن ويليام على صواب أن تخترع نماذجها الخاصة بها، وأن تبرهن أن بإمكان هذه النماذج أن تحقق النجاح في الهند، ومن ثَمّ تحملها إلى العالم.

الفصل الخامس

المدن

نحن آخذون في التحول سريعاً إلى كوكب من سكان المدن. والمعروف عن المدن أنها تجتذب الشباب، والموهوبين، والطموحين. وقد أدت ثورة وسائل الاتصالات وتوسع السفر بالطائرة إلى ربط المدن الكبرى في العالم بعضها ببعض. ويتنقل أفراد النخبة المثقفة من مختلف القوميات بين بقاع الأرض من دون بذل أي جهد، من طوكيو إلى لوس أنجلوس، بومباي، وسنغافورة. وهم يجدون في هذه المدن أسباب الراحة نفسها في الفنادق، والقنوات الإخبارية التلفزيونية نفسها، التي تبث طوال أربع وعشرين ساعة. هم يجدون وفي المباني نفسها التي تضم محالّاً تجارية رفيعة المستوى، ماركات عالمية مألوفة لديهم من حقائب اليد، والعطور، والثياب، والأجهزة الإلكترونية. وهم في القاعة المخصصة لركاب درجة رجال الأعمال في المطار، محاطون بأشخاص مثلهم تماماً ممن يقومون بتأسيس بنيان عالمنا الذي يزداد توجهاً نحو العولمة.

كما تجتذب المدن اليائسين. فالملايين من فقراء العالم يرحلون عن أراضيهم وخارج قراهم بسبب قحط المحاصيل، ويتم إخلاؤهم عن موطنهم بسبب دمج الأراضي الزراعية لإفساح المجال أمام عمليات التصنيع الزراعي والمشروعات الإنمائية كالسدود التي تغرق أودية بأكملها، وبسبب تفاقم النزاعات العنيفة. وهم في المدن، ينضمون إلى الملايين من سكان الأحياء الشعبية الفقيرة الذين يخوضون سابقاً صراعاً يومياً من أجل البقاء.

في عام 1950، ومن بين ما مجموعه (2.5) ملياري ونصف المليار نسمة من عدد سكان العالم، عاش (731) مليون شخص أو (29) بالمئة منهم في المدن. ويتوقع بحلول عام (2030) أن يبلغ عدد سكان كوكب الأرض رقماً كبيراً جداً يصل إلى (8.2) مليارات مع وجود (4.9)

ملايين شخص أو (60) بالمئة يعيشون في المدن[1]. وفي أثناء ثمانين عاماً ستكون نسبة عدد الأشخاص الذين يقطنون المدن قد بلغت أكثر من الضعف، وستكون نسبة سكان الحضر إلى سكان الريف قد انقلبت رأساً على عقب.

وفي المدن القائمة على سطح كوكب الأرض يتصادم الغنى والرخاء مع العوز والفاقة؛ وليس هناك من مكان يصح فيه هذا الكلام أكثر من الهند. وتضم الهند سبع مدن يبلغ عدد سكانها أكثر من (4) ملايين نسمة، وخمساً وثلاثين مدينة يبلغ عدد سكانها أكثر من مليونٍ واحدٍ. وتشكل مدن الهند ثاني أكبر نظام حضري في العالم بعد الصين. وهو نظام حضري يعاني أزمة. وتعاني مدن الهند الإهمال على مدى عشرات السنين، و الفساد المستشري، والبنية التحتية القاصرة، والتنمية غير المنتظمة. وقد تقاطر الملايين من المواطنين الهنود الأكثر فقراً إلى مدن البلاد، حيث يوجدون وبموارد شحيحة، سبلاً للعيش، ومجتمعات محلية تنبض بالحياة مثل حي دهاراڤي الشعبي في بومباي، وهو أشبه بخلية نحل، تعج بالصناعات المنزلية، ومساكن صغيرة جداً، حيث تعيش الأُسر وتعمل وتلعب بعضها فوق بعض، بكل معنى الكلمة تقريباً. ولسوء الحظ فإن العديد من هذه المجتمعات هي أحياء فقيرة قذرة، تفتقر حتى إلى التدابير الصحية الأساسية، فضلاً عن أسباب الراحة. وتصنف الأمم المتحدة (40) بالمئة من سكان الهند الحضريين على أنهم فقراء[2].

في غضون ذلك تجتذب الطفرة الاقتصادية للبلاد المئات من الشركات التي تمتلك مصالح في أكثر من دولة، وتدفع الشركات الهندية باتجاه بلوغ مستويات أعلى حتى من المنافسة والاحتراف. وتتطلب هذه المشروعات التجارية الجديدة وجود مجمعات أبنية مكاتب جديدة وأنيقة، ومرافق للبحوث العلمية والدراسات التنموية مجهزة بشكل جيد، ومعامل صناعية حديثة. ويتطلب وجود الموظفين المتعلمين فيها، الذين يتلقون رواتب سخية، مدارس جيدة، والحصول على العناية الطبية الجيدة، والمسكن المريح. كما تزدهر المجمعات التجارية، والجسور العلوية المستخدمة لتحويل حركة المرور بعيداً عن ازدحام السير في المدن، كما أنهم يتطلبون وجود مناطق محاطة بأسوار، حيث يمكن للأغنياء أن يجدوا قسطاً من الراحة بعيداً عن الفوضى العمرانية.

إعادة إعمار مدن الهند

لقد بدأت الهند بتنفيذ مشروع طموح لإحداث تحول في مدنها. ففي شهر كانون الأول من عام (2005). أعلن رئيس الوزراء مانموهان سينغ عن بدء تنفيذ برنامج جواهر لال نهرو الوطني لتحديث المناطق الحضرية (JawaharlalNehruNationalUrbanRenewal Mission (JNNURM)، متعهداً بتخصيص مبلغ (28) مليار دولار ضمن صناديق تمويل وطنية من أجل إجراء تغييرات واسعة النطاق في ست وثلاثين مدينة هندية. وسوف يكون مستقبل الهند منوطاً بنجاح هذا الجهد غير المسبوق. ومن دون وجود مدن فاعلة، فإن حلم الهند بأن تصبح دولة نامية، ونداً للصين، أوروبة أو الولايات المتحدة لن يرى النور في النهاية. وتعي حكومة الهند هذا الأمر بشدة. فقد أكد رئيس الوزراء في الكلمة الافتتاحية لإعلان بدء تنفيذ البرنامج الوطني لتحديث المناطق الحضرية، إن التركيز في عملية إعادة تأهيل المدن الهندية يجب أن ينصبَّ على حاجات الفقراء في المدن.[3] وما زال من غير المؤكد ما إذا كانت الهند سوف تحقق هذه الرؤية الشاملة لإحداث نقلة نوعية في مدن البلاد. غير أنه إذا كان بمقدور الهند أن تواجه هذا التحدي، فإنها ستحقق شيئاً لم يكن بمقدور أي نظام ديمقراطي آخر أن يحققه: إنشاء مدن كبرى يجري فيها نفي الفقراء إلى أطرافها النائية، بإمكان السكان ممن يمتلكون كل الوسائل الاقتصادية أن يعيشوا حياة لائقة بوصفهم مواطنين مشاركين بالكامل في المجتمع. وتمتلك مدن الهند الإمكانية لتصبح القدوة للعواصم الآخذة بالازدهار بسرعة في أماكن أخرى من العالم النامي. وقد تعطي أيضاً دروساً للعالم الصناعي حيث تكون عادة ما يسفر تهميش المحتاجين اقتصادياً، ومعظمهم من السلالات الاثنية والعرقية، عن أعمال عنف دائمة.

كانت حيدر أباد إحدى أولى المدن التي قامت بترميم مركزها العمراني، وبتوسيع طرقاتها، لتخليص أرصفتها من الباعة والمتسوِّلين، واستبدال المباني القديمة المتصدعة بمبانٍ شاهقة حديثة. وقد شرعت مدينة كالكوتا وتشيناي، وبنغالور، وأحمد آباد ومجموعة من المدن الهندية الكبيرة والصغيرة في تنفيذ مشروعاتها الخاصة بالتحديث والتطوير. وتدرك مدن الهند أنها تتنافس حالياً مع بعضها لاستقطاب الاستثمار الأجنبي والمحلي. كما

تعمل المدن على الاستفادة من البرنامج الوطني لتحديث المناطق الحضرية، فتنهمك المدن في تقديم الخطط والمقترحات إلى الحكومة الوطنية من أجل تمويلها.

التحديات

خلفت عقود الإهمال والنمو السكاني الذي دأب على تسجيل زيادة هائلة في الهند، البنية التحتية للبلاد في وضع بائس ومحطم. وهناك حالياً انتعاش كبير في سوق السيارات وإقبال شديد على اقتنائها ويجري إنشاء طرقات جديدة في كل مكان، ولكن ليس بالسرعة الكافية. ويتراجع وضع المواصلات العامة تدريجياً بصورة يرثى لها خلف حاجات الغالبية العظمى من الشعب التي لا تستطيع تحمل نفقات شراء سيارات. أما حالات الاختناق التي تشهدها حركة المرور ليست من الأمور السلبية الوحيدة للتوسع الاقتصادي: فنوعية الهواء في مدن الهند رهيبة. وكثيراً ما كنت أمسح وجهي بعد قضائي يوماً خارج أو حول مدينة دلهي فكان المنديل الورقي يتحول إلى اللون الأسود تعلوه ذرات صغيرة. أما الإصابة بالتهاب الحلق، والسعال، فهذه تأتي مع الأرض عند زيارة المناطق الحضرية للهند. ووفقاً لإدارة معلومات الطاقة التابعة لوزارة الطاقة الأمريكية فإن السيارات والدخان الصناعي غير المعالج يسهم في جعل الهواء في مدن الهند «من بين الأسوأ في العالم»[(4)]، وتحتل بومباي المرتبة الخامسة بين المدن الأكثر تلوثاً في العالم مع تعرض (97) المئة من سكانها لهواء يعجز عن الوفاء بالمقاييس التي حددتها منظمة الصحة العالمية [(5)].

وكما هو الحال في الريف، هناك نقص في مخزون المياه في المدن الهندية، حتى في المناطق السكنية الراقية. ويتزايد عدد السكان الذين يتم إيصال المياه إليهم بوساطة شاحنات الصهاريج، وحتى بالنسبة لأولئك المحظوظين كثيراً ليكون لديهم مضخات في منازلهم موصولة بتمديدات المياه التي تؤمنها البلدية. وليس هناك ببساطة ما يكفي من المياه في الأنابيب؛ وعندما سألت ديباك باريك رئيس الشركة المساهمة لتمويل السكن العمراني (HDFC)، أكبر شركة للقروض العقارية، عن حالات نقص المياه في مدينة بومباي: قال لي وهو جالس في مقعده في غرفة معيشته الأنيقة في منطقة كارمايكل رود في بومباي: «إننا نحصل على المياه التي يتم إيصالها بوساطة الصهاريج في هذا المكان بالضبط. ويعيش

مأمور المياه عبر الشارع، وإذا ما رأته زوجتي من الطريق المؤدي للمنزل سوف تمازحه قائلة: «سوف نأتي اليوم إلى منزلك من أجل إنجاز أعمال غسيل الثياب»، فمسألة نقص المياه تؤثر على كل إنسان في بومباي، الغني والفقير».

إن أي زائر لمدينة بومباي يُصدم بالأحياء الفقيرة الضخمة، التي تمتد بعيداً إلى ما لا نهاية بمحاذاة المطار، حيث يكاد جسم الطائرة القادمة أن يلمس السقوف المضلعة الصدئة لأعداد كبيرة من الأكواخ المزرية، قبل أن تجتاز سور الأسلاك الملتفة بعضها حول بعض في نهاية مدرج المطار. وفي المساء يملأ المتشردون كل رقعة شاغرة من الرصيف، وتغطي أشكال نائمة من أجساد الفقراء أرصفة المشاة وعتبات المباني، والأرض الجرداء القائمة تحت جسور علوية نصف مشيدة، وتستر الأمهات أجساد الرضع والأطفال الصغار داخل الجزء المتقوس من أجسادهن المنحنية حرصاً على حمايتهم، حيث لا يوجد لديهن أية وسيلة أخرى لإيوائهم. أما أولئك المحظوظون كثيراً ليتملكوا «تشاربيّ» Charpai وهو سرير بسيط مصنوع من الخشب والرفاصات المعدنية ينحشرون فيه في وضعية تبادل، تلتقي فيها الرؤوس مع أصابع الأقدام. وهناك من يقيمون في أكواخ صغيرة و«عشش» مزرية وعلى الأرصفة بجانب النوادي الاجتماعية والرياضية الفخمة وبجانب الشقق الفاخرة وبجانب الفنادق من فئة خمس نجوم.

وعلى الرغم من وجود طفرة في بناء المساكن فإن (60) بالمئة من سكان بومباي الذين يبلغ عددهم (18) مليوناً يعيشون في أحياء شعبية فقيرة أو في الشوارع؛ أي (10.8) ملايين شخص. وفي دهارافي Dharavi وهو أكبر الأحياء الفقيرة في بومباي هناك دورة مياه واحدة لكل ألف وخمسمئة شخص. ووفقاً للإحصاء الأخير الذي أجرته الهند في عام (2001). فإن (40) مليون شخص من سكان المدن الهندية كانوا يعيشون في أحياء فقيرة، وكانت تتوافر لدى (49.7) بالمئة فقط من الأسر التي تعيش في المناطق الحضرية مياه للشرب في دورها. وكان لدى (57.4) بالمئة فقط من السكان مرافق للصرف الصحي[6].

يعيش الأغنياء في الهند وسط قذارة لا يمكن تخيّلها، ويبدو أنها لا تسبب لهم أي قلق أو إزعاج. وتمتلك عمتي شقة جميلة قديمة بعيداً عن طريق البحر بمدينة نيابين في إحدى أكثر مناطق المدينة رفاهية. وتطل بنايتها على حديقة جديدة أنشأتها عائلة بيرلاس، إحدى

العائلات العريقة في مجال التجارة. وتقع الحديقة عند الواجهة البحرية حيث ترتطم الأمواج الهادئة لبحر العرب على الصخور الواطئة للشاطئ. وهي تفتح أبوابها من الساعة 5.30 صباحاً حتى 9.30 صباحاً، ثم تعود ثانية لتفتح في المساء. وتغلق الحديقة أبوابها بين هذه الأوقات. وهناك ممشى للسير حول منحنى بيضاوي عليه مؤشر للمسافات مسجلة بالأمتار ولا يسمح بالجري فيه، ويراقب الحراس الناس الذين يستخدمون الحديقة لضمان احترام الأنظمة والتعليمات.

من عادتي أن أقوم بالمشي صباحاً في الحديقة العامة عندما أقيم مع عمتي. وتعج الحديقة برجال في منتصف العمر يرتدون «بلوزات» ذات قبة عالية تغطي العنق، ويتحدثون عن أعمالهم على هواتفهم الخليوية، وأمهات حديثات العهد بالأمومة يرتدين أطقماً خاصة برياضة التريُض، وسيدات متقدمات في السن يرتدين لباس الساري الهندي المصنوع من القطن الباهت، ويتمسكن بذراع خادمة الأسرة. وأرض الحديقة منسّقة على نحو منتظم بصفوف مرتبة من أشجار النخيل والأزهار، التي تتبدل حسب فصول السنة. وهناك حول محيط الحديقة مقاعد حجرية منحوتة بشكل متقن.

وليس هناك من مدخل للحديقة إلى الشاطئ المجاور. ولا يمكنك في الواقع أن ترى حتى الأمواج وهي تتحطم بجانبها. فهي مخبأة خلف سور متين من الإِسمنت والقضبان الحديدية، مبطن بحاجز من قضبان الخيزران. وتستخدم الصخور الموجودة بمحاذاة الشاطئ كمراحيض عامة من قبل الناس الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة القائمة عند أي طرف من أطراف الحديقة. وبمقدور الناس الذين يسكنون المباني العالية في الجوار أن يتحملوا وبسهولة دفع تكاليف إقامة مراحيض عامة، ولكن بناء المراحيض سوف يعني الاعتراف بوجود الأحياء الفقيرة. وسوف يشجع ذلك على بقائها هناك بصورة دائمة. فالأرض التي أقيمت عليها هذه الأحياء لا تعود ملكيتها إلى الأشخاص الذين يعيشون فيها. وليس من المفروض أن يكونوا هناك على الإطلاق. ولذا فإن الأثرياء يتظاهرون بأن الأحياء الفقيرة غير موجودة، وأن الصخور التي تقع مباشرة خلف حاجز الخيزران لا تستخدم كمراحيض عامة. إن تعلم عدم رؤية الفقر المدقع في كل مكان من حولهم هو مهارة حياتية أساسية، يتمتع بها الميسورون في الهند.

عاشت أسرتي في مدينة بومباي منذ الستينيات من القرن الماضي. وكان والدي يذهب إلى الجامعة هناك، وكنت أشعر دائماً أنني في بيتي عندما أكون في المدينة. ومع ذلك، ومهما تكررت زياراتي، فإنني أعرف المدينة إلى حدٍ كافٍ تماماً، لأعرف أن هناك الكثير مما لا أعرفه عنها. ولكي أفهم بومباي من وجهة نظر ابن منتمٍ قمت بالبحث عن ناريش فيرنانديز، رئيس تحرير صحيفة «تايم آوت مومباي» «Time Out Mumbai». والتقيته في مكتبه خلف ميدان سباق الخيل في المدينة.

لا يزال ناريش يبدو في مظهره مثل المراسل الصحفي المختص بتغطية أخبار الجريمة، الذي كان عليه ذات يوم؛ متواضعاً تماماً، وشعره طويل نوعاً ما، ينتعل صندلاً مفتوحاً، ويرتدي ثياباً مجعدة من قماش الملابس العسكرية. وقد أبلغني ونحن جالسان عند طاولة دائرية الشكل في قاعة للاجتماعات نحتسي فنجاناً من القهوة: «لقد عاشت أسرتي في بومباي على الدوام. وعلى عكس الكثيرين من الناس هنا، فإنني واحد من أهل البلاد الأصليين. كان جدي يزرع قطعة أرض في هذا المكان على الرغم من المفهوم الذي ينظر به حزب شيف سينا Shiv Seena للأمور. وكانت ملاحظته الأخيرة تشير إلى الحزب السياسي الإقليمي الذي ترأسه، مدة طويلة، بال ثاكيري المفعم بالحيوية الذي أدت فاشيته المبالغ فيها إلى ترهيب وإضحاك مواطني بومباي على حد سواء. وينظر حزب شيف سينا إلى المدينة بوصفها بؤرة للرذيلة والفساد مصدرها العناصر الأجنبية - ويعني بهؤلاء الهندوس الذين لا ينتمون إلى ولاية مهاراشترا. والحزب مسؤول عن تغيير اسم المدينة من بومباي إلى مومباي، وعن تخصيص حصة من الوظائف سواء الرسمية أم غير الرسمية لمواطني ولاية مهاراشترا. إن الطابع العالمي لمدينة بومباي حيث جاءها أناس من كل أنحاء الهند والعالم، لتكون موطناً لهم هو أمر مكروه بالنسبة لحزب شيف سينا. وقد باتت صحة ثاكيري ضعيفة حالياً، وسيخلفه في زعامة الحزب ابنه اوداي ولكن يبدو من غير المرجح أن يتمكن حزب شيف سينا من أن يحكم، ولمدة طويلة، مدينة تتحول بسرعة إلى مدينة يجري تدويلها بصورة أكبر، وترهن الهند الكثير من مستقبلها بها. ومع ذلك فإن حزب شيف سينا قادر على تعبئة جمهور من الشباب لكي يقوموا بأعمال عنف في شوارع بومباي حينما يكون ذلك مناسباً لهم.

في عام 1992، وأثناء عمله مراسلاً مبتدئاً في صحيفة «تايمز أوف انديا»، قام ناريش بتغطية أحداث الشغب في بومباي التي شهدت هجمات عنيفة ضد المسلمين القاطنين في المدينة عقب تدمير مسجد «بابري» في أجوديا على يد مجموعة من الميليشيا الهندوس. وأكد القاضي بي. ان. سريكريشنا الذي رأس لجنة التحقيق في أحداث العنف في بومباي، أكد في تقريره أنه «ليس هناك من شك بأن أنصار حزبي شيف سينا وشيف سانيسكس لعبا الدور الرئيس في تنظيم الهجمات على المسلمين وعلى ممتلكاتهم بتوجيه من عدة زعماء من مستوى شاكا براموك Shakha Pramukh إلى مستوى رئيس حزب سينا، بال ثاكيري».[7] وقال لي ناريش الذي تم إدراج تغطيته الإخبارية في تقرير نشرته صحيفة: «تايمز أوف انديا» تحت عنوان «عندما احترقت بومباي: تقرير إخباري وتعليقات على أحداث الشغب والتفجيرات»[8] قال لي: «لقد عرفت آنذاك قوة الصحافة. ذهبنا إلى المشرحة وقمنا بتعداد الجثث. وعندما كان مفوض الشرطة يبلغ عن وفاة مئة شخص، كنا قادرين على ذكر أننا رأينا خمسمئة منهم. وفي النهاية تم صرف مفوض الشرطة من الخدمة». ولشعوره بالإحباط نتيجة للتغييرات التي طرأت على إدارة الصحيفة، توجه ناريش إلى نيويورك سعياً لنيل شهادة في الصحافة من جامعة كولومبيا، حيث عمل بعدها في صحيفة «وول ستريت جورنال» WallStreet Journal. وعندما سنحت له الفرصة للبدء بإعداد نسخة من صحيفة «تايم آوت» «Time Out» في بومباي قام باقتناصها على الفور.

ويمتلك ناريش رؤية محددة بالنسبة للمجلة «إننا نعتقد أننا تولينا رعاية الروح الأصلية لمجلة «Time Out» عندما جرى تأسيسها في لندن في أعوام الستينيات -المدينة، السياسة، والثقافة- ونحن نقوم بإدارتها، كما كانت في البداية عندما كانت تتعلق بنشر أنباء عن المكان الذي يستطيع فيه الهيبيون معرفة المكان الذي ستنظم فيه المظاهرة الآتية المعارضة للحرب. نحن نرى أنفسنا بأننا لا نقدم فقط لقطة فوتوغرافية للمدينة، لكننا نطرح رأينا في أوضاع المدينة. فمثلاً بالنسبة للمواصلات العامة نحن ضد خصخصة المرافق ومؤسسات النفع العام؛ ويشعر أصحاب النفوذ في المدينة بالقلق إزاء حركة السير على طريق «بيدر رود» Pedder Road. وهم يريدون بناء جسر علوي سيجعل الحياة صعبة جداً في منطقة سكنية كبيرة. وتظهر الدراسات أن خمسين ألف شخص فقط يسافرون بالسيارة على

طريق «بيدر رود» يومياً. وهذا يساوي عدد الأشخاص النازلين من قطار واحد عند محطة «تشيرتشغيت». إن جمهور قراء المجلة هو ذلك العدد الكبير من أبناء الطبقة الوسطى. والناس الذين يرغبون في قراءة أخبارهم في الحفلات لن يجدوا أنفسهم على صفحاتنا.

وسألته عن رأيه في مستقبل بومباي فأجاب: «أنا لست متفائلاً بمستقبل هذه المدينة إطلاقاً مع أنني أحبها بشدة» وحسب رؤية فيرنانديز للوضع، فإن بومباي ضيعت فرصتها عندما أخفقت في محاولتها لتعمير أراضي المطاحن المهجورة بشكل منصف، وتبلغ مساحتها ستمئة فدان من العقارات الممتازة القائمة في وسط المدينة. وفي شهر آذار الماضي وعقب قيام تنافس حاد ما بين مجموعة «العمل البيئي لمدينة بومباي» والمنظمات المرتبطة بها وبين كبار شركات البناء في المدينة على مصير هذه الأراضي الخالية، عمدت المحكمة العليا للهند إلى الحكم لصالح شركات البناء بإلغائها لقرار سابق صادر عن المحكمة العليا لمدينة بومباي. ومع حصولهم على ضوء أخضر لإقامة منتزهات عامة تعتمد وسائل تكنولوجيا متقدمة، ومجمعات تجارية للتسوق، وفنادق فخمة، ومباني شقق سكنية، فقد عمت الفرحة شركات الإنشاءات والبناء. وقال أحد سماسرة العقارات متحمساً: «إننا بحاجة لأن نظهر للعالم أننا جادون في أن نصبح دولة مهمة لها تأثيرها عالمياً. وبقيامنا بتشييد أحدث المرافق والمنشآت سنكون قادرين على إثبات هذا الأمر».[9] إلا أن ذلك شكل ضربة مأساوية للكثيرين من أهالي مومباي المتابعين للقضية الذين رأوا في عملية التعمير المنصفة والسليمة بيئياً الفرصة الأخيرة للمدينة لاستعادة ذاتها. فقد تم خفض مساحة (400) فدان التي كان هؤلاء الناشطون المدنيون يأملون بأن تكون متوافرة من أصل المساحة الإجمالية من أجل إقامة الأماكن المفتوحة ومساكن أصحاب الدخل المحدود، تم خفضها إلى (113) فداناً وذلك بموجب قرار المحكمة العليا.

وقال فيرنانديز: «لقد كان واضحاً في عام 1995، عندما إنهارت المطاحن، إن البيئة الاجتماعية للمدينة كانت في طور الاهتراء، لأن الآلة الاقتصادية كانت قد تعطلت. وكان من الواضح بشكل كبير قبل ذلك الحين، أن تعمير مساحة ستمئة فدان في وسط المدينة التي تشغلها المطاحن الخالية كان بحاجة إلى تخطيط. وقد قال قرار المحكمة العليا أساساً: «بومباي: اذهبي إلى الجحيم! لذا فإن المدينة سائرة إلى الحضيض، والناس الذين يمتلكون

هذه الأوهام عن مستقبل الهند على أنها سوف تصبح شنغهاي أخرى، هم أشخاص فقدوا صوابهم». وتعكس كلمات ناريش الحادة والعنيفة كثافة التصورات المتنافسة بالنسبة لمدينة تشهد تغيرات مستمرة. فهناك ثروات هائلة يجري تكوينها كما يجري تغيير صورة المدينة على حساب بعض أكثر الناس فقراً في العالم، فضلاً عن ذكر الطبقة المتوسطة. وتابع ناريش قائلاً: «إن الشركات العمرانية توجه تركيزها منذ الآن إلى أرض المرفأ - مساحتها نحو ألف وثمانمئة فدان. ولو كانت أرض المرفأ قد دخلت في التنظيم نفسه مع أرض المطاحن، فإن تلك كانت ستشكل الفرصة المواتية لتحقيق انقلاب في هذه المدينة، غير أنه تم استخدام الأنظمة المقدسة للسوق مبرراً لجشع لا حدود له. وقال موضحاً الفكرة التي يقصدها: «انظري، إذا كان ستون بالمئة من العاصمة المالية للاقتصاد المزدهر لهذه البلاد، أحياء فقيرةً، نكون جميعنا قد قضي علينا. وتنهد ناريش ثم قال بلطف ولكن بسخرية لاذعة: «لقد كان يفترض بنا وفق مذهب نهرو أن نعتني بالفقراء. أما الآن فنحن غير مضطرين للقيام بذلك.

رؤية بومباي لعام 2020

ستكون بومباي بحلول عام 2020، ومع وجود (28.5) مليون شخص فيها، أكثر مدينة في العالم ازدحاماً بالسكان[10]. وسيكون ذلك أيضاً العام الذي ستستعد فيه بومباي لتحقيق هدفها بإجراء تغيير كلي في المناطق العمرانية. وقد عُرفت بومباي منذ زمن طويل على أنها مدينة «المايا» أو الوهم، والأحلام المستحيلة التي تتحقق في أفلام بوليوود، وهي نيويورك الهند. ويتقاطر الآلاف من الهنود إلى بومباي كل عام لا يحملون معهم شيئاً سوى آمالهم ويأسهم. وينضم إليهم هنود من المتعلمين والطموحين أمريكيون وأوروبيون بمن فيهم أشخاص عائدون من الشتات الهندي، مع أن ذلك يتم في ظروف مختلفة تماماً. وبين هذين الوضعين المتناقضين، وفي حين تحلق أسعار الممتلكات والعقارات إلى مستويات مرتفعة جداً ويجري استنزاف المرافق العامة الأساسية مثل وسائل النقل الجماعي، نظام الصرف الصحي والمياه بأكثر من طاقتها، تتعرض الطبقة المتوسطة لضغوط جمة.

والمدن الكبرى مثل مدينة بومباي تغوي وتصد بفعل حجمها البحت. وهي تتحدى القادمين الجدد لكي يقبلوا التحدي ويحققوا النجاح فيها. إن مرض الفصام الطبيعي يأتي مع كونك

من قاطني مدينة كبرى. فالإنسان هنا يكون شخصاً مجهولاً وعضوا في نادٍ للنخبة في الوقت نفسه. وكانت مدينة نيويورك أول مدينة تتعدى خط الـ (10) ملايين نسمة، وتصبح مدينة كبرى. «إذا كان بإمكاني أن أنجح هناك، فسوف أنجح في أي مكان» هكذا تقول كلمات الأغنية الشهيرة «نيويورك، نيويورك» وتنطوي أغنية «أنا من أهل بومباي» على معنى خاص مشابه من الكبرياء، والذكاء، وآثار معارك محلية تحقق فيها النصر المبين.[11] ويفخر سكان مدينة مومباي بمدينتهم بشدة حتى ولو كانوا ربما يكرهون عيوبها الخطيرة. وهم قادرون على قتال بعضهم بعضا، كما حدث في أثناء أحداث العنف الوحشية التي وقعت بين الهندوس والمسلمين في المدينة في عام 1992. وهم قادرون بالمثل تماماً على التوحد معاً في فورات عاطفية عفوية من الكرم والسخاء وسماحة النفس. ففي أثناء كارثة الفيضانات التي حلت بالمدينة في عام 2005، وعقب الدمار الذي أحدثته الكارثة، مد الناس أيدي المساعدة لإخوانهم المدنيين المحتاجين سواء بتقديم الطعام أو تقديم المأوى لقضاء ليلتهم فيه.

ويطرح رؤساء الشركات التجارية والمؤسسات الاقتصادية تصوراً لإحداث تحول في مدينتهم على نمط التحول الذي شهدته مدينة شنغهاي.[12] وهم يريدون تحويل بومباي، وهي الآن العاصمة المالية للهند، إلى عاصمة مالية للعالم، تنافس سنغافورة. وقد كان هذا جوهر تقرير أعدته مؤسسة ماكينزي وشركاه ومجموعة تعمل بتوجيهات من مؤسسات تجارية تسمى «بومباي أولاً». وكان عنوان التقرير «رؤية عام 2020». وقد أوجز الكيفية التي تستطيع الهند عبرها أن تحقق هذا التحول عبر إنشاء طرق جديدة، وخصخصة الخدمات، وتنظيف الأحياء الفقيرة القذرة. وفي عام 2005، أعلن رئيس الوزراء تأييده للفكرة قائلاً: إن «حلمه كان أن يرى مومباي وقد تحولت إلى مدينة مثل شنغهاي»، وتعهد بتوفير الموارد من جانب الحكومة الوطنية للبلاد دعماً لتحقيق هذا الهدف»[13].

وفي شهر آذار الماضي أصدر منتدى المديرين التنفيذيين في الهند والولايات المتحدة تقريراً بعنوان «الشراكة الاقتصادية الإستراتيجية الهندية-الأمريكية»، أوصى فيه بأن «تشارك الولايات المتحدة الهند في جعل مومباي مركزاً مالياً إقليمياً»[14]. كما يوصي التقرير في الفقرة المتعلقة بالبنى التحتية بمشاركة مؤسسات مالية وتجارية أمريكية مثل البنك الدولي من أجل تسهيل الشراكة ما بين القطاع العام والخاص والاستثمار في مجال تحسين البنية

التحتية للهند من منظور الحاجات والشركات التجارية. ولدى كل مصرف استثماري وتجاري أمريكي كبير مكاتب في بومباي حالياً. ولقد كنت على علم بالكثير من الحديث الحماسي الدائر بين الخبراء الماليين بشأن تحول بومباي إلى حلقة مهمة في نظام تجاري مالي يعمل أربعة وعشرين ساعة في الأسبوع، وتنهمر فيه الصفقات التجارية بشكل غير مرئي وبغزارة من نيويورك، إلى لندن إلى بومباي، إلى طوكيو، وعودة إلى نيويورك. إن بومباي التي يتخيلها هذا التجمع لا تمت بصلة إلى بومباي التي يعيش فيها معظم مواطني المدينة.

أكبر الأحياء الفقيرة في آسية

إن إعادة تأهيل حي دهارافي هي أكثر خطوة طموحاً تقوم بها بومباي من أجل إحداث تحول في المدينة ذاتها. فهناك مليون شخص محشورون داخل مساحة 535 فداناً على طول نهر ميثي، مضغوطون ما بين أحياء ماهيم وسيون. وقد كانت دهارافي في الأصل قرية هامدة تعيش على صيد السمك، وهي الآن مجتمع مزدهر تحتل فيه الصناعات ذات النطاق الضيق الغرف الصغيرة ذاتها التي تعيش فيها الأسر. فهنالك العاملون في دباغة الجلود، تجار الخردوات المعدنية، وصانعو الأواني الفخارية، ونساء يكدحن في البيوت ويصنعن الـ«بابداس» Papdas، وهو طعام شعبي خفيف عبارة عن رقائق من العدس المقلي. وتتلوى الممرات الضيقة ما بين منازل مؤلفة من غرفة واحدة من القرميد، مبنية بأيدي أولئك الذين يعيشون فيها. وتشق مياه الصرف الصحي القذرة طريقها بشكل ملتو عبر القرية داخل أخاديد ضحلة لتصريف مياه الأمطار. ويقفز أولاد حفاة فوقها. وترجع الرائحة الكريهة لحي ماهيم، وهو بالتأكيد أحد الأماكن الذي تنطلق منه أسوأ الروائح في العالم، ترجع وإلى حد كبير، إلى مياه المجارير غير المعالجة والسائل الناجم عن المخلفات الصناعية الذي يصب في نهر ميثي وينساب داخل خليج ماهيم.

وكان مشروع إعادة إعمار حي دهارافي، وهو من بنات أفكار شركة القطاع الخاص تدعى «ام.ام. للاستشارات» ويملكها موكيش ميهتا، قد حصل على الضوء الأخضر من حكومة ولاية ماهاراشترا في عام 2006. وتم استجرار عروض بقيمة (2.5) مليارين ونصف المليار دولار من شركات الإنشاءات والتطوير العمراني حول العالم. وتتبارى الشركات الهندية العملاقة «دي.

ال.اف» DLF، ايمار، وهيراندانى. وكذلك شركات من كوريا الجنوبية، وأخرى تتخذ من دبي مقراً لها، تتبارى جميعها للحصول على جزء من العمل[15]. ويجب على شركات البناء توفير شقة مساحتها 225 قدماً مربعاً لكل أسرة من أسر الحي الفقير. وسوف يمنح صاحب الشركة مقابل كل قدم مربعة يبنيها في مسكن جديد لصالح أهالي الحي الفقير، مساحة (1.33) قدم مربع مجاني ليبيعها أو ليعمرها حسبما يشاء. وتقضي الخطة الأساسية ببناء مبانٍ شققية شاهقة لإسكان القاطنين في دهارافي، «وإخلاء المكان لإقامة مدارس، وحدائق عامة ومستشفيات، فضلاً عن مجمعات تجارية للتسوق ودور سينما متعددة. والكثيرون من سكان دهارافي تساورهم الشكوك، ولا سيما أولئك الذين يصنعون رقائق العدس المتبلة والأواني الفخارية، وهما اثنتان من أكبر الصناعات في الحي الفقير. فكلاهما بحاجة إلى وجود فسحة في العراء، لتجفيف المنتج بعد الانتهاء من صنعه، ولن يشتري من يعيشون في الخلاء شققاً صغيرة جداً من شقق المباني الشاهقة. ومن أجل تحفيز التنمية الاقتصادية وتوفير المزيد من سبل العيش، التي تؤدي إلى تعزيز وضع صانعات رقائق العدس وعمال الجلود والدباغة وصانعي الأواني الفخارية الذين يتم إخلاؤهم من دهارافي، يجري التخطيط لإقامة منطقة اقتصادية خاصة (Special Economic Zone SEZ) تشمل صالات عرض للجلود، مؤسسة لصناعة الخزف، مصانع للمجوهرات والأحجار الكريمة وحتى شركات متخصصة بتكنولوجيا المعلومات، غير أنه ليس من الواضح عدد السكان من الحرفيين والنساء اللواتي يصنعن رقائق العدس، الذين سوف يستفيدون من هذه المنطقة فعلاً.[16]

لقد جُنت الهند بالمناطق الاقتصادية الخاصة، وأقبلت على إنشائها بشكل هستيري. وقد شجعها على ذلك نجاح الصينيين في استقطاب الاستثمارات الأجنبية وزيادة ودعم الإنتاج الصناعي في المناطق الاقتصادية الخاصة مثل منطقة Shenzhen ومدينة Suzhou الصناعية، فبات لديها حالياً ثمانٌ وعشرون منطقة مماثلة. وتعرض هذه المناطق تقديم مزايا ضريبية خاصة للشركات شريطة أن تولد إيرادات تصدير صافية. وتوفر المناطق الصناعية الهندية التي افتتحت أول مرة في عام (2002). «حرية تامة في العمل التجاري لشركات كبرى متعددة الجنسيات، تسعى إلى التوسع عالمياً في قواعد الإنتاج»[17] وتشمل الحريات التي تتيحها المناطق الصناعية الخاصة للشركات متعددة الجنسيات تمتعها بوضع مستقل عن النقابات

العمالية، فضلاً عن تزويد الشركات بإمدادات مضمونة ومتواصلة من المياه والكهرباء. وكان قد جرى تحديد سقف لإنشاء المناطق الصناعية الخاصة بحيث لا يتجاوز عددها (150) موقعاً حتى عام (2006). عندما نجح كمال ناث وزير التجارة، في إطار سعيه لزيادة الاستثمار الأجنبي وربما إسداء معروف كبير للنشاط الاقتصادي في الهند، نجح في إلغاء ذلك السقف على الرغم من معارضة وزير المالية بي.تشيدامبارام للقرار. وهنالك الآن (117) منطقة صناعية خاصة أخرى جرى منحها «موافقة مبدئية»، إضافة إلى 200 منطقة أخرى جاهزة للتنفيذ. وكان للازدهار السريع للمناطق الصناعية الخاصة في الهند تأثير بالغ جداً، لكي يلفت انتباه صندوق النقد الدولي، ويدفعه إلى توجيه تحذير بشأن «الحوافز الاقتصادية غير المعقولة» المقدمة لهذه المناطق. ويبدو أن عدداً كبيراً من الشركات التجارية القائمة تقوم بتحويل عملياتها إلى المناطق الصناعية الخاصة الجديدة، حيث تتخلص من أعباء ضرائب كبيرة إلى حد أن هذا الاتجاه بات يهدد العائدات الضريبية للحكومة. وتدعي وزارة المالية أن الخسائر في الإيرادات سوف تصل إلى (19) مليار دولار بحلول عام (2010)[18]. وليس بمقدور حكومة الهند أن تتحمل ببساطة خسارة هذه الأموال.

من غير المؤكد بعد كيف ستساعد المناطق الصناعية الخاصة المقصود بها أن تعود بالفائدة على الشركات المتعددة الجنسيات، في إيجاد ودعم سبل العيش لأصحاب المشروعات الصغيرة والحرفيين من أبناء دهارافي. وكان قد تقرر منذ نهاية العام الماضي البدء بعملية إعادة بناء حي دهارافي في شهر كانون الثاني من عام 2007. وإذا ما كان بإمكان الهند تحويل أكبر حي فقير في آسية إلى واحة مزدهرة متعددة الاستعمالات مع توفير أساليب راحة مدنية جيدة، وبنية تحتية جيدة، وتكرار عملية التحول الجذري تلك في الأحياء الفقيرة في كل أرجاء البلاد، فإن الهند الحضرية سوف تغدو محركاً هائلاً لإحداث تحول في الأمة بأكملها.

حالة طوارئ تعليمية

لا يمتلك عدد كاف مطلقاً من الشباب الهندي المهارات أو المستوى التعليمي المطلوب للوظائف الجديدة التي يجري إيجادها في البلاد. ومن بين الأسباب التي تدفع شركات

تكنولوجيا المعلومات الهندية إلى التوسع في الخارج عدم تمكنها من الاعتماد على العاملين الهنود من ذوي الكفايات العالية من أجل الوفاء بمطالب التزايد المستمر لنمو اقتصادي يحقق نسباً مرتفعة تتجاوز العشرة بالمئة، وهي تعد نسبة عالية في علم الاقتصاد. ويتلقى المرشحون المؤهلون للوظيفة عروضاً متعددة بانتظام، بينما يخفق نظراؤهم الأقل كفاية في الحصول على فرصة واحدة. وفي حين تقوم المعاهد التعليمية المتميزة للهند، بما فيها معاهد التكنولوجيا الهندية ذائعة الصيت والمعاهد الهندية للإدارة، بتقديم خريجين مؤهلين بشكل ممتاز، فإن هؤلاء يمثلون رقماً ضئيلاً جداً من أصل المجموع العام للخريجين في الهند. إضافة إلى ذلك فإن عدداً قليلاً من الهنود يكملون دراستهم الثانوية، وثمة عدد أقل ينجح في دخول الجامعة على الإطلاق. وتظل نسبة الأمية مرتفعة. فهناك عدد كبير جداً من الأولاد يذهبون للعمل وغالباً تحت ظروف لا تختلف عن ظروف العبودية في شيء. وهناك الكثيرون جداً ممن يذهبون فعلاً إلى المدرسة يتلقون تعليماً تكون نتيجته أنهم يظلون غير قادرين على القراءة أو حتى إجراء عملية حسابية بسيطة.

ولدى الهند حالة طوارئ تعليمية ملقاة على عاتقها، وهي تتحمل مسؤوليتها. ويندفع الأشخاص المهملون المؤثرون، لمواجهة تحدي تعليم أكبر عدد من السكان في العالم ممن هم في سن الدراسة. وكانت منظمة براثام Pratham، وهي منظمة غير حكومية تنشط في مجال تطوير التعليم الابتدائي (الأساسي) في الهند، قد نشرت أول دراسة استطلاعية سنوية لها عن تقرير التعليم (Annual Survey of Education Report ASER). وشكلت النتائج لائحة اتهام تدين النوعية المتدنية من التعليم المتاحة لمعظم الأطفال الهنود. وتستنتج منظمة «براثام» أنه من بين ما يقدر بنحو (140) مليون طفل في مرحلة التعليم الابتدائي في الهند، هناك 30 مليون طفل لا يستطيعون القراءة، و(40) مليوناً لا يستطيعون حتى تمييز الأحرف الأبجدية و(55) مليوناً لن يكملوا حتى أربع سنوات من الدراسة.[19]

وعلى الرغم من أن دستور الهند يضمن الحق لكل طفل في التعليم، فمن الواضح أن الحكومة لا يمكنها أن تتكيف مع الوضع. ومن الأمثلة على أكثر الجهود الواعدة في هذا الصدد قيام المشروعات المشتركة التي تربط الحكومة بمؤسسات خاصة وغيرها من المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص، بتولي هذه المهمة الصعبة وتحمل مسؤولية التحدي المتمثل في

تحسين نوعية وأفق التعليم الأساسي في الهند. وتسخّر مؤسسة عظيم بريمجي التعليمية التي أسسها المدير التنفيذي المسؤول لشركة ويبرو، عظيم بريمجي، جهودها لتحسين نوعية التعليم الابتدائي في الهند، لا سيما في المدارس الحكومية الريفية. وكنت قد زرت اثنتين من المدارس في حيدر أباد حيث تنشط المؤسسة وخرجت منهما بانطباع مفعم بالأمل والتفاؤل من أجل مستقبل واعد للبلاد.

أسست روهيني نايلكاني، زوجة رئيس مجلس إدارة شركة Infosys انفوسيس، ناندان نايلكاني، «مؤسسة آكشارا» Akshar المرتبطة بمنظمة «براثام». وركزت جهودها على «كل طفل في سن الدراسة والتعلم». كما أشرفت على إدارة برنامج لتوفير كتب مخصصة للأطفال ذات نوعية عالية ورخيصة الثمن تصدر باللغات الإقليمية. ومعظم الناس في الهند لا يتكلمون اللغة الإنكليزية، كما تقول روهيني. «إن إحدى الأمور التي لم نكن قادرين على الإفادة منها هي قاعدة المعرفة المتأصلة بداخلنا، لأننا غير قادرين على التحدث بعضنا مع بعض». وتمتلك مؤسستها ثمانمئة ألف كتاب مطبوع ومتاح لخمسين ألف طفل في ثلاثة آلاف وخمسمئة مكتبة من مكتبات المجتمعات المحلية.

وما هذا الجهد المبذول سوى اثنين من المئات من الجهود البطولية المبذولة لمواجهة أزمة التعليم في الهند. ولا بد أن أحد أكثر الأساليب إبداعاً في توسيع الفرص التعليمية، لا سيما في المناطق الريفية، هي تلك المتبعة عبر التعلم عن بعد عبر الاتصالات اللاسلكية للإنترنت. فليست ثمة إمكانية لإحضار الأعداد الهائلة من سكان الهند كلهم إلى مراكز التميز والخبرة الموجودة في المدن أو في دول العالم. والبديل الواضح هو أخذ هذه المراكز إلى الناس. «لقد اكتسب التعليم في عالم مترابط وبعد ثورة المعلومات معنىً جديداً لناحية المعلومات الفورية والمعلومات عند الطلب. وليس لزاماً عليَّ أن أذهب إلى جامعة هارفرد، فأنا أستطيع الدخول إليها وإلى العديد من هذه الجامعات عبر الإنترنت» هكذا يجادل راما دوراي رئيس شركة تي.سي.اس TCS. «فإذا لم يكن بالإمكان تحمل نفقات التعليم، ولم يكن متيسراً عند الحاجة؛ فسيتم حرمان طبقة من السكان من التعليم، وستعطى طبقة أخرى فرصة الحصول على تعليم دون المستوى المطلوب، وستحصل طبقة صغيرة جداً من النخبة على تعليم متميز». ولدى شركة TCS برنامج لزيادة الفرص التعليمية عبر أكشاك

الاتصالات اللاسلكية التي تقام في المناطق المحرومة من البلاد. ويتنبأ راما دوراي بأن التعليم سوف يمر بتحول نموذجي وجوهري مدفوع في جزء كبير منه بضرورة إيجاد السبل لتعليم أطفال الهند.

جزيرة من الامتيازات

تقع منطقة باندرا - كورلا الاقتصادية على الضفة المقابلة لنهر ميثي من جهة حي دهارافي. إنها جزيرة من الامتيازات المحمية تم إنشاؤها من أراضٍ مستصلحة ومقتطعة من المسار الكثير التعرجات لنهر ميثي. وهنا تقع المكاتب التجارية للمؤسسات العملاقة لمصرف سيتي بانك وآي.بي. ام. في مومباي. وللوصول إلى هذه الجزيرة، هناك جسر علوي ضخم يمتد بشكل قوس فوق الطريق الرئيس الشمالي الجنوبي، الذي يصل مركز العصب المالي ومنطقة القلعة التاريخية لجنوب بومباي بالمطار، والضواحي الممتدة شمالاً مثل حبات الخرز في خيط طويل باتجاه ساحل بحر العرب. ويرتفع من بعيد عند قمة الجسر المقوس، وعلى مستوى مرتفع عن الرائحة المثيرة للغثيان لحي ماهيم، المبنى البيضوي الشكل المكسو بالزجاج المتلألئ لشركة IL&FS. ثم ينحدر الطريق إلى الأسفل، ويخترق مسار التيار القاتم للنهر. وعلى الضفة الأخرى يقع الفردوس، مدينة زمردية تضم شوارع واسعة، ومساحات مزروعة بالنباتات الخضراء ومجمعات أبنية مكاتب ضخمة.

وتشكل منطقة باندرا - كورلا الاقتصادية مقراً للمباني الحديثة جداً التابعة للمدرسة الأمريكية لمدينة بومباي ومدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية (DAIS). وتقع المدرستان بعضهما بجوار بعض، ولديهما ملعب رياضي مشترك.

وهنالك قليل من الشجيرات المشذبة بعناية، وبعض الأشجار تصطف ضمن محيط مدرسة آمباني الدولية، وما عدا ذلك فإن البيئة المجاورة جرداء خاوية. وهنالك داخل الأسوار العالية للمدرسة المزيد من النباتات والأشجار والأزهار. وتتوسط البناء باحة منيرة. أما غرف الصفوف فهي مزينة برسومات فنية للأطفال ومعروضات زاهية الألوان. ومع أن الأطفال يرتدون لباساً موحداً، الأمر الذي يفعله حتى تلاميذ المدارس الحكومية في الهند، فإنه ليس هناك من شيء يخضع لنظام صارم في المكان.

تأسست مدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية في عام (2003). ومن بين أول سبعة وخمسين طالباً من خريجيها، حاز أربعة وسبعون منهم على القبول للانتساب إلى كليات متميزة في الولايات المتحدة وانكلترة بما فيها ستانفورد، كارنيغي ميللون، نورثويسترن، براون، كورنيل، وارتون، وديوك في الولايات المتحدة، وأوكسفورد، كامبريدج، وكلية لندن للاقتصاد في المملكة المتحدة.[20] وقد أردت أن أعرف كيف يكون بالإمكان إيجاد هذا التميز بهذه السرعة الفائقة، وأين يأتي موقع كلية بمثل هذا الإنجاز الفذ والامتياز الرائع، في التغييرات التي تحدث في الهند.

ونيتا آمباني زوجة موكيش آمباني، رئيس مجلس إدارة شركة ريلاينس للصناعات المحدودة (RIL) هي رئيسة مدرسة دهيروبهاي آمباني الدولية. وكانت قد وافقت بلطافة، على لقائي في المدرسة. وعندما وصلتُ كانت تعقد اجتماعاً تسوده أجواء إيجابية متفاعلة مع الطاقم الإداري. وقد كان بإمكاني معرفة أنها كانت مشغولة جداً في رعاية المدرسة وإعطاء تعليماتها وتوجيهاتها الخاصة. وبعد دقائق قلائل حضرت إليَّ واعتذرت لأنها جعلتني أنتظر، واصطحبتني إلى داخل مكتبها. كانت هناك في غرفة المكتب لوحات فنية حديثة من قماش الكانفا معلقة على الحائط، وبعض المخدات الحريرية المطرزة بشكل بديع ملقاة على الأريكة. كانت هناك صورة كبيرة بالألوان للشخص الذي سميت المدرسة باسمه، دهيروبهاي آمباني، الذي تمثل رؤيته وقيمه منارات تسترشد بها المدرسة. إلا أن نيتا آمباني تحمل معها أيضاً خبرتها الخاصة وطاقتها الحيوية إلى المؤسسة التعليمية. وتقول نيتا وهي مُدرسة سابقة أنه كانت تملك دافعاً قوياً وحماسة شديدة لإنشاء مدرسة (DAIS) نتيجة لشعور الخيبة والإحباط الذي أصابها إزاء صرامة النظام التعليمي التقليدي للهند. وقد أقنعتها دموع أولادها التي كانت تنهمر في صبيحة الأيام التي يذهبون فيها إلى المدرسة، بالحاجة إلى إيجاد منهج أفضل يركز اهتمامه على الأطفال. وتعد مدرسة (DAIS) مشروعها الخاص. وهي ترغب في إنشاء مدرسة هندية متميزة عالمياً، وأن تكرر نوعية التصنيف في منشآت تعليمية أخرى، غير أنها ترغب أيضاً في تطبيق نموذجها المتميز على المدارس الحكومية في الهند.

وتستخلص نيتا آمباني الكثير جداً من المعلومات والخبرة من دروس تربيتها الخاصة. وقد أبلغتني أنها نشأت في أسرة مشتركة كبيرة في سانتا كروز، وهي منطقة تقع في ضواحي

بومباي غير بعيدة عن غوهو. «لقد ترعرعت في جو كنتِ تتعلمين فيه أن تعتني بالآخرين. كنا أحد عشر شخصاً في المنزل، بحمام واحد. وأنا أقول لأولادي عندما يطلبون حماماً خاصاً بهم، هذا الكلام: اسمعوا، كان علينا أن نقف في الدور لدخول الحمام. كنت تتعلمين التحلي بالصبر، وكنت تتعلمين المشاركة مع الآخرين. كان عمي يعيش معنا وكان ضريراً. كان علينا أن نقرأ له، وأن نأخذه للتنزّه خارج المنزل. وكان جدي يشدد دوماً على التعاطف. وقد تعلمنا أن نكون عطوفين، وأنا أقول لموكيش: إنها كانت طفولة من قصص الخيال».

تعد مدرسة (DAIS) مدرسة هندية بصورة متميزة. وقد قالت لي نيتا آمباني: «إن العولمة لا تعني التطبيع بأفكار وأساليب الحياة الغربية. وتعد ممارسة رياضة اليوغا نشاطاً إلزامياً في المدرسة. ويدرس الأطفال الرقص الهندي والموسيقا الهندية». وهي واثقة أيضاً بأن التلاميذ يفهمون تاريخ الهند المستقلة. «لقد قمنا بإعداد برنامج كامل عمن ناضل من أجل الحرية. ووجدنا الكثيرين من المناضلين ممن كانوا ما زالوا على قيد الحياة، ودعوناهم إلى المدرسة، وكان ذلك جزءاً من برنامج اسمه «نحن الشعب». كما قمنا بدراسة كفاح الهند من أجل الحرية منذ عام (1857) حتى إعلان الدستور».

كان أكثر ما استرعى انتباهي بشأن مدرسة (DAIS) روح التعاطف والاهتمام بالآخرين التي عملت آمباني على أن تجعلها متكاملة مع التجربة التعليمية للأطفال. ففي مدرسة (DAIS) يتعلم التلاميذ الاهتمام بالبيئة عن طريق إعادة تدوير المياه والحفاظ عليها. وهم يتعلمون الاهتمام بمن هم أقل حظاً منهم من إخوانهم المواطنين عن طريق العمل في دهارافي. وقد أسرَّت لي نيتا آمباني، بأنه «عقب زيارتهم الأولى إلى الحي الفقير، لم يعودوا يرغبون في العودة إليه، لكنه الآن مجرد جزء من حياتهم المدرسية العادية. وهذا مهم جداً بالنسبة لي، وأكدت «إن أطفالنا يأتون لاكتساب روح التعاطف والاهتمام كجزء من شخصيتهم. وعليهم ألا يشعروا أبداً وكأنهم يسدون معروفاً إلى أحد ما. فهذا يجب أن يكون جزءاً من كيانهم».

وبالإضافة إلى جعل تلاميذ مدرسة (DAIS) يدخلون إلى حي الصفيح المعدم لتقديم المساعدة، فقد توصلت نيتا آمباني إلى اتفاق مع منظمة «اكانكشا» Akanksha وهي منظمة غير حكومية مسخّرة لمساعدة أطفال الأحياء الفقيرة في بومباي. وتفتح مدرسة (DAIS)

أبوابها للتلاميذ من منظمة أكانكشا بعد ساعات الدراسة النظامية، فتمنح الأطفال الذين يعيشون في ظل بعض أسوأ الأوضاع في العالم الفرصة، لكي يتعلموا في واحدة من أفضل أوساط التعلم في العالم.

وتدرك نيتا آمباني بعمق أنه لا يكفي بالنسبة للهند أن يكون لديها بضعة مراكز فقط من التميز مثل مدرسة (DAIS) إذا ما ظلت هذه معزولة عن باقي السكان. وهي تقول: إنها جعلت من عملية وضع تصور لكيفية إيصال التميز بأقل كلفة ممكنة أمراً إلزامياً ضمن المدرسة. وأوضحت أنه «ليس هناك عدد كبير من أولياء الأمور ممن يريدون أن يحصلوا على دعم العون المادي لو كان في وسعهم، ولذا فقد اخترنا وبدلاً من منشأة تعليمية تتقاضى رسوماً أعلى وتقدم منحاً دراسية، منشأة تتقاضى رسوماً أقل حتى تشعر جميع الأسر بأنها متساوية. ونحن لدينا خليط كبير من المجتمع هنا. وتشكل غرفة الصف تجربة عملية لتحديد المستويات، وهي تسهم في التجربة التعليمية. وفي حين يؤدي خفض مجمل الدراسة إلى جعل كلفة الذهاب إلى مدرسة (DAIS) أقل من المبالغ المرتفعة التي يدفعها أبناء الطبقة الثرية جداً من التلاميذ من دون مساعدة مالية، فإن الخليط يمكن أن يشمل فقط أولاداً من خلفيات تعيش في بحبوحة مادية نسبياً. ولكونها قد لجأت إلى تعليم أطفال فقراء، فإن نيتا آمباني تعرف تماماً أن أطفال الأحياء الفقيرة لا يستطيعون الذهاب إلى مدرسة (DAIS) كطلاب نظاميين.

إلا أن نيتا آمباني أبلغتني أن هدفها هو أن تكون مدرسة (DAIS) رائدة التغيير بالنسبة للمدارس الحكومية في بومباي. وقالت: إن هيئة بومباي المحلية تعلم ثمانمئة ألف إلى مليون طفل، «وهي تملك بنية تحتية قائمة. وإذا ما كان بمقدورنا أن نأخذ مدرسة واحدة ونجري تحولاً فيها، فإننا نستطيع إيجاد النموذج؛ ثم يجب علينا الإكثار منه، والإكثار منه بسرعة فلا وقت هناك لإضاعته. فالهند تواجه حالة طوارئ تعليمية، لا سيما في التعليم الابتدائي».

لقد ارتبط تعاطفها بوضوح مع الأسلوب الشخصي في العمل الذي تتبعه عائلة آمباني مع شركة ريلاينس: ويتميز هذا الأسلوب بطابع خاص يركز على جملة توجيهات كالآتي: اجعله الأفضل، اجعله كبيراً، كرره على نطاق واسع، خفض التكلفة، واعمل على زيادة

الفرص. وقالت لي: «هذا هو النموذج الذي أريد أن أصنعه: مقاييس ممتازة يمكن تحمل كلفتها. إنه عمل صعب من أعمال التوازن ولكن لا بد لنا من أن نقوم به». وبينما كنا نودع بعضنا لم تتمالك نفسها من القول بانفعال: «أتعلمين، إنني أحب عملي كثيراً جداً. ولا أريد أن أُضيع يوماً واحداً. إنني أَشعر بإحساس كبير من المسؤولية، فكيف نحقق هذا الحلم بالنسبة للهند؟ كيف نجعل كل طفل قادراً على القراءة والكتابة؟ إن الأمر لا يتوقف إطلاقاً تقريباً عن توليد شعور بالقلق في داخلك. إنه يدفعكِ إلى الأمام والأفكار لا تبرح ذهنك أبداً مهما كنت تفعلين».

مستوى عالٍ من التعليم لأطفال الهند الفقراء

تسخّر مؤسسة عظيم بريمجي أعمالها بالكامل لتحسين التعليم الابتدائي في الهند من أجل الأطفال الأشد فقراً في البلاد. وتعمل المؤسسة مع المدارس الحكومية الموجودة، وبشكل أساسي في القرى الريفية الفقيرة. إن العبارة التي تختصر رؤيتها هذه، مقنعة تماماً: «الإسهام بشكل كبير في تعليم عالمي عالي المستوى، يسهل قيام مجتمع إنساني منصف وعادل». وكنت قد سافرت إلى بنغالور للاجتماع مع ديليب رانجكار، المدير التنفيذي للمؤسسة لأعرف المزيد عنها، وزرت لاحقاً اثنتين من المدارس في حيدر أباد، حيث تعمل مؤسسة عظيم بريمجي، وذلك لكي أرى بنفسي كيف تعبّر المؤسسة عن أفكارها، وتنفذ خططها على أرض الواقع.

تقع مكاتب المؤسسة في بناء وضعت التصميم المعماري له السيدة بريمجي. ويتموضع المبنى في غابة صغيرة من أشجار الأوكاليبتوس خلف مقر مكاتب شركة «ويبرو»، وهو عبارة عن منشأة مشيدة من الآجر الأحمر البهيج، ومصمم بشكل يسمح بدخول أكبر كمية من الضوء، وتقليص الفارق ما بين القسم الداخلي والقسم الخارجي. وفي هذا الوسط المتناغم والمسالم، يرأس ديليب رانجيكار جهود المؤسسة لنقل التغيير الثوري على نطاق واسع، إلى أفقر المدارس في الهند. ورانجيكار رجل لطيف في منتصف العمر له لحية مشذبة على نحو متقارب مع خصل رمادية، وكان يرتدي قماشاً مصنوعاً من القطن المحبوك يدوياً عندما التقينا.

«نحن نركز على إحداث تغيير على نطاق واسع وعلى إحداث إصلاح منهجي. وينصب اهتمامنا على جودة التعليم الابتدائي. فهناك في الهند مئتا مليون طفل تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والرابعة عشرة يدرسون في مدارس ابتدائية حتى الصف الثامن. وهنالك مليون مدرسة وخمسة ملايين مدرس. ويعيش سبعون بالمئة من هؤلاء الأولاد في مناطق ريفية. وفي الوقت الحاضر، يكمل ثلث أطفال الهند فقط الصف العاشر. وثلث الأولاد في الصف الخامس لا يستطيعون القراءة والكتابة. ولكنَّ خمسةً وسبعين بالمئة من شعبنا لا يملكون فرصة استعمال مياه الحنفية، وخمسين بالمئة ليست لديهم كهرباء. وهذا هو التحدي الذي نواجهه. ومن أجل القيام بذلك وفق المقياس المطلوب، فإننا نعمل مع مدارس حكومية وإدارات الدولة التعليمية. إن مهمتنا الأساسية هي إعادة تعريف كلمة «ماذا» و«كيف» في التعليم، مع التركيز على الطفل. إننا نركز على المدارس صديقة الطفولة، وعلى ضمانات التعليم، وعلى المبادرات المتخذة في مجال التكنولوجيا، وعلى إصلاح الإدارة التعليمية من أجل تغيير النظام البيئي».

وأردت أن أعرف «ماذا كانت تعني المدرسة صديقة للطفولة؟ فأوضحت قائلة: «إننا نعمل على هذا المشروع بالشراكة مع منظمة اليونيسيف UNICEF وحكومة ولاية كارناتاكا. ويعد هذا تداخلاً شاملاً. وفي المدرسة صديقة الطفولة لا بد من أن يكون الأطفال متحمسين لها ويرغبون بالذهاب إليها. ولا بد من استيعاب جميع الأطفال فيها بغض النظر عن النوع الاجتماعي ذكراً كان أم أُنثى، أو الوضع الاجتماعي - الاقتصادي. ويجب على المدرسة أن تساعد على تنظيم التعليم التشاركي وأن تكون نظيفة وتتبع القواعد الصحية. ولابد لجميع الأولاد من أن يكملوا الصف الخامس على الأقل. وبموجب برنامج «ضمان التعلم» الذي وضعناه فإن تعريف مدرسة ضمان التعلم هو المدرسة التي يتم فيها تسجيل مئة بالمئة من الأولاد، ويواظب على حضور الدروس فيها بانتظام تسعون بالمئة منهم، ويبرهن ستون بالمئة منهم على الأقل على محصلات تعلم متوقعة».

وقد بادر عظيم بريمجي مرتين إلى تحويل أسهم قيمتها (3.5) مليارات روبية أو ما يقارب (80) مليون دولار في إطار تبرعه بتقديم منح مالية للمؤسسة. وهناك (250) من المختصين والخبراء و(1,100) من المتطوعين يعملون لصالح المؤسسة في ست عشرة ولاية مختلفة في

أنحاء الهند. وقال رانجيكار: «كل شيء يتم التخطيط له بالشراكة مع الحكومة، ونحن لا نبحث عن أي تقدير وعرفان أو عن التأسيس لعلامة تجارية. إن متعتنا تتحقق عندما يحدث التغيير، وليس بجعل اسمنا ظاهراً هناك. ويجب على الحكومة في النهاية أن ترسي نظاماً مؤسساتياً للمبادرات إذا ما كان لها أن تنجح. ونحن نستطيع أن نوجد في كل مدارس الهند. إن مهمتنا هي إثبات صحة المفهوم الذي نستند إليه، وإيجاد الطرق والوسائل لتغيير طريقة التفكير من أجل اعتماد نظام بيئي يركز على التغيير. وعلى الحكومة أن تتولى إدارة الأمور انطلاقاً من هناك».

كنت قد سمعت من أشخاص عديدين: أن الغياب المتكرر للمدرسين كان أحد أكبر المشكلات التي تواجه عملية تحسين التعليم الابتدائي. وبوصفهم موظفين لدى الحكومة، فإنه لا يمكن طرد المدرسين بسهولة. كما أن الفساد يطرح مشكلة كبيرة بوجود أناس يدفعون رشوة للحصول على وظيفة مدرس، وجمع الراتب، والتعاقد في الخفاء مع شاب مراهق في القرية ليحضر إلى المدرسة نيابة عنهم بين الحين والآخر. وسألت رانجيكار كيف جعلت المؤسسة المدرسين يلتزمون بالقيام بعملهم، لا سيما في المناطق الريفية. فأجاب: «ذاك هو ما يركز عليه برنامج ضمانات التعليم. وهو أولاً برنامج طوعي مبدئياً. ونحن نقوم بإبلاغ المدارس أننا سوف نجري تقويماً لكل الأولاد في المدارس. وسوف نختبر كيفية سير دراسة تلاميذكم. وسوف نستخدم ذلك لتقديم صورة واضحة عما يجري، وسنعلن النتائج على الأهالي؛ وعلى المجتمع المحلي أن يتولى إدارة الأمور انطلاقاً من هناك. فالأهالي يريدون الحصول على تعليم جيد لأولادهم».

لقد ذكرت كيف كنت متأثرة بالإحساس بالمسؤولية المشتركة السائد بين رؤساء الشركات التجارية الذين التقيتهم في الهند. وترك ذلك في نفسي انطباعاً جيداً. وقد كان رانجيكار متشككاً بقوله: «إن رد فعل الشركات التجارية ليس مشجعاً جداً. وبمقدورهم أن يلعبوا دوراً مهماً. بمقدورهم أن يمارسوا الضغط على النظام عن طريق تغيير سياسة التوظيف التي يتبعونها. وحقيقة الأمر هي أن الهند سوف تواجه أثناء خمس سنوات نقصاً في الكوادر المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات بحدود 350,000 فني وخبير. ومع ذلك فإن الشركات لا ترغب في الاستثمار في تعهدات طويلة الأمد وغير مباشرة. وعليها أن تقر بأن ثمة عنصراً

اجتماعياً بالنسبة لنشاطهم التجاري إلا أن ما يتحدث عنه معظمها هو نسب قيمة الأسعار إلى قيمة الإيرادات. ويفتقر رؤساء الشركات التجارية إلى المصداقية، لأن هناك الكثير من النفاق. فقط أعطِ القليل من شيء ما لإسكات الناس إذا ماكنت تقوم بالتسبب في التلوث. ثم استمر في عملية الفساد. أما نحن فإننا نتبنى وجهة نظر مختلفة تماماً. فكلمة عمل الخير والأعمال الإنسانية هي فكرة بغيضة بالنسبة لنا. ونحن بحاجة إلى تغيير منهجي وحلول بعيدة الأمد. نحن بحاجة إلى مقاربة مهنية للحلول المتطورة بالنسبة للحياة العامة».

سألته ما إذا كانت شركة «ويبرو» تقوم بعمل أي شيء خارج المؤسسة بصفتها شركة تجارية، من أجل إظهار المسؤولية المشتركة، فأجاب: «بكل تأكيد». وتقوم شركة ويبرو، على سبيل المثال، بمعالجة هذا الموضوع على موقع e-waste، الإلكتروني والخاص بالنفايات الناجمة عن صناعة وسائل تكنولوجيا المعلومات.

كنت في طريقي إلى مدينة حيدر آباد في اليوم الآتي. وكانت المؤسسة تعمل في المدارس الموجودة عبر ولاية اندرا براديش، بما فيها مدارس المناطق الفقيرة من حيدر آباد. وهيأ لي ڤيجاي غوبتا اتصالاً مع جاغاديش بابو، الذي يعمل لصالح المؤسسة هناك. ورتب لي بابو أمر زيارة مدرستين، وجعل أحد أعضاء الدائرة التعليمية في اندرا براديش يرافقنا في الزيارة.

وحالما هبطت بي الطائرة أثار إعجابي التباين الجذري بين حيدر آباد والمدن الهندية الأخرى التي كنت أعرفها. فهناك شوارع عريضة نظيفة تصطف على جانبيها مجمعات تجارية ومجمعات سكنية، تضم شققاً فخمة، وبحيرة مركزية، تنتظم في محيطها حدائق عامة حديثة. وكل شيء مضاء بأضواء النيون ليلاً - وتبدو حيدر آباد، التي باتت تنافس بنغالور بسرعة بوصفها مدينة تكنولوجيا المعلومات الأولى، تبدو أكثر شبهاً بمدينة بانكوك من أية مدينة هندية أخرى. وفي حين كنا نشق طريقنا إلى المدرسة الأولى التي كنا سنزورها في صباح اليوم الآتي على أي حال، وعبرنا عبر إحدى بوابات المدينة إلى القسم الأقدم من البلدة، كان الأمر أشبه بالمرور عبر نوع ما من التشويه في حيز التطور: فقد وجدت نفسي فجأة وقد عدت إلى الهند بلد الفقراء بمساكنها المتداعية المتصدعة، وشوارعها المغبرة، وعنزاتها الشاردة وأكوامها من القمامة.

توجد في ولاية اندرا براديش خمسة وخمسون ألف مدرسة ابتدائية، وعشرة آلاف مدرسة إعدادية واثنتا عشرة مدرسة ثانوية. وتعمل مؤسسة عظيم بريمجي مع خمسمئة مدرسة ريفية في الولاية. وإذا كان باستطاعة المدرسة إثبات أنها تمتلك مصدراً قانونياً للكهرباء (تتفشى في الهند قرصنة التيار الكهربائي) وغرفة يمكن إبقاؤها نظيفة، عندها تكون المدرسة مؤهلة لاستجرار أموال من الحكومة الهندية وحكومة الولاية من أجل الحصول على أجهزة الكمبيوتر؛ وتؤمن المؤسسة بدورها تقديم البرمجيات التعليمية.

قال لي بابو: إن أول مدرسة كنا سنزورها تقع في حي فقير للغاية. وكان الدخل الشهري للأسر التي تعيش فيه يبلغ ألفي روبية كل شهر، أي نحو (45) دولاراً. كانت المدرسة مشيّدة داخل منطقة مسورة بالجدران، مع ملعب في الوسط. كانت هناك مراحيض تشطف بمياه جارية وحنفية لشرب المياه. وكانت هناك عيادة طبية، حيث قيل لي: إِن طبيباً يأتي بانتظام ويتفقد صحة التلاميذ. «أجريت لطالبين جراحة في القلب بعدما تم فحصهما من قبل الطبيب، وخضع آخر لجراحة في العين، كما قال لي أحد المدرسين، وكل التلاميذ يتلقون لقاحاتهم عن طريق العيادة. ويتم تقديم وجبة مغذية في وقت الظهيرة. وكانت هناك قدور كبيرة من الأرز والعدس بانتظار الأولاد في صبيحة زيارتي. وكنت معجبة بالمدرسين، وجميعهم من النساء، اللواتي وإن كن يرتدين ملابس ليست بأفضل من ملابس تلاميذهن، فقد كن يمتلكن موارد متواضعة بدورهن، ويسخِّرن كامل وقتهن لهم. كان الوقت يقترب من نهاية الفصل الدراسي، وكان طلاب الصف العاشر على وشك التخرج وكانت بعض الفتيات تتشبثن بمعلماتهن حزينات لفراق أولئك النسوة اللواتي كان لهن شأن كبير جداً في حياتهن.

صعدنا إلى الطابق العلوي حيث كانت هناك صنادل وأحذية طرية من المطاط مكومة خارج باب الغرفة الأخيرة في نهاية الممر المفتوح. وكان هذا هو المدخل إلى مختبر الحاسوب الذي ضم عشرة أجهزة كمبيوتر ومكيف هواء. وجلس ثلاثة أولاد عند كل جهاز. كان هناك أولاد من جميع الأعمار، ولكن معظمهم أولاد في الصف الثالث. كانوا يطبقون دروساً مختلفة مستخدمين برمجيات مطورة قدمتها مؤسسة عظيم بريمجي. ودُهشت لرؤية لوحة مصنوعة باليد تشكر «المؤسسة الأمريكية الهندية». وعلمت أن مُدرس مادة الحاسوب

كان يحصل على معونة مالية بموجب منحة من هذه المؤسسة. أما أجهزة الكمبيوتر ذاتها فقد جرى التبرع بها من قبل شركة هيوليت باكارد (HP). وبفضل الشراكة ما بين الهيئات والمؤسسات وحكومة الولاية، والحكومة الوطنية، كان لدى الأولاد في هذه المدرسة مختبر لأجهزة الكمبيوتر. ويشكل هذا النوع من الشراكة الثلاثية الشُّعب ما بين الحكومة، القطاع الخاص والأعمال الإنسانية المفتاح لحل مشكلات الهند.

وقال بابو: «إن خمسة بالمئة من أهالي هؤلاء الأولاد أميون. وهم لا يستطيعون زيارة المدرسة أبداً، لأنهم عمال بالمياومة، وإذا ما أضاعوا يوماً واحداً فسوف يفقدون عملهم. ولم يسبق لهؤلاء الأولاد أن شاهدوا جهاز كمبيوتر «حاسوب» قبل أن يدخلوا هذه الغرفة، وهم يحبون أن يلمسوا الأجهزة أو حتى مجرد الوقوف بالقرب منها، فهم مفتونون بها».

وكان هناك وفي الغرفة المجاورة مئة ولد يجلسون متربعين على الأرض، يتابعون درس الحاسوب ذاته، ينجزه ولد في مقدمة الصف على لوحة مفاتيح موصولة بجهاز تلفاز كبير. وأوضح بابو «ليس هناك أجهزة حاسوب كافية لكل الأولاد، لكي يأخذوا دورهم في وقت واحد. فهناك (121) ولداً في غرفة الصف الثالث، و(141) في غرفة الصف الخامس، ولذا فهم يتابعون مشاهدة الدرس اليوم. وسوف يأتي دورهم عند جهاز الحاسوب في يوم آخر». وسألته إن كان هذا عدد الأولاد في كل غرفة صف ولكل معلم، فرد بالإيجاب.

وقالت لي مندوبة الدائرة التعليمية في ولاية اندرا براديش: «نحن لدينا في مدينة حيدر آباد عدد كبير من المسلمين. وهم فقراء جداً. وتحاول الحكومة تشجيع التعليم وهو مجاني بالنسبة للفتيات، كما أنهن يتنقلن مجاناً في حافلات المدينة. وعندما يكملن الصف العاشر، تودع الحكومة نقوداً في حساب مصرفي لصالحهن. وكانت هناك عادة رائجة بإرسال العديد من الفتيات ممن هن في سن التاسعة أو العاشرة إلى منطقة الخليج. وأهلهن فقراء للغاية أما في الوقت الحاضر فإن أعداداً متزايدة منهن يتوجهن للدراسة في المدرسة».

كان الطلاب متلهفين لكي يشرحوا لي ما كان باستطاعتهم القيام به وشعروا بالفخر عندما أكد جهاز الحاسوب الإجابة الصحيحة. وقال لي المدرسون: إن عندهم برنامجاً لما قبل وبعد الدوام الدراسي من أجل الأولاد الذين انقطعوا عن الدراسة أو تأخر تعليمهم اسمه

«جسر نحو المستقبل». وبإمكانهم أن يأتوا إلى المدرسة في أثناء ساعات توقف الدوام، وأن يعوضوا ما فاتهم من دروس، بهدف العودة للانضمام إلى صفهم. وتباهى المدرسون بتقديم عروض مصورة على شاشة الحاسوب بوساطة برنامج «پاورپوينت» من ابتكار الأولاد الأكبر سناً. وقال لي بابو: إن اندرا براديش كانت إحدى أولى الولايات التي أدخلت أجهزة الكمبيوتر في الهند. كذلك هناك برنامج ضمان صحي عالمي للأولاد. وشهدت الولاية تحسناً بنسبة (12) بالمئة في تسجيل الطلاب في المدارس وزيادة بنسبة (50) إلى (60) بالمئة في استبقائهم فيها. ويجب على كل المدرسين أن يجتازوا امتحانات خاصة لمعرفة مدى كفايتهم فضلاً عن حضور دورات سنوية مدتها واحد وعشرون يوماً، وذلك لتحديث معلوماتهم.

وقال الرجل الذي يعمل في الدائرة التعليمية: «إن العولمة تجعل الناس يرغبون في الحصول على تعليم أكثر. وهناك تأثير كبير لصناعة البرمجيات هذه. الجميع يريد تعليماً أفضل. وقال أيضاً: إن حكومة ولاية اندرا براديش تقوم بإنشاء مراكز ريفية لخدمات البريد الإلكتروني، حيث يستطيع القرويون الوصول إلى سجلات الكترونية لكل الوثائق والمستندات المدنية بما فيها شهادات الميلاد، وشهادات الزواج، عائدات الضرائب، سندات ملكية الأراضي، شهادات النظام الطبقي (مهمة في بلد حيث تُخصص نسبة من الوظائف الحكومية لطبقات اجتماعية معينة)، وفواتير الكهرباء. ويرى الناس تكنولوجيا المعلومات وهي تعمل في حياتهم اليومية، ولا بد لهذا من أن ينبه الهنود الأميين من أبناء الأرياف إلى ما تبشر به التكنولوجيا من خير وأن يحثهم أكثر بالمقابل ليطالبوا بالحصول على الفرص التعليمية لأولادهم - وهذا هو بالضبط ما تريده مؤسسة عظيم بريمجي أن يحدث.

من الصعوبة بمكان الاستهانة بتأثير صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند على البلاد. فأولاً هناك، وكما أشارت نارايانا مورثي من شركة انفوسيس، الفكرة الثورية لنظام ذوي الكفاية، ومفادها: أن أي شخص تعلم وعمل بجد يمكنه تحقيق النجاح. ثم هناك الدافع القوي لرد العطاء للبلاد، ولزيادة الفرص التعليمية حتى يتمكن عدد أكبر من مواطني الهند في المستقبل من المشاركة في توسيع الأنشطة الاقتصادية فيها. أخيراً هنالك عملية تحويل ما تسميه مؤسسة عظيم بريمجي النظام البيئي، حيث يشعر الأهالي، الأولاد، المربون، والإداريون وأخيراً السياسيون ورؤساء الشركات التجارية يشعرون جميعهم بإحساس قوي

من النشاط والإثارة، وحيث يتم تحويل المواقف وطرق التفكير والسلوك. وحالما يدرك ما يكفي من الناس المعنيين أن الوضع الراهن ليس مقبولاً، وأنهم يملكون القدرة على تغييره، فإنهم سوف يفرضون عملية تحسينه وإصلاحه.

ولدى حكومة الهند برنامج يدعى «سارڤا شيكشا ابيهيان» Sarva Shiksha Abhiyan هدفه ضمان أن جميع الأولاد من سن السادسة وحتى الرابعة عشرة يذهبون إلى المدرسة، وأن كل أطفال الهند يتلقون ثماني سنوات على الأقل من التعليم النظامي. ومع ذلك، ففي عام (2005)، أنهى الصف الثامن أقل من نصف الأولاد الهنود الذين تم قبولهم في الصف الأول، وبلغت نسبة التسرب من المدرسة (52.79) بالمئة. وهناك أسباب متعددة تقف وراء ذلك، فتسعة عشر بالمئة من المدارس الابتدائية تضم في هيئتها التعليمية مدرساً واحداً. والمرافق الصحية رديئة والعديد منها ينقصها المراحيض أو المياه الجارية. وأبلغني شيباني ساتشديف، رئيس المؤسسة الاجتماعية الخيرية «يونايتد واي انديا» United Way India، أن ما يزيد على (80) بالمئة من المدارس الرسمية في ولاية مهاراشترا، إحدى أغنى ولايات الهند، تفتقر إلى مياه الشرب. ويحدث هذا في مناخ حار. وتمتلك المدارس الرسمية التي رأيتها مرافق بدائية للغاية، وغالباً ما يجلس الأولاد على الأرض، لأنهم ليس عندهم مناضد دراسية أو كراسي. وهم يشتغلون على ألواح الأردواز، باعتبار أن استخدام الورق وأقلام الرصاص والحبر مكلف جداً، كما أنهم يتشاركون معاً في قراءة كتب مهترئة جداً. وإذا ما كانت المدرسة موجودة داخل مبنى إِسمنتي، كما هو حال العديد منها، فإنها موحشة على الدوام فليست هناك من نباتات رائعة مزروعة، ولا ملاعب رياضية أو معدات لملاعب الأطفال، ولا أشغال فنية معلقة في غرف الصفوف، وبالتأكيد لا توجد مختبرات علمية، ولا ستديوهات للفنون أو قاعات للموسيقى. وتعاني مدارس الهند الابتدائية الرسمية معدلاتٍ عاليةً لتغيب المعلمين، ويجد العديد من الأولاد أن تقدمهم التربوي يتعرض للتوقف بشكل منتظم. وفي عام (2005)، كان هناك (42) مليون طفل في الهند تتراوح أعمارهم ما بين السادسة والرابعة عشرة لا يذهبون إلى المدرسة. كذلك فإن استمرار عمل الأطفال واستمرار الهجرة الداخلية للملايين من الهنود، الذين يأخذون معهم أولادهم، وهم ينتقلون من عمل إلى آخر، والتمييز واسع النطاق ضد الفتيات، وهي قضايا أتناولها في الفصل (6) كانت أيضاً عوامل تحرم الكثيرين من أطفال الهند من حقهم في التعليم الابتدائي الأساسي[21].

إن صورة بنت في السادسة عشرة من العمر على وشك التخرج في الصف العاشر، وهو إنجاز طبيعي في النظام التعليمي للهند، التي ربما يكون والداها أميين، وكانت أمها بالتأكيد في سنها عندما أصبحت أماً، وهي ممسكة بذراع معلمتها وتميل على كتفها في حين تُحدق كلتاهما في عرض لبرنامج «باور بوينت» على شاشة جهاز الكمبيوتر، كانت قد تعلمت أن تعمل على ابتكاره في مدرسة مكسوة بالغبار في حي فقير قذر، بسبب إيمان وتفاني المئات من الأفراد، الذين يمتلكون الدافع، والذين يؤمنون بإمكانيتها وطاقتها الكامنة، هذه الصورة تشكل بالنسبة لي جوهر ما هو الأكثر مدعاة للأمل بشأن مستقبل الهند.

الألعاب الرياضية في العاصمة: ترتيب نيودلهي

كانت هناك في العام الماضي على طول كل منصف في الطرق العامة في مدينة دلهي لافتات تعلن «Challo Dilli، من مدينة معزولة إلى مدينة عالمية!» وتعني عبارة Challo Dilli، «لننطلق، يا دلهي». وستعقد دورة الألعاب الرياضية لدول حلف الكومنولث في دلهي في عام 2010. وتملك عاصمة الهند كل عزم ممكن لتكون جاهزة لإثارة إعجاب الزوار من كل دول العالم. وقياساً على نمط النموذج المطلوب من سائقي سيارات الأجرة في العاصمة الصينية بيجين تحضيراً للألعاب الأولمبية التي ستجري فيها، سيكون مطلوباً من سائقي الأجرة في مدينة دلهي أن يجتازوا امتحاناً في اللغة الإنكليزية لدى إعادة تجديد رخص قيادة سيارات الأجرة التي يعملون عليها[22]. وحتى لا تتفوق عليها الصين، عبرت الوزيرة الأولى لولاية دلهي عن ثقتها في كلمة ألقتها في احتفال سبق عيد الجمهورية في العام الماضي، بأن الهند ستستضيف كلاً من الألعاب الرياضية الآسيوية في عام (2014). والألعاب الرياضية الأولمبية في عام (2016). وأعلنت أن هذه المناسبات الدولية تمثل تحدياً كبيراً باعتبار أن على دلهي أن تقوم بتحضيرات واسعة النطاق للألعاب الرياضية. ولكن دلهي سوف تصبح قطعاً مدينة من نوعية عالمية في المدة التي تسبق انعقاد دورة الألعاب الرياضية فيها.[23]

إن نيودلهي هي الآن أكثر منطقة عمرانية خضاراً واتساعاً في الهند. ولا تشاهد فيها أحياء فقيرة، مع أنه توجد في بعض الأزقة الفرعية مجموعات صغيرة غير مرئية من الأكواخ، إلا أن الكثير من الأحياء الفقيرة تحيط بالمدينة. وحينما تكون هناك أرض خلاء

يقوم البعض من الخمسمئة ألف شخص، الذين يتدفقون على المدينة كل عام بحثاً عن فرصة مواتية، أو مجرد البقاء على قيد الحياة، يقومون بإنشاء أي مأوى يستطيعون إنشاءه.[24] وهذه الأكواخ الصغيرة المسماة «جويغيز» Jhwggis، كانت على مر عقود من الزمن مصدر المتاعب للطبقات الأحسن حالاً في الهند، وللمسؤولين الحكوميين الذين عقدوا العزم على تحديث البلاد. وكانت السيدة انديرا غاندي قد تعرضت لمواقف صعبة عندما استخدمت الصلاحيات، التي منحتها لنفسها عن طريق إعلان حالة طوارئ في عام (1975). من أجل هدم الأحياء الفقيرة على عجل وتسويتها بالأرض. وأدى هذا الأمر وغيره من الإساءات الاستبدادية إلى طردها من منصبها بعد ذلك بتسعة عشر شهراً. وقد تضمنت كل واحدة من الخطط الخمسية التي وضعتها الحكومة الهندية بنوداً خاصة بتخطيط المدن والإسكان منخفض التكلفة، إلا أن الإنجازات كانت قليلة في الواقع والمشكلة تتفاقم كل يوم. وفي السنوات التي أعقبت حالة الطوارئ التي أعلنتها انديرا غاندي، جرى إخلاء الأحياء الفقيرة في مدن الهند الرئيسة مرة تلو الأخرى، ولكن لتظهر ثانية إما في المكان ذاته أو في مكان ما مجاور. وفي عام 2004 تم إخلاء الآلاف من الأكواخ التي كانت قائمة على طول نهر يامونا في مدينة دلهي. وتبعه في عام (2005). تسعون ألف كوخ في بومباي لإفساح المجال أمام مشروعات التطور العمراني، الأمر الذي أدى إلى تشريد 350,000 ألف شخص.[25] وفي العام الماضي وبَّخت الأمم المتحدة الهند على الأسلوب التي كانت تتبعه في إخلاء الأحياء الفقيرة. ولم تستجب الهند.

وضع ادوين لوتاينز مخطط مدينة نيودلهي (دلهي الجديدة) بهدف إظهار عظمة حقبة الحكم البريطاني لبلاد الهند، واكتمل بناؤها في عام (1929). حيث قام البريطانيون بعد ذلك بنقل عاصمتهم الإدارية هناك من «دلهي القديمة» كما تسمى حالياً، إلى الشمال. وتقبع في هذه المنطقة تقريباً داخل حدود سلسلة من الأسوار القديمة، التي بناها المغول، وهي أوابد مدن مختلفة كانت تشكل العاصمة وتعود إلى عام 800 ميلادية. وكانت كل واحدة من المدن تبنى ثم تهزم وتدمر وتسوى بالأرض، لتعود فتبنى من جديد، وتهزم وتهدم وتسوى بالأرض ثانية على يد سلسلة من الجيوش الغازية. وتوجد الأزقة الضيقة لتشاندني تشوك، حيث تسمع صيحات البائعين تتبارى فيما بينها فوق أبواق عربات تسير على ثلاثة دواليب،

وأغاني أفلام بوليوود الصدَّاحة في دلهي القديمة. أما الشوارع العريضة التي تصطف على جانبيها البيوت البيضاء المؤلفة من طابق واحد، والمنبسطة وسط حدائق خاصة فخمة، فهي موجودة في دلهي الجديدة. ويشار إلى هذه الكتل بأكملها على أنها دلهي، وتتناثر في كل مكان حول دلهي الآثار المعمارية الرائعة للامبرطوريات السابقة: الحصن الأحمر، Red Fort، كوتب مينار Kutb Minar، بورانا كيلا Purana Qila، المدافن القديمة في حدائق لودي، أبواب المدينة القديمة بما فيها بوابة شميري، والمساجد بما فيها مسجد جاما.

ومما يؤسف له أن عدداً لا يحصى من الآثار المعمارية المتبقية لماضي دلهي المدفون يجري طمسه وإزالته من الوجود بفعل التهافت على عمليات التحديث وبناء المدينة بأسرع ما يمكن[26]، وهذا ينطبق في الواقع على كل أنحاء الهند، حيث ليس هناك فعلياً من جهد يبذل لإنقاذ التراث المعماري للبلاد، فضلاً عن إنقاذ أشهر النصب التذكارية. وتتفتت وتنهار المنازل القديمة الفخمة المعروفة باسم havelis أو منازل التجار بفناءاتها الداخلية وشرفاتها المنحوتة بإتقان وإطارات نوافذها المزخرفة بالنقوش، لتتحول إلى خراب من دون إبداء أي اهتمام من جانب أية جهة؛ أو تتعرض للهدم لإفساح المجال أمام إقامة كتل إسمنتية من الشقق السكنية، ليس هناك ما يميزها. وهو يشكل برمته جزءاً من عملية الإنماء والتطوير العجولة للهند.

التنقيب في الماضي
من أجل الحفاظ على المستقبل

لم يقتصر فن العمارة الهندية التقليدية على إعطاء صورة عن نظام بيئي قديم، جمع ما بين النشاط البشري والعالم الطبيعي في الأفكار المنحوتة في أحجارها. فقد انبثقت تصاميم هذا الفن عن البيئة التي تطور فيها أيضاً. وكان لا بد من إيجاد حلول طبيعية للحالات الشديدة من الحر والبرد وللرياح العاصفة والأمطار الجارفة. وشكلت المياه مشكلة دائمة على مدار العام، فكان لا بد من الهجرة من مدينة فيتهبور سيكري الرائعة بأكملها التي تقع قرب مدينة أغرا، حيث يوجد ضريح تاج محل الشهير، وذلك عندما نفد مخزون المدينة من المياه في عام 1585.

يعمل كاران غروفر، وهو مهندس معماري، على التواصل مع ماضي الهند والغوص في أعماقه من أجل إيجاد وسائل التكنولوجيا الملائمة، التي يمكن استخدامها لاختراع مستقبل أفضل. وقد قاده اهتمامه بالتراث المعماري الغني للهند إلى قضاء عشرين عاماً في جعل المتنزَّه الأثري تشامبانر - باڤاغاد في ولاية غوجارات بالهند يدرج على قائمة مواقع التراث العالمي لليونسكو في عام (2004). وكان محمد بيغادا ملك غوجارات المسلم قد نقل عاصمته إلى تشامبانر من أحمد آباد في عام (1484)، واستغرق بناء المدينة ثلاث سنوات وضمت أسواقاً، وساحات، وحدائق ملكية، ومنشآت مائية ومساجد. وفي عام 1535 غزا هومايون المدينة فأعيد نقل عاصمة غوجارات إلى مدينة حيدر آباد، وهجر سكان تشامبانر المدينة. وكانت قد باتت خراباً تغطيها الأحراش والأشجار الكثيفة، عندما اكتشفها البريطانيون مصادفةً في عام (1803).

«لقد أمضيت حياة مزدوجة لسنوات عديدة» هذا ما قاله لي كاران في غرفة الجلوس في بيته في بارودا. كانت الجدران مغطاة بالكامل باللوحات الفنية، ومن ضمنها رسم لكاران بريشة الفنان الذائع الصيت المدرس في كلية بارودا، بهوبين كاكار». كنت أعمل من الساعة التاسعة إلى الخامسة في المكتب ومن الخامسة إلى التاسعة في مشروع تشامبانر. كنت أبقي الأمرين منفصلين تماماً، ثم أدركت أنهما مترابطان. فليس بإمكانك أن تتفادي الثقافة». وبات جلياً بالنسبة لكاران أن التراث المعماري للهند الغربية قد احتوى في الشكل المادي منه على الحكمة المتعلقة بكيفية تحقيق الانسجام ما بين العوالم البشرية والعوالم الطبيعية. وقد أدرك أن الآبار المتدرجة، لم تكن مجرد معالم حجرية فقط، وإنما أوعية لتجميع المياه الثمينة في أثناء فصل الأمطار الموسمية الغزيرة. وكانت الـ Jalis أو الستائر الحجرية المنحوتة تسمح بدخول ضوء الشمس المعتدل في حين تمرر نسائم الهواء العليلة. ونسجت الحدائق التي تبعث على البهجة بساطاً من النباتات الخضراء حول المباني.

ويقوم كاران حالياً بدمج عناصر معمارية هندية تقليدية في فن العمارة الحديث، الذي يتبناه كوسيلة لتحقيق كل من الانسجام والتناغم بين الظواهر الجمالية والبيئية. وقد حاز على الجائزة البلاتينية للريادة في مجال الطاقة والتصميم البيئي (LEED) من «مجلس البناء الأخضر» الصديق للبيئة في الولايات المتحدة لتصميمه «مركز سوهرابجي الأخضر

للأعمال» الصديق للبيئة، التابع لاتحاد الصناعات الهندية الذي نفذته شركة «غودريج» بالتعاون مع مؤسسات أخرى. وقال بتواضع: «لقد دهشنا لحصولنا على هذه الجائزة مقابل شيء كنا نقوم به على مدى ثلاثين عاماً. وأدى التصميم الذي وضعه إلى تحقيق توفير في الطاقة بنسبة (50) بالمئة. وخفض في استهلاك المياه بنسبة (35) بالمئة، وزيادة إنتاجية العاملين في المبنى بنسبة (15) بالمئة. ولا يتطلب ما نسبته (88) بالمئة من المبنى إضاءة صناعية. ويتوافر لـ (75) بالمئة من القاطنين رؤية واضحة في ضوء النهار. وعندما قام بتصميم المخطط المعماري «لأكاديمية الاديڤاسيز» في تيجغاد (معهد التميز الوطني في الدراسات القبلية) استخدم الآجر فقط من دون الإسمنت. وهو يدمج الستائر الحجرية المنقوشة مع كل الباحات بشكل سخي. ويمتد مبنى اتحاد الصناعات الهندية، الذي صممه في مدينة غورغاون بموازاة حديقة طويلة تطل عليها كل نوافذه. وعندما زرت المبنى في شهر نيسان كانت الحرارة تبلغ خمساً وأربعين درجة على مقياس سيلسيوس (113 فهرنهايت) لكنها كانت محتملة في الحديقة. وهو الآن يقوم بتشييد أكبر بناء «صديق للبيئة» في العالم في مدينة كالكوتا.

ويطمح كاران إلى وضع مخطط معماري لمدينة «صديقة للبيئة» في الهند. وهو يجادل بأن «كل شيء في العالم مرتبط بعضه ببعض. فالتلوث الموجود هنا يذهب إلى هناك». وهو يأسف؛ لأنه لا توجد في الهند سياسة حماية وطنية؛ ولأن عمليات الهدم تطال عدداً كبيراً من المباني القديمة، لإفساح المجال أمام عمليات البناء الحديثة، التي تتم عشوائياً من دون تخطيط سلفاً. وقد أطلعني على صور لمبنى مكاتب شركة (ABB) التي صممها في مدينة بنغالور، حيث ألحق به أبراجاً هوائية اقتبس فكرتها من فن العمارة التقليدية في بلاد السند. ونوه بخصائصها البيئية، فأوضح قائلاً: «يدخل الهواء الساخن البرج، وبحلول الوقت الذي ينساب فيه إلى أسفل المبنى تكون حرارته قد بردت بمقدار إحدى عشرة درجة».

قطار أنفاق دلهي

مدينة دلهي هي أيضاً المكان الذي شهد وقائع أفضل قصة تروى عن عمليات إعادة إعمار المدن الهندية، قصة شبكة قطارات النقل الجماعي الحديث المثيرة للإعجاب،

والمعروفة باسم قطار أنفاق دلهي. وهناك أربع مدن فقط في الهند لديها نظام سكك حديدية مماثل لذلك المعمول به في العاصمة، وهي: بومباي، كالكوتا، تشينّاي ودلهي. وتشهد شبكة قطارات ضواحي مومباي، الأكبر في الهند، رحلات منظمة تضم أكثر من (5.5) ملايين راكب يومياً[27]. وتعد قطاراتها وسيلة الاتصال الوحيدة التي تربط الضواحي الشمالية البعيدة بمركز النشاط المالي في الطرف الجنوبي للمدينة. وهي مكتظة بالركاب على نحو بائس حيث إن رؤيتهم يتدلون خارج جوانب أبواب المقصورات تعد منظراً مألوفاً. ولدى مدينة كالكوتا نظام قديم وجذاب لطرافته يتمثل في عربات الترولّلي التي تسير فوق الأرض. وقد أدخلت بلدية المدينة نظاماً لقطار الأنفاق في أعوام الثمانينيات ما زال يدار بشكل ملفت للانتباه إلا أن خدماته محدودة. وتشمل شبكة قطارات مدينة تشينّاي أربع عشرة محطة تقع على سكة حديدية مرتفعة وتمتد مسافة (15.5) كيلو متراً. وتؤمّن المدن الهندية الرئيسة ومتوسطة الحجم جميعها خدمات النقل بالباصات، وهو الطريقة التي يتنقل بها غالبية الهنود الذين يقطنون المناطق العمرانية. إلا أن قطار أنفاق دلهي هو جوهرة تاج المواصلات الجماعية في الهند. والفضل في ذلك يعود إلى رجل واحد: أي. سريدهاران «مهندس الفا» كما يدعى أحياناً، وهو الرئيس السابق لشركة الخطوط الحديدية «كونكان»، والمدير «الخارق» لقطار أنفاق دلهي.

قال لي السيد سريدهاران وهو في الثانية والسبعين من عمره حالياً: «إنهم لن يدعوني أتقاعد، وعليّ أن أخدم ثلاث سنوات أخرى على الأقل، ويبدي السيد اي. سريدهاران، وهو رجل مهذب، وقد بدأ بعض الشيب يغزو شعره، ويرتدي بذة رسمية وربطة عنق، يبدي تواضعاً بشأن دوره الشخصي في نجاح مشروع «مترو دلهي»، «فنحن فريق، وقد بذل العديد من الأشخاص جهداً بالغاً لجعل قطار الأنفاق أمراً واقعاً». ولا ريب أن السيد سريدهاران كان قد قام بتشكيل فريق من الدرجة الأولى، ولكن ليس هناك من شخص في الهند، وفي العالم في الواقع، كان قادراً على إنجاز العمل الفذ الذي حققه على الرغم من كل المصاعب. فقد تم إنشاء قطار أنفاق دلهي في وقت قياسي طبقاً للميزانية المخصصة له. وكان مشروعاً مربحاً منذ اليوم الأول. ويبلغ ثمن التذكرة بحدود ست روبيات (ثلاثة عشر سنتاً)، أما المحطات والقطارات فهي نظيفة بشكل لا غبار عليه. وتنطلق القطارات في الوقت المحدد

كل ست دقائق أثناء ساعات الازدحام المروري. ويضم قطار أنفاق دلهي حتى ساعة إعداد هذا الكتاب، خمسين محطة ويقل (450,000) شخصٍ يتنقلون بين منازلهم ومراكز عملهم يومياً. واستناداً إلى السيد سريدهاران فإن قطار أنفاق دلهي سوف ينقل مليون راكب يومياً في أثناء السنوات الثلاث القادمة. وبالنسبة لأولئك الذين هم على علم بالأمور التي يضرب بها المثل عن الهند كانعدام الكفاية، ووسائل النقل العامة المتعطلة، والأماكن العامة القذرة، فإن قطار أنفاق دلهي هو بكل بساطة معجزة.

وقال لي السيد سريداهاران ونحن نجلس في غرفة مكتبه المريحة في نيودلهي بأثاثها المصنوع من الخشب المطلي بألوان العنب الداكن: «لقد أسهمت مجموعة من العوامل في نجاحنا. وكان قد أصر على أن تكون لديه حرية التصرف كشرط سابق لتولي مسؤولية العمل. وقام باختيار أعضاء فريقه بنفسه. وسعى للحصول على المشورة من خمس شركات دولية مختلفة، ثلاث من اليابان وواحدة من الولايات المتحدة، وواحدة من الهند. وأرسل فريقه إلى الخارج ليروا بأم أعينهم كيف كانت تعمل الأنظمة الأخرى «كانت هناك معارضة كبيرة لقطار الأنفاق عندما بدأنا بالمشروع. سوف يكون مكلفاً جداً، سوف يستنزف البلاد، اعتراضات على هذه الشاكلة. وقد تغير ذلك كلياً. فالجميع يريد الآن تشغيل عدد أكبر من خطوط قطار الأنفاق. وكلهم اعتقدوا أنه سوف يتسبب في حدوث استنزاف مادي كبير ولكننا حققنا، في الواقع، ربحاً عظيماً. وكنا قادرين على إعادة دفع القرض الذي أخذناه من اليابان بفائدة مقدارها (1.3) بالمئة».

إن الإنجاز الأكثر مدعاة للفخر بالنسبة للسيد أي. سريدهاران هو تغيير طريقة التفكير التي ترى أن قطار أنفاق الهند يضع مواطني دلهي في موضع المهزوم. «قطار الأنفاق يقوم الآن بتغيير الحياة في دلهي. والركاب لا بد أن يكونوا منضبطين. وهم يتعلمون آلية الاصطفاف بانتظار دورهم. القطار نظيف، والناس لا يبصقون ولا يلقون بالأوساخ، أو يحفرون على جوانبه. لقد تعلموا احترام الملكية العامة. وهم يدركون أن قطار أنفاق دلهي هو ملك لهم. «وقد علقت خلفه على الحائط خارطة لمدينة دلهي وصور لقطارات لامعة يجري قطرها إلى الأرصفة. «لقد زاد قطار أنفاق دلهي من ثروات الناس وحسن صحتهم، وهم يدركون ذلك. وقد حققت الشركات التجارية الواقعة قرب محطات القطارات زيادة في مشروعاتها

التجارية بنسبة ثلاثين إلى خمسة وثلاثين بالمئة، وارتفعت أسعار العقارات والممتلكات بنسبة خمسين إلى ستين بالمئة على امتداد شبكة خطوط السكة الحديد. وهناك انخفاض ملحوظ في التلوث وصل إلى ثلاثين بالمئة على طول خطوط سير قطارات الأنفاق؛ كما انخفضت حوادث الطرقات العامة بنسبة ثلاثين بالمئة أيضاً.

بدأ اي.سريدهاران بتنفيذ مشروع قطار أنفاق دلهي من الصفر في عام (1998)، واستكملت المرحلة الأولية منه قبل الموعد المحدد لها بثلاث سنوات، وكلفت (2.3) مليارِي دولار. وأنا أعيش في منطقة ايست ڤيليج، بمدينة نيويورك. ومنذ عام (1920). وبلدية المدينة تناقش إقامة خط لقطار أنفاق جديد تحت شارع «سيكند آڤينيو». وكان هناك مؤخراً كلام من جديد عن إقامة خط قطار أنفاق «سيكند آڤينيو». وأشارت التقديرات آنذاك إلى أن الأعمال الإنشائية ستستغرق ستة عشر عاماً، وتكلف (17) مليار دولار. ولم يبدأ العمل بالمشروع بعد. وربما يجب على سلطة حاضرة مدينة نيويورك للنقل أن تتعاقد مع أي سريدهاران لتنفيذ العمل. وذلك هو ما تفعله مدن أخرى في الهند. فمدينة بومباي تريد إنشاء ثلاثة خطوط للسكك الحديد، وكذلك مدينة حيدر آباد. وقد وقعت مدينة بنغالور على اتفاقية لإنشاء خطين وكالكوتا لإقامة خط يمتد بين شرق وغرب المدينة، وتريد مدينة كوتشين إقامة بعض الخطوط. فقطار الأنفاق في مدينة دلهي لم يشكل حافزاً لإحداث تغيير في العقلية فقط، وجلب وسائط نقل جماعي من نوعية ممتازة ويمكن التعويل عليها بل رخيصة إلى عاصمة الهند، بل شجع مدناً هندية أخرى على تقبل فكرة النقل الجماعي السريع بوصفه أمراً مكملاً للازدهار، الذي تشهده البلاد على صعيد المركبات الآلية.

شقة بغرفتين مقابل 6,500 دولار

كان جي. بي. دسوزا الرئيس السابق لشبكة حافلات النقل العام المعروفة بحروفها الأولى B.E.S.T، الذي لا يزال يلقى الإعجاب والاحترام للطريقة التي أدار بها أحد أكبر أنظمة الحافلات في المناطق الحضرية، كان مشاركاً أثناء بداية السبعينيات في وضع خطة لإقامة مدينة أقمار صناعية، تكون تكملة لمدينة بومباي. وستكون مدينة بومباي الجديدة، وهي من بنات أفكار المهندسَين المعماريين ذائعي الصيت: تشارلز كوريا، شريش بيتل، وبراڤينا ميهتا،

مدينة مستقلة قائمة بذاتها تضم كل المرافق الضرورية، وتتمتع باكتفاء ذاتي بالنسبة للرجل العادي. وتم اختيار موقع المدينة الجديدة بعيداً عن زحام المدينة الأصلية، عبر البحر من جهة شبه الجزيرة الجنوبية الضيقة لمدينة بومباي.

منذ أكثر من ثلاثين عاماً كان التراجع في نوعية الحياة في بومباي يشكل في ذلك الحين أمراً مقلقاً لسكانها. ويتذكر أعمامي وعماتي مدينة بومباي في أعوام الخمسينيات كمدينة نظيفة وممتعة، حيث بإمكانك دائماً أن تحصل على مقعد في القطارات التي تسير بين المدينة والضواحي ومن وإلى مراكز العمل، وحيث تسافر الفتيات الشابات ليلاً أو نهاراً من دون أن يتعرضن للتحرش. وبعد عقدين من الزمن وبحلول أعوام السبعينيات كان ذلك قد تغير، وراقب أهالي مومباي مدينتهم الجميلة، وقد بدأ وضعها يتدهور ويسوء بفعل مجموعة من الضغوط نجمت عن تدفق سيل بشري لا يتوقف على المدينة وموقف عدم المبالاة الواضح أو العجز من جانب سلسلة من الحكومات المحلية المتعاقبة. وكل المشكلات التي يشتكي منها أهل مومباي اليوم -القطارات المكتظة والشوارع القذرة و مصارف المياه النتنة و المباني المهجورة المهملة و البنية التحتية المتداعية و الأحياء الفقيرة المنتشرة و سكان الأرصفة- كلها كانت تشكل موضوعاً مثيراً للقلق منذ ثلاثة عقود.

قام كوريا، بيتل، وميهتا، ودسوزا بتصميم المخطط المعماري لمدينة مومباي الجديدة، وقد وضعوا نصب أعينهم حاجات المواطن العادي. كما أولوا أهمية كبيرة للمواصلات العامة، والمسارات المخصصة للدراجات الهوائية والإسكان الممكن تحمل تكاليفه. ولكن المخطط لم ير النور إطلاقاً، الأمر الذي أثار خيبة أمل عميقة بالنسبة لدسوزا. وهو يأسف «أن مدينة بومباي الجديدة قد عرضت أحلامنا للنسيان. وتحولت كل طموحاتنا الرائعة تقريباً إلى شعور بالمرارة والتعاسة. وماذا عن نظام المواصلات؟ إنه لا يختلف عن أي مكان آخر في الهند. ومسارات الدراجات وخطوط الحافلات؟ إنها مهجورة ومنسية»[28]. إن غياب مسارات الدراجات الهوائية في بلد فقير يعاني تلوثاً حاداً في الهواء، هو أمر لافت للنظر تماماً في عملية تنظيم حركة النقل في المدن الهندية، لا سيما عندما تصبح مسارات الدراجات الهوائية جزءاً متكاملاً من البنية التحتية للمواصلات في المدن الأوروبية والأمريكية. فهناك

في مدينة نيويورك مثلاً، خطط لجعل التنقل بالدراجات الهوائية مريحاً وآمناً بشكل أكبر مما هو عليه الآن، وذلك كوسيلة للمساعدة على تقليص استخدام السيارات في المدينة.

وعلى الرغم من الانتكاسة التي لحقت بمشروع مدينة بومباي الجديدة، فإن جي.بي. دسوزا لم يستسلم البتّة، وهو يحاول عمل شيء ما لفقراء بومباي الكادحين. وكان قد حدثني العام الماضي عن مشروع آخر أكثر تواضعاً كان يعمل على تنفيذه: مجمع سكني ثمنه معقول في ضاحية غورغاون الشمالية من مدينة بومباي، كان متوجهاً إلى موقع المجمع السكني لحضور اجتماع لمجلس الإدارة في اليوم الآتي، وسألته إن كان بإمكاني أن أرافقه، فكان كريماً جداً ليرد بالإيجاب. والدكتور جي.بي دسوزا في الثمانينيات من عمره الآن، ولكنه ما زال متقد الذهن وملتزماً بالولاء لبومباي مثلما كان دائماً. وانطلقنا من شقته في باندرا حيث ركبنا سيارة صالون بيضاء تقليدية قديمة من طراز امباسادور، شمالاً إلى غورغاون. وقال لي ونحن في الطريق: إن الناشطة مارينال غور كانت قد بادرت إلى طرح المشروع في وقت يعود إلى السبعينيات، إلا أنها طلبت منه أن يتولى العمل على تنفيذه. فذهب إلى رئيس وزراء ولاية ماهارشترا، وطلب شراء أرضٍ رخيصة الثمن، كانت تعرض للبيع في غورغاون مقابل خمسٍ وعشرين روبية للفدان الواحد. واستغرق الأمر اثني عشر عاماً من أجل إنهاء المعاملات الإدارية المعقدة للترخيص للمشروع عبر الإدارات المحلية. وكانوا يعتزمون بيع الشقق مقابل (2.5) لاك (نحو 3,750 دولارات)، غير أنه بحلول الوقت الذي انتهى فيه بناء الشقق فعلياً، بلغت تكلفتها (3) لاكات، أو ثلاثمئة ألف روبية. وقال لي: إنهم يبيعونها اليوم مقابل ثمانية لاكات للشقة، وتعادل ثمانية لاكات زهاء (20,000) دولار، وهذا جزء صغير من سعر السوق الذي يجري طرحه. وتتراوح مساحة الشقق ما بين 280 إلى 320 قدماً مربعة، وهي مقسمة إلى غرفتين. وتباع شقة بذاك الحجم تقع جنوب بومباي وفي منطقة جميلة مقابل 200,000 دولار.

مررنا في طريقنا بمجمع حديث للتسوق اسمه «ذي هاب». وكان يضم دوراً متعددة للسينما ومطعماً تابعاً لشركة ماكدونالد للوجبات السريعة يمكن رؤيته من الطريق العام. وكانت أعمال توسيع الطريق قائمة، وهو يتألف الآن من أربعة مسارب. وكانت تشاهد فوق رأسينا الأجزاء الداخلية المفتوحة لأكواخ صغيرة من الآجر، قائمة على تلة جرى تقطيعها

بشكل مرتب. ومهما كانت الآلة التي قامت بعمليات الحفر أو فتح الطرقات، فقد قامت أيضاً بشق هذه المساكن الصغيرة من منتصفها بالضبط. وسالت مياه وقاذورات مجارير الصرف الصحي نزولاً من جانب التلة. وانعطفنا في سيرنا عن الطريق العام واتجهنا نحو المجمع السكني. ومررنا عند تقاطع للطريق بنساء وأولاد ينقلون حمولات من الحصى داخل سلات من القش فوق رؤوسهم من أجل رصف الطرقات. وهم من فلاحي إقليم راجستان، وكانت النسوة يرتدين تنانير مزمومة، وملابس الساري الحمراء غير المتقنة ومجموعات من الأساور البلاستيكية المصنوعة من العاج المُزيف. وبدت هذه الأزياء غريبة جداً في ضواحي بومباي البعيدة. وكنا قد مررنا عند زاوية الطريق بحانة ومطعم يطلق عليهما اسم «باريس».

وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الجهة التي كنا نقصدها كان النهار قد تأخر وكان الطقس حاراً. وبدت أمامنا عند سفح تلة عالية أبنية سكنية أنيقة قائمة على ارتفاع شاهق. وسألت جي.بي.دسوزا عنها، فأبلغني أنها كانت مشروعاً إعمارياً فخماً نفذته شركة راهيجا الكبرى للبناء والتعمير. ومن الواضح أن العمل كان جارياً على إنشاء طريق جديد كلياً لربط المجمع السكني الجديد بمنطقة «ناڤي مومباي» خلف التلة.

وصلنا إلى المجمع، وبينما كان السيد دسوزا يدخل إلى الاجتماع الذي جاء لحضوره جعل مهندس المواقع كيشور جوشي يأخذني في جولة في المكان. قال لي السيد جوشي: إن اسم المؤسسة التي قامت ببناء المجمع هو ناغاري نيوارا Nagari Niuara ومعناها «مأوى أهل الريف». وقال: إن الشقق كانت مخصصة لأناس يكسبون ما بين (1.50) إلى (3) أو (4) ليخات سنوياً. وكانت هناك أربعة آلاف شقة. وقمت بإجراء عملية موازنة بين هذه الشقق التي بنيت بموجب برنامج المعونة المالية للحكومة واستغرق بناؤها عشرات السنين، وبين عشرة ملايين شخص يعيشون في أحياء بومباي الفقيرة. وفي حين تمثل مؤسسة ناغاري نيوارا جهداً نبيلاً يبذل من جانب بعض المتطوعين المخلصين المتفانين، فإن المدينة سوف تحتاج إلى العمل بشكل أفضل كثيراً إذا ما كان لها أن تحل أزمة الإسكان الحادة التي تعانيها. وقال لي السيد جوشي: إن ما يصل إلى عشرة أشخاص يعيشون في الغرفة هنا، وهو النمط المتعارف عليه لإشغال المساكن في بومباي.

ثم قمنا بزيارة شقق تمر بمراحل مختلفة من الإنجاز. وكانت مبنية بالكامل من الإسمنت. ولم يكن الخشب مستخدماً تقريباً: فهو مكلف جداً؛ ولأن الجدران كانت مصنوعة من الإِسمنت المسلح فقد كان يجب وضع الأنابيب والخزّانات الخاصة بالصرف الصحي وقنوات الأسلاك الكهربائية بداخلها سابقاً. وكانت الممرات ما بين الأبنية ممهدة بشكل تقريبي. وكانت السيارات والدراجات النارية متوقفة في محيط الطوابق الأرضية. وعلقت الثياب المغسولة لتجف من النوافذ محكمة الإغلاق بالقضبان الحديدية. وأخذني السيد جوشي إلى قسم أرقى وأحدث داخل المجمع، حيث كانت تباع الشقق التي تبلغ مساحتها (450) قدماً مربعة وبغرفة نوم واحدة بسعر تسعمئة روبية أو زهاء 22,000 دولار. وقد أقر بأن عدداً كبيراً من الناس اشتروا الشقة من أجل تأجيرها فقط. وهم لا يعيشون هنا. ويظلون يقيمون في منطقة حيهم الفقير، حيث لديهم مجتمعهم المحلي. وتؤجر الشقق الصغيرة مقابل ألفين إلى ألفين وخمسمئة روبية شهرياً؛ أما الشقق الأكبر فتؤجر مقابل ثلاثة آلاف إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة روبية. وهو دخل جيد بالنسبة لهم».

وهناك حافلة ركاب تنطلق كل خمس عشرة دقيقة إلى عشرين دقيقة، وتصل المجمع السكني بمحطة غورغاون للسكك الحديدية، التي يستخدمها سكان الضواحي.

وقد اتجهنا لزيارة موقع حديقة عامة ستقام مستقبلاً في محيط المجمع السكني. وكان قد جرى زرع بعض أشجار النخيل فيه، ولكنه كان لا يزال في معظمه أرضاً جرداء. كان هناك إلى الأسفل وبمحاذاة المباني السكنية منطقة مفتوحة تضم خيماً مصنوعة من قماش خشن ومواقد النار المكشوفة، التي يستخدمها العمال المهاجرون لإعداد طعامهم. وقال لي السيد جوشي: إنهم جاؤوا من شمال الهند، من قرى ولاية البنجاب وكان يعملون في بناء شقق راهيجا الفخمة. وقال جوشي: إن شركته مثلها مثل كل شركات البناء تستخدم أيضاً متعهدين مستقلين، لتأمين العمالة واستقدام عمال البناء، وهذه منطقة ترانزيت. وعندما سألته عن معنى ذلك أوضح أن العمال المهاجرين سوف يقيمون في المكان مدة كافية فقط لإنجاز المشروع، ثم ينتقلون إلى المشروع الآتي. وأردف قائلاً وهو يبتسم: «وحالما يتم تعمير هذا المجمع، سوف يرحلون».

مدن جديدة لتحديث البلاد

يتوقع آي. جي مينون مدير كلية الدراسات السكانية في نيودلهي: أن تشهد المناطق العمرانية للهند الحضرية التي تشكل حالياً (28) بالمئة من عدد سكان البلاد، تلك النسبة، وقد «تضاعفت في أثناء ثلاثين عاماً»[29]. وهذا يعني أن عدد سكان الهند الذين يقطنون المدن سوف يزداد بمقدار 290 مليون شخص أو ما يعادل عدد سكان الولايات المتحدة بأسرها بحلول عام 2036. ولابد للمدن الهندية من أن تستوعب (10) ملايين ساكن جديد سنوياً، وذاك يعادل إضافة تعداد باريس أو موسكو كل عام. وسوف يحتاج سكان المدن الجدد هؤلاء إلى وسائط نقل جماعي، كما سيحتاجون إلى مساكن، وإلى نظام للصرف الصحي، ومياه، وكهرباء، ومدارس، ومشافٍ، وحدائق عامة. وهذا وضع مختلف جداً عن الولايات المتحدة، حيث انتقل العمال المهاجرون من المكسيك وأمريكة اللاتينية إلى مدن أمريكية تشكو من توقف العمل فيها، وجلبوا معهم حياة جديدة للمدارس والمهن التجارية المحلية، التي تركها أصحابها بعد تردي وضع مزارع الأسر المحلية، أو انتقال أشغال الصناعات المحلية إلى مكان آخر.

ويعتقد آي. جي. مينون كما كان يعتقد فريق كورّيا، ميهتا، وبيتل ودسوزا في السبعينيات، أنه بالنظر إلى النسبة المتسارعة للنمو العمراني في الهند والحالة السيئة جداً لمدن الهند الكبرى في الوقت الراهن، فإن الحل الوحيد هو بناء مدن جديدة. أما كلفة مثل هذه العملية فهي تفوق إلى حد كبير جداً قدرات الحكومة الهندية. ويجب على القطاع الخاص أن يلعب دوراً مركزياً في هذا المشروع، غير أن نطاق العمل أكثر مدعاة للخوف من أي وقت مضى.

إن موكيس أمباني لا يرهبه هذا الأمر. فرئيس شركة ريلاينس للصناعات المحدودة (RIL) -أكبر شركة قطاع خاص في البلاد ينوف رأسمالها في السوق على (35) مليار دولار- يخطط لإنشاء اثنتين من المدن الكبرى، ومن الصفر، واحدة بالقرب من بومباي وواحدة قرب دلهي، وستكون هاتان المدينتان حسب تصور أمباني، جزءاً من نظام بيئي اجتماعي واقتصادي يربط المناطق الزراعية الريفية للهند بالتجمعات العمرانية للبلاد. وسيزود النظام البيئي الجديد الأعداد الفقيرة من السكان في المناطق الحضرية بما يحتاجونه وما يطلبونه، وسيقدم للملايين من أهل الريف الخدمات والفرص التي ستتيح لهم أن يتشبثوا بالبقاء في موطنهم، مما يخفف بعضاً من تدفق سكان الأرياف المحرومين على المدن.

التقيت آمباني في العام الفائت في مكاتبه المتواضعة بجوار منطقة «ناريمان بوينت Nariman Point» في بومباي؛ لأعرف رأيه في الهند في هذه اللحظة من عملية التغيير المتسارعة. وكانت هناك لوحة تجريدية نابضة بالحياة بالألوان الحمراء والبرتقالية المتألقة بريشة الفنان رازا في البهو في الخارج. وكانت هناك أيضاً صورة فوتوغرافية ملونة كبيرة لوالده دهيروبهاي آمباني، شبيهة بتلك التي رأيتها في مدرسة «DAIS»، معلقة على أحد الجدران. وعندما جلسنا على أرائك منجدة بيضاء مريحة، شاركني آمباني رؤيته للهند الناهضة. وتكمن في صلب تلك الرؤية ضرورة «إيجاد قوة شرائية وتحويل فقراء الهند إلى مستهلكين».

ويقتدي آمباني بوالده الذي تشكل مهنة تحوله من الفقر إلى الغنى، موضوع الأسطورة الهندية الحديثة «كان والدي يقول دائماً: إن السبيل لإيجاد الأهمية هو إيجاد شيء من لا شيء. وهذا ما فعله مع شركة ريلاينس. ففي حقبة سيطرت فيها المؤسسات العائلية المتوارثة على المشهد التجاري في الهند، بدأ دهيروبهاي آمباني عمله شخصية نكرة لا قيمة له، ولا يملك شيئاً. وعمد إلى تطوير شركة ريلاينس عن طريق القيام بقفزات صغيرة جداً محولاً الشركة من مصنع منتج للألبسة إلى شركة نسيج، إلى مصنع للبوليستر، وأخيراً إلى مالكة لأكبر مصفاة للنفط في الهند، وثالث أكبر مصفاة في العالم. وتم بناء المصفاة في وقت قياسي، ثلاث سنوات، فحولت الهند من مستوردة إلى مصدرة للمشتقات النفطية. كما أنشأت الشركة فروعاً لها في مجال أنظمة الاتصالات السلكية واللاسلكية؛ وكان حلم دهيروبهاي آمباني أن يجعل بإمكان كل إنسان في الهند أن يجري اتصالاً هاتفياً بسعر أقل من سعر بطاقة بريدية. وقد تحقق ذلك الحلم في العام الماضي.

ورث آمباني كلاً من طموح أبيه الذي يتجاوز المألوف في حجمه، والتزامه بخفض التكاليف إلى مستوى يكون متيسراً لكل مواطن هندي. ولا يعرف مشروعه أي حدود: فهو يؤمن أنه بتغيير الهند يستطيع تغيير العالم. وهو يركز على ما هو ليس أقل من إحداث تحول جذري في بلاده سوف يقوم يوماً ما -عاجلاً وليس آجلاً، إذا ما كان لآمباني علاقة به- بتغيير العالم. وهو يعرف أنه يجب عليه لإنجاز ذلك ألا يقوم فقط باختراع نموذج جديد، بل عليه أن ينجزه بسرعة، وعلى نطاق ضخم.

وتعتمد خطة آمباني لإحداث تحول في الهند على ثلاث ركائز: إحداث ثورة في الزراعة والبيع بالتجزئة، إنشاء مدن جديدة؛ وضمان أمن الطاقة في الهند.

وبحلول عام (2011)، سوف تستثمر شركة ريلاينس (5) مليارات دولار في إيجاد نظام توزيع يربط المزارعين عن طريق البر بمخازن البيع بالتجزئة المتنوعة الصغيرة والكبيرة أيضاً، وجميعها تستخدم أحدث وسائل التكنولوجيا. ويمثل التصور الذي وضعه نوعاً من الارتباط ما بين النموذج الذي تطرحه الشركة الهندية للتبغ ونموذج شركة بهارتي، ولكن مع تحقيق تطور فريد من جانب شركة ريلاينس ووفقاً لمقياسها المتميز الذي لا يمكن لأحد تقليده. وتقضي الخطة بتوليد (20) مليار دولار في شكل صادرات زراعية سنوياً، بالإضافة إلى تموين الآلاف من المتاجر بالسلع في ألف وخمس مئة بلدة ومدينة في أنحاء الهند. وسوف يقوم زهاء سبعين مركزاً للتوزيع بتلقي وإرسال الكميات المتدفقة من المنتجات الصادرة والإمدادات الواردة. ويرى آمباني على الصعيد الداخلي أنه سيكون هناك عائد بقيمة 25 مليار دولار في المبيعات السنوية إضافة إلى تأمين مليون وظيفة جديدة.

وثمة احتمال لحدوث الكثير من الاضطرابات. ويدرك آمباني المخاوف القائمة بصدد مصير الآلاف من البقاليات الصغيرة التي تمتلكها وتديرها الأسر، واحتمال توقفها عن العمل مستقبلاً وعجز العديد من المزارعين عن تحقيق النجاح؛ وهو يرى هذه المبادرة بوصفها «التبلور الكامل لفلسفتنا الأساسية التي تقول: «تشارك وازدهر». وكان قد ناشد الفريق الإداري لشركة ريلاينس لإيجاد حلقة طيبة من الازدهار، تؤدي عناصرها إلى تحقيق المنفعة المتبادلة، وذلك عن طريق إدخال المزارعين، وأصحاب المتاجر الصغيرة والمستهلكين في علاقة شراكة ربح متبادل ومؤكد. وهو يأمل أيضاً بأن تؤدي التغييرات التي ستحدث في قلب الريف الهندي إلى إيجاد مداخيل أعلى، ومدارس جيدة، ومرافق للرعاية الصحية، وفرص للتسوق والتسلية ستمنع عدداً كبيراً من الناس من الهجرة إلى المدن الكبرى الأمر الذي كانوا سيفعلونه في حال كان الوضع خلاف ذلك. ومع ذلك، ومع حدوث عمليات التحول والتغييرات التي يتوقعها، فإن الملايين من الناس سوف ينتقلون من المناطق الريفية باتجاه المدن. وهو يعلم أن مدن الهند مكتظة كلياً بالسكان على نحو يتجاوز طاقتها على الاستيعاب وأن بنيتها التحتية غير قادرة على التعامل مع الأعداد التي لا بد من أن تتحملها الآن. وهو

يعلم أيضاً أن التعامل مع الأمور الصعبة عبر المصالح المترسخة وتعقيدات البيروقراطية والمعاملات الإدارية يستغرق وقتاً طويلاً، وهو وقت لا تملكه الهند. ولدى آمباني حل بسيط: بناء مدن جديدة.

سوف تنفق شركة ريلاينس (11) مليار دولار، وهو أكثر مرتين من المبلغ الذي تستثمره في إصلاح الاقتصاد الزراعي للهند، ما بين الوقت الحاضر والعام (2010)، وذلك لبناء مدينتين حديثتين. وباستغلالها للشروط السخية المقدمة من حكومة الهند للشركات التجارية، التي ترغب بإقامة مناطق اقتصادية خاصة، فقد حصلت شركة ريلاينس على (140) متراً مربعاً من الأراضي الزراعية إلى الجنوب الشرقي من بومباي بمبلغ يعادل جزءاً يسيراً من ثمن الأراضي في المدينة، حيث يجري بناء مطار جديد بالقرب منها. كما يجري إدخال كل البنى التحتية الضرورية. ويصطف المستثمرون بانتظار دورهم ليكونوا جزءاً من المشروع التجاري. كما يرى آمباني هنا أيضاً أن النشاط الاقتصادي سيدر ما قيمته (25) مليار دولار سنوياً. وتمتلك شركة ريلاينس الضمانات اللازمة لجني مبلغ كبير من المال: وسوف يكون عائد الاستثمار في الأرض وحدها استثنائياً وضخماً جداً. كذلك يجري الإعداد لإنشاء مدينة مماثلة بالقرب من دلهي.

أما الركيزة الثانية في عملية التحول الخاصة بالهند فسوف تتمثل في ضمان أمن الطاقة في البلاد عن طريق توسيع مخزونها النفطي وصقل القدرات في حين يجري في الوقت نفسه التقليل من اعتمادها على وقود الفحم الحجري. وتجري شركة ريلاينس بحوثاً على بعض الزيوت النباتية مثل زيت نبتة الـ «جاتروفا» Jatropha والسيليلوز كمصادر للوقود الحيوي. ويبدو هذا طموحاً مثيراً للدهشة بالنسبة لمالك مصفاة لتكرير النفط في الهند. كما يقوم آمباني باستثمار (6) مليارات دولار لتوسيع مصفاة النفط العائدة لشركة ريلاينس في مدينة جامناغار بولاية غوجارات لجعلها الأكبر في العالم.

وتقوم شركة شيفرون كذلك بالاستثمار في مشروع التوسعة، حيث تستحوذ على حصة بنسبة (5) بالمئة في الوقت الحاضر مع إمكانية زيادتها إلى (29) بالمئة. وقد قررت الشركة الأمريكية أن من المعقول تجارياً على نحو أكبر الاستثمار في مصفاة النفط التابعة لشركة ريلاينس في الهند، ونقل المنتجات النفطية من هناك إلى الولايات المتحدة بوساطة سفن

الشحن، بدلاً من الاستثمار في زيادة المقدرة على التكرير في الولايات المتحدة أو أوروبة، حيث تجعل قيود الحفاظ على البيئة من إقامة مصفاة تكرير جديدة مسألة أصعب ومكلفة أكثر. وتقوم شركة شيفرون بالتنقيب عن النفط بصورة نشطة في بنغلاديش. ومن المرجح أن تشكل مصفاة نفط جامناغار المملوكة لشركة ريلاينس الجهة المحتملة من أجل تكرير ذلك النفط إذا ما تحقق العثور عليه. وستكون الآثار الجيوسياسية لهذا النوع من التحول في المقدرة على تكرير النفط باتجاه الهند مثيرة للاهتمام.

وكنت قد قمت بزيارة مصفاة تكرير النفط العائدة لشركة ريلاينس منذ عدة سنوات. وكان أبرز ما في الزيارة نزهة ليلية في سيارة جيب مكشوفة، عندما كان المكان يتلألأ بالأضواء كشجرة عيد الميلاد، ويمتلىء بالحركة ومعها أزيز ألف من خطوط التوتر العالي. ويحيط بالمصفاة الضخمة بناء كبير مزروع بالملايين من الأشجار، وكلها تسقى عن طريق الري بالتنقيط، بالمياه المتخلّفة عن تبريد المنشأة الصناعية. وتعد جامناغار جزءاً قاحلاً من الهند. وللحصول على المياه اللازمة لعمليات المنشأة قامت شركة ريلاينس ببناء معمل لإزالة ملوحة المياه. وأثناء موسم الجفاف، تقوم مصفاة التكرير بتزويد مدينة جامناغار وغيرها من القرى المجاورة بالمياه.

ونتيجة لخبرته في مجال التحلية فإن آمباني ليس قلقاً من حدوث نقص في المياه في الهند. «فالهند هي إحدى الدول القليلة المحاطة بمياه البحر من كل جانب. ولقد برهنا سابقاً أن بإمكاننا إجراء عملية تحلية المياه. قالها بثقة. وكانت السلطة المحلية للمياه في المدينة قد وافقت على بناء معمل للتحلية من أجل إمداد مدينة تشيناي بالمياه المحرومة منها وذلك في عام (2005). مع إرساء العقد على شركة البنى التحتية (TVRCL) التي تتخذ من حيدر آباد مقراً لها. وافتتح «المعهد الوطني لتقانة البحار» في الهند أول معمل لتحلية المياه عند درجة حرارة منخفضة في جزر لاكشادويب التابعة للبلاد. وفازت شركة (Tata) بعقد لإنشاء معمل للتحلية لتأمين المياه لمفاعل نووي في ولاية تاميل نادو. وكما أكد آمباني فإن عمليات التحلية هي الآن في سبيلها إلى تزويد الهند الفقيرة، بالمياه، بهدف تلبية الاحتياجات المتزايدة منها.

وسألته عن الجوانب السلبية، وعما إذا كانت هناك من عوائق رآها تحول دون إنجاح رؤيته الرائعة لمستقبل الهند. فقام على الفور بوضع إشارة (P) على لائحة تضم: «التعليم، قائلاً: نحن لا نستثمر في حقل التعليم. وهناك طموح هائل يحرك الأمر بأكمله في هذه الآونة، ويشكل حافزاً له، لكننا بحاجة إلى المزيد من التعليم. التوظيف: أوجدت تكنولوجيا المعلومات مليون وظيفة. وأحدثت أثراً في الأمة كلها. ونحن الآن في طريقنا إلى دخول قطاع المعرفة الشاملة في السنوات العشرين المقبلة، وسوف نقوم بإيجاد مئة مليون وظيفة. كما سنقوم بزيادة الرقم من هناك إلى مئتي مليون». وتوقف عن الكلام حتى أتمكن من إنجاز تدوين مقتطفات من حديثه. «سوف أعطيكِ مثالاً. بالنسبة لتوسيع العمل في مصفاة تكرير النفط في جامناغار، لم نتمكن من العثور على عمال اللحام المؤهلين الذين كنا بحاجة إليهم، لذا فإننا نقوم بتدريب خمسة عشر ألف عامل لحام لهذه المهمة. ثم هناك التوظيف الذاتي أو من يعمل لحسابه من أصحاب المهن الحرة، فالمزارع قد يحصل الآن على أربع روبيات ربما ثمناً لما ينتجه ويباع في ساحة السوق مقابل مئة وعشرين روبية. وإذا ما جعلنا القطاع الريفي ينمو، فإننا نستطيع أن نوجد نموذجاً جديداً يعزز الوضع المادي للمزارعين. والزراعة عن طريق العقود لن تنجح في الأمد الطويل. فأنت تحتاجين إلى إعطاء هؤلاء الناس قوة شرائية. ونحن سنقيم اتصالاً ما بين الناس الذين يزرعون التفاح وبين الأشخاص الذين يريدون شراءه. وليس هناك ما يربط بينهم في اللحظة الراهنة».

وأخبرته بأمر الأشخاص الذين كنت قد التقيتهم في ڤيداربها، حيث لم يتمكن حتى الذين كانوا يحصلون على المياه من ضخها داخل حقولهم لعدم توفر الكهرباء لديهم. وقد فاجأني مرة أخرى قائلاً: «علينا أن نتوقف عن الحديث عن شبكة خطوط كهربائية، وكاد فكي يسقط من الدهشة. لم أستطع أن أتخيل مديراً تنفيذياً لشركة نفط في الولايات المتحدة يقول هذا الكلام. وتابع قائلاً: «انسِ وقود النفط». «خذي كتلة حيوية واستخدميها لتوليد الكهرباء. كل واحد لديه مولد الكهرباء الخاص به. وعليك أن تقطعي السلك. اعملي عن طريق الاتصالات اللاسلكية. لقد قمنا بذلك في الهند مع وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية. وسوف نقوم بتكرار الأمر مع التيار الكهربائي». وهذه بالتأكيد إحدى السبل

التي يتصور عبرها آمباني كيفية تغيير النموذج المثالي فيما يخص الذي يمكن أن يغير العالم بأكمله.

وسألته عن التحدي الأكبر الذي يواجه الهند فأجاب: «إن أكبر تحدٍ نواجهه هو التحدي الذي لم يتمكن أي إنسان في العالم من إيجاد حلول له، ألا وهو زيادة الأنصاف. فهناك عبر نصف قطر طوله خمسمئة متر من مكان إقامتي، فارق في الدخل يبلغ واحداً إلى مليار. وهذا ليس مقبولاً.

وتفقد آمباني ساعته لمعرفة الوقت؛ وبدا وكأنه بحاجة إلى إنهاء المقابلة، ولكن كان لديه شيء واحد أخير، أراد أن يقوله: «سوف يكون هذا الجيل هو الجيل الذي سيصنع الهند أو سيشوهها، وهذه هي فرصتنا. فنحن مدركون للمشكلات على الأقل، ولما يجب علينا القيام به من أمور، وأنا أقول لأصدقائي الأمريكيين: إن الاستقواء على الأضعف لا طائل منه. امنحونا بعض الوقت. إنني أرى أننا نقوم بإعادة التوازن إلى العالم. فقد كان خمسة عشر بالمئة من الناس يسيطرون وعلى مدى زمن طويل جداً على خمسة وثمانين بالمئة من الثروات. وقد حان الوقت لإعطاء نسبة الخمسة والثمانين بالمئة من الناس فرصتهم. ولقد حقق عشرون بالمئة فقط من البشر تقدماً حتى الآن بالفعل. وإذا ما تمكنا من رفع هذه النسبة إلى سبعين بالمئة، فإننا سنكون قد أنجزنا شيئاً. وسوف تحدد هذه السنوات الخمس والعشرون ما إذا كنا سنحقق الفشل أم النجاح من دون أية مساعدة. إن هذا زمن فيه من الإثارة الكثير. ونحن محظوظون جداً بأن نكون مشاركين فيه».

وعاد فتفقد الوقت ناظراً إلى ساعته، وقال وهو يبتسم معتذراً: «عليَّ أن أساعد ابني في إنهاء وظيفته المدرسية. لقد وعدته. ونهضنا عن الأرائك. كان يرتدي بنطالاً أسودَ اللون وقميصاً أبيضَ له حزام عند الخصر. وصافحته وتمنيت له التوفيق: بطريقة أو بأخرى سيقوم موكيش آمباني وشركة ريلاينس، أكثر من أي رئيس شركة آخر بمفرده أو شركة أخرى بمفردها، بإحداث تغيير في الهند. وبتغيير الهند وفقاً للمقياس المقترح من قبلهما، فإنهما لابد سيكون لهما تأثير ملحوظ على كوكبنا.

الفصل السادس

الهند الأخرى

استغرق الأمر بأوروبة والولايات المتحدة أكثر من ثلاثة قرون لاختبار ثلاث ثورات صناعية متتالية: ثورة التصنيع، وثورة الخدمات، والثورة الرقمية. وترك الملايين من الفلاحين الأوروبيين بيوتهم وهاجروا إلى المدن، حيث تجمعوا بأعداد كبيرة في الأحياء الفقيرة، وعملوا مقابل أجور زهيدة في المصانع الحديثة. وانتقل الملايين مسافة أبعد إلى الولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، ودول أمريكة اللاتينية بحثاً عن الأرض والفرصة المواتية. وأوجدت الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها أوروبة، أيديولوجيات سياسية جديدة كان لها تأثيرها الهائل؛ كما أوجدت تنافساً شديداً على مصائر الأمم وعلى النظام الدولي، وتوسعاً استيطانياً عدوانياً، وثورات دموية، وحروباً رهيبة.

وتختبر بلاد الهند الثورات الصناعية الثلاث جميعها في آن واحد. ومع تسارع عصر المعلومات يتم تحويل البلاد من مجتمع زراعي قديم إلى مركز حيوي حديث للتصنيع ومزود خدمات عالمي. وسوف يتحول بعض الهنود في غضون بضع سنوات فقط من فلاح عادي إلى خبير كفي في مجال تكنولوجيا المعلومات. وتشكل عملية تحول الهند إلى مجتمع استهلاكي تهديداً للقيم الأساسية، وتطرح تحديات أمام الهويات القديمة. ويجري الدفع بالناس بعيداً عن عالم يفهمونه باتجاه عالم لا يزال يجب عليهم أن يقوموا بالتعرف إليه.

لا بد أَن الضغط الناجم عن هذا الوضع كان هائلاً بالنسبة للبنية الاجتماعية للهند. فالهند تعاني تخريباً مبتكراً يقود على نحو حتمي إلى العنف الاجتماعي، الذي يتراوح ما بين الاقتلاع الوحشي للناس من أراضي أجدادهم إلى حيرة الأهالي الذين يشعرون بأن أولادهم ينقلبون على التقاليد. فالحدود الخاطئة العديدة للمجتمع الهندي-الانتماء الطبقي، النوع الاجتماعي، الديانة تشكل تهديداً لنجاح البلاد. وفي حين تتسارع وتيرة التغيير، و يستمر

أولئك الذين يعانون المعاناة الأكبر من هذا الوضع، في امتلاك الصلاحية الأقل للتحكم في مصائرهم، يزداد احتمال حدوث تمرد تام من قبل فقراء الهند، واحتمال حدوث عمليات حربية دينية وطبقية. ويراقب الملايين من فقراء الهند الصعود الباهر والفجائي للطبقات الاجتماعية من أصحاب الامتيازات، ويتساءلون ما إذا كانت فرصتهم في طريقها إليهم.

وعدا عن الأعداد المحدودة من العمال الذين يتوجهون إلى الخليج العربي، فإن الهند ليس لها من مكان آخر ترسل إليه فائض السكان الذين تنقصهم الكفاية والمهارات، ويحتاجون إلى التوظيف وإلى التماس سبل العيش. وليست هناك من قطع واسعة من الأراضي بانتظار استقرارهم فيها على كوكبنا، على افتراض أن الهنود كانوا يرغبون في الهجرة، مثلما فعل الكثيرون من الفلاحين الأوروبيين. وليس بمقدور الهند توسيع نطاق الموارد الطبيعية المتاحة للغزو الإمبريالي، كما فعلت أوروبة. ومع توافر أراضٍ وموارد محدودة فإن على الهند إيجاد طريقة لتأمين حياة معقولة لشعب يصل عدد سكانه الآن إلى (1.2) مليار، ولن يتوقف عن الزيادة حتى يصل إلى (1.6) مليارٍ.

وبالنظر إلى التباينات الحادة والخلل الثقافي الذي تعانيه الهند، فإن الأمر المثير للذهول هو أنه ليست هنالك من ثورة متفاقمة. فالناس يتابعون أعمالهم معظم الوقت على نحو هادئ تماماً. وعادة ما يتكاتف الهنود من شتى المذاهب الطبقية والدينية ويتضامنون، ويساعدون بعضهم بعضاً في أوقات المحن. وقد فعلوا ذلك عشية الهزة الأرضية المريعة التي دمرت ولاية غوجارات في عام 2001. أثناء الفيضانات الموسمية التي شهدتها بومباي عام (2005)، وفي أعقاب العديد من الهجمات الإرهابية التي استهدفت البلاد في السنوات الأخيرة. إلا أن انعدام المساواة على نحوٍ حاد في الهند بات وضعاً غير معقول وغير قابل للتبرير. وكنت أسمع طوال حياتي أفراداً من النخبة الهندية المثقفة التي تعيش في المدن، وهم يقولون بغرور نوعاً ما: «انظري إلى الأوضاع التي يعيش فيها الناس. لقد كانت ستقوم ثورة في أي مكان آخر في العالم في هذه الحال، ولكن ليس في الهند». ولقد سمعت أشخاصاً يقولون مؤخراً: إنه ما لم يتحسن نصيب الفقراء بسرعة وعلى نحوٍ جذري، فإن الناس سوف يثورون ويذبحون الأغنياء: هم لديهم أجهزة تلفاز الآن، كما تعلمين. وبإمكانهم أن يتابعوا مشاهدة الحياة التي حرموا منها.

النظام الطبقي المتوارث

ولد بيتر اوزنوس مؤسس دار «بابليك أفيرز بوكس» للنشر Public affairs Books في مدينة بومباي في أثناء الحرب العالمية الثانية، من أبوين من المهاجرين اليهود الذين هاجروا من أوروبة الشرقية. وعندما أطلعني على شهادة ميلاده الهندية، كانت هناك مطبوعة على السطر بعد عبارة الطبقة الاجتماعية كلمة «بولندي». وكان من غير المتصور وعلى نحو واضح بالنسبة للطبيب أو الموظف الإداري في المستشفى حيث ولد أوزنوس أن يترك السطر الخاص بالطبقة غفلاً من الكتابة.

الهند مجتمع قائم على تسلسل المراتب على نحو هرمي وصارم، حيث يعمل النظام الطبقي على ترتيب البشر من المرتبة الأدنى إلى المرتبة الأعلى، ويخصهم بأدوار اجتماعية محددة. ويستنزف التسلسل الهرمي للطبقات الاجتماعية كل أوجه المجتمع الهندي، ولا يستثنى من تأثيره من لا ينتمون إلى الهندوس، بمن فيهم المسلمون والمسيحيون، مع أنهم خارج هذا النظام الطبقي. وهناك بعض المجتمعات المحلية المسيحية التي مضى على تأسيسها زمناً طويلاً في الهند تحترم الفروقات الطبقية وتتقيد بالنظام المتبع بشأنها. ويعد الهنود من بين أكثر شعوب العالم تأثراً بموضوع المكانة الاجتماعية. فالمرتبة لها شأنها في الهند، وتتحكم في دقائق الأمور المرتبطة بالتفاعل الاجتماعي بين الناس(1). ويعتبر الطابع المألوف للتفاعل الاجتماعي في الولايات المتحدة، حيث يستطيع الطلاب أن يخاطبوا مدرسيهم، والموظفين رؤساء شركاتهم باسمهم الأول، أمر مخجل تماماً في الهند. ويتمتع الهنود من أصحاب المراكز الاجتماعية المرموقة بمزايا معينة وبأسلوب حياة معين، دون ذوي المكانة الاجتماعية الدنيا، ويتقبل الكثيرون في كلتا المجموعتين هذا الوضع بوصفه الترتيب الطبيعي.

عمد البريطانيون إلى تصنيف قوانين النظام الطبقي الاجتماعي في الهندي المعقد والمتفرع إلى ما لا نهاية تقريباً، إلى فئات مبسطة لغايات إدارية. وقامت الحكومات الهندية المتعاقبة التي شُكلت بعيد الاستقلال بالتوسع في تحديد فئات الطبقات الاجتماعية. وهو أمر معقد فعلاً. وقد أدرجت لجنة ماندال التي كلفت بتطبيق برنامج عمل إيجابي لصالح هنود الطبقة الاجتماعية الدنيا، ثلاثة آلاف طبقة اجتماعية تحت مسمى «طبقات متخلفة

أخرى » «Other Backward Castes» وذلك في توصياتها التي أصدرتها في عام 1990. وقد يطلب من الهنود لدى ملء الاستمارات الحكومية، وطلبات الحصول على وظائف أو القبول في المدارس، يطلب منهم ذكر طبقتهم الاجتماعية.

وفي كثير من الأحيان، تكون الطبقة الاجتماعية للإنسان واضحة من اسمه. فاسم ترايڤيدي هو اسم برهمي*. وبالميكي هو اسم متداول بين أبناء طائفة الداليت. أما اسمي أنا، كامدار، فهو تسمية لها علاقة بنوعية المهنة. فحتى عهد يعود إلى المدة التي كان فيها جدي الأكبر حياً، كان أجدادي يعملون في حاشية أمراء كاثياواد في ولاية غوجارات. وكانوا مسؤولين عن إدارة الأشغال العامة: شق الطرق، ترميم وإصلاح القصور، والتنقيب عن مخزون المياه. وتعني عبارة kam «عمل» والكامدار Kamdar هو الشخص المسؤول عن العمل. وطبقتنا الاجتماعية هي ڤايشا، طبقة التجار المولودة من أفخاذ البراهما، وذلك وفقاً لما ورد في الأسطورة الهندوسية. وقد انبثق أتباع البراهما** عن فم البراهما، ومن هنا مهنة طبقتهم الاجتماعية في تلاوة أبيات دينية مقدسة. ونهضت طبقة المحاربين «كاترياس» Khatryas من أذرع البراهما. وأُخذت طبقة عمال المهن اليدوية والحرفيين المسماة «سودراس» «Sudras» من أقدام البراهما. ويعرف أي مواطن من ولاية جوغارات ومعظم الهنود، المكانة الاجتماعية لعائلتي من اسمي على الفور.

وتؤلف طبقة الداليت التي كانت تسمى سابقاً طبقة المنبوذين، أو الطبقات الاجتماعية المُدرجة في الجداول الرسمية (16) بالمئة من الشعب الهندي. وتمثل القبائل المدرجة وهم السكان الأصليون للمنطقة الذين من الأنسب حالياً تسميتهم «اديڤاسيز» Adivasis تمثل (7) بالمئة فقط من التعداد العام. أما الطبقات المتخلفة الأخرى (OBCs) فهي تشكل الغالبية العظمى؛ وينتمي (52) بالمئة من مواطني الهند إلى «الطبقات المتخلفة الأخرى». ويصل مجموع هذه الفئات الثلاث من الطبقة الاجتماعية الأدنى إلى (75) بالمئة من عدد سكان الهند.

وتقدم إلى الطبقات الاجتماعية الأدنى ضمانات بالحصول على نسب محددة من الوظائف الحكومية وأماكن القبول في الجامعة. ونتيجة لذلك أصبحت التسميات الطبقية

* أحد أفراد طبقة رجال الدين الهندوس. (المترجمة)

** ما يُعرف الذات العليا – روح الكون العليا وجوهره في الفلسفة الهندوسية. (المترجمة)

مسيسة على نحو كبير[2]. فقد جرى تحقيق تحول في النظام الديمقراطي الهندي في أثناء العقود القليلة الأخيرة بظهور أحزاب سياسية جديدة، تمثل مصالح طبقات اجتماعية معينة. واتخذ التحرك الإيجابي شكل الحصص أو المقاعد المحجوزة. فكم هو عدد الوظائف الحكومية، التي يجب حجزها للطبقات المتخلفة الأخرى؟ هل يجب أن تكون هناك حصص وظيفية في القطاع الخاص مخصصة للقبائل والطبقات المدرجة؟ ما هي نسبة أماكن القبول في الجامعات، التي يجب أن تحظى بها هذه الفئات؟ فهذه قضايا تثير نقاشاً سياسياً حاداً ومواقف مشحونة على الصعيد الداخلي في الهند.

في عام 1990، وعندما اقترحت لجنة ماندال رفع نسبة الـ (22.5) بالمئة من أماكن القبول الجامعي ووظائف القطاع العام المخصصة للطبقات الدنيا إلى (27) بالمئة، كان رد فعل الهنود من أبناء الطبقات الاجتماعية الرفيعة عنيفاً. ولجأ عدد من الطلاب حتى إلى إضرام النيران في أجسادهم احتجاجاً. ويشتد التنافس على فرص التعليم والعمل في الهند على نحوٍ حاد، ويكره الهنود من أصحاب المراتب الاجتماعية العليا، أشد الكره، التخلي عن امتيازاتهم. وعلى الرغم من أنهم يشكلون أقل من (15) بالمئة من عدد السكان، فإن الطبقة الرفيعة تسيطر على المناصب الرفيعة في حقل التعليم وفي المجتمع، وتستهلك حصة غير متكافئة من موارد البلاد.

وفي عام 2006، طرحت الحكومة اقتراحاً بزيادة عدد المقاعد المخصصة لأبناء الطبقات الاجتماعية في القطاع الخاص، حيث يتزايد عدد الوظائف. وتبع ذلك نقاش مؤثر ومشحون جداً حول المسألة مع رفض قاطع وفوري للفكرة من جانب القطاع الخاص. فالشركات الهندية في بحثها عن استمرار عملياتها التجارية في جو دولي يشهد تنافساً بالغاً، تريد أن تكون غير مقيدة في توظيف أكثر المرشحين للعمل كفاية، الذين يمكنها العثور عليهم مهما كانت خلفيتهم. إن الحجة التي يسوقها أولئك الذين يقومون بالاستغناء كلياً عن التحرك على نحو إيجابي تجاه الطبقات الدنيا هو: أن النمو الاقتصادي والتعليم الأفضل للجميع سوف يحل المشكلة، مع مرور الوقت. وربما يكون هذا صحيحاً، ولكن وفي غضون ذلك، يهدد الفوارق الاقتصادية المستمرة للهند على امتداد السلالات الطبقية بالانفجار، لتتحول إلى صراع طبقي[3].

وكان رئيس الوزراء الهندي مانموهان سينغ قد حذر المؤسسة التجارية في الهند بأنها إذا ما رغبت في تفادي التخصيص الإلزامي للحصص بالنسبة لموظفي الطبقة الدنيا، فإن الأجدر بها «توظيف المال والجهد بشكل أكبر بكثير في التدريب المهني والتعليم الفني، لا سيما بالنسبة للشباب الذين يأتون من خلفية تحظى بامتيازات أقل، وضمان أن تبدأ أعداد الموظفين في إعطاء صورة دقيقة عن التركيبة الطبقية لعامة الشعب.[4] فالهند نظام ديمقراطي. ومعظم الناخبين هم من الطبقة الاجتماعية الدنيا، وهم يعون بشكل متزايد كلاً من الظلم اللاحق بوضعهم وحجم قوتهم السياسية.

القومية الهندوسية

اغتيل المهاتما غاندي بتاريخ (30) كانون الثاني «يناير» 1948، على يد ناثورام غودز، وهو قومي هندوسي كان مقتنعاً بأن الزعيم العظيم قد خان الهندوس الهنود بالتزامه بإجراء توزيع منصف للممتلكات والأرصدة ما بين الهند وباكستان عقب تقسيم البلدين. ووجهت جريمة غودز ضربة حادة إلى قضية القومية الراديكالية للهندوس، وأجبرتها على التحول إلى العمل السري عدة سنوات. ولكن وفي حين زال نفوذ حزب المؤتمر وتلاشت ذكريات غاندي، تحولت القومية الهندوسية وعلى نحو متزايد إلى قوة سياسية متنفذة في الهند. وفي أعوام الثمانينيات قام التيار اليميني الهندوسي بتعبئة الناس حول مهمة حركة «رام جانمابومي»، المسخَّرة لهدم مسجد بابرى بالكامل، وهو مسجد أقيم في مدينة آجوديا في عام 1528 تخليداً لذكرى بابور، مؤسس إمبرطورية المغول. وكان قد جرى وفي إطار المنوال الدارج في ذاك الزمن، بناء المسجد على أنقاض معبد هندوسي . وزعم المقاتلون الهندوس أن هذا المعبد بالتحديد كان يشكل دليلاً يشير إلى موقع ولادة آلهة الهندوس، راما.

في السادس من كانون الأول 1992، اقتحم المقاتلون الهندوس مسجد بابري وأعملوا فيه هدماً وتدميراً. وتفجر العنف في أنحاء الهند في حين اجتاحت البلاد أعمال شغب متبادلة بين الهندوس والمسلمين، وشملت بومباي المعروفة عادة بالتسامح والتنوع الطبقي. وجرى نهب الأحياء المسلمة في مدينة بومباي، ومطاردة وقتل المدنيين المسلمين، بينما كانوا يفرون في الشوارع أو يقبعون في منازلهم خوفاً على أرواحهم. كما تم قتل عدد من الهندوس على

يد المسلمين الغاضبين. إلا أن العنف الذي ارتكبه الهندوس كان منظماً: فقد كانوا يحظون بدعم الحكومة المحلية، التي يرأسها بال ثاكيري وبدعم حزبه، حزب شيف سينا. وقد ساعدوهم على تحديد منازل المسلمين وأماكن عملهم ومؤسساتهم التجارية والتنسيق مع أجهزة الشرطة لضمان إعطاء العصابات الإجرامية حرية التصرف.

في 12 آذار 1993، انفجرت القنابل في وسط المنطقة التجارية والمالية لمدينة بومباي من دون تمييز وقتلت المئات من الناس. وكانت عمليات التفجير التي خطط لها رئيس منظمات عالم الإجرام في بومباي داود إبراهيم تعبيراً عن انتقام الجماعات الإرهابية الإسلامية التي تتخذ من باكستان قاعدة لها، وذلك رداً على تدمير مسجد بابري والهجمات اللاحقة التي استهدفت مسلمي الهند. وما يزال إبراهيم طليقاً، ويعتقد أنه يعيش في باكستان أو في مدينة دبي.

وجرى على خلفية التفجيرات التي شهدتها بومباي في عام (1993). الربط ما بين النزاعات المحلية بين الهندوس والمسلمين في الهند والمقاتلين الإسلاميين المتمركزين في باكستان، الذين كانوا يهدفون أساساً إلى ضم إقليم كشمير الهندي إلى باكستان، الأمر الذي سيعود بعواقب وخيمة على مواطني الهند. فقد قتل الآلاف من الأشخاص وفقد الآلاف ممتلكاتهم في العديد من أحداث العنف، التي اندلعت ما بين الهندوس والمسلمين في الهند منذ واقعة مسجد بابري في عام 1992.

ووقعت أسوأ الأحداث في ولاية غوجارات في عام (2002). عندما أشرف ناريندرا مودي أحد كبار أعضاء حزب بهاراتيا جاناتا (BJP) وهو حزب قومي هندوسي مع رئيس الوزراء [ويعرف بالوزير الأول] في ولايته على إحدى أسوأ المذابح الجماعية، التي يشهدها نظام ديمقراطي في العصور الحديثة. فقد بدأت أحداث المذبحة عندما تعرّض مقاتلون من الهندوس للهجوم في طريق عودتهم على متن قطار من بلدة أجوديا بالقرب من بلدة غودرا في ولاية غوجارات. أما ما تسرب من تفاصيل صحيحة عما حدث فهو أمر يخضع لجدال عنيف، ولكن ما ينوف على خمسين شخصاً من الهندوس، بمن فيهم نساء وأطفال أحرقوا حتى الموت في عربة القطار التي كانت تقلّهم. وبعد مدة وجيزة من الهدوء، بدأت مذبحة منظمة لمسلمي الولاية. وكانت حكومة مودي متواطئة في ارتكاب المذبحة الجماعية باستخدام

اللوائح الانتخابية وغيرها من السجلات الحكومية، لتحديد بيوت المسلمين ومؤسساتهم التجارية ومراكز عملهم تماماً، كما جرى في مدينة دلهي عندما تم استهداف أفراد طائفة السيخ في أعمال انتقامية وقعت عقب اغتيال رئيسة الوزراء انديرا غاندي على يد مرافقيها من السيخ.

وفي كلتا الحالتين كانت قوات الأمن تقف متفرجة بشكل عام ولم تفعل شيئاً، بينما كان يتم سحب الناس خارج بيوتهم وذبحهم بأكثر الأساليب وحشية وقسوة. وقال أحد رجال الأمن ساخراً بطريقة مقيتة للمسلمين اليائسين، الذين كانوا يفرون أمام الغوغاء الهائجة، حسبما ورد في تقرير وافٍ وشامل يدين قوات الأمن، وذلك استناداً إلى معلومات جمعتها منظمة حقوق الإنسان «هيومان رايتس ووتش»[5]: «ليست لدينا أوامر بإنقاذكم». ولم يعاقب أي من الأفراد المسؤولين عن المذبحة، وأعيد انتخاب مودي لاحقاً بعدما حقق فوزاً ساحقاً بمساعدة الغالبية من الهندوس في ولايته.

في عام 2005، واستناداً إلى تقرير أعدته اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان في الهند حول مذبحة غوجارات، تم إلغاء تأشيرة دخول مودي إلى الولايات المتحدة بموجب المادة 212 (a) (2) (g) من قانون الهجرة والجنسية الذي ينطبق على أي مسؤول حكومي أجنبي «ارتكب مباشرة، في أي وقت، وبشكل خاص، انتهاكات خطيرة للحرية الدينية». ويقال: إن مودي في سبيله إلى التقدم بطلب للحصول على تأشيرة دخول جديدة إلى الولايات المتحدة.

تعرف ولاية غوجارات بأنها ولاية غنية تضم ثروات عديدة. وهناك الكثيرون من أهالي غوجارات الذين حققوا نجاحات في حياتهم موجودون في مناطق الشتات الهندية بما فيها الولايات المتحدة. ويعود أصل عائلتي أنا شخصياً إلى غوجارات؛ ويحظى حزب بهاراتيا جاناتا الذي ينتمي إليه مودي بدعم قوي بين صفوف الأمريكيين الهنود المحافظين، ومن ضمنهم أولئك الذين جاؤوا من غوجارات. وعندما أُلغيت تأشيرة دخول مودي كان قد دعي إلى الولايات المتحدة للتحدث أمام رابطة أصحاب الفنادق الأمريكية الآسيوية، وهي جماعة تضم عدداً كبيراً من الأمريكيين المتحدرين من ولاية غوجارات. وحتى عام (2004)، وفي أثناء وجود حزب جاناتا (BJP) في السلطة، سعى بقوة للحصول على دعم الأمريكيين الهنود حتى إنه ذهب بعيداً إلى حد تسمية بهيشما كي. اغنيهوتري، وهو ناشط يعمل مع

أصدقاء حزب جاناتا الموجودين ما وراء البحار، ومواطن أمريكي، تسميته «سفيراً فوق العادة للحزب لدى الهنود غير المقيمين والأشخاص من ذوي الأصول الهندية»، ويرمز إليهم بالأحرف الأولى «NRIs/PIOs» (NonResidentIndians/Persons of Indian Origin).

إن الموقف المتشدد الذي يتبناه الهندوس مترسخ بقوة في الولايات المتحدة، وبالإضافة إلى أصدقاء ما وراء البحار لحزب جاناتا هناك عدد وفير مما يسمى بالجماعات المناصرة للهندوسية. ويشكل جمع الأموال من الأمريكيين الهنود الأثرياء، لتنفيذ مشروعات في الهند نشاطاً أساسياً لهذه الجماعات. وبتسميتها «دولارات الزعفران» نسبة إلى اللون البرتقالي المقدس لدى الهندوس، تعد الأموال القادمة من الولايات المتحدة مورداً مهماً للدعم المادي المقدم لحزب جاناتا (BJP)، المنظمة الوطنية للمتطوعين (RSS)، ومجلس الهندوس العالمي (VHP) في الهند. وأدت محاولة للمتشددين الهندوس في الولايات المتحدة المرتبطين بمجلس الهندوس العالمي من أجل إدراج نصوص عن تاريخ الهند، أعاد كتابتها حزب جاناتا، في الكتب المدرسية المستخدمة في المدارس الرسمية في ولاية كاليفورنيا، أدت إلى وقوع جدال حاد في عام 2006. وشعر مؤرخون أمريكيون بارزون مختصون بتاريخ الهند، بمن فيهم ستانلي وولبرت من اتحاد خطوط النقل البحري VCLA ومايكل ويتزل من جامعة هارفرد، بأنهم مجبرون على المشاركة فيه(6).

وعلى الرغم من المعادلة السهلة القائلة هندي = هندوسي التي يتمنى العديد من الناس في التيار اليميني الهندوسي أن يحققها الأمريكيون الذين لا يعرفون الهند جيداً، فإن الأمريكيين الهنود هم متنوعون بتنوع الهنود أنفسهم. فهناك أعداد كبيرة من الهنود المسلمين موجودون في الولايات المتحدة وكذلك السيخ، والهنود المسيحيين، وهنود البارسي أتباع الديانة الزرادشتية والديانة اليانية (عائلتي من اليانية)؛ إضافة إلى ذلك، فإن غالبية الهندوس في الولايات المتحدة ليسوا من أنصار عقيدة الـ«هندوتفا» * Hindutva ولا من أنصار العقيدة القتالية الهندوسية. ولم يعد حزب جاناتا في السلطة على المستوى المحلي في الهند بعد الآن، غير أن التحالف التقدمي الموحد UPA الحالي هو تحالف هش. وقد

* ويعني «مهرجان الأضواء»؛ أحد أكبر المهرجانات التي تحتفل بها طائفة الهندوس، ويستمر خمسة أيام ويتم خلاله تبادل الهدايا وإطلاق الألعاب النارية وإشعال الشموع حول البيوت. (المترجمة)

أبلغني الكثيرون من الهنود أنهم متأكدون بأن حزب جاناتا سوف يعود إلى السلطة يوماً ما عما قريب، وأقوى من أي وقت مضى.

معركة الهند ضد الإرهاب

في 11 تموز 2006، دمرت سلسلة من التفجيرات بالقنابل والمنفذة بدقة شبكة قطارات السكة الحديدية للنقل في مدينة بومباي. ووقعت الانفجارات في قطارات مختلفة وفي محطات مختلفة أثناء ساعة الازدحام المسائية عندما كان من المضمون أن تكون القطارات مكتظة، فقتل مئة وستة وثلاثون شخصاً على الفور. وحاكى هذا الهجوم الفظيع على مدنيين أبرياء في العاصمة المالية للهند تفجيرات عام 1993، ودعا رئيس الوزراء سينغ إلى الهدوء.

وكانت أكثر الروايات المؤلمة في التفجيرات تتعلق بالأطفال المشردين الذين كانوا ضحايا الانفجارات. وتشكل محطات القطارات في الهند مناطق جذب بالنسبة لأطفال الشوارع، سواء لكونهم أيتاماً لسبب ما أو لأنهم كانوا قد هربوا من أسرهم. وغالباً ما يترك الأطفال الفقراء أسرهم لأنهم يتضورون جوعاً في البيت، ومعظم أطفال الشوارع في بومباي يأتون من ولايات فقيرة ومحرومة مثل بيهار وآسام.

وقد أصيب ولدان يجلسان على الرصيف في إحدى محطات الضواحي بإحدى القنابل. وقطع الانفجار الساق من جهة أسفل الركبة لصبي في الرابعة عشرة من عمره اسمه محمد. وقال إن صديقه الحميم ماليك قتل، وأطاح به الانفجار بعيداً عنه من شدته. وكان هذان الطفلان الفقيران المسلمان من ضحايا تفجير إرهابي نفذه متطرفون مسلمون محليون بمساعدة إرهابيين مسلمين يتمركزون في باكستان. ولن يعرف أبداً عدد أطفال الشوارع الذين قتلوا في الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها بومباي عام 2006. ولم تفتقدهم أي أسر عندما أخفقوا في العودة إلى البيت. ولم تكن بحوزتهم أوراق تحدد هويتهم أو هواتف خليوية بأرقام جرى طلبها مؤخراً، ولا دليل أو برهان على وجودهم.

اتهمت الحكومة الهندية الجماعة المقاتلة التي تنطلق من باكستان واسمها «لشكر الطيبة» وتسمى حالياً «جماعة الدعوة» بضلوعها في تفجيرات بومباي وحددت وجود «نوعية

عسكرية» في بقايا التفجيرات. وكانت جماعة لشكر الطيبة تقوم بشن غارات إرهابية على الهند منذ عام 1996 على الأقل. وهدأت العلاقات ما بين الهند وباكستان، حينما أعلنت الهند عن خيبة أملها إزاء تسامح حكومة مشرف مع الجماعات التي توجه ضربات إلى المدنيين الهنود بشكل منتظم وعلى أرض الهند. كما تم تحميل المسؤولية عن الهجمات إلى حركة الطلبة المسلمين المحظورة.

كان من المقرر أن يقوم مودي بزيارة إلى بومباي بعد أيام قليلة من الهجوم. وقد نفى بشدة وجود أي صلة ما بين مذبحة عام (2002). في غوجارات وتفجيرات القطارات التي شهدتها الهند عام 2006. غير أن الدلائل تشير إلى أن جريمة الإبادة الجماعية في غوجارات كانت تمثل بالنسبة لبعض مسلمي الهند نقطة تحول. فقبل المذبحة، ظل مسلمو الهند محصنين بشكل كبير ضد المقاتلين الذين ينطلقون من باكستان وضد الحركة الإرهابية الإسلامية العالمية الآخذة في النمو والممثلة على نحو سيىء بتنظيم «القاعدة». ولا تزال الغالبية العظمى هكذا. وعلى أية حال فإنه يبدو أن شبكات الإرهاب الإسلامية الدولية تقوم بارتكاب انتهاكات صارخة بإقدامها على تجنيد الهنود المسلمين في صفوفها ولا سيما الشباب؛ ويشكل هذا الوضع تطوراً ينذر باحتمالات سيئة بالنسبة للهند وبالنسبة لغالبية المسلمين في الهند الذين يعدّون أنفسهم هنوداً أولاً وأخيراً.

تم تفجير قنبلتين في بومباي عام 2003، واحدة أمام نصب بوابة الهند على الجانب المقابل لفندق تاج محل الفخم. وفي تلك الجريمة، واستناداً إلى مقال ظهر في النسخة الآسيوية من مجلة «تايم» فإن كلاً من ضباط المخابرات الأمريكية والهندية لديهم شكوك بأن حوادث التفجير التي وقعت في الأسبوع الماضي كانت من عمل المسلمين الهنود المقاتلين الذين أغضبتهم القومية الهندوسية عالية النغمة للحكومة - لا سيما عقب المذبحة المدبَّرة التي نُفِّذت عام (2002). في ولاية غوجارات الغربية، حيث قتل الهندوس ألفي مسلم، في حين وقف الزعماء المحليون وزعماء البلاد من حزب بهاراتيا جاناتا (BJP) يتفرجون عليها[7].

وتشهد الهند عمليات تفجير بالقنابل بوتيرة متكررة مخيفة وذلك منذ عام (2002). ووقعت تفجيرات بالقنابل في منطقتي ساروجيني ناغار وبهارا جاني في دلهي داخل أسواق

مزدحمة بالمتسوقين الذين كانوا يستعدون للاحتفال بمهرجان* Dewali «ديوالي»، وذلك في شهر تشرين الثاني «نوفمبر» من عام 2005، وقتل فيها خمسة وخمسون شخصاً. وفي السابع من شهر آذار (2006)، اقتلعت القنابل معبداً هندوسياً ومحطة القطار الرئيسة في فارانسي، وأودت بحياة ستين شخصاً على الأقل. ثم جاءت تفجيرات قطارات بومباي في شهر تموز من ذلك العام. ووقعت حوادث تفجير متعددة في مالغاون في العاشر من أيلول 2006، وأدت إلى مقتل ثمانية وثلاثين شخصاً وجرح 189. كما انفجرت قنابل في مسجد ريحاني وموقعين آخرين إضافيين في أحياء يقطنها المسلمون.

من الواضح أن القوى المتنفِّذة ترغب في إطلاق العنان لحرب مقدسة في الهند بين الهندوس والمسلمين. وهناك أيضاً إرهابيون مسلمون دوليون سوف يرغبون بأن يقوموا بضم الشباب الهندي المسلم إلى صفوفهم. وعلى الرغم من هذا الطوفان المفاجئ من الاستفزاز الشرير فقد ظل الهنود هادئين. ولم تكن هناك من أعمال شغب، ولا مذابح. بل على العكس فقد اصطف المواطنون الهنود من جميع الديانات للتبرع بالدم ومساعدة الناجين بأية طريقة ممكنة. وتدرك الحكومة الهندية الحالية تماماً التهديد الإرهابي الحقيقي الذي يواجه البلاد وخطر ترك المسلمين يتصرفون بشكل متطرف دون أن يستطيعوا السيطرة عليهم، وإلا أجَّجوا نيران العنف الطائفي. ويعود الكثير من الفضل في الهدوء المخيم في وجه مثل هذا الاستفزاز الذي لا هوادة فيه إلى رئيس الوزراء سينغ وحكومة التحالف التقدمي الموحد المصممة على اتباع المنهج العلماني.

لقد كرر السيد سينغ في مناسبات عديدة رفضه لمفهوم جيوسياسي «لصدام الحضارات». وهو يعلم أن الهند المتعددة الديانات، الواقعة عند حافة منطقة تعج بقوى إرهابية إسلامية لا يمكنها ببساطة أن تتحمل تبعات سلوك ذلك المسار. وتتمثل الطريق الوحيدة بالنسبة للهند في رعاية التوصل إلى اتفاق مؤقت بين الجماعات الدينية المختلفة للعيش في أجواء من الاحترام والثقة المتبادلتين.

وعلى الرغم من رفض باكستان كبح جماعة «الدعوة» ووضع حد لنشاطاتها، فإن القوات العسكرية الهندية لم تشن أي هجمات ضد باكستان أو تقوم بغارات جوية موجهة ضد مواقع

الجماعة، الأمر الذي دفع الولايات المتحدة إلى تهنئة الهند على «ضبط النفس الرائع» الذي تحلت به. فمن المعروف أن كلاً من باكستان والهند مجهزتان بأسلحة الدمار الشامل التي تضمن تدميرهما المتبادل، وهذا سبب قوي ومقنع للعدول عن أي عمل عسكري. إضافة إلى ذلك، فإن الولايات المتحدة لن ترحب بشن هجوم هندي على الأراضي الباكستانية بالنظر إلى العلاقة الخاصة التي تربطها بباكستان، وتدرك الهند ذلك الأمر تماماً. وتجد الهند نفسها في وضع يدعو للسخرية بشكل متواصل في معركتها ضد الإرهاب. فقد تمت تسميتها رسمياً شريكاً في الحرب التي تقودها الولايات المتحدة على الإرهاب، ومع ذلك فهي مجبرة على المعاناة من هجمات إرهابية متكررة يتم شنها على أراضيها بمباركةٍ من باكستان، الشريك الإقليمي الآخر للولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 مباشرة، تقدمت الهند لعرض مساعدتها ودعمها القوي للولايات المتحدة. وكان الهنود الذين تكلمت معهم مقتنعين بأن الولايات المتحدة سوف تفهم أخيراً وجهة نظرها فيما يتعلق بباكستان، وتقر بأنها مصدر للإرهاب، وتتضامن مع الهند لوضع حد لهذا الهراء. وبالطبع لم تكن تلك الطريقة التي سارت عليها الأمور.

عندما جاءت حكومة التحالف التقدمي الموحد إلى السلطة قامت بالوفاء بأحد وعودها الانتخابية فألغت قانون مكافحة الإرهاب (Prevention Of Terrorism POTA). وكان هذا القانون الذي وضع وفق نموذج «قانون الوطني» المعمول به في الولايات المتحدة، قد سُنَّ من قبل الحكومة التي شكلها حزب جاناتا في عام (2002)، ليحل محل قانون مكافحة النشاطات التخريبية والإرهابية لعام (1987) (TADA)، الذي كان قد انتهى العمل به في عام 1995. وقد كان هناك استغلال على نطاق واسع لقانون (POTA)، ويستخدم بهدف إرهاب المسلمين الهنود وإحراز انتصارات سياسية تافهة لا أهمية لها أكثر مما يستخدم من أجل مقاومة الإرهابيين والحيلولة دون تحقيقهم لأهدافهم. وكانت حالات الإساءة في مجال حقوق الإنسان التي يعاقب عليها قانون (POTA) تتزايد. وأعرب الخبراء عن خشيتهم بأنه كان يعمل لجهة التحريض على الإرهاب الجديد عن طريق إثارة غضب مسلمي البلاد أكثر مما يعمل لكبح الإرهاب.

إن بإمكان السلطات الهندية أن تتخذ المزيد من الخطوات من أجل إصلاح سياساتها المتعلقة بمكافحة الإرهاب - ما زال هناك أشخاص متهمون بارتكاب جرائم وانتهاكات بموجب قانون (TADA) يقاسون في السجون على الرغم من مضي إحدى عشرة سنة على انتهاء العمل بالقانون. ويعاني القضاء الهندي أيضاً قوانين الحقبة الاستعمارية التي تظل سارية مع ما هو معمول به حالياً، فتسمح مثلاً بالاحتجاز لمدة تصل إلى أربعة وعشرين شهراً دون توجيه أي تهمة. ويتواصل ارتكاب انتهاكات خطرة لحقوق الإنسان ضد مواطني جامو وكشمير، سواء على يد قوات الأمن الهندية أم على يد المقاتلين، مما يؤدي إلى تفاقم الوضع في ذاك الإقليم الممزق[8]. ومع ذلك فإنه لابد من توجيه الثناء إلى حكومة التحالف التقدمي الموحد، لاتخاذها خطوة شجاعة وحكيمة بإلغاء قانون مكافحة الإرهاب.

إلا أن إلغاء القانون لم ينه النقاش داخل الهند بشأن كيفية التعامل مع الإرهاب. وحتى كتابة هذه السطور يثور الجدل في الهند حول مصير محمد أفظال، وهو هندي من إقليم كشمير أُدين إبَّان تولي حزب جاناتا السلطة بالتواطؤ في الهجوم الإرهابي الذي استهدف البرلمان الهندي في شهر كانون الأول 2001. وقضت المحكمة العليا في الهند بإعدامه عام 2004، وعلق تنفيذ الحكم الذي كان مقرراً في تشرين الأول 2006. بانتظار نتيجة التماس بطلب الرأفة قُدم إلى الرئيس الهندي عبد الكلام. وتزعم أسرة أفظال ومؤيدوه أن الدعوى تستند إلى دليل باطل، وأنه لم يسمح للرجل أبداً باختيار محام للمرافعة في القضية دفاعاً عنه. ويقف غلام بني آزاد الوزير الأول لإقليم جامو وكشمير عضو حزب المؤتمر، وكذلك الحزب الشيوعي وآخرون ضد تنفيذ حكم الإعدام بحق أفظال. وقد بات إعدامه النقطة التي يحتدم عندها الغضب للنقاش الأوسع، الذي يتناول الطريقة التي يجب على الهند اعتمادها لإدارة معركتها ضد الإرهاب مع اتهام حزب جاناتا لحكومة حزب التحالف التقدمي الموحد الحالية باعتماد الليونة في التعامل مع الإرهاب، بسبب تأخيرها لإجراءات تنفيذ حكم الإعدام، وبات إعدام أفظال يشكل نقطة تماس لنقاش أوسع حول عقوبة الإعدام بشكل عام. الأمر الذي يعارضه الكثيرون من الهنود[9]. وفي شهر تشرين الثاني الماضي تم رفع جلسات البرلمان الهندي وتأجيلها في اليوم الذي قام فيه أعضاء الأحزاب السياسية المعارضة، بما فيها حزب جاناتا وشيف سينا بسد الممرات الموجودة بين صفوف مقاعد

المجلس وأحدثوا ضجة مطالبين بإعدام أفظال. وتواجه الهند العديد من المخاطر في سياق حل قضيته، التي يتوقف عليها قضايا كثيرة بدءاً من قضية حقوق الإنسان إلى مصير إقليم كشمير إلى كيفية اختيار الهند بوصفها نظاماً ديمقراطياً، لأسلوب التعامل مع الإرهاب.

ومع وجود سكان مسلمين يبلغ تعدادهم (150) مليون نسمة، يمكن للهند أن تضرب مثالاً يحتذى به، وبالغ الأهمية أمام الأنظمة الديمقراطية الأخرى بصدد ما يمكن القيام به من نواحٍ عملية، من أجل اختيار الأساس الأخلاقي المتين. فالإجراءات الأمنية الصارمة التي تسمح بقيام ممارسات قانونية زائدة عن المعتاد مثل الاعتقال من دون تحديد للمدة والتعذيب، تؤدي إلى إضعاف المكانة الأخلاقية لأي نظام ديمقراطي أكثر كثيراً مما تؤدي إلى إلحاق الضرر بالإرهاب. كما أن الانتهاكات التي ترتكب ضد المسلمين في مجال حقوق الإنسان تثير مشاعر النفور عند الناس وتدفعهم إلى أحضان الإرهابيين. والعنف يولد العنف. والقوة الغاشمة، وتعليق العمل بحقوق الإنسان، ورفض تطبيق القانون الدولي يغذي الحقد في النفوس. وكان تقرير للمخابرات الأمريكية صدر في أيلول عام (2006). قد أكد أن الحرب في العراق «تسببت في انتعاش الأصولية الإسلامية، وجعل تهديد الإرهاب في العالم يتخذ أشكالاً أسوأ»[10]. وكما يذكرنا كريس هيدجز في كتابة: «الحرب قوة تمنحنا المعنى»، إن القبول بجميع الأساليب لتوجيه ضربات عنيفة إلى أعداء حقيقيين ومنظورين، سوف تشوه وتُحرّف حقيقة نظامنا الديمقراطي[11]. وتنطبق هذه الملاحظة على أي نظام ديمقراطي، بما فيه النظام الديمقراطي للهند مثلما تنطبق على الولايات المتحدة.

في العبودية الإنسانية

من بين جميع المحرومين والمحتاجين في الهند ربما تكون محنة العمال المهاجرين أسوأها جميعها. فالمزارعون الذين خسروا أراضيهم وهُجّروا منها، والقرويون الذين يقيدون أنفسهم بعقود عمل، مقابل الحصول على قروض ليس بمقدورهم سدادها على الإطلاق، والفلاحون الذين نزحوا بسبب إقامة المشروعات العمرانية الكبيرة كالسدود أو مصانع الحديد - العديد من هؤلاء الناس ينتهي بهم المطاف عمالاً مهاجرين لا يملكون شيئاً أكثر من غطاء من البلاستيك (مشمع)، وقدر للطهي وأيديهم وعضلاتهم وصحتهم طالما دامت

لهم. وهم متاحون للاستخدام كلياً وبإمكان المرء أن يرى أكواخهم الصغيرة وأطفالهم بشعورهم المغَّبرة في كل مكان في الهند، تماماً إلى جانب المجمعات التجارية ومراكز التسوق، ومباني الشقق السكنية الفاخرة والمكاتب المكسوة بالزجاج اللماع.

وكانت انيتا باتيل ديشموك مديرة مؤسسة بوكار «Pukar»، وهي منظمة غير حكومية مقرها بومباي، قد أخبرتني عندما التقينا في العام الماضي، عن جهودها لجعل شركة هيراندان للبناء، المشاركة في الكثير من المشروعات الكبيرة القائمة في أنحاء مدينة بومباي، تزود العمال الموجودين في موقعها بمياه الشرب «فهم يعملون طوال النهار في هذا الحر وليس لديهم مياه. وعليهم أن يسيروا أكثر من كيلو متر للحصول عليها. إنني أريد شيئاً واحداً فقط من السيد هيرانداني. أن يعطي مياهاً لعماله». وقد حصلت أنيتا وهي امرأة مليئة بالحيوية والنشاط وجاء بها إخلاصها لخدمة المجتمع من شيكاغو إلى بومباي، حيث عملت طبيبة أطفال مدة عشرين عاماً، حصلت على ما أرادت. فقد رد السيد هيرانداني بنفسه على اتصالها الهاتفي، وأكد لها أنه سيتم الاهتمام بالوضع. وجرى في النهاية وبمساعدة أحد المتعهدين، توفير المياه. إلا أن العمل في الطقس الحار من دون مياه هو و يا للأسف محنة مشتركة بالنسبة للعمال الهنود المهاجرين.

قالت لي نانسي بويمان وهي مهندسة كمبيوتر من ولاية كولورادو وكانت قد زارت بنغالور في عام 2006، وشاهدت الهند بعيون جديدة لزائر يأتيها للمرة الأولى: «في أول مرة ذهبت فيها هناك أمنَّوا لي إقامة في فندق «ليلا»، وهو ألطف فندق رأيته في حياتي، ومن فئة سبع نجوم. ولم أكن أعلم أن بإمكانكِ أن تصلي في التصنيف إلى درجة عالية مثل سبع نجوم. وأقمت في المرة الثانية في فندق «رويال أوركيد»، حيث رأيت مشهداً هندياً نموذجياً: أدرت رأسي في أحد الاتجاهات ورأيت ملعباً عشبياً مشذباً لممارسة رياضة الغولف، يطل عليه مبنى مكاتب شركة (IBM)، وقد بدا مماثلاً لما يبدو عليه ربما أي مبنى في أي مكان في الولايات المتحدة. ثم أدرت رأسي في الاتجاه الآخر وشاهدت هذه الخيام المنصوبة من أجل عمال البناء، الذين كانوا يعملون على تشييد ملحق جديد للفندق. كان هناك أطفال صغار يلعبون بين الأوساخ والقاذورات. ونظرت بعدها ثانية إلى المرج الأخضر لملعب الغولف الذي يتميز بمواصفات متقنة».

وتابعت قائلة: «كنا في أحد الأيام مدعويين لزيارة بعض الأشخاص في شقتهم في المجمع السكني، فرأيت فتى كان عمره ربما اثني عشر عاماً يعمل هناك في أعمال البناء، كما رأيت فتياناً يرعون الماعز عبر الطريق من جهة شركة «ويبرو» بالضبط. وأظن أنهم ليست لديهم قوانين العمل نفسها التي لدينا». والواقع فإن لدى الهند قوانين تحظر عمالة الأطفال، وقد شرَّعت للتو إنزال عقوبات جديدة بحق الأشخاص الذين يستخدمون الأطفال للعمل، ومما يدعو للأسف أن هذه القوانين لا تنفذ إلى حد كافٍ. ولا يملك الكثير من الأطفال خياراً سوى العمل إذا ما كانوا يريدون أن يأكلوا. ويحدد تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عدد العمال الأطفال في الهند بنسبة مذهلة تبلغ (10) بالمئة من القوة العاملة. ولدى الهند عمال من الأطفال أكثر من أي دولة أخرى في العالم[12].

وعدا عن المهاجرين -رجالاً، ونساء، وأطفالاً- الذين يُشَاهدون في كل مكان في الهند، وهم يمضون أوقاتهم في بناء طرق جديدة أو تشييد مبانٍ شاهقة جديدة، يعمل الآلاف في ظروف تتصف بأسوأ أنواع الاستغلال، وهم يصنعون قطع الآجر المستخدم في عملية البناء. لقد رأيت ورشات لصناعة الآجر في كل أنحاء الريف الهندي، حيث تقوم الأسر وتحت أشعة الشمس الحارقة، ومن دون وجود أي شيء يظللهم ولا حتى شجرة واحدة، بإسدال غطاء مشمَّع عند طرف الأرض، حيث يعملون طوال اليوم. ويقعد الأولاد الصغار عند قطع الطوب المنشورة، لكي تجف تحت الشمس، ويعملون طوال النهار في تقليبها حتى تجف بالتساوي. وبإمكان أصابع الأطفال الصغيرة أن تنزلق ما بين قطع الطوب عندما ترفعها. وتغطي هؤلاء الأطفال وأهليهم طبقة من الغبار المائل إلى الحمرة، المنبعث من فرن تجفيف الفخار والآجر. وهم يضطرون إلى استنشاق هذا الغبار كل يوم، ولا يسمح لهم بمغادرة الأرض. وإن كان لا بد لأحدهم من أن يغادر، فإنه يتم احتجاز الآخرين هناك لضمان عودته.

تحدثت بهذا الشأن إلى اومي دانييل في العام الماضي في مكتب حيدر آباد التابع للمؤسسة الخيرية البريطانية «اكشن آيد»، وأطلعني على الوضع الذي يعيشه عمال صناعة الطوب في ولاية اندرا براديش الآخذة في الازدهار، فقال: العديد من عمال الطوب يأتون إلى اندرا من بولانغير في ولاية اوريسا المجاورة، وهي إحدى أفقر المناطق المئة الموجودة في الهند، حيث يملك خمسون بالمئة من الأرض تسعة بالمئة من الناس. وهناك وفيات ناجمة عن المجاعة

يتم توثيقها بشكل منتظم في المنطقة، فضلاً عن وجود مايقدر بمئة ألف مهاجر في اندرا جاؤوا من ولاية أوريسا».

وقال لي دانييل: إن الفلاحين في بولانغير يقترضون النقود من أجل الاحتفال بمهرجان يشكل أهمية بالنسبة لهم، يدعى «نوكهاي»، وهو مهرجان مخصص للاحتفال بالموسم الجديد للحبوب. وهم يتلقون خمسة عشر ألف روپية (334 دولاراً) مقابل إعطاء وعد بقيام مجموعة تضم ثلاثة أشخاص بالعمل في ورشات صناعة الآجر. ولا بد للمجموعة من أن تصنع (250,000) قطعة من الطوب لسداد القرض. ويُدفع لهم ثمانون روپية لكل ألف طوبة، أو ثماني بايز* Paise لكل طوبة. ويحضر كل مستخدم أسرته معه ويتم اقتطاع 250 روپية أسبوعياً، وهي كلفة حصة الطعام من حسابهم. والحصة مخصصة لنحو عشرة أشخاص. وذلك يعادل زهاء خمسة وخمسين سنتاً كل أسبوع لكل شخص تدفع من أجل الطعام. ويجد أمثال هؤلاء صعوبة كبيرة في إيقاف دورة الديون هذه. وإذا ما مرض أحدهم أو مات، فهم مازالوا مسؤولين عن سداد القرض.

«إن العمال هم فعلياً شبه سجناء، ولا يسمح لهم بالمغادرة. كذلك فإن الوسطاء حذرون جداً في نقل أشخاص إلى ولاية أخرى، لا يتكلمون لغتها ولا يعرفون منطقتها، وهم غالباً لا يعرفون حتى كيف يصلون إلى بيوتهم. ويؤخذ المهاجرون الذين يحتاجون للمساعدة من اندرا براديش إلى دلهي، ومن كارناتاكا إلى أوريسا، ومن راجستان إلى بومباي. وهذا يحول دون قيام أي نوع من التنظيم العمالي النقابي أو المعارضة من جانب العمال. فهؤلاء الناس عمال مقيدون. إنهم عبيد». وتحدث دانييل عن الحلقة متصلة القائمة مابين الذين يتاجرون بالمهاجرين، وأصحاب أفران الآجر، وشركات البناء، والسياسيين. وأفاض في شرح وضع هرمي من الاستغلال لتحقيق أرباح فاحشة يستند في قاعدته إلى جهود العمال المهاجرين المقيدين بهذه العقود، مع قيام شقق وفنادق ومبانٍ باهظة الثمن عند قمة الهرم.

إن أحد ضحايا الهجرة الداخلية المقيدة في الهند هو التعليم الأساسي أو المرحلة الابتدائية. فالأولاد الذين يتبعون والديهم في ترحالهم لكسب الرزق يتخلَّفون عن المدرسة حيث كان موطنهم، ولا يحظون بفرص تعليمية في مواقع العمل. وهناك ضغوط تمارس على

---

* قطعة نقد متداولة في الهند وبنغلاديش. كل روپية تعادل مئة بايز. (المترجمة)

الأطفال كي يعملوا. وقد جعلت مؤسسة الهند الأمريكية (AIF) من حق اكتساب العلم على التعلم بالنسبة لأطفال العمال المهاجرين الموسميين أحد الجهود الرئيسة المبذولة في صلب نشاطاتها. وقدمت (AIF) منحاً إلى منظمات غير حكومية عديدة، تعمل لصالح هؤلاء الأطفال. ومن بين خططها إنشاء مدارس بالقرب من مواقع العمل، مثلاً قرب مزارع قصب السكر أو قرب أفران الآجر. مما يساعد على الحيلولة دون إرغام الأطفال على العمل. والخطة الأخرى هي توفير أماكن ضيافة، حيث يستطيع الأطفال الإقامة فيها إذا ما تخلفوا عن الرحيل مع ذوويهم المهاجرين. وهذا يتيح للأولاد أن يواصلوا تعليمهم من دون توقف في مدرستهم المحلية، ويحول دون جعلهم يعملون. أيضاً هناك خطة أخرى تتمثل في تأمين دورات دراسية للأطفال، لتعويض ما فاتهم في أثناء غيابهم عن موطنهم في أحد الفصول، وذلك لتسهيل انتقالهم ثانية إلى المدرسة، والحيلولة دون خسارتهم لتلك السنة الدراسية. كما دخلت مؤسسة (AIF) في شراكة مع حكومات العديد من الولايات، بما فيها ولاية غوجارات، ماهاراشترا، واوريسا بهدف تكثيف هذه الجهود من أجل إيصالها إلى أكبر عدد ممكن من الأطفال المتضررين بهذه الظروف. ومن المؤكد أن الهجرة الداخلية للأسر الفقيرة، وتعطيل مسيرة تعليم الأطفال، تشكل إحدى العوامل المؤثرة في ارتفاع معدلات الأمية المستمرة في الهند. وتأمل مؤسسة (AIF) بأن يتفادى أطفال العمال المهاجرين مصير ذويهم.

الهند: عاصمة الإيدز في العالم

تزوجت سوماتي في سن الرابعة عشرة. وحملت بطفلها الأول في سن الخامسة عشرة. وعندما بلغت العشرين من عمرها أنجبت طفلاً آخر وأصبحت أرملة. كان زواج سوماتي زواجاً سعيداً. وكان زوجها وهو سائق شاحنة، يعاملها معاملة حسنة. وعندما توفي اكتشفت أنه كان مريضاً نتيجة مضاعفات أدت لإصابته بفيروس اتش.آي.ڤي؛ وقد أصيبت هي أيضاً بالمرض. وأن تكوني أرملة في الهند هو وضع لعين. فالأرامل يشكلون عبئاً وهمًّا، ولا فائدة ترجى منهم لأحد. والزواج مرة أخرى أمر نادر. وأن تكوني أرملة شخص مات بمرض الإيدز، يعني أن تحل عليك اللعنة مرتين. وكان جيران شانتي يتجنبون الاحتكاك بها، ولم يتمكن والداها المسنان من استقبالها للعيش معهما.

«بعد وفاة زوجي، خضعت حياتي لتغيير جذري. لم أعرف ماذا أصابني. كنت ضائعة ومشوشة ومخدَّرة، وأتنقل هنا وهناك مثل شخص لا عقل له ولا إرادة؛ ولكن وبمشاهدتي لطفليَّ الاثنين الجائعين أمامي كنت مرغمة على أن أعمل وأن أصنع من حياتي شيئاً[13]».

ومن دون أي دعم، ومن دون أي خبرة، كانت سوماتي مرغمة على العمل اليومي في الزراعة مقابل ثلاثين أو أربعين روبية يومياً من أجل أن تحاول إطعام طفليها الصغيرين. وعندما مرضت سوماتي بالسل، قال لها طبيب محلي: إنّ الفحوص المخبرية أظهرت أنها تحمل ڤيروس HIV، وأنها تحتاج إلى إخضاع ولديها للفحص الطبي. واكتشفت أن أحد ولديها، ابنتها، كانت أيضاً تحمل ڤيروس HIV، أما ابنها فقد جاءت نتيجة فحوصه الطبية سلبية.

وقررت سوماتي، وقد باتت منبوذة اجتماعياً في مجتمعها المحلي الصغير، وصحتها ضعيفة جداً لا تحتمل أداء أعمال الزراعة، قررت مغادرة بيتها والسفر إلى مدينة بنغالور. ووجدت عملاً في أحد المصانع، وكانت قادرة على أن تواصل حياتها مدة من الزمن. إلا أنها مرضت ثانية في النهاية.

وبوساطة أحد الأقارب الذكور الذي كان أيضاً مصاباً بڤيروس HIV علمت سوماتي بوجود «مؤسسة فريدوم فاونديشن»، وهي منظمة غير حكومية في كارناتاكا تدعمها مؤسسة الهند الأمريكية (AIF)، حيث كان بإمكانها الحصول على علاج يمنع ارتداد المرض، وطعام إضافي لنفسها ولولديها، وتعلمت بعض المهارات التي تستطيع استخدامها من أجل كسب عيشها، وانضم إليها والداها في بنغالور لاحقاً. ويدرس ابنها في مدرسة داخلية ويبلي بلاء حسناً. غير أن مستقبل ابنتها غير مضمون. إن قصة سوماتي هي ويا للأسف نموذج للتجربة التي تمر بها النساء ضحايا الإيدز في الهند.

استناداً إلى تقرير صدر عن لجنة الأمم المتحدة حول مرض الإيدز UNAIDS كان عدد الأشخاص المصابين بڤيروس HIV في الهند، أعلى من أي بلد آخر في العالم: (5.7) ملايين. وذاك هو الرقم المعلن رسمياً. وقد أخبرتني إحدى أشهر طبيبات الهند المتخصصة بمرض الإيدز، التي طلبت عدم ذكر اسمها، أنها تعتقد أن الرقم الحقيقي أقرب إلى تسعة أو عشرة

ملايين، فالهند لا تملك ببساطة شبكة الرعاية الصحية الأساسية لإجراء نوع الفحوص، التي يمكن أن تؤكد رقماً دقيقاً .

ويقدر أنه بحلول عام (2010)، يمكن أن يكون هناك في الهند 20-25 مليون شخص يعيشون بڤيروس HIV. وهذا سوف يشكل إلى حد بعيد أكبر رقم في أية دولة بمفردها.[14] ولدى ڤيروس الإيدز الإمكانية لخفض متوسط العمر المتوقع في الهند بمقدار ثلاث سنوات إلى ثلاث عشرة سنة[15]. وقد يكون تأثير المرض على الاقتصاد بمقدار نقطة مئوية كاملة تقريباً على مدى السنوات العشر القادمة، إذا لم تتم مواجهة انتشار المرض بشكل فاعل[16].

في عام 2005-2006، خصصت الحكومة الهندية مبلغ (103) مليون دولار من ميزانية الدولة من أجل مكافحة وعلاج مرض الإيدز. وكان يتوقع أن يرتفع ذلك الرقم إلى 138 مليون دولار في عام 2006-2007[17]. وذاك أبعد من أن يكون كافياً. فعلى سبيل المثال كان برنامج الحكومة المخصص لتوزيع الأدوية المجانية لمنع ارتداد المرض قادراً على الوصول إلى 15,000 شخصٍ من أصل 100,000 شخص، جرى التركيز عليهم في عام 2005.[18] ومنذ شهر كانون الثاني 2006، ارتفع هذا الرقم إلى 34,634 حسب تصريح الدكتور سونيتي سولومون، الذي يدير مؤسسة (YRG Care)، التي توفر الرعاية الصحية لأكثر من 4500 شخص مصابين بڤيروس HIV/ AIDS[19]. وهذا غير كافٍ أيضاً بشكل يرثى له. وقد أطلقت الهند برنامجاً للسيطرة على مرض الإيدز في عام 1987. فأنشات «المنظمة الوطنية للحد من مرض الإيدز» (NACD) في عام 1992، إلا أن هذه المبادرات المحدودة التي تفتقر إلى التمويل لم تمنع الوباء من الانتشار.

يعد أكبر جهد وطني لمكافحة مرض الإيدز هو الجهد الذي تبذله مؤسسة «غيتس»، التي خصصت مبلغ 200 مليون دولار لوقف انتشار الڤيروس في الهند. وتنفق مبادرة مؤسسة غيتس المسماة «آفاهان»، (300) بالمئة من الأموال على التوعية بمرض الإيدز، ومكافحته، وعلاجه أكثر مما تفعل الحكومة الهندية. كما أقامت مؤسسة كلينتون شركة مع المنظمة الوطنية للحد من مرض الإيدز في الهند، لمساعدتها على إدارة برنامج وطني لرعاية

الأشخاص المتعايشين مع المرض وعلاجهم، وقد جعلت مؤسسة الهند الأمريكية من مرض الإيدز في الهند أحد مجالات التمويل ذات الأولوية، واشتركت مع مؤسسة غيتس من أجل حث الجالية الأمريكية الهندية على التضافر مع هذه الجهود.

وبينما يوجد مرض الإيدز في كل ولاية ومنطقة هندية، فإنه يتركز في ولايات تاميل نادو -ماهاراشترا- كارناتاكا، واندرا براديش. وفي هذه الولايات المزدهرة نسبياً، يرتبط الناقل الرئيس للمرض بالجنس وتسجل ولايتا مانيبور، وناغالاند الواقعتان إلى الشمال الشرقي من البلاد أرقاماً عالية نسبياً من حالات الإصابة بفيروس العوز المناعي البشري HIV، غير أن الناقل الرئيس للإصابة في هذه المنطقة هو استخدام الأدوية عن طريق الوريد.

وهناك العديد من الجهود الممتازة التي تبذل محلياً مثل جهود الدكتور سولومون في مؤسسة (YRG Care). وكان آنجالى غوبالان قد افتتح بيتاً للرعاية باسم «ناز كيرهوم Naz CareHome» في نيودلهي عام 1994، من أجل النساء والأطفال الأيتام الذين يعيشون مع مرض الإيدز. وبينما يشكل كبح المرض أمراً بديهياً وضرورياً للمعركة ضد انتشاره، فإن هناك حاجة ملحة لرعاية أولئك الذين تم تشخيص إصابتهم قبل الآن. ويلعب عدم التكافؤ بين الجنسين دوراً كبيراً في انتقال ڤيروس HIV في الهند. فهناك نسبة مذهلة تبلغ (39) بالمئة من الهنود الذين يحملون ڤيروس HIV، من النساء. والنساء المتزوجات عرضة للإصابة بشكل خاص، نظراً لأنهن يمتلكن مقدرة ضئيلة لوقاية أنفسهن منه. والنساء الريفيات اللواتي من المرجح بشكل أكبر أن يكن أميات، ولسن مطلعات بصورة صحيحة على خلفية المرض -ومعظمهن لم يسمعن بفيروس HIV أو مرض الإيدز مطلقاً- هن أيضاً عرضة للإصابة به بشكل خاص. وثمة فكرة سابقة في الهند تقول: إن النساء الوحيدات المصابات بفيروس HIV هن اللواتي يشتغلن في تجارة الجنس. ومع ذلك فقد ركزت الحكومة الهندية جهود التوعية على من يشتغلون في تجارة الجنس وغيرهم من المجموعات التي يُلاحظ أن خطر إصابتهم بالمرض مرتفع مثل الرجال الشاذين جنسياً وسائقي الشاحنات.[20]

وتعني هجرة الرجال طلباً للرزق والعمل قضاء أوقات طويلة بعيدين عن البيت. وعندما يعودون لزيارته، يكون بإمكانهم نقل العدوى إلى زوجاتهم من دون علمهم. وقد حال التمسك بالتقاليد في الهند، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية دون توسيع الجهود المبذولة للتوعية بمرض

الإيدز. وقد لا تعلم النساء كيفية انتشار المرض، أو ماذا بإمكانهن أن يفعلن لوقاية أنفسهن. والكثيرات منهن يكتشفن أنهن أو أطفالهن يحملون الفيروس فقط بعدما يكون أزواجهن قد ماتوا نتيجة للمرض. والأمر المأساوي أن رد الفعل المعتاد لأقربائهن يكون بطردهن من المنزل، لا سيما إذا ما كان الطفل أو الأطفال بناتٍ. وفي النظام الأبوي المبالغ فيه المتبع في الهند، ينظر إلى البنات باعتبارهن أعباء مادية. إن وجود بيوت الرعاية مثل البيت الذي تؤمنه مؤسسة (NAZ) يمكن أن يشكل وبكل معنى الكلمة إنقاذاً لحياة النساء المصابات والأطفال، الذين يَتَّمهم مرض الإيدز، والذين لولا ذلك لكانوا وجدوا أنفسهم في الشارع.

وتستخدم منظمة Breakthrough «بريكثرو»، وتعني «الاختراق»، وهي منظمة غير حكومية تعمل من نيويورك ونيودلهي أساليب مبتكرة من أساليب وسائل الإعلام، من أجل تعريف الناس بإمكانية تعرض النساء للإصابة بفيروس HIV في الهند. وتعمل هذه المنظمة على الوصول إلى هؤلاء عبر الإعلانات التلفازية، والتمثيليات الإذاعية، البطاقات رفيعة الشكل المخصصة لتحديد الصفحة، التي توقف عندها قرّاء الكتب، والمتوافرة في سلسلة مكتبات «كروسوورد» Crossword في الهند، وحتى الرسائل القصيرة المرسلة عبر الهواتف الخليوية، كما تستخدم تصاميم بطاقات تعريف ملفتة للانتباه، وأعمالاً موسيقية لفنانين حصلوا على جوائز، وممثلين مشهورين من أجل إشراك الجمهور في حملة التوعية، ولا سيما الشباب من السكان، حيث يكون ارتفاع معدلات الإصابة بفيروس اتش.آي.ڤي هو الأسرع. «أي نوع من الرجل أنت؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه الحملة على الرجال إن كانوا رجالاً حقيقيين، ليحموا زوجاتهم من مرض الإيدز عن طريق استخدام الواقي الذكري في البيت.

وتبرع قطب صناعة الإعلانات براسون جوشي من شركة ماككان - اريكسون، بمواهبه وإبداعاته للمساعدة على تقديم صورة عن الحملة. وقالت لي موليكا دوت مؤسسة ومديرة منظمة «بريكثرو»: لدينا موارد محدودة -150,000 دولار مقارنة بالملايين التي تتلقاها الحملات الأخرى- ولكننا لا نُقتّر في مصاريف تكاليف الإنتاج، وقمنا ببناء علاقات شراكة دون مقابل مع وسائل الإعلام ومؤسسة صناعة الأعمال الفنية الترفيهية في الهند. ونحن نحصل على ما نريد في شكل تبرعات، ويتم إنتاج إعلاناتنا التلفازية وأشرطة الفيديو الموسيقية بشكل متقن ومهني جداً؛ لأنها ما لم تكن كذلك فلن يكون هناك من يستمع إليها

ولن تصل رسالتنا عبر الأثير». وأضافت بلهجة ساخرة «لقد تلقينا الكثير جداً من الكلام الفارغ من طرف اليسار للعمل مع الجانب التجاري، للعمل مع رجال. ولكن النقطة الجوهرية هي أنها ما لم تكن رائجة، فإنه لا يهم تقريباً ما تقوله. وكان شريط الفيديو الموسيقي الذي أطلقته «بريكثرو» بهدف زيادة الوعي بشأن العنف ضد النساء قد فاز بجائزة «لينك» لأشرطة الفيديو الموسيقية. وقد يكون أفضل مثال توضيحي على كيفية نجاح «بريكثرو» في إثبات وجودها طرح سؤال في برنامج Kaun Banega Crorepati (من يريد أن يصبح مليونيراً) عن منظمة «بريكثرو» وعن ڤيروس العوز المناعي البشري ومرض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز».

ويزداد إقبال الشركات التجارية الخاصة على الانضمام إلى التحرك الخاص بالتوعية. فالتكاليف المحتملة التي تترتب على أرباب العمل من أجل علاج الموظفين المرضى بخليط من الأدوية باهظة الثمن، عدا عن ذكر التغيب عن العمل أو حتى خسارة العمال المدربين على مستوى عالٍ، تشكل حافزاً كافياً للقطاع الخاص للمشاركة في الجهود المبذولة في هذا الاتجاه[(21)]. وقالت لي نيتا آمباني: إن شركة «ريلاينس» تقوم بدور نشط للتوعية بمرض الإيدز في المحطات المخصصة لتوقف شاحناتها. وتقع معظم الإصابات الجديدة بين الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة إلى الخامسة والثلاثين، وهي بالضبط الفئة العمرية التي تستقطب التجار بشكل أكبر. كما أنه سن فئة الموظفين المتعلمين والمدربين حديثاً الذين يقودون المعجزة الاقتصادية للهند. وكان «اتحاد الصناعات الهندية» (CII) وهو المجموعة المتنفذة للشركات التجارية الهندية قد أطلق «ائتلاف الشركات التجارية الهندية» من أجل مكافحة مرض الإيدز، وذلك في عام (2001). وتشارك خمسة آلاف شركة تجارية من القطاع العام والخاص في الائتلاف. وتقوم شركة «لارسن وتوبرو»، إحدى أكبر شركات الهندسة في الهند بإدارة برنامج لصالح موظفيها للوقاية من ڤيروس HIV منذ ظهور الوباء للمرة الأولى في الثمانينيات من القرن الماضي.

وتحتاج الهند كذلك إلى التخلُّص من قوانين الحقبة الاستعمارية البالية التي تُدين الشذوذ الجنسي والمتعلقة بمكافحة اللواط والمعاشرة الجنسية التي تجري خلافاً للطبيعة. وتطالب حركة تقودها شخصيات بارزة هندية وأمريكية من أصل هندي، بمن فيهم

الاقتصادي القدير أمارتيا سيين والمؤلف الشهير ڤيكرام سيث، بأن تلغي الحكومة الهندية الفقرة (377) من قانون العقوبات الهندي التي يستغلها البعض للتهرُّب من تطبيقه؛ ويعود القانون إلى عام 1861، وهو يُدين ممارسة الجنس بالتراضي بين أشخاص من الجنس ذاته. وكان قد جرى التحجج بالقانون بصورة أثارت قلقاً شديداً من أجل وقف توزيع الواقيات الذكرية، الأمر الذي أدى إلى إبطاء عملية مكافحة انتشار ڤيروس HIV/AIDS التي تشكل حاجة ماسة بالنسبة للهند.

وبموجب خطة الطوارئ التي وضعها الرئيس الهندي لإغاثة المصابين بالإيدز (PEPFAR) قدمت الولايات المتحدة (26) مليون دولار على شكل معونة ثنائية للهند في العام (2006)، وأسهم البنك الدولي بمبلغ (84) مليون دولار للمرحلة (1) من «المشروع الوطني لمكافحة مرض الإيدز»، الذي أعدته منظمة (NACO)، ومبلغ (191) مليون دولار للمرحلة الثانية من المشروع. ويقوم «مشروع الأبطال» الذي يديره معاً كل من الممثل الأمريكي ريتشارد غير ورجل المجتمع الهندي بارا ميشوار غودريج وبالشراكة مع مؤسسة «كايزر فاميلي فاوند يشن» Kaiser Family Foundation، وبمنحة مقدمة من مبادرة «Avahan» «آڤاهان» التابعة لمؤسسة «غيتس»، يقوم بتوظيف طاقات المشاهير ووسائل الإعلام لزيادة الوعي بشأن ڤيروس HIV/ AIDS.

وثمة شكوك تطرحها مسألة ما إذا كان بإمكان الجهود الجماعية للحكومة، والأطباء المتطوعين، والشركات التجارية الخاصة، أن توقف تيار الڤيروس المسبب لمرض الإيدز، فكل وباء لابد أن ينتهي عند حد معين. ويخشى البعض بأن رد الفعل على وباء HIV في الهند والخطوات التي اتخذت للتصدي له قد جاء بعد فوات الأوان وعلى نطاق ضيق جداً. والزمن وحده كفيل بإثبات ذلك. ومن الواضح أن عدم المساواة بين الجنسين، وغياب الالتزام بالرعاية الصحية الأساسية من جانب حكومة الهند، والأمية والجهل، والفقر المدقع الذي يجبر الرجال على الهجرة بعيداً عن أسرهم بحثاً عن أسباب الرزق، إضافة إلى كلفة العلاج، كلها عجّلت من تقدم الڤيروس. وإذا ما كان باستطاعة الهند تسخير ازدهارها الاقتصادي المتنامي لمعالجة هذه القضايا التي تتسبب في إضعافها، فإنها سوف تقطع شوطاً طويلاً باتجاه وقف وباء يمتلك إمكانية توجيه ضربة خطيرة إلى بلد بدأ للتو في تحقيق وعده.

الجنس الثاني

يشكل وباء الإيدز المتفشي دلالة واحدة فقط على مشكلة التمييز بين الذكر والأنثى في الهند، حيث ينظر إلى النساء بوصفهن أعباء ثقيلة على أسر المجتمع الهندي التقليدي. وكان أحد أفراد الأسرة من الذكور قد قال لي: إنني لست فرداً من عائلة كامدار التي ولدت فيها (هو يشكل استثناء، ولله الحمد). فالذرية من الذكور فقط بإمكانهم أن يدّعوا وجود هذه الرابطة. فالإناث مقدر لهن أن يتزوجن وعند تلك المرحلة فإنهن ينتمين إلى أسرة شخص آخر. و«تنمية الورود لحديقة شخص آخر» أو «سقاية حديقة جارك» هي التعابير الشائعة في هذا الشأن. وإذا ما كان للهند أن تحقق نجاحاً في وعدها لإقامة مجتمع يعتمد على المعرفة، فإنها لا تستطيع أن تتحمل تبعات التخلص من الإسهام الممكن لعدد كبير من مواطنيها من الإناث في هذه العملية.

وغالباً ما يتطلب الأمر جمع مبالغ كبيرة للمهور عندما تتزوج الفتيات، وهي مهور قد تجعل الأسر واقعة تحت ضغط ديون عويصة. ويتباهى الأهالي، ولا سيما في منطقة شمال الهند بأنهم لا يدخلون منزل بناتهم مطلقاً بعد زواجهن. وإنهم إذا ما وصلوا إلى الباب فهم لن يقبلوا حتى كأساً من الماء. إن هذه الاعترافات التي تنم على الاحترام البالغ للتقاليد المتبعة تقابل بإعجاب بالغ الاحترام، مثلما تقابل غالباً بالحيرة والارتباك. فنظام الأبوية، في الهند ينص على أن الأبناء الذكور فحسب يمكن الاعتماد عليهم لتأمين الدعم للوالدين المسنين في مجتمع يفتقر إلى نظام للأمن الاجتماعي. وتعد الفتيات في مثل هذا المجتمع أعباء على الأسرة ولَسْنَ مصادرَ قوةٍ ما عدا بالنسبة إلى المدى الذي يجلبن عنده الهيبة والمكانة المرموقة بزواجهن فيما يشار إليها غالباً بصفتها «عائلة محترمة».

وقتل الإناث من الأطفال هو حكاية قديمة في الهند. فهذا يعد في بعض مناطق البلاد مهنة متخصصة، والشائع أكثر، تكليف أم الطفلة بمهمة التخلص من الطفلة الأنثى غير المرغوب فيها. وهي ربما تقوم بقتلها خنقاً أو شنقاً. إن وأد المواليد الإناث يمارس عادة من قبل أناس فقراء جداً إلى حد أنهم يشعرون بأنهم غير قادرين على تحمل عبء تربية بنت، سوف تأخذ منهم ولن تعيد لهم شيئاً أبداً. أما قتل الأجنة الإناث، وهو أسلوب متبع للتخلص من الأجنة الإناث بشكل انتقائي، فهو النسخة الحديثة من هذا البلاء، فمع قدوم تقنية

الفحص بالموجات الصوتية، تستطيع النساء الحوامل الآن تحديد جنس الطفل الذي يحملن به قبل ولادته. وإذا ما كان ذاك الطفل بنتاً فربما يتم الضغط على الأم لإجهاض الجنين. إن أحد أكثر التأثيرات فساداً للازدهار المتزايد في الهند هي الزيادة في عمليات الإجهاض الانتقائي لجنس الجنين، التي تمارس بشكل شائع من قبل الأغنياء أو أفراد الطبقة الوسطى الطموحة، أكثر مما تمارس من قبل الفقراء. ويرغب الهنود في تحسين آفاقهم الاقتصادية. وهم يرون طريقة مضمونة للقيام بذلك تتمثل في تفادي ولادة طفلة لهم، وتفادي تكاليف المهر الكبير. ويعدُّ الإجهاض الانتقائي لجنس الجنين أمراً غير مشروع في الهند ومخالفاً للقانون، وكذلك إجراء فحوص بالموجات فوق الصوتية بغرض تحديد جنس الجنين. وكان قد تم مؤخراً الحكم على أطباء بالسجن بسبب هذه الممارسات. غير أن المشكلة لا مازالت منتشرة وتصعب السيطرة عليها، والدليل على ذلك أن هنالك ما بين (50) و(60) مليون امرأة وفتاة «مفقودات» في الهند[22].

وفي حين أن نسبة مجموع الإناث إلى نسبة مجموع الذكور، طبيعية إلى حد كبير في أرجاء الهند، فقد أصبحت متباينة جداً في بعض مناطق البلاد إلى حد أنها تثير مخاوف جديَّة من تأثيرها الاجتماعي. فالأقاليم المزدهرة مثل هيريانا، غوجارات والبنجاب بشكل خاص، تضم أعلى معدل من نسب نوع الجنس، حيث تميل إلى الصبيان. وينخفض معدل البنات في الهند، اللواتي تبلغ أعمارهن أقل من سبع سنوات بالنسبة لمعدل الصبيان إلى (927) لكل 1000. وينخفض في البنجاب إلى 793، وحتى أقل في بعض المناطق. وقد تسبب في قيام ممارسات مخيفة بالفعل، حيث يجري الآن تهريب النساء من الأقاليم الأفقر إلى مناطق تضم أعداداً قليلة من النساء بوصفهن زوجات. ويجري أحياناً تزويجهن إلى رجل واحد، وأحياناً إلى عدة أقارب. وهناك اتجاه جديد في إقليم البنجاب لتلك النسوة بأن يكن «زوجة» لكل الأخوة الذكور في العائلة - يطلق عليهن اسم «دروباديس» نسبة إلى الشخصية التي تحمل ذلك الاسم في فيلم «مهابهاراتا»، التي كانت متزوجة من الأخوة باندارا الخمسة. وكانت تفاصيل العنف والخزي والإهانة التي تتعرض لها النساء في ظل هذه الظروف، قد نُشرت في تقرير أعدته باتريشيا لايدل لصالح صندوق الأمم المتحدة للسكان تحت عنوان «الربيع الصامت: مأساة فتيات الهند اللواتي لم يبصرن النور أبداً»[23]. إن عادة التصنيف

الانتقائي للنطفة الذكرية التي تتبعها عملية تلقيح اصطناعي تنطوي على غدر حقيقي. وليس بالإمكان الكشف عن هذا الأسلوب عملياً.

البنات في الهند هن آخر من يتعلم. وتتوقف أمية الإناث في البلاد عند نسبة (54) فقط مقابل أمية الذكور التي تبلغ (76) بالمئة (إحصاء رسمي للسكان عام 2001)، وعندما يسمح للبنات بالذهاب إلى المدرسة، فإنه يجب عليهن مع ذلك أن يتحملن مسؤولية إنجاز الأعمال المنزلية الروتينية، الأمر الذي يتسبب في جعل الكثيرات منهن يتوقفن عن متابعة الدراسة. وليست هناك مراحيض في العديد من المدارس الرسمية في الهند، وهو وضع غير مريح بالنسبة للبنات في بيئة مختلطة من الجنسين. وغالباً ما تكون المدارس واقعة بعيداً عن البيت. ومن غير المأمون بالنسبة للفتيات أن يسرن بمفردهن، ولذا فإن الكثيرات يتخلفن عن الذهاب إلى المدرسة. وعندما تفتقر الأسر إلى المخصصات المالية، كما هو الحال مع الكثير منها، فإنها سوف تلجأ إلى تعليم أبنائها بدلاً من إضاعة المال على بناتهن، الذين سرعان ما سيتركن البيت تماماً.

إن مجتمعاً يضم نسباً متباينة جداً من مجموع الذكور إلى الإناث، والملايين من الناس الذين يتنقلون وهم يهاجرون من مكان إلى آخر بحثاً عن رزقهم، وأساليب تحط من قيمة المرأة فيه، هو بشكل طبيعي مجتمع عرضة لممارسة العنف ضد النساء بكل أشكاله. وتشكل ممارسة البغاء بالإكراه، وتهريب النساء والبنات بهدف الاتجار بالجنس، مشكلتين خطيرتين تواجهان الهند. ووفقاً لوزارة العمل الأمريكية «تعد الهند مصدراً، ومقصداً، وبلد مرور لتهريب الأطفال لغايات الاستغلال الجنسي التجاري وغيره من أشكال استغلال العمالة»[24]. ويتم تهريب النساء إلى داخل الهند من دولتي نيبال وبنغلاديش المجاورتين، ثم بعيداً خارج الأراضي الهندية إلى مسافة تمتد حتى منطقة الشرق الأوسط. والكثيرات منهن مجرد طفلات. وتفيد تقارير أصدرتها منظمة «أنقذوا الأطفال» فرع الهند: أن زهاء مئتي فتاة وامرأة في الهند يدخلن ميدان الدعارة كل يوم، ثمانون بالمئة منهن ضد إرادتهن. وبسبب المعدل الحالي للنمو، وبحلول عام (2025). ستكون واحدة من كل خمسة أطفال من البنات طفلة عاهرة»[25]. ومن الواضح أنه لا بد من قضاء أمر ما قبل ذلك التاريخ.

وتتمثل إحدى الآثار الجانبية السيئة لوباء الإيدز في زيادة إمكانية الاتجار بالأولاد الصغار من أجل صناعة الجنس. ويعتقد أنه كلما كان الطفل أصغر قل احتمال التقاط ڤيروس HIV والإصابة بالإيدز. واستناداً إلى نيكولاس دي. كريستوف، الذي يكتب في صحيفة «نيويورك تايمز» فإن الهند وحدها ربما يكون لديها نصف مليون طفل في بيوت الدعارة الموجودة فيها أكثر من أية دولة أخرى في العالم. قم بزيارة أحياء المواخير في أية مدينة تقريباً في الهند، وسيكون بإمكانك أن تلتقي فتيات في سن الرابعة عشرة جرى اختطافهن من الشوارع، أو تخديرهن، أو عُرضت عليهن وظائف عمل كخادمات، ثم جرى بيعهن داخل عالم كثيراً ما يفرون منه فقط بالموت بمرض الإيدز»[26].

ويُعرف تعليم البنات على نطاق واسع باعتباره الإجراء الأفضل للتخفيف من حدة الفقر ورفع مستوى المعيشة للبلاد. كما أن تمكين النساء عن طريق توفير فرص التعليم الأساسي لهن ووسائل كسب العيش، يزيد من ثقتهن بأنفسهن ومن فرصهن بالحصول على تغذية جيدة وصحة جيدة. كذلك فإن تحسين حياة النساء هو أيضاً الطريقة الأفضل لتحسين حياة الأطفال.

وسوف تحقق الهند هدفها في أن تصبح دولة نامية فقط إذا ما قامت بالارتقاء بسكانها المحرومين والمهمشين ورفع مستواهم وتعزيز أوضاعهم، وبناء الثقة ما بين الجماعات العرقية، والطبقات الاجتماعية والدينية المتنوعة، ووضع حد للتمييز الأعمى ضد النساء والفتيات.

حل الأزمة الصحية للهند

إنقاذ العالم

تنفق الهند (1.3) بالمئة فقط من ميزانيتها على الرعاية الصحية.[27] وهناك طبيب واحد لكل ألفي شخص في الريف الهندي، وليس بمقدور (70) مليون هندي دفع نفقات مراجعة طبيب أو شراء دواء. ويتزايد عدد المزارعين الذين يغرقون في الديون نتيجة لحدوث حالات طارئة توجب عناية صحية، أكثر من حدوث قحط وتراجع في إنتاج المحاصيل[28]. إن ما يترتب على هذه الإحصاءات الكئيبة ليس فقط الضرر، الذي تلحقه بصحة الملايين من الهنود، وإنما تترتب عليها بيئة ينشط فيها المرض، وترتفع معدلات الإصابة به.

تعمل عمتي أوشا كامدار رئيسة لقسم التغذية في مستشفى سيون في بومباي، وهو مشفى حكومي ضخم، يقدم خدمات الرعاية الصحية اللازمة للحالات الحرجة لفقراء مدينة بومباي، وللناس الفقراء من كل أنحاء الهند، ممن يستطيعون الوصول إليه. وكنت قد زرت ضحايا الزلزال المدمر الذي ضرب ولاية غوجارات في عام (2001). الذين جرى نقلهم إلى مستشفى سيون لإجراء عمليات جراحية لهم، ومعالجة الكسور المتعددة التي أُصيبوا بها. كانت المرافق الموجودة في مستشفى سيون بدائية، فالمرضى يستلقون على أسرّة معدنية مصفوفة بعضها إلى جانب بعض داخل عنابر كبيرة. ويظل الأقارب جالسين على فرشات من القش على الأرض، وبعضها ليست أكثر من بطانية قديمة مطوية إلى جانب أحبتهم المرضى أو المصابين؛ وتساعد الأُسر في تمريض المرضى ويجلبون لهم الطعام. وهناك خدمات عديدة لا يستطيع المستشفى تحمل تكاليف تقديمها للفقراء من المرضى، مثل الصور الشعاعية، أوبعض الأدوية. وإن لم يكن بمقدور المرضى دفع المال، فإنهم لا يستطيعون الحصول على هذه الخدمات. وتأتي المنظمات الخيرية إلى المستشفى، وتقوم بجولاتها في عنابر المرضى لتتعرف على ما يحتاجه كل منهم، وتعرض دفع ثمنه. وتقول عمتي: لا أحد محروم من الرعاية في النهاية.

لم أقم بزيارة أي من غرف العمليات أو الأماكن التي يوضع فيها المرضى عقب خضوعهم للجراحة، ولكن الأوضاع الصحية في العنابر العامة كانت كئيبة وموحشة، ومع ذلك فإن الناس الذين يتمكنون من الوصول إلى مستشفى سيون هم أناس محظوظون؛ لأنه مشفى كبير في أكبر مدينة في الهند، وهو يقدم سلسلة كاملة من الخدمات وأطباؤه وطاقمه الطبي والإداري يتمتعون بالكفاية.

وفي حين تحظى المدن الكبرى جميعها، والكثير من المدن متوسطة الحجم بعيادات خاصة ومستشفيات رائعة بإمكانها منافسة الأفضل في العالم، فإن كلاً من جودة وتوفر الرعاية الصحية العامة في الهند تتراجع لحظة مغادرة المرء للمدن الأكبر. أذكر باختصار دخولي مشفى حكومياً في مدينة بارودا في منتصف الثمانينيات، والصدمة التي أصابتني فعلاً بسبب الأوضاع فيه. كانت هناك منضدة خشبية يتضاعف حجمها لتصبح طاولة لفحص المرضى.

وكان هناك غبار في كل مكان، ولم تكن للنوافذ ألواح من الزجاج، فقط قضبان حديدية. وبدا كما لو أن المعدات الوحيدة التي يملكها الطبيب هي جهاز قياس الضغط الملتف حول عنقه. وكان زوجي الأول يعاني آنذاك ارتفاعاً في الحرارةأثناء حضورنا مهرجان بوشكار ميلا بالقرب من مدينة آجمر. واستفسر أصدقاؤنا هنا وهناك ووجدوا عيادة صغيرة. وعرض الطبيب الذي لم تكن أوراقه الثبوتية ظاهرة أن يعطيه حقنة في العضل تحوي فيتامين «ب» مثير للشك، وهو يلوح بحقنة حديدية كبيرة غمرها في كوب من الماء لتنظيفها، وكان يبتسم ابتسامة عريضة، وهو يبخ دفقة عالية من المياه منها. وتساءل زوجي وهو يهذي من الحمى «هل يجب عليّ أن آخذ الحقنة» فأجبته وأنا أقوده خارجاً فوق ميزاب تصريف مياه الأمطار أمام العيادة: «لا يا حبيبي، ليس عليك أن تأخذ حقنة». كان فلاحو إقليم راجستان بعماماتهم القرمزية الرائعة وشواربهم الكثيفة المفتولة، يذهبون في أعداد كبيرة إلى مكتب هذا الطبيب، ويأخذون حقن فيتامين «ب» التي تشفي كل الأمراض.

كان وباء الإيدز قد بدأ يُلاحظ للتو في الغرب في تلك الأيام. ولم يكن أمره قد خطر في ذهني في ذاك الوقت. إنني أرتعد لدى التفكير الآن بذلك الطبيب الممسك بالحقنة وكوب الماء الذي لديه لتنظيفها، وطابور الفلاحين الذين يقفون بانتظار أخذ حقنتهم.

وبالإضافة إلى وباء الإيدز المتفشي في الهند، ينتشر مرض السل في البلاد وغالباً في الأشخاص الذين ضعفت مناعتهم نتيجة لإصابتهم بفيروس HIV المسبب لمرض الإيدز AIDS. وأما مرض شلل الأطفال الذي سبق القضاء عليه تقريباً، فقد تمكن من إحداث اندفاعة جديدة في الهند مؤخراً. وانتشر المرض الذي بدأ بالظهور في ولاية أوتار براديش في عام 2006، وبشكل سريع، في الولايات المجاورة، لينتقل بعدها إلى الدول المجاورة مع ورود أنباء عن تفشيه في نيبال وبنغلاديش. وصرح جاي وينغر مدير المشروع الوطني لمراقبة مرض شلل الأطفال، وهو جهد مشترك بين الأمم المتحدة والحكومة الهندية: «إن المنطقة بأكملها في غربي ولاية اوتار براديش تعمل كمخزون لفيروس الشلل الهائج، وقد انتشر المرض خارج البلاد»[29] أيضاً. وفي عام (2006). وردت تقارير متعددة عن ثلاث جائحات منفصلة لمرض انفلونزا الطيور في الهند. وجرى ذبح عشرات الآلاف من الطيور، والحجر على الأشخاص

الذين ظهرت عليهم أعراض تشبه الانفلونزا، ولم تُظهر الفحوص وجود أحد يحمل ڤيروس (H5Nl)، ومع ذلك فقد أصدرت السفارة الأمريكية في نيودلهي تحذيراً إلى الأمريكيين من أجل متابعة التقارير الأخبارية الواردة في هذا الشأن، والامتناع عن الذهاب إلى مناطق في الهند، يتفشى فيها مرض انفلونزا الطيور بشكل نشط.»[30] وتشكل الهند مرتعاً محتملاً لأكثر الأمراض الوبائية فتكاً على كوكب الأرض. وهي تتحول بسرعة لتصبح عاصمة الأوبئة، التي لا يمكن التواصل معها، مع بلوغ معدلات الإصابة بأمراض السكري والقلب مستوى أعلى من المعدلات العالمية كثيراً. وباعتبار أن الهنود باتوا أكثر ازدهاراً، فهم يأكلون كميات أكبر من المواد النشوية والدهنية والسكرية ويمارسون الرياضة بشكل أقل، وكلها عوامل تتسبب بالإصابة بأمراض السكري والقلب.

غير أن الهند هي أيضاً المكان الذي يحوي الأمل الأكبر بإيجاد طرق للتعامل مع هذه العذابات وغيرها على نطاق يمكن أن يخدم في الواقع المليارات من سكان العالم. إن اتباع أنظمة حمية عالية التكاليف سوف تساعد القليل فقط من هؤلاء المصابين. غير أنه إذا ما أمكن للهند أن تجد علاجات ملائمة بكلفة قليلة، على سبيل المثال العلاج بمادة الأنسولين عن طريق الفم، حيث لا يحتاج المرضى إلى حقن أنفسهم، فإن حياة الملايين من الناس سوف تشهد تحسناً.

وتتوافر الرعاية الصحية العالية المستوى في الهند - مقابل ثمن. وتقدم مستشفيات «ابولو» ومستشفيات «اسكورتس»، وهما اثنتان من أكثر المؤسسات المماثلة شهرة، أحدث ما تم التوصل إليه في مجال الرعاية الصحية والعمليات الجراحية المتطورة، لا سيما جراحة القلب. والعديد من أطبائهم المقيمين تلقوا تدريبهم: إما في الولايات المتحدة، أو هم أعضاء في الرابطة الطبية الأمريكية. وفي حين أن الرعاية المقدمة في هذه المرافق مكلفة جداً بالنسبة لمعظم الهنود، فإنها تشكل صفقة رخيصة ورابحة بالمقارنة مع تكلفة الرعاية المماثلة في الولايات المتحدة. وقد انتعشت السياحة الطبية نتيجة لذلك، مع توقع سفر خمسمئة ألف أمريكي إلى الخارج من أجل تلقي الرعاية الطبية وتحقيق وفر في التكاليف يبلغ 30 إلى 80 بالمئة من المبلغ الذي كان يجب عليهم أن يدفعوه في بلادهم. وبالنظر إلى وجود عدد كبير

من الأمريكيين الذين لا يملكون تأميناً صحياً، فإنه من المحتمل أن يتنامى هذا الاتجاه مع مرور الوقت، متيحاً تقديم خدمة ثمينة للآلاف من الأمريكيين الذين ربما سيضطرون لولا ذلك إلى الاستغناء عن الرعاية الطبية اللازمة.[31]

وما لم يستخدم العائد من العقود الخارجية الطبية من أجل خفض التكاليف لصالح المرضى الأقل ثراء، فإنه لن يعالج مسألة تلبية الاحتياجات الصحية الملحة لفقراء الهند. فالرعاية الطبية هي مجال آخر يؤدي فيه نقيضا الغنى والفقر إلى حالات عنيفة من الغبن وعدم المساواة في فرص الحياة. وهناك جهود عديدة تبذل لردم الهوة ما بين الرعاية عالية المستوى التي تتوافر في البلاد، وبين مقدرة معظم المواطنين الهنود للحصول عليها. فإنشاء العيادات الطبية حيث يتم تقديم الرعاية بكلفة قليلة أو مجاناً هو عمل من أعمال الخير المكرّمة على مر الزمان في الهند، وقد جلب الارتياح والأمل للملايين. إلا أن الهند تواجه حالة طوارئ حقيقية تتعلق بالرعاية الصحية. فوجود عيادة هنا، ومستشفى هناك، مهما كان ممتازاً لن يعالج موضوع حالة الطوارئ هذه على المستوى المطلوب.

إن أحد أكثر الجهود إثارة للدهشة والمبذولة لتحسين الرعاية الصحية في الهند هو مستشفى ومعهد: «نارايانا هرودالايا» للعلوم الطبية، اللذين أنشأهما الدكتور ديڤي شيتّي. وقد توصلت إلى معرفة معلومات عن العمل الخارق الذي قام به الدكتور شيتي عبر كيران معظمدارشو الرئيسة المفعمة بالحيوية والنشاط لشركة Biocon «بايوكون»، الشركة الهندية الرائدة في مجال التكنولوجيا الحيوية المنتجة للمستحضرات الصيدلانية. وهنالك علاقة تكافل مثيرة للاهتمام بين «بايوكون» و«نارايانا هرودالايا»؛ وهي حسب اعتقادي نموذج لما هو أكثر إثارة في النهضة التي تشهدها الهند. فعندما تؤخذ المسؤولية الاجتماعية للشركات على محمل الجد، وعندما تتركز على تحدٍ خطير يواجه الهند، وتستخدم أحدث وسائل التكنولوجيا وأفضل الممارسات وتعمل بصفتها شريكاً مع الحكومة، يتم خفض التكاليف، في حين تزداد جودة الخدمات. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستقدم بها الهند حلولاً على المستوى المطلوب وبالسرعة المطلوبة لمعالجة الكثير من مشكلاتها.

وكانت كيران معظمدارشو، وهي شخصية مثيرة للاهتمام، قد انطلقت في عملها تحدوها الرغبة بالعمل في مجال تجارة مشروب الجعة. فذهبت إلى أستراليا حيث أصبحت خبيرة

في تصنيع الجعة، ثم عادت إلى الهند. وباعتبارها امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها فقد كانت ممنوعة بشكل صارم من دخول مجال كل ما هو حكر على الرجال من مشروبات كحولية، وقد أخبرتني «إن فيجاي ماليا رئيس شركات «كينغفيشر» المتحدة لتصنيع مشروب الجعة وقطب صناعة الجعة الشهير في الهند، هو بمنزلة أخ بالنسبة إليها، ولكن الأمر كان صعباً. ومع حظر دخولها مجال تصنيع الجعة، عمدت إلى إنشاء شركة للتكنولوجيا الحيوية من الصفر، حرفياً، داخل مِرآب سيارتها، مع تخصيص أموال لبدء التشغيل بمبلغ 2,000 دولار. وبقية القصة يعرفها الجميع، كما يقولون و«بايوكون» هي الآن شركة يبلغ رأسمالها أكثر من مليار دولار، وهي الشركة الرائدة في مجال التكنولوجيا الحيوية في الهند.

وكيران معظمدار شو، وهي تنتمي إلى ولاية غوجارات بالوراثة، متزوجة من رجل سكوتلندي. ويقع المكتب القنصلي لدولة سكوتلندا في بنغالور داخل مكتب شركة بايوكون. وهي هاوية غيورة لمشروب الجعة، ونشرت مؤخراً كتاباً مزخرفاً بالألوان عن الجعة من القطع الكبير مرتفع الثمن اسمه «الجعة والمتفنن» AleandArty مُهدى إلى والدها، وهو فنان كبير في عملية تخمير الجعة وإعدادها، يعمل منذ زمن طويل لدى شركة «موليا المتحدة» لتصنيع الجعة. وربما بسبب خلفيتها غير العادية وبسبب اضطرارها إلى النضال بصعوبة شديدة للوصول إلى ما وصلت إليه اليوم، فإن كيران معظمدار شو تملك توجُّهاً راديكالياً في إنجاز أعمالها، وهو توجُّه يغتنم هذه اللحظة من الفرصة المؤاتية بالنسبة للهند.

فهي أولاً متفائلة تماماً بشأن مستقبل الهند، حيث تقول: «بإمكاننا قطعاً أن نقوم بابتكار قصة» «صنع في الهند» هذه. وسوف ترينَ أن هذا سوف يكون الاتجاه، وستقوده الهند. إن بإمكاني أن أرى بالفعل بأننا موجودون في منطقة زمنية مختلفة جداً. ولقد مضى عليّ في هذه المهنة خمسة وعشرون عاماً ولم أرَ سابقاً لحظة كهذه؛ وقد كانت مهنتي عالمية دائماً، ولكن ما يحدث الآن هو أن الهند باتت هي السوق. وهذا أمر مثير جداً، فالهند باستطاعتها أن تصبح مختبراً للعالم. وقد كان ذلك واضحاً مدة من الزمن. ونحن عندنا أدمغة ذكية وعندنا ميزة التكاليف. ولكن الأمر كله يتعلق الآن بالحجم المرتقب للسوق وإمكانياتها. أنت لم تريَّ شيئاً بعد لأنك تتكلمين حتى الآن عن الأسواق في المدن، وأنت لم تريَّ الأسواق في الأرياف بعد».

وتنظر معظمدار شو إلى الهند على أنها تحظى بمزايا فريدة متعددة. فهناك ميزة التكاليف وميزة البحوث العلمية، إلا أن هنالك أيضاً إمكانية ربط سكان الأرياف المحرومين (من الخدمات) مع العالم بأسره عبر توفر مراكز خبرة وتميز عمرانية مثل بنغالور. وهي ترى في مدينة بنغالور نقطة جذب فريدة من نوعها العملية تركيزا استثنائية للموهبة. كما ترى فيها بوابة ضخمة تلتقي عندها الهند الريفية باحتياجاتها الضخمة التي لم تلب وإمكانياتها التي لم تستثمر، مع الأسواق العالمية ومع رأس المال العالمي. وهي مقتنعة بأن الطريقة الهندية في إنجاز العمل تركز على المسؤولية الاجتماعية أكثر من الطريقة الأمريكية مما يجعلها في النهاية، طريقة أفضل للتعامل التجاري ولإنجاز الأعمال.

وقالت بلهجة تذمر: «إنه مجرد عالم جشع في الولايات المتحدة، حيث كل ما يهمهم هو المال. وشركات التكنولوجيا الحيوية الأمريكية تمر بظروف صعبة. فهو عمل ينطوي على مجازفة كبيرة. وإذا ما نجحتِ فيه فإنه يشكل مصدر ثروة، ولكن إذا ما فشلتِ فهو كارثة. وأصحاب رأس المال المشاركون في المشروعات التجارية لا يرحمون. هم يريدون رؤية بيانات حقيقية. وأنا أقول للشركات الأمريكية أن يستخدموا الهند من أجل الحصول على معلوماتهم. وهم ينفقون أموالاً كثيرة جداً على المحامين وعلى عروضهم». وترى معظمدار شو ميزة أكيدة للهند في هذا النوع من المحيط. «إننا نوجه اهتمامنا إلى الاحتياجات الطبية للعالم، وعندما يكون بمقدورك جلب دواء إلى السوق بسعر أقل جدًّا، فإن بمقدورك إيصاله إلى عدد أكبر كثيرًا من الناس. ونحن لدينا دواء جديد للسرطان يأتي من كوبا، وقد شكلت هذه المسألة فرصة بالنسبة لي، لأنه لا مشكلة للهند مع كوبا. ولقد كان لدى كوبا هذا الدواء المثير للاهتمام، ولكن لم يكن عندها العدد الكافي من المرضى لاختباره عليهم. وأنا أستطيع أن أرى ما يحمله من إمكانية. وكنت أعرف أن بإمكاني أن أزيد من نسبة إنتاجه، وأن أقدم هذا الدواء للهند. فالدواء المنافس المتوافر في الولايات المتحدة له آثار جانبية خطيرة.

«وسيكون للمرضى الهنود وللمرة الأولى فرصة للحصول على دواء ممتاز بسعر معقول. وهذا يستحوذ على جوهر الحلم الذي تقوم الهند بتحويله إلى واقع».

وقد أصرت معظمدار شو على أن ألغي موعدي الآتي، وأن أتوجه بدلاً من ذلك أسفل الطريق - الذي يصادف أن يكون الطريق المسمى هوسور، حيث تقع مكاتب شركتي بايوكون

وانفوسيس، وأن ألتقي الدكتور ديفي شيتي. وقالت لي: «إن ما يفعله هو في الواقع ما يدور حوله هذا الموضوع برمته».

ومن بين كل الأشخاص المدهشين والشركات المدهشة التي التقيتها في الهند فإن الدكتور ديفي شيتيّ ومستشفى «نارايانا هروداياالايا» لأمراض القلب هما، من دون أي شك، أكثرها إثارة للدهشة. فالمشفى ضخم جداً. وهناك خارج المبنى معبد متعدد الديانات، حيث يستطيع الهندوس، والمسلمون، والمسيحيون، والسيخ أن يؤدوا صلواتهم. ويعني اسم المشفى باللغة السنسكريتية «البيت الرحيم للرب».

كان هناك المئات من الأشخاص ينتظرون في المدخل النظيف للمشفى النظيف في الطابق الأرضي، ولكن إحساساً راودني بأن ذلك عائد إلى حجم الناس القادمين من أجل تلقي العلاج، وليس عائداً إلى الخدمة البطيئة. وبدا واضحاً أن كل شيء يعمل بكفاية كبيرة. وأذهلني المسلك المتواضع لمعظم الناس؛ وذهلت كذلك بمدى الصبر الذي أبدوه وهم جالسون، ومدى الهدوء والتنظيم الذي كان عليه كل شيء. وكانت هناك على الجدران شعارات مشجعة على ملصقات يحيطها إطار تقول: «لا تشكن أبداً أن عدداً صغيراً من الأشخاص الملتزمين يستطيعون تغيير العالم. حقاً إنه الشيء الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك». «معظم الأشياء التي تستحق القيام بها في العالم، كان يجزم بأنها مستحيلة قبل أن يتم إنجازها». وعندما دخلت إلى مكتب الدكتور شيتيّ في الطابق العلوي، كان هناك زوجان مسلمان يتحدثان معه. وكان يتكلم معهما وكأنه كان لديه كل ما هنالك من وقت في العالم، وعندما أنهيا حديثهما، انحنت المرأة المرتدية حجاباً أسود، لتلمس قدميه في بادرة احترام وتقدير هندوسية عريقة. وهناك في المشفى قسم كبير لأمراض القلب عند الأطفال، وقد تساءلت: هل كانا قد قدما من أجل طفلهما.

كان الدكتور شيتي يرتدي رداء طبياً كاملاً عبارة عن قميص فضفاضٍ طويلٍ لونه أخضر مغبرٍّ وبنطالاً وأغطية واقية فوق حذائه، وكان قناع الوجه مُلقى حول رقبته. وهو الذي أسس مشفى «نارايانا هروداياالايا» في عام 2001، ويضم خمسمئة سرير، وعشر غرف عمليات مهيأة بالكامل، ومختبرين للقثطرة القلبية وبنكاً للدم. ويضم جناح القلبية الخاص بالأطفال أربعين سريراً. وعندما صعدت لرؤيته كان هناك أطفال من كل الأعمار موجودين

في غرفة الإنعاش بعد خضوعهم لعمليات جراحية. كان بعضهم ضئيل الحجم. وقال لي الشخص الذي كان يرافقني: إنه في بعض الأحيان، تأتي النساء اللواتي يتبين أن أجنتهن تعاني من مشكلات في القلب، للولادة في المشفى حتى يكون بالإمكان أخذ الطفل مباشرة لإجراء عملية قلب مفتوح له.

وبعدما رحب بي، دخل الدكتور شيتيّ في الموضوع على الفور: «نحن نحاول أن نفصل ما بين الرعاية الصحية والثراء. فالناس ربما يظلون فقراء، ولكنهم سوف يحصلون على الرعاية الصحية ذات التقنية العالية بكرامة. وعدا عن الولايات المتحدة، تمتلك الهند أكثر مواقع الأدوية الموافق عليها من قبل الإدارة الفيدرالية للأدوية. ونحن نقوم بتخريج معظم الأطباء والممرضات. وباستطاعتنا خفض الرواتب إلى عشرين بالمئة من الكلفة. والفقراء ضعفاء كأفراد، ولكنهم أقوياء كمجموعة. فأنت تضعين خمس روبيات في يد واحدة فلا تفعل شيئاً، وأنت تضعينها في مئتي مليون يد فيكون بإمكانها أن تفعل الكثير.

وتتمثل إستراتيجية الدكتور شيتيّ في استخدام أحدث ما تم التوصل إليه من وسائل التكنولوجيا، سواء لضمان الجودة العالية أو خفض التكاليف، حيث يكون ذلك ممكناً. وهو يستخدم الطب عن بعد والتشخيص عن بعد، لربط الناس في المناطق الريفية مع الأطباء ومع خبراء تشخيص الأمراض في المشفى.

وقال لي: إن «هناك خمس دول في العالم تملك أقماراً صناعية. والهند إحداها. وهذه الخدمة تقدم مجاناً. «فالتكنولوجيا تمنح الأغنياء ما كانوا يحصلون عليه دائماً، وتمنح الفقراء ما لم يحصلوا عليه مطلقاً. وتستخدم المشفى الصور الشعاعية الرقمية، التي هي أرخص جداً من الصور الشعاعية التقليدية؛ لأنها لا تتطلب فيلماً. وقد أقامت مستشفى «نارايانا هروديالايا» عيادات لأمراض القلب في كل المناطق الريفية في ولاية كارناتاكا. وكنت قد زرت مركز الطب عن بعد (بوساطة الحاسوب) حيث كانت الملفات الخاصة بالتخطيط الكهربائي للقلب (EKGs) تصل من عيادات مختلفة. وكان الأطباء يقومون بمراجعتها بحثاً عن حالات غير طبيعية. وتضم كل عيادة ريفية أحد الفنيين المدرب على تنظيم هذه الملفات ومعرفة أساسيات فن تشخيص الأمراض. وإذا ما رأى الأطباء الموجودون في المشفى

وضعاً يستلزم تدخلاً جدياً، عندها يتم استدعاء المريض إلى المشفى. ويرغب الدكتور شيتي بتكرار هذه التجربة في كل أنحاء الهند.

التقيت في المصعد بصبي صغير وأمه. وكانت قد أحضرته من نيجيريا إلى بنغالور لإجراء عملية قلب مفتوح، فالمرضى يأتون إلى المشفى من اثنتين وعشرين دولة مختلفة. ويدفع الأغنياء رسوماً كاملة. أما الفقراء فيدفعون حسب مدخولهم. ويؤمن المشفى تمويل القروض الصغيرة. ومن يعيشون في فقر شديد لا يدفعون شيئاً. ونسبة العدوى في مشفى «نارايانا هرودايالايا» أقل منها في مشافي الولايات المتحدة، أما نسبة الوفيات نتيجة عمليات القلب المفتوح فتبلغ أقل من (5) بالمئة. ومع ذلك تعد التكاليف ضئيلة مقارنة بالرعاية المماثلة التي تقدم في مشافي الولايات المتحدة. فالخدمة الطبية الكاملة لإجراء جراحة في القلب بالإضافة إلى المتابعة الصحية في المشفى بعد العملية تكلف 2,400 دولارين. ويدفع المرضى الذين يرغبون بالحصول على غرف خاصة وعندهم الوسائل لتحمل تكاليفها مبلغ (3,100) دولارات إلى (4,300) دولارات، أما المرضى من ذوي الموارد المحدودة فيدفعون (1,400) دولاراً، ويتحمل المشفى الكلفة المتبقية. وهناك صندوق صحي يدفع تكاليف معالجة المرضى، الذين لا يملكون مالاً على الإطلاق. ولا يجري رفض أحد أو حجب المساعدة عن أي شخص.

يقول لي الدكتور شيتي: إن (8) بالمئة فقط من الناس على كوكب الأرض يحصلون على فرص إجراء عملية جراحية في القلب. وإن مهمته هي أن يزيد من ذلك الرقم.. ومشفاه عمره ست سنوات فقط وبحلول عام 2005 كان المشفى قد أنهى في ذلك الحين إجراء (11,228) عملية قلب مفتوح. وتقوم شركة بايوكون بتزويد المشفى بأدوية نوعية بسعر منخفض جداً. وقالت لي كيران معظمدار شو: «إننا نجني أرباحاً فيهم. والربح لا أهمية له على أساس الوحدة. فنحن نجني الربح على أساس الحجم. ويعمل الدكتور شيتي على توسيع شبكته عبر وصلات الأقمار الصناعية إلى كوالالمبور، وموريشيوس وكلية للطب في ألمانية، وهو ينوي إقامة مراكز في باكستان و بنغلاديش و تنزانية و اليمن و وزامبية. وقد أطلق في الهند «سيارة العناية القلبية»، وهي عبارة عن وحدة متحركة لتخطيط صدى القلب مع جهاز دوپلر ملون، وأجهزة حاسوب محمولة، وجهاز ثابت للمشي يتم التحكم به بوساطة الكمبيوتر. وتعالج الوحدة ما يصل إلى خمسمئة شخص يومياً في ولاية كارناتاكا.

شكل الدكتور شيتي وكيران معظمدار فريقاً لإنشاء (آروغيا راشكا يوجانا) وهو صندوق مخصص لوضع خطة ضمان صحي بتكلفة منخفضة جداً من أجل جلب مرافق الرعاية الصحية إلى المعدمين في المناطق الريفية. وبلجوئه إلى الاستعانة بالاستطباب عن بعد وفن تشخيص الأمراض عن بعد، والأدوية النوعية من إنتاج شركة بايوكون وغيرها من الشركات بنسبة (30) بالمئة أقل من سعر السوق، فإن صندوق (آروغيا راكشا) يستهدف مساعدة أفقر الفقراء. وتعد التوعية بالنظافة واستخدام المياه وتطبيق القواعد الصحية السليمة جزءاً متكاملاً من البرنامج. ويدفع الناس أقساطاً - 120 روپية، أقل من (12) دولاراً سنوياً بالنسبة لعائلة تضم أربعة أفراد. وتذهب الأقساط التي يقدمونها في جزء منها لتغطية تكاليف بناء عيادة، التي تشكل نقطة الاتصال الأولية؛ وتضم صيدلية، وغرفة استشارة، ومختبراً لتشخيص الأمراض، ومكتباً إدارياً. وهذا ليس مشروعاً خيرياً. فصندوق «آروغيا راكشا يوجانا» مصممٌ على أن يكون قادراً على تغطية نفقاته دونما حاجة إلى مساعدة، وعلى أن يكون قابلاً للتكرار.

الهند الأخرى، الهند بلد الفقر والمرض، بلد أحط استغلال للضعيف من قبل القوي، غالباً ما تكون في أكثر الأوقات محجوبة تماماً عن شاشات التلفزة، وخارج وعي الناس بفعل البهجة العارمة، التي تثيرها النهضة السريعة للبلاد. إنه التفاني الهائل لأفراد أمثال الدكتور ديفي شيتي ذاك، الذي يوحي بالأمل بأن الهند سوف تقتنص الفرصة، التي تمثلها كل واحدة من مشكلاتها المستعصية في ما يبدو، وأن تردم الهوة ما بين ذلك الجزء من البلاد الذي يزدهر والجزء الأكبر المهمل والمنسي.

الفَصْلُ السَّابِعُ

النفوذ

في 15 أيار (مايو) 1998، توجه رئيس وزراء الهند المنتخب حديثاً، آتال بيهاري ڤاجپايي زعيم حزب جاناتا (BJP)، جواً بالطائرة إلى منطقة پوكهران في صحراء راجستان؛ لنثر الورود على الموقع الذي كان قد شهد قبل أيام إجراء تجربة ناجحة لسلسلة من التفجيرات النووية. وكانت الموسيقا تصدح في كل أرجاء البلاد. وكان الناس في الهند، والهنود في أنحاء العالم يوزعون الحلوى مجاناً ويربتون بعضهم ظهور بعض وقد غمرهم شعور من الغبطة والإثارة أصابهم بالدوار حتماً كونهم قد أثبتوا أن بمقدور الهند بمفردها، وفي تحدٍ للعالم، أن تقتحم النادي النووي المقتصر على النخبة من دول معينة. إنني أذكر الذهول الذي أصابني حينما اجتاحت مشاعر الفرح والابتهاج التي أعقبت ما جرى في بوكهران، أفراد عائلتي، أتباع الطائفة اليانية المخلصة لمبدأ اللاعنف. وكان هناك حديث حتى عن أخذ تراب من موقع التفجير، أما وقد بات الآن موقعاً مقدساً بفعل التفجر الرائع للكبرياء الوطنية، وجعل رجال الدين الهندوس يوزعونه في أنحاء البلاد. وتم إلغاء هذه الفكرة لحسن الحظ عندما أشار أحدهم إلى أن المادة كانت مشعة بشكل خطير. وشكل القيام بتجربة نووية أخرى أطلق عليها اسم «پوكهران - II»، أوائل التجارب النووية التي أجرتها الهند منذ عام 1974، وحذت حذوها باكستان على الفور، فبدأ سباق جديد للأسلحة النووية في جنوب قارة آسية.(1)

وفي تبريره للتجارب النووية التي أجريت عام 1998، قال وزير الشؤون الخارجية السابق جاسوانت سينغ في ملاحظة ساخرة شهيرة: إن الهند هي جوار خطير. فقد كانت الهند ومنذ عام 1998، تقوم وإلى جانب باكستان، الخصم الرئيس، بتعزيز قدراتها العسكرية وتعمل على تطوير نظام قاذفات صواريخ ذات مدى أبعد وقادرة على حمل قنابل نووية.

الهند هي واحدة من أكبر مشتري الأسلحة في العالم. وفي الحقيقة فإنه واستناداً إلى «معهد استوكهولم لبحوث السلام الدولية» (SIPRI) فقد حلت الهند في المرتبة الثانية، ولكن بعد الصين من حيث قيمة مجموع الأسلحة التي تلقتها ما بين (2001) و(2005): (9.2) مليار دولار مقابل (13.3) مليارات دولار للصين[2]. ووضع تقرير صدر عن قسم البحوث في مجلس النواب الأمريكي في الخريف الماضي وموجه لأعضاء الكونغرس، الهند في المرتبة الأولى بين مشتري الأسلحة التقليديين من دول العالم النامي. وقد جعل مبلغ (5.4) مليارات دولار الذي أنفقته الهند على شراء الأسلحة مبلغ الـ (3.4) مليارتا دولار، الذي أنفقته السعودية واحتلت به المرتبة الثانية في قائمة مشتري الأسلحة يبدو ضئيلاً، وكذلك مجرد مبلغ (2.8) ملياري دولار الذي أنفقته الصين[3].

جوار خطير

تعد منطقة جنوب آسية منطقة غير مستقرة للغاية - كل دولة تقريباً تقع حول الهند تعصف بها النزاعات الداخلية، سواء كانت حرباً أهلية متقطعة في سريلانكا، تمرداً قوياً تقوده الحركة الماوية في نيبال، التشدد الإسلامي المتنامي في بنغلاديش المعزولة اقتصادياً، أو في باكستان. أما منطقة غربي آسية، المعروفة أيضاً بالشرق الأوسط، فهي تشهد أوضاعاً صعبة بشكل دائم بفعل نزاع ينذر بعواقب وخيمة. وهي الموطن الأساسي للإرهاب الإسلامي العالمي، ومسرح لحرب تدور رحاها حالياً، ويجري التعامل معها بغباء شديد.

إن علاقة الهند مع باكستان هي، إلى حد بعيد، الأكثر إثارة للنزاعات. ويصادف عام 2007 الذكرى السادسة لتقسيم الهند الذي أدى إلى قيام دولة باكستان. وقد قتل ما بين مئتي ألف ومليون شخص في نوبة غضب هائج أثناء أحداث التقسيم عندما شن الهندوس والسيخ، هجمات عنيفة على المسلمين، وشن المسلمون بدورهم هجمات عنيفة على الهندوس والسيخ، بينما كانت كل جماعة تفر إلى الجانب المعين لها من الحدود الجديدة. والتقسيم هو جرح مفتوح في نفوس رعايا كلا البلدين يأبى أن يندمل. لقد كانت الهند وباكستان أسيرتين لدورة لا نهاية لها من النزاعات منذ عام 1947.[4] وخاضتا أربع حروب وعدداً لا يحصى من المناوشات الحدودية. واقتربت الدولتان مؤخراً وعلى نحو خطير من الدخول في حرب شاملة، بما فيها من مجازفة بحدوث قتال باستخدام الأسلحة النووية وذلك في عام 2002.

إن الدافع لنشوب هذه الحروب هو دائماً تقريباً قضية كشمير، التي لم يتم إيجاد حل لها؛ وهو إقليم يقع في جبال الهيمالايا، وتطالب به كل من الدولتين، ويقسمه خط المراقبة الدولي الذي حددته الأمم المتحدة. ويظل الوضع بين الهند وباكستان يشكل أهم نقاط التماس المحتملة لاندلاع حرب نووية.

وتقيم الهند روابط منذ مئات السنين مع دول وسط وغربي آسية، لا سيما أفغانستان وإيران. وقد كانت من الدول المانحة الرئيسة لأفغانستان بعد الإطاحة بحكم طالبان، وهي تزودها بالمساعدات الغذائية في شكل قمح. ويرتبط العمال الهنود بعقود عمليات إعادة البناء في أفغانستان، حيث أرسلت الهند فرقة عسكرية صغيرة من القوات الخاصة لحمايتهم من أي هجمات تشنها حركة طالبان. وتلقى الأفلام والموسيقا الهندية شعبية كبيرة في أفغانستان في أي مكان لم يقم فيه أي ناشط من أعضاء حركة طالبان بمنعهم ثانية من الاستمتاع بما يدخل السرور إلى نفوسهم. وتقيم الهند علاقات جيدة مع إيران، وهي تسعى إلى إنشاء خط أنابيب لنقل الغاز الطبيعي الإيراني إلى الأراضي الهندية.

ويعمل أكثر من (4) ملايين من الرعايا الهنود في منطقة الخليج العربي، والعديد من هؤلاء العمال يمكن عدهم أكثر من عمال يشتغلون بعقود خدمة شكلية ويتمتعون بحقوق قليلة، وليست هناك من ضمانات بالنسبة للحدود الدنيا من الأجور أو الفوائد التي يحصلون عليها. وهم غالباً ما يتعرضون لسوء المعاملة، الأمر الذي يشكل مصدر توتر في العلاقات بين الهند ودول الخليج، ولكنَّ القليلين منهم يملكون خيارات أفضل. ويرسل العمال الهنود (5) مليارات دولار كل عام من هناك إلى الهند في شكل أجور. ويعد هذا مصدراً مهماً للقطع الأجنبي بالنسبة للحكومة الهندية، ويجلب الكثير من الأموال التي تحتاجها العائلات والمجتمعات المحلية، التي ينتمي إليها العمال المغتربون من الهنود. كما يؤثر وجودهم في الخليج في النظرة الإستراتيجية للهند إلى هذه المنطقة الغنية بالنفط.

الانضمام إلى النادي النووي

استغرق الإعداد للتجارب النووية التي أجرتها الهند العشرات من السنين، إلا أن الحكومة الهندية التي لم توقع أبداً على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية (NPT) لجأت إلى تعليق تجاربها بسبب فرض رقابة دقيقة من جانب الأمريكيين؛ فقد كانت التجارب التي شهدتها منطقة

بوكهران خطوة جريئة ومتمردة. وكما أوضح مستشار الأمن القومي الهندي في ذاك الوقت براجيش ميشرا بجفاء: «إما يغير المرء السياسة لتلائم المحيط، أو يغير المحيط ليلائم السياسة. لقد ساعدتنا التجارب النووية على تغيير المحيط.» وقد حققت ذلك بالفعل. وكان هذا التحرك الذي جاء مفاجأة للولايات المتحدة قد أغضب الرئيس الأمريكي آنذاك بيل كلينتون[5].

ومع إجراء التجارب، لم تشد الهند انتباه العالم فقط، وإنما كسبت احترامه. وكانت الهند قد أبدت غضبها منذ زمن طويل «إزاء التمييز العنصري النووي» كما كانت تسميه، الذي أبقى على وسائل التكنولوجيا النووية بعيداً عن متناول الجميع باستثناء القلة من الدول المتطورة القوية. كانت الصين قوة نووية. فتساءلت الهند لماذا لا يسمح لها بالحصول على هذه الميزة نفسها؟ وبتحديها للقوى النووية الموجودة وإطلاق الاختبار الناجح للأجهزة النووية، وجهت الهند ضربة لصالح استقلالية تحركها الإستراتيجي، ولصالح جميع الدول النامية التي كانت قد منعت من دخول النادي النووي.

وقد كان هذا بالضبط ما أثار أعصاب الولايات المتحدة. فمن وجهة نظر أمريكية، مثلت التجارب النووية التي أجرتها الهند استهزاءً بالنظام النووي الدولي، وضربت عرض الحائط بسياسة الولايات المتحدة الثابتة والمتعلقة بمنع انتشار الأسلحة النووية. ومع شعورها بقلق عميق إزاء احتمال أن تؤدي التجارب النووية الهندية والتجارب التي سرعان ما بادرت باكستان إلى إجرائها لاحقاً، إلى بدء سباق للأسلحة النووية في شبه القارة الآسيوية، عدا عن ذكر قيامها بتشجيع عدد كبير من الدول الراغبة بالحصول على الأسلحة النووية لمحاكاة مثال الهند، سارعت الولايات المتحدة إلى معاقبة الهند عن طريق فرض عقوبات عليها. وقد كانت هذه العقوبات غير فاعلة إلى حد كبير. وفي أواخر التسعينيات، كانت صناعة تكنولوجيا المعلومات في طور الازدهار، وكانت الشركات الأمريكية بحاجة إلى الهنود من أصحاب الأدمغة لدعم التوسع المستمر في مشروعاتها والتعامل مع أزمة Y2-k المرتقبة*، وظل اقتصاد الهند معزولاً نوعاً ما عن العالم، الأمر الذي شكل حماية له من الأزمة المالية التي شهدتها قارة آسية في عام 1997.

* أزمة تداعي العمليات الحسابية عبر أجهزة الكمبيوتر، التي كان يخشى حدوثها مع بدء الألفية الثالثة واستخدام الصفرين للعام 2000. (المترجمة)

لم تمنع التجارب النووية الهندية الرئيس كلينتون من السعي إلى إقامة علاقات أوثق مع الهند. وكانت زيارته التاريخية إلى الهند في عام 2000، أول زيارة يقوم بها رئيس أمريكي منذ اثنين وعشرين عاماً. ولقي خطاب كلينتون الحافل بالمشاعر العاطفية الذي ألقاه أمام جلسة مشتركة خاصة للبرلمان الهندي في (22) آذار (مارس) عام 2000، ترحيباً كبيراً من أعضاء البرلمان الذين صفقوا له بحماس وقوفاً، وتدافعوا لتهنئة الرئيس شخصياً فيما بعد. وأعلن رئيس الوزراء أتال بيهاري ڤاجپايي: أن الولايات المتحدة والهند كانا «حليفين طبيعيين» مهيئاً الجو العام لحقبة جديدة في العلاقات الأمريكية الهندية. وأبلغ الرئيس كلينتون الحضور من الهنود أن أمريكا «ترحب بقيادة الهند في المنطقة وفي العالم»، وحث البلدين «على تحويل الرؤية المشتركة إلى إنجازات مشتركة، حتى يكون بإمكان شركاء الروح أن يكونوا شركاء في الواقع».[(6)] وبخطاب الرئيس كلينتون، انتهى رسمياً عهد الحرب الباردة من الجفاء بين الولايات المتحدة والهند؛ وهكذا كانت الساحة مهيأة لقيام شراكة غير مسبوقة بين البلدين.

شراكة إستراتيجية جديدة

تولى الرئيس جورج دبليو. بوش منصبه في عام (2001)، وجاء إلى الحكم حاملاً معه نظرة محددة تماماً لأهمية الهند في تقدم المصالح الأمريكية على المدى الطويل وفي المحافظة على النفوذ الأمريكي. وتعززت تلك النظرة بفعل هجمات 11 أيلول 2001. وفي عالم كانت الصين تبرز فيه وبسرعة، بوصفها القوة العظمى الآتية، وكانت الجماعات الإسلامية الإرهابية تصب جام غضبها على أمريكا وغيرها من الأنظمة الديمقراطية، اتجهت إدارة بوش إلى إنشاء شراكة قوية مع الهند باعتبارها ضرورة إستراتيجية واقتصادية على السواء.

وبينما كانت إدارة كلينتون قد شددت على ضرورة عدم انتشار الأسلحة النووية، وعلى وضع حد للتجارب النووية، وشجعت كلاً من الهند والولايات المتحدة على الانضمام إلى معاهدة حظر التجارب الشاملة (CTBT)، قد كانت لدى إدارة بوش فكرة مختلفة عن الدور الذي يجب أن تلعبه الأسلحة النووية في حسابات الأمن الأمريكي. وفي عام 1999، صوَّت مجلس الشيوخ الذي تسيطر عليه أكثرية من نواب الحزب الجمهوري بعدم التصديق على معاهدة حظر التجارب الشاملة. وقاد المسعى آنذاك الرئيس المحافظ للجنة العلاقات

الخارجية في مجلس الشيوخ جيسي هيلمز وزعيم الأغلبية في المجلس ترينت لوت. وكان الرئيس جورج دبليو.بوش، وأثناء الشهور التي سبقت الانتخابات الرئاسية، في عام 2000، قد أكد مراراً أيضاً معارضته لمعاهدة حظر التجارب الشاملة. وشكل فشل مجلس الشيوخ في المصادقة على المعاهدة ضربة للرئيس كلينتون الذي كان شديد الحماس في طرح الحجج والمبررات، التي توجب المصادقة عليها؛ كما دافع عن قضية عدم انتشار الأسلحة النووية ونزع السلاح.

وعقب إجراء انتخابات شهدت منافسات حادة، قامت إدارة بوش الجديدة بعرض رؤيتها الجديدة لأمريكا في العالم عبر إعلان «إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية». وهي وثيقة رائعة في طموحها للحفاظ على وضع القوة العظمى الوحيدة للولايات المتحدة، ولإعداد الترتيبات الخاصة بالدور الجديد، الذي ستلعبه الهند في إطار هذا المسعى:

> «لقد أخذت الولايات المتحدة على عاتقها إجراء تحول في علاقاتها الثنائية مع الهند، يستند إلى قناعة بأن مصالح الولايات المتحدة تتطلب وجود علاقة قوية مع الهند. إننا النظامان الديمقراطيان الأكبر، الملتزمان بالحرية السياسية المصانة بحكم نيابي. إن الهند تتحرك باتجاه تحقيق حرية اقتصادية أكبر أيضاً. ولدينا مصلحة مشتركة في التدفق الحر للتجارة، وهذا يشمل سير عملياتها عبر الممرات البحرية الحيوية للمحيط الهندي.
>
> أخيراً، نحن لدينا مصلحة مشتركة في مكافحة الإرهاب وفي إيجاد قارة آسيوية مستقرة إستراتيجياً.

وتشير كل من عبارة «الممرات البحرية الحيوية للمحيط الهندي» و«قارة آسيوية مستقرة إستراتيجياً»، تشيران بوضوح وإن لم يكن بصورة مباشرة، إلى القوة المتنامية للصين، وكذلك إلى الإرهابيين الذين ينطلقون في عملياتهم من باكستان وأفغانستان.

إن العلاقة الجديدة التي تتصورها إدارة بوش هي بالكاد علاقة بين ندين. وثمة فوارق كبيرة في المستوى لناحية القدرة العسكرية والقوة الاقتصادية بين الهند والولايات المتحدة. فالولايات المتحدة هي أضخم دولة عسكرية على كوكب الأرض، حيث إنها تقوم بإنفاق

نصف الإنفاق العسكري للعالم بأسره. ولا يمكن لأية دولة أخرى غيرها أن تظهر مقدرتها في أي مكان في العالم، وفي مواقع متعددة دفعة واحدة وفي الوقت نفسه. وقد رحبت الولايات المتحدة بعقد شراكة إستراتيجية مع دولة تقع على مقربة من ممرات النقل البحري في المحيط الهندي ضمن مسافة تسمح بالتزود بالوقود ثانية من الخليج العربي، ليس بعيداً عن أفغانستان وعن نفط آسية الوسطى وعند حدود الصين.

وعقب التردد في اتخاذ قرار بشأن رفع العقوبات، وعلى الرغم من تلقي رسالة توصي باتخاذ تلك الخطوة فحسب، كان قد وجهها السيناتور جوزيف بايدن رئيس لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي، قامت إدارة بوش الجديدة أخيراً برفع العقوبات التي فرضتها إدارة كلينتون على الهند وباكستان. ولكنها فعلت هذا نتيجةً لجهد مشترك بين الجانبين عقب هجمات التاسع من أيلول. وطرح فريق بوش نقاشا واقعياً يعترف بالوضع القائم بالفعل للهند بامتلاكها للقنبلة، ويتعهد «بأن يبدأ بالنظر إلى الهند بوصفها قوة عالمية متنامية لدينا مصالح إستراتيجية مشتركة معها». وكذلك تعهدت الإدارة الجديدة بإبرام اتفاقية «شراكة قوية مع الهند من أجل وضع تصور لمستقبل ناجح نابض بالحياة».

وقد اختارت الهند، من جانبها، أن تربط طموحها بالمؤسسة الأمريكية الماحقة، فجمعت كل مايمكنها أن تجمعه من مزايا الأسلحة التكتيكية والتكنولوجية من التحالف مع الدولة الكبرى، وباتت شراكتها مع الولايات المتحدة على الفور، تأكيداً لمكانتها الآخذة في الارتقاء، ووسيلة لتسريع تحقيق طموحاتها في أن تصبح قوة عظمى.

وأصبحت العلاقات ما بين حكومة الهند والإدارة الجمهورية الجديدة ودية بصورة علنية جداً، ولجأ الهنود إلى الإشارة إلى التقارب بين الطرفين بالقول «Bush, bhai bhai BJP» وتعني «حزب جاناتا وبوش أعز الأصحاب (وحرفياً «قريبان كالأخوة»). كان الإصلاح الاقتصادي قد بدأ ينشط، وكانت الشركات الأمريكية تعمل على توسيع مشروعاتها التجارية في الهند. وتم إجراء مناورات عسكرية مشتركة بين البلدين. ونجحت إدارة بوش حتى في جعل الحكومة الهندية تقدم دعماً لفظياً لانسحاب الولايات المتحدة من معاهدة عدم انتشار الصواريخ الباليستيكية (ABM)، تراجعت عنه الهند بسرعة، دون أن يكون لذلك أي تأثير[7]. كان كل شيء آخذاً في الازدهار في العلاقات الأمريكية الهندية.

الهند تتألق

وهكذا فوجئت الولايات المتحدة تماماً عندما هزم حزب جاناتا في الانتخابات التي جرى تنظيمها في الهند عام 2004. وتم استبدال القوميين الهندوس بتحالف يضم ثلاثة عشر حزباً يقوده حزب المؤتمر، الحزب التاريخي المتنفذ في البلاد. وبإطلاق اسم الحلف التقدمي الموحد عليه، حصل التحالف على دعم الأحزاب الشيوعية في الهند، مع أنها لم تنضم إلى الحكومة بشكل رسمي. وأبدت المؤسسات التجارية الهندية والأمريكية خشيتها من أن يتراجع التحالف اليساري عن قرار الانفتاح الاقتصادي في البلاد، وأن يحمل على شراكتها الناشئة مع الولايات المتحدة، بحيث يؤثر في الرغبة في استمرارها. وانهارت سوق الأوراق المالية في بومباي لدى سماع الأنباء وخسرت أكثر من 564 نقطة.

وكان حزب جاناتا قد أدار حملة انتخابية ممتازة، ورددت اللوحات الإعلانية شعاره «الهند تتألق» على صور لطرق سريعة جديدة ومريحة. وأثنت شخصيات النخبة الهندية المثقفة على التقدم الذي كانت تحققه البلاد، بفضل حزب جاناتا. وكان الحليف البارز للحزب تشاندرا باهو نايدو، الوزير الأول لولاية اندرا براديش، دائم التودد إلى شركات المشروعات الاستثمارية الأمريكية. وكان قد حول عاصمة ولايته، مدينة حيدر آباد إلى مركز للتكنولوجيا المتقدمة يزخر بمراكز تجارية مضاءة بأعداد كبيرة من مصابيح النيون، وبعض الطرقات الجديدة الأسطورية. وقد سألني دبلوماسي كبير يعمل في سفارة الولايات المتحدة في نيودلهي بلهجة متحمسة: هل ذهبت إلى حيدر آباد؟ إنها تشبه غورغاون، الضاحية الحديثة المزدهرة لمدينة دلهي، دون الأبقار. إنها الوجه الآخر للهند»، وعندما سألته عما إذا كانت هناك أي جانب سلبي لحكاية التطور السريع للهند، أجاب على الفور: «ولا واحد».

ولسوء حظ حزب جاناتا، فإن عدداً كبيراً من الهنود ممن يعيشون أوضاعاً معيشية أقل رخاء، الذين لم يستخدموا الطرق السريعة الجديدة، أو يشتروا المنتجات البراقة الجديدة، أو يستثمروا في سوق الأوراق المالية، والذين كانت الحياة فيما يخصهم تغدو أصعب بدلاً من أن تصبح أسهل، هؤلاء لم يشاركونه هذه النظرة الوردية المتفائلة. إضافة إلى ذلك فإن حزب جاناتا الملتزم بفلسفة سياسية تدعى «هندوتفا»، كان قد أشرف على سلسلة من

المواجهات الدموية بين الهندوس والمسلمين، عندما حاول الحزب تحويل الهند من دولة علمانية متعددة الديانات إلى دولة هندوسية.

ومما أثار ارتياح الشركات التجارية أن تغيير الحكومات لم يتسبب فيما كان يخشى أن يحصل من توقف لمسيرة الهند، نحو تحقيق تحرر اقتصادي أوسع. وكان هناك رأي سمعته عبّر عنه رجال أعمال هنود في ذلك الوقت، وهو حسبما طرحه أحد المديرين التنفيذيين الكبار، كالآتي: «لقد قطعت العملية شوطاً بعيداً جداً، حتى يتم التراجع عنها. وهي تمتلك زخمها الخاص الآن، وليست هنا من عودة إلى الوراء». ولم يغفل التحالف الحكومي الجديد أي موضوع في عملية الدفع باتجاه إقامة علاقات أوثق مع الولايات المتحدة. وقام بتعيين فريق مقره نيودلهي، ما يزال الهنود يشيرون إليه بوصفه «فريق الأحلام»، يضم عدداً من الاقتصاديين الذين يشجعون التوجه نحو الأسواق الحرة، بمن فيهم رئيس الوزراء مانموهان سينغ، الذي بصفته وزيراً للدفاع، كان قد تنبأ سابقاً بالانفتاح الاقتصادي السريع للهند قبل ثلاثة عشر عاماً. كان سينغ سريعاً في التعهد بالالتزام المستمر لبلاده بتحرير اقتصادها، وتضامنها مع الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب، ورغبتها بالمساعدة على نشر الديمقراطية. فعادت قيمة أسهم سوق الأوراق المالية في بومباي إلى الارتفاع ثانية.

اتفاقية نووية من أجل الهند

لقد تغيرت المواقف الهندية تجاه الولايات المتحدة بشكل جذري منذ أن كنت أعيش في الهند في منتصف الثمانينيات. كان هناك عدد مذهل من الهنود، بمن فيهم أساتذة جامعات ومسؤولون حكوميون، يعتقدون آنذاك أن زوجي الأول الذي كان شاباً وقتها، وهو فنان من مدينة سان فرانسيسكو، كان عميلاً للمخابرات المركزية الأمريكية. ولم يكن بإمكانهم أن يصدقوا أن زمالته في «مؤسسة فولبرايت» كانت تخدم هدفاً غير هدف التغطية على أعمال التجسس. وقد تحول هذا الشك العميق إلى قبول عملي وواقعي، إن لم يكن حماسياً، للولايات المتحدة.

وينظر قادة الهند إلى الشراكة القوية مع الولايات المتحدة باعتبارها مفيدة إستراتيجياً وضرورية اقتصادياً. وكانوا يعملون بنشاط لكسب ود الشركات الاستثمارية الأمريكية، ويستعجلون السماح للشركات الهندية بدخول أسواق الولايات المتحدة، ويضغطون من

أجل تسهيل عمليات نقل التكنولوجيا المتقدمة، ومن ضمنها ما تسمى بوسائل التكنولوجيا المزدوجة الاستخدام مع احتمال استخدامها لأمور عسكرية. وقد تكيف قادة الشركات التجارية الهندية، الذين كانوا يخشون سابقاً التنافس مع الشركات الأمريكية العملاقة وغيرها من الشركات العالمية العملاقة الناشطة في الميدان التجاري، تكيفوا تماماً مع المحيط الدولي، وما يشهده من منافسات. وهم يقومون بالتوسع في الخارج بشكل محموم، وذلك يشمل الولايات المتحدة، مع امتلاكهم مبالغ كبيرة من الأموال الناتجة عن النمو السريع. وتنظر المؤسسات التجارية الهندية إلى الحصول على وسائل التكنولوجيا الحديثة واحتمال إقامة شراكة مع الشركات الأمريكية حول أحدث البحوث والاستخدامات العلمية بوصفه فرصة مواتية كبرى. وقد كانت هذه النظرة إحدى القوى المحركة للجهد الذي تبذله الحكومة لضمان عقد اتفاق للمشاركة مع الولايات المتحدة في الإفادة من وسائل التكنولوجيا ذات الاستخدام المزدوج، بما فيها وسائل التكنولوجيا النووية.

وعلى مدى السنوات العديدة السابقة توصلت الهند والولايات المتحدة إلى عقد صفقات، وتوقيع اتفاقيات وتشكيل مجموعات عمل، وتقديم تقارير تعزز الروابط بينهما عبر مجموعة من القطاعات، وتشمل الدفاع والزراعة والتكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا النانو والطاقة والبيئة والتجارة والاستثمار. وقد تكللت هذه العلاقة بعقد اتفاقية تعاون في مجال استخدام الطاقة النووية للأغراض المدنية، التي تم التوقيع عليها من قبل رئيس الوزراء سينغ والرئيس بوش عندما زار الهند في شهر آذار من العام الماضي.

كان رد الفعل على الاتفاقية في كل من الولايات المتحدة والهند مختلطاً. فقد قال الأمريكيون القلقون بشأن انتشار الأسلحة النووية: إن الاتفاقية النووية مع الهند هيأت الساحة لسباق تسلح عالمي جديد، وبعثت رسالة إلى دول مثل إيران كي تهرع، وتتحول إلى دولة نووية بأسرع ما يمكنها: لقد فعلت الهند ذلك، فانظر إليها الآن. وربما كان عضو الكونغرس الأمريكي إدوارد ماركي أكثر الناس شراسة في انتقاده للاتفاقية بقوله: إنها كانت «لعبة أحجار دومينو نووية تتساقط في وجه 187 دولة أخرى، وإنها مكنت الصقور في كل دولة شيوعية من توسيع خطط الأسلحة النووية، التي وضعوها باعتبار أنه لن يكون بالإمكان عزلهم بعد الآن، نظراً لكونهم غير موقعين على اتفاقية تم تقطيعها لتتحول إلى قصاصات[8] وشكك جورج بركوفيتش

وهو باحث في «مؤسسة منحة كارنيغي للسلام الدولي» ومؤلف كتاب: «القنبلة النووية للهند: تأثيرها في انتشار الأسلحة النووية في العالم».[9] شكك في المقدمات التي ساقتها إدارة بوش في عرضها للمبررات، ومفادها: أن من أولويات السياسة الخارجية الحاجة إلى إقامة توازن مع الصين، وأن تقوية العلاقات الأمريكية الهندية هي وسيلة لتحقيق هذه الغاية، وأن كليهما يستحقان التخلص من نظام يعتمد على قواعد عدم انتشار الأسلحة النووية[10]. وأيد آخرون الاتفاقية من حيث المبدأ، ورأوا فيها فرصة ممكنة لتقوية العلاقات بين الولايات المتحدة والهند، إلا أنهم تمنوا رؤية المزيد مما هو مطلوب من الهنود لناحية الإشراف على برنامجهم النووي العسكري. وعلى الرغم من حقيقة أن الاتفاقية كان مخطط لها ألا يكون لها أي تأثير في برنامج الأسلحة النووية الذي وضعته الهند، فقد أعلن سام نون عضو الكونغرس السابق عضو الحزب الديمقراطي عن ولاية جورجيا الذي يحظى بالاحترام أنه لو كان ما زال في منصبه، فإنه كان سيقوم بدراسة الشروط التي قد تكون ملحقة بالاتفاقية[11]. وربما صدرت أقوى المواقف المعارضة للاتفاقية عن أعضاء مجلس الشيوخ عن الحزب الجمهوري و كايل و انساين و وسيشنز.

وقد جادلت الإدارة الأمريكية بأن الاتفاقية قلصت بالفعل من خطر انتشار الأسلحة النووية عن طريق إدخال الهند التي هي حالياً خارج معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية ضمن حدود الانضباط والإشراف. وأكدت أيضاً أن الاتفاقية كانت ضرورية للهند من أجل تطوير قدراتها من الطاقة النووية في المجال المدني، المهمة لكل من عملية تلبية الحاجات المتزايدة للبلاد من الطاقة وخفض تخفيض انبعاث الغازات من البيوت الزراعية البلاستيكية. ولقيت الاتفاقية دعماً قوياً أيضاً من أعضاء البرلمان عن حزب «بيت الهند»، الذي يسيطر عليه الديمقراطيون. أخيراً بإمكان الاتفاقية أن تشكل مصدراً لثروة كبيرة بالنسبة للشركات التجارية الأمريكية التي استعدت لجني المليارات من الدولارات في هيئة عقود يحظر توقيعها مع الهند بموجب قرار صادر عن نظام الحكم الحالي المعارض لانتشار الأسلحة. وانتهى نقاش المال كما سنرى لاحقاً، بكونه الأكثر إقناعاً.

أما على الجانب الهندي فقد جاءت المعارضة الشديدة للاتفاقية من علماء الذرة الهنود، الذين كانوا يخشون أنها حيلة ماكرة لحرمانهم من تحقيق فتح علمي وشيك في استخدام مادة

الثوريوم التي يمكن أن تجعل البرنامج النووي للهند بغنى عن مادة اليورانيوم. فاليورانيوم يشكل وقوداً أساسياً للمفاعلات النووية. والهند تمتلك القليل منه ولكنها تضم أحد أكبر احتياطات في العالم من الثوريوم. وقد كانت تجتهد في العمل لتطوير وسائل تكنولوجيا محلية لإدارة مفاعلاتها النووية باستخدام مادة الثوريوم. وفي (4) آب (أغسطس) من العام الماضي عشية ذكرى عيد استقلال الهند، بعث أربعة عشر عالماً من أبرز علماء الذرة في الهند رسالة إلى رئيس الوزراء سينغ يحذرونه فيها من الشروط الملحقة بالاتفاقية التي يمكن أن تضعف من مقدرة الهند المستقبلية على تطوير ومتابعة العمل بوسائل التكنولوجيا النووية لما فيه منفعة البلاد»[12]،كما اغتنمت الأحزاب السياسية المعارضة، ولا سيما حزب جاناتا، الذي كان قد دأب على تبني مواقف مؤيدة لاستخدام القوة العسكرية في التعامل مع القضايا الدفاعية، اغتنمت الفرصة من أجل انتقاد الاتفاقية على أساس أن الهند كانت تقدم هبات كثيرة جداً للأمريكيين.

وجاءت الاتفاقية استكمالاً لما كان يسمى (NSSP) أو «الخطوات الآتية في الشراكة الإستراتيجية بين البلدين» المعلنة في 18 تموز (يوليو) (2005) في أثناء زيارة رئيس الوزراء مانموهان سينغ إلى واشنطن دي.سي. وقد تعهدت الولايات المتحدة بموجب (NSSP) أن تتشارك مع الهند وسائل تكنولوجية حساسة ومتقدمة في أنظمة الدفاع الصاروخي، والفضاء المدني، والتكنولوجيا المتطورة، والمجال المدني النووي. وتم التوصل إلى الاتفاقية النووية، التي وقعت في العام الماضي في أعقاب إكمال تجهيز هذه القطاعات الأربعة. وتتمثل الفكرة الأساسية «للخطوات الآتية في الشراكة الإستراتيجية»، في استخدام الهند شريكاً في البحوث والتطوير في ميدان الدفاع الإستراتيجي. وستقوم الهند بإعارة أصحاب الأدمغة الذكية، الذين أثبتوا كفاية عالية في المجالات العلمية والتقنية المعقدة بهدف تطوير وسائل تكنولوجيا مهمة للحفاظ على السيطرة الإستراتيجية للولايات المتحدة؛ وستحظى في هذا السياق، بحق الوصول، وإتقان التعامل، مع هذه الوسائل.

وكانت وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس قد صرحت عندما زارت الهند في عام (2005) : «إن سياسة الولايات المتحدة تقضي بمساعدة الهند على أن تصبح دولة كبرى رئيسية في العالم في القرن الحادي والعشرين» وطبعاً الدولة العالمية الكبرى ليست مثل

الدولة العظمى. ومن الواضح أن إدارة بوش تُعد الهند لأخذ وضع دولة عالمية كبرى حتى تقوم بمساعدة الولايات المتحدة، وعلى نحو أفضل، في الحفاظ على وضعها بصفتها الدولة العظمى في العالم.

وكانت إحدى الحجج الرئيسة التي تسوقها إدارة بوش من أجل الموافقة على الاتفاقية النووية: أن الهند سوف تكون قادرة على تقديم طلبات من أجل الحصول على مفاعلات نووية جديدة، مما يعطي دفعة كبيرة لتنشيط التجارة الأمريكية، وللحملة التي تقودها الإدارة من أجل إعادة تأهيل الطاقة النووية في الولايات المتحدة. إلا أن كل مسؤول هندي كبير بمفرده تكلمت معه في نيودلهي في عام 2006. أكد لي أنه حالما تعطي الولايات المتحدة مباركتها وموافقتها بشأن الاتفاقية، وتحضر مجموعة المؤسسات الموردة للتجهيزات النووية إلى هنا: «فإننا سوف نشتري ما نحتاجه من روسية وفرنسة. فهما أرخص جداً وعندهم الخبرة»، وكان الرئيس الفرنسي جاك شيراك قد زار الهند قبل زيارة بوش إليها بالضبط في العام الماضي. وأكد شيراك للحكومة الهندية أن فرنسة تقف إلى جانبها لمساعدتها على تطوير قدرتها النووية في المجال المدني، حالما يعطي الأمريكيون الضوء الأخضر. وذهب الرئيس الروسي ڤلاديمير بوتين خطوة أبعد بمنح الهند عقداً للوقود النووي على الرغم من معارضة الولايات المتحدة.

ولإثبات صحة موقفها، جادلت الولايات المتحدة بأن الهند كانت قوة نووية على قدر المسؤولية، ولم تشارك أبداً في أي نشاطات تتعلق بنشر الأسلحة النووية. وما من شك أن الهند قد تصرفت كقوة نووية مسؤولة في هذا الشأن على عكس باكستان، حيث قام عالم الذرة الباكستاني الكبير «A.Q.Khan» اي.كيو. خان بإدارة سوبر ماركت حقيقي للقنابل النووية لصالح الدول الشيوعية. كما قام بتمرير أسرار إلى ليبيا، وإيران، وكوريا الشمالية قبل أن يتم منعه على يد الولايات المتحدة من تحقيق غاياته. ومع ذلك وفي اليوم الذي تلا تصويت مجلس النواب الأمريكي بالموافقة على الاتفاقية النووية الأمريكية الهندية، كشفت الإدارة الأمريكية أنها ستقوم بفرض عقوبات على شركتين هنديتين بسبب قيامهما بعمليات نقل صواريخ إلى إيران. وقد جاء هذا الكشف المثير للذهول، بينما كانت إسرائيل تهاجم وبمباركة من الولايات المتحدة، معاقل حزب الله -المسلح من قبل إيران- في لبنان.

ووفقاً لتقرير إخباري نقلته وكالة رويترز، فإن الإدارة الأمريكية كانت على علم بمسألة نقل الصواريخ عن طريق شركتين هنديتين إلى إيران منذ شهور، لكنها حجبت المعلومات بشأنها وأرجأت العمل بقانون العقوبات إلى أن وافق الكونغرس على الاتفاقية النووية مع الهند. «ومن الواضح» كما لاحظ أحد المساعدين، «أنهم كانوا بانتظار تصويت مجلس النواب على الاتفاقية النووية».[13] وقد أبرز هذا التصرف الأهمية القصوى التي أولتها إدارة بوش للخروج بنتيجة موفقة بالنسبة للاتفاقية النووية مع الهند.

لقد جعلت إدارة بوش من شراكتها مع الهند مفتاحاً لتحقيق طموحاتها، بما في ذلك إقامة نظام الدفاع الصاروخي وعسكرة الفضاء (ما يسمى بمشروع حرب النجوم) ودعم التفوق التكنولوجي العسكري للولايات المتحدة بحيث يتجاوز أي تحد محتمل، وإعادة تأهيل الطاقة النووية كجزء مركزي رئيس من سياسة الطاقة الأمريكية، وفتح الباب أمام تدفق المليارات من الدولارات في هيئة مبيعات إلى الهند عن طريق شركات التعهدات الدفاعية الأمريكية. وكانت الإدارة متحمسة بشكل خاص، لإفساح المجال أمام بيع الطائرات النفاثة المقاتلة من طراز (F-18) إلى الهند. وقامت الإدارة وعلى نحو نشط، بالترويج لمصالح الشركات المتنفذة التي ترى في الهند مصدراً لعمالة ماهرة جداً بأجور أقل جداً مما سيضطرون إلى دفعه إلى أشخاص يمتلكون كفاية مماثلة في الولايات المتحدة، كما يرون فيها سوقاً ذات أبعاد ضخمة مرتقبة. وعندما تولى بوش رئاسة الولايات المتحدة، سارعت الحكومة الهندية برئاسة حزب جاناتا إلى تقديم دعمها الكامل لنظام دفاع صاروخي على نمط ذاك المطروح في فيلم «حرب النجوم»، جاعلاً من الهند إحدى الدول القلائل جداً في العالم، التي تدعم برنامجاً كان لا يزال عليه أن يثبت أن بإمكانه أن ينجح، وكان الكثيرون يعدونه معقداً جداً ومضيعة للوقت والجهد والمال.

ومنذ البداية، تحركت الإدارة بشكل محموم لإحداث تحول في العلاقة ما بين الهند والولايات المتحدة عبر وضع إستراتيجية يقررها أصحاب المناصب العليا، ويعهد بتنفيذها إلى من هم أدنى منهم؛ كانت الاتفاقية النووية قد صيغت في سرية بالغة على أعلى المستويات في الإدارة، ثم أُعلنت أمام أعضاء الكونغرس الذين صُعِقوا وأَحجَموا في بادئ الأمر عن الموافقة على اتفاقية تتطلب إجراء تعديلات في القانون الأمريكي الصادر حول القضية

الحساسة المتعلقة بعدم انتشار الأسلحة النووية؛ وتعاملت الحكومة الهندية مع الاتفاقية بأسلوب مماثل تقريباً، كما اصطدمت هي أيضاً بمعارضة شديدة من جانب جموع الناخبين الذين فوجئوا بالأمر. وفي كلا البلدين، يقوم أصحاب المصالح القوية والناشطون في الميدان التجاري والمؤسسات الأمنية العسكرية المتطورة بممارسة نفوذ كبير على سياسة الحكومة.

المتشككون المدنيون

عندما كنت في الهند أثناء زيارة الرئيس بوش لها العام الماضي، كانت هناك مظاهرات ضخمة معارضة له تعم أرجاء البلاد. وفي اليوم الثاني من الزيارة، كانت المظاهرات تشل مدينة دلهي، ولم أتمكن من العودة إلى فندقي بعد خروجي في نزهة صباحية بالسيارة. وكان عليّ أن أجد طريقي سيراً على الأقدام، صعوداً باتجاه الشوارع العريضة لمدينة نيودلهي بالقرب من منطقة كونوت سيركوس «Connaught Circus»، وهي عادة أكثر ازدحاماً بالسياح بدلاً من المتظاهرين. رأيت أناساً من كل أنحاء الهند - مزارعين و عمالاً و ربات بيوت، طلاباً - يحملون لافتات تنتقد الرئيس بوش بسبب الحرب في العراق. وكانت إحدى الجماعات تحمل عالياً دُمية مشوهة للرئيس بوش في صورة «راڤانا» الشيطان الشرير المتعدد الرؤوس، الذي يرد ذكره في ملحمة رامايانا الشعرية. وقد برزت أنيابه والدم يقطر منها.

هناك معارضة شديدة في الهند، مثلما هو الحال في معظم دول العالم، للحرب في العراق، لا سيما بين الدول المسلمة. وفي الأسابيع التي أعقبت زيارة الرئيس بوش، رأيت ملصقات معارضة لبوش، قد جرى لزقها في كل أرجاء الأحياء المسلمة في مدينتي كالكوتا وبومباي. وكان الكثير منها يبرز صوراً تنفطر لها القلوب لنساء وأطفال عراقيين ميتين، قتلوا في عمليات القصف الجوي التي شنتها القوات الأمريكية. وكانت صور إهانة السجناء العراقيين في سجن أبو غريب منتشرة في كل مكان.

الهند والولايات المتحدة نظامان ديمقراطيان يعيشان أوضاعاً سياسية منقسمة ومشحونة، ويتخذ المواطنون فيهما مواقف متنافسة وأحياناً متناقضة، إزاء القضايا السياسية المهمة لمستقبل كل دولة. والحكومة الحالية في الهند التي تقود تحالفاً واسع النطاق، يشمل أحزاباً تعارض بشدة التوسع في تحرير الاقتصاد وإقامة علاقة أوثق مع الولايات المتحدة، هي على

وجه التحديد معرضة لحدوث خلافات واسعة في الرأي وغياب التوافق. فالعلاقات ما بين الهند والولايات المتحدة تهدد الساحة السياسية الداخلية في الهند أكثر مما تهدد الناخبين الأمريكيين.

هناك الكثير من الدلائل التي تؤكد أن المواطنين في كلا البلدين لم يعودوا موالين لحكومتيهما، وإن لم يظهر سخطهم بشكل واضح تجاه سياستيهما الرسمية المعتمدة. ويركز بعض أصحاب هذا الرأي في الهند على العلاقة الوثيقة مع الولايات المتحدة. ويتهم نقاد اتفاقية الأسلحة النووية رئيس الوزراء، برهن الحاجات الإستراتيجية للهند للمشرعين الأمريكيين المستبدّين[14]. وبالإضافة إلى الأوضاع المتوترة ما بين الهندوس والمسلمين، فقد كان للاندفاع السريع باتجاه تحرير الاقتصاد والتنمية الصناعية، المرتبط غالباً بالشركات والأساليب التجارية الأمريكية، عواقب وخيمة على الكثيرين من فقراء الهند بمن فيهم سكان الأحياء الشعبية الفقيرة، الفلاحون، القبائل، وأفراد الطبقات الاجتماعية الأدنى. ويعتقد العديد من الهنود أن الولايات المتحدة منعت الهند من ملاحقة باكستان والجماعات التي تعمل من أراضيها لضرب الهند. أما في القضايا الأساسية المتصلة بالأمن القومي، والتحرر الاقتصادي والتنمية، والإرهاب، فإن الكثيرين من الهنود ينظرون إلى التقارب الحالي بين الحكومة الهندية والولايات المتحدة على أنه يشكل عبئاً كبيراً.

ودل استطلاع للرأي أُجري الصيف الماضي أن (34) بالمئة فقط من الهنود شككوا في الانطباع السائد عن رئيس الوزراء سينغ بأنه «مناصر للفقراء». وعبر (56) بالمئة عن عدم سرورهم بالزيادات التي تطرأ على الأسعار[15] وتجادل حكومة التحالف التقدمي الموحد (UPA) بأن تحقيق النمو هو الطريقة الوحيدة للملايين من الهنود للخلاص من الفقر، وأنه يجري العمل على إيجاد وظائف في مجال التصنيع. إلا أن هذه العملية تستغرق وقتاً وليس بإمكان فقراء الهند الانتظار.

من جانبها أولت إدارة بوش اهتماماً كبيراً للموافقة على الاتفاقية النووية الهندية الأمريكية، وهي إنجاز واضح للسياسة الخارجية سيبرز من بين الإخفاقات الهائلة للسياسة الخارجية، التي تتبعها إدارة الرئيس بوش. ووفقاً لاستطلاع آخر للرأي العام أجرته شبكة

تلفزيون (سي.ان.ان) في نهاية شهر آب من عام 2006، فإن ثلث الشعب الأمريكي فقط كان يؤيد الحرب في العراق؛ وعارضها واحد وستون بالمئة. وقال خمسة وسبعون بالمئة من الأمريكيين: إنهم لا يتفقون مع وجهة نظر الرئيس حول القضايا التي تهمهم، وهي النسبة نفسها التي أبدت معارضتها له بشكل عام. وقد انعكست هذه الآراء في الهزيمة المدوية التي لحقت بمرشحي الحزب الجمهوري في أثناء الانتخابات النصفية، التي أعادت السيطرة على كل من مجلسي الكونغرس، إلى الديمقراطيين.

لقد جعلت الحرب في العراق، والإرهاب، وأسعار النفط، من الهند ومن قضية عدم انتشار الأسلحة النووية شأناً أقل أهمية نهائياً بالنسبة للرأي العام في الولايات المتحدة. ولم يؤد تراجع الدعم لرئاسة بوش إلى إسقاط الاتفاقية النووية الأمريكية الهندية، التي تمت الموافقة عليها بناءً على مجموع أصوات نواب الحزبين، بنسبة ساحقة بلغت 85 إلى 12. كما تم إفشال عملية إدخال سلسلة من التعديلات القانونية التي تعارضها الهند. إلا أن الآلية المتبعة في العقود الخارجية للوظائف التي تنتقل من أمريكة إلى الهند ومنح أعداد كبيرة من تأشيرات الدخول من فئة H-IB للعمال الهنود، وهي مسألة كانت مطروحة في الانتخابات الرئاسية في عام 2004، تمتلك الإمكانية لكي تبرز مجدداً باعتبارها قضايا مثيرة للخلاف في حين تستمر شركات تكنولوجيا المعلومات في الولايات المتحدة بتسريح أعداد من العمال الأمريكيين. وإذا ما أدرك الناخبون الأمريكيون المدى الذي وصلته شركتا السيارات الأمريكية العملاقتان جي.ام G.M، وفورد Ford -وكلاهما قام بإحداث خفضتخفيض جذري في رواتب الموظفين في الولايات المتحدة- في زيادة الإنتاج في الهند، فإنهم لن يكونوا مسرورين.

عالم الهند متعددة الأقطاب

بإمكان الشراكة الإستراتيجية الجديدة بين الولايات المتحدة والهند، والتجارة المزدهرة بين البلدين، وتزايد مدى الرؤية والنفوذ السياسي للمجتمع الأمريكي - الهندي الناجح، بإمكان ذلك كله أن يعطي الأمريكيين الفكرة بأن الهند تركز حصرياً على الولايات

المتحدة. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة المعقدة للعمل السياسي المرتبط بالجغرافيا في الوقت الحاضر.

والهند دولة رائدة بين الدول النامية. وهي إحدى الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز (NAM)، وما تزال تلتزم بأهداف الحركة في تمكين دول جنوب الكرة الأرضية، وفقاً لشروطها، وبدمقراطة المؤسسات الدولية التي تستغلها حفنة من الدول الغنية والقوية. وجرى توضيح هذا الأمر بصورة وافية عن طريق الدور الذي قامت به الهند في تمثيل مجموعة العشرين G-20، للدول النامية المشاركة في محادثات منظمة التجارة العالمية (WTO)، أثناء ما يسمى دورة مفاوضات الدوحة. وكان الغرض من هذه الدورة التي عقدت في مدينة الدوحة بدولة قطر عام 2001، هو إلغاء المعونات غير المشروعة وإعادة تنظيم قوانين التجارة العالمية من أجل دعم اقتصادات الدول النامية وإنعاشها.

وقد انهارت المحادثات في عام 2006، عندما وجهت الهند اللوم إلى الولايات المتحدة بسبب رفضها خفض المعونات المالية للمنتجات الزراعية الرئيسة، كالقطن، بينما تطالب بحق دخول الأسواق الهندية من دون قيود. وأكد وزير التجارة كمال ناث في مواجهة الموقف الأمريكي المُتعنّت «أنه كان لزاماً على الدول النامية أن تظل متحدة لضمان عدم فرض قوانين غير منصفة عليها»[16]. ومن دون الخروج بنتيجة موفقة لدورة محادثات الدوحة، كان بانتظار مستقبل منظمة التجارة العالمية بوصفها الإطار الوحيد للعمليات التجارية متعددة الأطراف، وضع غامض.

لقد تغير العالم كثيراً منذ تأسيس الأمم المتحدة في عام 1945. ولا بد أن السيطرة المستمرة على المنظمة الدولية من قبل الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن - الولايات المتحدة وروسية والصين وفرنسة وإنكلترة - مازالت تثير الانزعاج لدى الهند بشكل خاص. وفي اجتماع لدول عدم الانحياز عقد في مدينة هافانا عاصمة كوبا في عام 2006، قال رئيس وزراء الهند مانموهان سينغ للأعضاء المجتمعين: «إن إصلاح الأمم المتحدة وإعادة الحيوية إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة يشكل ضرورة ملحة. إنّ على العالم النامي أن يجد تمثيله اللائق الذي يستحقه بين الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن. وعلينا أن

نتكاتف مع الدول الأخرى التي تفكر مثلنا من أجل تشجيع عملية دمقرطة آليات الحكم العالمية، التي تبشر بقيام نظام حكم سياسي عالمي يستند إلى حكم القانون، والمنطق، والمساواة». وحذر السيد سينغ بأن الدول الأعضاء في حركة عدم الانحياز «تواجه ثاني خطر عالم يجري تمزيقه على طول خط فاصل ديني وثقافي مصطنع»[17].

حضرت الهند، والبرازيل، والصين، والمكسيك، وجنوب إفريقية والكونغو اجتماع قمة التعاون لدول مجموعة الثماني الذي عقد في شهر تموز من عام 2006 في جنيف. واستغلت الهند مشاركتها في المؤتمر من أجل تشجيع الشراكة ما بين الدول النامية والدول المتقدمة، لا سيما في مجالات التعليم، ومكافحة الأمراض المعدية، وأمن الطاقة العالمي، ومن أجل إقامة علاقات شراكة جديدة مع دول نامية أخرى. وفي أثناء وجوده في جنيف أجرى السيد سينغ مباحثات مع الرئيس البرازيلي لولا دي سيلفا تناولت موضوع استخدام وقود الديزل الحيوي والإيثانول. وكانت البرازيل قد تفوقت عالمياً في إنتاج هذه الوقود البديلة. وتبنت الهند والبرازيل ثانية قضية أمن الطاقة عندما اجتمع وفداها في مدينة برازيليا بعد ذلك بشهرين لحضور الجلسة العامة الأولى لقمة رؤساء دول الهند، البرازيل وجنوب إفريقية (IBSA).

وقد أكد السيد سينغ أن فكرة منظمة «الابسا» (IBSA) لا سابقة لها. «فالابسا» لا يقصد بها أن تعود بالفائدة على الهند، والبرازيل وجنوب إفريقية فحسب، وإنما أن تعمل بوصفها عاملاً مساعداً على إحداث التغيير في كل أنحاء العالم النامي. كما أكد أن «مرفق إبسا للحد من الفقر والجوع» يمثل مبادرة رائدة للتعاون بين الجنوب والجنوب. إنه أمر فريد بالنسبة لثلاث دول رئيسة نامية أن تتكاتف معاً وتقيم مشروعات قابلة للتكرار وتوسيع نطاقها في دول نامية أخرى»[18].

وتسعى الهند إلى زيادة التبادل التجاري والتعاون مع اليابان، وكورية الجنوبية، وسنغافورة، وأسترالية، ودول جنوب شرق آسية. وهي مكلفة بإجراء حوار مباشر مع منظمة آسية ASEAN، «رابطة دول جنوب شرق آسية». وتركز سياسة التوجه شرقاً التي تعتمدها الهند بشكل واضح على الأهمية التجارية والإستراتيجية لتوسيع علاقاتها مع هذه المنطقة، بما فيها دولة ميانمار - التي تصر الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي على فرض عقوبات اقتصادية عليها وتوجه

انتقادات مستمرة إلى سجلها الخاص بحقوق الإنسان. وقد وقعت الهند اتفاقية مع ميانمار للتنقيب عن النفط والغاز في عام (2005). وكما هو الحال مع إيران فإن اهتمام الهند بتأمين مصادر إضافية للطاقة التي هي بأمسّ الحاجة إليها سوف يفوق اهتمامها بعوامل أخرى عندما تنخرط في التعامل مع دول أخرى غنية بالنفط والغاز الطبيعي.

وتقوم الهند، بإعادة بناء علاقاتها مع روسية عقب المدة الانتقالية التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي. وقبل عام مضى، وقّعت الدولتان اتفاقية تعاون اقتصادي شامل (CECA) تضع خطة لإحداث زيادة في التبادل التجاري الثنائي بين البلدين يصل إلى (10) ملايين دولار بحلول عام 2010. وتظل روسية شريكاً عسكرياً مهماً - لا تزال الدولة المورد الرئيس للسلاح إلى الهند- وقد تعهدت بمساعدة الهند على تطوير قدراتها النووية في المجال المدني. كما دخلت الشركة الهندية للنفط والغاز الطبيعي (ONGC) في ائتلاف مع شركة «روسنيفت» Rosneft الروسية للنفط المملوكة للدولة من أجل تطوير حقول جديدة في منطقة ساخالين، بحر قزوين، وسيبيريا[19]. ويشتد التنافس بين روسية والولايات المتحدة للحصول على عقود توريد المشتريات الدفاعية والتكنولوجيا النووية إلى الهند. وفي سياق العلاقات المتردية بين روسية والولايات المتحدة، فإن انتعاش علاقات الهند مع روسية ينطوي على إمكانية إحداث توتر في العلاقات بين الهند والولايات المتحدة.

ويجمع الاتحاد الأوروبي والهند سجل تاريخي طويل: فقد كانت الهند إحدى أولى الدول التي اعترفت بالمجموعة الاقتصادية الأوروبية (EEC) في عام 1963، التي سبقت قيام الاتحاد الأوروبي. والاتحاد الأوروبي هو الشريك التجاري الأكبر للهند؛ وتنمو التجارة ما بين الهند والاتحاد الأوروبي بنسبة (20) بالمئة سنوياً. وعلى الرغم من أن فرنسة وألمانية تعملان من أجل تطوير علاقاتهما مع الهند، وكانت فرنسة تشكل على مدى طويل مصدراً مهماً لمبيعات الأسلحة إلى الهند، فإن القسم الأكبر من تجارة الهند مع الاتحاد الأوروبي يتم مع المملكة المتحدة. كما تجمع الهند والمملكة المتحدة علاقة خاصة تميزها أربعة قرون من التفاعل القوي. وقد أوجدت الهجرة من الهند وباكستان إلى المملكة المتحدة سكاناً بريطانيين من أصل آسيوي تمكنوا من تحقيق نجاحات كبيرة.

الاتفاقية الموقعة مع الصين

ليس من المرجح أن تلعب الهند دور الشريك الأصغر في البحوث العلمية لجهاز البحوث التجاري والعسكري الأمريكي. فالهند حذرة إلى حد كبير من تعريض مقدرتها الحيوية والمستقلة والمترسخة في مجال الأبحاث العلمية للخطر. وقد قامت بتوثيق علاقات قوية مع الاتحاد الأوروبي و روسية و الصين ومجموعة من الدول الأخرى. وهي تسعى بنشاط إلى إقامة علاقات شراكة إستراتيجية، وعقد صفقات تجارية، والحصول على مشتريات الأسلحة من مصادر أخرى متعددة. وتدفع احتياجات الهند من الطاقة بالبلاد في اتجاهات لا تستطيع الولايات المتحدة ببساطة أن تسيطر عليها ولا أن تمنع السير فيها، مع أنها ربما ترغب في ذلك، بما فيها الاتجاه لإقامة علاقات قوية مع إيران وميانمار.

في شهر تشرين الثاني 2006، قام رئيس وزراء الصين هو جينتاو بزيارة إلى نيودلهي. وتعهد البلدان في ختام المباحثات برفع التبادل التجاري الثنائي إلى (40) مليار دولار بحلول عام (2010). وتردد أنهما على وشك إبرام صفقة نووية في المجال المدني. وأولت الهند، وقد كانت لمدة طويلة تشكل ملاذاً لسكان التيبت المنفيين، اهتماماً وافياً للزيارة إلى حد أنها منعت المعارضين التيبيتيين من التظاهر في أثناء زيارة رئيس الحكومة الصينية للبلاد. وقيل: إن اهتمام الهند بعقد صفقة مع المسؤولين الصينيين كان ذا شقين: واحد، لم ترغب الهند المحايدة عادة أن تُشاهد، وهي تميل كثيراً نحو الولايات المتحدة؛ وأسهم عقد اتفاقية مماثلة مع الصين في تعديل هذا الانطباع؛ اثنان، تحتاج الهند إلى الصين، بوصفها عضواً في مجموعة موردي الأسلحة النووية (NSG)، لكي توافق على تمرير اتفاقية الأسلحة النووية بين الهند والولايات المتحدة. وحتى لا تُهزم داخل منطقتها على يد الولايات المتحدة، قيل: إن الصين كانت على وشك عرض صفقة مشابهة على باكستان[20]. ولجأت الصين في كلتا الحالتين وبصورة فاعلة إلى إحباط الخطوة التي قامت بها الولايات المتحدة لدعم الترسانة العسكرية للهند وزيادة مبيعات الأسلحة إليها بوصفها دولة حليفة توازي في نفوذها وقوتها النفوذ الصيني المتنامي في المنطقة، وأعادت تأكيد نواياها بالإبقاء على متابعة شؤونها في منطقة جنوب آسية بشكل دائم.

إن المعاني الضمنية لنظام عدم انتشار الأسلحة النووية بأكمله هي معانٍ واقعية متَّزنة. وحسب تعليق ستيفن كوهين، الخبير في معهد «بروكينغز» لشؤون جنوب آسية، فإن «هذا يشكل دلالة على الفوضى. وليس هناك من مخطط للعبة»[21] فالولايات المتحدة، وباعتبارها قد بادرت إلى هذه الجولة الأخيرة من سياسة حافة الهاوية التي تتبعها في التعامل مع قضية الأسلحة النووية -ولو في نطاق تطوير الأسلحة النووية في المجال المدني- تتحمل مسؤولية في المساعدة على التوصل إلى مجموعة جديدة من القوانين لتحل محل النظام القديم الخاص بعدم انتشار الأسلحة النووية، والذي بطل استخدامه حالياً بشكل واضح. ولابد لها أيضاً من أن تقر بأن أية مساعدة مادية أو عسكرية تقدمها إلى الهند، يمكن أن تُلحق بمساعدة إضافية أو حتى مساعدة تضاهيها تقدمها الصين -عدا عن ذكر القوتين النوويتين: روسية وفرنسة، اللتين تراقبان حجم إمكانيات السوق الهندية- وبأن الهند متلهفة للعيش في مناخ هادئ مع جارتها الشمالية الكبيرة.

طموح الهند

تطمح الهند بشدة أن تكون دولة كبرى بعدما باتت الآن رابع أكبر نظام اقتصادي في العالم، وفقاً لمقاييس معادلة القوة الشرائية (PPP). ويتوقع لها أن تصبح وبحلول عام 2034، أكثر دولة على سطح الأرض ازدحاماً بالسكان بالنسبة لمساحتها. والهند هي إلى حد بعيد، دولة رئيسة في جنوب قارة آسية. وهي دولة نووية معترف بها تمتلك صواريخ قصيرة المدى ومتوسطة المدى تمت تجربتها بنجاح. وكانت الهند قد أصرت في العام الماضي على إجراء تجربة على صاروخ بعيد المدى قادر على حمل رؤوس حربية نووية. ولدى الهند جيش قائم محترف يبلغ تعداده مليون رجل تقريباً، وسلاح جو قيل: إن طياريه كانوا يتفوقون على نظرائهم الأمريكيين في الأداء في أثناء التمارين العسكرية المشتركة التي جرت عام 2004.[22] ولديها أيضاً سلاح بحرية أرسل مساعدات إلى أندونيسية عقب كارثة التسونامي في وقت لاحق من ذلك العام.

وتضاف إلى مزايا السلطة القاسية هذه ميزة السلطة اللينة، التي تتمتع بها الهند. فالهند تمتلك بوصفها نظاماً ديمقراطياً ومجتمعاً مفتوحاً، وكذلك بوصفها زعيمة للعالم

النامي، سلطة أخلاقية كبيرة. ولابد أن الدور القيادي الذي تقوم به الهند في الدفع باتجاه إحلال الديمقراطية في مؤسسات النظام العالمي، سواء كان مجلس أمن بهيئة جديدة تابعة للأمم المتحدة أم محادثات تجارية تحت رعاية منظمة التجارة العالمية، والتزامها بعالم متعدد الأقطاب، يُعلي من مكانة الهند بين الأمم. كذلك فإن جاذبية الثقافة الهندية الشعبية والراقية آخذة في الازدياد في حين يتحول مركز الجاذبية الذي يستقطب الاقتصاد العالمي ورأس المال، باتجاه قارة آسية. ومثلما تبرز الهند بوصفها منافساً عالمياً جديداً وسوقاً عالمية كبرى جديدة، فإن مقدرتها على تأكيد طموحها سوف تبرز على نحو مماثل.

ومع ذلك فإن الخراب قد يحل بالهند إذا ما أخفقت في معالجة محنة فقرائها، وإذا ما سمحت لنفسها بأن تغريها وعود القوة الغاشمة. إن عدم التناسب في ما تنفقه الهند على التسلح مقابل ما تنفقه على أيٍ من المشكلات الملحة التي تواجهها البلاد أمر يثير شعوراً بالصدمة سابقاً. وإن لم تجد الهند الوسائل لمعالجة هذه المشكلات، فإن الترسانة العسكرية الضخمة لن تجديها نفعاً.

ولا تزال الهند تمثل الدولة المجاورة الخطيرة التي حذر منها جاسوانت سينغ قبل عشر سنوات، وهي كذلك إلى حد ما، بسبب اعتمادها على قوتها العسكرية. ولم تؤد التجارب النووية التي أجرتها باكستان مباشرة عقب إجراء التجارب النووية الهندية في عام 1998، إلى التخفيف من الوضع، وإنما أدت إلى تصعيده. وفي تحدٍ لسلاح الردع النووي الجديد -وربما بالضبط لأنها ضمنت ضبط النفس اللازم من جانب الهند- فقد انهمكت باكستان بعد ذلك في مناوشات عبر الحدود تفاقمت في عام 2002، لتؤدي إلى حرب الكارغيل*.

وتظل منطقة جنوب قارة آسية نقطة التماس الأكثر ترجيحاً لحدوث قتال بالأسلحة النووية على كوكب الأرض. وسيكون الثمن الذي ستدفعه البشرية لمثل هذا الحدث مخيفاً جداً لمجرد التفكير فيه.

* وقعت أحداثها بين شهري أيار وتموز في منطقة «كارغيل» من إقليم كشمير عقب قيام جنود باكستانيين ومقاتلين كشميريين بالتسلل داخل مواقع تابعة للجانب الهندي من خط المراقبة. (المترجمة)

الخلاصة

مصير العالم من مصير الهند

كان المهاتما غاندي يؤمن بشدة بقدرة الشعب. وكانت قوة المجتمع الهندي بالنسبة إلى غاندي تكمن في أفراده الأكثر تواضعاً. كانت رؤيته المثالية بالنسبة للهند تتجلى في أمة تضم قرى تتمتع بالاكتفاء الذاتي، ويعيش فيها مواطنون يحظون بمعاملة منصفة، وتحكمها الهيئة السياسية المنتمية للبلاد، أي المجالس المحلية للقرى، «بانتشايات». ومما يثير الاستغراب أنه وبينما تهرع الهند لاحتضان ثقافة استهلاكية، فإن أفكار غاندي عن سياسة الاحتواء وتعميق الديمقراطية لتشمل المشاركة الكاملة للفقراء، آخذة في الانتشار بدلاً من أن تفقد زخمها، وقال لي تي.سي رامادوراي: «إن ما نرينه الآن في الهند هو نوع من الحساسية الجديدة لنشر الثراء، ليس فقط في الطبقة العليا، وإنما في الطبقة الوسطى التي تتوسع داخل المناطق الريفية».

كان غاندي يؤمن بأن منطق التكنولوجيا التي يتم تطويرها إكراماً للتكنولوجيا أدت بشكل حتمي إلى الدمار. وكان يلتقي في هذا الرأي مع الفيلسوف الألماني مارتين هايدغر وعالم الفيزياء الأمريكي روبرت اوبنهايمر مخترع القنبلة الذرية. وكما أدرك اوبنهايمر، بعد فوات الأوان، فإنه حالما يخرج الجنّي من الزجاجة، فليس هناك من طريقة لإعادته إليها. وحالما يتم اختراع تقانة ما، فثمة احتمال بأن يجري استغلالها.

لقد زيّن دولاب غزل الخيوط الذي كان يعمل عليه غاندي وسط العلم الوطني لحزب المؤتمر. ويستمر الهنود في احتضانه رمزاً لنضال بلادهم من أجل الاستقلال. إلا أن معظمهم يرفضون، كلياً، رسالته عن التكنولوجيا. وكان غاندي قد حذر بأن التكنولوجيا تميل إلى توليد رغبات ترضي من يمليها بدلاً من إرضاء الحاجات البشرية. وكان رد غاندي

على هذا الأمر أن يحرم نفسه وحياته، بالفعل، من كل شيء لم يكن من نتاج أبسط وسيلة تكنولوجية ممكنة.

كان جدي الهندي من أتباع غاندي المتشددين، باعتبار أنه كان منخرطاً في الحركة السوادايشية لاستقلال الهند في شبابه. كنا جميعنا ندعوه «باپوجي» **Bapuji**، وهو الاسم المحبب ذاته الذي ينم أيضاً على الاحترام والتقدير، الذي كان يطلقه أتباع غاندي المقرّبين منه على المهاتما. وهو يعني شيئاً أشبه «بالأب المحترم». ومهما كان حجم المال الذي يجنيه هو أو الذي يجنيه أولاده، فقد كان «باپوجي» الذي يمتُّ لي بصلة القربى يرتدي دائماً الـ «كادي دوتي» «**Khadi dhoti**» وهو قماش فضفاض مصنوع من القطن المنسوج في المنزل يرتديه الرجال الهنود، لتشكيل نمط من السراويلات الفصفاضة. كنت أحب الجلوس على الهيكل الحديدي القديم للسرير الموجود في غرفة نومه في جوهو، وفي الخلفية بث لإذاعة صوت أميركة أو الـ «بي. بي. سي» على جهاز الراديو، والاستماع إلى كلمات جدي الحكيمة. قال لي باپوجي: أنا حفيدته الأمريكية، مرات عديدة «يجب عليكِ أن تسيطري على التكنولوجيا. لا تدعي التكنولوجيا تسيطر عليكِ. لا تستخدمي إطلاقاً أية آلة لا تستطيعين تفكيكها وإعادة تركيب أجزائها معاً بنفسك».

ونظراً إلى كون التخلي عن استخدام كل نوع تقريباً من الآلات والأجهزة أمراً غير عملي بشكل جلي فيما لو تم تطبيق هذا المبدأ فعلياً، فقد عُدّت آراء غاندي حول موضوع التكنولوجيا تافهة، وجرى التقليل من أهميتها. وهي، في الواقع، آراء متعمقة ولا تزال حية في مفهوم التكنولوجيا الصحيحة.

وقال لي روبين أبراهام: «إن الناس يميلون إلى التعلق بالتكنولوجيا ويولعون بها. وهم يخفقون في إدراك أن التكنولوجيا هي وسيلة من أجل الوصول إلى غاية، وليست الغاية بحد ذاتها: فالكهرباء لا تفعل شيئاً بمفردها. إن ما تفعلينه أنت بالكهرباء هو الأمر المهم». ويعمل روبين على تأسيس مبادرة مشتركة من أجل التنمية المستدامة بالتعاون ما بين جامعة كورنيل وكلية إدارة الأعمال في مدينة حيدر آباد. وقد سألني: كيف تحظون بهذا النوع من التطور من دون تدمير البيئة؟ إذا ما تطورت الهند والصين مثلما تفعل الولايات المتحدة، فإننا جميعنا سنواجه مشكلات خطيرة. ولابد للاستدامة من أن تكون متركزة

في آليات المشروعات التي تقوم بها الشركات. لا يمكنك أن تقومي بتنفيذ المشروعات في هذه الناحية أولاً، ثم تفكرين في الاستدامة، في الناحية الأخرى. فهذا لن يكون مفيداً كثيراً لتحقيقها».

ويقوم رؤساء الشركات الهنود من أصحاب الأفكار المتبصرة، وكما رأينا، بتشكيل نموذج جديد لنظام رأسمالي شمولي مستدام ربما يكون أفضل أمل لنا من أجل مستقبل يتهدده الاحتباس الحراري العالمي وأوضاع مؤلمة من الظلم وغياب المساواة. وتستند جهودهم إلى الحقائق المريرة التي تعيشها الهند اليوم. وكان الدكتور شيتي قد سألني: لماذا ستقدم الهند على تحقيق هذا التغيير الهائل؟ وتابع قائلاً: «سوف أخبرك. نحن بارعون في إنشاء المؤسسات، والمال وحده لن يفعل شيئاً. وهذه هي اللحظة المناسبة بالنسبة للهند».

وكما قالت لي روهيني نايلكاني زوجة ناندان نايلكابي، وهي امرأة شديدة الالتزام بالعمل على إحداث تغيير اجتماعي في الهند وإنقاذ بيئة البلاد: «الكثيرون منا يحاولون تشريح هذا الوحش المسمى الفقر، فهو يتجسد في عدة أشكال. وهناك في الهند ثلاثة ملايين شخص يعيشون بأقل مما يكفيهم من الطعام. وقالت بلهجة تحذيرية: «قد يحدث أي شيء، لذا علينا أن نسأل أنفسنا كيف يجدر بنا أن نتدبر صناعة القرار في هذه البلاد. إننا نجد في مواقع العمل من أجل تعميق الديمقراطية».

وتؤثر في هذه الجهود أيضاً نهضة ثقافية تبحث عن إعادة تعريف معنى أن تكون هندياً في القرن الحادي والعشرين. وقال لي باڤان ڤارما مؤلف كتاب: «أن تكون هندياً» ورئيس «المجلس الهندي للعلاقات الثقافية» «إن حافز الطموح هائل جداً، وهو يتجسد في الرغبة في إيجاد مكان تحت الشمس إلا أننا بحاجة إلى مفهوم لاحترام الذات ليس مشتقاً فقط من القدرة الاقتصادية المتزايدة. فثقافتنا لم تولد بالأمس. وعلينا أن نغوص في هذه الثقافة، وأن نرتقي بها إلى المستوى العالمي. من جانبه، عبر كاران غروڤر المهندس المعماري المتخصص في تصميم مشروعات صديقة للبيئة، عن وجهة نظره مؤكداً أن «ما أريد أن أقوله في النهاية هو أننا نمتلك الموارد، ونمتلك المشروعات اللازمة لكي تنقلنا إلى مكان آخر».

الهند نظام ديمقراطي معقد، ومشاكس، وغالباً ما يكون متنافراً، وتتعارض فيه وجهات النظر والتصورات، وتشتد المنافسات. ومع ذلك فقد وجدت إجماعاً مذهلاً حول مفاهيم الشمولية والاستدامة متأصلة في التراث الثقافي الفريد للهند.

غير أن هناك هنداً أخرى: الهند التي تقبلت بحماس فكرة تفجير جهاز نووي بوصفه نصراً محققاً وتعبيراً قوياً عن لا مبالاتها برأي الآخرين، الذين يرغبون في إبعاد هذه الدولة العظيمة عن نادي الدول التي تمتلك أسلحة نووية؛ الهند التي تنفق على المشتريات العسكرية أكثر مما تنفقه أية دولة متقدمة أخرى، بينما يتضور مئات الملايين من شعبها جوعاً. وقد سميت صواريخ الهند بأسماء غزاتها الفاتحين مثل صاروخ «بريثڤي» Prithvi تيمناً باسم الحاكم بريثڤي راج تشوهان الذي عاش في القرن الثاني عشر. كما يطلق على صواريخ الهند أسماء العناصر فهناك: صاروخ (آغني Agni) وتعني النار و(آكاش Akash) وتعني السماء. وآغني هو أيضاً اسم آلهة النار عند الهندوس. أما الصاروخ تريشول Trishul فقد سمي باسم السلاح الذي كان بحوزة الآلهة سيڤا Siva. هذه هي الهند التي جاءت في السطور التي اقتبسها روبرت اوپنهايمر من كتاب «Bhagavad Gita»* لدى إدراكه أهوال ما تم إطلاقه بوساطة القنبلة الذرية: «الآن أصبحت أنا الموت، مدمر العوالم». وكانت الهند قد تعهدت بأن يكون برنامجها العسكري، وهذا يشمل الأسلحة النووية، مخصصاً لأغراض دفاعية فقط، ولكن ما من شك أن هناك سباقاً للتسلح قائماً في جنوب آسية وأن المنطقة هي من أخطر المناطق في العالم.

كانت أنهار وغابات الهند القديمة مليئة بالأسپاراس Apsaras، أي حوريات الماء والغابات اللواتي كانت رقصاتهن وأُغنياتهن تخلب الألباب مع حسنهنّ وجمالهنّ. وتزين الأشكال الملتوية للحوريات أعمدة المعابد في كل أنحاء الهند، وهنَّ يمثلن مع التفاف أطرافهن الناعمة باتجاه السماء، نسغ الحياة بحد ذاتها. وفي نظرية نشوء الهند التي يتبناها الهندوس، تعد الأنهار من الآلهة: نهر الغانغا، السابراماتي، النارمادا، الساراسواتي الذي يسيل في باطن الأرض حالياً. وقد قادت النساء في الهند أكثر الجهود دأباً لإنقاذ بيئة البلاد من الدمار

* ومعناها باللغة السنسكريتية «أغنية الرب» وهو كتاب مقدس لدى طائفة الهندوس، ويعد أكثر الأعمال الأدبية الخالدة تمحوراً حول الدين في العالم. وهو يضم سبعمئة بيت من الشعر للمعلم الروحي كريشنا. (المترجمة)

المتعمد الذي تتسبب فيه عمليات الاستغلال، التي لا تخضع لأية مراقبة. وكانت النساء من عضوات «حركة تشيبكو» قد لففن أجسادهن حول الأشجار في عناق رقيق من أجل إنقاذها من منشار قاطع الأخشاب. وكل الناشطات البارزات في مجال البيئة في الهند من النساء: ميدها باتكر، التي كافحت ضد إقامة سد على نهر نارمادا؛ سونيتا ناريان من مركز العلوم والبيئة التي حازت على جائزة «مؤسسة ستوكهولم للمياه» لعام 2005، وأروندراتي روي، التي لم تتوقف عن الكتابة، وحملت لواء الدفاع عن عدد من القضايا، وڤاندانا شيڤا التي تصف نفسها بأنها من النساء المدافعات عن البيئة التي تناضل من أجل الزراعة المستدامة.

ومن البنك الدولي إلى هيئات الأمم المتحدة إلى المنظمات غير الحكومية الرائدة، هنالك توافق على أمر واحد: هو أن الأساس للقضاء على الفقر، والجهل، وعلى تدمير البيئة والأمراض المتفشية في الهند بما فيها وضع حد لوباء الإيدز، الذي ينشط بسرعة كبيرة، قائم في تمكين المرأة وتعزيز وضعها، وهذا يقال بشكل سهل، وتحقيقه أقل سهولة، ونادراً ما تتم الإحاطة بكل تأثيراته ومعانيه الضمنية.

منذ أكثر من عام بقليل أدليت بحديث في نيودلهي إلى مجموعة من المحللين العسكريين والسياسيين الهنود الكبار حول ميزة السلطة اللينة في الهند. كان هناك العديد من الجنرالات المتقاعدين موجدين في الغرفة؛ وعدا عن وجود مساعدة تعمل في مجال البحوث العلمية، كنت أنا المرأة الوحيدة الحاضرة. وقد رغب أحد السادة بالحصول على بعض التوضيح قائلاً: «السلطة اللينة لا تعني إذن دولة ضعيفة»، فأجبت: لا، إنها لا تعني ذلك لقد كانت الامبريالية تتمحور دائماً حول تفريغ القوة وإضعافها. ومع أن مذهب اللاعنف الراديكالي الذي تبناه غاندي، والذي أظهر عجز القوة الغاشمة، وأنهى الحكم الإمبريالي، فقد ناضلت الهند في العقود التي تلت من أجل تأكيد كفايتها بوصفها سلطة قاسية، وتوج ذلك بامتلاكها للأسلحة النووية.

وتمتلك الهند في متناول يدها جميع العناصر التي تحتاجها لكي تضع تصوراً لمسار مختلف؛ ولأنها ما تزال دولة نامية، فإن بإمكانها أن تختار أن تتطور بصورة مختلفة. فالهند ليست مضطرة لأن تتبع بصورة عمياء النموذج الأمريكي للشركات الزراعية، وأن تصبح دولة أخرى من دول الوجبات السريعة. وهي ليست مضطرة لأن تسمح لتركيبة عسكرية-صناعية بأن تملي الأولويات الوطنية. وهي بإمكانها -ويجب عليها- أن ترسم طريقها

الخاص، وإلا سيؤدي بنا جميعنا عالم متهور، يعتمد على الاستهلاك من أجل الاستهلاك، وأباطيل فن التفوق عسكرياً على الآخرين، إلى غياهب النسيان.

ويجب على الولايات المتحدة أن تقوم أيضاً بدورها، إن لم يكن من أجل الهند، فليكن إذن من أجل أنفسنا، لأن بقاءنا يعتمد على نجاح الهند. فنحن جميعنا داخل العالم المترابط الذي نعيش فيه معرضون في النهاية للإصابة بأمراض وبائية، وللاحتباس الحراري العالمي، ولانهيار النظام العالمي القديم، ولإثارة شكوك إزاء ما سوف يحل محله. وبإمكان الأمريكيين أن يبدؤوا بإجبار حكومتنا على الانضمام إلى بقية العالم في التصدي بشكل مباشر وبأمانة للمشكلة الملحة المتمثلة في الاحتباس الحراري العالمي، والإقرار بإسهامنا غير المتناسب مع وضع ينطوي على احتمال الخروج بعواقب مدمرة بالنسبة للبشرية. ويطرح الكاتب الهندي راماتشاندرا غورها، المتخصص بشؤون البيئة سؤالاً عبر عنوان كتابه الجديد: ما مقدار الكمية التي يجب أن يستهلكها الإنسان؟ وهو سؤال يطرح في الوقت المناسب تماماً، وسؤال أخلاقي للغاية.

وبإمكان الأمريكيين أيضاً أن يبدؤوا بالتشكيك في حالة الفوضى المتضخمة التي أصبحت عليها تركيبتنا الصناعية -العسكرية- حسبما كان قد حذر الرئيس دوايت دي.أيزنهاور منذ نصف قرن تقريباً- بقيامها بفرض أولويات في السياسة كلفتنا غالياً بالأرواح والأموال. وإذا ماكنا نشعر بالقلق إزاء توصل الصين إلى عقد صفقة أسلحة نووية مع باكستان، فعلينا ألا نلوم سوى أنفسنا لقيامنا بفتح ذلك الباب من دون سبب أخلاقي وجيه ندّعيه.

وفي العام الماضي ضاعفت الشركات الأمريكية الموردة للأسلحة التي تشكل الآن الشركات الرئيسة لبيع السلاح في العالم، من مبيعاتها إلى الحكومات الأجنبية لترتفع من (10.6) مليارات دولار إلى (21) ملياراً. وجاء جزء كبير من الزيادة من مبيعات الأسلحة إلى باكستان، بما في ذلك طلب لشراء طائرات نفاثة مقاتلة من طراز F-16 بمبلغ (5) مليارات دولار. ومع الموافقة على صفقة الأسلحة النووية بين الهند والولايات المتحدة أصبحت الهند إحدى الأسواق التي تضم أكبر الإمكانيات لتحقيق الأرباح بالنسبة لمتعهدي الأسلحة الأمريكيين الذين يحرقون وقود الطائرات النفاثة في رحلاتهم الشاقة الطويلة إلى شبه القارة الهندية من أجل التباهي بمنتجاتهم.[1] ومع تسابق الولايات المتحدة والصين من

أجل تثبيت الصفقات وبيع الأسلحة والتكنولوجيا النووية إلى كل من الهند وباكستان، تتقدم منطقة جنوب آسية في طريقها للاحتفاظ بلقب البطولة على مدى العقود القادمة كإحدى أخطر الأماكن على وجه الأرض.

إنني أعتقد أنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تتفوق على الصين على المدى البعيد في المقدرة العسكرية والاقتصادية الهائلة: وسيفضي السباق إلى تحقيق ذلك إلى تدمير بيئتنا وإلى تدمير مجتمعنا. إن بإمكاننا أن نتغلب على الصين -أو بالأحرى أن نسعى وراء ذلك- إذا ما أعدنا ترتيب أولوياتنا وعدنا إلى جذورنا بوصفنا حكماً من الشعب، وبالشعب وللشعب، قادراً على تأكيد السلطة الأخلاقية في ميدان القضايا العالمية بضمير مرتاح.

وتمتلك الهند والولايات المتحدة، وهما دون ريب، اثنتان من أكبر النظم الديمقراطية الكبرى في العالم، فرصة حقيقية لتذكير بعضهما بالمبادئ والأسس الأخلاقية للحظات تأسيسنا والمتعلقة بكل واحد منا؛ وللابتعاد عن نزعة التسلط العسكري المستشرية وإنقاذ بيئتنا. إن بمقدورنا أن نسهم في إيجاد نظام عالمي جديد مسخّر للسعي وراء الحياة، والحرية، والسعادة، ولضمان العدالة والحياة الكريمة لكل رجل ولكل امرأة. إن الاستمرار في العمل كالمعتاد هو انتحار، وهو خيار -كما ذكّرنا جيرد داياموند- قامت به أكثر من حضارة واحدة في مسيرة التاريخ المتعرجة غير أن العالم بأكمله في خطر هذه المرة. ولابد لنا من ألاَّ نسمح للقدرات الخيالية الإبداعية أن تخذلنا في الوقت الحاضر.

وإذا كان لنا أن نبقى أحياء بوصفنا كوكباً، فإننا نحتاج إلى أن تقوم الهند باستدعاء مجموعة جديدة من الأفكار والمواقف الأخلاقية المميزة، من ماضيها الثقافي السحيق -كما يفعل عدد كبير جداً من الأفراد الرائعين، الذين تم إعطاء نبذة عنهم في هذه الصفحات- وسيكون في هذا نهضة الهند، وخلاصها مرة واحدة وإلى الأبد من نير التبعية للغرب، وعودة ظهورها المظفرة كدولة عظمى فعلاً.

ثم، وفي حال حالفنا الحظ، فإن رحلة الهند لاختراع الذات سوف تعيد اختراع العالم.

خاتمة

معضلة الهند

لقد آن الأوان لقطاعات مجتمعنا التي تتمتع بوضع مالي أفضل لكي تدرك الحاجة إلى جعل عملية تطورنا أكثر شمولية - تتجنب البذخ لمجرد لفت الأنظار، وتعمل على تحقيق وفر أكبر وهدر أقل، وتهتم بأولئك الذين يتمتعون بامتيازات أقل وتكون قدوة في الأمانة والاعتدال، وعمل الخير.

- مانموهان سينغ، رئيس وزراء الهند
النقاط العشر للميثاق الاجتماعي 25 أيار،«مايو» 2007

احتفلت الهند في 21 آب 2007، بذكرى مرور ستين عاماً على استقلالها بوصفها نظاماً ديمقراطياً مفعماً بالقوة والنشاط. وقد كان الكثيرون يشككون في عام 1947، في إمكانية نجاح الديمقراطية في مثل هذا البلد الفقير والمكتظ بالسكان. ولا يزال الكثيرون يرون في الديمقراطية الهندية عقبة رئيسة أمام جعل البلاد تتبع، مباشرة وبسرعة أكبر، برنامجاً يتخذ تطبيقه صفة الاستعجال ويركز على عملية تحرير الأسواق، وتحسين البنى التحتية، والتنمية الصناعية الملائمة للجهات الاستثمارية الأجنبية.

فلماذا لا تستطيع الهند أن تكون أكثر شبهاً بالصين؟ لماذا لا تستطيع الحكومة مجرد أن تحصل بشكل سريع على الموافقة الرسمية اللازمة لتمرير ما يجب إنجازه؟ إن الفساد المستشري والإدارة الضعيفة يشكلان بالتأكيد عقبات رئيسة أمام تقدم الهند، ولكن ومع كل ما فيها من عيوب وأخطاء، تصر الديمقراطية على البقاء في الهند. إن مواطني الهند، وهم

من أكثر السكان تنوعاً على كوكب الأرض، لم يهابوا المجاهرة بما يجول في أذهانهم. وهم ببساطة لن يتبعوا ما يمليه عليهم الحكم من دون أن يكون لهم رأي فيه.

ويعني وجود عدد فائض من الأحزاب السياسية وضرورة تجميعها في حكومة إئتلافية، أن الآراء المعارضة تمتلك القدرة على أن تكون مسموعة في الهند أكثر كثيراً من أن تكون مسموعة في الولايات المتحدة مثلاً. ويعرف كل سياسي هندي أن فقراء الهند هم الذين يصوتون. إلا أن قادة الهند يعرفون أيضاً أن النمو الاقتصادي ضروري وأساسي لتحسين فرص الحياة لجميع مواطني البلاد، وأنه من الصعب تحويل دولة نامية إلى دولة متقدمة من دون إطلاق العنان لقوى الدمار الإبداعي التي تلحق الضرر بالفقراء كيفما اتفق.

وكلما ازداد نمو الاقتصاد الهندي بصورة أسرع، ازداد استيعاب الهند للوضع الذي يجدر بها أن تختار فيه بين أمرين أحلاهما مرُ. فكيف تستطيع أن تحافظ على المحرك الخارق للنمو الاقتصادي منطلقاً إلى الأمام وبأقصى سرعة، من دون أن تزيد من تأَكُّل الوجود الواهي للفقراء، فتقوض بذلك الترابط الاجتماعي بصورة خطيرة، وتقضي على ما تبقى من البيئة الطبيعية للهند؟

مثابرة الفقراء

على الرغم من توفر الأرقام التي تدعو للتفاؤل والزيادات الكبيرة المفاجئة في أعداد المشروعات الاستثمارية الأجنبية وتوسع الشركات الهندية الرائدة في الخارج، فإن الواقع الحزين يتمثل في أن معظم المواطنين الهنود يظلون فقراء إلى أبعد الحدود. وهذا الواقع قائم بعد مرور ستين عاماً من الاستقلال وستة عشر عاماً من التحرر الاقتصادي، وتحقيق نمو هائل غير معهود. وفي الأسبوع الذي سبق احتفال الهند بالذكرى الستين للاستقلال، أصدرت الحكومة الهندية تقريراً مثبطاً للهمة بكل معنى الكلمة، يكشف عن أن (86) بالمئة من الهنود الذين يعملون في القطاع غير الرسمي، وبمعنى آخر الذين لا يتم فرض ضرائب على أعمالهم أو ملاحقتهم رسمياً من قبل السلطات الحكومية، يكسبون أقل من خمسين سنتاً يومياً. وبما أن أكثرية العاملين من الهنود يقعون ضمن هذه الفئة، فقد كشف هذا التقرير أن نصف سكان الهند لا يعيشون على أقل من دولارين يومياً فقط، أو حتى أقل تماماً

من دولار واحد في اليوم: بل هناك 600 مليون هندي يعيشون على مبلغ هزيل يرثى له يصل إلى خمسين سنتاً يومياً.

وفي الوقت نفسه تتزايد استضافة فقراء الهند في الاستعراض الكبير للبذخ الذي يهدف إلى لفت الأنظار من جانب طبقة نخبة هندية منتشية بالإمكانيات الشرائية الجديدة، وبإلغاء النظرة القديمة التي تبناها غاندي ضد الاستعراض العلني للثروة باعتباره وصمة عار. ومن هنا التوبيخ الذي وجهه رئيس الوزراء في النقاط العشر للميثاق الاجتماعي، الذي قدمه في ربيع عام 2007، إلى نخبة أصحاب الشركات والمشروعات التجارية، لكي يعيشوا بصورة أكثر تواضعاً قليلاً مراعاةً لمحنة الملايين من رفاقهم المواطنين الأقل ثراء. وقد سخرت منه الصحافة المختصة بتغطية أخبار قطاع الأعمال، لكن المستمعين الذين يحتفظون بذكريات تاريخية أبعد، سمعوا عبره أصداء كلمات غاندي ونهرو الأبوين المؤسسين للهند، اللذين لم تتحقق بعد وعودهما لشعب الهند غداة إعلان الاستقلال.

ويعيش فقراء الهند أوقاتاً عصيبة مع تزايد تردي أحوالهم. فقد حذر تقرير بنك التنمية الآسيوي بأن التحرر الاقتصادي يؤدي إلى توسيع الهوة ما بين الأغنياء والفقراء في آسية وليس تضييقها. وقد اقترن التضخم في الهند بتحقيق مستويات عالية من النمو. وترتفع الأسعار بشكل عام بمعدل 7 بالمئة، بينما ترتفع أسعار الأغذية الأساسية بمعدل سنوي يبلغ (10) بالمئة، وهو أسرع من المعدل السنوي للنمو الاقتصادي للهند. ومن الطبيعي أن الفقراء هم الذين يتضررون بصورة أكبر.

وفرضت مشروعات التنمية مثل السدود، المناجم، والمناطق الاقتصادية الخاصة (SEZs) التي أقيمت في مناطق «الحقول الخضراء» نزوح الملايين من المزارعين الفلاحين والـ «الأديڤاسيز» وهم عادة من سكان الغابات، مع تلقي جزء صغير منهم فقط دائماً وعوداً بإعادة توطينهم أو منحهم حزمة من التعويضات. ويؤول مصير معظم هؤلاء إلى تحولهم إلى لاجئين في الداخل في القطاع غير المنظم والفقير جداً المصور في التقرير الحكومي. ولابد لهذا الوضع من أن يقود إلى حالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي على نطاق واسع، وما حركة التمرد الماوية النامية في الهند سوى إحدى عوارضها.

ولا تزال الهند تواجه، وخارج نطاق الفقر، كل التحديات المخيفة التي ورد ذكرها في هذا الكتاب منذ عام باستثناء أمر مشجع واحد: يبدو أنه كانت هناك مبالغة في تقدير أرقام وباء الإيدز. فقد أشارت دراسة صدرت عام (2007). إلى أن عدد سكان الهند الذين أصيبوا بالمرض ربما يتراوح في الواقع ما بين 2 إلى 3 ملايين شخص، وهو نصف العدد الذي جرى تقديره سابقاً. وكان التقرير الجديد مبنياً على عمليات مسح أجريت من بيت إلى بيت، بدلاً من الاعتماد على معلومات مأخوذة من عمليات فحص الدم من ناحية الأم. وإذا ما كانت نتائجها دقيقة، فإن هذه المعلومات تعد أنباء رائعة بالنسبة للهند.

من جهة أخرى فقد ازدادت أزمة المياه سوءاً. ويستمر النقص في إمدادات الطاقة في إحداث انقطاعات منتظمة في التيار الكهربائي، وهي تؤثر على الفقراء والطبقة الوسطى أكثر كثيراً مما تؤثر على الأغنياء، الذين يقومون ببساطة بتشغيل مولداتهم العاملة على وقود الديزل. كما عادت الفيضانات التي لم يسبق لها مثيل، بالخراب على مساحات واسعة من المناطق الهندية في الموسم الأخير للأمطار المترافقة برياح شديدة، وخلَّفت وراءها حقولاً تالفة وقرى مدمرة، ووفيات وأمراضاً. ولم تعمل الحكومة الهندية على توظيف الجهد والوقت والمال الذي تحتاجه في إطار الاستعدادات، التي تتخذها لمواجهة الكوارث بالنسبة لهذه المأساة، التي تحدث كل عام، وأدى الإفراط في بناء الحواجز الترابية لمحاصرة مياه الأنهار إلى تفاقم الأضرار، التي ألحقتها الأمطار الموسمية في عام (2007)، وأفسحت المجال أمام حدوث هجوم كاسح للمياه والوحول شبيه بذاك الذي شهدته ولاية نيواورليانز. وتظل محنة معاناة المزارعين الطويلة، محنة رهيبة مع تحديد عدد حوادث الانتحار في السنوات العشر الماضية بأكثر من مئة ألف واقعة.

وقد أُرغمت الهند مجدداً على استيراد كميات قياسية من القمح، لتلبية الطلب على هذه المادة في عام 2007 و2008. والواقع فإن التهافت المذعور على الشراء من جانب الهند كان المسؤول عن رفع أسعار القمح في بورصات السلع الأساسية في عام 2007، إلى مستويات أدت إلى تحطيم الأرقام السابقة ورفع أسعار الأغذية في أنحاء العالم.

ثمن العمل كالعادة

وتخبو الرؤية المشجعة لعدد كبير من الهنود الذين أجريت معهم أحاديث ومقابلات من أجل إعداد هذا الكتاب، مع كل يوم يمر تتقبل فيه الهند منهج العمل المعتاد المبني على الاستهلاك والمتبع في عملية تطوير البلاد. ويستمر التوسع العمراني الذي يفتقر إلى التخطيط مع بذل محاولات قليلة لتحقيق وفرٍ في الطاقة أو تستمر وقائع حياة معظم مواطني المناطق الحضرية، كما لو أن الهند لم تواجه مشكلات في الطاقة أو التلوث، وكأنه مقدر على جميع الهنود أن يصلوا من النقطة A إلى النقطة B بوساطة سيارة خاصة. وهذا كله يدعو للاستغراب بصورة أكبر. حيث تقوم المدن في العالم المتقدم باتخاذ خطوات واسعة وجدية نحو مراعاة أهمية «الموضوع البيئي» لدى إقامة البنى التحتية، فتلتزم بالمحافظة على البيئة عبر كل شيء يتصل بهذه المسألة، بدءاً بقوانين البناء الأكثر صرامة، التي تؤمن مردوداً أفضل للطاقة، والقيود على حركة سير الآليات، وإنشاء مسارات مخصصة للدرَّاجات الهوائية والمشاة في شوارع المدن تكون صديقة للبيئة العمرانية.

إنني أعيش في مدينة نيويورك. ومثلي مثل الكثيرين من سكان نيويورك، فإنني لا أمتلك سيارة، ولا أطمح إلى ذلك. ومعظم سكان باريس الذين أعرفهم لا يطمحون إلى اقتناء سيارة أيضاً. ولكن سكان نيويورك وباريس يمتلكون شيئاً حضرياً لا يمتلكه الهنود: الأرصفة، ممرات المشاة عبر الشوارع، وسائط نقل عامة ممتازة، مسارب للدراجات النارية، ومدارس، مكاتب بريد، حدائق عامة ومحال تجارية تقع ضمن نطاق مجاور، ويمكن الوصول إليها دون مشقة. وباستثناء مواطني نيودلهي الذين يحظون بنظام ممتاز لقطار الأَنفاق، فإن المحظوظين جداً فقط من أصحاب الامتيازات العالية في الهند من سكان المباني والبيوت باهظة الثمن، المزودة بالبوابات يتمتعون بهذه المزايا الحضرية الأساسية.

وليس من الضروري أن يكون الأمر على هذا المنوال، فالشخصيات الاستثنائية التي جرى تقديم نبذة عنها في هذا الكتاب تؤكد مرة تلو الأخرى: أن في متناول الهند كل العناصر اللازمة لوضع تصور لمستقبل مختلف بدلاً من مكابدة مشقة المرور بالمراحل المؤلمة المختلفة لعملية التصنيع، وبناء القوة العسكرية التي مر بها الغرب في القرن العشرين. ويقوم الآلاف من الأشخاص المتفانين والمخلصين وجماعات وحركات رئيسة بالعمل يومياً في الهند من

أجل تبني مسار مختلف. غير أنه من الصعوبة بمكان مقاومة دوافع مواصلة إدارة العمل كالمعتاد، لا سيما في بلد يختبر فيه عدد كبير من شعبه مغريات الثقافة الاستهلاكية العصرية للمرة الأولى.

لقد انضم العديد من الشركات الرائدة والناشطة تجارياً واقتصادياً في الهند، التي تشجعت بوجود مقدرة جديدة على التنافس بشكل مباشر مع الشركات الرئيسة متعددة الجنسيات في أوروبة، وشمال أمريكة، وشرقي آسية، والمستفيدة بشكل مباشر من عقد صفقات رابحة مع شركات أجنبية كبيرة، انضمت إلى نظيراتها الأمريكية في الضغط من أجل قيام نظام رأسمالي يترسخ شيئاً فشيئاً، ويتبع نموذج عهد الرئيس الأمريكي ريغان في كونه نظاماً مصمماً على النجاح، وتحقيق ما يريده، ويتعامل بإسلوب مؤات للعمل التجاري بشكل يسمح بانتقال الأموال ببطء من الدول الأغنى إلى الأفقر: لقد أنفقت جماعات الضغط الرئيسة المهنية في البلدين «اتحاد الصناعات الهندية (CII) ومجلس الأعمال الأمريكي - الهندي (VSIBS) الملايين من الدولارات للضغط على مجلس النواب الأمريكي من أجل الدفع باتجاه الحصول على موافقته على الاتفاقية النووية الهندية الأمريكية في المجال المدني بسبب المليارات من الدولارات، التي سيجنيها أعضاء هذه الجماعات إذا ما تم تمرير الصفقة.

إن مشروعهم الآتي هو: عقد اتفاقية تجارة حرة بين البلدين. ويمكن للمرء أن يتخيل فقط الآثار المدمرة التي ستلحق بفقراء الهند إذا ما كان مصيرهم مشابهاً تقريباً لمصير فلاحي المكسيك في أعقاب توقيع اتفاقية التجارة الحرة لدول شمال أمريكة. وما لم يتم تدبر موضوع الاتفاقية بعناية، فإن «صوت الشفط العملاق» كما عبّر عنه المرشح الرئاسي السابق روس بيرو بشكل ركيك للوظائف التي تغادر الولايات المتحدة سوف يأتي من الهند، وليس المكسيك وسوف تكون وظائف ذات خبرات عالية، وكذلك وظائف في حقل التصنيع.

أما بالنسبة للشركات التجارية الأمريكية والهندية الكبرى فإن الأمر برمته يتعلق بالمال. وتعتزم حكومة الهند زيادة مقدراتها الدفاعية في محاولة لتبني وضع القوة العظمى بالمقارنة مع مكانة فرنسة، روسية والمملكة المتحدة - إن لم يكن الصين أو الولايات المتحدة. ويتوقع أن تنفق الهند في السنوات الخمس المقبلة وحدها (60) مليار دولار مقابل مشتريات الأسلحة

التقليدية. (على الرغم من الزيادات المتواضعة في النفقات الاجتماعية، فإنها ستنفق مبلغاً ضئيلاً نسبياً على الصحة، التعليم، الطاقة البديلة، والبيئة). وترغب الشركات الأمريكية بالحصول على قطعة كبيرة من هذه الفطيرة المغرية للغاية، وهي تخشى أنه ومن دون تقديم هدية الاتفاقية النووية في المجال المدني مع الهند، فسوف يجري إبعادها من قبل الدول المحتالة المتعطشة لبيع الأسلحة الدفاعية، سعياً وراء الدولارات الهندية، التي ستنفق على الدفاع، ألا وهي: روسية وفرنسا وإسرائيل وحتى السويد.

كما ترى الشركات الهندية فرصاً لقيام مشروعات كبيرة عبر توريدات الأسلحة الدفاعية المقررة لبلادها. وتطالب الحكومة الهندية أن يتضمن جزء كبير من عقود الأسلحة الجديدة بنداً حول الاستثمار في الهند، وأن تحصل المؤسسة الصناعية الهندية على المساعدة في مجال تطوير مقدراتها بصفتها أحد المصنعين الكبار للأسلحة في العالم. وهي متلهفة لتوسيع ارتباطاتها مع الشركات الأمريكية القوية، كما تثبت عملية تعميق الارتباط ما بين مجموعة سونيل ميتال وشركة وول-مارت. وتعد الاتفاقية صفقة رابحة بالتأكيد بالنسبة للعمل التجاري الأمريكي والهندي.

أما العنصر المربح الآخر في الاتفاقية النووية فيتمثل في قطاع الطاقة، مع وجود تنافس شديد بين الولايات المتحدة، روسية، وفرنسة يتوقع أن يتركز حول بناء المفاعلات النووية الجديدة للهند، وفي إتاحة فرص كبيرة للشركات الهندية للدخول في العملية أيضاً. هذا على الرغم من أنه من المتوقع أن توفر الطاقة النووية مقداراً صغيراً جداً من الحاجات الكلية للهند (أو الولايات المتحدة) من الطاقة لنصف القرن القادم. لقد تمكنت مؤسسات صناعة الطاقة النووية من إعادة الاعتبار إلى ذاتها عبر استغلال المخاوف التي يثيرها الاحتباس الحراري العالمي وإعادة الترويج للطاقة النووية بوصفها الطاقة «النظيفة الآمنة»، التي سوف تحقق معجزة بإنقاذنا من التغيرات المناخية. وفي تلك الأثناء، كان لابد من إغلاق مفاعل نووي في تينيسي في صيف عام 2007. لأن درجة حرارة مياه النهر التي اعتادت أن تبرده كانت دافئة جداً لكي تكون فاعلة؛ كما تضرر مفاعل في اليابان بشكل خطير بفعل حدوث هزة أرضية. وعانى مفاعل في السويد حالة مريعة قاربت حالة الذوبان ولكن لا داعي للقلق، فالمفاعلات النووية «خالية من التلوث».

الشراكة الأمريكية الهندية تتعرض للهجوم

لم يفلح كل الضغط الذي مورس في واشنطن في إخماد الاعتراضات على الاتفاقية مع الهند. وتم التعبير عن الاعتراضات في الهند بشكل قوي صارخ، وتميزت بنبرة عالية وكانت في جزء منها سياسات حزبية تافهة عديمة الأهمية - اعترض حزب جاناتا على أساس السيادة الوطنية في حين أن الحزب هو الذي كان قد بادر إلى العمل على التوصل إلى الاتفاقية في المقام الأول، وأصبحت الهند تحت زعامته دولة نووية في عام 1998 - وفي جزء آخر حالة من عدم الأمان المخيم على البلاد، التي تثير شعوراً مبالغاً فيه من التهديد للسيادة الوطنية من أية جهة أجنبية. وكان الأكثر إثارة للذعر بالنسبة لرئيس الوزراء سينغ، وحزب المؤتمر الذي يتزعمه قيام الأحزاب الشيوعية الهندية، التي يعتمد حزب المؤتمر على دعمها للمحافظة على الحكومة الحالية في السلطة، بتمزيق الاتفاقية والمطالبة بتأجيل إبرامها على الأقل. وقد أصرت هذه الأحزاب على موقفها ورفضت تغييره. وربما تواجه الحكومة أيضاً أزمة ثقة قد تُفضي إلى التعجيل بإجراء انتخابات مبكرة.

كان الاعتراض الرئيس لليسار يتمثل في: الخوف بأن الشراكة الإستراتيجية والاقتصادية المتنامية للهند مع الولايات المتحدة تعرض للخطر استقلالية الهند في رسم السياسة الخارجية، وتفسح المجال أمام استغلال كامل للبلاد من جانب أصحاب المصالح من المتنفذين في الشركات الأمريكية - والهندية وغيرها من الشركات الأجنبية. ولا يرى اليسار الهندي في الولايات المتحدة، لاعباً لطيفاً لا يشكل أية خطورة، إطلاقاً. ونظراً للضغط الذي يمارسه المستثمرون الأجانب للتهرب من قوانين العمل الهندية مع أنها تطبق على جزء صغير جداً من القوة العاملة في البلاد، وكذلك التهرب من مجموعة من القوانين الأخرى المعمول بها في الهند والمتعلقة بحقوق ملكية الأراضي وغيرها من المناطق، فإن هناك احتمالاً بأن يخسر اليسار الهندي الكثير نتيجة حدوث تقارب أوثق مع الولايات المتحدة. غير أن هذا لن يشكل خسارة من وجهة نظر الشركات التجارية الأمريكية التي تخشى من «تأثير فنزويلا» في الهند مما قد ينتزع منها سيطرتها على سوقها المربحة، التي لم يجر استثمار حجم إمكانياتها سوى على نطاق ضيق لا يذكر.

من المحتم أن الهند، ووفقاً للحجم المطلق لعدد السكان، والاقتصاد، والقوة العسكرية المتنامية، سوف تحقق المعايير الأساسية، التي تجيز لها الدخول إلى العالم المهيب «للقوى العظمى»، الذي تسعى إليه. ولكن وكما تساءل الخبير الفرنسي الكبير في الشؤون الهندية كريستوف جافريلو «القوة لفعل ماذا؟» إن جيشاً جراراً مجهزاً بصواريخ متوسطة المدى، غواصات نووية، طائرات مقاتلة نفاثة من طراز F-18، وأحدث ما تم اختراعه من أجهزة المراقبة، لن يكون ذا فائدة للهند فيما لو لم تعد ترى ما الذي جعل من الهند دولة عظيمة بحق.

وتأخذ الهند دروساً من صفحات كتاب المسرحيات، التي ألفتها الولايات المتحدة الراغبة بشدة في لعب دور المعلم والجهة الموردة للمعدات. ولكن السباق على التفوق العسكري هو سباق نحو النسيان على المدى القريب. ويحتاج الإنسان فقط إلى إلقاء نظرة على الوضع الحالي للمديونية الأمريكية في ضوء الحرب على العراق، والبراهين العديدة التي تثبت أن الولايات المتحدة قد فشلت في المحافظة على بنيتها التحتية الأساسية وتحسينها بشكل وافٍ، أو إلقاء نظرة على الدليل المؤسف على الإخفاق في توظيف الجهد والمال والوقت في الحاجات البشرية الأساسية للرعاية الصحية المتميزة والتعليم المتميز، لجميع مواطنيها. فليس هكذا يجري وضع برنامج سياسي يضمن المقدرة على التنافس والرغبة في تحقيق الفوز مستقبلاً على مستوى البلاد.

ولابد من التذكير في الختام أن الهند دولة نووية تقع إلى جوار دولتين نوويتين في منطقة مشحونة بحالة من عدم الاستقرار، معظمه ناجم عن حالات غير طبيعية ومخيفة من التفاوت في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحدوث تدهور بيئي خطير، وهي قضايا لن تحلها أية ترسانة من الأسلحة مهما كبر حجمها.

ردة فعل معادية متصاعدة

بعد خمسين عاماً من الاستقلال، وعلى الرغم مما صدر عن الحكومة الهندية من تطمينات إيجابية، فإن الهند تواجه خطر التخلي عن الفقراء وعن الإرث الرائع للأب المؤسس للامة والأكثر تاثيراً، ألا وهو المهاتما غاندي. فالهند تقوم وتحت ضغط شديد من أصحاب المصالح التجارية برمي تراثها الزراعي وكل ما يتصل بالزراعة والفلاحين

والرعاة الرُّحل والسكان الأصليين لصالح نموذج قديم وسام بشكل خطير، يعود إلى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، يركز على التنمية الصناعية، الزراعة الاحتكارية وتوسع المناطق العمرانية.

هل من الممكن «تنمية الإنصاف» حسبما تساءل موكيش آمباني، أغنى رجل من أصحاب المليارات في الهند، في بداية هذه الصفحات قبل عام؟ لقد ازدادت ثروة السيد آمباني بسرعة كبيرة في أثناء العام الذي مضى منذ أن كتبت هذا الكتاب.. وهو الآن أحد أكثر الرجال ثراء على كوكب الأرض، وتقدر ثروته بأكثر من (60) مليار دولار. وعلى الرغم من المناشدات التي وجهها رئيس الوزراء، فهو ليس خجولاً البتة من التباهي بما يملكه. ففي عام 2007، نقلت الصحافة العالمية تقارير إخبارية عن المبنى السكني المزمع إنشاؤه من ستين طابقاً للإقامة الشخصية لأفراد عائلة السيد آمباني الستة، كاملاً مع مِرأَب مكون من أربعة طوابق لاستيعاب مجموعة السيارات الواسعة التي يملكها، إضافة إلى مهبط لطائرة مروحية. وسوف يرتفع برج البيت الجديد فوق مدينة بومباي، حيث يعيش (60) بالمئة من سكانها من دون مأوى أو في الأحياء الشعبية الفقيرة. ووفقاً لما ورد في التقارير الإخبارية، فإن مسكن عائلة آمباني سوف يوظف طاقماً إدارياً يضم ستمئة شخص. ويتوقع الانتهاء من أعمال البناء بحلول خريف عام 2008. ومن الصعب تخيل أن يكون بإمكان اقتصاد الهند على الإطلاق تنمية ثروة كافية لجميع سكان مدينة بومباي، لكي يعيشوا حياة بذخ وإسراف مثلما يعيش السيد آمباني.

وقد أبلغني أحد رجال الاقتصاد أن هناك طريقة مجربة وصحيحة لتنمية الإنصاف: «إنها تدعى إعادة توزيع الدخل عبر فرض الضرائب والإنفاق الحكومي». وكانت حكومة الهند قد قدمت بعض التعهدات بتحقيق هذا الأمر وعلى نطاق أوسع مما سترغب فيه أوساط رجال الأعمال، ولكنه أضيق كثيراً مما تحتاجه جموع الفقراء في أنحاء البلاد وضيق جداً مقارنة بنطاق الإنفاق العسكري للهند. وبينما يقوم بعض رؤساء الشركات التجارية باتخاذ خطوات عملية من أجل الإذعان مكرهين للحد الأدنى الثلاثي من الأرباح، فإن الآخرين يستغلون ثرواتهم التي جنوها حديثاً، ليطبقوا نماذج من العمل التجاري تعطي عوائد كبيرة للمستثمرين، ولكنها تفعل ذلك مقابل ثمن اجتماعي وبيئي غير مقبول. ويبدو

أن الحكومة وقد أسرها إغواء الاستثمار الأجنبي المباشر وضرورة تحقيق إنماء صناعي غير قادرة على وضع حد للعديد من هذه الممارسات. ولسوء الحظ، فإن أفعالها لا تتفق ببساطة مع لغتها المنمقة الجديرة بالثناء.

إن ما لا تستطيع الحكومة أن تكبحه، يقوم المواطنون الهنود وبصورة متزايدة، بتولي أمر وضع حد له، وبوسائل عنيفة أحياناً. كما تتصاعد ردة الفعل العدائية ضد التطور مع كل تنازل يقدم للشركات الاستثمارية وفي غياب أي إجراءات لحماية الآلاف من الهنود الذين يُرغمون على ترك أراضيهم أو أعمالهم بالقوة. ويواصل متمردو حركة الماويين الناكسال Maoist Naxalite كسب مواقع لصالحهم. ففي منطقة نانديغرام غربي إقليم البنغال، ترافقت الاعتراضات التي قادها المزارعون والقرويون بأعمال عنف احتجاجاً على إنشاء منطقة اقتصادية خاصة من أجل إقامة بناء ضخم لمعمل كيماوي على مساحة (34,000) فدان، وكان يهدد بحرمانهم من الوسيلة الوحيدة التي يملكونها لكسب العيش، ألَا وهي أرضهم. وفي شهر آذار من عام 2007. بلغ النزاع ذروته وقُتِلت أعدادٌ كبيرةٌ من الناس. ومما يثير السخرية، أن الحكومة الشيوعية للولاية هي التي قامت بتنسيق إجراءات القمع العنيفة التي اتخذت ضد الاحتجاجات. وقد أجبرت الحكومة في النهاية على نقل المشروع إلى مكان آخر.

وفي شهر أيلول من عام 2007. دفعت الاحتجاجات العنيفة التي جرى تنظيمها عند موقع عدد من محال السوبر ماركت العديدة والحديثة التابعة لشركة «ريلاينس»، لبيع المنتجات الزراعية الطازجة التي أُقيمت وفق نموذج المقصورات الكبيرة الذي تعتمده شركة وول-مارت، دفعت بحكومة ولاية اوتار براديش المنتخبة حديثاً إلى إصدار أوامر بإغلاق هذه المحالّ، حتى يكون بالإمكان تقويم تأثيرها على أرزاق بائعي الخضراوات المحليين، وأصحاب الدكاكين الصغيرة. وكان عشرات الآلاف من بائعي الخضراوات والمتاجر التي يملكها ويديرها أفراد الأسر الصغيرة، قد حرمت من مصدر دخلها بسبب هذه المتاجر الكبرى، التي تعد «بإلغاء الوسيط» لكي تدفع للمزارعين أسعاراً أعلى، وتقدم للمستهلكين أسعاراً أقل، (وتجني أرباحاً هائلة على الهامش ما بين هذا وذاك)، ولم تقتصر الاحتجاجات على أوتار براديش، وهي تهدد بأن تعم أرجاء البلاد بأكملها. إن الاندفاع للتخلص ممن «يفتقرون إلى الكفاية» في السوق الهندية يمكن أن تكون له عواقب اجتماعية وخيمة، عندما يتألف هؤلاء

الذين «يفتقرون إلى الكفاءة» من الملايين من الناس، الذين يتدبرون أمور معيشتهم بالقليل، مما يسد رمقهم، وليس أمامهم مكان آخر يلجؤون إليه للحصول على عمل. أما الأسعار الأقل الموعودة، فهي مجرد أقل بالنسبة للمستهلكين من أبناء الطبقة الوسطى، الذين سوف يقومون بالتسوق في المخازن الجديدة المزودة بأجهزة تكييف الهواء.

إضافة إلى ذلك فإن هذه المتاجر تحتاج إلى توفر أساليب زراعية اقتصادية تشمل الزراعة الأحادية* واستخدام المبيدات الحشرية والأسمدة الصناعية الثقيلة. وباتت المحاصيل المعدلة وراثياً وتعريض الأغذية للإشعاعات، الموجودة سابقاً في الأطعمة، مهيأة للانتشار على نطاق واسع في الهند وبشكل متزايد أيضاً. وكانت الولايات المتحدة تسمح باستيراد أشجار المانغو الهندية في عام 2007، شريطة أن تصل فقط في شحنات تجارية، (وبذلك تضمن السوق للمزارعين الكبار) وكان يجري تعريضها للإشعاع النووي في أحد المرافق المرخصة من قبل الحكومة الأمريكية قبل شحنها.

وهذا يضع السلسلة الغذائية للهند على مسار مناقض لذلك المعمول به في الولايات المتحدة، حيث تعد الأغذية العضوية أسرع أقسام سوق الأغذية تطوراً. فأسواق المزارعين تشهد انتعاشاً كبيراً وتزداد وبسرعة شعبية الأغذية المحلية والحركات المؤيدة للأطعمة المحضّرة ببطء. وقد ضاق الناس في الولايات المتحدة ذرعاً بالزراعة الصناعية، لكنه من الصعب الوقوف في وجه جماعات الضغط القوية في الشركات التجارية الزراعية، ورفع الضرر الذي تم إلحاقه بالأراضي، والمياه، والحياة البرية -عدا عن ذكر المجتمعات المحلية البشرية وأعداد المزارعين الذين يمتلكون الخبرة- وإعادة العمل بنظام بيئي حكيم لإنتاج الأغذية.

الهند ليست مضطرة لسلوك هذا المسار ذاته. فهي تستطيع -ويجب عليها- أن تحتضن الزراعة المستدامة، التي يشكل المزارع محورها. إن الثمن البشري والبيئي لعدم القيام بذلك سوف يثقل كاهل الهند للغاية، وإلى حد لا تقوى على تحمله.

وحتى أبناء الطبقة الوسطى يعيشون أوقاتاً عصيبة في الهند بلد التطور السريع. وترى عمتي وعمي أن الحياة في غورغاون باتت متعبة بصورة متزايدة. وهما محظوظان جداً ليكونا

* الزراعة الأحادية: زراعة محصول من النوع نفسه في الأرض نفسها كل عام. (المترجمة)

قادرين على الرحيل بعيداً إلى أمريكة الشمالية في أثناء الفصل الحار عندما ترتفع درجات الحرارة بشكل منتظم إلى (100) درجة فهرنهايت، وينقطع التيار الكهربائي ساعاتٍ في كل يوم خانق، مما يؤدي إلى توقف أجهزة التكييف عن العمل، وأجهزة التلفاز والحاسوب. ومع أنهما لا يواجهان خطر الجوع، فقد شعرا بتأثير الأسعار المرتفعة على ميزانية الأسرة.

ولا تزال الثقة بالمستقبل التي تبعث على الدهشة التي لمستها في الهند في عام 2005 و2006، عندما قمت بإنجاز الجزء الأعظم من البحوث المتعلقة بهذا الكتاب، لا تزال قائمة. ويستمر الهنود في امتلاك آمال كبيرة بالنسبة لمستقبل بلادهم. وهم ما يزالون يعتقدون أنها سائرة أخيراً على درب العظمة المعترف بها. إلا أن هنالك الآن أكثر من مسحة من القلق أيضاً، مع إحساس ملموس بالخوف يتلاشى عند حواف الشعور المثير بالابتهاج والإيمان بالمقدرة على معالجة المشكلات بسهولة. فالمخاوف تكبر مع كل انقطاع للتيار الكهربائي، وكل فيضان مدمر، وكل صباح ضائع في زحام حركة المرور، وكل تمرد دموي يقوم به المتمردون الماويون أو حزن مرئي لفلاح نازح.

لقد تقبل معظم الهنود حقيقة أن الهند لن تلحق بالصين على الإطلاق، وهي في الواقع تتراجع أكثر فأكثر خلف جارتها العملاقة. وكما هو الحال في باقي أنحاء العالم، تشكل أزمة الائتمان المصرفي الحالية في الولايات المتحدة سبباً للذعر في الهند. فحدوث ركود اقتصادي طويل في الولايات المتحدة يمكن أن يلغي الكثير من التطور الموعود في الهند والمرتبط بشكل متزايد بالاقتصاد الأمريكي. ويحذر صوتٌ وأحياناً همسةٌ وأحياناً صياح حادٌ بأن الحزب الغربي للاستهلاك من أجل الاستهلاك بحد ذاته والرأسمالية «المشحونة بمحرك توربيني»، كما أسماها جورج سوروس، التي استقطبت اجتذاب اهتمام عدد كبير من المؤسسات الحكومة المحلية والعالمية، واقتصاد عالمي تم ارتهانة بأوامر من مجمع صناعي عسكري هائل، سوف يواجهون يوماً ما عواقب ما أقدموا عليه.

عالم آخر ممكن

هل ستفي الهند بوعد هذه اللحظة وتعمل في سبيل الخير المثمر بناءً على التعهد الذي قطعه جواهر لال نهرو على نفسه لشعب الهند في خطبته الشهيرة غداة حصول بلاده على

استقلالها، بأن يحرر الهنود جميعهم من «الفقر والمرض وعدم تكافؤ الفرص؟»، هل سيكون لدى الهند الشجاعة السياسية والجرأة الفكرية لوضع تصور لمصير وطني للقرن الحادي والعشرين، خاص بالمرحلة اللاحقة للتصنيع، ويستند في أسسه إلى تقاليدها القديمة والرسالة الثورية الحقة المتعلقة بمبدأ اللاعنف التي ضمنت حريتها؟

إن الحيوية المطلقة لشعب الهند، وسحر ثقافتها الفنية سواء القديمة، والمعاصرة تشكل ينابيع للإبداع والقدرة على التكيف والمرونة تُلهم وتدعم الملايين من الأشخاص في الهند وفي أنحاء العالم كل يوم. هناك مستوى وافٍ من الحيوية الفوضوية في كل جانب من جوانب هذه البلاد الرائعة، يجعل الهند تتفادى دائماً التعميمات السهلة، حتى، وهذا أخلص أملي، ما يتعلق منها بالتوجهات الأكثر سوءاً للّحظة الراهنة. وتبقى السلطة السياسية والثقافية اللينة للهند ميزة هائلة ومصدر قوة سوف تقود البلاد بعيداً باتجاه تحقيق أهدافها. ويستمر العالم في الافتتان بكل الأشياء الهندية تماماً مثل الهنود أنفسهم، الذين يستمتعون بالإمكانيات الإبداعية الحيوية لأمتهم، وهي تندفع إلى الأمام. ومع ذلك فعندما تتباعد العلاقة تدريجياً وبشكل كبير بين البلاغة والواقع، فإن حتى أقوى سلطة لينة يمكن أن تفقد قوة تأثيرها، كما يمكن حتى لأعظم دولة أن تفقد مصداقيتها.

ولابد من القول في النهاية، أنَّ أثمن مزايا الهند جميعها هو نظامها الديمقراطي. فمهما ازداد ارتفاع معدل النمو في الهند، ومهما كان عدد أصحاب المليارات الهنود الجدد الذين يشكلون قائمة «فوربس» لأغنى أغنياء العالم، فإن الناخبين الفقراء في الهند أولاً وقبل كل شيء، سوف يطيحون بالحكومة الحالية إذا ما فشلت في تحقيق تقدم يهدف إلى تلبية حاجاتهم الأساسية. وقال لي رئيس جماعة ضغط قوية في واشنطن دي.سي مؤخراً: «إن العمل التجاري يقود هذا الأمر برمته مع الهند في الوقت الحاضر. ونحن نحتاج فقط إلى التأكد بأن الحكومتين تحضران الشعب برفقتهما». إنني آمل أن تثبت الانتخابات القادمة في الهند وفي الولايات المتحدة بأن هذا الرجل يمتلك معادلة معكوسة للحكم الديمقراطي.

هل ستمتلك إدارة أمريكية جديدة الشجاعة لإعادة تركيز العلاقة ما بين الولايات المتحدة والهند، وبصورة جوهرية، حول التحديات الرئيسة لعصرنا؟ إنها ستفعل فيما لو طالبها بذلك المواطنون الأمريكيون، بمن فيهم المواطنون الأمريكيون من أصول هندية. تخيل

قوة علاقة ثنائية بين اثنين من أعظم الأنظمة الديمقراطية في العالم، تركز على تشجيع الزراعة المستدامة التي تحافظ على المزارع الأسرية والتنوع النباتي؛ وعلى معالجة الاحتباس الحراري في العالم عن طريق تقليص انبعاثات الغازات من البيوت الزراعية البلاستيكية بشكل جذري، فتخفض من الاستهلاك الأمريكي غير المتناسب لموارد العالم، وتضع خططاً ملموسة لمساعدة المواطنين والشركات التجارية على التكيف مع ما يمكن أن يلحقه تغيير المناخ؛ من أضرار؛ كما تركز على تصميم مساكن ووسائل مواصلات ذات كلفة رخيصة وصديقة للبيئة، وتحقق وفراً في الطاقة؛ وعلى توظيف الأموال والجهود في الطب الوقائي، وتسخير التكنولوجيا لخفض تكاليف الرعاية الصحية، ولجعل الرعاية الصحية الممتازة حقاً عالمياً وليس امتيازاً محدوداً؛ وعلى جعل الحصول على التعليم المتميز ممكناً للجميع حتى يستطيع كل طفل أو طفلة إدراك الإمكانيات الكاملة لحياته أو حياتها.

تخيل اتفاقية تعقد بين الولايات المتحدة والهند لاستخدام الطاقة النووية في المجال المدني، وتركز على نزع الأسلحة النووية في العالم -بما فيها أسلحة الولايات المتحدة- وهو أمر دعت إليه الهند لسنوات عديدة، وتركز أيضاً على إيجاد مصادر بديلة للطاقة كافية للسماح لنا بالاستغناء عن كل من وقود النفط والوقود الذري.

هنالك عالم آخر ممكن. وكما يبين، على نحو وافٍ، العديد من الأشخاص الذين أجريت معهم مقابلات في هذا الكتاب، فإننا نحن الشعب، نحتاج فقط إلى ترجمة ماجرى تخيله سابقاً إلى واقع.

من المؤكد أنَّ الهند تتقدم إلى الأمام بتسارع مطرد. وهذا حالنا جميعاً. والسؤال هو باتجاه أي مصير.

مدينة نيويورك

10 أيلول «سبتمبر» 2007

كلمة شكر

الهند تسري في عروقي. وهي تسكن في قلبي أيضاً. لقد كتبت هذا الكتاب لأنني أعتقد أن الهند تشكل أهمية غير مسبوقة بالنسبة لمستقبل عالم يعيش أزمة.

الهند بلد لا ينضب، هي أُعجوبة بلد ساحرة إلى ما لا نهاية. إنها مغرية تفوق الوصف حتى في جمال ثقافتها الغنية، ونصبها التذكارية الخيالية ومناظرها الطبيعية الخلابة. الهند هي أيضاً مكان للقسوة الاجتماعية الشديدة، والمعاناة الكبيرة، والمشكلات المخيفة فعلاً. هي تشكل نموذجاً لحالة ما بعد الحداثة، ويوجد في الوقت ذاته في كل لحظة من لحظات التاريخ البشري، وضمن سياق كل سرد منطقي علمي، وفلسفي، وديني عظيم جرى التعبير عنه بدقة، على الإطلاق.

وليس بالإمكان الإحاطة بالوحدة المتكاملة للهند في كتاب واحد بمفرده، لا سيما عندما تكون البلاد آخذة في التغيير بخُطا متسارعة مشهودة. إنه لأمر حتمي أن العديد من الأشخاص اللطفاء والجهود المهمة لم تجد لها مكاناً في هذه الصفحات. ومع ذلك وفي رحلتي إلى هند القرن الحادي والعشرين، التقيت أُناساً عاديين يتأقلمون مع ظروف غير عادية وأناساً ممن يمتلكون رؤية استثنائية ودافعاً استثنائياً وملتزمين بإحداث تحوّل في الهند، وهم بقيامهم بذلك، يحدثون تحوّلاً في العالم في حياتهم. وأملي أن تحمل قصصهم في مضمونها ما هو أكثر كثيراً من الحقائق التي أرويها، وإنه سيكون هناك في النهاية، شيء من الإنسانية الرائعة للهند ستحرك القارئ لكي يرى الهند ويرى عالمنا من زاوية جديدة.

كان ردالفعل الذي لقيته من الأشخاص الذين اتصلت بهم للمساعدة على إجراء الدراسات الخاصة بهذا الكتاب هائلاً تماماً. فهنالك حماسة مثيرة جداً إزاء النهضة

المذهلة للهند، وقلق عميق جداً إزاء التحديات الخطيرة التي تواجهها الهند، إلى حد أنه كان هناك مراراً وتكراراً أشخاص غرباء كلياً يفتحون لي قلوبهم، وبيوتهم، ودفتر الأسماء والعناوين الذي يخصهم من دون تردد. فإذا ما كنت ومن دون انتباه قد أغفلت ذكر أحد في كلمة الشكر اللاحقة فإنني أعتذر بصدق، وممتنة بالقدر نفسه.

لقد ألح عليَّ كريستوف جافريلو من مركز دراسات العلاقات الدولية في باريس بأن أحمل معي فكرة كنت أُشاطره إياها من أجل وضع كتاب عن «الهند العالمية»، إلى راجيش شارما من دار النشر الفرنسية «آكت سود» Actes Sud وكان راجيش مشجعاً بشكل بالغ -وظل كذلك من البداية إلى النهاية- وانطلق المشروع.

أريد أن أَشكر وبشكل خاص وكيلي، ستيرلينغ لورد، لكونه آمن بهذا الكتاب وآمن بي منذ البداية، ولأجل كل الدعم الذي قدمه. وعمل المحرر الذي أشرف على عملية تنقيح كتابي لدى مؤسسة سكريبنر اليكسيس غارغاليانو بجهد كبير مثلي تقريباً لكي يتيقن من أمر الانتهاء من وضع هذا الكتاب بالسرعة اللازمة، وحثني على استغلال مخزونات جديدة من الطاقة، ودفعني لكي أفهم بشكل أعمق، وأكتب بصورة أفضل عند كل خطوة. شكراً للدعم الرائع والجهد الشاق الذي بذلته سوزان مولداو، كيت بيتمان والفريق بأكلمه في مؤسسة سكريبنر: شكراً لكم. كما أود أن أشكر الأشخاص الذين ساعدوني في إجراء الدراسات والبحوث على كل جهودهم ومثابرتهم في عملهم: غاريما سينغ، توم اوغورزاليك، ميرون تيسفا مايكل وباتريشيا سوارت، التي شاركتني ما لديها من تصورات وآراء مفيدة عن موضوع صناعة الأفلام والأعمال الفنية الترفيهية الهندية وتكرمت بإجراء الاتصالات لربطي مع شركة «تونز» في مدينة ترايفاندروم. كذلك أُريد أن أشكر الأشخاص الذين قرؤوا مخطوطة الكتاب قبل طباعته: مارك ارونسون، إلياسا ايريس، جونا بلانك، مارينا بودوس، وميشيل واكر. وفي حين أنني أتحمل المسؤولية عن أي أخطاء أو معلومات ناقصة لم تنشر، فقد جعلت المعلومات الإضافية الصادقة والعملية التي حصلت عليها من هؤلاء الكتاب الرائعين والأصدقاء المتميزين، من هذا كتاباً أفضل كثيراً.

بالإضافة إلى العديد من الناس الذين تكرموا بمشاركتي حكاياتهم بسخاء والتوسع فيها، أودأن أشكرجودي كيلاتشاند من «الجمعية الآسيوية» العالمية، التي عرَّفتني على

العشرات من الأشخاص في الهند الذين أَصبحوا مرجعاً أساسياً بالنسبة للكتاب؛ وكان سريناث سرينڤاسان يدعمني بكل ما أوتي من حماسة. وقد عرفني أيضاً إلى أشخاص عديدين قمت بإعطاء نبذة عنهم أو الاقتباس منهم. وفي «مؤسسة الهند الأمريكية» بادر كل من براديت كاشيان، انجالي شارما وريماناندا إلى تقديم المساعدة دون أي تحفظ. ولم تتردد سريدار اينفار من منظمة TIE بإيصالي بالعديد من الأشخاص الذين باتت مساعدتهم أساسية. وكان كل من موليكا دوت، نيروبام باجباي ونصرت دوراني مفيدين للغاية. وأعطاني ريتشارد سيليست بعد مدة قصيرة لائحة أساسية بأشياء لها أهميتها، وجهت أعمال البحث التي قمت بها. وشاركني رون هيرا آراءه بشكل موسع. وحثني ستانلي وولبرت على كتابة الكتاب عندما كانت الفكرة في طور التشكل.

في الهند أود أن أشكر أسرتي لا سيما عمي وعمتي ديليب وديبتي كامدار. لقد شعرت بترحيب كبير وأنا أخرج من صالة الركاب القادمين على متن الرحلات الدولية في مطار دلهي بعد رحلة طويلة، مع رؤيتي لابتسامة عمي ومعرفتي بأن هناك وجبة طعام لذيذة وسريراً مريحاً بانتظاري في البيت. وفي بومباي قامت خالتي راما باريك، وابنة خالتي ريشما باريك، وعمتي يوشا كامدار، وخالي وخالتي هيمات وبادما كارا، قاموا جميعهم بتأمين مساندة وحسن ضيافة كلها محبة وحنان. ويضم الأصدقاء الذين استضافوني وقدموا لي الطعام والمبيت والتشجيع مالا وتجبير سينغ، راسيك وپانّا هيماني. وأعدّت لي عائلة صديقتي مينو ثارور من آل كورجيس في كالكوتا استقبالاً حاراً جداً بالفعل، وأطلعني أخوها سيكهار على العمل الرائع الذي كان يقوم به في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة في كالكوتا، وعرفني إلى سنجاي بهانسال، وجعلني على تواصل مع اينا بوري في دلهي، التي قدمتني إلى شانكار راو، الذي تولى الاعتناء بأمر إقامتي في مدينة حيدر آباد. أيضاً من المناسب تقديم الشكر إلى راكيش تشوبرا وغولشان لوثرا. كما أتاح لي آر. كي ميشرا فرصاً كثيرة.

ومن اللائق توجيه شكر خاص في باريس إلى كريستوف غيلموتو وأنييس زوبانوف اللذين أعطياني مفتاحاً لشقتهما مؤخراً، بعدما توقفت هناك مرات عديدة في طريقي من وإلى الهند؛ وإلى غبل كورتوا وجان داميان ثيوليبه، وانغريد جستين - ثيرواث. وفي لندن من الواجب تقديم الشكر إلى هيتيش وترابتي ميهتا، وإلى ايلا روتشيتان ميهتا. وفي الهند، لا بد

لي من أن أشكر بشكل خاص، على صداقتهم، وتوجيههم أو أفكارهم المفيدة، كلاً من كانتي باجپاي، ديليب تشيريان، جاي. بي داسوزا، ديليب داسوزا، آنيتا پاتيل ديشموك، ميناكشي غانغولي، كاران غروڤر، رامتشاندرا غوها، عابد حسين، برالاي كانونغو، غورميت كانوال، نآزنين كارمالي، براتاب بهانو ميهتا، آجاي ميهرا، روجر بيرييرا، سري رينغاناثان، نيليما روڤسن، ڤارون ساهني، موليكا سارابهاي، سمير ساران، ساتڤيك ڤارما، پاڤان ڤارما، هارجيڤ سينغ، جايوتسنا سينغ، ريتا سوني، وجايوتسنا اوپال.

أخيراً كان والدايّ يشجعاني على المضي في عملي إلى الأمام كما كانا يفعلان دائماً، في حين كانت أُسرتي الخاصة تتدبر أمرها مع سلسلة من الغيابات الطويلة والمتكررة لي عن المنزل، وبعدها مع أم وزوجة شاردة الذهن إلى حد بعيد. أتوجه إليهم بالشكر من أعماق قلبي على محبّتهم لي وعلى صبرهم وتحمّلهم.

ملاحظات

مقدمة: الحياة على كوكب الهند

1- «تراجع سمعة أميركة» تقرير مشروع بيو حول المواقف العالمية، مركز بيو للأبحاث، 13 حزيران،2006، http://pewresearch.org/reports/?ReportID=27

2- اي. شانكار «غضب مولا» صحيفة «انديا توداي» 9 كانون الثاني 2006.

3- ديان اي. لويس «مصانع التكنولوجيا الهندية تبحث عن الموهبة الأمريكية في الانعطاف نحو العقود الخارجية». صحيفة «بوسطن غلوب»، 30 أيار

articles2006 http://www.boston.com/news/world/asia

./India-tech-firms-seek-us-talent-in-offshoring-twist/ 30/05/2006

4-آلان اس. بلايندر «العقود الخارجية»: الثورة الصناعية الآتية؟ مجلة «فورين افيرز»، آذار/نيسان 2006،114؛ وكتاب رون هيرا وآنيل هيرا، استقدام أمريكة: ما سبب أزمتنا القومية وكيف بإمكاننا استعادة الوظائف الأمريكية؟

(نيويورك: دار آماكوم بوكس 2005AMACOMBooks) 44 - 48.

5- بلايندر: «العقود الخارجية»، 114.

6- كوتيّا سينها، «تقرير الأمم المتحدة ينتقد الهند بشدة على خلفية حوادث انتحار المزارعين». صحيفة «تايمز أوف انديا»، 24 أيلول 2006،

http://timesofindia.indiatimes.com/articleshow/2021582.cms

7- بيترووناكوت «فيروس اتش.آي.في، يهدد الاقتصاد في الهند: الوباء قد يقلص حجم النمو في البلاد على مدى السنوات العشر القادمة». صحيفة «وول ستريت جورنال»، 21 تموز 2006.

8- سوميني سينغوبتا، «رجال حرب العصابات الماويون يوسعون «الحرب الشعبية» في الهند. صحيفة نيويورك تايمز، 13 نيسان 2006
world/asia/13maoists.html?ex=130/13/04/http://www.nytimes.com/2006
.2580800&en=b397a84735c2f9cb&ei=5088&partner=rssnyt&emc=rss

9-جواهر لال نهرو، خطاب بمناسبة منح الهند استقلالها 14 آب. 1947.

10- واي.سي. ديفيشوور، «التحول الذي تحدثه شركة أي.تي.سي في الرؤية، والقيم، وتفعيل النشاط. (كلمة ألقاها رئيس مجلس الإدارة في الاجتماع السنوي العام الخامس والتسعين للشركة. 21 تموز، 2006)
http://www.itcportal.com/chairman_speaks/chairman_2006.html

الفصل الأول: هنود وأمريكيون

1-راجع كتاب سودهارشان كابور: تنشئة نبي: المواجهة الأفريقية-الأمريكية مع غاندي (بوسطن، بيكون برس 1992) أود أن أشكر مارك ارونسون لكونه أشار عليّ بهذا الكتاب، ولتزويدي بآراء ثمينة عن تاريخ الهنود والأمريكيين الأفارقة. وكان كتابه وعنوانه المؤقت «العرق: تاريخ فكرة؛ تعصب؛ خصلة رئيسة في الحضارة الغربية؛ وفي حياتي الخاصة»، كان عند كتابة هذه السطور على وشك الصدور عن دار نشر غيني سيو بوكس، سيمون وشوستر.2007.

2- المصدرنفسه، 3.

3- للحصول على سجل كامل بهذه الأحداث وغيرها من الصراعات السابقة للمهاجرين الهنود إلى الولايات المتحدة، راجع كتاب رونالد تاكاكي، «غرباء من شاطئ مختلف: قصة الأمريكيين من أصول آسيوية (بوسطن: باك باي بوكس Back Bay Books 1998).

4- باربره كيفيات: «مطاردة دولارات الديشي» مجلة «تايم»، حزيران 2005 //:http
.www.Time.com/time/insidebiz/article/0,9171,1079504,00.html

5- راجع موقع الرابطة الأمريكية للأطباء من أصل هندي، على الشبكة العنكبوتية http://www.aapiusa.org/index.aspx.

6- راجع موقع AAHOA على الشبكة العنكبوتية http://www.aahoa.com.

7- مايكل لويس، الجديد في الشيء الجديد: قصة من وادي السيليكون (نيويورك دبليو. دبليو. نورتون، 116، 2000).

8- راج جاياديف: المستثمرون الهنود في وادي السيليكون: أين أنت عندما يحتاجك مجتمع جنوب آسية؟ «باسيفيك نيوز سيرفيس» 23 تشرين الثاني، 2001، http://news.pacificnews.org/news/view_article.html?article_id=086aa5ac9c7a387d5c2fde13c60d03cb.

9- حسبما هي معلنة على الموقع الرسمي على الإنترنت لمنظمة المستثمرين الاندوس (TIE)، http://www.tie.org/Home/AboutTie/FAQs/index_html/view_document.

10- مقابلة مع دارشانا ڤي. نادكارني صحيفة «انديا كارانتس»، 26 آب 2006، http://indiacurrents.com/news/view_article.html?article_id=cf2ad5b8ba37ba14336ee664988da0ec.

11- المصدر نفسه.

12- جوستين هيبارد، «اللحاق بڤينود كهوسلا» مجلة «بيزنيس ويك»، 31 أيار 2005، http://www.tie.org/view_news?id_news=132.

13- دوغلاس وولر «الهند تعمل بأمانة وإنصاف» مجلة «تايم» 12 آذار 2006.

14- انغريد ثيرووث «العمل من أجل الهند أم ضد الإسلام؟ الاسلاموفوبيا داخل جماعات الضغط الأمريكية الهندية» (ورقة بحث غير منشورة، 9 أيلول 2005).

15- راجع موقع USINPAC على الشبكة العنكبوتية http://www.usinpac.com.

16- روبرت ام.هاثاواي «الشراكة الإستراتيجية الجديدة لواشنطن» حلقة بحث /538/http://www.india-seminar.com/2004.(2004)
20robert%20m.%20hathaway. htm%538

17- المصدر نفسه.

18- نقلها آلان كوبرمان من تعليق بعنوان «توحد المصالح الهندية الإسرائيلية» صحيفة «واشنطن بوست» 19 تموز، 2003.

19- راجع «الشركاء الاثنيون، الهنود، سكان جنوب آسية» صفحة الشبكة.

http://www.engagingamerica.org/ajc/ethnPartner/index.asp?partnerID=33.

20- www.usinpac.com/issue_details.asp?NEWS_ID=3.

21- تيد ماكُينا «جماعة أمريكية هندية تشجع تجارة الأسلحة النووية» مجلة «PRWeek» 27، تموز، 2006.

22-http://www.usindiafriendship.net/congress1/housecaucus/caucusonindia.htm

23- عزيز حنيفة توجيه نقد شديد إلى أعضاء الأحزاب الهندية في البرلمان. صحيفة «انديا ابرود» (الهند في الخارج) 6 أيار 2005، A6.

24- عزيز حنيفة «أعضاء الأحزاب الهنود في مجلس الشيوخ الأمريكي». 31 آذار، 2004. http://www.usindiafriendship.net/congress1/senatecaucus/senatecaucus.htm

25 مايكل فورسايث وڤيّنا تريهان، «بلومبيرغ نيوز». «أصدقاء في مواقع عليا» صحيفة «انترناشونال هيرالد تريبيون» 17 تموز، 2006.

26- فرح ستوكمان، «خطة تبادل تجاري ستسمح بمبيعات الأسلحة النووية إلى الهند؛ النقاد يعتبرون الصفقة سياسة خارجية سيئة» صحيفة «بوسطن غلوب» 3 تموز 2006.

27- المصدر نفسه.

28- فورسايث وتريهان «أصدقاء في مواقع عليا».

29- هل تمتلك شركتك إستراتيجية هندية؟ http://www.export.gov/indiamission/.

30- الأغنياء والفقراء والهوة المتباعدة بينهم. مجلة «الايكونوميست» 15 حزيران 2006، http://economist.com/world/displaystory.cfm?story_id=7055911

31- المصدر نفسه.

32- ستيفن غرينهاوس وديفيد ليونهارت «الأجور الحقيقية تفشل في التلاؤم مع الزيادة في الإنتاجية «صحيفة نيويورك تايمز»، 28 أب، 2006.

http://nytimes.com/2006/08/28/business/28wages.html?ex=1156910400&e
.n=0d0f34207633d3fc&ei=5070

33- شهادة رونيل هيرا، دكتوراة في الفلسفة، أمام لجنة المشروعات التجارية الصغيرة حول استثمار وظائف الخبرات العالية في الخارج 20 تشرين الأول، 2003.

.html.102003/http://www.ieeusa.org/policy/POLICY/2003

34- إد فراونهايم، «هموم الأجور تجدد المعارضة لمنح تأشيرة الدخول CENT News. H-1B. 6» com, تشرين الأول 2005.

http://news.com.com/Waging+battle+on+foreign+labor/2009_1022_3
5888772.html

35- بلايندر، «الاستثمارات الخارجية»، ورون هيرا وآنيل هيرا، كتاب «التعاقد مع أمريكية في الخارج: ما سبب أزمتنا القومية وكيف نستطيع استعادة الوظائف الأمريكية» (نيويورك: دار نشر48- AMACOM Book 44).

36- يتوفر عرض رسمي اقتصادي موجز لموقع مؤسسة إنصاف العلامات التجارية الهندية (IBEF) على الشبكة العنكبوتية http://www.ibef.org/economy/services.aspx.

37- هناك كتابان حديثان تجري قراءتهما على نطاق واسع يلخصان هذه الاتجاهات بشكل متعمق: توم فريدمان، «العالم مسطح» (نيويورك، فارار، شتراوس وجيرو، 2005) وكلايد بريستوفيتز «ثلاثة مليارات رأسمالي جديد: التحول الكبير للثروة والسلطة إلى الشرق (نيويورك: بيسك بوكس 2005).

38- «الانجراف شبه القاري: المزيد من الغربيين يقومون بتحسين خبراتهم بالعمل في الهند لفترة محددة» مجلة بيزنيس ويك، 16 كانون الثاني 2006
.http://www.businessweek.com/magazine/content/06_03/b3967085.htm

39- «الأجانب بيننا «صحيفة «تايم اوت مومباي»، «11 –14» آذار 2005. 20.

الفصل الثاني: المستقبل كما تتخيله الهند

1-«الأعمال الفنية الترفيهية ووسائل الإعلام» تقرير أعدته مؤسسة برايسووترهاوسكوبرز لصالح مؤسسة إنصاف العلامات التجارية الهندية (IBEF، نيودلهي) 7.

2- المصدر نفسه.

3- تغطي الأرقام عام 2002، من دراسة عن الاتجاهات في كوكب الأرض أعدتها مؤسسة «وورلد رسورسز»، 2003، http://earthtrends.wri.org/pdf_library/country_ profiles/pop_356.pdf.

4- هناك مصدر ممتاز للحصول على معلومات إضافية عن العلاقة ما بين التلفاز والعمل السياسي في كتاب أرفيند راجاغوبال، «السياسة بعد التلفاز: القومية الهندوسية، وإعادة تشكيل العامة في الهند» (كيمبردج: مطبوعات جامعة كيمبردج 2001).

5- للمزيد من المعلومات، راجع كتاب ميليسا بوتشر، «التلفاز الذي يتخطى الحدود القومية، الهوية الثقافية، والتغيير: عندما جاءت محطة «ستار» إلى الهند (نيودلهي، مطبوعات سايج، 2003).

6- للحصول على تحليل رائع لدور الإعلانات في تحديث الهند، راجع كتاب وليام ماتزاريلا: «جرف الدخان: صناعة الإعلان والعولمة في الهند المعاصرة» درهام ولندن، ديوك يونيفرستي برس، 2003.

7- «صناعة الوسائل الإعلامية والترفيهية الهندية: معرفة الإمكانيات، تقرير من إعداد مؤسسة FICCI وبرايسووترهاوسكوبرز، 12 آذار 2006، http://www.pwc.com/extweb/pwcpublications.nsf/docid/ BE7E56C3FF8E90A6CA257185006A3275/$file/Frames.pdf.

8- تي.ان.نينان «المشهد الإعلامي الهندي المتغير» حلقة بحث 561 (أيار 2006): 15.

9- «الترفيه ووسائل الإعلام» 26.

10- راجديب سارديساي «إبعاد الحدود» حلقة بحث 561 (أيار 2006).

11- «الترفية وسائل الإعلام» 26.

12- جوفري اي. فاولر، شركة «ديزني ستتملك قناة تلفزيونية هندية موجهة للأطفال» صحيفة «وول ستريت جورنال» 27 تموز، 2006.

13- ميليسا مار «أيها الأطفال، دعونا نستغل برنامجاً تلفزيونياً» صحيفة «وول ستريت جورنال»، 19 أيار، 2006، B1.

14- التلفزيون الهندي دوت. كوم مقابلة مع المدير التنفيذي لشركة وولت ديزني (الهند) راجات جين 30 آب 2005،

www.indiantelevision.com/interviews/y2k5/executive/rajat_ jain.htm

15- فاولر «شركة ديزني ستتملك».

16- جولييت بي. شور «خُلق للشراء» (نيوروك: سكريبنر، 2004) 9.

17- «الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية» USAID تجيء بالبرنامج التلفزيوني شارع سمسم إلى الهند»، النشرة الصحفية للوكالة USAID. 26 آب، 2005. راجع أيضاً «شركة تيرنر سوف تهيء أطفال الهند للاستعداد لبوغو» النشرة الصحفية لشركة تايم وورنر، 24 تشرين الثاني 2003.

18- غالي غالي سِم سِم (برنامج شارع سمسم الهندي) النشرة الصحفية للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID. 8 آذار،

http://www.usaid.gov./in/newsroom/press_releases/fs_ galli.htm 2006

19- «ورشة عمل برنامج سمسم وشركة تيرنر تتفقان على التعاون في إنتاج برنامج شارع سمسم في الهند «النشرة الصحفية لورشة عمل برنامج سمسم، 17 كانون الثاني، 2004

http://www.sesameworkshop.org/aboutus/inside_press.php?contentld=13411483

20- التلفزيون الهندي دوت. كوم. «مقابلة مع مدير برنامج «شارع سمسم الهند، شاسواتي بانرجي»، 27 تموز، 2006
http://www.indiantelevision.com/interview/y2k6/executive/sashwati_b.htm

21- البنك الدولي «الهند في لمحة» 21 حزيران، 2006،
http://devdata.worldbankorg/AAG/ind_aag.pdf.

22-رايان ديلي «هل ايلمو هو السلاح السري لبوش؟» مجلة «بي.بي.سي» نيوز ماغازين، 3 أيلول 2003. .http://news.bbc.co.uk/1/hi/magazine/3200699.stm

23- ديبورا سونتاج «اريد هويتي المركبة يا محطة ام.تي.ڤي» «نيويورك تايمز»، تموز، 2005.

24- «انطلاق مشروع الصرف الصحي لسكان الأحياء الفقيرة في مومباي في أنحاء البلاد» نشرة منظمة الصحة العالمية (2002):
http://www.who.int/bulletin/archives/80 (8)News.pdf .684

25- آلان دوتيشمان «هجوم أفلام الأطفال التي تنتجها شركة پيكسار» فاست كومباني 101 (كانون الأول 2005): 61.

26- المصدر نفسه.

27- «صناعة الألعاب والرسوم المتحركة تتيح للهند نمواً مرتقباً» «دراسة NASSCOM (ناسكوم)،2006،
http://www.nasscom.in/Nasscom/templates/Normal page.aspx?id=2004

28- روني سكروڤالا، «بيان رئيس مجلس الإدارة» UTVnet.com،
http://www.prdomain.com/companies/N/NASSCOM/newsreleases/
.200611229795.htmj

29- آرتي رازدون، «صناعة الرسوم المتحركة الهندية - تحليل»
exchange 4 .media.com,2004
http://www.exchange4media.com/e4m/izone1/izone_focus.asp?izonefocus_id=4

30- سوكانيا فيرما «هانومان متعة مفيدة» أفلام rediff.com.21 تشرين الأول،2005
http://in.rediff.comoct/21hanuman.htm./movies//2005.

31- مادانموهان راو «التسويق للشباب؟ اتجه نحو الهاتف الخليوي!»
.http://www.techsparks.com/Marketing-to-youth-get-mobile.html .

32- إحصاءات رابطة عمال مقاسم الهواتف الخليوية في الهند، http://www.coai.in/archives_statistics_2006-q2.htm. راجع أيضاً تقرير مجموعة أبحاث منطقة الباسفيك الآسيوية،http://www.aprg.com2006/;وتقرير ربطا اتصالات الهواتف الخليوية للهند مع قارة آسية: نظرة إلى عام 2007».
html.0026-http://www.mindbranch.com/products/R330.

33- «شباب الهواتف الخليوية 06» «تقرير المنتدى العالمي للاتصالات اللاسلكية».
http://www.w2forum.com/i/mobileYouth06-part-one.

34- أرقام من دراسة تبني استخدام الهواتف الخليوية أجرتها مؤسسة بيراميد ريسرتش BRICs.2005.www.pyr.com

35- تقرير اقتصاد المعلومات 2005 منظمة يونكتاد UNCTAD،
http://www.unctad.org/en/docs/sdteedc20051_en.pdf .

36- «استخدام الإنترنت في قارة آسية». www.internetworldstats.com

37- شركة ريلاينس انفوكوم تتعاون مع شركة ال.جي للالكترونيات لتسريع عملية استيعاب الإنترنت في الهند» النشرة الإعلامية لشركة ريلاينس انفوكوم 23 تموز، 2006.
http://www.relianceinfo.com/webapp/Infocomm/jsp/media/PressRelease.jsp?id=120

38- «النساء يتصدرن الإقبال الكبير على الإنترنت في المناطق الريفية في الهند» موقع بي.بي.سي على الإنترنت 7 تموز 2006.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/3871529.stm.

39- «الهند على الإنترنت 2006» تقرير مؤسسة جاكست كونسالت الاستشارية، ورد ذكره في كتاب سيفانتي نينات، «التفاعل التبادلي» صحيفة «هندو»، 16 تموز 2006.
http://www.hindu.com/mag/ 2006 / 07/ 16

40- مارك غلاسر «مدن هندية على وشك تقييد الدخول إلى مقاهي سايبر «نشرة انينبيرغ USC للصحافة الإلكترونية» 4 كانون الأول 2003.
www.ojr.org/ojr/glaser/1070576918.php.

41- «فرض غرامة على إسرائيليين لتبادلهما القبل بمناسبة زواجهما «بي. بي.سي نيوز»
http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/south_asia/4268058.stm.

42- سوريش نامباث «الحرية في خطر...» صحيفة «هندو» 27 تشرين الثاني 2005.
http://www.hindu.com/mag/2005 /11 /27/stories/2005112700360100.htm.

43- هل سعر أسهم شركة ريديف.دوت كوم مبرر؟ «الهند على الإنترنت 2006»
www.india.seekingalpha.com/article/14258. «الهند على الإنترنت 2006» تقرير جوكست كونسالت، ورد ذكره في دراسة استطلاعية: ياهو البوابة الأفضل، شادي وبي.ام يقترنان معاً».
http://www.contentsutra.com/juxtconsult-user-preference-survey-yahoo-top-portal-shaadi-and-bm-tie-in-matrimony.

44- دراسة حول المهاجرين الهنود - الأمريكيين أجراها عام 2004 و2005 بول آدامز وايملي سكوب، «استخدام الإنترنت والمواقف تجاه المحافظة على التراث بين الهنود الآسيويين في الولايات المتحدة». جامعة تكساس فرع اوستين. قسم الجغرافيا والبيئة،
www.utexas.edu/depts/grg/adams/356T/indianinternetsurvey.ppt.

45- لدراسة ممتازة عن مشاعر القلق التي تساور الهنود الأميركيين إزاء المسألة العرقية في الولايات المتحدة، راجع كتاب فيجاي برازاد، «قدر الناس ذوي السحنة السمراء» (مينيا بوليس: مطبوعات جامعة مينيسوتا، 2000).

46- سارة ماكبرايد وجو فري اي. فاولر «الاستديوهات تشهد ارتفاعاً كبيراً في أرقام الخسائر المتوقعة نتيجة قرصنة الأفلام السينمائية» صحيفة «وول ستريت جورنال»، 3 أيار 2006، B1

47- شريبا بوبنا فيلم «قراصنة الكاريبي ينال مقداراً من القرصنة»، صحيفة بيزنس ستاندرد»، 24 تموز، 2006.

http://www.business-standard.com/common/storypage.php?autono=9913.

.=7&leftnm=8&subLeft=0&chkFlg

48- نيت اندرسون، «ستوديوهات الأفلام توسع عملية التوزيع عبر الإنترنت، وتواصل حظر حرق أقراص الـ دي.ڤي.دي.» (آرس تيكنيكا، 11 تموز، 2006.

http://arstechnica.com/news.are/post/20060711 -7235.html.

49- اريكا مور في «هيولوود تقبل توزيع الأفلام السينمائية عن طريق الإنترنت» مجلة «تيك نيوز وورلد»، 3 نيسان 2006

www.technewsworld.com/story/media-convergence/49729.html.

50- «شركة ڤيرجن توسع مبادراتها الترفيهية بتشكيل ڤيرجن للمجلات المصورة وڤيرجن للرسوم المتحركة» النشرة الصحفية لمجلات «فيرجن المصورة 6 كانون الثاني 2006.

51- «الأعمال الفنية الترفيهية العالمية ونظرة وسائل الإعلام إليها»، 2006.2010 (وطبعة - 2005) تقرير مؤسسة برايسووترهاوسكوبرز.

http://www.pwc.com/extweb/industry.nsf/docid/E7376CAA22C3764085

;25662700504BD4

ومقتطفات مقتبسة من كتاب شيكار كابور «الصناعة الترفيهية الهندية: قصة النجاح الآتي» 24 تشرين الثاني، 2003.

http://weforum.org/en/knowledge/KN_SESS_SUMM_10232?url=/en/

knowledge/KN_SESS_SUMM_10232

الفصل الثالث: نظام البيع بالتجزئة في الهند

1- آنيوبام غوسوامي «المستهلكون الملفتون للأنظار صحيفة «بيزنس انديا» 9 نيسان، 2006،119.

2- ماليني بهوبتا «جنون المجمعات التجارية «صحيفة «انديا توداي» IndiaToday 7 تشرين الثاني 2005.

3- نفس المصدر 1.

4- « بالمجمل» نيسان 2006،123.

5- ستيفن روتش «هاقد أتى المستهلك الهندي» صحيفة «وول ستريت جورنال»،9تشرين الثاني، 2005.

6- ستيفن روتش، «بحثاً عمن ينفقون الأموال الطائلة» مجلة «نيوزويك انترناشونال»، 13 أيلول، 2006،

/http://www.msnbc.msn.com/id/1463748/site/newswddk/print/1
/displaymode/1098

7- بيتر ووناكوت. «انفتاح محافظ النقود على الشراء في الهند» صحيفة «وول ستريت جورنال» 3 كانون الثاني، 2006.

8- نفس المصدر: اتحاد غرفة التجارة والصناعة الهندية.

9- ووناكوت «انفتاح محافظ النقود».

10- «موتورولا تقرر اعتماد الهند مركزاً لأسواق النمو الاقتصادي السريع» على موقع الشركة على الشبكة العنكبوتية.

http://www.motorola.com/content.jsp?globalObjectld=6988.

11- سوشميتا تشودري «الهاتف الخليوي الهندي (التركيبة المتحركة للهند) صحيفة انديا توداي، 22 آب 2005 ص.29.

12- صناعة الهاتف الخليوي: «الهند تحذو حذو الصين» مؤسسة إنصاف العلامات التجارية الهندية http://ibef.org/download/mobiles.pdf

13- ارتفاع مبيعات الهند من جهاز الحاسوب المحمول «وكالة أنباء يونايتدبرس انترناشونال على موقع
http://www.physorg.com/printnews.php?newsid=10165 PhysOrg.com،

14- سيدهارث سريڤاستاڤا، «سوق الحاسوب الشخصي في الهند يشهد إقبالاً شديداً»، صحيفة «آسية تايمز»، 21 حزيران،2006.
http://www.atimes.com/atimes/South_Asia/HF21Dfo2.html.

15- «ارتفاع مبيعات الهند من أجهزة الحاسوب المحمول».

16- ساريتا راي «شركة ديل تسعى إلى مضاعفة قوة العمل الهندية والبحث عن موقع لإقامة معمل» صحيفة انترناشونال هيرالد تريبيون، 21 آذار 2006.
http://www.iht.com/articles/2006 /03 /20/business/jobs.php.

17- زيادة المبيعات السنوية من الحواسيب الشخصية ترتفع بنسبة 37%، وتصل إلى 2.3 مليون وحدة». عرض للأداء الصناعي لمؤسسة MAIT، أجراه مكتب أبحاث السوق الهندية، 29 حزيران 2006. التقرير الكامل متاح) على
http://www.imrbint.com/media/second-half.html.

18-سومنر ليمون«شركة لينفو تستعد للطفرة الهندية الكبرى،دائرة خدمة أنباء.IDG 30 أيلول، 2005.
http://www.infoworld.com/article/05HN1enovoindiapush_1.html/30/09/

19- اليزابيت كوركوران «بدء تهيئة الهند» فوربس. دوت كوم 19 حزيران، 2006.
http://www.forbes.com/business/global/2006 /0619 /020.html.

20- كيث برادشر «صعود طاقة الرياح» صحيفة «نيويورك تايمز»، 28 أيلول 2006.
http://www.nytimes.com/2006 /09 /28/business/worldbusiness/28wind.html.

21- نازنين كارمالي «رجل الرياح» فوربس، 6 حزيران، 2006.

http://www.forbes.com/business/global/2006 /0605 /042.html.

22- عبد الكلام، خطاب بمناسبة افتتاح مؤتمر الطاقة المتجددة لدول جنوب آسية» نيودلهي 18 نيسان 2006.

http://mnes.nic.in/president/splangnewPDF%2520format758.pdf.

23- كارمالي «رجل الرياح».

24- سريڤاستاڤا «سوق الحاسوب الشخصي يشهد إقبالاً شديداً في الهند» الكثير مما سلف مأخوذ من هذا المقال الذي يقدم الكثير من التفاصيل عن سوق الحاسوب الشخصي التي تتوسع سريعاً في الهند.

25- «مبيعات شركة فورد ستتضاعف في عام 2006؛ وأيقونة الغاز الطبيعي المضغوط بحلول شهر أيلول» صحيفة «هندوستان تايمز» 14 آب 2006.

http://www.hindustantimes.com/news/181_1764341,0002.htm.

26- مبيعات شركة جنرال موترز تسجل قفزة هائلة بنسبة 37 بالمئة.

http://www.hindu.com/2006 /08 /04/stories/2006080403961810.htm.

وجنرال موترز تستثمر 300 مليون دولار في مصنع السيارات في ولاية مهاراشترا «صحيفة هندو، 4 آب 2006.

http://www.hindu.com/2006 /08 /04/stories/2006080410301900.htm.

27- «شركة ماهيندرا توقع اتفاقية شراكة مع شركة رينو للسيارات -مشروع مشترك لتصنيع السيارات من طراز لوغان في الهند»- هندوستاني بيزينس لاين 2 شباط،2005.

28- راڤي كريشنان «طاقة الإنتاج القصوى للسيارات سوف تتجاوز المملكة البريطانية وكندا» صحيفة «فايننشال اكسبرس»، 12 آب 2006.

http://www.financialexpress.com/latest_full_story.php?content_id=137134.

29- آر.سريدهاران «مازال في موقع القيادة» صحيفة «انديا توداي 10 تشرين الأول، 2005.14.

30- تقرير أعده معهد آي.بي.ام للقيمة التجارية. واستشهد به صندوق أنصاف العلامات التجارية الهندية (IBEF) في «أسواق المستهلكين»
http://www.ibef.org/economy/consumermarket.aspx

31- روتش «هاقد أتى المستهلك الهندي».

32- كالا راو «تأملات في مخاطر الائتمان المصرفي» مجلة «بانكر» 3 تموز 2006.
http://www.thebanker.com/news/fullstory.php/aid/4090/Reflections_on_credit_risk.html

33- سارباجيت سين «المصارف تسارع لوضع حد للتخلف عن سداد ديون التعليم - ملاحظات على أوراق مرمزة، احتمال تطبيق نظام شريط الباركود على جوازات السفر، «بيزنيس لاين»، 4 كانون الأول 2005.
http://thehindubusinessline.com/2005/12/05/stories/2005120502660100.htm

34- «بناء الهند: آفاق أسواق العقارات في الهند» تقرير أعده قسم البحوث في مصرف دويتشه بانك 8 أيار 2006. http://www.dbresearch.com

35- نفس المصدر.

36- «مفاهيم وتعاريف» الهيئة الهندية للإحصاء
http://www.censusindia.net/2001housing/metadata.pdf#search=%22good%20livable%20dilapidated%20dwellings%20india%20definition%22.

37- ياسير أي بيتالوالا «العقارات الهندية: انتعاش أم افلاس»؟ CNNMoney.com 5 تموز 2006،
http://money.cnn.com/magazines/fortune/fortune_archive/2006/07/10/8380919/index.htm

38- مجمع آتريا التجاري: المحكمة ترغب في الحصول على أجوبة من الولاية، والمراقب الإداري للمجلس. صحيفة «ديلي نيوز آند اناليسيس» 18 تموز، 2006.
http://cities.expressindia.com/fullstory.php?newsid=193416

39- «شركة طيران ديكان تعرض أجور سفر أقل». صحيفة هندو، 23 كانون الثاني 2005، http://www.hinduonnet.com/2005/01/23/stories/2005012303410300.htm

40- «شركة طيران ديكان تبدأ بتسيير خدمة الرحلات اليومية إلى كوتشي» هندو، 27 أيلول، 2005. http://www.hindu.com/2005/09/27/stories/2005092717640300.htm

41- «شركة طيران ديكان تسير رحلاتها إلى كوتشي قريباً». صحيفة هندو. 15 أيلول، 2005، http://www.hindu.com/2005/09/15/stories/2005091503901900.htm

42- زبير أحمد، «برانسون في الهند - عرض للرحلات المتنوعة» نشرة أخبار «بي بي سي» / جنوبي آسية، 31 آذار 2005،
http://news.bbc.co.uk/2/low/south_asia/4397133.stm.

43- برافول باتيل، «قطاع الطيران - نظرة عامة»، المكتب الصحفي للمعلومات، حكومة الهند، 1 آب 2006.

44- «تقرير الثروة العالمية، 2005»، إعداد مؤسسة ميريل لينش وكابغيميني: تقرير العقود الخارجية للاستشارات التكنولوجية، متوفر على الإنترنت،
http://www.ml.com/media/48237.pdf .

45- «في القمة: تزايد عدد الهنود في قائمة أغنى الأغنياء» صحيفة بيزنس انديا، 9 نيسان 2006، 42-46.

46- سونيل جين «53.000 مليون روبية بحلول العام القادم» رديف دوت كوم، 17 تموز 2004. http://www.rediff.com/money/2004/jul/17rich.htm.

47- هيئة أسواق المشروبات: شركة كوكاكولا، تقرير عام 2005.
http://www.beveragemarketing.com/multiplebeverageasiagr.htm

48- «أمة من آكلي الوجبات الخفيفة: الوجبات الخفيفة ذات العلامة التجارية هي الآن الصنف الأسرع تطوراً بين السلع الاستهلاكية السريعة الانتقال FMCG في الهند. «تقرير مؤسسة اكنايلسن حول اتجاهات وتصورات السوق الإقليمية، حزيران 2005، .http://www2.acnielsen.com/news/20050600_in.shtml

49- راتنا بوهشان، «شركة فريتو- لاي ستقدم خدماتها إلى شركة ديشي للوجبات الخفيفة»، «هندو بيزنس لاين»، 2 تشرين الثاني، 2002.
http://www.thehindubusinessline.com/2002/11/08/stories/2002110802780100.htm

50- سوشمتيا تشودري «مستقبل مثير للشهية» صحيفة «انديا توداي» 15 أيار، 2006.

51- جون لاركن واريك بيلامي «شركة ريلاينس تستثمر (750) مليون دولار في عمليات البيع بالتجزئة في الهند» صحيفة وول ستريت جورنال، 24 كانون الثاني، 2006، http://online.wsj.com/article_print/SB113805841617554065.html.

52- مايكل باربارو: أرباح وول مارت تنخفض بنسبة 26% أول انخفاض لها في عشر سنوات «صحيفة نيويورك تايمز» 16 آب،2006.

53- نفس المصدر.

54- «وول-مارت تكثف تركيزها على الهند» «ايكونوميك تايمز» 14 آب، 2006.
http://economictimes.indiatimes.com/articleshow/1891029.cms.

55- ستيفن غرينهاوس «الدعوى تقول أن وول مارت متهاونة بشأن إساءة استخدام العمالة في الخارج». صحيفة «نيويورك تايمز»، 14 أيلول، 2006.

56- آدم ناغورني ومايكل باربارو «عين على الانتخابات، الديمقراطيون يترشحون بصفتهم عدواً لشركة وولمارت»، نيويورك تايمز 17 أب، 2006.
http://www.nytimes.com/2006/08/17/washington/17dems.html?ex=1157.860800&en=f81347ea7c40f3bc&ei=5070

57- المصدر نفسه.

58- «تقرير جديد يورد تفاصيل عن لجوء وول مارت إلى إساءة استخدام العمالة والتكاليف الخفية» نشرة صحفية، عضو الكونغرس جورج ميللر، لجنة التربية والقوة العاملة، مجلس النواب الأمريكي، 16 شباط 2004.
http://edworkforce.house.gov/democrats/releases/rel21604.html.

الفصل الرابع: 600,000 قرية

1- أسباب حوادث الانتحار: المزارعون الهنود اليائسون «فرونتلاين/وورلد PBC، 26 تموز 2005،
http://pbs.org/frontlineworld/rough/2005 /07/seeds_of_suicid.html.

2- http://andolan.blogspot.com.

3- «شركة مونسانتو ستتملك شركة دلتا وباين لاند مقابل 1,5 مليار دولار نقداً بي. آر. نيوزواير، 15 آب،2006.
http://www.monsanto.com/monsanto/layout/media/06 /08 -15 -06.asp.

4- مادهاف غادغيل وراماتشندرا غوها «علم البيئة والإنصاف» (لندن: روتليدج، 1995)،4.

5- ڤيڤك ديشباند «أنا أعلم مدى معاناتك» صحيفة «انديان اكسبرس، 1 تموز، 2006، http://www.indianexpress.com/story/7638.html.

6- سوميني سينغوبتا، «في مزارع الهند، وباء من حالات الانتحار» نيويورك تايمز، 19 أيلول 2006،

http://www.nytimes.com/2006/09/19/world/asia/19india.html?_r=1&n=
Top%2fReference%2fTimes%20Topics%2fPeople%2fS%2fSengupta
%2c%20Somini&oref=slogin

7- اليكس كوفنر، «أزمة المياه تعمق الشرخ بين المناطق الحضرية والريفية في الهند»، صحيفة «بروفيدانس جورنال»، 20 آب 2006.

8- براتاب راڤيندران «اقتصاد المياه في الهند - منهج العمل الذي وضعه البنك الدولي لا يؤدي إلى المحافظة على المياه» - «هندو بيزنس اونلاين»، 10 تشرين الأول،2005، /http://www.thehindubusinessline.com/2005/ 10 /11/ stories/ .htm.2005101100691000

9- ام. دينيش كومار وتوشآر شاه «تلويث المياه الجوفية والتلوث في الهند: التحدي البارز». IWMI البرنامج الإقليمي لجنوب آسية.

10- نفيسة باروت، قضايا مختصرة: مقاربة غاندية (محاضرة ألقيت في مؤتمر الحوار الدولي حول «المياه من أجل الغذاء والبيئة» هانوي، فيتنام. محاضرة غير منشورة موجودة في حوزة المؤلفة).

11- نفس المصدر،3.

12- غابي هينسليف، «3.68 تريليون جنيه استرليني، ثمن الفشل في التحرك لمواجهة التغيرات المناخية: تقرير بارز يكشف الثمن الهائل للاحتباس الحراري في العالم «مجلة الأوبزرفر، 29 تشرين الأول 2006.

http://observer.guardian.co.uk/print/0,,329613556 -102285,00.htm.

13- «حرارة الكرة الأرضية، الأعلى منذ آلاف السنين» وكالة اسوشيتدبرس، في صحيفة «واشنطن بوست»، 25 أيلول، 2006.

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006 /09 /25 AR2006092500786 _ pf.html

14-آل غور: الحقيقة المزعجة: حالة الطوارئ الكونية للاحتباس الحراري في العالم وما الذي بإمكاننا أن نفعله في هذا الشأن» (ايموس، بنسلفانيا: روديل، 2006)، 206.

15- «الطقس، المناخ، المياه والتنمية المستدامة» رسالة من السيد ام. جيرو، الأمين العام لمنظمة الأرصاد الجوية العالمية،

http://www.wmo.ch/web/Press/wmd-mes2005_E.doc.

16-«الطقس الحار مستمر: تقرير خاص حول التغيرات المناخية». مجلة «الايكونوميست» 15-9 أيلول، 2006.6.

17- «روبين ماكي: الملايين يواجهون كارثة جليدية، الاحتباس الحراري العالمي يصل هيمالايا» مجلة «صنداي اوبزرفر»، «الغارديان» 20 تشرين الثاني، 2005،

http://observer.guardian.co.uk/international/story/0,6903,1646656,00.html

18- التلوث بالمبيدات الحشرية: الاتجاهات ووجهات النظر «نشرة ICMR، 31، رقم 9 (أيلول 2001)، http://www.icmr.nic.in/bulletin.htm.

19- جيتندرا جوشي «الولايات المتحدة تحذر الهند من خروج الاستثمارات نتيجة النزاع بشأن شركتي كوك وبيبسي» موقع ياهو! 13 آب 2006.

http://uk.news.yahoo.com/13082006 /323warns-india-investment fallout-coke-pepsi-row.html-

20- اميليا جنتلمان «تهمة استخدام المبيدات الحشرية في الهند تلحق الأضرار بشركتي بيبسي وكوك» صحيفة «نيويورك تايمز»،22 آب،2006.

http://www.nytimes.com/2006/08/22/business/22cnd-coke.html?ex=115 .8120000&en=766036efc9086255&ei=5070

21- شيلبا كانّان، «شركتا بيبسي وكوك تتعرضان للهجوم»، بي.بي.سي. اونلاين،2 آب،2006، http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/523978.stm.

-22 كانت شركة «انرون» متورطة منذ سنوات في عملية بناء محطة للطاقة الكهربائية بالقرب من دهابول بولاية مهاراشترا قوبلت بمعارضة أشد، وتبين أنها لم تكن مجدية نوعاً ما. وزعمت الشركات المعنية وهي جنرال موتورز وبيكتل أنها تستحق

تعويضات من الحكومة الهندية. ساريتا راي، «الهند: مزاعم دهابول»، عرض موجز للمشروعات العالمية: آسية، صحيفة «نيويورك تايمز»، 23 أيلول، 2003،
http://query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9B02E3D61F3AF930A1575AC0A9659C8B63

23- «غيوم الظلم كارثة بهوبال بعد عشر سنوات» منظمة العفو الدولية 2004، .http://web.amnesty.org/pages/ec-bhopal-eng

24- ديڤندر كي. بومبلا «العادات الزراعية وتلوث المياه بمادة النترات» قسم الخدمة الخارجية لجامعة فيرجينيا الغربية،
http://www.caf.wvu.edu/~forage/nitratepollution/nitrate.htm.

25- «الغاز الطبيعي: إنتاج سماد النتروجين المحلي يعتمد على الغاز الطبيعي» «مكتب المحاسبة العامة في الولايات المتحدة، أيلول 2003،
http://www.gao.gov/new.items/d031148.pdf.

26- «الصورة في الهند» منظمة اليونيسيف. .http://www.unicef.org/india/nutrition.html

27- ساريتا راي: «الهند تستورد القمح بعد 6 سنوات من الانقطاع» صحيفة «انترناشونال هيرالد تريبيون»، 30 حزيران، 2006.

28- غارغي بارساي «وول- مارت، مونسانتو في مجلس إدارة المبادرة الزراعية الأمريكية الهندية»، 10 شباط 2006،
http://www.hindu.com/2006 /02 /10/stories/2006021007771200.htm.

29- كي، اس، جايارامان، الاتفاقية الموقعة بين الهند وشركة UW لاستخدام التكنولوجيا الحيوية في الزراعة تخضع لدراسة دقيقة، مجلة «نيتشر بيوتكنولوجي» 1 أيار 2006،
.http://www.nature.com/news/2006 /060501/full/nbt0506 -481.html

30- «مزارعو الأرز في الولايات المتحدة يقاضون شركة باير العلمية للمحاصيل الزراعية في قضية الأرز المعدل وراثياً «رويترز، 28 آب 2006،
http://today.reuters.com/News/CrisesArticle.aspx?storyId=N8S372113.

31- من موقع MSSRF على الشبكة العنكبوتية في:
http://mssfr.org/about_us/about_us.htm.

32- «الثورة الدائمة الخضرة للمجالس الشعبية لمعلمي الدين الهندوس»، صحيفة «ديكان هيرالد، 5 كانون الثاني 2006.

33- آشار كريشناكومار «مفهوم بشري مركزي» «فرونتلاين»، 17 العدد5 (آذار4-7، 2000)، http://www.hinduonnet.com/fline/fl1705 /17051170.htm.

34- السوامي [معلم الدين الهندوسي] يعمل لقيام ثورة خضراء أخرى في الأراضي الجافة»، «فايننشال اكسبرس» (مومباي) 16 تموز، 2006.
http://www.financialexpress.com/fe_full_story.php?content_id=134182.

35- راجع الدراسة الممتازة التي أعدها جيفري ويتزو «الثورة الخضراء الثانية للهند؟» الآثار الاجتماعية السياسية للنمو الزراعي الذي تقوده الشركات التجارية، «الهند في طور التحول»: اقتصادات وسياسات التغيير، طبعة ديريش كابوا، المركز الهندي للدراسات المتقدمة، جامعة بنسلفانيا، خريف عام 2006.

36- راڤي آنيوبندي واس. سيڤاكومار «أكشاك الإنترنت التي أقامتها شركة تبغ الهند: خطة إستراتيجية لعملية التحول في المناطق الريفية» (ورقة بحث قدمت إلى مؤتمر الحلول التي تطرحها المؤسسات التجارية للقضاء على الفقر، (BSAP) معهد المشروعات الاجتماعية، كلية الإدارة التابعة لجامعة هارفرد، 3 كانون الأول، 2005 قدمها لي اس.سيفاكومار).

37- المصدر نفسه، 2.

38- اناند غيريدهاراداس «ينمو في الهند: غذاء من أجل العالم». صحيفة «انترناشونال هيرالد تريبيون.31 أيار، 2006.

39- المصدر نفسه.

40- المصدر نفسه.

41- كان هذا أحد الموضوعات التي عالجها كتابي وشوم موتيبا: «رحلة حفيدة من أمريكة إلى داخل ماضي أسرتها الهندية» (نيويورك، بلوم 2001).

الفصل الخامس: المدن

1- قسم السكان التابع لدائرة القضايا الاقتصادية في الأمانة العامة للأمم المتحدة، 2004، http://www.unpopulation.org

2- اهتاشام خان «الأمم المتحدة توجه انتقادات قاسية إلى الهند لقيامها بهدم الأحياء الشعبية الفقيرة «ريديف. دوت كوم. 30 آذار، 2005.

http://in.rediff.com/cmc/print.jsp?docpath=//news/2005/mar/30un.html.

3- تتوفر نسخة من كلمة رئيس الوزراء على الشبكة العنكبوتية على موقع برنامج جواهر لال نهرو الوطني لتحديث المناطق الريفية: http://pmindia.nic.in/speech/content.asp?id=235.

4- «الهند: قضايا بيئية»، عرض موجز للدراسات التحليلية للبلاد، الإدارة الإعلامية للطاقة، وزارة الطاقة، http://www.eia.doe.gov/emeu/cabs/indiaenv.html.

5- تارا ساهغال، «حالة الطوارئ العمرانية» صحيفة «تايم اوت» مومباي، 26 آب، 2005.25.

6- جو جونسون. «مدينة قصوى» عند حدودها النهائية: «لماذا يكمن أفضل أمل للهند في عملية إعادة البناء»، صحيفة «فايننشال اكسبرس 26 آب 2006.

7- آر.بادمانابان «إدانة شركة شيفا سينا «فرونتلاين 15 رقم العدد 17 (15-18 آب، 1998). http://www.hinduonnet.com/fline/fl1517/15170200.htm.

8- ديليب بادغونكار «عندما احترقت بومباي UBSCD» كانون الثاني 1993.

9- آنوباما كاتاكام «كله من أجل عامل البناء» فرونتلاين 23 رقم العدد6 (آذار 25 – نيسان 7.2006)

http://www.hinduonnet.com/fline/fl2306/stories/20060407003003800.htm

10- «بومباي تواجه طفرة سكانية» «بي.بي.سي نيوز 30 كانون الأول.2000.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/1093424.stm.

11- أفضل صورة عن بومباي بكل تناقضاتها المحبوبة والمكروهة يعكسها كتاب سوكيتو ميهتا «المدينة القصوى: بومباي المفقودة والمستردة» (نيويورك: نويف، 2005).

12- سوميت بهاتاتشاريا «مومباي 2020، حلم أم كابوس؟» رديف دوت كوم، 7 كانون الثاني، 2005.

13- فايننشال اكسبرس 7 تشرين الثاني 2004. وردت في ورقة بحث أعدها نيكيل اناند: «فصل الخبرة: إنشاء طرقات عالمية في مومباي» قدمت إلى ندوة بريسلاور: الحق في المدينة وسياسات المكان، جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 14 نيسان، 2006.

14- «الشراكة الاقتصادية الإستراتيجية الهندية-الأمريكية» منتدى المدراء التنفيذيين في الهند والولايات المتحدة، آذار 2006، التقرير متوفر على موقع هيئة التخطيط الهندية الحكومية على الشبكة العنكبوتية:
http://planningcommission.nic.in/reports/genrep/USIndia.pdf#search=%2 2mumbai%20hnancial%20capital%20us%20india%20ceos%22

15- كافيثا أير «شركات دبي وكوريا تراقب فطيرة دهارافي الجديدة»، اكسبرس انديا دوت. كوم، 10 حزيران 2006.
http://cities.expressindia.com/fullstory.php?newsid=188563.

16- سميتا ديشموك «حي دهارافي الشعبي الفقير هو الآن منجم ذهب حقيقي» ديلي نيوز آند أنا ليسيس، 30 كانون الثاني 2006.
http://www.dnaindia.com/dnaPrint.asp?NewsID=1010214&CatID=1.

17- من مقطع «تميز المناطق الاقتصادية الخاصة في الهند «على موقع (شركة مهاراشترا للتنمية العمرانية والصناعية المحدودة). http://cidcoindia.com/sez.htm.

18- جو جونسون «توجيه إنذار إلى الهند حول المهل الضريبية الممنوحة للصناعة» «فايننشال تايمز» 2-3 أيلول 2006.5.

19- راجع موقع Pratham (پراثام) على الشبكة العنكبوتية، www.pratham.org

20- نانديني راغاڤيندرا وغوري شاه «اجعل طريقك إلى جامعة هارفرد أكثر سهولة» ايكونوميك تايمز اونلاين 19 نيسان 2005،

http://economictimes.indiatimes.com/articheshow/msid-1081428,prtpage-.1.cms

21- «الحملة العالمية للتعليم: الحاجة إلى مزيد من المدرسين» منظمة اليونيسيف، الهند، http://www.unicef.org/india/education_1551.htm.

33- النشرة الدورية للسياحة الهندية حزيران 2006.

http://evalu8.org/staticpage?page=review&siteid=10207.

23- «دلهي ستصبح مدينة من طراز عالمي في السباق إلى دورة الألعاب الرياضية لدول الكومنولث: CM «تريبيون نيوز سيرفيس، 25 كانون الثاني، 2006.

www.tribuneindia.com/2006 /20060126/delhi.htm#3.

24- للحصول على تقرير عن هؤلاء القادمين إلى دلهي والمدن الكبرى للعالم النامي التي تشهد تطوراً سريعاً، راجع كتاب مايك ديڤنر «كوكب الأحياء الفقيرة» (نيويورك: ڤيرسو 2006)،

25- رانديب راميش «خطة الأحلام في بومباي تبتز الفقراء» صحيفة «غارديان» 1 آذار، 2005. تقرير أعده ميلون كوتهاري، المقرر لخاص للأمم المتحدة حول الإسكان اللائق. صحيفة «يو.ان.كرونيكل» UN chronicle. تتوفر نسخة الإنترنت على:

http://www.un.org/Pubs/chronicle/2006/issue1 /0106p44.html.

26- ويليام دالريمبل: المغولي الأخير: أفول سلالة حاكمة، دلهي 1857 (لندن: بلومزبيري،2006) للحصول على مذكرات رائعة عن قضاء عامٍ في دلهي تتداخل مع رحلة خيالية في أعماق تاريخ دلهي، راجع كتاب دالريمبل «مدينة الجن: عام في دلهي» (لندن: هاربر كولينز، 1994. لندن. بنغوان، 2003).

27- سنجاي. كي سينغ «عرض لوسائل النقل في المناطق العمرانية في الهند» «صحيفة (جورنال اوف ببليك تراسبورتيشن) 8 العدد1 (2005):85

28- جي.بي.دسوزا «بومباي الجديدة» صحيفة «تايم آوت بومباي» 29 تموز 11- آب 2005.24.

29- جونسون «مدينة قصوى».

الفصل السادس: الهند الأخرى

1- للحصول على تحليل رائع عن المجتمع الهندي بما في ذلك قضية المكانة الاجتماعية راجع كتاب باڤان كي.ڤارفا، «أن تكون هندياً»: حقيقة الأسباب التي ستجعل من القرن الحادي والعشرين القرن الهندي (نيودلهي ونيويورك: بنغوان، 2004).

2- كريستوف جافرلو «تأثير العمل الإيجابي في الهند. سياسي أكثر منه اجتماعي – اقتصادي «انديا ريڤيو» 5، العدد2 (نيسان 2006): 173-89.

3- پرافول بيدوي «إدخال الطوائف المنبوذة في المجتمع، صحيفة «آسية تايمز»، 2 حزيران، 2006.

http://www.atimes.com/atimes/South_Asia/HF02Df01.html.

4- سودها راما تشاندران «نظام الطوائف الاجتماعي هو الحكم بالنسبة للمؤسسات الهندية» آسية تايمز 29 نيسان، 2006.

http://www.atimes.com/atimes/South_Asia/HD29Df04.html.

5- «ليس لدينا أوامر بإنقاذكم: مشاركة حكومة الولاية وتواطؤها في العنف الطائفي في غوجارات الهندية» منظمة هيومان رايتس ووتش 14 العدد 3 (نيسان، 2002).

6- دانييل غولدن «ساحة معركة جديدة في حروب الكتب المدرسية: الدين في التاريخ» «وول ستريت جورنال»، 25 كانون الثاني 2006.

http://online.wsj.com/public/article/SB113815619665855532-q_QXocYr ;PdQxU5EI71CdSziI1xw_20060203.html?mod=blogs

وسودارشان بادمانابان «مناظرة حول تاريخ الهند: إعادة النظر في الكتب في كاليفورنيا» صحيفة «ايكونوميك آند بوليتيكل ويكلي»، 6 أيار، 2006.

http://www.epw.org.in/showArticles.php?root=2006&leaf=05&filename=10046&filetype=html.

7-آليكس پيري، «الاثنين الدامي، فيما تعاني بومباي من آخر انفجار في سلسلة من انفجارات القنابل المميتة، الشبهات تتركز حول الإرهابيين المسلمين المحليين أثارت غضبهم القومية الهندوسية» مجلة «تايم آسية»، 1 أيلول، 2001،

http://www.time.com/time/asia/magazine/printout/0,13675,501030908-480330,00.html.

8-«الهند: الإفلات من العقوبة يشعل فتيل النزاع في جامو وكشمير؛ استمرار الانتهاكات التي يرتكبها الجيش الهندي والميليشيات، بسبب عدم إنزال العقوبة بحق مرتكبي الجرائم»، منظمة هيومان رايتس ووتش، 12 أيلول، 2006.

http://hrw.org/english/docs/2006/ 09 /08/india14159.htm.

9- سوميني سينغوبتا. «عقوبة الإعدام في الهجوم الإرهابي يضع الهند على المحك «نيويورك تايمز، 10 تموز، 2006.

http://travel2.nytimes.com/2006 /10 /10/world/asia/10india/html?fta=y

10- فيليب شيرسون ومارك مازيتي «دراسة عن الحرب في العراق والإرهاب تثير رد فعل سياسي قوي» نيويورك تايمز، 25 أيلول 2006.

http://www.nytimes.com/2006 /09 /25/world/middleeast/25terror.html

11- كريس هيدجز «الحرب قوة تعطينا معنىً» (نيويورك: آنكور بوكس،2002)،9.

12-الأرقام التقديرية لعدد العمال الأطفال تختلف كثيراً من 14 مليون إلى 100 مليون وذلك يعود أساساً إلى كون عملية حسابها صعبة جداً، راجع كتاب فيبين بيهاراتي «بلاء عمل الأطفال في الهند». المعهد الفنلندي للصحة المهنية.

http://www.ttl.h/Internet/English/Information/Electronic+journals/Asia-Pacific+Newsletter/2000/02-04.htm

راجع أيضاً تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي حول الهند على:
http://www.undp.org.in/report/POSITION/CCA.htm.

13- لجأت إلى تغيير اسم سوماتي حماية لخصوصيتها وقد زودتني بقصتها ريما ناندا مديرة برنامج الصحة العامة - الايدز، نيويورك، مؤسسة الهند الأمريكية، من تقارير غير منشورة لأمثلة تقوم فيها برامج تدعمها المؤسسة بالتأثير في حياة الناس. إنني ممتنة جداً لريما لمشاركتي هذه الرواية.

14- مجلس المعلومات القومي الأمريكي «الموجة القادمة من ڤيروس اتش أي في/الايدز: نيجيريا، اثيوبيا، روسية، الهند، والصين»، 2002.

15- نيقولاس ايبرشتات «مستقبل الإيدز» مجلة «فورين افيرز» ForeignAffairs.

16- اميليا جنتلمان «الهند: التقرير يقول أن مرض الإيدز قد يعيق الاقتصاد» نيويورك تايمز، 21 تموز 2006.

17- «الإيدز في الهند «بيان معلومات حول السياسة المتبعة للتصدي لمرض الإيدز» مؤسسة هنري جي. كايزر، أيلول، 2006.

18- الدكتور سانجاي بوجاري في صفحة موقع «TreatAsia» : عيادة روبي هول، پيون، الهند»، شبكة العيادات والمستشفيات والأبحاث التي تعمل مع منظمات المجتمع المدني؛ [اسم الشبكة TreatAsia: مشتق من الأحرف الأولى لخمس كلمات تعني فن المداواة Therapeutics، البحوث Research، التعليم Education، الايدز Aids، التدريب Training (المترجمة)]. تقرير شبكة «TreatAsia 4»، العدد1 (شباط 2006).

19- محاضرة ألقيت في مقر «مؤسسة الهند الأمريكية» نيويورك، 20 تموز،2006.

20- ساميتا جاين «إحضار الڤيروس إلى البيت» صحيفة هندو، 27 تشرين الثاني، 2005.

21- جوناثان آلن، الشركات الهندية تتنبه لتهديد ڤيروس اتش.آي.ڤي. وكالة رويترز، 14 تموز،2006،
http://today.reuters.com/news/articlenews.aspx?type=healthNews&storyID=2
.14T121203Z_01_DEL89591_RTRUKOC_0-US-INDIA-HIV.xml-07-006

22- سوامي اغنيفيش، راما ماني، وانجيليكا كوسترلوساك. مفقودة: «50 مليون فتاة هندية» صحيفة انترناشونال هيرالد تريبيون، 25 تشرين الثاني 2005.
www.iht.com/articles/2005 /11 /24/opinion/edswami.php
الخبير السكاني الفرنسي كريستوف غيلموتو يجادل في صحته، ويحدد العدد برقم مثير للقلق يصل إلى 40 مليوناً.

23- باتريشيا لايدل «الربيع الصامت: مأساة بنات الهند اللواتي لم يبصرن النور إطلاقاً» موقع صندوق الأمم المتحدة للسكان على الشبكة العنكبوتية:
http://www.unfpa.org/news/news.cfm?ID=690.

24-وزارة العمل الأمريكية. مكتب شؤون العمل الدولي «الهند: مدى تأثير وطبيعة عمل الأطفال» http://www.dol.gov/ilab/media/reports/iclp/tda2004/india.htm.

25- معارضة الاتجار غير المشروع – حركة انقذوا أخواتنا (اس.أو.اس) منظمة «انقذوا الأطفال، الهند»
http://www.savethechildrenindia.com/antitrafficking.htm.

26- نيقولاس.دي كريستوف. «العبودية في عصرنا» صحيفة نيويورك تايمز 22 كانون الثاني 2006، http://select.nytimes.com/2006/01/22/opinion/22kristof.html.

27- «تحسين صحة النساء في الهند» خلاصة لما ينشره البنك الدولي»
http://www.worldbank.org/html/extdr/hnp/population/iwhindiaa.htm.

28- من اروغيا راكشا يوجانا: «ضمان الرعاية الصحية الميسرة» من منشورات مؤسسة أروغيا راكشا يوجانا، بنغالور، الهند.

29- آميتاب آڤاستي، «يقول العلماء أن شلل الأطفال يحقق عودة سريعة؛ ويطرح خطر تحوله إلى وباء» «ناشونال جيوغرافيك نيوز»، 12 أيلول، 2006،
http://news.nationalgeographic.com/news/2006 /09 /060912-polio.html

30- انفلونزا الطيور بيانات محدثة، 18 أيار، 2006، سفارة الولايات المتحدة نيودلهي، الموقع على الشبكة العنكبوتية، http://newdelhi.usembassy.gov/acsinfluenze.html.

31- كريستان كروفورد «وكالات السياحة الطبية تنقل العمليات الجراحية إلى ما وراء البحار «برنامج شبكة سي. ان.ان المال» 3 آب، 2006،
http://money.cnn.com/2006/08/02/magazines/business2/medicaltourism.
.biz2/index.htm

الفصل السابع: النفوذ

1- للحصول على مقالة متميزة عن اختبارات عام 1998 راجع كتاب أميتاف غوش «العد العكسي» (دلهي: راڤي دايال، 1999).

2- «معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام»: Stockholm International Peace Research Institute الكتاب السنوي للمعهد (SIPRI 2006): عمليات التسلح، نزع السلاح والأمن الدولي (لندن، مطبوعات جامعة أوكسفورد 2006).477-80.

3- ثوم شانكار، «روسية قادت مبيعات السلاح إلى العالم النامي في 05» صحيفة نيويورك تايمز، 29 تشرين الأول 2006،
http://www.nytimes.com/2006/10/29/world/europe/29weapons.html?th&emc=th

4- راجع كتاب سوميت غانغولي: نزاع لاينتهي: العلاقات الهندية - الباكستانية منذ عام 1947 (نيويورك، مطبوعات جامعة كولومبيا 2002).

5- للحصول على تقرير أولي عن هذه الفترة راجع كتاب ستروب تالبوت، «إشغال الهند: الدبلوماسية، الديمقراطية، والقنبلة» (واشنطن دي.سي: معهد بروكينغز 2004).

6- الرئيس بيل كلينتون، ملاحظات للرئيس الأمريكي بيل كلينتون أمام الجلسة المشتركة للبرلمان الهندي 22 آذار، عام 2000 نيودلهي، الهند،
http://www.indianembassy.org/indusrel/clinton_india/clinton_parliament_
march_22_2000.htm

7- أدين بالكثير من القدرة على معرفة أمور السجل المبكر لإدارة جورج دبليو بوش والهند، إلى جونا بلانك عضو الهيئة الإدارية، لجنة العلاقات الخارجية، مجلس الشيوخ الأمريكي.

8-عزيز حنيفة «عضو الكونغرس الأمريكي يتعهد بتعطيل إقرار اتفاقية الأسلحة النووية» ريديف دوت كوم، 3 آذار، 2006،

http://www.rediff.com/news/2006/mar/03bush10.htm.

9- جورج بيركوفيتش القنبلة النووية الهندية: تأثيرها على انتشار الأسلحة النووية في العالم (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا، 1999).

10- جورج بيركوفيتش «وعود زائفة: الاتفاقية النووية الأمريكية الهندية». مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي، أيلول 2005،

www.carnegieendowment.org/fieles/PO21.Perkovich.pdf.

11- غلين كيسلر، «نان يحث الكونغرس على فرض شروط حول المعاهدة النووية الهندية الأمريكية»، صحيفة «واشنطن بوست» 21 آذار 2006، A09.

12-تي. ڤي بادما «العلماء الهنود يعارضون التعديلات الأمريكية على الاتفاقية النووية» SciDev.net،15 آب 2006.

http://www.scidev.net/News/index.cfm?fuseaction=readNews&itemid=304 .9&language=1

13- كارول جياكومو «الولايات المتحدة تفرض عقوبات على شركتين هنديتين لقيامهما بنقل أسلحة إلى إيران «وكالة رويترز، واشنطن بوست دوت كوم، 27 تموز 2006،

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006 /07 /27 AR200672701152_pf.html

14- سوميني سنغوبتا، ساهم هاري في كتابة تقرير إخباري بعنوان «امتحان صداقة للزعيم الهندي» صحيفة نيويورك تايمز، 24 تموز 2006،

http://select.nytimes.com/search/restricted/article?res=F40D10F83F5B0C778EDDAE0894DE404482

15- المصدر نفسه.

16- الهند تحمّل الولايات المتحدة مسؤولية فشل محادثات منظمة التجارة العالمية (WTO)، «صحيفة «هندو»، 26 تموز، 2006،

http://www.hindu.com/2006 /07 /26/stories/2006072607061200.htm

17- مانموهان سينغ بيان لرئيس الوزراء في القمة الرابعة عشرة لرؤساء دول عدم الانحياز، هافانا، كوبا، 15 أيلول، 2006، نشرة صحافية، سفارة الهند،

http://www.indianembassy.org/newsite/press_release/2006/Sept/5.asp.

18- مانموهان سينغ «الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزراء في الجلسة العامة لمنظمة إبسا IBSA، مدينة برازيليا، 13 أيلول، 2006.

http://www.indianembassy.org/newsite/press_release/2006/Sept/4.asp.

19- وون – جي بارك «الهند تتقدم في المنافسة على النفط الروسي» نشرة الطاقة، 4 شباط 2005، http://www.energybulletin.net/4246.html.

20- جيهانغير، اس.بوتشا «الصين والهند على وشك إبرام صفقة نووية» صحيفة «بوسطن غلوب»، 20 تشرين الثاني،2006،

http://www.boston.com/news/world/asia/articles/2006/11/20/china_and_;/india_on_verge_of_nuclear_deal

ومقال مارك ساپنفيلد وديفيد مونتيرو «الصين تتودد إلى الهند وباكستان» بالخبرة النووية «صحيفة كريستيان ساينس مونيتور» 21 تشرين الثاني 2006،

http://www.csmonitor.com/2006 /1121/-012 -2-woap.html.

21- ساپنفيلد ومونتيرو «الصين تتودد إلى الهند وباكستان بالخبرة النووية».

22- تشيدهاناند راجغاتا، «سلاح الجو الهندي القديم يسقط أحدث أسلحة سلاح الجو الأمريكي. صحيفة «تايمز اوف انديا»، 18 حزيران، 2004،

الخلاصة: مصير العالم من مصير الهند

1- ليسلي واين «المبيعات الخارجية لشركات صناعة الأسلحة الأمريكية تتضاعف خلال عام»، صحيفة «نيويورك تايمز»، 11 تشرين الثاني، 2006،

http://www.nytimes.com/2006/11/11/business/11military.html?ex=132090.1200&en=89a9de2e9f22613b&ei=5088&partner=rssnyt&emc=rss

كما أود أن أشكر زميلي القديم في «معهد السياسات العالمية»، بيل هارتونغ، الذي جرى الاستشهاد بكلامه في هذا المقال، على آرائه المتميزة حول مبيعات الأسلحة الأمريكية.

لمحة عن المؤلفة

ميرا كامدار، زميل مشارك في «الجمعية الآسيوية»، قدمت تعليقات عديدة عن الهند لصالح منافذ إعلامية مختلفة مثل هيئة الإذاعة البريطانية بي.بي.سي. شبكة CNN للتلفزة، الإذاعة الرسمية الوطنية NPR، صحيفة «انترناشونال هيرالد تريبيون»، وصحيفة «لوس انجلوس تايمز». حازت على جائزة التأليف عن كتابها «وشوم موتيبا» الذي يروي سيرة حياة أسرتها الهندية، وهي تعيش في نيويورك مع زوجها وولديها.

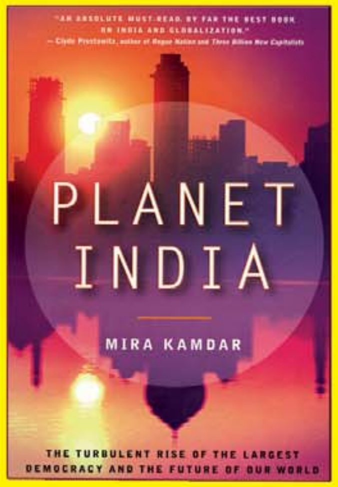

الهند موجـودة في كل مكان: في نشرات الأخبار، في دور السينمـا، في المكاتـب وفي مبنـى كابيتـول هيـل «مجلس النواب الأميركي».

تحكي ميرا كامدار من خـلال تقرير إخباري دقيق وتحليل إيضاحـي ثاقب، القصة المثيرة للمحاولة التي تبذلها الهنـد بهدف تحويل نفسها من دولة نامية إلى كيـان ذي طاقة عظيمة وتأثير كبير. وهي تطلعنا على الرؤيـة الإستراتيجيـة الجديدة لأمـيركا تجاه الهند، وتعرّفنـا علـى مجتمـع الأميركيين من أصـول هندية الـذي يزداد نفـوذاً وتأثيراً. كمـا تأخذنا إلى داخـل الهند، فتخبرنا بأمـور شتى عن النـاس، والشـركات، والسياسـات، والتحديـات التـي سوف يكـون لها بالـغ الأثر في مستقبلنا.

إنـه كتـاب لا غنى عنه، مثـير للاهتمام، ويأتـي في الوقت المناسـب تماماً. (كوكب الهند) هو الكتاب الذي يفتح آفاقاً جديدة ويقول لنا بالضبط مدى خطورة الرهانات، وما الخسائر وما الأرباح التي تنطوي عليها نهضة الهند التي تخطف الأبصار.

مـيرا كامـدار: هي زميل في هيئـة (برنامج بيرنـارد شوارتز) التابـع (للجمعية الآسيويـة) وزميـل قديم في (معهـد السياسات العالمية)، حازت علـى جائزة التأليف عن كتاب (وشوم موتيبا) الذي يروي سيرة حياة أسرتها الهندية.

ISBN:978-9960-54-896-8
9 789960 548968

موضوع الكتاب: الهند- الأحوال الاجتماعية

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com